

ستيفن رانسيمن

تاريخ

الحملاّت الصليبية

٢- مملكة القدس

الجزء الثاني

جمعة
بن خليل



تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجي

١١٠٠ - ١١٨٧ م

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجي

١١٠٠ - ١١٨٧ م



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

ترجمة

نور الدين خليل

فهرس المحتويات

المحتويات

١١	مقدمة
٢٣	مقدمة المؤلف
	الباب الأول: إنشاء المملكة
٢٩	الفصل الأول: مملكة ما وراء البحار (أوترمييه) وجيرانها
	أرض فلسطين - الاحتياج إلى ميناء بحرى - إمارة أنطاكية - إمارة الرها - المدن الإسلامية الساحلية - الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية - بيزنطة - مشاكل بالدوين
٤٧	الفصل الثاني: الحملات الصليبية سنة ١١٠١ م
	١١٠٠م اللومبارديون يجتمعون - ١١٠١م اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية - ١١٠١م معركة مرسيفان - ١١٠١م نتائج معركة مرسيفان - ١١٠١م الحملة الصليبية الفرنسية - ١١٠١م الحملة الصليبية الأكيانية - ١١٠١م معركة هرقله - ١١٠٢م اعتنال الكونت ريموند
٦٣	الفصل الثالث: أمراء أنطاكية النورمانديون
	١١٠١م تنكريد وبيزنطة - ١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس - ١١٠٢م بلدوين الثانى يرهن بلحيته - ١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند - ١١٠٤م أهمية حران - ١١٠٤م كارثة حران - ١١٠٤م بوهيموند وتنكريد يتركسان بلدوين أسيرا - ١١٠٤م بوهيموند يرحل إلى الغرب - ١١٠٧م بوهيموند يغزو الإمبراطورية - ١١٠٨م معاهدة ديفول - ١١٠٦م الاستيلاء على أفاميا - ١١٠٩م تنكريد فى ذروة قوته
٨٧	الفصل الرابع: تولوز وطرابلس
	بنو عمار أصحاب طرابلس - ١١٠٢م انتصار ريموند أمام طرابلس - ١١٠٥م موت ريموند - ١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة - ١١٠٨م برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق - ١١٠٩م برتراند ووليم جوردون - ١١٠٩م استسلام طرابلس
١٠٣	الفصل الخامس: الملك بالدوين الأول
	١١٠١م الاستيلاء على أرسوف وقيسارية - ١١٠١م معركة الرملة الأولى - ١١٠٢م معركة الرملة الثانية - ١١٠٢م الملك بلدوين فى يافا - ١١١١م بلدوين

وديامبرت - ١١٠٢م خلع ديامبرت - ١١٠٢م انتخاب أربيلف بطريقا - ١١٠٣م
حصار عكا - ١١٠٥م معركة الرملة الثالثة - ١١٠٦-١١٠٨م هجمات على المدن
الإسلامية الساحلية - ١١٠١م الاستيلاء على صيدا - ١١٠٥م تشييد الحصون في
الجليل - ١١٠٨م هدنة مع دمشق - ١١١٨م بلدوين يغزو معسر - ١١١٣م زواج
بلدوين من أديللا - ١١١٨م موت أمراء

١٣٩ الفصل السادس: توازن في الشمال

١١٠٧م إطلاق سراح جوسلين - ١١٠٨م مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين
ومسلمين - ١١٠٩م المصالحة بين أمراء الفرنج - ١١١٠م إخلاء الريف الرهاوي -
انتشار الحشاشين - ١١١١م ائتلاف إسلامي جديد - ١١١١م فشل مودود -
١١١٢م موت تنكريد - ١١١٣م موت مودود ورضوان - ١١١٦م مقوط واسيل
دغا - ١١١٥م حملة برسق بن برسق - ١١١٥م انتصار الفرنج في تل دانيت -
١١١٨م صدع في الكنيسة يعقوبية - ١١١١-١١١٣م مفاوضات بينزنة مع
الغرب - ١١١٢-١١١٥م حروب سلحوقية ضد بينزنة

الباب الثاني: الذروة

١٧٥ الفصل الأول: الملك بالدين الثاني

١١١٩م غارات في شرق الأردن - ١١١٩م معركة بحر الدم - ١١١٩م ايلغازي
ضيق انتصاره - ١١١٩م معركة محكمة في هاب - ١١١٩م فشل حملة الأرائقة -
١١١٨-١١٢٠م بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان - ١١٢١م
الحملة الصليبية الجورجية - ١١٢٢م الكونت جوسلين يقع أسيرا - ١١٢٣م بلدوين
وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر - ١١٢٤م موت بلك - ١١٢٣م وصول
أسطول بندقي إلى عكا - ١١٢٤م حصار صور - ١١٢٤م غدية الملك بلدوين -
١١٢٥م معركة عزاز - ١١٢٦م وصول بوهمند الثاني - ١١٢٨م الاستخلاف
على العرش - ١١٢٦م الحشاشون في بانياس - ١١٢٧م نزاع بين بوهمند الثاني
وجوسلين - ١١٣٠م مصرع بوهمند الثاني - ١١٣١م موت بلدوين الثاني
وجوسلين الأول

٢١٩ الفصل الثاني: الجليل الثاني

١١٣٢م هيو (أوف لوبواسيه) والملكة ملبسيند - ١١٣٢م محاولة قتل هيو -
١١٣٣م فولك ينقذ بونز أمير طرابلس - ١١٣٥م زنكي أمام دمشق - ١١٣٦م

استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى أنطاكية - ١١٣٦م الحرب مع الأرمن - ١١٣٧م
استخلاص ريموند الثاني في طرابلس - ١١٣٧م استسلام قلعة بحرین

٢٤١ الفصل الثالث: مطالب الامبراطور

الأيام الأخيرة من حكم الكسبوس الأول - ١١١٨م ولاية عهد جون كومنينوس -
١١٣٧م جون يعد العدة لغزو سوريا - ١١٣٧م ريموند يقدم فروض السواء
للإمبراطور - ١١٣٨م المسيحيون يحاصرون شيزر - ١١٣٨م دخول جون أنطاكية
- ١١٣٩م جون في الأناضول - ١١٣٩م خلع البطريق وادولف - ١١٤٢م جون
يعود إلى كيليكا

٢٦٣ الفصل الرابع: سقوط الرها

١١٣٩م التحالف الفرنجي مع دمشق - ١١٤٠م بناء القلاع على الحدود الجنوبية -
١١٤٣م مؤسسات الملكة مليسند - ١١٤٣م موت الملك فولك - ١١٤٤م حصار
الرها - ١١٤٥م سياسة زنكي في الرها - ١١٤٦م مصرع زنكي - ١١٤٧م
الفرنج يتغاصرون مع أنر - ١١٤٧م ارتفاع نجم نور الدين

الباب الثالث: الحملة الصليبية الثانية

٢٨٧ الفصل الأول: اجتماع الملوك

حملات صليبية متفرقة - الملك روجر الثاني الصقلي - ١١٤٦م التجمع في فيزيلاي
- ١١٤٦م القديس برنار في ألمانيا - ١١٤٧م البابا إيوجينوس في فرنسا -
١١٤٧م الملك كونراد يغادر ألمانيا - ١١٤٧م الألمان في البلقان - ١١٤٧م وصول
الفرنسيين إلى القسطنطينية

٣٠٧ الفصل الثاني: الشقاق المسيحي

١١٤٦م حملة مانويل ضد قونية - ١١٤٧م الألمان يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧م
الفرنسيون يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧-١١٤٨م الفرنسيون في آسيا الصغرى -
١١٤٨م الفرنسيون في أضايا - ١١٤٧-١١٤٨م السياسة البيزنطية أثناء الحملة
الصليبية - ١١٤٧-١١٤٨م دور الإمبراطور

٣٢٣ الفصل الثالث: الإخفاق التام

١١٤٨م لويس وإينور في أنطاكية - ١١٤٨م قرار الهجوم على دمشق - ١١٤٨م
مشاجرات في المعسكر المسيحي - ١١٤٨م الملك كونراد يغادر فلسطين - ١١٤٩م
برتراند التولوزي

الباب الرابع: تحول المد

٣٣٩ الفصل الأول: الحياة في الشرق الفرنجي (أوترميخ)

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود - إقطاعيات المملكة - الدستور - الحكمة العليا - الإدارة - الدويلات التابعة - إمارة أنطاكية - السيادة الإمبراطورية - التنظيم الكنسي - النظامان العسكريان - الملابس - الصداقة مع المسلمين - الكنيسة الأرثوذكسية - رفاهية الشرق الفرنجي

٣٧٧ الفصل الثاني: ارتفاع نجم نور الدين

١١٥٠م اعتقال الكونت جوملين - ١١٥٠م استسلام تل بشير لبيزنطة - ١١٥٠م خطاب الأميرة كونستانس - ١١٥٢م اغتيال ريموند الثاني - ١١٥٢م الملكة مليسند ترضخ لابنها - ١١٥٠م مكائد في مصر - ١١٥٣م الاستيلاء على عسقلان - ١١٥٤م نور الدين يأخذ دمشق - ١١٥٦م زلازل في سوريا

٣٩٩ الفصل الثالث: عودة الإمبراطور

١١٥٦م رينالد يغمر على قبرص - ١١٥٧م الفرنج يهاجمون شيزر - ١١٥٨م الإمبراطور مانويل يدخل كيليكيا - ١١٥٩م الإمبراطور في أنطاكية - ١١٥٩م الهدنة بين مانويل ونور الدين - ١١٦٠م رينالد يقع في الأسر - ١١٦١م مليسند الطرابلسية - ١١٦٢م موت بلدوين الثالث

٤١٩ الفصل الرابع: تربص مصر

١١٦٢م الملك أمالريك - ١١٥٤م مكائد في القاهرة - ١١٦٣م هزيمة نور الدين في الكرك - ١١٦٤م كارثة في أرتاح - ١١٦٥م بطريق يوناني في أنطاكية - ١١٦٧م السفراء الفرنج في القاهرة - ١١٦٧م صلاح الدين محاصر في الإسكندرية - ١١٦٦-١١٦٧م مغامرات أندرونيكوس كومنينوس - ١١٦٨م التحالف مع بيزنطة - ١١٦٨م أمالريك يتقدم نحو القاهرة - ١١٦٩م شيركوه يفوز بمصر لنور الدين - ١١٦٩م حملة تحالف ضد مصر - ١١٦٩م حصار دمياط - ١١٧٠م زلزال يضرب أنطاكية - ١١٧١م أمالريك في القسطنطينية - ١١٧١م انتهاء الخلافة الفاطمية - ١١٧٢م إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس - ١١٧٣م اغتيال سفراء الحشاشين - ١١٧٤م موت الملك أمالريك

الباب الخامس : انتصار الإسلام

الفصل الأول : الوحدة الإسلامية ٤٦١

- ١١٧٤م ريموند كونت طرابلس وصيًا - ١١٧٤م صلاح الدين بهاجم حلب -
- ١١٧٦م صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل - ١١٧٦م زواج سيبيلا الأول - ١١٧٦م معركة ميريسيمالوم - ١١٧٧م فيليب كونت فلاندرز في فلسطين - ١١٧٧م هزيمة صلاح الدين في تل الجزر - ١١٧٩م موت همفري أمير تينين - ١١٨٠م هدنة عامين - ١١٨٠م سيلا وبلدوين أمير ايلين - ١١٨٠م البطريق هيراكليوس - ١١٨٠-١١٨٢م عهد ألكسيوس الثاني - ١١٨٥م سقوط اندرونيكوس كومنينوس - ١١٨١م رينالد (أوف شاتيلون) ينقض المعاهدة - ١١٨١م وفاة الصالح اسماعيل - ١١٨٣م صلاح الدين يمتلك حلب

الفصل الثاني : قرنا حطين ٤٩٥

- ١١٨٢م حملة رينالد في البحر الأحمر - ١١٨٣م حوى يتشاجر مع الملك - ١١٨٣م الزواج في قلعة الكرك - ١١٨٥م وصية الملك بلنوين الرابع - ١١٨٥م مرض صلاح الدين - ١١٨٦م الإعلان عن سيلا ملكة - ١١٨٦م أول مجلس للملك حوى - ١١٨٧م خيانة ريموند - ١١٨٧م عيون كريسون - ١١٨٧م صلاح الدين يعبر الأردن - ١١٨٧م الفرنج يعسكرون في لوبيا - ١١٨٧م معركة حطين - ١١٨٧م في خيمة صلاح الدين - ١١٨٧م فلسطين تستسلم لصلاح الدين - ١١٨٧م الدفاع عن القدس - ١١٨٧م استسلام القدس - ١١٨٧م اللاجئين - ١١٨٧م دبلوماسية رينالد أمير صيدا - ١١٨٧م الدفاع عن صور - ١١٨٧م تشريف صلاح الدين

المرفقات:

- المرفق الأول : المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتينى ٥٣٣
المرفق الثانى : معركة حطين ٥٤٦
المرفق الثالث : شجرات الأنساب ٥٥٢

الخرائط:

- خريطة رقم (١) : شمال الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى ١٤١
خريطة رقم (٢) : جنوب الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى ١٧٧
خريطة رقم (٣) : مملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر ٢٢١
خريطة رقم (٤) : بيت المقدس زمن ملوك اللاتين ٣٤١
خريطة رقم (٥) : مصر فى القرن الثانى عشر ٤٢١
خريطة رقم (٦) : الجليل ٤٩٧

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من "تاريخ الحملات الصليبية"، للمؤرخ ستيفن رانسيمان الذى نقلنا إلى العربية من قبل جزءه الأول وقدمنا له. ولابد لنا من أن نستهل هذه المقدمة بفقرة من مقدمة الجزء الأول: "إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية فى تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه فى سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن "يؤرخوا لأنفسهم"، وألا يتذكروا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية فى قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً ينجح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفى كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع الأيام عن الجادة التى أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل

أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداتهم وضافت آفاقهم فأصبحوا يعزلون على من لا ييغون إلا مضرتهم وإذلالهم" وإنما نعيد ذكر هذه الفقرة ونحن نتوسع ، بعض الشيء ، فى بيان مدى حاجتنا إلى مدرسة تأريخ عربية قادرة على أن تعين المسلمين على أن يصححوا صور الإسلام التى تبدو مشوهة فى مرآة الغرب، والتى جاوزت - فى زمن الهيمنة - نطاق حدود الغرب الفكرية إلى غير نطاق كان ينبغى أن تأتلق فيه قدرة العرب والمسلمين على أن يعنوا هم أنفسهم بتقديم حضارتهم وتراثها.

تاريخ وتواريخ

وثمة فارق هام بين تاريخ الإسلام والتاريخ له وغيره من تواريخ الأديان الأخرى والتاريخ لها . ذلك أن حضارة الإسلام جاءت إلى الوجود بعد أن واثت الإنسان - ونعنى به الإنسان المسلم - القدرة على تسجيل تاريخه؛ فى حين أن المسيحية - التى ترجع بداياتها إلى القرن الأول الميلادى - لم يتح أن تتخذ لها مكانا فى العالم إلا فى القرن الرابع، فأنت بنمط من التاريخ يغاير ، من حيث الواقع والمنهج ، أنماط التاريخ عند الإغريق والرومان. ذلك أنه كان لابد للمسيحية من أن تجد لنفسها أصولا فى اليهودية.

واليهود هم أول شعب فى العالم القديم فرضت عليه عقيدته واجبا دينيا يقضى بأن يتذكر أبنائه ماضيهم ، لأن العبرة فيما توارثوه من تواريخ تتمثل فى ذكر ما فعله الرب لشعبه المختار. وذلك على نقيض الحال عند الإغريق الذين لم تأمرهم آلهتهم بأن يتذكروا شيئا من هذا القبيل . فكان يتعين على كل يهودى أن يكون على دراية بالكتابات اليهودية المقدسة ، التى جُمع من بينها فى نهاية المطاف ما أصبح يعرف فيما بعد بـ "العهد القديم". فكُتاب أسفار العهد القديم انتقوا من بين تلك الكتابات ، التى يُفترض أن كل يهودى يعرفها ، ما رأوا أنه يفسر "قصد الرب". زد على ذلك أن لليهود تراثا غير مكتوب ، يقول عنه يوسيفوس Josephus ، المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : "إن ما لم يدون منه بقى فى الذاكرة الجمعية لشعب إسرائيل وكهانه خاصة".

ثم جاء المسيحيون فأخذوا بالعهد القديم وأضافوا إليه كما جديداً من "التاريخ المقدس". فكُتاب الأناجيل الأربعة ، التى يضمها العهد الجديد ، جاءوا بذكر ما رأوا أنه حقائق ينبغى على المؤمنين أن يعرفوها ؛ غير أن المؤرخين يرون أنه ليس ثمة سبيل مقنع

يعين على الوصول إلى حقائق تاريخية مما جاء به العهد الجديد ، باستثناء ما يُروى بسفر "أعمال الرسل". فالعهد الجديد على إجماله لا يمثل سوى مختارات من الكتابات المسيحية الأولى ، ولا يتضمن إلا ما اتفق مع عقيدة الكنيسة ، عندما أتيح لتلك العقيدة بآخرة أن تتخذ شكلا واحدا . ولئمة فراغ تام بين سفر "أعمال الرسل"، الذى يرجع فيما يتصل إلى أواخر القرن الأول الميلادى، وبين كتاب "التاريخ الكنسى" Eusebius Pamphili of Caesarea (الذى توفى حوالى سنة ٣٤٠ ميلادية) وكتابات معاصريه فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى.

ووجد الكتاب المسيحيون أن قصة السيد المسيح ، كما ترويه الأناجيل ، يمثل فيها تحقيق النبؤات التى ذكرت فى غير مكان من العهد القديم ، وبذلك أضاف الجزء اليهودى من الكتاب المقدس إلى المسيحية بعدا قديما . وتحول التاريخ الذى ورد فى عهدى الكتاب المقدس ، للذين أمسيا وثيقى الارتباط ، إلى ثبت وحيد يمثل فيه وحى الرب ويتضاءل بجانبه غيره مما كتبه الناس والجماعات الدينية على اختلافها.

تاريخ عام

لم يكن مفهوم "التاريخ العام" مجهولا عند الوثنيين؛ ثم جاء المسيحيون وحاولوا أن يستفيدوا منه . ذلك أنه كان عليهم أن يحيلوا "التاريخ المسيحى المقدس" إلى "تاريخ عام" يصطبغ بالعراقة . ويرى الدارسون أن ما توخاه المسيحيون فى ذلك يتصف بمغالة تفوق تلك التى يتصف بها ما جاء به اليهود .

وأضطّر المسيحيون الأولون ، فى دفاعهم عن دينهم ، إلى أن يوفقوا بين بعض ما جاء فى التاريخ الوثنى وما جاء فى "تاريخهم العام". فكان المؤرخ المسيحى يحاول بلوغ ذلك بالتوفيق بين التاريخ المقدس والترتيب الزمنى العام منذ بدء الخليقة وحتى الزمن الذى كان يعيش فيه ، فجاءت أحداث التاريخ المسيحى اليهودى مترامنة مع الأحداث البارزة فى التاريخ الوثنى بما فيه من أساطير وخرافات . وكان سيكستوس يوليوس الإفريقى Sextus Julius Africanus أول كاتب مسيحى حاول ذلك التوفيق فى القرن الثالث ، فقال - فيما قال - إن وجود البشرية بدأ منذ ستة آلاف عام وأن السيد المسيح ولد بعد مضى خمسة آلاف وخمسمائة عام على خلق العالم. وتمثل فيما كتبه سيكستوس نموذج تأثره يوسيبوس Eusebius فى مدونته التاريخية "التاريخ الكنسى"

التي غدت أساسا توات بعدة تواريخ ألفها الكتاب البيزنطيون في لغتهم اليونانية. وقد نقل القديس جيروم St. Jerome (الذي توفي سنة ٤١٩ أو ٤٢٠) هذا العمل إلى اللغة اللاتينية وظل تأثيره بالغاً، في غرب أوروبا، لما يجاوز ألف عام. ويقول إدموند فرايد Edmund B. Fryde في تناوله لهذا الموضوع: "إن الدارس المحدث يعجب ببراعة يوسيبوس، ومن أتوا بعده، ويملكه اليأس من سخف الكثير مما انتهوا إليه". ولنا أن نلاحظ أن الأخذ بمولد السيد المسيح على أنه بداية التقويم الميلادي استحدثه ديونيسيوس إكسيجيوس Dionysius Exiguus في روما في أوائل القرن السادس، ولكن هذا التقويم لم يرج إلا عندما استخدمه اللاهوتي والمؤرخ الإنجليزي بيد Bede في القرن الثامن.

ولم يُمن مسيحيو القرنين الرابع والخامس بكتابة تاريخ عصرهم، وإن عنّ لهم أحيانا أن يفعلوا ذلك، فلم يكن هذا إلا من قبيل الدفاع عن دينهم في مواجهة العالم الوثني أو الجماعات الدينية المسيحية المعارضة التي كانت توصم بالهرطقة. وكل هذه التواريخ التي كتبها "المدافعون عن الدين" يعتمدها بالضرورة قدر كبير من التحريف المتمثل في انتقائهم ما يرون أنه يجب إبداءه وما يرون أنه ينبغي إخفاؤه. وغالبا ما كان هؤلاء المدافعون يشتطون في إحجافهم بحق من يناهضونهم ويحق غير المسيحيين. ولم تقلّ أعمال المؤرخين الكلاسيكيين من مثل تلك المثالب بطبيعة الحال، بيد أن المسيحيين تجاوزوا في اقتناعهم بأنهم لابد أن يكونوا - دون غيرهم - أهل صواب. وعند المقارنة بين المؤرخين المسيحيين وواحد من الكتاب الوثنيين المبرزين مثل أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي) يتبين تميزه بأنه لا يتوانى في إبداء إعجابه بمن يستحق الإعجاب من المسيحيين، وأنهم - على النقيض منه - يتصفون بضيق النظرة والتصلب.

التأريخ للتأريخ

ذلك ما كان عليه التأريخ الغربي على إجماله. ومن الغريب أن تلك الحال بقيت على ما كانت عليه حتى القرن التاسع عشر. وما تناولناه إن هو إلا الصورة التي تظهرها مرآة البحث الحديث، والتي وقفنا منها عند ما يقتضيه السياق. وهي صورة مركبة يتمثل في قسماتها واقع ما انتهى إليه الباحثون، وهي قسمات تمنح بالضرورة إلى إبداء ما لا يكاد "عطار" الإنحياز يفلح في إصلاح قبحه بمحاولة إخفائه. ومن شأن مثل هذا

التأريخ أن ينتج تاريخاً أو تواريخ لا تسوغها فلسفة التاريخ بمنظورها التأملية والتحليلية النقدية. ويحق لنا هنا أن نقول: أوليس غريباً أن يكون للإنسان تاريخاً أو أكثر، تاريخ يتمثل فيه ما تتابع بالفعل من أحداث، ولا يكاد يلم الإنسان به إلا المرفق، وتاريخ أو تواريخ كلها من نتاج "تأريخ" لا يكاد الإنسان في محاولة توخى الحيدة فيه أن يبلغ بعض شأواً

وأولى ما نغنى به في هذا السياق هو أن نلتفت إلى حقيقة جليلة مؤداها أن التواريخ اليهودية المسيحية، في أصلها تواريخ دينية انتهى بها المطاف إلى أن تصبح، على أيدي أصحاب العقائد، تاريخاً دينياً موحداً يقوم على الانتقاء وعلى الإبداء والإخفاء؛ ثم حاول أصحابه أن يحيلوه إلى تاريخ عام، فتخلطت الحقائق بالأساطير والأوهام، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد تقوم، في إجمالها، على سرد يرى أصحابه أنه تواريخ أو تاريخ أو أساس للتأريخ. وهذا على النقيض من تاريخ الإسلام فالقرآن الكريم لا يعنى بالتأريخ أو بأى سرد للتأريخ أو بتحديد تواريخ، وما جاء به من قصص لم يكن إلا من قبيل ذكر المثال للتدبر والاعتبار. كما أن تاريخ محمد ﷺ لم يتناوله القرآن الكريم من قريب أو من بعيد، وإنما تناوله المؤرخون وما يزالون. ولما فارق بين تواريخ كتبت، على نحو أسلفناه، وانتهى البحث الحديث فيها إلى ما انتهى إليه، وتاريخ بدأ واتخذ مسيرته بعد أن أتيح للعيون والعقول أن تبصر في نور الحقيقة والحق وإعمال العقل.

الانتماء والتأريخ

ويضطرنا ضيق النطاق، ونحن بصدد بيان مدى حاجتنا إلى تأريخ عربى إسلامى معاصر جديد، أن نتجاوز الحائل إلى المائل فنلقى نظرة غير مستأنية على واقع التأريخ الحديث والمعاصر، ومدى تأثيره بما انتهى إليه فكر الإنسان في عصره الأخير. فنقول إن فروع العلم المختلفة تؤدي أدواراً بالغة الخطورة في صياغة أوجه الفكر المختلفة على المستويات المحلية والعالمية في مجابهة الإيديولوجيات بعضها بعضاً. وإذا شئنا أن نمثل لذلك، فإننا نقول إنه يتعين على المرء أن يلقى نظرة على تاريخ العالم، أو على تاريخ أمة بعينها، من خلال الكتابات التاريخية التي قام بها كتاب ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة، فإنه واجد ولا شك أن هذا التاريخ - سواء أكان تاريخ العالم أم تاريخ أمة معينة - يصطبغ بشئ من طابع الفكر الذى ينتمى إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك في

أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم العربى والتواريخ التى كان يصدرها الشق الماركسى من العالم، كما أسلفنا فى مقدمة الجزء الأول.

وليس ذلك وحسب ، فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلاحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وغيرهم.

وإذا شئنا أن نسوق مثلاً يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لأحداث الواقع ، وإن كان حديثاً أو معاصراً ، نرجع إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لهتلر فى بولندا بإخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠ ، ثم قفرت قواته بغته من شرق أوروبا لتحتاح غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفى من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعاً عن وطنهم بعد أن تجاوزوا وقع المباغتة. وفى تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية لتعين النرويجيين على التصدى للهجوم الألمانى؛ وبدى عندئذ أن فحاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا فى نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أئداده لهم. وأكهرت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج فى أيدي الألمان، الذين أتاح لهم غزو الدنمارك والنرويج الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال، والتى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى، مما دعم مركز هتلر فى قتاله مع بريطانيا. ومضى هتلر فى توجيه ضرباته ، فغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريين، وهما بلجيكا وهولندا، وقضت فى وقت قصير على قواتهما. واندفعت قوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديديتين، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها فرق البانزر The Panzer divisions ، وأسراب كبيرة من الطائرات القاذفة. وتهاوت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة.

ويصف المؤرخ الأمريكى "سوثيرث" ما حدث بعد ذلك قائلاً: "إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته، أمر كل الجنود البلجيكين أن يلقوا بأسلحتهم".

"King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms."

وهذه العبارة على بساطتها تبين أن خطورة "ليوبولد الثالث" كانت نتيجة حتمية ترتبت على ما سبقها من أحداث. ولكننا نجد أن للمؤرخ البريطاني "هربرت جورج ويلز"، رأيا آخر في ذلك، إذ يقول: "وخطر للملك ليوبولد، الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعينه عند غزو بلاده، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من أعمال الجبن والخيانة الفائقين".

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery."

هذا ما يقوله ويلز، بالرغم من أنه ينعي على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء لتحريك العسكرى من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد...

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete."

ونحن نقدر تفهم "سوثيرث" لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونعرف في الوقت نفسه دوافع "ويلز" في موقفه منه. وإذا كان للنظرة أن تختلف إزاء حدث له مثل ما أسلفنا من مقدمات، فماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالمعتقدات والأيديولوجيات وما بينهما من صراعات وسياسات!

وهذا المثال يظهر جانبا واحدا من جوانب المسألة، التي تتعقد بما تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثاله على امتداد تاريخ الإنسان في عجزه القديم الجديد عن بلوغ الحيدة الموضوعية.

وإذا كان الباحثون في فروع العلم المختلفة يتأثرون، على وعى منهم أو على غير وعى، بانتمائهم الفكري أو العقدي أو الأيديولوجي على نحو يحيل الحيدة الموضوعية إلى ضالة يعسر الوقوع عليها، فإن أدوات البحث العلمي ووسائله كالموسوعات والمعاجم - والدور الذي تلعبه في هذه المجالات جد خطير - تتأثر تبعاً لذلك بكل هذه العوامل. وإذا ما أردنا أن نتعرف على شيء مما يشوبها يكفي أن نلقى نظرة على دائرة المعارف الإسلامية التي صنفها المستشرقون في عصر غفلة ما تزال تهيمن على عقولنا وتتغلغل

فيما تنتهي إليه، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه ما آلت إليه حال حضارتنا في كتابات الغرب.

وأما عن المعاجم العام منها والنوعي فحدث ولا حرج، ويكفى أن نشير إلى ما ارتبط بالألفاظ: "عربي" و"محمد"، وغيرهما في معاجم الغرب لتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الذي تتناول أنيابه كل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة.

ولعله يحق لنا أن نذكر في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينة في المواقف التي يتخذها الغرب وتفصح عنها أحيانا أداة البحث العلمي؛ فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة "يهودي" Jew في قاموس أكسفورد في طبعته الرابعة والخامسة على التوالي، نرى فارقا في التعريف لا تحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نسوق التعريفين كما هما:

تعريف الطبعة الرابعة: يهودي، (اسم) شخص من الجنس العبراني؛ مرايبي مبتز (معنى دارج)، عاقد الصفقات المحففة، غني كيهودي (تركيب)؛ يهودي لا يؤمن = شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

يهودي، (فعل) يغش، يحتال (دارج).

Jew (1), n. Person of Hebrew race: (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; *rich as a ~*; *unbelieving~*, incredulous person; *tell that* (an unlikely tale) *to the~s*; *~baiting*, persecution of *~s*.

Jew (2), v.t. (colloq) Cheat, overreach

تعريف الطبعة الخامسة: يهودي، (اسم) شخص من الشعب العبراني أو اليهودي، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مرايبي (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذي يعقد الصفقات المحففة؛ تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

Jew, n. One of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., derog., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; *~baiting*, persecution of *~s*.

ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى بيان أوجه التفسير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام "الفعل" Jciv بمعنى "يفش أو يخال" قد أسقط نهائيا من الطبعة الخامسة رغم وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة الرابعة.

فإذا كان لنا أن نقول أن المعجم أداة بحث هامة، فإن الموسوعة تمثل وسيلة لا يستغنى عنها باحث، وهى لا تسلم فى الوقت الحاضر مما يفرضه الصراع الأيديولوجى بين مختلف الثقافات. فدائرة المعارف البريطانية، على سبيل المثال، أداة بحث حفظت وتمطى بثقة الباحثين عبر العالم كله لما عرفت به من حيده، وإن كانت حيدتها فى نطاق انتماء حضارى معين، ويبقى الإنسان إنسانا غير أننا لاحظنا، ونحن ننقل النظر فى طبعها الصادرة منذ عشرين عاما وطبعاتها الأخيرة أن ما شابها نتيجة لما يقتضيه الانتماء بالضرورة تحول إلى مثالب فرضتها الهيمنة التى تفرض نفسها فى الوقت الحاضر. ولا تتسع مقدمة كهذه لذكر مزيد من الأمثلة، ولكننا نذكر هذه الحقيقة لنلفت الأذهان إلى واجب أغفلناه آيما إغفال يفرض علينا أن نعد لأنفسنا أدوات بحث تعين باحثينا على أن يتعرفوا على حقيقة تراثنا وحضارتنا.

ولكم يعالى المرء عندما يجد أن باحثا مصريا يقول فى تاريخه عن الإسلام، عند تناوله لصفات على بن أبى طالب عليه السلام : "وكان على - كما يقول ليكلسون - يعرزه حزم الحاكم ودهاؤه ...". ونحب أن نتساءل هنا: ألم يكن من الأجدر بمؤرخنا أن يعود إلى المراجع العربية والإسلامية وهو يحاول التأريخ لعلى عليه السلام؟ فما معنى أن ننقل عمن نقلوا عن مراجعنا، إلى هذا الحد يمكن أن يبلغ تعويلنا على ثقافة غريبة عنا فندور فى حلقة رذيلة خادعة، دون أن نعمل ملكاتنا النقدية فنقع فى حيافل من يتنقصون الإسلام ومثله العليا المتمثلة فى أعلامه ورجاله ويذهبون فى عدائهم له ولهم كل مذهب! عن عمد يمليه الهوى أو عن جهل يفرضه قصور الأداة.

وهذا القصور فى أداة الغرب البحثية فى الفروع التى تصدى للتأريخ للشرق، يقر به الباحثون الغربيون أنفسهم. وحسبنا هنا أن نذكر القليل مما كتبه برنارد لويس الأستاذ بجامعة برنستون حول هذا الموضوع فى مقاله عن "الإسلام" فى كتاب "الاستشراق والتاريخ" Orientalism and History : "يلاحظ أن تاريخ العرب غالبا ما يكتبه فى أوروبا مؤرخون مجهلون العربية أو مستعربون مجهلون التاريخ. وفى هذا القول سخرية شديدة غير أن لها ما يبررها".

"It has been remarked that the history of the Arabs has been written in Europe chiefly by historians who know no Arabic, or by Arabists who know no history. The gibe is sharp, but not wholly unjustified."

ثم يستطرد برنارد لويس مبينا أنه: "فى معظم الجامعات الغربية تنفصل الدراسات التاريخية عن الدراسات الشرقية فى فروع مستقلة يشتغل بها أساتذة ودارسون تختلف أهدافهم ومناهج بحثهم فى غالب الأمر. ومن قبيل المبالغة بلا ريب أن نقول إن الإثنين لا يلتقيان على الإطلاق غير أنه ليس من الإجحاف أن نقول إن كلا منهما يجاوز الآخر على الطريق محيا إياه فى هرود وفى غير مبالاة بل وفى إعراض أحيانا إن التعامل مع المصادر التاريخية الإسلامية يقتضى من الباحث أن يبذل فى دراسة فقه اللغة جهدا عسيرا يكاد يستغرق كل وقته، فلا يتأتى له أن يكتسب دُرَّة المورخ. وإذا ما وات المورخ الغربى الجرأة على أن يدرس لغة شرقية فإنه لا يكاد يبلغ فى ذلك بعض غاية. فليس ثمة "لغة عمل" فى أى من اللغات الشرقية، وتعلم واحدة منها يعنى دراسة جادة ممتدة، وعندما يحاول المورخ أن يرجع إلى المصادر الشرقية فإن خطر تعذر الفهم والتفسير ربما جاوز فى حسامته خطر اعتماده على الترجمات التى أعدها المستشرقون — برغم أن لنا أن نقول إن هذه الترجمات لا تبرا بأية حال من الخطأ". ولا نحسب أننا فى حاجة إلى أن نعقب على ما كتبه برنارد لويس الذى استعرض فيما لم ننقله عنه العديد من المثالب المعقدة التى تتصف بها فروع التاريخ فى الغرب.

وينبغى أن نلتفت هنا إلى الأهمية الخاصة التى يجب أن نوليها لأدوات البحث ووسائله. ذلك أنه لابد للباحث كى يعد عملا علميا من أن يتعامل مع هذه الأدوات والوسائل ليقدّم لنا فى نهاية الأمر بحثا يتحول بذاته إلى "مصدر" يعتمد عليه غيره من الباحثين فيما بعد، أى أنه يصبح "مرجعاً" يستعان به. وهذا يعنى بطبيعة الحال أن الأخطاء التى ترد فى أدوات البحث ووسائله الأولية تتواتر ثم تتواتر، وهذا التواتر فى حد ذاته ربما يضيف على الخطأ "قناعاً" يوحى بصحته، أو يحول دون تبين حقيقته. وهذا التصور على إجماله يبين مدى الزيف الذى يمكن أن يصطبغ به نتاج الفكر. وتلك مأساة تلحق بجهد الإنسان كثيرا من التخلط والهووان.

ولنا أن نخلص من هذا كله إلى أنه يجب علينا أن ننظر فيما كتبناه من تواريخ تأثرنا فيها خطى المدرسة الغربية وأخذنا بمناهجها واعتمدنا على أدوات بحثها ، حتى نتخلص مما اعتورها من أخطاء تواترت عندهم ثم عندنا مما أفسح المجال للأباطيل والأوهام أن تترأى في ظل المسوح الأكاديمية وكأن لها بعض صلة بواقع أو حقيقة. ونرجو أن يتيح ذلك لنا أن نصح ما ينبغي تصحيحه وأن نكمل ما اعتوره النقصان وأن نؤرخ لما لم يؤرخ له. ولا تتسع هذه المقدمة - بطبيعة الحال - لمعالجة النهج الذى يجب علينا أن نتخذه كي نبلغ هذه الغاية بيانا لمسيرة حضارتنا والتزامنا بأصالتنا، وتقويما لثقافتنا.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٦

مقدمة المؤلف

أجتهد في هذا المجلد أن أعرض قصة الدويلات وراء البحار (أوتريميه) ، بدءاً من اعتلاء الملك بالدوين العرش وإلى أن استعاد صلاح الدين القدس . وهي قصة سبق أن رواها كتاب أوروبيون ؛ إذ أبرزها (روهرينجت) في شمول ألماني ، وأضفى عليها (رينيه جروسيه) من فرنسية الأناقة والأصالة ، وعرضها (ى. ب. ستيننس) في إيجاز إنجليزي بالغ . ولقد سرت على نفس الدرب ، واستعنت بذات مصادرهم ؛ على أنني جازفت بأن أضفت إلى الدليل تفسيراً يختلف أحياناً عن تفسير من سبقوني . وليست القصة يسيرة دائماً ، لاسيما وأن سياسات العالم الإسلامي في باكورة القرن الثاني عشر تتحدى أى تحليل مباشر ، وإنما يلزم فهمها إذا أردنا أن نفهم قيام الدويلات الصليبية وأسباب استرجاع الإسلام لقوته فيما بعد.

ولم يشهد القرن الثاني عشر آياً من الهجرات العنصرية الضخمة التي صبغت القرن الحادى عشر ، والتي كان لها أن تتكرر في القرن الثالث عشر ، وبذا تتعقد قصة الحملات الصليبية اللاحقة واضمحلال وسقوط الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) . ونستطيع الآن أن نركز اهتمامنا أساساً في (أوتريميه) ذاتها ، على أنه ينبغي

لنا دائما أن نستحضر خلفية أشمل تنسج لسياسات أوروبا الغربية ، والحروب الدينية التي أشعلها حكام أسبانيا وصقلية ، وانشغال بيزنطة ، والخلافة الشرقية . إن تبشير القديس برنار ، ووصول الأسطول الإنجليزي إلى لشبونة ، ودسائس القصور في القسطنطينية وبغداد ، كلها أحداث مترابطة تلعب أدوارها في المسرحية ، برغم بلوغها الذروة على تلٍ عارٍ في الجليل .

والحرب هي جوهر هذا المجلد . وفي عرضي المسهب للكثير من الحملات والغارات سرت على درب المؤرخين القدامى الذين أتقنوا أعمالهم ؛ فما الحرب إلا الخلفية الأساسية للحياة في الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوترمييه) التي غالبا ما يتوقف مصيرها على المخاطر التي يزرع بها ميدان القتال . على أنني خصصت في هذا المجلد فصلا عن الحياة في الشرق الفرنجي ونظامها؛ وأرجو أن أكتب في مجلدي التالي عن تطورات الفنية والاقتصادية ، فكلاهما جانباً الحركة الصليبية اللذان بلغا ذروة الأهمية في القرن الثالث عشر .

ولقد ذكرت في مجلدي الأول بعض عظام المؤرخين ممن ساعدتني كتاباتهم . وفي هذا المجلد لابد لي من تسجيل تقديري الخاص لأعمال (جون لامونت) ، الذي كان موته المبكر بمثابة ضربة قاسية للتأريخ الصليبي ، ونحن مدينون له قبل الآخرين جميعاً بمعلوماتنا المتخصصة المتصلة بالنظام الحكومي في الشرق الفرنجي . وأود كذلك أن أعترف بالعرفان للبروفيسور (كلود كوهين) من ستراسبورج ، الذي تعدّ رسالته العظيمة عن شمال سوريا ، ومقالاته المختلفة، على جانب عظيم من الأهمية للموضوع الذي تتناوله .

كما أنني مدين لأصدقائي الكثر الذين ساعدوني في رحلاتي إلى الشرق ، خاصة إدارة الآثار القديمة في كل من الأردن ولبنان ، وشركة بترول العراق .
ومرة أخرى أعرب عن شكري لموظفي مطبعة جامعة كامبردج لما أبدوه من عطف وصبر .

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٢

الباب الأول:

إنشاء المملكة

الفصل الأول:

**مملكة ما وراء البحار
(أوتريمييه) وجيرانها**

مملكة ما وراء البحار (أوتريمييه) وجيرانها

"أنت أكلة الناس ومُشكلة شعوبك"

(حزقيال : ١٢.٣٦)

دخلت الجيوش الفرنجية مدينة القدس ، وبذا حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها. على أنه إذا أراد المسيحيون أن تبقى القدس فى أيديهم ، وأن يتيسر على الحجاج بلوغها، فلا بد لهم من إقامة حكومة راسخة ، ذات دفاعات منيعة ، تربطها بأوروبا موصلات آمنة؛ إذ أن الصليبيين الذين تمكنوا من الاستقرار فى الشرق كانوا مدركين جيدا لاحتياجاتهم . وقد شهدت الفترة القصيرة من حكم الدوق جودفرى مولد المملكة المسيحية؛ لكنه كان ضعيف أحقق برغم طبيته ؛ إذ دفعته الغيرة إلى أن يشاجر مع رفاقه ، وبوازع من ورع دفين وهب الكنيسة سلطات ضخمة ، وبموته وتولى أخيه بالدوين أنقذت المملكة الوليدة. وكان بالدوين يتصف بالحكمة والبصيرة وصرامة رجل الدولة ؛ غير أن مسؤوليات هائلة كانت فى انتظاره ، وليس لديه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم بعد رحيل أهم محاربي الحملة الصليبية الأولى إلى الشمال أو

إلى أوطانهم ، ولم يتخلف من بين أبرز عناصر تلك الحركة سوى أضعفهم - بطرس الناسك - الذي لا نعرف شيئا عن حياته الغامضة هناك ، وقد عاد هو نفسه إلى أوروبا عام ١١٠١م^(١) واصطحب الأمراء معهم جيوشهم فى طريق عودتهم ، ولم يكن بالدوين قد أحضر إلى الشرق أى أتباع ، فهو الإبن الأصغر المفلس ، وإنما استدان الرجال من إخوته ، وها هو الآن يعتمد على حفنة من المحاربين الرورعين الذين سبق أن أخذوا العهد على أنفسهم قبل مغادرتهم أوروبا بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، وعلى مغامرين يعلقون الآمال على امتلاك الممتلكات التى ترفعهم درجات تصل بهم إلى مصاف الأثرياء ، وكان أغلبهم - كشأنه - من أصغر الأبناء المفلسين.

أرض فلسطين

وكانت سيطرة الفرنج على أغلب الأراضى الفلسطينية ضعيفة واهية عندما تولى بالدوين شؤون المملكة . وكانت أكثرها أمنا تلك المنطقة الممتدة عبر السلسلة الجبلية من بيت لحم شمالا إلى سهل جزريل^(٢) وكان المسيحيون المحليون يسكنون الكثير من القرى بعد أن هجرها أغلب المسلمين بمجىء الجيوش الفرنجية ، بل هجروا مدينتهم المفضلة نابلس التى كانوا يطلقون عليها دمشق الصغيرة . وكان الدفاع عن هذه المنطقة يسيرا ؛ إذ يوفر لها وادى الأردن الحماية من الشرق ، وليست بالنهر مخاضة بين أريحا وبيسان ، كما لا يوجد من الممرات سوى ممر واحد يصعد من الوادى إلى داخل الجبال ، كما كان من العسير دخول المنطقة من الغرب ، وإلى الشمال تقع إمارة الجليل التى استولى عليها تانكريد وضمها إلى العالم المسيحي ، والتي تشتمل على سهل إزدراليون مرج بنى عامر والتلال الواقعة بين الناصرة وبحيرة الحولة . وحدود هذه الإمارة أكثر تعرضا للإختراق ؛ إذ يمكن اختراقها من عكا على ساحل البحر المتوسط ، ومن الشرق عبر الطرق الواقعة شمال وجنوب بحر الجليل . غير أن الكثير من المسلمين هاجروا من هناك أيضا ، ولم يبق سوى المسيحيين وجماعات قليلة من اليهود فى بعض المدن ، خاصة مدينة صفد وهى الوطن الرئيسى للتقاليد التلمودية منذ أمد بعيد ؛ لكن

(١) Hagenmeyer, Pierre l'Hermite, pp. 330-44. (ibid p. 347) مات بطرس الناسك في سن متقدمة عام ١١١٥م.

(٢) سهل جزريل : شمال فلسطين المحتلة ، ويفصل تلال الجليل شمالا عن السامرة جنوبا . وهو مذكور في العهد القديم باسم "وادي برزعل" (أنظر سفر يشوع : ١٧ - ١٦).

أغلب اليهود آثروا اللحاق بالمسلمين في المنفى بعد المذابح التي حصدت أبناء دينهم في القدس وطبرية وبعد مقاربتهم للمسيحيين في حيفا^(٣). وكانت سلسلة الجبال المركزية وطبرية بمثابة قلب المملكة. وانتشرت مواقع الاستطلاع واتسعت في المناطق الإسلامية المحيطة، وحصلت إمارة الجليل مؤخرا على منفذ إلى البحر في حيفا، وسيطرت حامية فرنجية على النقب جنوبا في الخليل، أما قلعة القديس أبرام، وهي تسمية أطلقها الفرنج على الخليل، فكانت أكثر قليلا من كونها جزيرة في محيط إسلامي^(٤). ولم يكن للفرنج سيطرة على الطرق الآتية من شبه الجزيرة العربية حول الطرف الجنوبي للبحر الميت بطول الطريق البيزنطي القديم المسمى بطريق التوابل. وكان البدو يستخدمونه للتسلل داخل النقب والاتصال بالحاميات المصرية في غزة وعسقلان على الساحل. وكان للقدس نفسها منفذ على البحر عبر ممر يمضي خلال اللد والرملة إلى يافا، لكن الطريق لم يكن مأمونا بغير مواكبة عسكرية؛ إذ كانت الجماعات الغيرة المنطلقة من المدن المصرية، واللاجئون المسلمون في الهضاب المرتفعة وبدو الصحراء، يطوفون المنطقة ويتعرضون للمسافرين في غفلة منهم. ويروى (سايلوف) - وهو من الحجاج الشماليين - مشاعر الملح والمخاطر عندما حج إلى القدس عام ١١٠٢م^(٥). وكان أميرا المدينتين الإسلاميتين أرسوف وقيسارية، الواقعتين بين يافا وحيفا، قد أعلن أنهما من أتباع جودفري، لكنهما بقيا على اتصال بمصر عن طريق البحر؛ إذ كان الساحل شمالي حيفا، الممتد مسافة مائتي ميل تقريبا، يخضع للسيطرة الإسلامية حتى مشارف اللاذقية حيث كانت الكونتيسة زوجة ريموند (كونت تولوز) تقيم مع حاشية زوجها في حماية الحاكم البيزنطي^(٦).

وكانت فلسطين بلدا فقيرا بعد أن كان مزدهرا في العصور الرومانية. على أن ذلك الازدهار لم يصمد للغزوات الفارسية؛ ثم شهدت البلاد مولد ازدهار آخر في ظل الخلافة العربية، لكن الحروب المتواصلة منذ مجيء الأتراك قضت على ذلك الازدهار في مهده. والآن تنتشر الغابات أكثر من ذي قبل، فما تزال هناك غابات عظيمة في الجليل وعلى امتداد جبل الكرمل وحول السامرة، وكذلك غابة الصنوبر

(٣) عن اليهود، أنظر صفحة ٣٤٤.

(٤) أنظر أعلاه، الجزء الأول، الصفحتين ٢٦٣ و ٢٧٦

(٥) *Pilgrimage of Saewulf* (in P. P. T. S. vol. IV)

(٦) أنظر أعلاه، الجزء الأول الصفحتين ٣٧٨ و ٣٧٩.

الساحلية جنوب قيسارية ؛ مما أدى إلى وجود رطوبة في بلد ينتشر بطبيعته إلى الماء . وقد بقيت تلك الغابات والحدائق كلها برغم ما أحدثه الأفرس من خراب مرآت ومرات ، وبرغم ما تسبب فيه أبناء البلاد والماعز من خراب بطيء . وازدهرت حقول الحبوب في وادي ازدراليون (مرج بني عامر)، وأنبعت ثمار الموز وغيرها من ثمار الفاكهة المستجلبة إلى وادي الأردن ذي المناخ المداري ؛ ولولا الحروب الأخيرة لازدهر السهل الساحلي كذلك بمحاصيله وحدائقه التي تنمو فيها الخضروات والبرتقال اللذيع؛ وكانت بساكن الزيتون وأشجار الفاكهة تحيط بقرى جبلية كثيرة . على أن البلاد في أغلبها كانت مجدبة والزربة خفيفة ضعيفة خاصة حول القدس ، وقد خلت مدنها من أية صناعة كبيرة . وحتى عندما بلغت المملكة أوج عظمتها لم يكن ملوكها في مصاف كبار الأثرياء مثل كونت طرابلس أو أمراء أنطاكية^(٧)؛ إذ كانت الضرائب هي المصدر الرئيسي للثروة . أما الأراضي الخصبة في مواب والجولان عبر الأردن فكان منفذها الطبيعي عن طريق موانئ الساحل الفلسطيني ؛ إذ كانت البضائع المنقولة من سوريا إلى مصر تسلك الطرق الفلسطينية ، وكانت القوافل المحملة بالتوابل الآتية من جنوبى شبه الجزيرة تجتاز النقب إلى البحر المتوسط على مر العصور . على أنه كان لابد من إغلاق المنافذ الأخرى كلها لتأمين هذا المصدر ، وهو الرسوم ؛ وكذا كان على الفرنج أن يسيطروا على كل الحدود الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبل الشيخ^(٨) ، بل ومن لبنان إلى الفرات .

وفضلا عن ذلك ، لم تكن فلسطين بلادا صحية ، باستثناء القدس ذات الهواء الجبلي والمرافق الصحية الرومانية ، فهي مدينة صحية بما فيه الكفاية ، فيما عدا ما تجلبه رياح الخماسين من الجنوب من حرارة شديدة وأتربة . على أن السهول الدافئة التي جذبت الغزاة بمخضوبتها كانت مرتعا خصبا للأمراض بما فيها من مياها راكدة وبعوض وذباب ، فتفشيت أمراض الملاريا والتيفود والدوسنتاريا ، وسرعان ما انتشرت أوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها في القرى المزدهمة الخالية من المرافق الصحية ، وكثرت حالات الجزام . وسقط فرسان الغرب وجنوده فريسة لتلك الأمراض . مما يسهم التي لا تلائم المناخ ، وبشهيتهم القوية ، وجهلهم بقواعد الصحة الشخصية ، وبات معدل

(٧) يرد موخر حيد عن فلسطين في 3-9 pp. *Munro, The Kingdom of the Crusaders*.

(٨) جبل الشيخ أو حرمون أو سنير : اسم الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية.

الوفيات أعلى بين الأطفال. ودائما ما تمزج الطبيعة مزاحا لا يخلو من قسوة ، فتجعل مواليد الإناث أقدر على المقاومة من الذكور، مما أثار مشكلة سياسية متواصلة لدى الأجيال اللاحقة لمملكة الفرنج . على أن المستعمرين تعلموا فيما بعد ممارسة العادات الصحية ، فتهيات الفرص لحياة أطول؛ لكن معدل وفيات الأطفال ظل في مستواه الرهيب ، وسرعان ما اتضح بجلاء ضرورة استمرار تدفق الهجرة بأعداد كبيرة من أوروبا كي يتوفر لفرنج فلسطين ما يكفى للسيطرة على البلاد .

الإحتياج إلى ميناء بحري

كانت أولى مهام الملك بالدوين هي تأمين الدفاع عن مملكته . ولما كان ذلك ينطوى على أعمال هجومية ، فكان لزاما عليه الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وابتلاع أراضيهم، ولابد من الاستيلاء على عسقلان التي فشل المسيحيون في غزوها عام ١٠٩٩م بسبب غيرة جودفري من الكونت ريموند^(٩) ، ودفع الحدود المصرية جنوبا كي يسلم الطريق من القدس إلى الساحل . ويجب إنشاء نقاط مراقبة متقدمة عبر الأردن وجنوب البحر الميت ، وينبغي له أن يحاول ربط مملكته بالدويلات المسيحية في الشمال لفتح طريق الحجاج ولزيد من المهاجرين ؛ وعليه التقدم بطول الساحل قدر الاستطاعة وتشجيع إقامة دويلات مسيحية أخرى في سوريا . كما ينبغي له أن يوفر للمملكة ميناءً بحريا أفضل من يافا أو حيفا ؛ إذ أن ميناء يافا قريب جدا من الشاطئ ومفتوح ومياهه ضحلة للغاية فلا تستطيع السفن الكبيرة الإقتراب من الشاطئ ، ومن أجل النزول إلى الشاطئ يتعين استخدام قوارب صغيرة تتعرض لأخطار شديدة إذا ما نشطت الرياح ، أما إذا قويت الرياح تعرضت السفن ذاتها للخطر . ويخبرنا الحجاج (سابولف) أنه في اليوم التالي لنزوله إلى البر هناك عام ١١٠٢م شاهد حطام أكثر من عشرين سفينة من سفن الأسطول الذي أبحر معه، كما شاهد أكثر من ألف حاج وهم يغرقون^(١٠) . وأما شاطئ الرسو في حيفا فهو أعمق وتحميه منطقة جبل الكرمل من الرياح الجنوبية والغربية ، لكن الأخطار تحدق به في مهب الرياح الشمالية . والميناء

(٩) انظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٥٤ .

(١٠) *Pilgrimage of Saewulf*, pp. 6-8

الوحيد الآمن على الساحل الفلسطيني في جميع الأحوال المناخية هو ميناء عكا. ولأسباب اقتصادية ، فضلا عن مبررات استراتيجية ، ينبغي غزو عكا .

أما عن الحكومة الداخلية ، فكان بالدوين في حاجة ماسة إلى الرجال والمال . فليس في مأموله بناء المملكة بغير ما يكفي من الثراء والقوة اللازمين للسيطرة على أتباعه . ولا سبيل إلى الحصول على الرجال سوى الترحيب بالهجرة واستمالة المسيحيين المحليين للفوز بتعاونهم . ويعقدوره توفير الأموال بتشجيع التجارة مع البلدان المجاورة ، واغتنام فرصة التبرعات من الروعين الأوروبيين الراغبين في تشييد الكنائس في الأراضي المقدسة ووقف الأموال عليها؛ على أن هؤلاء الروعين سيرسلون أموالهم إلى الكنيسة ، فعليه إذن أن يصبح سيد الكنيسة لضمان الإفادة من تلك الأموال لصالح المملكة كلها .

إن أعظم مصدر لقوة الفرنج هو تشتت العالم الإسلامي . وما كان للحملة الصليبية الأولى أن تحقق هدفها لولا الغيرة التي تسلطت على القادة المسلمين ونبذ التعاون مع بعضهم البعض ؛ فأما مسلمو الشيعة وعلى رأسهم الخليفة الفاطمي في مصر ، فكانوا يحملون للأتراك السنين والخليفة العباسي في بغداد ما يحملونه للمسيحيين من كراهية ؛ وأما الأتراك ، فقد غاصوا في التنافس بين بعضهم البعض : بين السلاجقة والدانشمندان ، وبين الأراقة وآل تش ، وبين ولدي تش ذاتهما ، دقاق ورضوان ؛ وأما الأتابج من أمثال كربوقا ، فقد تسببوا في زيادة الإضطراب سوء على سوء لما كان يراد كل منهم من طموحات شخصية ؛ وأما الأسر المالكة الأصغر ، مثل بنى عمار في طرابلس وبنى منقذ في شيزر ، فقد انتهزت تلك الفوضى العارمة ونالت استقلالاً واهياً ؛ ولم يكن هناك من أثر ترتب على نجاح الحملة الصليبية سوى تفاقم تلك الفوضى العقيمة ، فدب اليأس في نفوس الأمراء المسلمين ، وراحوا يتبادلون الاتهامات ، مما جعل التعاون مع بعضهم البعض يزداد صعوبة على صعوبة^(١١).

وانتهز المسيحيون ارتباك الإسلام . فراحت عبقرية الإمبراطور ألكسيوس المرنه تعمل عملها في تسير دفة الأمور ؛ فأفاد من الحملة الصليبية واستعاد السيطرة على غربى آسيا الصغرى ، واسترد الأسطول البيزنطى مؤخرًا كامل الخط الساحلى لشبه الجزيرة فصار تحت سلطة الإمبراطور ، بل عاد ميناء اللاذقية السورى إلى ممتلكات

(١١) للإطلاع على مقال رائع موجز حول العالم الإسلامى آنذاك ، أنظر مقدمة *Gibb's The Damascus Chronicles* (ابن القلائسى - تاريخ دمشق)

الإمبراطور بمساعدة ريموند (كونت تولوز)^(١٢) . وباتت الإمارات الأرمنية آمنة بعد أن كان الأتراك يهددون بها بالفناء؛ وأسفرت الحملة الصليبية عن مولد إمارتين فرنجيتين كانتا بمثابة إسفين في العالم الإسلامي.

إمارة أنطاكية

كانت إمارة أنطاكية أغنى الإمارات وأكبرهما أماناً . وقد أنشأها يوهيموند النورماندى على الرغم من معارضة رفيقه ريموند (كونت تولوز) ، وبرغم ما أقسم عليه من تعهدات للإمبراطور الكسيوس . ولم تكن أنطاكية واسعة المساحة ، وإنما تتألف من وادى نهر الأرنند (العاصي) وسهل أنطاكية وسلسلة جبال أمانوس وميناهي الإسكندرونة والسويدية . على أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت غنية برغم التقلبات التي مرت بها مؤخرًا؛ فكانت مصانعها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصابون ، وكانت القوافل الآتية من حلب وما بين النهرين تتجاهل الحروب بين المسلمين والمسيحيين وتعبير بوابات المدينة في طريقها إلى البحر . ولما سكان الإمارة فكافوا كلهم تقريباً من المسيحيين الذين يتألفون من اليونانيين ، والسيريين الأرثوذكس ، والسيريين اليعاقبة ، والأرمن ، وقليل من النسطورية ؛ وكل طائفة منهم قنهبها الغيرة من الطائفة الأخرى ، بحيث بات من اليسير أن يسيطر عليهم النورمانديون^(١٣) . أما أهم عطر خارجي تعرضت له أنطاكية فكان يتمثل في بيزنطة أكثر مما يتمثل في المسلمين ؛ إذ أدرك الإمبراطور البيزنطي عدديته في المسألة الأنطاكية، لكنه يسيطر الآن على موانئ كيليكيا واللاذقية ، ولديه قاعدة بحرية في قبرص ، فراح يتحين الفرصة لاستعادة حقوقه المسلوبة في أنطاكية ، عاصمة وأن الأرثوذكس كانوا تواقين للحكم البيزنطي ، لكن النورماندين أفلحوا في ضربهم بالأرمن واليعاقبة.

وفي صيف عام ١١٠٠م تعرضت أنطاكية لضربة قاسية ، عندما انطلق يوهيموند على رأس حملة للملاقاة أمير الدانشمند ، فانهزم وتحطم جيشه ووقع هو نفسه أسيراً . على أن الكارثة لم تسبب في أضرار دائمة في الإمارة هذا محسائر الرجال ؛ إذ أن الملك بالدوين، الذي كان آنذاك كونت الرها ، تصرف على الفور بحيث كان حلالاً بين

(١٢) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٩ .

(١٣) بالنسبة لأنطاكية أنظر . Caken, *La Syrie du Nord*, pp. 127 ff.

الأتراك وبين متابعة انتصارهم ، وبعد أشهر قليلة أتى تانكريد من فلسطين لتولى مهام الرصاية على أنطاكية أثناء سجن خاله بوهموند ، ووجد النورمانديون في تانكريد قائدا لا يختلف عن خاله في كثرة تحركه وبجرده من المبادئ الخلقية^(١٤).

إمارة الرها

وكانت الإمارة الفرنجية الثانية هي كونتية الرها ، أو أورفا ، وكانت دويلة حاجزة توفر الحماية لأنطاكية من المسلمين . والآن يحكمها ابن عم الملك بالدوين وسميه ، بالدوين (كونت لوبورج) . وكانت الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتمتد على جانبي الفرات من رواندان وعينتاب إلى حدود غير واضحة في أراضي الجزيرة إلى الشرق من مدينة الرها . وكانت تفتقر إلى الحدود الطبيعية وتجانس السكان ؛ إذ كانوا مسيحيين في أغلبهم من اليعاقبة والسيريان والأرمن ، ولكن كانت هناك مدن إسلامية كذلك مثل سروج . ولم يكن بمقدور الفرنج إقامة حكومة مركزية ، وإنما كانوا يحكمون من خلال حاميات في القليل من الحصون القوية التي كانت تفرض الضرائب والإتاوات على القرى المحيطة ، وتنطلق منها الغارات عبر الحدود فتعود محملة بالغنائم . ودائما ما كانت المنطقة كلها بلدا حدوديا ومسرحا للأعمال الحربية التي لا نهاية لها . وكانت زاخرة بالأراضي الخصبة والمدن المزدهرة . على أن الملك بالدوين الآن أقل ثراء مما كان عليه أيام أن كان هو كونت الرها ، عندما كان يجبي الضرائب من أهل الرها فضلا عن إغاراته هناك^(١٥) .

وكانت الدولتان في مسيس الحاجة إلى الرجال . بل كانت القدس ذاتها في أمس الحاجة إلى الرجال ؛ فمنذ أن فتح المسلمون فلسطين بآدى الأمر ، حرمنوا سكانها المسيحيين من حمل السلاح ، لذا لم يجد الحكام الجدد الصليبيون من يُعتمد عليه من الجنود المحليين . أما أنطاكية والرها فكانتا تقعان داخل الحدود البيزنطية السابقة ، وفيهما الكثير من المسيحيين من ذوى التقاليد العريقة في الشجاعة العسكرية ، ولا سيما الأرمن ؛ وبذا كان بمقدور أى أمير فرنجي إنشاء جيش كامل العدة إذا ما تعاون معه الأرمن . وقد حاول بوهموند ثم تانكريد في أنطاكية ، وبالدوين الأول ثم

(١٤) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٨٠ ، وأدناه ، الفصل الثالث .

(١٥) Cahen, op. cit. pp. 110 ff.

بالدوين الثانى فى الرها، استعماله الأرمن بادى الأمر ؛ على أنه ثبت من التحارب أنهم قوم تجرى الخيانة فى عروقهم ، فامتنع الإعتماد عليهم ، ولم يجرؤ حكام أنطاكية والرها على وضعهم مواضع الثقة ، ولم يكن هناك من بد لحكام هاتين الدولتين من الإستعانة بفرسان ولدوا وتربوا فى الغرب لقيادة كتائبهم وإدارة حصونهم ، ومن الإستعانة كذلك برجال الدين الذين نشأوا فى الغرب لتسيير حكوماتهم . بيد أنه بينما كانت أنطاكية تتيح للمهاجرين حياة وادعة ناعمة، لم تجتذب الرها سوى المغامرين المعادين على حياة السلب والنهب .

المدن الإسلامية الساحلية

أما القدس ، فكانت بينها وبين الدولتين الفرنجيتين الشمالييتين مناطق فسيحة شاسعة يحكمها عدد من عواهل المسلمين الغيورين . وكانت منطقة الساحل شمالى المملكة مباشرة تحت سيطرة الموانى الأربعة عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها تدين بالولاء لمصر بحيث يقرب ذلك الولاء باقتزاب الأسطول المصرى ويضعف بابتعاده^(١٦) . وكان بنو عمار مستقلين بإمارتهم الواقعة شمالى بيروت ويحكمونها من عاصمتهم طرابلس ؛ وقد انتهز أميرها رحيل الصليبيين جنوبا فراح يوسع رقعة حكمه مؤخرا حتى طرطوس^(١٧) . وبين طرطوس واللاذقية كان القاضى ابن صليحة يحكم إمارة جبلة ، على أنه فى صيف عام ١٠٠١م سلمها إلى طغتكين - أتابج دقاق الدمشقى - الذى سلمها بدوره إلى بنى عمار^(١٨) . وفى جبال النصيرية الواقعة وراء طرطوس وجبلة كان بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس الصغيرتين ، بينما كانت إمارة الكهف تحت حكم بنى عمرو^(١٩) . وأما الوادى الأعلى لنهر العاصى فكان مقسما بين خلف بن ملاعب فى أمافيا ، وهو مغامر شيعى اعترف بالولاء للسيادة الفاطمية ، وبنى منقذ أمراء شيزر - الأمراء الأهم من تلك الأسر الحاكمة الصغيرة - وجناح الدولة فى حمص ، وهو أتابج سابق لرضوان الحلبي الذى استقل بمحمص بعد أن وقع فى خلاف مع

(١٦) Gibb, op. cit. pp. 15-18; *Le Strange, Palestine under the Moslems*, pp. 342-52

(١٧) للمزيد حول بنى عمار أنظر مقال Sobernheim "ابن عمار" فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) ابن القلائسى ، تاريخ دمشق ، pp. 51-2 *The Damascus Chronicle*

(١٩) Cahen, op. cit. p. 180

سيده^(٢٠) . وكانت حلب ما تزال فى قبضة رضوان الذى كان يحمل لقب ملك لكونه من الأسرة السلجوقية الحاكمة . وكان بنو أرتق يحكمون الجزيرة التي تقع إلى الشرق من حلب بعد انسحابهم إليها من القدس التي احتلها الفاطميون عام ١٠٩٧ م . وكان بنو أرتق أنفسهم من أتباع دقاق أمير دمشق ، الذى خلع على نفسه لقب ملك كأخيه رضوان^(٢١) .

وتفانم اضطراب هذه الانقسامات السياسية بسبب اختلاف عناصر السكان في سوريا؛ إذ كان الأتراك يشكلون أرسطقراطية إقطاعية صغيرة متناثرة ؛ وكان الأمراء الأقل كلهم تقريباً من العرب ؛ وأما سكان المدن في شمالي سوريا ومناطق دمشق ، فكانوا مسيحيين في أغلبهم ، من السريان المنتمين إلى الكنيسة البعلبكية ، والنساطرة في المناطق الشرقية ، ومن الأرمن المتسللين من الشمال ، وكان أغلب السكان في أراضى بنى عمار من المارونيين أتباع مذهب "المونوثيلية"^(٢٢) . وفي جبال النصيرية استقرت قبيلة النصيرية ، وهى طائفة شيعية يستمد منها خلف بن ملاعب قوته ، وكان الدروز - وهم فئة شيعية تؤله الحاكم بأمر الله - يقيمون في منحدرات جنوب لبنان، ويكرهون حيرانهم المسلمين ، لكنهم كانوا أشد كراهية للمسيحيين . وازداد تعقد الأمور بهجرة العرب المطردة من الصحراء ، وتدفق الأكراد من الجبال الشمالية إلى الأراضى الخصبة ، وكذلك بوجود جماعات التركمان التي كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت إمرة أى زعيم محارب يدفع لها^(٢٣) .

الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية

كان حكام مصر الفاطميون أقوى حيران سوريا من المسلمين؛ إذ كان وادى النيل والدلتا في عالم العصور الوسطى أكثر المناطق كثافة بالسكان ، وكانت مصانع القاهرة والإسكندرية العظيمتين تنتج الزجاج والفخار والأدوات المعدنية ، فضلاً عن الكتان

(٢٠) أنظر مقال Honigman "شيزر" ، ومقال Sobernheim "حمص" ، في دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك 5-6 pp. *introduction to Hitti, An Arab-Syrian Gentleman*.

(٢١) أنظر 22-4 pp. *Gibb, op. cit.*

(٢٢) (المترجم) Monotheletism معتقد لاهوتى مفاده أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٢٣) أنظر 27-9 pp. *Gibb, op. cit.*

والمسوحات المزروعة ، وكانت المحاصيل الوفيرة من الحبوب تنمو فى المناطق المزروعة ، والدلتا زاخرة بمزارع قصب السكر . كما كانت مصر تسيطر على تجارة السودان الرائجة بما تشمله من ذهب وصمغ عربى وريش نعام وعاج ، وتنقل تجارة الشرق الأقصى المبحرة عن طريق البحر الأحمر عبر الموانئ المصرية إلى البحر المتوسط . ورغم ما كان يشاع من إفتقاد المصريين للشهرة العسكرية ، كان بمقدور الحكومة المصرية أن تدفع بالجيوش الجرارة إلى الميدان ، كما كان باستطاعتها استخدام المرتزقة آيا كان عددهم ؛ فضلا عن ذلك ، فهى القوة الوحيدة التى تنفرد بامتلاك أسطول بحرى ضخم . ولذا كان من الطبيعى للحاكم الشيعى فى مصر أن يوفر الحماية للشيعية فى سوريا ، بل وللعرب السنين الذين يخشون السيطرة التركية ، ومن ثم كانوا على استعداد للإعتراف بسيادته لما كان يتحلى به دائما من تسامح ؛ على أن الغزوات التركية دأبت على تقليص الإمبراطورية الفاطمية فى سوريا ، كما أن استيلاء الفرنج على القدس وتغلبهم على التعزيزات المصرية فى عسقلان ، أضر بمكانة الخلافة الفاطمية . بيد أنه كان بمقدور مصر تعويض جيش فقدته فى معركة ، فلم يكن هناك مفر فى أن يسرع الوزير الأفضل قدر استطاعته فى الانتقام من الهزيمة واسترجاع فلسطين ، لاسيما وأنه هو نفسه أرمينى مولود فى عكا ويحكم مصر باسم الخليفة الفاطمى الصغير (الأمير) ؛ وهكذا ظل الأسطول المصرى على اتصال بالمدن الإسلامية الساحلية فى فلسطين^(٢٤) .

أما الخليفة العباسى الشاب المستظهر بالله العباسى ، والذي يعتبر ندا لنظيره الفاطمى ، فكان قابعا فى الظل فى بغداد لا ينفذ له أمر من الأمور إلا بعد موافقة السلطان السلجوقى بركيارق أكبر أبناء ملك شاه العظيم ، وإن كان دون أييه قوة واقتدارا ؛ ودائما ما كان إخوة السلطان السلجوقى يتمردون عليه ، فاضطروه إلى أن يهب أخاه الأصغر سنقر ، مقاطعة خراسان ، وظل منذ عام ١٠٩٩م فى حرب دائمة مع أخيه محمد الذى تمكن أخيرا من الفوز بمقاطعة العراق . وهكذا بقى بركيارق فى انشغال دائم يحول بينه وبين أن يكون حليفا نافعا فى الكفاح ضد المسيحيين .

وكان زعيم أصغر فرع فى الأسرة الحاكمة السلجوقية ، وهو قلعج أرسلان الأناضولى ، والذي خلع على نفسه لقب سلطان ، فى وضع أفضل قليلا من ابن عمه فى

العراق آنذاك. وكانت الحملة الصليبية الأولى قد انتزعت منه عاصمته نيقية مع حُل ثروته في معركة دوريليوم ؛ كما استردت بيزنطة أغلب الأراضي التي كان يسيطر عليها ؛ وكان على خلاف مع سلاجقة الشرق إذ رفض الاعتراف بسيادتهم . على أن المهاجرين التركمان الوافدين إلى الأناضول وفروا له الوسيلة التي أعاد بها بناء جيشه ، وأصبحوا شعبه الذي يفوق عدد المسيحيين^(٢٥). على أن الإمارة الأكثر نشاطا في شمال شرق الأناضول كانت إمارة الدانشمند في سيواس وعلى رأسها الأمير أنوشكين الذي أطبق شهرته الآفاق لإيقاعه بوهيموند في الأسر ، وكان أول قائد مسلم يحرز النصر على جيش من فرسان الفرنج ، وما فتئت قوته تتزايد بمجىء المهاجرين التركمان^(٢٦).

وكانت هناك عدة إمارات أرمينية تفصل بين أترك الأناضول والدويلتين الفرنجيتين في شمال سوريا؛ فكان أوشين يسيطر على أواسط جبال طوروس ، وأمراء بيت روبين يسيطرون على المنطقة الواقعة إلى الشرق منه ، وكواسيل في جبال طوروس المقابلة ، وثاتول في مرعش ، وجيراثيل في ملطية . وكان كل من ثاتول وجيراثيل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن ثم اتجهت ميولهما إلى بيزنطة ، وكان كلاهما يرتكز من الناحية القانونية على ما خلعه الإمبراطور على كل منهما من ألقاب . وأما أمراء بيت روبين ، الذين انفردوا بنجاحهم في إنشاء دولة كتب لها الدوام ، فكانوا على عدائهم التقليدي لكل من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية^(٢٧).

بيزنطة

كانت بيزنطة أكثر القوى المسيحية الخارجية اهتماما بشؤون سوريا . وكان الإمبراطور الكسيوس معتليا عرش الإمبراطورية لما يقرب من عشرين سنة . وقد تسلم الإمبراطورية بادی الأمر وهي في أشد حالات تدهورها ، فراح يعيد بناءها على دعائم

(٢٥) أنظر مقال "السلاجقة" و "قلج أرسلان" في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢٦) For the Danishmends, see Mukrimin Halil, article 'Danishmend', in Islam Ansiklopedisi

(٢٧) لمزيد من الإطلاع على الخلفية الأرمينية أنظر: Tourneboze, Histoire Politique et Religieuse d'Armeniepp. 168-70. وانظر أيضا أعلاه ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٥ وما بعدها.

راسخة بما عرف عنه من دبلوماسية وإدارة إقتصادية ماهرة ومعاملة حسنة لرعاياه ، بل ولأنداده داخل وخارج الإمبراطورية على السواء ؛ فاستغل الحركة الصليبية لاسترجاع غربي آسيا الصغرى من الأتراك ، وأعاد تنظيم أسطوله فسيطر به على السواحل . وكان لبيزنطة مكانتها التقليدية العظيمة فى أرجاء الشرق حتى وهى فى أشد درجات تدهورها ؛ فهى الإمبراطورية الرومانية بتاريخها الذى تحمله وراءها بألف سنة ؛ والجميع يعترف بالإمبراطور رئيسا للعالم المسيحى مهما بلغت كراهية رفاقه المسيحيين لسياسته أو حتى لجشعه ؛ والقسطنطينية أكثر مدن العالم أخذاً بالألباب لكثرة سكانها ونشاطهم ، ولضخامة ثروتها ، وتحصيناتها المنيع . وكانت القوات البيزنطية المسلحة تنفرد بأنها الأحسن تجهيزاً فى زمانها ؛ كما تنفرد عملة الصلدوس الذهبية ، (هيريرون Hyperpyron) التى تسمى بيزانت بأنها العملة الوحيدة المضمونة فى احتساب المبادلات الدولية لوقت طويل ، وكان قسطنطين العظيم هو الذى ثبت قيمتها . وكان لبيزنطة أن تلعب دوراً مسيطراً فى السياسات الشرقية لما يقرب من قرن من الزمان أمامها . على أن ما حققته بيزنطة من شتى ضروب النجاح كان يرجع فى حقيقة الأمر إلى ما كان يتصف به رجالها من ذكاء متقد ، وإلى اسمها الرومانى ، أكثر مما يرجع إلى قوتها الحقيقية ؛ فقد دمرت الغزوات التركية نظام الأناضول الإقتصادى والإجتماعى الذى كانت الإمبراطورية تعتمد عليه جُل اعتمادها لتلبية احتياجاتها من الجنود والغذاء ؛ وبرغم إمكان استرداد الأرض ، يكاد يستحيل إسترجاع النظام السابق . والآن أصبح الجيش كله تقريباً من المرتزقة ، ولذا فهو باهظ التكاليف وليس فى الإمكان كذلك الاعتماد عليه ؛ فإذا كان من الجائز الإطمئنان إلى استتجار المرتزقة الأتراك من البنجك للتصدى للفرنج أو للسلافيين ، فليس فى الإمكان وضعهم موضع الثقة أمام أتراك آسيا ؛ كما أن المرتزقة من الفرنج لن يحاربوا رفاقهم الفرنج طواعية . وكان الكسبروس قد لجأ فى مستهل حكمه لجوء المضطر إلى شراء المساعدة من البنادقة على أن يمنحهم امتيازات تجارية برغم ما لحق رعاياه من أضرار ؛ ثم أتبع ذلك بمنح امتيازات للمدينتين البحريتين جنوا وبيزا ، ومن ثم بدأت تجارة الإمبراطورية تنتقل إلى الغرباء . وبعد ذلك بقليل اضطرت حاجته إلى السيولة المالية إلى التلاعب فى العملة ، فأمر بضرب قطع من العملات الذهبية التى يقل محتواها الذهبى عما كان عليه من قبل ، فاختلت الثقة فى البيزانت ، وفى الحال أصبر عملاء الإمبراطورية على أن يتقاضوا مستحقاتهم بعملة "المبخائيليات" التى ضربت فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع ، وكانت آخر العملات التى اشتهرت بأنها الجديرة بالثقة .

وكانت أول اهتمامات الإمبراطور توفير الرفاهية لإمبراطوريته . ولقد رحب بالحملة الصليبية الأولى ، وكان مهياً للتعاون مع زعمائها ؛ لكن طموحات بوهيموند وخيائنه في أنطاكية صدمته وأغضبه ، وباتت أولى رغباته إسترجاع أنطاكية والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى . وكان تعاونه مع الصليبيين قد وصل إلى نهايته بانتقالهم جنوباً إلى فلسطين . وأما السياسة البيزنطية التقليدية طوال القرن السابق فكانت التحالف مع الفاطميين في مصر ضد السنين العباسيين والأتراك ؛ فكانت معاملة الفاطميين للمسيحيين الشرقيين تتميز بالرفق والعطف ، عدا فترة حكم الخليفة الحاكم المجنون ؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو ألكسيوس إلى افتراض أن حكم الفرنج للمسيحيين الشرقيين سيكون أفضل من حكم الفاطميين ، وبذا نأى بنفسه عن المسيرة الفرنجية التي تستهدف القدس . بيد أنه لم يكن بوسعه ، وهو باعتباره راعياً للأرثوذكس ، أن يتجاهل مصير القدس . وإذا كان مقدراً للمملكة الفرنجية البقاء ، فيكون لزاماً عليه أن يتخذ من الخطوات ما يكفل له تأكيد حقوقه ؛ وهو على استعداد لأن يظهر للفرنج في فلسطين ما يدل على حسن نواياه ، لكن مساعداته الإيجابية سوف تقتصر على مساعدتهم في فتح الطرق العابرة لآسيا الصغرى . وأما مشاعره حيال النورماندين في أنطاكية فكانت العداء لا غير ، وقد اتضح فيما بعد أنه عدوهم الخطر . ولا يبدو أنه كان يعنى النفس باستعادة الرها ، وربما تحقق من فائدة الكونتية الفرنجية بوضعها كمخفر متقدم في مواجهة العالم الإسلامي^(٢٨).

مشاكل بالدوين

ولقد برز عنصر جديد في السياسات الشرقية بتدخل المدن التجارية الإيطالية التي تخلفت عن الانضمام إلى الحملة الصليبية إلى أن أيقنت من أنها تبشر بالنجاح ؛ فعندئذ راحت بيزا والبندقية وجنوا ترسل الأساطيل إلى الشرق ، واعدة بتقديم المساعدة للصليبيين نظير حصولها على منشآت في أية مدينة تشارك في غزوها . ورحب الصليبيون بذلك ؛ فيكاد يستحيل إخضاع المدن الساحلية الإسلامية بغير القوة البحرية ، فضلاً عن أن السفن ستؤمن لهم سرعة الاتصال بأوروبا الغربية بدلاً من الرحلة الطويلة

(٢٨) للإطلاع على وضع بيزنطة وسياسة ألكسيوس ، أنظر المجلد الأول في أماكنها المختلفة .

على الياسة . على أن ما كانت تطلبه تلك المدن من امتيازات وتحصل عليه لم يكن
يعنى سوى أن تفقد حكومات الفرنج فى الشرق الكثير من الإيرادات الهامة^(٢٩) .

ولم تكن تعقدات الوضع الدولى من حول الملك بالدوين تبشره بالتفاؤل . فإما أن
حلفاءه تعوزهم الحماسة أو أنهم محمولون على الجشع ، فلا تشغلهم سوى الأنانية .
فكان يستعين بثبوت أعدائه ؛ ولو أن العالم الإسلامى وجد زعيما يجمع شمله ،
لتضاءلت فرصة البقاء أمام الدويلات الفرنجية فى الشرق . وفى ذات الوقت لم يكن مع
الدوين سوى قلة قليلة من الأنصار فى أرض مناخها مميت ، كانت على مر القرون
ساحة للإقتال بين الأمم . ولقد استبشر لنا علم بأن هناك حملات صليبية جديدة
انطلقت فعلا من الغرب .

(٢٩) يرد أحسن مرجع للدور الذى لعبه الإيطاليون فى : Heyd, *Histoire du Commerce du*
Levant vol. 1, pp , 131 ff

الفصل الثانى:

الجملات الصليبية

سنة ١١٠١م

الجمالات الصليبية سنة ١١٠١م

"فَقَالُوا لَا نَفْئِي"

(الرُّميا: ٦ . ١٧)

وصل نبأ استعادة المسيحيين لبيت المقدس إلى أوروبا الغربية في أواخر صيف ١٠٩٩ م ؛ فأثار في القلوب الحماس والبهجة . وتوقف المؤرخون في أرجاء أوروبا عن تناول الأحداث المحلية ليسجلوا تلك الرحمة العظيمة التي أنزلها الرب بهم . وكان البابا إيربان قد مات قبل أن يعلم بذلك النبأ ؛ لكن أصدقاءه ومساعديه في جميع الكنائس راحوا يمجّدون الرب لنجاح سياسته . وعاد كثير من زعماء الصليبيين خلال الشتاء التالي إلى أوطانهم ومعهم رجالهم . ولا شك في أن الجنود - كدأبهم - بالغوا في وصف ما اعترضهم من مصاعب و تصوير روعة الأراضي التي اجتازوها ، واختلقوا الكثير من معجزات السماء ليشدوا من أزرهم . على أنهم جميعا أعلنوا عن أن الحالة في الشرق تحتاج إلى محاررين و مستعمرين لمواصلة "عمل الرب" ، وأن الثروات والضياع الضخمة تنتظر من يفوز بها من المغامرين . وراحوا يشجعون حملة صليبية جديدة

بمنحها دعاة الكنيسة بركاتهم^(١).

على أن الحملة التالية لم تشرع في الرحيل إلا في بداية خريف ١١٠٠ م ، فلم يكن السفر مناسباً في أشهر الشتاء، وكان الحصاد ينتظر من يجمعه . وفي سبتمبر عام ١١٠٠ م غادرت الحملة الصليبية اللومباردية إيطاليا إلى الشرق ، وعلى رأسها أبرز الشخصيات اللومباردية أنسلم (كونت بويه) رئيس أساقفة ميلانو وبصحبته ألبرت كونت ياندرات، وجيرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتيللو . ولم يكن لأبناء لومبارديا في الحملة الصليبية الأولى دور بارز ؛ فخلال الأشهر الأولى من تلك الحملة رحل الكثير منهم شرقاً وانضموا إلى بطرس الناسك ، لكنهم أسهموا في دمار حملته لتأمرهم مع رفاقه الألمان ضد الفرنسيين ، ومن بقى منهم على قيد الحياة انضم إلى بوهيموند ، الذي علا نجمه فوق زعماء الصليبيين جميعاً نتيجة لذلك . وكانت الحملة الراهنة أكثر تنظيماً بقليل . وكان فيها قلة قليلة من الجنود المدربين ، وتألف أساساً من رعاع جاءوا من الأحياء الفقيرة في المدن اللومباردية ، بعد أن اضطرت معيشتهم لانتشار الصناعة في المقاطعة ولم يكن لهم محلا فيها . وصحبته أعداد كبيرة من رجال الدين والنساء والأطفال . وكانت حملة ضخمة الحشود يقدر المؤرخ ألبرت كونت آيكس عدد أفرادها بمائتي ألف شخص ، إلا أنه ينبغي أن نقسم هذا العدد على عشرة على الأقل . ولم يكن هناك سبيل لأن يسيطر أحد على هذا الحشد ، سواء أكان رئيس الأساقفة ، أم كونت ياندرات الذي كان يعتبر القائد العسكري للحملة^(٢).

١١٠٠ م اللومبارديون يتجمعون

وفي خريف ١١٠٠ م ، شرع اللومبارديون في مسيرتهم متمهلين ، عبر كارنيولا أسفل وادي نهر ساف وخلال أراضي ملك هنجاريا ، ودخلوا الامبراطورية البيزنطية عند بلجراد ؛ وكان الكسيوس مهياً للتعامل معهم . فسار جنود حراسته معهم عبر البلقان . وكانوا كثرة يتعذر توزيع الإمدادات عليهم ومراقبتهم وهم في معسكر واحد؛

(١) أنظر مثلاً، خطاب البابا باسكال الوارد في Migne, Patrologia Latina, vol. CLXIII, cols. 42 ff. وكان يعتقد في الشرق أنه إذا لم تصل تعزيزات فقد يتعين إخلاء الأراضي المفتوحة De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Occ. vol. v, p. 271

(٢) Albert of Aix, VIII, I, p. 559, Anna Comnena, XI, viii, I, vol. III, p. 36, كومنينيا "نورماندين تحت قيادة أخوين باسم (Phlantras)

فقرر تقسيم الحملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى لمحضى الشتاء فى معسكر خارج مدينة فيلوبوبوليس ، والثانية خارج أديانوبل (أدرنة) ، والثالثة على مشارف مدينة رودستر. وحتى مع هذه التجزئة استحالت السيطرة عليهم لما كانوا عليه من فوضى عارمة ؛ إذ راحت كل مجموعة تغير على المناطق المحيطة بمعسكرها ، تنهب القرى وتقتحم مخازن الغلال ، وتسرق الكنائس . وفى نهاية الأمر جمعهم الامبراطور فى شهر مارس فى معسكر واحد خارج أسوار القسطنطينية متوينا نقلهم إلى آسيا بغاية السرعة؛ لكنهم علموا بخروج صليبيين آخرين للحاق بهم ، فرفضوا عبور مضيق البوسفور إلى آسيا إلى أن تصل تلك التعزيزات . فقطعت عنهم السلطات الامبراطورية المؤن لإجبارهم على التحرك ، فما كان منهم إلا أن بادروا بمهاجمة أسوار المدينة وشقوا طريقهم إلى فناء قصر (بلاشيرنا) الامبراطورى حيث قتلوا أسدا ألفيا من أسود الامبراطور وحاولوا فتح بوابات القصر . وكان رئيس أساقفة ميلانو وكونت بياندرات فى ضيافة الامبراطور الكريمة ، فارتاعا لما حدث ، واندفعا خارجين إلى وسط الحشود المشاغبة ونجحا أخيرا فى إقناعها بالعودة إلى المعسكر ؛ ثم كان عليهما أن يراجعا مهمة تهدئة الامبراطور^(٣).

غير أن الذى تأتى له أن يصنع السلام هو ريموند (كونت تولوز) الذى كان بمضى فصل الشتاء فى ضيافة الامبراطور ، بعد أن فاز بثقته الكاملة . وكان ذا شهرة عظيمة لأنه أقدم أمراء الصليبيين جميعا ، وكان صديقا للبابا إيربان والأسقف آدمسار ، فأصغى له اللومبارديون ووافقوا على الأخذ بنصيحته والانتقال إلى آسيا. وبنهاية شهر أبريل كانوا قد استقروا فى معسكر بالقرب من نيكوميديا انتظارا لوصول الصليبيين الجدد من الغرب^(٤).

١١٠١م : اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية

ولم يطلو النسيان أبدا فرار ستيفن كرنيت (بلوا) من أنطاكية ، لأنه لم يفو يقسمه

(٣) Albert of Aix, VIII, 2-5, pp. 559-62; Orderic Vitalis, x, 19, vol. IV, P. 120 ,
كبرت القصة قائلا إن الإمبراطور استخدم أسوده ضد الصليبيين.

(٤) Albert of Aix, VIII, 7, p.563; Anna Comnena, XI, viii, 2 vol. III, pp. 36-7.
ريموند كان بجوزته ما يسمى (الرمح المقدس) أنظر Runciman, The Holy Lance found at Antioch', in Analecta Bollandiana, vol. LXVIII, pp. 205-6.

الصليبي، وأظهر الجبن في وجه الأعداء . ولذا كانت زوجته الكونتيسة أدبلا، إبنة وليم الغازي ، تعتصرها مرارة الخجل منه . فلم تكن تكف ، حتى حينما ينفردا معا في مخدعهما ، عن توبيخه كى يذهب لإسترداد سمته . ولم يكن بوسعها التفرع بأن الكونتية في احتياج اليه . إذ أن زوجته كانت دائما الحاكم الفعلى للكونتية . ونال منه الضجر وتملكته الهواجس الشريرة ، فانطلق إلى الأراضى المقدسة مرة أخرى في ربيع ١١٠١م^(٥).

وانتشر نبا اعتزامه الخروج، وبدأ فرسان كثيرون يعدون العدة لمصاحبته إلى أن خرجوا معه تحت قيادة ستيفن كونت برجاندى ، وهيو كونت بروي ، وبالدوين كونت جرانديبريه ، وهيو كونت بيرفوند (أسقف سواسن) . وارتحلوا جنوبا خلال إيطاليا ثم عبروا البحر الأدرياتيكي ، ووصلوا القسطنطينية في أوائل مايو تقريبا. وفى مكان ما أثناء الرحلة أدركتهم فرقة ألمانية صغيرة يرأسها كونراد الذى كان كونستابل الامبراطور هنرى الرابع^(٦).

وابتهج الصليبيون الفرنسيون لرؤية ريموند فى القسطنطينية ، وزادت بهجتهم بعد أن استقبلهم الامبراطور . وربما بإيحاء من الكسيوس ، قرروا تنصيب ريموند قائدا للحملة كلها؛ ولم يكن بوسع اللومباردين سوى الإذعان . وفى الأيام الأخيرة من شهر مايو تحرك الجيش كله من نيكوميديا فى طريقه الى دوريليوم ، و كان يتألف من فرنسيين ، وألمان ، ولومباردين ، وبعض البيزنطيين بقيادة تسيتاس ، الذى كان معه خمسمائة من المرتزقة الأتراك - وربما كانوا من البشنج.

واستهدفت الحملة الوصول إلى الأراضى المقدسة وأن تعيد ، فى طريقها ، فتح الطرق التى تخترق آسيا الصغرى فى ، وهو هدف ثانوي أيده الامبراطور تأييدا تاما . ولذا أوصى ستيفن (كونت بلوا) أن تسلك الحملة طريق الحملة الصليبية الأولى من خلال دوريليوم وقونية . ووافق ريموند على نصيحته لأنها تتفق والتعليمات التى تلقاها من الامبراطور. لكن النورماندين الذين يشكلون أغلب الجيش كان لهم رأى آخر، فبهيموند هو بطلهم ، وليس هناك غيره ممن يثقون فى قدرته على قيادتهم إلى النصر ؛ لكنه أسير لدى أمير الدانشمند فى قلعة نقصار الواقعة على مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقى من الأناضول ، فأصروا على أن تكون مهمتهم الأولى هى إنقاذ بهيموند ، ولم

(٥) Orderic Vitalis, x, 19, vol. iv, p. 119.

(٦) Albert of Aix, VIII, 6, pp. 256-3; Orderic Vitalis, loc. cit.

تجد اعتراضات ريموند وستيفن أذنا صاغية ؛ فما يشعر به ريموند من غيرة حيال برهيموند كان معروفا جيدا ، كما أن ريموند - برغم مزايده - لم يظهر أبدا بمظهر القائد الذى يأمر فيطاع . وأما ستيفن ، فقد تسبب جبهه السابق فى أنطاكية فى القضاء على ما تبقى له من نفوذ . وهكذا انتصر رأى اللومباردين بعدما أبدىهم كونت بياندرات ورئيس اساقفة ميلانو^(٧) . واخرف الجيش شرقا من نيكوميديا وبمس وجهه شطر أنقرة . وكانت البلاد فى أغلبها تحت السيطرة البيزنطية ، ولذا لم يجد الصليبيون صعوبة فى الحصول على الغذاء من أى مكان ، فيما عدا أنقرة نفسها التى تتبع الآن السلطان السلجوقي قلعج أرسلان . وعندما وصلوها يوم ٢٣ يولية وجدوا تحصيناتها ضعيفة فهاجموها واستولوا عليها ، وسلموها لممثل الامبراطور ، فكان ذلك تصرفا حكيما .

١١٠١ م : معركة مرسيفان

غادر الصليبيون أنقرة باتجاه الشمال الشرقى عبر الطريق الذاهب إلى جنجرة الرائعة إلى الجنوب من بفلاجونيا كى يصلوا إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى أماسيا ونيقصار . على أن متاعبهم بدأت ولما وصلوا إلى جنجرة ، إذ كان قلعج أرسلان يتقهقر أمامهم مخربا البلاد ليمنع عنهم الطعام . وفى ذات الوقت شعر الملك غازى الدانشمند بالخطر فبادر بتحديد تحالفه مع قلعج أرسلان ، وأرسل إلى رضوان الحلبي يستحثه على إرسال التعزيزات . وفى أوائل يوليه وصل الصليبيون إلى جنجرة حيث كان السلاجقة ينتظرونهم بأعداد ضخمة فى الحصن المنيع ، واضطر الصليبيون إلى الرحيل بعد أن نهبوا البلاد واستولوا على ما فيها من طعام ، ثم نال منهم الجوع والتعب ، وهم الذين لا قبل لهم بحرارة يولية المحرقة فى هضبة الأناضول . وبين مشاعر اليأس وخيبة الأمل أخذوا بنصيحة الكونت ريموند بأن لا سبيل إلى إنقاذ الجيش من كارثة محققة إلا بالسير شمالا باتجاه كستمنى ، ومنها إلى أية مدينة بيزنطية على ساحل البحر الأسود . ولم يساور ريموند شك فى أن الامبراطور سيفغر له مخالفته لتعليماته بعد أن استعاد له القلعتين العظيمتين : أنقرة وكستمنى ، لاسيما أن الأخيرة (كاسترا كومنون - أى قلعة كومنين) هى موطن الأسرة الامبراطورية من قبل .

(٧) Albert of Aix, VIII, 7, pp. 563-74 يقول إن قرار السير شرقا هو قرار اللومباردين.

ومضت الرحلة إلى كستمونى بطيئة مؤلة . فالماء فى تناقص ، والأتراك يدمرون المحاصيل أثناء تحرّكهم السريع فى صفوف متوازية ، يناوشون طليعة الصليبيين تارة وموخرتهم تارة أخرى . ولم يمض وقت طويل حتى هاجم الأتراك فجأة حرس الطليعة الذى كان يتألف من سبعمائة فارس من اللومبارديين فضلاً عن المشاة فلاذ الفرسان اللومبارديون بالفرار تاركين المشاة للقتل والتكيل . وبجهد جهيد تمكن ستيفن (كونت برجندي) من جمع شتات الطليعة لصد هجوم الأعداء . وخلال الأيام التى تلت تكرّر اشتباك ريموند فى المؤخرة مع الأتراك ، مما أجبر الجيش كله على أن يتحرك فى حشد واحد ، فامتنع إرسال الكشافين أو فرق البحث عن المؤن . وبوصول الجيش إلى كستمون بدا واضحاً للقادة أن فرصة النجاة الوحيدة هى الإندفاع مباشرة بقدر العقل ، ولعلمهم ألقوا باللوم كله على ريموند لإختياره طريق كستمونى بما فيه من مصاعب ، وربما ظنوا أن الأمور ستسير على ما يرام بخروجهم من أراضى السلاجقة إلى أراضى الدانشمند ، وانتهى بهم الأمر إلى إصرار أحمق على التوجه إلى الشرق مرة أخرى ، ولم يكن للأمرأ من حيلة سوى الرضوخ لإصرارهم ؛ إذ أن انفصالهم بفرقهم الصغيرة عن الجيش الرئيسى يعنى ضياعاً محققاً . وتحركت الحملة الصليبية وعبرت نهر هاليس فصارت فى أراضى الدانشمند . وفى الطريق تلبّسهم شيطان النهب والسلب ، فنهبوا قرية مسيحية قبل وصولهم إلى مدينة مرسيفان الواقعة فى منتصف الطريق بين النهر وأماسيا ، وهناك وقع الكونستابل كونراد فى كمين ففقد عدة مئات من جنوده الألمان وبات جلياً الآن أن الدانشمند وحلفاءهم يتجمعون فى حشود ضخمة استعداداً لهجوم جاد ، فراح ريموند ينظم صفوف الجيش المسيحي استعداداً للمعركة^(٨).

وبدأ الأتراك أسلوبهم المفضل فى الحرب : ينقض الرماة ويطلقون سهامهم وينسحبون بسرعة ليظهر رماة آخرون من اتجاه آخر . ولم تهيباً للصليبيين فرصة نزال رجل لرجل بحيث تظهر ميزات قوتهم البدنية الأكبر وأسلحتهم الأفضل . وسرعان ما

(٨) Albert of Aix, VIII, 8-14, PP. 564-7. يقول ألبيرت إن ريموند أخذ رشوة من الأتراك ليقود الجيش إلى كستمونى وليس هذا مقنعاً. Anna, loc. cit. تذكر أنا كومينا نهب القرية المسيحية Grousset, Histoire des Croisades, vol. II, p. 326 N. 2, من الواضح أنه على حق فى رفض ما حدده Tomaschak من أن "Maresch" التى ذكرها Albert هى (Amasea Topographie von kleinasiens, p.88) وأن يعكس ما حدده Michaud على أنه Merzifun or Mersivan. ويستطيع أى فرنسى جاهل أن يغير بسهولة Mersivan إلى Maresian or Marescan والأخيرة هى الشكل الفرنسى لـ Marash ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن وضع حرف الراء 'r' فى Amasya ، وهى الإسم التركى لـ Amasea أو Masa العربية.

انهيار اللومبارديون ، ودب الرعب فى قلوبهم وهم يولون الأدبار يسبقهم قائدهم كونت بياندرات تاركين وراءهم نساءهم وقساوستهم ، وفى الحال لحق بهم المرتزقة من البتشنج الذين لم يجدوا أى مبرر لانتظار موت محقق . وصار ريموند وحيدا بعد أن هجره رفاقه ، فتقهقر مع حرسه الخاص إلى تل صخرى صغير وراح يقاوم إلى أن تمكن ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجاندى من إنقاذه . وارتد الفرسان الفرنسيون وكونراد الألمانى إلى المعسكر حيث قاوموا بشجاعة طوال النصف الثانى من النهار . وبحلول الليل وجد ريموند أن لا طاقة له بمزيد من القتال ، فهرب متخفيا تحت جناح الظلام مع حرسه الخاص (البروفانس) والحرس البيزنطى ، وبم وجهه شطر الساحل . ولما علم رفاقه بفراره كفوا عن القتال ؛ وشهد انبلاج الصباح تسابق من لجأ من الجيش تاركين المعسكر يستولى عليه الأتراك بمن فيه من غير المحاربين.

وتجهل الأتراك فى المعسكر ليقتلوا الرجال والمسنين ، ثم انطلقوا يتعقبون الفارين وقد أخذ الحماس منهم كل مأخذ ، ولم يفلت من سيوفهم سوى الفرسان على خيولهم، ولم يبق من اللومباردين المعاندين الذين تسببوا فى الكارثة سوى قاداتهم . وهكذا فقد الجيش أربعة أحماسه ، وفاز الأتراك بكثير الكثير من نفيس الثروة والأسلحة ، وامتلأت أجنحة الحريم وأسواق الرقيق فى الشرق يومئذ بالأسرى من الصبايا والأطفال^(٩).

وأفلح ريموند وحرسه فى الوصول إلى ميناء بافرا البيزنطى الصغير على مصب نهر هاليس حيث وجدوا سفينة أبحرت بهم إلى القسطنطينية ؛ وأما الفرسان الآخرون فقد شقوا طريق عودتهم عبر النهر حتى الساحل عند سينوب على البحر الأسود ، حيث واصلوا سيرهم البطئ على الطريق الساحلى وسط الأراضى البيزنطية وحتى البوسفور ثم تجمعوا مرة أخرى فى القسطنطينية فى باكورة الخريف^(١٠).

١١٠١ م نتائج معركة مرسيفان

حاول الرأى العام الصليبي أن يجد كبش فداء يلقي عليه بمسؤولية الكارثة ، فوجده فى بيزنطة ؛ إذ قيل إن ريموند بقيادته للجيش فى غير طريقه ، ليهلك فى كمين

(٩) Albert of Aix, VIII, 14-23, pp. 567-73, وتتفق روايه ألبرت مع الرواية المقتضبة التى روتها آنا كومينا، Anna Comnena, xi, viii, 3, vol. iii, pp. 37-8.

(١٠) Albert of Aix, viii, 24, p. 274.

متفق عليه سلفا ، إنما كان ينفذ تعليمات الامبراطور . لكن الحقيقة هي أن الامبراطور غاضب الآن على ريموند ورفاقه برغم استقباله لهم بأدب يشوبه برود لا يخفى إمتعاضه^(١١) ، وكان حريا به أن يغفر لهم لو أن الحملة الصليبية استردت له كستموني والجزء الداخلي من بفلاجونيا ؛ فقد كان متلهفا على طريق مباشر مأمون إلى سوريا ، وراغبا في تأمين معاودة غزواته في جنوب غرب آسيا الصغرى ، وساعيا إلى التدخل في شؤون سوريا ، فضلا عن عزوفه عن التورط في حرب مع الأمير الدانشمندى ، لاسيما أن المفاوضات جارية الآن لشراء بوهموند ؛ وهكذا فشلت مخططاته بسبب حماقة اللومباردين ليس إلا . على أن الكارثة كانت لها آثارها الأخطر ؛ فالحملة الصليبية الأولى جردت الأتراك من شهرتهم ومن ثقتهم بأنفسهم كذلك ، ولكن الأتراك الآن استعادوا الشهرة والثقة بالنفس على السواء ، وتمكن السلطان السلجوقي من بسط سيطرته على أواسط الأناضول ، وسرعان ما أقام عاصمة ملكه في قونية الواقعة في قلب الطريق الرئيسى من القسطنطينية إلى سوريا ، بينما واصل الملك غازى الدانشمندى غزواته في وادى الفرات وحتى مشارف كوتية الرها^(١٢) . وهكذا بات الطريق البرى من أوروبا إلى سوريا مغلقا في وجه البيزنطيين ، فضلا عن الصليبيين . وعلاوة على ذلك ، ساءت العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة لإصرار الصليبيين على أن صانع بلاياهم هو الامبراطور ، بينما شعر البيزنطيون بالصدمة والغضب لغباء الصليبيين وجحودهم وخداعهم.

١١٠١ م : الحملة الصليبية النفوسية

لم يمض وقت طويل حتى اتضحت نتائج الكارثة . فبعد أيام قليلة من انطلاق اللومباردين من نيكوميديا ، كان جيش فرنسى قد وصل القسطنطينية وعلى رأسه وليم الثانى ، كونت نفرس . وكان قد خرج من وطنه في فبراير ١١٠١ م ، مرتحلا عبر إيطاليا ثم عبر البحر الأدرياتيكي من برنديزى إلى أفلونا . وترك جيشه انطبعا رائعا أثناء مسيرته عبر مقدونيا لما أبداه من انضباط ، واستقبل الامبراطور الكونت استقبالا حسنا ، ولكن الكونت قرر عدم البقاء فى القسطنطينية ؛ وربما توقع أن ينضم فى القسطنطينية إلى قوات كونت برجندي - وهو جاره فى الوطن - ولذا أسرع فى الرحيل قدر

(١١) Ibid., loc. cit. يقول إن ريموند راح يهدى من حفيفة الإمبراطور.

(١٢) Cahen, La Syrie du Nord, p.232; Michael the Syrian, iii, pp.189-191.

استطاعته آملا اللحاق به . وبوصوله نيكوميديا ، علم أن الصليبيين ذهبوا إلى أنقرة ، فوصلها في نهاية يولييه تقريبا . على أنه لم يكن هناك من يعرف مكان الجيش الفرنسي اللومباردى ؛ ولذلك عاد وليم متخذاً الطريق الذهاب إلى قونية . وبرغم ما لقيه الجيش في رحلته من مشاق في بلد لم يبرأ من الخراب منذ الحملة الصليبية الأولى ، فقد تقدم الجيش في نظام تام . وكانت قونية آنذاك في قبضة حامية سلجوقية قوية ، وباءت بالفشل محاولات وليم في الهجوم على المدينة للاستيلاء عليها . وتحقق من أن التأخير هناك يخلو من الحكمة ، فواصل مسيرته . بيد أنه في تلك الأثناء علم قلعج أرسلان والملك غازي بظهور هذا العدو الجديد . وكان حماس الانتصار على اللومباردين ما يزال مشتتلا ، فأسرعا جنوبا ربما خلال (قيصرية مزاك) و(نيجده) ، فوصلا هرقله قبل وليم . وكان الجنود النفريسيون يسرون ببطء باتجاه الشرق من قونية ، وقد نفذ الطعام ، والآبار الموجودة على الطريق قد سدعا الأتراك . ولدى اقترابهم من هرقله ، وهم في حالة من شدة التعب والضعف ، وقعوا في كمين وأحاط بهم الجيش التركي الذي كان يفوقهم بأعداد الغفيرة . وانهارت مقاومتهم بعد قتال قصير . وسقطت القوة الفرنسية بكاملها في ميدان المعركة ، عدا الكونت وليم نفسه والقليل من الفرسان الراكبين الذين تمكنوا من اختراق خطوط الأتراك ، وبعد أن هاموا على وجوههم عدة أيام في جبال طوروس وصلوا قلعة جيرمانيكوبوليس البيزنطية ، الواقعة شمال غرب سلوقية الإيزورية . ويبدو أن الحاكم البيزنطي هناك أمدهم بقوة من اثني عشر جنديا مرتزقا من البتشنج لمرافقتهم حتى الحدود السورية . وبعد ذلك بأسابيع قليلة دخل الكونت وليم ورفاقه أنطاكية ، نصف عرايا وبلا سلاح، قائلين إن البتشنج استلبوهم وتركوهم في الصحراء التي كانوا يعبرونها ؛ غير أن ما حدث في حقيقة الأمر لا يعلمه أحد^(١٣).

١١٠١ م : الحملة الصليبية الأكيانية

لم يكد كونت نفرس يعبر البوسفور في طريقه إلى الأراضي المقدسة حتى وصل القسطنطينية جيش آخر أكبر يتألف من فرنسيين وألمان . وكانت الفصيصة الفرنسية بقيادة وليم التاسع ، دوق أكيان ، الذي كان أشهر الشعراء الغنائيين في عصره (Troubadour)، والذي كان من الناحية السياسية غريبا مريرا لريموند التولوزي ؛ إذ أن زوجته ، الدوقة فيليبا ، هي ابنة الأخ الأكبر لريموند ، وكان لها أن ترث كورنتيته. وجاء

مع وليم التاسع هيو (كونت فيرمندوا) الذى كان قد تخلى عن الحملة الصليبية الأولى بعد الإستيلاء على أنطاكية ، وكان متلهفا على الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . وانطلق الجيش الأكيثانى من فرنسا فى شهر مارس فى الطريق البرى الذى يخرق جنوب ألمانيا وهنجاريا . وفى الطريق انضم إليه الدوق ويلف دوق بافاريا الذى أمضى حياة حافلة فى ألمانيا، ثم أزمع أن يمضى مابقى له من سنوات الشيخوخة فى الحرب من أجل الصليب فى فلسطين . وأحضر معه جيشا مجهزا تجهيزا جيدا يتألف من فرسان وراجلين ؛ وكان بصحبته ثيمو ، رئيس أساقفة سالزبرج ، ومرجافين إيدا النمساوية ، وكانت إحدى أجمل نساء عصرها؛ لكنها الآن وقد ولت شبابها سعت إلى مافى الحملة الصليبية من إثارة يشوبها الورع . وسار الجيشان المتحدان معا أسفل نهر الدانوب إلى بلجراد ثم سلكا الطريق الذى يخرق البلقان . وكان حشدا جامعا يغلب على سلوكه العبث الذى بلغ مداه بوصولهم اديانوبل ؛ فأرسلت السلطات البيزنطية جنود البشنج و الأتراك الروس (البولوفسيان) لوقف أى تقدم آخر لهم . وبدأت معركة عادية ؛ ولم يسمح لهم بالتقدم إلا بعد أن تدخل الدوق وليم ومعه ويلف شخصا وتعهدا بانضباط سلوك الجنود . ورافقهم حرس قوى حتى القسطنطينية ، حيث استقبل الكسيوس الكونت وليم ، وويلف ، ومارجافين ، استقبالا حسنا، وكان قد أعد العدة لنقل رجالهم بأسرع ما يمكن عبر البوسفور . واستقل بعض الحجاج المدينين سفينه أخذتهم مباشرة إلى فلسطين التى وصلوها بعد رحلة استغرقت ستة أسابيع، وكان بينهم المؤرخ إيكارد (كونت أورا) Ekkehard of .Aura

وكان بمقدور الدوقين اللحاق بوليم الثانى كونت (نفرس) وتقوية جيشيهما بالانضمام الى قواته. لكن كونت نفرس كان يرغب فى الانضمام الى كونت برجندي ، وليس من المتوقع أن ينضم الدوق وليم الى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز . أما ويلف البافارى ، الذى كان عدوا قديما للإمبراطور هنرى الرابع ، فربما كانت المودة منعدمة بينه وبين كونراد ، الذى كان يعمل فى خدمة هنرى الرابع (كونستابل) . وأسرع كونت نفرس متقدما إلى أنقره ، بينما تريت الجيش الأكيثانى البافارى على ضفاف البوسفور خمسة أسابيع ، ثم تحرك متمهلا على طول الطريق الرئيسى الذاهب إلى دوريليوم وقونية . ووصل دوريليوم بعد أن غادرها الجيش النفرسى بأيام قليلة وابتعد كثيرا فى طريق عودته باتجاه قونية . ومما زاد من صعوبات الأكيثانيين والبافاريين مرور جيش آخر على نفس الطريق قبل ذلك بأيام قليلة ، مستوليا على

القدر الضئيل الذي كان متاحا من إمدادات الطعام ، فألقى الصليبيون باللوم على البيزنطيين خاصة . وكشأن النفوسيين ، وجدوا الآبار جافة أو مسدودة فنهبوا مدينة فيلوميلوم بعد أن هجرها أهلها . وكانت الحامية التركية ، التي صدت الجيش النفوسي في قونية ، قد محرت المدينة قبل وصول هذا الجيش الأكبر آخذة معها كل شيء يؤكل ، ونزعت الثمار والفواكه من البساتين والحدائق جميعا ، فلم يجد الصليبيون ما يجددون به حيوتهم . وفي نفس تلك اللحظة تقريبا كان قلج أرسلان وملك غازي أمامهم على مسافة مائة ميل تقريبا يذبحون رجال نفوس.

١١٠١ م : معركة هرقله

راح الصليبيون يكدحون في شق طريقهم من قونية خلال الصحراء نحو هرقله وقد نال منهم الجوع والعطش . وظهر فرسان الأتراك من يمينهم ويسارهم ، يرشقونهم بسهامهم ، ويتصيدون فرق البحث عن الطعام والجماعات الشاردة . وفي أوائل سبتمبر دخلوا هرقله فوجدوها مهجورة مثل قونية . وكان النهر يتدفق بمياهه وراء المدينة ، وهو أحد الأنهار القليلة ذات المياه الوفيرة طوال الصيف في الأناضول.

واندفع المحاربون المسيحيون نحو المياه التي بدت لهم مرجحة تاركين صفوفهم وقد أوشكوا على الجنون من قسوة الظمأ ، ولكن الجيش التركي كان مخبئا في الأجسام الكثيفة على جانبي النهر . وبينما كان الصليبيون في صخبهم الفوضوي ، انقضَّ عليهم الجيش التركي وأحاط بهم ، ولا وقت هناك لإصلاح الصفوف ، فدبَّ الذعر في الجيش المسيحي واختلط الفرسان والمشاة في فرارهم مذعورين ، وأثناء تعثرهم في محاولة الفرار راح العدو يعمل فيهم السيف . وتمكن دوق أكيثان من شق طريقه على فرسه إلى الجبال يتبعه سائس الخيل ، وبقي هكذا هائما على وجهه أياما عدة إلى أن عثر على طريق طرسوس . وخرج هيو (كونت فيرمندوا) حرجا بليغا في المعركة ؛ وتمكن بعض رجاله من إنقاذه وتمكن هو الآخر من الوصول إلى طرسوس ، لكنه كان رجلا ميتا ، إذ وافته المية يوم ١٨ أكتوبر ودفن هناك في كنيسة القديس بطرس ، ولم يفد بعده الذي قتلته على نفسه بالذهاب إلى القدس . ولم يفلح ويلف الباساري في النجاة إلا بعدما ألقي بدروعد كلها ، وبعد عدة أسابيع وصل إلى أنطاكية مع اثنين أو ثلاثة من خدمه . وأسير رئيس أساقفة نيمو ، واستشهد في سبيل عقيدته . وأما مصير راجرافين النمساوية ولا يعلمه أحد . وتقول الأساطير المتأخرة إنها أنهت أيامه مسيرة في

حريم بعيد حيث ولدت البطل المسلم زنكى ، والراجح أنها سقطت من فوق محبتها أثناء الذعر وداستها الأقدام حتى ماتت^(١٤).

انتهت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاث عام ١١٠١ م بكارثة ، مما كان له أثره فى قصة الحركة الصليبية برمتها. فقد انتقم الأتراك لهنجنتهم فى دوريليوم ، وفضلا عن ذلك ، ليسوا هم الذين يطردون من الأناضول . وظل الطريق عبر شبه الجزيرة محفوقا بالمخاطر للجيوش المسيحية ، فربحية كانت أو بيزنطية . وفيما بعد عندما رغب البيزنطيون فى التدخل فى سوريا ، كان عليهم تعزيز مواقعهم فى نهاية خطوط المواصلات التى كانت طويلة وضعيفة جدا ؛ بينما كان المهاجرون الفرنج ينجشون الرحيل برا عن طريق القسطنطينية ، إلا إذا كانوا فى صحبة جيوش حرارة ، وليس أمامهم سوى ركوب البحر ، وهو أمر لا يتوفر إلا للقليل من ذوى القدرة المالية . وبدلا من وصول آلاف المستعمرين الذين تستفيد منهم سوريا وفلسطين فى ذلك العام ، لم يصل إلى الدويلات الفرنجية سوى عدد ضئيل من القادة المشاغبين الذين فقدوا جيوشهم شهرتهم ، حيث يوجد بالفعل ما يكفى من القادة المشاغبين.

ومع ذلك ، لم يشعر المسيحيون كلهم بالأسف لكوارث عام ١١٠١ م . إذ وجدت المدن البحرية الإيطالية أن الفشل فى تأمين الطريق البحرى عبر آسيا الصغرى يعنى زيادة نفوذها وثروتها؛ فهى تملك السفن التى توفر البديل لخطوط مواصلات الدويلات الفرنجية فى الشرق ، وأصبح التعاون معها أمرا لازما لازبا ، وأصروا على أن يكون الدفع فى شكل امتيازات تجارية . وأما الأرمن فى جبال طوروس ، خاصة الأمراء الرويون ، فقد رحبوا بالظروف التى حالت دون معاودة بيزنطة إنشاء امراطوريتها فى المناطق التى يعيشون فيها ؛ رغم أن الأرمن الأقرب إلى الشرق كانوا أقل ابتهاجا لتلك الظروف ، إذ أن عدوهم الرئيسى هو الأمير الدانشمندى ، الذى سرعان ما دفعه حماس انتصاره إلى مهاجمتهم . أما النورمانديون فى أنطاكية ، كشأن

(١٤) Ekkehard, XXIV, (وهو المصدر الوحيد الكامل)؛ Albert of Aix, VIII, 34-40, pp.579-82, XXVI, pp.30-2, ذهب بحرا من القسطنطينية ، ويشوش الحملات الأرضية كما يفعل Fulcher of Charters, VII,xvi, 1-3, pp. 428-33. وهناك ثلاثة Passiones S. Thiemonis يصف استشهاد رئيس الأساقفة ولكن ليس هناك تفصيلات عن الحملة . وأما مصر لإيدا الحدسى فيرد فى M.G.H.Ss.vol. XXI, p. 462. Historia Welforum Wengartensis, in؛ ويقول إكهارد إنها قتلت لا غير . وهناك عدة مؤرخين غربيين يشيرون إلى هذه الحملة بمجرد المناسبة . ويحدد Hagenmeyer (op.cit. p. 457) تاريخ نهب فيلوميلوم بحوالى ١٠ أغسطس ، وتاريخ المعركة بحوالى ٥ سيمير.

الروبيين ينجشون بيزنطة أكثر مما ينجشون الأتراك، فقد أتيحت لهم فسحة من الوقت نافعة؛ فما زال بوهيموند في الأسر المظني، وانتهاز تنكريد - الرصى على أنطاكية - الفرصة بكاملها وراح يقوى الإمارة على حساب الامبراطور. وسرعان ما وضعت الأقدار في يده ورقة رابحة.

١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

كان دوق أكيان، وكونت بافاريا، وكونت نغرس، قد وصلوا فعلا مع القليلين الباقين على قيد الحياة إلى أنطاكية بحلول خريف ١١٠١ م. أما قادة الحملة الصليبية الفرانكلونية فكانوا لا يزالون في القسطنطينية. وكان من الصعب أن يغفر لهم ألكسيوس حماقتهم. حتى ريموند الذي كان يعلق عليه الآمال العراض نجيب آماله هو الآخر. وفي نهاية العام قرر الأمراء الغربيون مواصلة رحلة الحج؛ وطلب ريموند الإذن ليلحق بزوجه وحيشه في اللاذقية، فأذن لهم الامبراطور وأمدهم بسفن أبحرت بهم إلى سوريا. وفي بداية العام تقريبا هبط إلى البر في ميناء السويدية ستيغن (كونت بلوا)، وستيغن (كونت برجندى)، والكونستابل كونراد، وألبرت (كونت بياندرا)، وأسرعوا إلى اللاذقية حيث رحب بهم تنكريد ترحيبا حارا أما سفينة الكونت ريموند فقد انفصلت عن باقي السفن واضطرت إلى الرسو في ميناء طرسوس. وما أن وطئت قدمه البر حتى تقدم منه فارس يدعى برنار الغريب وألقى القبض عليه لخياسته العالم المسيحي بفراوه من ميدان القتال في مرسفان. ولم يكن بمقدور حرس ريموند الخاص أن يفعل شيئا لقله عدده، فلم يتمكن من إنقاذه. واقتيد ريموند تحت الحراسة وسُلم لتنكريد^(١٥).

(١٥) Albert of Aix, viii, 42, pp. 582-3. كان برنار الغريب هو الأمر في طرسوس في سبتمبر ١١٠١م (انظر ادناه ص ٦٤). وكما يفرض رادولف (Radulph of Caen) cxlv, p. 708, من المحتمل أن يكون ريموند قد هبط إلى الساحل في لوتنجيادا، أو ميناء طرسوس، وليس في السويدية مع الصليبيين الآخرين كما يفترض ألبرت. أما ماثيو الأورفسى Matthew of Edessa, clxxii, p. 242 فيقول إن ريموند قد سُحِن في (ساروانتافي)، أي سارفينتيكار في جبال طوروس. وليس ذلك محتملا.

الفصل الثالث:

**أمراء أنطاكية
النورمانديون**

أمراء أنطاكية النورمانديون

"وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قبصر"

(أعمال الرسل : ١٧ - ٧)

وبرغم انزعاج أمراء الفرنج ، على ما بدا آنذاك ، لهزيمة بوهيموند ووقوعه أسيرا لدى الملك غازي الدانشمندي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من أحداث وجدوا فيها بعض عيوض ؛ فأنطاكية في حاجة إلى وصى عليها في غيبة بوهمند ، وكان تنكريد هو المرشح لمباشرة مهام الإمارة بدلا من خاله الأسير، وبذا تمكن الملك بلدوين من التخلص من أخطر أتباعه في فلسطين ، بينما أقبل تنكريد على أنطاكية تسبقه مشاعر البهجة ، ففيها الخلاص من وضع لا يخلو من حرج ، يفتقر فيه إلى الأمان ، وفيها أحوال جديدة يتسع فيها المجال ويتحقق الإستقلال . وعندما رحل عن فلسطين في شهر مارس ١١٠١م لم يكن لديه سوى شرط واحد : أن يستعيد إقطاعية الجليل التي سبق أن استولى عليها، في حالة إطلاق سراح خاله من الأسر خلال ثلاث سنوات وإذا لم تعد

أنطاكية في احتياج إليه . وهكذا بات بلدوين وتنكريد كلاهما حريصا على بقاء بوهيموند أسيرا أطول فترة ممكنة ، ولم يبذلا أية محاولة للتفاوض مع أسرته^(١) .

وتوخى تنكريد الاستقامة في وصايته على أنطاكية . فلم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية وبرغم أنه سلك عملة - كما تقول الأسطورة في لغة يونانية رديئة - فلم تحمل هذه العملة سوى عبارة (خادم الرب) . وكان أحيانا يطلق على نفسه (الأمير الأكبر) ، ولو أن طموحاته أغرته بأكثر من ذلك لوجد معارضة من الرأي العام في أنطاكية على الأرجح، فما زال النورمانديون يعتبرون بوهمند قائدهم ، كما كان هناك صديق مخلص لبوهمند هو البطريق اللاتيني "برنار الفالنتسي" الذي عينه قبل الأسر مباشرة والذي من أجله طرد البطريق اليوناني "جون الأوكريتي" . وسار تنكريد على نفس السياسة التي كان يسير عليها بوهمند ، فراح يعزز الجوانب الداخلية في إدارة الإمارة ، ويضفي الصيغة اللاتينية على الكنيسة؛ وفي الشؤون الخارجية دأب على تحقيق الشراء على حساب البيزنطيين وأمراء المسلمين من جيرانه . على أن طموحاته المحلية فاقت طموحات خاله، على عكس طموحاته العالمية التي كانت أقل من طموحات خاله^(٢) .

١١٠١م تنكريد وبيزنطة

وكان أول شاغل لتنكريد هو توفير الحماية من أى هجوم بيزنطي . وقد ساعده ما منى به الصليبيون من كوارث عام ١١٠١ م ؛ فلا يستطيع الامبراطور - بعد النهضة القوية لأتراك الأناضول - أن يسير جيشا يجتاز شبه الجزيرة ويمضى مباشرة إلى الجنبوب الشرقى البعيد . وكان تنكريد يرى أن الهجوم هو أفضل سبل الدفاع ، ولذا بعث في صيف ذلك العام - وربما فور أن سمع بأنباء مرسيفان - بالجنود إلى كيليكيا لاستعادة مامسترا وأضنة وطرسوس التي كان البيزنطيون قد استردوها قبل ذلك بثلاث سنوات . ولم تكن القوات البيزنطية المحلية من القوة بحيث تصمد لمقاومة قواته ، فكان له ما أراد.

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8.

(٢) Schlumberger, *Les Principautés franques du Levant*, pp. 14-15, التي تظهره في أردية امبراطورية ، ومع ذلك توجد "كوفية" على رأسه . ومنقوش على العملة باللغة الإغريقية : "تانكريد ، خادم الله" ، وعلى الوجه الآخر : IC XP NIKA (مثل العملات البيزنطية) . وطبقا لما ورد في *Historia Belli Sacri*, p. 228 لم يتأكد منصبه كحاكم إلى أن أقسم قسم الولاء لبوهيموند وحل عليه الوصاية المنسوب البابوي موريي أوف بورتو *Maurice of Porto*.

وعندما لجأ وليم كونت أكيثان وهيو كونت فيرمندوا إلى طرسوس في نهاية سبتمبر كان برنار الغريب التابع لتنكريد حاكما على المدينة^(٣) .

وبعد ذلك تحول اهتمام تنكريد إلى ميناء اللاذقية البيزنطى الذى كان الرومانديون يشتهرونه منذ زمن طويل . وكان ميناء هاتلا ، خاصة بعد بحرى جنود ريموند البروفانسى من مقاطعة بروفانس الفرنسية مما أضاف قوة جديدة للميناء ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى يوفر له الحماية بحرا، فلم يجرؤ تنكريد على مهاجمة اللاذقية قبل أن يتفاوض مع مدينة جنوا الإيطالية ضمانا لمساعدة سفنها^(٤) . فراح يحتل البلاد الداخلية ويحاول الإستيلاء على جبلة فى الجنوب . ولقد سبق أن حاول بوهمند الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠٠م بحملة صغيرة أسر فيها "الكونستابل" التابع له وباءت تلك الحملة بالفشل ؛ وكذلك فشل تنكريد فى الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠١م . على أن حملة تنكريد هذه الفاشلة دفعت قاضيا ابن صليحة إلى تسليم المدينة لأتابج دمشق ، وتقاعد هو نفسه فى دمشق ليمضى شيخوخة هادئة . وأرسل أتابج دمشق ، طغتكين ، ابنه بورى ليتولى حكم جبلة . لكنه كان مكروها ، فخلعه أبناء جبلة بعد أشهر قليلة ووضعوا أنفسهم تحت حماية بنى عمار فى طرابلس ، وسحب تنكريد جنوده من المنطقة^(٥) .

وقد مكّنه اعتقاله لريموند وحجزه فى أنطاكية من معاودة خطته للإستيلاء على اللاذقية . على أن تصرفه حيال ريموند كان بمثابة صدمة للبطريق برنار ولرفاقه الصليبيين . ونزولا على رغبتهم أطلق سراح ريموند ؛ على أنه كان لزاما أن يقسم ريموند أولا على عدم التدخل مطلقا فى شؤون سوريا الشمالية^(٦) . وانطلق ريموند لغزو طرسوس ، وفى طريقه الذى يمر باللاذقية التزم بقسمه وأمر جنوده بإخلاء المدينة والانضمام إليه ومعهم زوجته الكونتيسة ، وهكذا ترك الحامية البيزنطية وحيدة دون مساعدة البروفانس الفرنسيين . وفى ربيع ١١٠٢م زحف تنكريد على اللاذقية ، لكن أسوارها المنيعة استعصت عليه وصدته حاميتها ببسالة ، بينما كانت وحدات البحرية

(٣) Radulph of Caen, cxliii, p. 706; Albert of Aix, VIII, 40, p. 582; Orderic Vitlais, XXIII, p. 140

(٤) Caffaro, Liberatio, p. 59; Ughelli, *Italia Sacra*, IV, pp. 847-8.

(٥) Ibn al-Qalanisi, Damascus, pp. 51-2.

(٦) Albert of Aix (VIII, 42, pp. 582-3) يقول إن ريموند أقسم ألا يغزو سوريا شمال عكا، وحيث لا اعتراض على هجومه على طرسوس فرما اقتصر قسمه على البلاد الواقعة إلى الشمال من اللاذقية .

البيزنطية تزود الحامية بالمؤن ، واستمر الحصار لما يقرب من عام . وفى الأسابيع الأولى من ١١٠٣م ، وبينما كان تنكريد ينتظر سفن جنوا التى استأجرها لقطع المواصلات بين اللاذقية وقبرص ، تدبر خدعة حربية لرجال الحامية خارج أسوار المدينة ، وانقض عليهم وأوقعهم فى الأسر ، فاستسلمت له المدينة^(٧) .

١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس ليرضى عن تلك التصرفات ؛ إذ أغضبه إبعاد بطريق أنطاكية اليونانى جون الأوكسىتى ، وطرد رجال الدين اليونانيين واستبدالهم بآخرين من اللاتينيين . وكان قد تسلم رسالة فى باكرة ١١٠٢م من الملك بلدوين يرجوه فيها بذل ما لديه من جهد لمساعدة أية حملة صليبية تالية ، وذلك بعد أن سمع شائعة تقول إن البيزنطيين ساعدوا فى تخطيط الحملات الصليبية سنة ١١٠١م بامتناعهم عن التعاون معها . وحمل رسالة بلدوين أسقف يدعى مناس كان قد ذهب إلى فلسطين مع إكارد فى ١١٠١م وكان عائدا لثوره من القدس . ويدو أن العبارات الرقيقة كانت تغلب على أسلوب الرسالة ، فضلا عما حملة الأسقف من هدايا باللدوين ، فتأثر الامبراطور ألكسيوس وظن أن بمقدوره مصارحة الأسقف بما يداخله من أحزان ، لكنه أخطأ الحكم على الرجل ؛ إذ كان الأسقف لاتينيا أكثر منه مسيحيا ، ولا تعاطف لديه إزاء اليونانيين ، ورجاه الامبراطور أن يذهب إلى إيطاليا ويبلغ البابا بما صارحه به ، ففعل الأسقف وإنما بطريقة أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا إيربان الثانى على قيد الحياة ما وقع الضرر لما كان يتصف به من سعة الأفق وعزوف عن الدخول فى خلافات مع العالم المسيحى الشرقى ؛ أما خلفه البابا باسكال الثانى فكان ضئيلا بجانب سلفه ، منعدم البصيرة ، سهل الإنقياد . وسرعان ما وافق على وجهة النظر الفرنجية المبتذلة من أن الامبراطور يناصبهم العداء . ولم يجد الامبراطور سبيلا للانتصاف .

ثم حاول تنكريد التدخل فى شؤون مملكة القدس . وفى ١١٠١م نفى الملك بلدوين البطريق دياميرت ، فرحب به تنكريد على الفور فى أنطاكية حيث وضع كنيسة القديس حورج تحت تصرفه . وبعد أشهر قليلة انهزم الملك بلدوين أمام العرب فى

(٧) Radulph of Caen, cxliv, pp. 708-9, Anna Comnena, IX, vii, 7, vol. III, p. 36.

الرملة ، فاستنجد بأمرأء الشمال ، لكن تنكريد رفض تقديم المساعدة ما لم يرجع البطريق دياميرت إلى القدس ويسترد بطريقته ، فاضطر بلدوين إلى الموافقة ، وهذا ارتفعت شهرة تنكريد ، غير أنها خبت عندما أدين دياميرت في أحد المجالس الكنسية وتقرر طرده مرة أخرى ، فرحب به تنكريد مرة ثانية ، لكنه لم يواصل الدفاع عن قضيته .

١١٠٢م بلدوين الثاني يرهن لحيته

ولم تلق تصرفات تنكريد استحسانا قط من جاره في الرها بلدوين أوف ليسبورج . وأبو بلدوين ، وهو هيو الأول كونت ريثيل ، هو ابن أميرة من بولونيا ، وهى عمه جودفري كونت لورين والملك بلدوين . ولأن بلدوين الثاني هذا ابن هيو الأصغر ، ومن ثم مفلس ، فقد جاء إلى الشرق مع أبناء عمومته ، لكنه بقى مع بوهمند في أنطاكية وقت أن نصب بلدوين الأول نفسه في الرها ، وكان يقوم بدور الوساطة والاتصال بين الأميرين ، فلما وقع بوهمند في الأسر تولى حكومة أنطاكية إلى أن استدعى بلدوين من الرها وأصبح ملك القدس ، وعندئذ خلع الملك بلدوين على ابن عمه ، بلدوين كونت ليسبورج ، إقطاعية الرها ليحكمها حكما ذاتيا تحت سيادة القدس . ولم يكن وضعه هذا الذي ورثه في الرها وضعاً سهلاً ؛ فليست لإمارة الرها حدود طبيعية ، وهى معرضة للغزو دائماً ، ولا يستقيم له حكم إلا بتعزيز المدن الرئيسية والحصون بالحاميات ، وإذن كان فى احتياج إلى من يثق فيهم من القائمين على خدمته ومن رفاقه ، لكنه يفتقر إلى رجال من أبناء جلدته ، فراح يعمل على توثيق عرى الود مع المسيحيين من أهل البلد . وكان أول عمل يقدم عليه حيال ذلك هو زواجه - بصفته كونت الرها - من أميرة محلية هى الأميرة "مورفيا" ابنة جبرائيل القديم صاحب ملطية ذى العرق الأرمني ، ولكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفى ذات الوقت راح يتودد للأرمن من أتباع الكنيسة الغريغورية المنفصلة وفاز بموازرتهم ، ومن بينهم مؤرخهم الكبير ماثيو الأورفى (أوف إيديسا) الذى كان يثنى عليه غاية الثناء لما يتحلى به من طباع ودودة ومسلك لا تشوبه شائبة برغم تدمه على طموحاته وبخله . وعلى الرغم من المحابة التى كان بلدوين يظهرها للأرمن بوجه خاص كى ينتفع بهم فى حروبه ، فقد كان يظهر العطف كذلك على رعاياه من السريان اليعاقبة ، وأفلح فى رأب صدع حدث فى كنيستهم . ولم يكن هناك ما يعيب بلدوين سوى الجشع ؛ فكان

فى احتياى لا ينقطع إلى المال ، يئذل ما فى وسعه للحصول عليه . على أن مساعيه فى الحصول على المال كانت أقل تعسفا من مساعى بلدوين الأول ، بل تجاوزها لظفا ومرحا ، وكثيرا ما كان فرسانه يمرحون من مساعيه تلك ، لاسيما عندما يفكر فى انتزاع ثلاثين ألف بيزنت من حميه ، فيعلن أنه مدين لرجالها بهذا المبلغ ويقسم لهم أنه سوف يخلق لحيته إن لم يفهم حقوقهم ، وكان يعلم مدى أهمية اللحية لكرامة الرجولة - كشأن اليونانيين - بين الأرمن الذين أصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الصليبيين باذى الأمر بلحاهم الخليقة ، كما كان يعلم جيدا رأى حميه من أن صهرا بلا لحية يحط من هيته . وعندما كان رجال بلدوين يشاركون فى هذه الملهاة مؤكدين قسم سيدهم ، كان جبرائيل يسارع بتقديم المال المطلوب للحيلولة دون تلك المهانة الشنيعة ، ويفرض على زوج ابنته قسما جديدا بالا يرهن لحيته مرة أخرى^(٨) .

واضطر بلدوين الثانى فى بداية حكمه إلى التصدى للأمير سقمان الأرمنى صاحب ماردين فى هجوم الأخير على مدينة سروق الإسلامية التى سبق أن استولى عليها بلدوين الأول وعهد بحكمها إلى فولشر أوف تشارتر . لكن بلدوين الثانى الذى خف لنجدة فولشر انهزم أمام سقمان ولقى فولشر مصرعه ، واستولى المسلمون على المدينة عدا القلعة الصامدة بقيادة بنديكت رئيس الأساقفة اللاتينى فى الرها ؛ فأسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية لاستئجار الجنود لتعويض خسائره . وابتسم له الحظ لى عودته ؛ إذ اندحر سقمان خارج المدينة بخسائر كبيرة ، فراح بلدوين الثانى يقتل كل من تعاون مع الأرائقة من السكان ، وامتألت السجون ، واضطر السجنا إلى اقتداء أنفسهم مما زاده ثراء بهذه الأموال الجديدة^(٩) .

وسرعان ما وجد بلدوين نائبا مفيدا فى شخص ابن عمته جوزلين (أوف كورتناى) ، وهو المفلس أصغر أبناء لورد كورتناى ، ويبدو أنه أتى إلى الشرق فى صحة جاره الحميم كونت (نفرس) ، ووهبه بلدوين كل أراضى الكونتية الواقعة غربى نهر الفرات ، واتخذ تل بشير مقرا رئيسيا له . وأثبت أنه الصديق الوفى لبلدوين ، على أن ولاءه هذا حامت حوله الشكوك فيما بعد^(١٠) .

(٨) وليم الصورى William of Tyre, x, 24, pp. 437-8, XI, II, pp. 469-72 ، يروى قصة زواج بلدوين ولحيته . ويتحدث ماثيو الأورفى Matthew of Eddessa, ccxxv, p. 296 عنه باحترام ولكن بدون تعاطف معه.

(٩) Al Azimi, p. 494; Ibn al-Qalanisi, p.50-1; Matthew of Edessa, clxviii, pp. 232-3.

(١٠) William of Tyre, x, 24, pp. 437.

١١٠٣ م إطلاق سراح بوهيموند

ويبدو أن مشاعر الريبة من طموحات تنكريد تزايدت على مر الأيام لدى بلدوين، الذى كان يرغب فى إعادة بوهمند إلى أنطاكية، فشرع ومعه البطريق برنار فى مفاوضة الأمير الدانشمندى على إطلاق سراحه، ولم يشاركهما تنكريد فى تلك الصفقة. وكان الامبراطور الكسيوس قد سبق وأن عرض على الأمير ستين ومائتى ألف بيزانت فدية لإطلاق سراح بوهمند، وكان الأمير على استعداد للموافقة لولا أن السلطان قلعج أرسلان بلغته تلك الأنباء، وكان قد طلب نصف أية فدية قد يتسلمها الدانشمند بصفته السيد الأعلىسمى لأتراك الأناضول. وأدى الخلاف بين الأمير والسلطان إلى مع الأول من سرعة قبول عرض الامبراطور؛ لكنه كان عرضا نافعا، إذ أحدث صدعا بين الأميرين. وكان بوهمند فى أسره على علم بتلك المفاوضات، وكان ما يزال وسيما فاتنا يلفت انتباه سيدات بيت الأمير؛ وربما تمكن بمساعدتهن من الإيحاء لآسره بأن الأفضل من صفقة الامبراطور التى ينوى السلاحة دس أنوفهم فيها، إجراء ترقيب خاص مع فرنج سوريا والوعد بمحالفتهم. ووافق الأمير على إطلاق سراح بوهمند لقاء مائة ألف بيزانت^(١١).

وهاجم جيش الدانشمند ملطية أثناء المفاوضات، ولا بد وأن استنجد حاكمها جبرائيل بزوج ابنته بلدوين الذى لم يتحرك لمساعدته لعزوفه عن الإساءة إلى الأمير فى تلك المرحلة الحرجة. وكان جبرائيل مكروها من رعاياه لعقيدته الأرثوذكسية، خاصة وأن السريان لم يغفروا له أبدا إعدام أحد أساقفتهم بتهمة الخيانة؛ فاستولى الدانشمند على عاصمته وأسروه، عدا إحدى قلاعته التى ظلت صامدة أمام المهاجمين؛ فطلب منه أسروه أن يأمر باستسلامها، ولما رفضت الحامية أوامره، أعدموه أمام أسوارها^(١٢).

(١١) يذكر Albert of Aix, IX, 33-6, pp. 610-12; Orderic Vitalis, x, 23 vol. IV, P. 144 قصة حب بوهيموند مع ابنة الدانشمند، بينما يجعل *Miracula S. Leonardi* (An. Ss., Nov., vol. III, pp. 160-8, 179-82) صديقته زوجة مسيحية للأمير. ويقول Matthew of Edessa (Clxxviii, p. 252) إن أليكسيوس دفع فدية؛ ولكن ريتشارد كان في سوريا بالفعل قبل إطلاق سراح بوهيموند ويقول Radulph of Caen إن بلدوين كان يتصرف من منطلق كراهيته لتنكريد. ويورد إيسن القلايسى الشجار بين الحاكمين السلجوقي والدانشمندى.

(١٢) Michael the Syrian, III, pp. 185-9.

وبعد أشهر قليلة ، وفى ربيع ١١٠٣ م ، جرى تسليم بوهمند إلى فرنج ملطية ، وتولى بلدوين والبطريق برنار جمع مبلغ الفدية يساعدهم أمير من صغار أمراء الأرمن يدعى كراسيل ، وأقارب بوهمند فى إيطاليا . ولم يشاركهم تنكريد فى جهودهم . وعلى الفور اتجه بوهمند إلى أنطاكية حيث استعاد سلطانه ، وأعرب عن شكره لتنكريد على الملأ لتوليه شؤون الإمارة أثناء غيابه . غير أنهما كانا على شىء من الخلاف ؛ إذ لم يجد تنكريد ما يدفعه إلى تسليم الأراضى التى غزاها هو نفسه أثناء وصايته ، لكن رأى العام أجبره على التراجع ، وكوفىء بإقطاعية صغيرة داخل الإمارة . وكان بمقدوره أن يطالب قانونا باستعادة الجليل من بلدوين الأول ، لكنه رأى أن الأمر لا يستحق العناء^(١٣).

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند بهجوم على جيرانهم . وفى صيف ١١٠٣ م أغار بوهمند ومعه جوسلين أوف كورتناى على أراضى حلب واستولوا على مدينة المسلمية شمالى حلب وانتزعا إثارة كبيرة من مسلمى المنطقة استخدمت فى سداد الدين المستحق للفرنج على بلدوين والبطريق للفدية^(١٤) . ثم تحول الفرنج للإغارة على الأراضى البيزنطية؛ فبعد أن كتب ألكسيوس إلى بوهمند مطالبا باستعادة مدن كيليكيا، عزز رسالته بإرسال قائده بوتوميتس لاستردادها؛ لكن القوة البيزنطية لا يعتمد عليها، ولذا ، وبعدما دخل كيليكيا فى خريف ١١٠٣ م ، سرعان ما قرر أن المهمة فوق طاقته ، وإثر أنباء تفيد بأن الفرنج يخططون للتوسع شمالا ومهاجمة مرعش سارع إليها، وكان يحكمها ثاتول باسم الامبراطور . وربما كان بوسعه وقتئذ إنقاذ ثاتول بذابهة إليها ، لكنه تسلم أمر استدعاء من القسطنطينية . وفى وقت مبكر من الربيع التالى اتجه بوهمند وجوسلين إلى مرعش . وشعر ثاتول بأنه فاقد الحيلة ؛ فالجيش البيزنطى بعيد جدا، وأصبح الأتراك الدانشمند على علاقة طيبة الآن بالفرنج ؛ فلم يجد بديلا عن تسليم المدينة لجوسلين الذى سمح له بالعودة إلى القسطنطينية ، بينما استولى بوهمند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش^(١٥).

(١٣) أنظر أعلاه ، يقول Fulcher (II, xxiii, I, p. 460) إن تنكريد قد كوفىء على اقتداره ، ولكن رادولف يقول إنه لم يعط سوى مدينتين صغيرتين.

(١٤) Ibn al-Athir (Kamil at-Tawarikh, p212); Kemak ad-Dim p. 591 يقول إن بوهيموند اغتصب أموالا من قسرين.

(١٥) Matthew of Edessa, clxxxvi, p. ١٠٤٠ وخطى Anna Comnena, XI, ix, 1-4, vol. III, pp.40-1 257 فى إيراد الاستيلاء على مرعش بعد معركة حران، pp. 710 -Radulph of Caen, cxlviii-cl, pp. 710 . 2

١١٠٤ م أهمية حرّان

وأصبح الفرنج الآن فى مأمن من أى هجوم يأتىهم من الأناضول ؛ وإذن بإمكانهم أن يتحولوا لمهاجمة مسلمى الشرق . وفى شهر مارس عاود برهمند غزو أراضى رضوان الحلبى واستولى على مدينة بصرفوت الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب ، لكن محاولته الإستيلاء على مدينة كفر لائسا الواقعة إلى الجنوب من حلب لم تكلل بالنجاح لما أبدته قبيلة بنى عليم من مقاومة بأسلة . وفى تلك الأثناء قطع جوسلين طريق المواصلات بين حلب والفرات . على أنه إذا كان من المطلوب عزل مسلمى سوريا عزلا فعليا عن مسلمى العراق وفارس ، فلا بد للمسيحيين من الإستيلاء على قلعة حرّان العظيمة الواقعة بين الرها والفرات شمالى الجزيرة ، بل إنهم يستطيعون ، والحال كذلك ، تجريد حملة على الموصل وإلى قلب ما بين النهرين . وبدأت الظروف مناسبة فى ربيع ١١٠٤ م ؛ إذ كانت الحرب الأهلية، خلال ١١٠٣ م، بين السلطان السلجوقى بركياروق وأخيه محمد تمزق الشرق الإسلامى كله ، وفى يناير ١١٠٤ م إتفقا على السلام على أن يحتفظ السلطان ببغداد والحضبة الإيرانية الغربية - وكان أخوه الثالث سنقر قد سبق وحصل على خراسان وإيران الشرقية - وحصل محمد ، وفقا للإتفاق على شمال العراق والجزيرة وحقوق سيادية على ديار بكر وكل سوريا. لكنه كان اتفاقا غير يسير ، إذ كان الأخوان كلاهما يتربيان إفساد هذا الإتفاق، وفى ذات الوقت راح كل منهما يكيد المكائد للفوز بحلفاء من أمراء الترك والعرب جميعا؛ ففى الجزيرة نشبت الحرب الأهلية بموت كربوقا ، أتابيج الموصل ، الذى هزمه الفرنج فى أنطاكية ؛ إذ لم يتمكن سقمان الأرتقى أمير ماردين من استخلاف مرشحه ، ودارت الحرب بينه وبين الأتابيج الجديد جكرمش الذى عيّنه السلطان السلجوقى محمد ، أما حرّان نفسها فكانت خاضعة للقائد التركى قراجه الذى كان من مماليك ملكشاه ، لكن سلوكه الشرس دفع أهلها إلى التمرد عليه ، فسلموا الحكم لمحمد صاحب أصفهان ، الذى قتل بدوره على يد غلام سابق لقراجه يدعى جوالى بعد أن توثقت عرى الصداقة معه . على أن سلطة جوالى كانت غير مأمونة بدرجة كبيرة ، بينما كانت حرّان ذاتها

تعانى معاناة شديدة من غارات فرنج الرها الذين حرقوا حقولها واعتصموا تجارتها ، وقد اتضحت نيتهم فى سرعة المضى قدما^(١٦).

داهمت مشاعر الخطر كلا من سقمان فى ماردين وحكروش فى الموصل ، مما دفعهما إلى نسيان خلافهما والاتحاد معا فى حملة لمهاجمة الرها قبل أن تهاجمهما ، وتوجهها إليها معا فى أوائل مارس ١١٠٤ م ، وكان مع سقمان قوة كبيرة من فرسان التركمان الذين يتصفون بخفة الحركة ، ومع حكروش قوة أصغر قليلا تتألف من السلاجقة والأتراك والأكراد والعرب . وعلم بلدوين الثانى بتجمعهما فى رأس العين الواقعة على بعد سبعين ميلا تقريبا من عاصمته ؛ فاستنجد بجوسلين وبوهمند مقترحا عليهما تحويل الهجوم بالإغارة على حران . وبعد أن ترك حامية صغيرة فى الرها ، اتجه إلى حران ومعه فرقة صغيرة من الفرسان ومشاة الأرمن ، وصحبه بندقى رئيس أساقفة الرها . وعلى مقربة من حران انضم إليه جوسلين وجنوده ، وكذلك جيش أنطاكية بقيادة بوهمند ، وتكريد والبطريق برنار ، ودياميرت البطريق السابق للقدس . وبلغ عدد الجيش الفرنجى كله ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس وربما ثلاثة أضعاف عددهم من المشاة ، وهو القوة الفرنجية الضاربة كلها فى شمال سوريا ، عدا حاميات الحصون.

١١٠٤م كارثة حرّان

تجمع الجيش أمام حران بينما الأميران المسلمان ما يزالان على مسافة ما إلى الشمال الشرقى فى طريقهما إلى الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الإنقضاض على الحصن لاستولوا على حران ؛ لكنهم كانوا عازفين عن تحطيم التحصينات على أمل أن ينتفعوا بها هم أنفسهم فيما بعد ، ظانين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام . وكان تفكيراً لا يخلو من حكمة ؛ إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة ، فبادروا بمفاوضتهم من فورهم . وعلى إثر ذلك اختلف بلدوين وبوهمند ؛ أى من رايتيهما يرتفع أولا على الأسوار؟ وانتهى الأمر بأن قضى عليهما تأخرهما ؛ إذ مال الجيش التركى جنوبا وأصبح فوقهما قبل تسوية الخلاف .

(١٦) للاطلاع على خلفية الحملة على حران، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 236-7 مع المراجع ويركز نيكلسون في مقالته عن تكريد أن الحملة لم تكن جزءا من سياسة عامة للتوسع، وإنما استجابة لتهديد من المسلمين. ولكن يقينا كانت حران هدفا نهائيا للفرنج.

ودارت المعركة على ضفاف نهر البليخ ، بالقرب من ساحة معركة (كارها) القديمة، حيث سبق منذ قرون أن أباد (البارثيون) الفيالق الرومانية وفيالق (كراسوس). وكانت استراتيجية الفرنج تقضي بأن يشتبك جيش الرها في الميسرة مع قوة العدو الرئيسية ، بينما يختبئ الجيش الأنطاكي خلف تل منخفض يبعد نحو ميل إلى اليمين استعدادا للتدخل في اللحظة الحاسمة . لكن المسلمين وضعوا خططاً مماثلة ؛ فهاجم جزء من جيشهم ميسرة الفرنج ثم استدار هاربا ؛ فظن جنود الرها أنهم فازوا بنصر يسير ، واندفعوا يتعقبونهم ، مما أفقدهم الاتصال برملائهم في اليمين ، وعبورهم النهر وقعوا مباشرة في كمين أعده الجيش الإسلامي الرئيسي ، ولقى الكثير منهم حتفه على الفور، واستدار الباقون ولاذوا بالفرار . وعندما تجهز بوهمند - الذي دحر كتيبة صغيرة أمامه - للإشتراك في المعركة لم يجد سوى سيل متدفق من المماريين على مبعدة يتزاحمون عائدين عبر النهر حيث هبطت عليهم فصيلة تركية جديدة . وأدرك أنه خسر كل شيء؛ فأسرع بالفرار مع عدد ضئيل من جنود الرها. وأثناء مرور المماريين أسفل أسوار حران انقضت عليهم الحامية ، وفي فوضى حماسها قتلت مع الفرنج عددا من المسلمين المتعقبين ، وهرب جيش أنطاكية دون خسائر جسيمة . أما جنود الرها فقد أسروا أو قتلوا جميعهم تقريبا . وكان البطريق برنار في قمة الفزع بحيث قطع أثناء فراره ذيل حصانه خشية أن يلحق به الترك ويمسكونه من الذيل ، رغم أنه لم ير أحدا من الإعداء وقتل .

وكان بندكت رئيس الأساقفة من بين أول من وقعوا في الأسر . لكنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، إما لتواطؤ حارسه - وهو مسيحي مرتد - أو بسبب هجوم أنطاكي مضاد . وهرب بلدوين وجوسلين معا على صهوة جواد ، لكن البعض أدرکہما في مجرى النهر واقتادوهما أسيرين إلى خيمة سقمان .

وأسرع بوهمند وتكرید إلى الرها وهما يخشيان - بحق - أن يهاجمها الترك كخطوة تالية ، وراحا يعملان على تنظيم دفاعاتها . ومرة أخرى تنقلب مصائب بلدوين عند تنكرید فؤاد ؛ إذ أن من تبقى من الفرسان في الرها وعلى رأسهم رئيس الأساقفة توسلوا إلى تنكرید أن يتولى الوصاية على الرها إلى حين إطلاق بلدوين من الأسر؛ فقبل تنكرید هذا العرض مرحبا، وساورت بوهمند - كشأن بلدوين الأول منذ أربع سنوات - مشاعر الإرتياح لإتعاد تنكرید عنه . وبقي تنكرید في الرها مع بقايا

جيشه وما استطاع بوهمند الإستغناء عنه من جنود ، بينما رجع بوهمند إلى أنطاكية حيث كان جيرانه يعدون العدة للإفادة من الكارثة التي حلت بالفرنجة^(١٧).

وتعد معركة حران تمة للحملات الصليبية في ١١٠١م؛ إذ أن تلك الحملات جميعها حطمت أسطورة القوة الفرنجية التي لا تقهر . ذلك أن هزائم ١١٠١م تعنى حرمان شمال سوريا من تعزيزات الغرب التي يطلبها الفرنج لتوطيد سيادتهم هناك ؛ وأما كارثة حران فتعنى ، على المدى الطويل ، الحكم بهلاك كونتية الرها ، وأن الفرنج لن يستولوا أبداً على حلب . إن الإسفين الذى كان فى نية الفرنج دقّه بين المراكز الإسلامية الثلاثة : الأناضول ، والعراق ، وسوريا ، قد تم دقّه دون مراعاة لاعتبارات الأمن . ولم يكن المسلمون هم وحدهم المستفيدين ؛ إذ كان الامبراطور يرقب الأحداث من بيزنطة بعين الغضب ، ولم يأسف للخزى الذى لحق بالفرنج .

١١٠٤م بوهمند وتكريد يترك حران بلدوين أسيراً

لم تكن النتائج العاجلة لكارثة حران مهلكة كما كان يُخشى ؛ إذ لم يستمر التحالف طويلاً بين سقمان وجكرمش بعد انتصارهما ؛ فقد استحوذ جنود الأول على أغلب الأسرى والغنائم ، مما أثار غيرة الأخير ، فهاجمت كتيبته السلجوقية خيمة سقمان واختطفّت بلدوين ، الأمر الذى أثار حنق التركمان ، لكن سقمان مارس من ضبط النفس ما يكفى لمنعهم من الهجوم المضاد ، وروّض نفسه على قبول خسارة سجينه ذى القيمة العالية . وقام بإخضاع بعض الحصون المسيحية الصغيرة على الحدود بخدعة بسيطة وهى إرتداء جنوده ملابس ضحاياهم الفرنج ، ثم إنه رجع إلى ساردين ولم يشترك فى الحرب أكثر من ذلك^(١٨) . أما جكرمش فواصل القتال ؛ بادئاً بتأمين نفسه من سقمان بأن سحق الحصون الفرنجية فى شيبختان شرقى الرها ثم واصل سيره إلى العاصمة . إن تأخر الفرنج قد أنقذ حران للإسلام ، والآن أدى تأخر المسلمين فى الإبقاء على الرها للعالم المسيحي؛ إذ توفر لتكريد الوقت الضرورى لترميم دفاعات المدينة . ويُعزى نجاحه فى مقاومة هجوم جكرمش الأول بدرجة كبيرة إلى ولاء الأرمن

(١٧) Radulph of Caen, cxlviii, p. 712; Albert of Aix, loc. cit.; Matthew of Edessa, clxxxiii, p. 256.

(١٨) Ibn al-Athir, loc cit. ، المأثور عن سقمان أنه قال : "أفضل أن أفقد غنائمى على أن يعيننا المسيحيون بالحماقة".

المحليين وبساتنهم ، لكن شدة الهجوم دفعته إلى طلب النجدة العاجلة من بوهمند الذي كانت لديه بعض المشكلات ، غير أن تهديد الرها لا تعلقه أولوية ، فسار في الحال لنجدة ابن أخته ، لكن وعورة الطريق تسببت في تأخره . وفي غمرة اليأس أمر بتكريد حاميته بالخروج قبل الفجر ، وانقض رجاله في ظلمة الليل على الأتراك في نومهم المظمن ، واكمل النصر بوصول بوهمند؛ وهرب جكرمش مذعورا تاركاً كنوزة في المعسكر . وهكذا تم الانتقام لحران وبقيت الرها^(١٩) .

ومن بين الذين أسرههم تنكريد أميرة سلجوقية كريمة الأصل كانت في معية الأمير ، وكانت أثيرة لدى جكرمش بحيث عرض أن يفتديها في الحال إما بخمسة عشر ألف بيزانت أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . ووصلت أنباء هذا العرض إلى القلس ، فسارع الملك بلدوين بمكاتبة بوهمند راجيا ألا تضيع هذه الفرصة لإطلاق سراح الكونت بلدوين؛ لكن بوهمند وتنكريد فضلا سد حاجتهما من المال ، فضلا عن أن عودة بلدوين تعني تحية تنكريد من منصبه الراهن ليصبح بين يدي خاله ؛ وكان ردهما أن التلief على قبول العرض يظل من الدبلوماسية ، وربما يؤدي التردد إلى أن يرفع جكرمش من قيمة الفدية ؛ وفي الوقت ذاته كانا يعدان الترتيبات لإستلام الفدية . وبقي بلدوين أسيرا.

وبعد أن نال بوهمند وتنكريد من الثراء بالتضحية بزميلهما ، تحولوا لمجابهة الأعداء من حولهما الذين دأبوا على ممارسة الضغوط عليهما . ولم يحاول جكرمش مهاجمة الرها مرة أخرى ، وتمكن تنكريد من ترميم دفاعات المدينة؛ أما بوهمند فكان عليه أن يسرع لمجابهة غزو رضوان الحلبي للمناطق الشرقية من إمارته . وفي شهر يونيو تخلى سكان أرتاح الأرمن عن مدينتهم للمسلمين وقد شملتهم البهجة لتخلصهم من الطغيان الأنطاكي ، وحذت حذوهم المدن الحدودية: المعرة ومسرین وسمرين ، ثم عزل الحاميات الفرنجية الصغيرة في معرة النعمان والبارة وكفر طاب فانسحبت إلى أنطاكية . وفي تلك الأثناء أغار رضوان على الإمارة إلى أن بلغ الجسر الحديدي ؛ وعلى البعد في شمال الإمارة تمكنت حامية بوهمند من البقاء بعد أن سحنت أبرز زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يخططون للتآمر مع الأتراك . وكاد الخطر أن يحدق بدويلة بوهمند كلها

(١٩) -Albert of Aix, IX, 43, pp. 617-18; Ibn al-Athir, p. 223; Ibn al-Qalanisi, pp. 69. 69 . 70.

لولا أن مات دقاق الدمشقي في أواخر يونية ١١٠٤ م، فتحول اهتمام رضوان إلى الصراع بين ابني الدقاق - بوري وأرتاش - على خلافة أبيهما^(٢٠).

وكان انشغال بوهمند بالشؤون البيزنطية من أسباب فشله في مواجهة هجوم رضوان. فالاميراطور ألكسيوس على علاقة طيبة بالدويلات الفرنجية الواقعة إلى الجنوب، وريموند كونت تولوز لا يزال صديقه الحميم، وفاز الاميراطور بثقة الملك بلدوين بعد أن افتدى بماله كثيرا من وجهاء الفرنج الأسرى في مصر، لقد كان كرمه هذا تسببه الحكمة بالمقارنة المذهلة بما أقدم عليه بوهمند وتنكريد من التخلي عن بلدوين الرها في الأسر. إن افتداء الاميراطور للأسرى ذكر الفرنج بما له من نفوذ ومهابة تحظيان باحترام الفاطميين؛ ولذلك، وعندما تصرف الاميراطور ضد أنطاكية، لم يتلق أميرها أية مساعدة من أقرانه. وكان ألكسيوس قد قام بالفعل بتحصين كوريكوس وسليوكية الواقعتين على ساحل كيليكيا لمنع ما قد تقدم عليه أنطاكية من عدوان على غرب كيليكيا. وفي صيف ١١٠٤ م استرد الجيش البيزنطي بقيادة موناستراس دوغما صعوبة مدن كيليكيا الشرقية: طرسوس وأضنة والمصيصة؛ وفي ذات الوقت قام أسطول بيزنطي صغير يقوده الأدميرال كيتاكوزينوس - وكان في قبرص يطارده أسطول مغربي من جنوا - باستغلال موقف بوهمند، فأبحر إلى اللاذقية حيث استولى بحارته على المرفأ وأسفل المدينة: وسارع بوهمند بجمع ما أمكنه من جنود الفرنج لتعزيز الحامية في القلعة واستبدال قائدها الذي ما عاد يوليه ثقة، لكنه لم يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم لافتقاره إلى القوة البحرية.

١١٠٤ م بوهمند يرحل إلى الغرب

وبحلول الحريف داخلت بوهمند مشاعر اليأس؛ فعقد مجلسا في سبتمبر ضم أتباعه في أنطاكية واستدعى تنكريد كذلك، وصارحهم بالأخطار المحدقة بالإمارة قائلا إن المخرج الوحيد هو تأكيد إرسال التعزيزات من أوروبا، وأنه سيذهب بنفسه إلى فرنسا لممارسة نفوذه الشخصي في استجلاب الرجال المطلوبين. ومن باب الواجب عرض تنكريد القيام بهذه المهمة، لكن خاله أجاب بأنه لا يتمتع بما يكفي من نفوذ في

(٢٠) Radulph of Caen, loc. cit.; Kemal ad-Din, pp. 592-3; Sibṭ ibn al-Djauzi, p. 529; ibn

al-Qalanisi, pp. 62-5. ويلاحظ أن رانسيما أورد اسم أحد ابني الدقاق بلفظ (الشاش). في حين

أن ابن القلانيسي ذكره بلفظ (ارتاش) وهو عم بوري وليس ابنه. (المترجم)

الغرب، وأنه ينبغي أن يبقى وصيا على أنطاكية. وسرعان ما تمت ترتيبات رحيل بوهمند، وأبحر في أواخر الخريف من ميناء السويدية مصطحبا معه ما كان متاحا من الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء الثمينة ونسخا من "إنجازات الفرنج"، وهو تاريخ مجهول للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر النورماندية، وأدخل بوهمند في تلك النسخ فقرة توحى بأن الامبراطور وعده لوردية أنطاكية^(٢١).

وتولى تنكريد حكومة أنطاكية، وأقسم في ذات الوقت أن يحافظ على الرها لبلدوين وأن يسلمها له فور إطلاق سراحه من الأسر؛ ولأنه لا يستطيع أن يحكم الرها من أنطاكية بصورة جيدة، فقد عهد بحكومتها لابن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو، نائبا عنه عبر الفرات^(٢٢).

وفي وقت مبكر من العام الجديد وصل بوهمند إلى أملاكه في أوبليا حيث بقي هناك حتى سبتمبر التالي يدبر شؤونه الخاصة ويشرف عليها بعد غيبة تسع سنوات، وينظم فرق النورماندين ليلحقوا بزملائهم في الشرق. ثم ذهب إلى روما لمقابلة البابا باسكال وأكد له أن الامبراطور الكسيوس هو عدو اللاتينيين اللدود في الشرق، وكان باسكال قد اشاخ فعلا ضد الكسيوس بتأثير من الأسقف مناس، وسرعان ما وافق على وجهة نظر بوهمند. وعندما ذهب بوهمند إلى فرنسا كان بصحبه ممثل البابا، برونو، حاملا معه توصيات من البابا بالتبشير بحرب مقدسة ضد بيزنطة. وكانت هذه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية. وباتت السياسة النورماندية - وهدفها كسر شوكة الامبراطورية الشرقية - هي السياسة الصليبية الرسمية. وتقرر التضحية بمصالح العالم المسيحي كله من أجل المغامرين الفرنج. وفيما بعد ندم البابا على ما أقدم عليه من طيش، ولكن بعد أن نفذ سهم الضرر. وما كان يشعر به فرسان الغرب وجماهيره من ازدياد لغطرسة الامبراطور، وغيره من ثروته، وريبة في طقوس مسيحية لا يفهمونها،

(٢١) تذكر بعض المصادر الموثوقة أن "إنجازات الفرنج" Gesta Francorum كـه مولشر أوف تشارتر Fulcher of Chartres (حوالي ١٠٥٩ - حوالي ١١٢٧) القس والمؤرخ الفرنسي الذي صاحب الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها. وهو عبارة عن سرد يفيض بالحياة مكتوب على ثلاث مراحل: الحملة الصليبية الأولى (١١٠١)، ورحلة بلدوين إلى القدس (١١٠٦)، ومملكة القدس (١١٢٤ - ١١٢٧) (المترجم).

(٢٢) Matthew of Edessa, clxxxix, p. 260; Michael the Syrian, III, p. 195; Ibn-alAthir, pp 262-3. ومن هذا الوقت فصاعدا يطلق تنكريد على نفسه في وثائقه الرسمية "تسانكريد دو كس إيه برنيسيس أنتير كينوس" (تسانكريد دوق وأمير أنطاكية). وأثناء فترة وصايته الأولى كان يسمى في الوثائق الرسمية (أمير) دون تحديد أماكن. كان ما يزال يحمل لقب أمير الجليل.

لقى كل ذلك تأييدا رسميا من الكنيسة . ومنذ ذلك الوقت قدما ، كانوا يشعرون بأن لديهم المبررات التي تسوّغ كل عمل عدائي يستهدف بيزنطة، حتى ولو عدّل البابا من آرائه . إن الحملات الصليبية ، والبابا على رأسها ، لم تكن حركة تبذل العون للعالم المسيحي ، وإنما كانت أداة للإستعمار الغربى العارى من الخلق . وترتب على هذا الإتفاق التعس بين بوهمند والبابا باسكال آثار أبعد شأوا بكثير من كل الخلافات بين الكاردينال همبرت وميخائيل سريولاريوس التي أكّدت الفصل بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وقبل بوهمند بحرارة فى فرنسا حيث أمضى بعض الوقت فى بلاط الملك فيليب الذى أذن له بتجنيد الرجال فى أنحاء المملكة ، ولقي تشجيعا فعّالا من كونتيسة بلوا، الكونتيسة أديل وهى صليبية متحمّسة بالإنبابة ؛ فزيادة على تقديمها بوهمند لأخيها هنرى الأول الإنجليزى ، الذى سبق أن قابله فى نورماندى فى عيد الفصح عام ١١٠٦م ووعد بتشجيعه ، رتب له زواج تحالف مثير من ابنة الملك فيليب، كونستانس ، وهى كونتيسة شامبانيا المطلقة، وتم الزواج فى وقت متأخر من ربيع ١١٠٦م ؛ وفى ذات الوقت وافق الملك فيليب على منح يد ابنته الصغرى ، سيشيليا ، وهى وليدة السفاح من علاقة الزنا مع برترادا أوف مونتفورت ، لتكريد . ولم تذهب كونستانس إلى الشرق أبدا ، وإنما قضت حياتها الزوجية وفترة ترمّلها فى إيطاليا؛ أمّا سيشيليا فقد أبحرت إلى أنطاكية فى نهاية العام تقريبا . وقد عززت هذه العلاقات الملكية من مكانة الأمراء النورمانيين^(٢٣) .

Orderic Vitalis, XI, vol. IV, pp. 210-13; Suger, Vita Ludovici, pp. 29-30; Chronicon S. Maxentii, p. 423; Chronicon Vindocinnense, pp. 161-2; William of Tyre, XI, I, p. 53. استنادا إلى Luchaire, Louis VI le Gros, p. 22 - فى إبريل أو مايو ١١٠٦م . ويحتمل أن تكون سيشيليا قد انطلقت إلى الشرق بعد هذا التاريخ . ولذلك يحتمل أن يكون زواجها قد حدث فى وقت لاحق من عام ١١٠٦م . ويعتقد ماثيو الأوربى أن بوهيموند كان يحجرا على الزواج من سيدة ثرية ، يطلق عليها زوجة سيفن بول (ورواضح أنه يخلط بين Hugh of Champagne مع الصليبي Hugh of Saint Pol الذى كان صديقا لبوهيموند). وقد أمرت سجنه حتى رصى فى النهاية . وكان يفضل العودة إلى الشرق.

١١٠٧ م بوهمند يغزو الامبراطورية

بقى بوهمند فى فرنسا حتى وقت متأخر من عام ١١٠٦ م ، ثم عاد إلى أبوليا حيث خطط لحملة الصليبية الجديدة التى تقرر أن تبدأ بهجوم لا هوادة فيه على الامبراطورية البيزنطية ؛ وتمهّل فى حملته إذ عرف من الأنباء أن أنطاكية لا تعاني من أخطار عاجلة في ظل حكم تكريد . وفى أول أكتوبر ١١٠٧ م هبط بجيشه على ساحل إبيروس الامبراطورى فى أفلونا ، وبعد أربعة أيام ظهر أمام قلعة درهاكيوم العظيمة التى تعدّ مفتاح شبه جزيرة البلقان ، وهى التى طالما سال لها لعاب النورماندين منذ احتلالها قبل ذلك بربع قرن . على أن الكسيوس هو الآخر قد توفر له الوقت لوضع ترتيباته ؛ فكان على استعداد للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية لإنقاذ درهاكيوم ؛ فسلم السلطان السلجوقي قلج أرسلان الذى أمده بالمرتزقة . وجد بوهمند القلعة منيعة وحاميتها شديدة البأس بحيث تعذر الإنقضاض عليها فحاصرها . لكنه يفتقر إلى القوة البحرية كشأنه فى حروبه الأولى ضد بيزنطة ، فبات الدمار مصيره ؛ ذلك أن البحرية البيزنطية قطعت خطوط مواصلاته مع إيطاليا فى الحبال تقريبا وسدّت الساحل . ثم حاصره الجيش البيزنطى الرئيسى فى وقت مبكر من الربيع التالى ؛ وبحلول الصيف تنشبت فى جيش بوهمند الدوسنتاريا والملاريا ، ونالت منهم الجاعة ، بينما حطّم الكسيوس معنوياتهم بإطلاق الشائعات وتزييف الرسائل لزعمائهم ، وهى وسائل وصفحتها ابنته أنا كومنينيا بإعجاب شديد . وبحلول سبتمبر أيقن بوهمند من الهزيمة فاستسلم للإمبراطور . لقد كان نصرا مؤزراً لبيزنطة ؛ إذ كان بوهمند آنذاك أشهر محارب فى العالم المسيحى ، وكان مشهد هذا البطل المرعب بقامته الطويلة التى تعلو الامبراطور ، ومع ذلك بدت متضرّعة مطيعة لما يمليه عليها ، شاهدا على ما للامبراطور من مهابة طاغية لا تنسى .

١١٠٨ معاهدة ديفول

استقبل الكسيوس بوهمند فى معسكره الذى ضربه فى مدخل الوديان الضيقة حيث يجري نهر ديفول . وعامله بكياسة يعلوها الرود ؛ ولم يضيّع وقتا ، وإنما بسط أمامه معاهدة السلام التى لا بد له من التوقيع عليها . وتردد بوهمند بادئ الأمر ، لكن (نسفورس برنيوس) ، زوج أنا كومنينيا ، الذى كان يقف بين يدي حميه الامبراطور ، حثّه على التوقيع الذى لا مفر منه .

وترد صيغة المعاهدة بكاملها فى صفحات أنا كرومينيا. وعموجبها يعرب بوهمند أولا عن أسفه العميق لحنثه بقسمه الأول للإمبراطور ؛ ثم يقسم بكل الوقار أن يصيح التابع والمولى المخلص للإمبراطور ورريته جون "كريم النسب" (٢٤)؛ ويفرض على كل رجاله أن يحذوا حذوه ؛ ولا ينبغى أن يكون هناك غموض فى المصطلح اللاتينى "مولى"، فأحصيت واجبات التابع ؛ وأن يظل أميرا لأنطاكية يحكمها تحت سيادة الامبراطور ؛ وتشمل أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية ومناطق الشمال الشرقى حتى مرعش مع الأراضى التى يغزوها ويتزعها من أمراء حلب المسلمين وغيرها من الدويلات السورية الداخلية ؛ وتبقى مدن كيليكيا والسحل المحيط بأنطاكية تحت الحكم المباشر من الامبراطور ؛ ولا مساس بأراضى الأمراء الروبيين . وأضيف ملحق بالمعاهدة يضم قائمة المدن التى يمارس بوهمند سلطاته عليها وقد اختيرت بعناية . ويتولى بوهمند فى إطار سلطاته ، ممارسة السلطة المدنية ؛ ويستعيز عن البطريق اللاتينى بآخر يونانى. وتوجد نصوص خاصة تقضى بأنه فى حالة رفض تنكريد أو غيره من رجال بوهمند الإمتثال لشروط المعاهدة ، يتولى بوهمند إجباره على الطاعة قسرا.

وتعتبر معاهدة ديفول مثيرة للإهتمام ؛ إذ تكشف عما كان يترأى لألكسيوس من حل المسألة الصليبية . فهو على استعداد لأن تصبح مناطق الحدود ، بل وأنطاكية ذاتها، تحت الحكم الذاتى لأمير لاتينى ، طالما يلتزم هذا الأمير بالتبعية له وفقا للأعراف اللاتينية ، وطالما تحتفظ بيزنطة بسيطرة غير مباشرة من خلال الكنيسة ؛ فضلا عن أن ألكسيوس يعتبر نفسه مسؤولا عن المسيحيين الشرقيين ، بل يريد تأكيد حقوق أتباعه الأرمن الروبيين المتذمرين . ولقد بقيت المعاهدة مجرد قصاصة ورق . لكنها كسرت بوهمند ؛ فلم يجرؤ على الظهور فى الشرق مرة أخرى البتة ، وتقاعد مخذولا مخزيا فى أراضيه فى أبوليا حيث مات عام ١١١١ م ، واحدا من صغار أمراء إيطاليا المغمورين تاركا طفلين من زوجته الفرنسية ليرثا حقوقه فى أنطاكية . كان جنديا شجاعا، وقائدا مقداما ماكرا، وبدا فى أعين أتباعه بطلا ؛ وهو الوحيد الذى طغت شخصيته على جميع رفاقه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ لكن طموحاته العريضة العاربة من الخلق كانت هاروته . ولم يأت الوقت بعد كى يدمر الصليبيون درع العالم المسيحى الشرقى .

وكما تحقق ألكسيوس جيدا ، كانت معاهدة ديفول تتطلب تعاون تنكريد . وتنكريد ، الذى لم يأسف لإزالة خاله من الشؤون الشرقية ، لم يكن على استعداد لأن

(٢٤) المعنى الحرفى : الابن المولود للإمبراطور بعد إعتلائه العرش "Porphyrogenete". (المترجم)

يسبح تابعا للإمبراطور . وكان أقل ضموحا من بوهمند ، إذ لا مطمح له سوى إنشاء إمارة قرية مستقلة . على أن توقعاته لم تكن تبشر بالآمال ؛ إذ لم يترك له بوهمند سوى القليل من الرجال ، ولم يترك له أية أموال جاهزة . ورغم ذلك قرر المبادرة بالهجوم ، فانتزع قرضا من أثرياء تجار أنطاكية أنعش خزائنه ومكّنه من استئجار مرتزقة محليين ؛ واستدعى من الفرسان والخيالة ما أمكن الاستغناء عنهم فى الرها وتل بشير وكذلك الأراضى الأنطاكية . وفى ربيع ١١٠٥ م انطلق لإسترداد أرتاح . وكان رضوان الحلبي نهياً للرحيل جنوبا لمساعدة بنى عمار فى كفاحهم ضد الفرنج ؛ لكنه تحول للدفاع عن أرتاح لدى وصول الأنباء بتقدم تنكريد . وتقابل الجيشان يوم ٢٠ إبريل فى قرية تيزين القريبة من أرتاح فى سهل منعزل تكسوه الصخور . وفرع تنكريد من ضخامة العدو التركي ، فاقترح على رضوان التفاوض . وكان رضوان حربيا بالموافقة لولا أن حثه قائد خياله صبار على الهجوم دون تأخير . وتسببت الصخور فى الحيلولة دون أن يستخدم الأتراك تكتيكهم المعتاد ؛ وبعدما اندحر الأتراك من أول هجوم الفرنج ، ارتدوا ليربصوا بالعدو ، لكنهم لم يتمكنوا من إعادة ترتيب صفوفهم للهجوم التالى ؛ وفى تلك الأثناء قام فرسان الفرنج بتعجيز مشاتهم . وتسبب فشل خططهم فى إصابتهم بالذعر ، فانطلق رضوان هاربا إلى حلب مع حرسه الخاص ، وتبعه أغلب فرسانه ، وقتل من بقى من الراجلين فى ميدان القتال .

واستعاد تنكريد بنصره كل الأراضى التى فقدوها قبل ذلك بعام ؛ إذ تخلت الحامية التركية عن أرتاح وسلمته المدينة ، بينما طارد جنوده الهاربين حتى أسوار حلب ، وانهبوا كثيرا من سكانها أثناء فرارهم فى رعبهم . وطلب رضوان السلام بأن عرض تسليم كل أراضيه فى وادى العاصى ودفع إتاوة منتظمة لتنكريد . وبنهاية عام ١١٠٥ م كانت سيطرة تنكريد قد اتسعت مرة أخرى جنوبا حتى البارة ومعرة النعمان .

١١٠٦ م الإستيلاء على أفاميا

وفى فبراير ١١٠٦ م أغتيل أمير أفاميا ، خلف بن ملاعب ، على يد متعصين من حلب لأنه لم يكن مناهضا للفرنج ، ثم اختلف القتلة مع حليفهم الرئيسى داخل المدينة ، أبو الفتح ، الذى تولى حكومتها ، فطلب مساعدة رضوان . ودعا الأرمن المحليون تنكريد الذى رأى الظروف مناسبة للتدخل ، فسار جنوبا وبدأ حصار أفاميا . وتمكن أبو الفتح من المحافظة على النظام ؛ وتلقى من أميرى شيزر وحماة وعودا بالمساعدة .

واضطر تنكريد إلى التراجع بعد حصار ثلاثة أسابيع بدعوى ضرورة مساعدة حامية اللاذقية التي تواجه المجاعة من حصار البيزنطيين طوال ثمانية عشر شهرا . وزودها بالمون ثم عاد إلى أنطاكية . وبعد ذلك بأشهر قليلة ظهر في أنطاكية أحد أبناء خلف، مصبح بن ملاعب ، مع مائة من أتباعه ، وقد نجا من المصير الذى لقيه أبوه ، وراح يحرض تنكريد على معاودة الهجوم على أفاميا؛ فحاصر تنكريد المدينة مرة أخرى بمساعدة مصبح ، وحفر خندقا حولها لمنع الدخول أو الخروج . ولم يهب أحد من الجيران الأمراء لمساعدة أبي الفتح ؛ وبعد أسابيع قليلة ، فى ١٤ سبتمبر ١١٠٦ م استسلم المسلمون بعد أن وافق تنكريد على شرط الإبقاء على حياتهم . وبعد أن دخل تنكريد المدينة أراد أن يدخل البهجة على قلب مصبح ، فقتل أبو الفتح وثلاثة من رفاقه . واقتيد نبلاء أفاميا إلى أنطاكية وبقوا فيها إلى أن رتب رضوان فديتهم . وتم تنصيب حاكم فرنجى فى أفاميا ، بينما منح مصبح إقطاعية فى الجوار . وسرعان ما استعاد الفرنج كافر طاب وعهد بها إلى فارس يدعى ثيوفيلوس الذى مالبث أن جعل من نفسه مصدر رعب لمسلمي شيزر .

أصبح تنكريد آمنا على حدوده الشرقية والجنوبية ؛ ومن ثم يستطيع أن يتحول إلى العدو الذى يبغضه البغض كله — بيزنطة . وفى صيف ١١٠٧ م ، وفى الوقت الذى كان يتهاى فيه بوهمند لمهاجمة المقاطعات الأوروبية ، اضطر ألكسيوس إلى نقل جنوده من الحدود السورية للتصدي لما يعتبره تهديدا أخطر ، فاستدعى كنتاكوزينوس من اللاذقية مع كثير من رجاله ، وموناستراس من كيليكيا التى عهد بإدارتها إلى الأمير الأرمنى سبارايد أوشين أوف لامبرون . وفى شتاء ١١٠٨ م ، أو أوائل ١١٠٩ م ، وبعد خذلان بوهمند فى إيسيروس ، هاجم تنكريد كيليكيا . ولقد أخطأ الامبراطور الحكم على الرجال ؛ ذلك أن أوشين ينحدر من أسرة عريقة النسب، وكان مشهورا فى شبابه بالشجاعة ، لكنه بات الآن مترفا كسولا ؛ وكان حصن المصيصة الواقع على نهر جيهان هو الباب المؤدى إلى كيليكيا . وعندما تقدمت قوات تنكريد برا عبر جبال الأمانوس ، وبحرا أعلى النهر لمحاصرة المدينة ، تقاعس أوشين فى التصدى له ، فسقطت المصيصة بعد حصار قصير . ويبدو أن تنكريد نصّب نفسه خلال الأشهر التالية حاكما على أضنة وطرسوس برغم بقاء غربى كيليكيا فى أيدي الامبراطورية . ورجع أوشين نفسه إلى أراضيه فى طوروس .

١١٠٩ م تنكريد فى ذروة قوته

كانت اللاذقية قد استرجعت بالفعل . وحتى آنذاك ، كانت حركة النورماندين مقيدة لغياب القوة البحرية ؛ لكن البحرية البيزنطية تركزت الآن بعيدا فى البحر الأدرىاتيكى ، فتمكن تنكريد من شراء مساعدة أسطول مدينة بيزا ، التى طلبت أن يكون ممن مساعدتها أحد شوارع أنطاكية ، وحيًا من أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع . وكان بترياس - الذى خلف كنتاكورزينوس كقائد بيزنطى هناك - يفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة ؛ وفى ربيع ١١٠٨ م ضُمت اللاذقية أخيرا إلى الإمارة الأنطاكية . وفى العام التالى توسع تنكريد جنوبا متزعا جبلة وبولونياس وقلعة المرقب من سيادة بنى عمار التى أفل بُجمها .

وهكذا ، وعندما كان بوهموند يستسلم للامبراطور ويوقع على تنازله عن استقلاله ، كان تنكريد فى ذروة قوته ، ولم يكن على استعداد بأى حال لأن يطيع المرسوم الامبراطورى ؛ فسلطانه الرئيسى يمتد من طوروس إلى الجزيرة ووسط سوريا ، وكان حاكم أنطاكية والرها ، رغم أنه كان مجرد الرصى عليهما فى الواقع؛ لكن الأمير بوهمند يعيش الآن فى إيطاليا مغزيا ولن يعود إلى الشرق أبدا؛ والكونت بلدوين يعانى الوهن فى الأسر التركى ، ولن يبذل تنكريد أى جهد لإنقاذه من الأسر ؛ وأمير حلب تابعه بالفعل ؛ ولن يجزؤ أحد من جيرانه على مهاجمته . لقد انتصر فى تحديه لوريث القياصرة فى القسطنطينية . وعندما استقبل سفراء الامبراطور فى أنطاكية الذين وفدوا لتذكيره بالتزامات خاله ، طردهم فى عجرة . وكان - كما قال عن نفسه - نينوس الآشورى العظيم ، عملاق لا يقدر إنسان على مقاومته .

على أن للعجرفة حدودها . فبرغم ذكائه ، كان بغيضا غير مأمون الجانب . وكان زملاؤه الصليبيون هم الذين تحدوا قوته وقضوا عليها.

الفصل الرابع:

تولوز وطرابلس

تولوز و طرابلس

"جَدْ لُبَانْ إِلَيْكَ يَاتِي"

(اشعيا ١٣. ٦٠)

كان ريموند كونت تولوز الأكثر ثراء وتميزا من بين جميع الأمراء الذين انطلقوا في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ م ، وقد توقع الكثيرون تعيينه قائدا للحركة. وبعد مضي خمس سنوات كان من أقل الصليبيين اعتبارا ، إذ كانت مشاكله من صنع يده . إذ على الرغم من أنه لم يكن أكثر جشعا ولا أبعد طبوحا من أغلب رفاقه ، إلا أن خيلاءه جعل أخطائه واضحة جلية . وكانت سياسة ولائه للإمبراطور تركز على الشعور بالشرف والتبصر بفنون إدارة شؤون الحكم ، لكن ولائه بدا لرفاقه حيلة خادعة ، ولم يكن من ولائه ثمارا كثيرة إذ سرعان ما اكتشف الإمبراطور أنه صديق عاجز . وكان أتباعه يحترمون ما كان عليه من ورع ، ولكنه لم يكن له سلطان عليهم ، إذ أجبروه على الإسراع في رحيل مبكر أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ كما أظهرت كوارث ١١٠١ م مدى ضعف كفاءته في توجيه حملة عسكرية ، و انحدار إلى أدنى

درجات المهانة عندما اعتقله زميله الصغير تنكريد . وعلى الرغم من حفيظة الرأي العام إزاء تصرف تنكريد ، إذ يعدّ خرقاً لقواعد الضيافة والشرف ، لم يحصل ريموند على حريته إلا بتوقيع تنازله عن أية مطالب في شمال سوريا ، ناسفاً دون قصد أساس اتفاقه مع الإمبراطور^(١) على أنه كان يتميز بالعزيمة ؛ إذ أخذ على نفسه عهداً بالبقاء في الشرق ، وسيفي بعهد ، ولسوف ينحت لنفسه في الصخور إمارة .

بنو عمار أصحاب طرابلس

وكانت هناك منطقة لا مفر للمسيحيين من الاستيلاء عليها كى تستديم إقامتهم في الشرق . إذ تفصل بين فرنج أنطاكية والرها وبين اخوانهم في القدس من ناحية أخرى ، مجموعة من الإمارات الإسلامية ، أهمها إمارة بنى عمار فى طرابلس وعلى رأسها زعيم العائلة المسلم القاضي فخر الملك أبو على الذى كان يحكم منطقة غنية برغم ضالة جيشه . وكانت سياسته الماهرة مع جيرانه هى سياسة الإسترضاء إزاءهم جميعاً حتى وإن تعارضت مع مبادئه ، فاستطاع الحفاظ على استقلال هش يتركز - كملاذ أخير - على قوة عاصمته المحصنة فى شبه جزيرة الميناء . وكان كلما اقترب الفرنج من أراضيه يظهر لهم الكثير من المودة ، وزود الحملة الصليبية الأولى بالمون ، ولم يعارض قادتها عندما حاصروا مدينته أرقا ، وقدم لبلدوين البولونى مساعدات قيمة أثناء رحلته الشائكة لتسلم تاج القدس . وعندما انسحب الصليبيون من مدينتى طرطوس وبرزية إلى مسافة بعيدة استولى عليهما بهدوء . وهكذا كان يتحكم فى الطريق الساحلى كله من اللاذقية وجبله حتى محمية بيروت الفاطمية^(٢) .

وكان الطريق البديل الذى يربط بين شمال سوريا وفلسطين يمضى أعلى وادى العاصى مروراً بمدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حمه التى تدين بالولاء لرضوان ، وحمص حيث يحكم جناح الدولة زوج أم رضوان ، ثم يتشعب الطريق من هناك ؛ فيمضى فرع منه خلال البقاع إلى طرابلس والساحل ، وهو طريق ريموند السذى سلكه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ ويمضى الفرع الثانى مباشرة وراء محمية بعلبك الدمشقية إلى

(١) أنظر أعلاه ص (٦٥) .

(٢) أنظر أعلاه ص (٣٧) ، وكذلك مقال "Sobernheim ابن عمار Ibn Ammar" فى دائرة المعارف الإسلامية . *Encyclopaedia of Islam* وقد أعطى الشيخ الحلى فى جبله مدينته هذه لبورى - ابن دقاق - لكن فخر الملك أوقف هذه العطية .

منابع نهر الأردن.

وراح ريموند - الذى لم تكن طموحاته متواضعة أبدا - يتأمل فى إنشاء إمارة تتحكم فى كل من الطريق الساحلى ووادى العاصى تكون عاصمتها حمص التى يطلق عليها الفرنج لاشاميل La Chamelle ، على أن هدفه الأول كان مدن الساحل، والأرجح أنه قرر ذلك فى وجود سفن جنوا التى قد تساعده . وبعد أن أطلق تنكريد سراحه فى الأيام الأخيرة من عام ١١٠١ م انطلق من أنطاكية مع من تبقى على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية فى عام ١١٠١ م ، وهم : ستيفن أوف بلوا ، ووليم الأكتيانى، وويلف البافارى ، ورفاقهم ؛ وكانوا يتلهفون على إتمام رحلة الحج إلى القدس . وفى اللاذقية اجتمع الشمل مرة أخرى مع زوجته وجنوده، وساروا جميعا إلى طرطوس . وبوصوله خارج أسوار المدينة ، شاهد أسطول جنوا الصغير راسيا قبالة الشاطئ، وكان يعقد الآمال على مساعدته. وكان حاكم المدينة قد أبدى مقاومة ضعيفة قبل هذا التهديد المزدوج من البر والبحر ، وفى منتصف فبراير تقريبا دخل ريموند طرطوس مع من رافقه من المرتحلين ، الذين وافقوا دون نقاش على أن تكون المدينة مدينته . وظنوه سيصحبهم بعد ذلك إلى القدس ؛ لكن رفضه أغضبهم ، ونعتوه ببعوث الكفر حسب ما ذكره المؤرخ فولشر أوف تشارتر؛ لكنه قرر أن تكون طرطوس نواة أملاكه، فاستأذنه وواصلوا رحلتهم جنوبا^(٣).

ولم يحاول ريموند إخفاء مخططاته ، مما جعل ناقوس الخطر يصد فى العالم الإسلامى؛ وأرسل فخر الملك إلى أمير حمص وإلى دقاق الدمشقى يحذرهما. وعندما ظهر ريموند أمام أسوار طرابلس اتضح أن جيشه يزيد قليلا على ثلاثمائة رجل ، ووطن المسلمون أن اللحظة قد حانت لتدميره، وسارع الدقاق بتقديم ألفى فارس، وقدم جناح الدولة مثلهم وأكثر، واستنفر بنو عمار جيشهم كله؛ وعندما تجمع الحشد الإسلامى فى السهل المطل على المدينة كان واضحا أنه يفوق جيش ريموند بعشرين ضعفا.

١١٠٢ م إنتصار ريموند أمام طرابلس

لم نجد فيما كتبه مؤرخو الصليبيين عن أعمال ريموند سوى النذر اليسير، وإنما نعلم

(٣) Fulcher of Chartres, II, xvii, 1-2, pp. 433-5; Albert of Aix, VIII, 43, p. 583, Caffaro, Liberation, p. 69 يقول إن أسطولا من جنوا قدم المساعدة.

عن هذه المعركة غير العادية التي تلت من المورخ العربي ابن الأثير . فقد وضع ريموند مائة من رجاله في مواجهة الدمشقيين ، ومائة في مواجهة بنى عمار ، وخمسين في مواجهة رجال حمص ، والخمسين الباقين لحرسه الخاص . وبدأ جنود حمص الهجوم ؛ لكنهم فشلوا فأصابهم الذعر فجأة ، وانتشر الذعر بين الدمشقيين . وأما جنود طرابلس فكانوا يحرزون تقدماً؛ وعندما وجد ريموند أن أعداءه الآخرين يلوذون بالفرار تحول إلى جند طرابلس بجيشه كله ؛ فكانت صدمة مفاجئة فاقت احتمالهم ، فاستداروا هم أيضاً ولاذوا بالفرار . واندفع فرسان الفرنج في ساحة القتال يجهزون على كل المسلمين ممن لم يتمكن من الهرب . ويقدر المورخ العربي عدد المهالكين من إخوانه في الدين بسبعة آلاف رجل.

لم يسترجع النصر سمعة ريموند وحسب ، بل ضمن كذلك بقاء مملكته اللبنانية . ولم يجرؤ المسلمون على مهاجمته مرة أخرى البتة . على أن قواته كانت من الضالة بحيث لم يتمكن من الإستيلاء على طرابلس ذاتها بتحسيناتها الهائلة في شبه جزيرة الميناء . وبعد أن فرض إتاقوة باهظة من المال والجياد عاد إلى طرطوس للتخطيط لحملة التالية^(٤).

وبعد أن أمضى الأشهر التالية في توطيد مواقعه في جوار طرطوس ، انطلق في ربيع ١١٠٣م لغزو البقاع ، وهي غزوة ضرورية لعزل طرابلس وللتوسع باتجاه وادي العاصي . وفشلت محاولته في مباغته قلعة طوبان الواقعة في مدخل الوادي الشمالى الشرقى ، لكنه حط رحاله غير هيناب وحاصر قلعة الحصن الهائلة التى تسيطر على الوادي كله ، والتى سبق أن احتلها جنوده لمدة أسبوع عام ١٠٩٩ م ؛ والقلعان تابعتان لجناح الدولة الحمصى الذى لم يكن بوسعه أن يفقداهما ؛ فجرد جيشاً لإنقاذهما . بيد أنه أثناء خروجه من الجامع الكبير في حمص بعد صلاة الدعاء . بالنصر ، قتله ثلاثة من الحشاشين مما أشاع الإضطراب والفوضى في المدينة . وعلى الفور رفع ريموند الحصار عن قلعة الحصن وسار شرقاً ليتجهز هذه النهضة . وينسب الرأى العام تلك الجريمة إلى عملاء رضوان الذى لم يغفر لجناح الدولة مطلقاً هجوم الأخير عليه قبل ذلك بثلاث سنوات بينما كان يقاتل الفرنج في أنطاكية . وفزعت أرملة جناح - وهي أم رضوان - من اقتراب ريموند؛ فأرسلت إلى حلب تعرض المدينة على رضوان . ولم

(٤) 525 (p. Sibit ibn al-Djauzi, pp. 211-12; Ibn al-Athir, يذكر أن مكان المعركة خارج طرطوس وكذلك يذكر Caffaro, *Liberatio*, loc. cit. Radulph of Caen, cxdv, p. 707 .

يوافقها مستشارو جناح في ذلك ، وإنما استدعوا دقاق الدمشقي لإنقاذهم بدلا من رضوان ؛ فأتى دقاق بنفسه على عجل وبصحبته أتابعه طغتكين الذى عهد إليه بحكومة حمص، ولم يكن ريموند فى وضع يستطيع فيه محاربته ، فانسحب إلى الساحل^(٥).

ولدى عودته إلى طرطوس علم برصول أسطول صغير من جنوا يتألف من أربعين سفينة ألقت مراسيها فى اللاذقية ، فاستأجاره من فورهِ لمساعدته فى الهجوم على طرابلس ؛ لكن الهجوم باء بالفشل ، فرحل الخليفان جنوبا واستوليا على ميناء جبيل ، أو جبيل، الذى كان القدماء يطلقون عليه إسم بيلوس؛ وكوفى أبناء جنوا بثلاث المدينة^(٦) لكن ريموند كان قد عقد العزم على غزو طرابلس نفسها ؛ وفى الأشهر الأخيرة من عام ١١٠٣ م ضرب معسكره فى ضواحي المدينة وشرع فى تشييد قلعة ضخمة فوق سلسلة من التلال فى الداخل تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المدينة . وقبل ذلك بفترة وجيزة حاول إقناع تنكريد بالتحول عن اللاذقية ، إرضاء لبيزنطة ، فكافأته بيزنطة بأن أمدته من قبرص بمواد البناء والبنائين المهرة . وبحلول ربيع عام ١١٠٤ م اكتمل بناء القلعة وحل بها ريموند وأسماءا جبل الحجاج ، وهى التى يسميها العرب قلعة سنجيل ، أى قلعة سان جيل^(٧).

١١٠٥م: موت ريموند

بالت طرابلس الآن فى حالة حصار دائم ، لكنها ظلت منيعة ؛ إذ كان ريموند يسيطر على المداخل البرية لكنه لا يملك القوة البحرية الدائمة . وكان بنو عمار لا يزالون يحتفظون بأسطول تجارى كبير ، ولديهم الكثير من الثروة المقدسة ، فاستمروا فى إحضار المؤن من الموانئ المصرية فى الجنوب لكن قلعة ريموند كانت تهدد حريتهم ؛ فخرجوا فى أواخر الصيف وحرقوا الضواحي حتى أسوارها، وأصيب ريموند نفسه عندما وقع عليه سقف محروق . وفى أوائل الربيع التالى أمكن إغراء فخر الملك بترتيب عقد

(٥) Ibn al-athir, p. 213 والتاريخ الذى ذكره غامض. 1-590. Kemal ad-Din.

(٦) Albert of Aix, IX, 26, pp.605-6; Caffaro, Liberatio, p. 71

(٧) Anna Comnena, XI, viii, 5, vol. III, p. 380; Albert of Aix, ix, IX, 32, P. 510; Caffaro, iberatio, p.70; RadulphofCaen, loc.cit.; William of Tyre, X, 17, p. 441; Ibn al-Athir, pp. 217-18; Abu'l Mehasin, p.275.

هدنة مع المسيحيين تخلى لهم بموجبها عن الضواحي . وما أن تمت المفاوضات حتى مرض ريموند مرض الوفاة ولم يكن قد شفى تماما من جراحاته التي أصابته قبل ذلك بستة أشهر ، ومات في جبل الحاج يوم ٢٨ فبراير عام ١١٠٥ م ، وبقيت له شهرته لما أقدم عليه من مغامرات تغلب عليها الشجاعة في سنواته الأخيرة . ونعاه عارفوه على أنه فارس مسيحي عظيم فضّل شدائد الحرب على متع الوطن كلها^(٨) .

وكان جديرا بما نسب إليه . فعلى خلاف زملائه الصليبيين - المستقرين الآن في الشرق بعد أن كانوا فقراء لا شأن لهم يذكر في أوطانهم - كان لدى ريموند ميراث ضخم في أوروبا ؛ وبرغم قسمه بعدم العودة إلى ميراثه أبدا ، كان مع ذلك يحتفظ بنوع ما من السيطرة على أملاكه هناك . وبموته برزت مشكلة استخلافه في تولوز فضلا عن لبنان . فقد ترك تولوز يحكمها برتراند أكبر أبنائه ، الذي حامت الشكوك حول حقه في وراثته الكونتية ، ربما لأنه كان ابن سفاح . ولقد مات جميع أبناء ريموند من الكونتيسة ألفيرا فيما عدا ولد صغيره ، ألفونسو جوردون ، الذي ولد قبل أشهر قليلة في قلعة جبل الحاج ، ولا يستطيع طفل أن يحكم دويلة عسكرية لها وضعها الشائك في لبنان ، وربما لم يكن وجوده نفسه معروفا بعد في تولوز . واستمر برتراند يباشر إدارة أراضي أبيه الأوروبية . وفي الشرق إختار جنود ريموند - وربما توافق إختيارهم مع آخر رغبات ريموند - ابن عمه وليم جوردون ، كونه سردانيا (الواقعة على جبال البرانس) ، والذي وصل إلى الشرق مؤخرا ، وكانت جدته لأمه هي خالة ريموند . وقد اعتبر نفسه وصيا على ابن عمه الطفل ألفونسو ، وأبى أن يأخذ أية أملاك من أراضي في الشرق . بيد أنه طالما بقى ألفونسو جوردون على قيد الحياة ، فلن يتوفر الأمن في حكومة وليم جوردون ولا في حكومة برتراند^(٩) .

(٨) Albert of Aix, loc.cit.; Carraro, *Liberatio*, p. 72; Bartolf of Nangis, LXVIII, p. 539.

(٩) Histoire de Vaisette في تاريخه Albert of Aix, IX, 50, pp. 123-4. وطبقا لما ذكره Languedoc, ed. Molinier, vol. IV, I, pp. 195-9, ولد برتراند لابن ريموند من زوجته الأولى إينة مركز بروفانس . وأبطل هذا الزواج فيما بعد على أساس القرابة الوثيقة التي تحظره . ولا يترب على هذا الإبطال دائما إعتبار ثمرته أولاد سفاح . ولكن من الواضح أنه على الرغم من أن ريموند اعتبر برتراند وريثه في تولوز حينما رحل إلى الشرق بصحبة أولاده من ألفيرا (وهم غير معروفين من ناحية الذكورة والأبوة)، فإن مطالب برتراند تعتبر أدبي من مطالب ألفونسو جوردون الشرعية الثابتة في تولوز وفيما بعد تسببت مطالب ألفونسو جوردون حول طرابلس في إنزعاج حفيد برتراند ، ريموند الثاني (أنظر أدناه، الباب الثالث ، الفصل الثالث) أما William of Malmesbury ، الذي لا يتوحي الدقة دائما، فيسمى برتراند إيس ريموند العشيق (II, 9. 456) ويسميه الكاتب المعاصر Caffaro (Liberatio, p. 72) ابن الحرام.

وسار وليم جوردن على سياسة سلفه ، مضيّقاً الحصار ومحتفظاً بالتحالف مع بيزنطة . وأرسل له حاكم قبرص ، إيومانيوس فيلو كاليبس ، بناء على تعليمات الإمبراطور ، سفيرا لتلقى تعابير الاحترام ، وإزاء ذلك أعطاه الهدايا القيمة . ونتيجة لامتنال وليم جوردن لبيزنطة ، دأبت قبرص على إرسال إمدادات منتظمة للفرنج الموجودين أمام طرابلس . ومن حين لآخر كان جنود بيزنطة يساعدون في حصار المدينة . وتدفق الطعام على المعسكر الفرنجي في الوقت الذي هددت فيه الجحاعة سكان طرابلس ؛ إذ تعذر وصول الطعام برا ، ولم يعد يكفي هذا العدد الكبير من السكان ما تنقله السفن من المراتى الفاطمية ، فضلا عن الطعام الذى كان يتسلل عن طريق أراضي تنكريد التى تخترق الحصار؛ وارتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا خياليا ، بحيث أصبح سعر رطل التمر قطعة ذهبية ؛ وهاجر كل قادر على الهرب من المدينة ، ولم يسق داخل الأسوار سوى البؤس والمرض ، اللذين حاول فخر الملك تخفيفهما بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى وتسديد أثمانها من ضرائب خاصة . وهرب بعض نبلاء المدينة إلى معسكر الفرنج ، وكشف اثنان منهم للمحاصرين المرات التى لا تزال الأطعمة تهرب عن طريقها إلى داخل المدينة . وعرض فخر الملك على وليم جوردن مبالغ طائلة لقاء تسليمه هذين الخائنين؛ وعندما رفض الكونت تسليمهما وحدا مقتولين فى المعسكر المسيحى^(١٠).

١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة

لم يجد فخر الملك من يلجأ إليه طلبا للعون ؛ فعندما طلبه من الفاطميين أصبحوا على ضم دويلته إليهم؛ ولسبب أو لآخر لم يكن على علاقة طيبة مع طغتكين صاحب حمص، وهو أقرب الحلفاء إليه ، وقد تولى حكم دمشق بعد موت الدقاق فى ١١٠٤م ، وقد دأب هو نفسه على محاربة وليم جوردن . وبدا له أن أقاصى الحلفاء هم الأكثر حرصا عليه ، فأرسل فى سنة ١١٠٥م نداء عاجلا إلى سقمان الأرتقى حاكم ماردين الذى لم يكن عزوفا عن معاودة الدخول فى ساحة الصراع فى الساحل السورى ، فانطلق مع جيش كبير عبر الصحراء . غير أنه مات فجأة لدى وصله البزاء ، وأسرع

(١٠) Anna Comnena, loc. cit.; ويقول إس الأثير (Ibn al-Athir, p. 236) إن المدينة تلتفت إمدادات جيدة من الإغريق فى اللاذقية.

قواده بالعودة إلى الجزيرة ليختلفوا حول استخلافه^(١١).

وممكن فخر المالك طوال عامي ١١٠٦ و ١١٠٧ م من تدبير أمره في طرابلس وسط البؤس المتزايد بفضل ما كان له من ثروة وما انتصف به من دبلوماسية ؛ فتحسنت علاقته بطغتكين الذي استطاع مساعدته بعد أن استعاد رغبة من الفرنج سنة ١١٠٥ م محوّلًا بذلك إتيابهم عن طرابلس^(١٢)؛ على أن أقدام الفرنج باتت راسخة الآن على الساحل اللبناني ، وليس هناك من الجيران المسلمين من يتوفر لديه الإستعداد ، أو الاقتدار ، لطردهم . وفي ربيع ١١٠٨ م ، قرر فخر الملك وهو في غمرة اليأس أن يلتمس المساعدة بنفسه من الخليفة العباسي في بغداد ، ومن أكبر عاهل هناك وهو السلطان محمد السلجوقي.

وانطلق من طرابلس في شهر مارس بعد أن عهد إلى ابن عمه أبو المناقب بن عمار بتصرف شؤون الحكم ، وبعد أن أمر بمنح جميع الجنود راتب ستة أشهر مقدما . وكان قد أطلع طغتكين على نيّته ، ويبدو أنه حصل على إذن من وليم جوردون بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج ؛ واصطحب معه حرسا خاصا يتألف من خمسمائة رجل ، كما حمل العديد من الهدايا للسلطان . وبوصوله إلى دمشق إستقبله طغتكين بمظاهر الاحترام اللائق ، وأمطره أمراء دمشق البارزون بالهدايا ، ورغم توخي الحيلة ونزوله خارج أسوار المدينة . وعندما شرع في مواصلة الرحلة انضم إلى حرسه ابن طغتكين ، تاج الملك بوري . وعلى مشارف بغداد إستقبل بأسمى آيات التشريف ؛ إذ أرسل إليه السلطان زورقه الخاص ليعبر به نهر الفرات ، وأجلسه على الوسادة التي تتشرف عادة بجلوس السلطان نفسه عليها . ورغم أن فخر الملك ليس له من لقب قط سوى لقب القاضي ، فقد دخل بغداد بالتشريفات التي لا تجرى الا لعاهل أمير . وأظهر كل من الخليفة و السلطان مشاعر تعاطفهم الأخوية ، وأثريا على ما قدمه للدين من خدمات . على أنه حينما بدأت المناقشة الجدلية سقط القناع عن خواء تلك الجاملات ؛ إذ وعده السلطان بإرسال جيش سلجوقي كبير لتخليص طرابلس ، ولكن هناك أولا بعض المهام الصغيرة التي يتعيّن إنجازها بالقرب من بغداد ، فمثلا ينبغي تأديب جاولي أمير المرصل حتى يظهر من الطاعة أكثر مما هو عليه . وأدرك فخر الملك حقيقة أن محمدا عزوف عن التدخل في مسألة طرابلس . وبعد مرور أربعة أشهر عقيمة ومترفة في بلاط

(١١) .Ibn al-Athir, pp. 226-7.

(١٢) .Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 60; Ibn al-Athir, p. 230.

السلطان شرع فى رحلة العودة إلى وطنه ليكتشف أنه لم يعد له وطن^(١٣).

ذلك أن أبى المنقرب ووجهاء طرابلس كانوا واقعيين ؛ وتحققوا من أن القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على مساعدتهم هى القوة الفاطمية التى مازالت تسيطر على البحار ، فتوجهوا إلى الوزير المصرى الأفضل ملتجئين لإرسال حاكم يتولى شؤون المدينة ، وإستجابة لرغبتهم أرسل شرف الدولة الذى وصل طرابلس فى صيف ١١٠٨م حاملا معه الحبوب للسكان ؛ ولم يجد صعوبة فى إحكام سيطرته على المدينة؛ إذ اعتقل أنصار فخر الملك وأرسلهم بحرا إلى مصر . وكان فخر الملك قد وصل فى طريق عودته إلى دمشق قبل أن يعلم بهذه الثورة ، وكان لا يزال يملك جبهة الواقعة إلى الشمال من طرطوس ، فولى وجهه شطرها، لكن حكمه هناك لم يدم طويلا ؛ فقد ظهر تنكريد الأنطاكي فى شهر مايو ١١٠٩م بكامل قوته أمام المدينة ، فاستسلم فخر الملك بعد أن اشترط الإحتفاظ بالمدينة كإقطاعية من تنكريد ؛ لكن هذا الأخير خان وعده ، فاضطر فخر الملك إلى الرحيل إلى دمشق دون أن يتحرض به تنكريد ليتقاعد فيها، وقضى ما بقى من حياته يتقاضى معاش تقاعده من طغتك^(١٤).

١١٠٨م : برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق

مع أن فخر الملك فقد طرابلس ، لم يستطع المصريون الإحتفاظ بها ، كما لم يتمكن وليم جوردن من الفوز بها؛ إذ أنه بموت ريموند وافق بارونات تولوز على إستخلاف برتراند، فقد حكمهم بالفعل لما يقرب من عشر سنوات ، فضلا عن أنهم لم يعلموا بعد بوجود ابن شرعى لريموند. على أنهم بعدما علموا بوجود ألفونسو جوردن الصغير ، أرسلوا إليه يستدعونه لتسلم حقه فى الميراث ، ولا تلام الكونتيسة ألفيرا على إثارتها الأراضى الخصبة فى جنوب فرنسا على لوردية وضعها شائك فى الشرق . فوصلت مع ابنها إلى تولوز سنة ١١٠٨م.

وبوصلهما ، كان لزاما على برتراند أن ينظر فى مستقبله . والراجح أنه قد تم إعداد إتفاق عائلى ، يتخلى برتراند بموجبه عن مطالباته فى أراضى أيبه الأوروبية ، مقابل تخلى ألفونسو جوردن له عن ميراثه فى لبنان وبذا يتخلص منه نهائيا فى تولوز .

(١٣) Ibn al-Qalanisi, op.cit pp. 83-6; Ibn al-Athir, pp. 255-7..

(١٤) Ibn al-Qalanisi, pp 86-90; Ibn al-Athir, p 274; Sibti ibn ak-Djauzi, p 536

وفى صيف ١١٠٨م رحل برتراند إلى الشرق وقد عقد العزم على غزو طرابلس ليكون هذا الغزو بمثابة تنويع لإمارته التي تنتظره. وربما توقع بعض الصعوبات مع وليم جوردن ، ولذا اصطحب معه جيشا من أربعة آلاف فارس وراجل ، وأسطولا من أربعين قادسا^(١٥) أمدته بها موانئ بروفانس ، واصطحب معه ابنه الصغير بونز . وكان ميناء جنوا أول مكان توقف فيه للزيارة آملا الحصول على المساعدة البحرية اللازمة للإستيلاء على طرابلس . وحاول وليم جوردن هو الآخر ترتيب تحالف مع أبناء جنوا، لكن سفارته وجدت أنهم قد قبلوا برتراند بالفعل حليفا للجمهورية . ووعدت جنوا بمساعدة برتراند على استلامه الأراضي التي غزاها أبوه في الشرق وتوجيهها بالإستيلاء على طرابلس التي سيحصلون فيها على مناطق تجارية مفضلة ؛ وفى الخريف أبحر أسطول من جنوا مع برتراند بإتجاه الشرق^(١٦).

ورتب برتراند أن تكون خطوته التالية هي زيارة القسطنطينية كي يضمن موازنة الإمبراطور ، صديق أبيه . ودفعت العواصف بأسطوله إلى خليج فولو ، وإلى مرفأ الميرو حيث ترك رجاله إنطباعا رائعا بإحجامهم عما إعتاد عليه الغرب من نهب الريف . وترتب على ذلك أن استقبله ألكسيوس في القسطنطينية بمشاعر التعاطف وعامله كابنه، وأغدق عليه من الهدايا القيمة ، ووعدته بميزات إمبراطورية ؛ وفى مقابل ذلك أقسم على الولاء للإمبراطور^(١٧).

وأبحر برتراند من القسطنطينية مع حلفائه أبناء جنوا إلى ميناء السويدية الأنطاكي، وأرسل مبعوثا إلى تنكريد كي يحضر لمقابلته ، فجاء تنكريد فى الحال . لكن المناقشة التي دارت بينهما لم تتخذ مسارا سلسا هيئا؛ إذ طلب برتراند بأسلوب متعجرف أن يسلمه تنكريد الأجزاء من مدينة أنطاكية التي كانت فى حوزة أبيه ذات مرة ، ورد تنكريد بأنه على استعداد للنظر فى طلبه إذا ما ساعده فى حملته المرتقبة ضد المصيصة ومدن كيليكيا البيزنطية . ولم يلق هذا الاقتراح قبولا لدى برتراند الذى أقسم لتوه قسم الولاء للإمبراطور ألكسيوس ، لاسيما وأنه أدخل فى حسبانته المساعدات البيزنطية .

(١٥) (المترجم) القادس : سفينة شرعية مجدافية كبيرة.

(١٦) يقول ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, XI, 3, p.664) إن برتراند زار بيزا وهو يعنى جنوا؛ Caffaro, *Liberatio*, p. 72.

(١٧) تقول أنا كومينا (Anna Comnena, XIV, ii, 6, vol. III, p. 149) إن برتراند أقسم قسم الولاء لألكسيوس عندما كان بالفعل فى طرابلس . ولكن ألبرت أوف آيكس (المراجع السابق) يذكر زيارته عن طريق هالميروس Halmyrus إلى القسطنطينية.

وبدلاً من ذلك عرض على تنكريد أن يغزو له مدينة جبلة التي لاذ بها فخر الملك ، ولكن تنكريد أصرّ على التعاون معه في حملة كيليكيا . ورفض برتراند ومصارحته بالقسم الذي أقسمه للإمبراطور ، أمره تنكريد بمغادرة الإمارة ، وأصدر أوامره لرعاياه ألاّ يبيعوه شيئاً من المون ؛ فاضطر برتراند إلى الرحيل مبحراً جنوباً إلى ميناء طرطوس^(١٨) .

١١٠٩م برتراند ووليم جوردن

كان أحد نواب وليم جوردون حاكماً على طرطوس . وسارع باستقبال برتراند في المدينة ، وزوده بكل ما كان في حاجة إليه من المون . وفي اليوم التالي أرسل برتراند مبعوثاً إلى مقر وليم جوردن الرئيسى في جبل الحاج طالباً تسليم كل تركة أبيه في أراضي لاشاميل La Chamelle ، أى إمارة حمص ، التي كان ريموند يأمل في إنشائها . لكن وليم جوردن كان قد حقق مؤخرًا نجاحاً ملحوظاً . إذ عندما تولى المصريون حكم طرابلس قام أهالى مدينة أرقا - التي كانت تحت قيادة واحد من غلمان فخر الملك المفضلين - بوضع المدينة تحت حماية طغتكين الدمشقى الذى خرج بنفسه لتفقد محميته الجديدة ؛ و لكن أمطار الشتاء أخرت تقدمه فى البقاع ؛ وأثناء إنتظاره تحسن الجو هاجم بعض الحصون التي بناها المسيحيون بالقرب من الحدود ؛ فزحف وليم جوردن مع ثلاثمائة من الخيالة ومائتين من المشاة المحليين فوق كتف جبل لبنان وباغته بالإنقضاض عليه بالقرب من قرية الأكمة ، فهرب طغتكين مع جيشه الدمشقى مذعوراً إلى حمص والفرنج فى أعقابهم يطاردونه ، لكنهم آثروا عدم المغامرة بمهاجمة المدينة وإنما تحولوا شمالاً للإغارة على أراضي شيزر . وعلم أميراً شيزر مرشد وسلطان ، وهما من المنقذين ، بأن جيش الفرنج صغير ، فخرجوا وهما على ثقة من هزيمته بيسر ، لكن الفرنج بادروا بهجوم ضار كسر رجال شيزر فلاذوا بالفرار وعاد وليم جوردن إلى أرقا التي استسلمت له بعد حصار لا يزيد على ثلاثة أسابيع^(١٩) .

وانتشى وليم جوردن بانتصاراته ، ولم يكن فى حالة تسمح له بالتنازل عما يطلبه برتراند، ورد عليه قائلاً إنه يمتلك أراضي ريموند بحق الوراثة ، فضلاً عن أنه دافع عنها

(١٨) Albert of Aix, XI, 5-7, PP. 665-7.

(١٩) Usama, ed. Hitti, p. 78; Ibn al-Athir, pp. 226-7.

ووسع من رقعتها . على أنه استشعر الخطر من ضخامة أسطول برتراند ؛ فاستنجد بأنطاكية ملتصقا تدخل تنكريد لصالحه بعد أن وعد بأن يصبح تابعا لتنكريد . واضطر برتراند إلى إتخاذ إجراء مناظر، فأرسل مبعوثا إلى القدس يعرض قضيته على الملك بلدوين ويناشده التدخل بصفته الحكم الأعلى لفرنج الشرق ، ومن ثم يعترف بسيادته عليه^(٢٠).

واستجاب بلدوين من فوره للنداء . ذلك أن حنكته السياسية ترى ضرورة تعاون فرنج الشرق، وصوّر له طموحه أنه قائدهم . وكان غاضبا أشد الغضب على تنكريد من موقفه إزاء بلدوين الرها وجوسلين أوف كورتناى . وتحرك برتراند جنوبا إلى طرابلس حيث كان الجيش يقوم بمهمة مزدوجة : مواصلة حصار المدينة الإسلامية ، ومحاصرة أعوان وليم جوردن فى جبل الحاج . وفى ذات الوقت كان وليم جوردن قد غادر جبل الحاج واحتل طرطوس مرة أخرى ، ولبت فيها ينتظر تنكريد . وما أن وصل حتى جاء مبعوثان من الملك بلدوين ؛ هما إيوستاس جارييه وباجان أوف حيفا ، وأمرهما بالمشول فى بلاط الملك أمام طرابلس لتسوية مسألة ميراث ريموند، وإعادة الرها وتل بشير إلى أصحابهما الشرعيين. وود وليم جوردن لو أن تنكريد يرفض هذا الإستدعاء ، لكن تنكريد تحقق من عدم جدوى التحدى.

وفى شهر يونية تجمع أمراء فرنج الشرق جميعا خارج أسوار طرابلس ؛ فحضر برتراند مع جيشه ، وجاء الملك بلدوين من الجنوب وبصحبه خمسمائة فارس ومثلهم من المشاة ، وأحضر تنكريد سبعمائة من أقدر فرسانه ، ووصل بلدوين الرها وجوسلين مع الحرس . وانعقدت جلسة وقورة فى قلعة جبل الحاج أسفرت عن مصالحة رسمية بين تنكريد وبلدوين الرها وجوسلين ، بينما تقرر تقسيم الميراث التولوزى بأن يحتفظ وليم جوردن بطرطوس وما غنمه غزوا - أى أرقا ؛ ويحصل برتراند على جيبيل وطرابلس فور الاستيلاء عليها . وأقسم الأول قسم الولاء لتنكريد ، وأقسم الثانى قسم الولاء للملك بلدوين. ويقضى الإتفاق بأنه فى حالة وفاة أى منهما يرث الآخر أراضيهِ^(٢١).

(٢٠) Fulcher of Chartres, II, xi, I, pp. 526-30; Albert of Aix, XI, 1-2, 8, pp. 663-4, 666.

(٢١) Fulcher of Chartres, II, xli, I, p. 531, Albert of Aix, XI, 9-12, pp. 666-8.

١١٠٩م استسلام طرابلس

وحل السلام بين القادة ، وشرع الجيش الفرنجي حادا في الاستيلاء على طرابلس . وكان الحاكم المصري شرف الدولة لا يزال يلح يائسا في طلب المساعدة من السلطات المصرية التي شغلتها مكائد قادتها وخلافاتهم ، فتأخر ما جهزته في موانئ الدلتا من أسطول ضخمة وسفن من ناقلات الجنود وقوارب محملة بالإمدادات . وكانت الشهور تمضي والوزير يحاول تهدئة الخلافات بمحاولات منقوصة ، إلى أن صدرت الأوامر أخيرا بالإبحار . غير أن الرياح الشمالية هبت واشتدت مما عرقل إبحار السفن من الميناء ، وعندما أبحرت في نهاية الأمر وقد نقص عددها ، كان السيف قد سبق العذل^(٢٢).

وتلفتت حامية طرابلس فوجدت أساطيل جنوا وبروفانس تعزلها بحرا ، وآلات الفرنج تقصف أسوارها فتعجزها برا ؛ فنفضت عن نفسها فكرة المقاومة ، وأرسل شرف الدولة إلى الملك بلدوين يعرض تسليم المدينة بشرط السماح للمواطنين الراغبين في الهجرة بالرحيل آمنين ومعهم منقولاتهم ، وأن يسرى على المواطنين الراغبين في البقاء ما يسرى على رعايا الفرنج ، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ، وإنما يدفعون ضريبة سنوية معينة ، وأن يسمح له هو نفسه بالرحيل مع جنوده إلى دمشق . فوافق بلدوين ودخل المسيحيون طرابلس يوم ٢١ يولية ١١٠٩م.

وأما بلدوين ، فقد احتزم إتفاقه ولم يحدث في المناطق التي كان يباشرها نهب أو تخريب ، وأما بحارة جنوا فقد اقتحموا المدينة العارية من أي دفاع ، وراحوا ينهون المنازل ويحرقونها ، وأخذوا يقتلون كل مسلم يقابلهم ؛ ولم تتمكن السلطات من كبح جماحهم إلا بعد فترة من الوقت ، وأثناء النهب والشغب أحرقوا مكتبة بنى عمار العظيمة عن آخرها وهلكت كل محتوياتها . وكانت أروع مكتبة في العالم الإسلامي^(٢٣).

وبعد الاستيلاء على كامل المدينة وفرض النظام تم تنصيب برتراند حاكما لها ومنح لقب كونت طرابلس ، وأعاد تأكيد تبعيته لمملكة القدس . وضرب بتعهداته للإمبراطور ألكسيوس عرض الحائط . وكوفي أبناء جنوا بحى من أحياء طرابلس ، وقلعة تعرف

(٢٢) Ibn al-Athir, p. 274; Ibn al-Qalanisi, p. 89

(٢٣) Fulcher of Charters, II, xli, 2-4, pp. 531-3; Albert of Aix, XI, 13, p. 668; Ibn al-Qalanisi, pp. 89-90; Ibn al-Athir, loc. cit.; Abu'l Mahasin, p. 489; Ibn Hrdun, p. 455; Sibte ibn al-Djauzi, p. 536.

بقلعة الكونستابل تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من طرابلس، وبالثلاثين الباقيين من مدينة جبيل بعد منحها للأدميرال هيو أمبرياكو، وقد حولتها ذريته إلى إقطاعية وراثية^(٢٤).

ولم ينتظر برتراند طويلا ليستحوذ على ميراث أبيه كله في الشرق، إذ أصيب وليم جوردن بسهم أثناء تواجد الجيش الفرنجي في طرابلس، وبقيت ملابسات مقتله غامضة. ويبدو أنه اندفع لفض شجار شب بين إثنين من سائسي الخيل، وأثناء محاولته الفصل بين الرجلين أطلق البعض عليه سهما. وبقينا حامت الشبهات حول برتراند، ولكن دون يئنة. وعلى الفور تسلم برتراند جميع أراضي وليم جوردن، التي أصبحت إذن تدين بالولاء للملك بلدوين. ولقد راهن تنكريد على الحصان الخاسر^(٢٥).

وهكذا تحققت طموحات ريموند في تأسيس دويلة في الشرق أقامها ولده. ولكنها كانت إمارة ثقل عما كان يراود خياله، ولم تكن أراضي "لا شاميل" جزءا منها قط، وبدلا من الاعتراف بسيادة الإمبراطور البعيد في القسطنطينية، أصبح لها سيد أعلى على مقربة في القدس. على أنه كان ميراثا غنيا مزدهرا. وكان لهذه الإمارة، بما لها من ثروة وموقع يربط فرنج شمال سوريا بفرنج فلسطين، دورا حيويا في تاريخ الحروب الصليبية.

Caffaro, *Libertio*, pp 72-3 See Rey, 'Les Seigneurs de Gibelet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol III, pp. 399-403. (٢٤)

Fulcher of Charters, loc. cit.; Albert of Aix, XI, 15, pp. 669-70. (٢٥)

الفصل الخامس:

الملك بالدوين الأول

الملك بلدوين الأول

"قلبه صلب كالخجر وقاس كالرحى"
(أيوب ٤١ - ٢٤)

اتضح بجلاء من تدخل الملك بلدوين في طرابلس سنة ١١٠٩ م أنه عاهل فرنج الشرق بلا منازع. وقد حظى بتلك المكانة بما كان له من دأب شاق صبور ومن جسارة المغامرة . وعندما وصل القدس بعد موت جودفرى ، برغم معارضة البطريق دياميرت وحليفه أمير انطاكية (بوهيموند)، كان ما ورثه عبارة عن خزانة خاوية وممتلكات مبعثرة تتألف من سلسلة الجبال الوسطى في فلسطين وسهل ازدراليون ، وحصون نائية قليلة شيدت في أراض معادية ، وجيش بالغ الضالة مؤلف من فرسان متعجرفين لا سلطة للقانون عليهم، ومرترقة من أهل البلاد لاثقة فيهم . ولم يكن في المملكة أية هيئة واحدة منظمة عدا الكنيسة التى تضم شيعتين : شيعة دياميرت ، وشيعة أرنولف . وكانت أسرة جودفرى هى التى تتولى تصريف الإدارة المركزية ، وهى أسرة صغيرة غير جديرة بتولى حكومة بلد. وأما النبلاء الذين أوكلت إليهم الحصون الحدودية ، فكانوا

يعكمون أراضيهم بما تخليه عليهم أهواؤهم.

ورأى بلدوين أن أخطر ما يتهدد مملكته هجوم إسلامي قبل أن تنتظم أمورهما. وإعتقاداً منه بأن أفضل سبل الدفاع هي الهجوم ، انطلق في حملة يهرب بها الكفرة قبل أن يجد حلاً لمشكلة علاقته مع ديامبرت ، وقبل أن يوضع التاج على رأسه وهي مشكلة يرى أنها ملحة. وكان لأعماله الجريئة في الرها وإنتصاره في نهر الكلب ما أصفى عليه سمعة مرعبة راح ينتفع بها. فلم يكذب أسبوع على وصوله إلى القدس حتى انطلق جنوباً إلى عسقلان وسار أمام أسوارها مستعرضاً ؛ بيد أن قلعة عسقلان كانت من القوة بحيث لا يستطيع جيشه الهزيل مهاجمتها ، فاتجه شرقاً إلى الخليل ، فجنوباً داخل النقب ، إلى زُغر في الأرض المالحة في الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وراح يشعل الحرائق في القرى التي يقابلها في طريقه . وواصل مسيرته خلال قفار إيدوم (الشرارة) إلى جبل هارون حيث دير القديس هارون القديم بالقرب من البراء. ورغم أنه لم يبق طويلاً في تلك المنطقة ، فقد كان لمسيرته أثرها المروّع على العرب ، فأحجموا عن التسلل إلى أراضيهم في السنوات القليلة التي تلت^(١).

وعاد إلى القدس قبيل عيد الميلاد بقليل، وتوفر للبطريق ديامبرت الوقت الكافي ليتدبر أمره ، فاختار أن ينحني لعاصفة قدره المحتوم . وفي عيد الميلاد من عام ١١٠٠م وضع تاج الملك على رأس بلدوين معلناً تنصيبه ملكاً على القدس ، وفي المقابل آلت إليه البطرياركية.

وفي بدايات ربيع ١١٠١م علم بلدوين بأن قبيلة عربية ثرية تعيش في وادي الأردن، فسارع إليها على رأس كتيبة عبر النهر وانقضّ عليها بليل، وأجهز على أغلب الرجال وهم في خيامهم، وسبى النساء والأطفال واستلب الكثير من الثمين والمال، ولم يتمكن من الهرب إلا القليل. ومن بين السبايا كانت زوجة أحد شيوخ القبيلة تنهياً لتضع حملها، فأمر بلدوين بإطلاق سراحها مع خادمتها وناقيتين وكثير من الطعام والشراب. ووضعت طفلها على جانب الطريق حيث وجدها زوجها. ومست كياسة بلدوين شغاف قلبه فأسرع إليه يوفيه حقه من الشكر والعرفان، وأعدا برد الجميل يوماً ما^(٢).

(١) صاحب فولشر أوف تشارتر هذه الحملة (Fulcher of Charters, II, iv, i-5, ii, pp. 370-83) ؛
Albert of Aix, VII, 28-42, pp. 533-6. كان هناك دير إغريقي في جبل هارون حالياً، ونزل
للهربان حول الضريح النبطي الكبير الذي يعرف الآن باسم الدير.

(٢) William of Tyre, X, II, p. 415.

وزادته هذه العارة شهرة على شهرة ، فوفدت السفارات فى مارس إلى القدس من مدن الساحل أرسوف وقيسارية وعكا وصور تحمل الهدايا الثمينة ، كما أرسل دقاق الدمشقى يعرض خمسين ألف بيزنت فدية أسرى معركة نهر الكلب ؛ وإذن وجدت أعقد المشاكل المالية طريقها إلى الحل^(٣).

١١٠١ م : الإستيلاء على أرسوف وقيسارية

أما هدايا أرسوف وقيسارية ، فلم تغن عنهما شيئا ؛ إذ ظهر أسطول جنوا فى مارس أمام حيفا ، وألقى مراسيه فى يافا يوم ١٥ أبريل ، وكان من بين ركابه الأسقف موريس كاردينال بورتو الذى بعثه البابا باسكال ممثلا شخصيا له . وحتى آنذاك ، كان بلدوين يعتمد على أسطول بيزا الصغير الذى حمل عدوه دياميرت ، رئيس أساقفة بيزا ، إلى الشرق . وأملت المصلحة على بلدوين تفضيل التحالف مع أبناء جنوا ، إذ أنهم أنداد بيزا الشداد ، فانطلق جنوبا إلى حيفا للتحية ولإستقبال ممثل البابا . ودعا قادة الأسطول لقضاء عيد الفصح فى القدس حيث إتفقوا على تقديم خدماتهم البحرية طوال موسم كامل نظير ثلث الأسلاب المستلبة ، المال والمنقول سواء بسواء ، وشارع فى حى السوق من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها . وحالما وقعوا الإتفاق ، انطلقوا يريدون أرسوف ، بلدوين برا وأهل جنوا يحرا . وسرعان ما انهارت المقاومة وعرضت سلطات المدينة التسليم شريطة السماح للسكان بالهجرة المأمونة مع ذويهم ومنقولاتهم إلى أرض إسلامية ، وقبل بلدوين فرحلوا فى حراسة جنوده إلى عسقلان . وعزز بلدوين الحامية برجاله بعد أن أعطى أبناء جنوا حقهم المتفق عليه^(٤).

ورحل الحلفاء من أرسوف إلى قيسارية حيث بدأوا حصارها يوم ٢ مايو . وأبت الحامية أن تستسلم المدينة اعتمادا على أسوارها البيزنطية القديمة . على أن المدينة سقطت إثر هجوم عام يوم ١٧ مايو . وأطلق القادة المنتصرون جنودهم لينهبوا المدينة كما يخلو لهم ؛ وبلغت الشراسة حدا أذهل حتى القادة أنفسهم ؛ ووقعت أفطع المذابح فى الجامع الكبير ، الذى كان ذات مرة معبد هيرود أجريبا^(٥)، حيث لاذ به الكثيرون

(٣) Albert of Aix, VII, 52, pp. 5-11-2.

(٤) Fulcher of Charters, II, viii, 1-7, pp. 393-400; Albert of Aix, VII, 54, pp. 452-3

(٥) (المترجم) : هيرود أجريبا: من ملوك بنى إسرائيل (١٠ ق م - ٤٤ م) استغل صداقته بالأسرة الإمبراطورية وأصبح ملكا . اصطهد المسيحيين ، وسجن بطرس الرسول ، وقتل الخواري يعقوب بن

الذين توسلوا طالبين الرحمة ، لكنهم ذبحوا رجالا ونساء سواء بسواء ، إلى أن استحوالت أرضية الجامع بحجرة دماء . ولم يخرج من الجامع أحد على قدمية سوى عدد قليل من البنات والأطفال الرضع ، إلى جانب كبير القضاة وقائد الحامية بعد أن أنقذهما بلدوين نفسه طمعا في فدية ثمينة . وقد أمر بلدوين بتلك الوحشية متعمدا ، حتى يظهر أنه عند كلمته مع كل من يعقد معه اتفاقا ، وإلا فإنه لا يرحم^(٦).

وما أن أنهى بلدوين توزيع الغنائم بحسب الاتفاق ، ووضع جنود الحامية ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشا مصرية قد دخل فلسطين.

ذلك أن الوزير الأفضل كان متلهفا على الثأر من كارثة عسقلان التي وقعت قبل عامين ، فجهز حملة يقودها المملوك سعد الدولة الجراشي ، وصلت عسقلان في منتصف مايو ، وواصلت تقدمها حتى الرملة ، وربما على أمل التوغل إلى القدس بينما كان بلدوين منهمكا في قيسارية ؛ وأسرع بلدوين بقواته إلى الرملة ، فعاد سعد إلى عسقلان انتظارا للتعزيزات . وبعد أن قام بلدوين بتعزيز تحصينات الرملة اتخذ من يافا مقرا لقيادته كي يتمكن من مراقبة تحركات المصريين ، وفي ذات الوقت يبقى على اتصاله بالمراسلات البحرية ، ولبت في يافا طوال الصيف عدا زيارة قصيرة للقدس لأغراض إدارية ، كما أنه علم من رسالة اكتشفت مع حاملها بوصول قوات مصرية جديدة إستعبادا للزحف على القدس.

١١٠١ م معركة الرملة الأولى

في ٤ سبتمبر تحرك سعد بجنوده تحركا بطيئا حتى مشارف الرملة . وفي مجلس الحرب الذي عقده بلدوين قبل يومين تقرر المبادرة بالهجوم فحرا دون إنتظار هجوم الأعداء . وكانت عدة الفرنج مائتين وستين فارسا وتسعمائة راجل ، تسليحهم جيد وخبرتهم بالحرب حسنة . أما المصريون فكانت عدتهم أحد عشر ألف فارس وواحد

زبدى بقطع رأسه في القدس عام ٤٤ م.

(٦) Fulcher of Charters, IX, 1-9, pp. 400-4; Albert of Aix, VII, 55-6, pp.453-4, William of Tyre, X, 16, p.423, يذكر أن أبناء جنوا أخذوا - كجزء من الغنائم - كأسا أخضر إعتقدوا أنه مصنوع من الزمرد الخالص . ولا يزال موجودا في خزانة كتدرائية القديس لوريزو في جنوا، واعتبر فيما بعد الكأس للقدسة (التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس) (أنظر Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, I, p. 137).

وعشرين ألف راجل ، تسليحهم سيئ وكذلك تدريبهم على الحرب . وقسم بلدوين رجاله إلى خمس فرق : الأولى يقودها فارس يقال له برفولد ، والثانية يقودها جلدمار كارنيل - لورد حيفا ، والثالثة يقودها هيو (أوف سانت أومير) الذى خلف تنكريد أميرا للجليل ، والفرقتان الرابعة والخامسة يقودهما بلدوين نفسه . وبار الفرنج إلى الرملة يستلهمون حماسهم من الصليب الحقيقى ، ومن الصلاة التى أقامها أرنولف أوف روس ، وما أعلنه الكاردينال ممثل البابا من غفران خاص لهم . ومع أشعة الشمس الأولى إنقضوا على المصريين بالقرب من بينة إلى الجنوب الغربى من المدينة.

وسحق المصريون محرم الفرقة الأولى بقيادة برفولد وسقط هو نفسه صريعا؛ واندفع جلدمار بفرقة الثانية لمعاوته ، ليهلك هو الآخر مع رجاله كلهم . وجاءت فرقة الجليل على الأثر ، ولم تفعل شيئا فى حشود المصريين . وتمكن هيو (أوف سانت أومير) بعد خسائر فادحة من سحب رجاله ولاذ بالفرار قاصدا يافا ووراءه ميسرة المصريين تطارده . وبدا أن الفرنج قد خسروا كل شيء . على أن الملك بلدوين ، بعد أن اعترف بذنوبه علانية أمام الصليب الحقيقى ، وبعد أن ألقى على رفاقه خطبة رنانة ، اعتلى فرسه العربى الشجاع "الغزال" واندفع أمام فرسانه فى قلب العدو ؛ فبوغت المصريون الواقفون من النصر ، وبعد سجال قصير استدار جنود الوسط وهربوا ، وامتد الذعر إلى ميمتهم ، ومنع بلدوين رجاله من التوقف لنهب الجثث أو سلب المعسكر ، وطاردتهم حتى أسوار عسقلان . ثم جمع شتات رجاله وراحوا يقتسمون الأسلاب التى فازوا بها فى ساحة القتال^(٧).

وفى تلك الأثناء، وصل هيو (أوف سانت أومير) إلى يافا، وأبلغ الملكة والبلاط بالهزيمة. وظننا منهم أن الملك قد قتل فى هذه الكارثة، سارعوا بطلب المساعدة من الرجل الذى ظنوه الوحيد القادر على العون — تنكريد فى أنطاكية. وفى الصباح التالى شاهدوا فى الأفق جيشا ظنوا أنه جيش المصريين؛ لكن النشوة تملكهم عندما ميّزوا رايات الفرنج وتعرفوا على الملك. فأرسلوا إلى أنطاكية ثانية بأن الأمور تسير على مايرام ولا حاجة لأن يأتى تنكريد. غير أن تنكريد كان قد تجهز - بشئ من البهجة - للإنتلاق جنوبا^(٨).

ولقد مال الخطر عن الفرنج مؤقتا ؛ وأصيب المصريون بخسائر كبيرة ، ولم يتمكنوا

Fulcher of Chartres, II, xi, I-xiii, 5, pp. 407-20; Albert of Aix, VII, 66-70, pp 550-3 (٧)

Fulcher of Chartres, II, xiv, I-8, pp. 420-4 (٨)

من معاودة إرسال حملة فى ذلك الفصل من السنة. غير أن مصر زاحرة بمواردها ، فلم يجد الأفضل صعوبة فى تجهيز جيش آخر فى العام التالى لمواصلة الكفاح . وفى ذلك الوقت وفد على بلدوين من نجا من أمراء الحملات الصليبية فى الأناضول عام ١١٠١م ، وكانوا قد وصلوا إلى مشارف بيروت فى أوائل ربيع ١١٠٢م وعلى رأسهم وليم الأكيثانى ، وستيفن أوف بلوا ، وستيفن أوف برجندى ، والكونسابل كونراد ، وبصحبته نبلأ شتى من الأراضى الواطئة ، وإيكارد أوف أوراء ، وأسقف مناس ، وأكثرهم جاء إلى أنطاكية بطريق البحر . وأرسل بلدوين حرسا لاستقبالهم وحراستهم حتى القدس خوفا عليهم من الأعداء . وبعد أن احتفل القادة بعيد الفصح فى الأماكن المقدسة ، تهيأوا للعودة إلى بلادهم ؛ فأبحر وليم الأكيثانى فى أمان من ميناء السويدية فى نهاية إبريل ؛ بيد أن العواصف قذفت بالسفينة التى تقل ستيفن أوف بلوا وستيفن البرجندى وآخرين إلى يافا . وقبل العثور على سفينة أخرى تقلهم جاءت الأنباء بمسير جيش إسلامى جديد من مصر . لسوء حظهم لبثوا للمساعدة فى الصراع الرشيك^(٩).

١١٠٢م معركة الرملة الثانية

فى منتصف مايو ١١٠٢م تجمع الجيش المصرى فى عسقلان ثم انطلق باتجاه الرملة . وكان قوامه نحو عشرين ألفا من العرب والسودانيين يقودهم شرف المعالى ، ابن الوزير . وكان بلدوين قد أعد عدته بجيش من عدة آلاف مسيحي ينتظر فى يافا ، وحاميات الجليل على أهبة الإستعداد لإرسال الكنائس إذا ما دعت الحاجة . لكن جواسيس بلدوين ضلوه ، فظن المصريين جماعة صغيرة من المغيرين ، فقرر القضاء عليهم بنفسه دون إستدعاء قواته الإحتياطية . وكان معه فى القدس أصدقاؤه من الغرب ، ستيفن أوف بلوا ، وستيفن البرجندى ، والكونسابل كونراد ، وهيو كونت لوسينان ، وغيرهم من فرسان البلجيك . واقترح عليهم الإنطلاق مع الفرسان لإنهاء هذه المهمة . وغامر ستيفن أوف بلوا بالقول بأن هذا تصرف يتصف بالتهور ، وأن من الأفضل إجراء إستطلاع جيد ؛ لكنه لم يبدأ أذنا صاغية ، وإنما تذكروا جنبه فى أنطاكية ، فصحبهم دون أن يزيد على ما قال .

وفى ١٧ مايو انطلق بلدوين من القدس على رأس نحو خمسمائة فارس ، يغلب

عليهم الكثير من المرح والقليل من النظام . وساعة أن خرجوا إلى السهل بوغتوا بالجيش المصرى الضخم ، وفتح بلدوين من خطته ، ولا سبيل الآن إلى التراجع فقد شاهدتهم المصريون الذين بادرت خيالتهم الخفيفة بقطع طرق تفهقهم ، وبذا أصبحت الفرصة الوحيدة أمام الفرنج هى الإندفاع مباشرة إلى قلب العدو . وظن المصريون بادئ الأمر أن هؤلاء لابد وأن يكونوا طليعة الجيش الفرنجى الكبير ، وفقدوا الأمل من وصول قوات أخرى في أثرهم قبل الإلتحام ، فجمعوا شملهم وأطبقوا على الفرنج ، فانكسرت صفوف بلدوين . وتمكن فرسان قليلون يقودهم روجر أوف روزوى ، وهيو أوف لى بورج ، ابن عم بلدوين ، من شق طريقهم بين المصريين والوصول سالمين إلى يافا . وسقط الكثير من فرسان الفرنج صرعى، منهم جيتار أوف أفيزن ، والياور الأسبق لجودفرى ، ستايلون . وتمكن بلدوين نفسه ورفاقه القادة من شق طريقهم إلى حصن الرملة القريب . وبات الجيش المصرى بهم محيط.

ولولا هبوط الظلام لانقض عليهم المصريون . لكن دفاعات الرملة كانت بالغة السوء، وربما يصمد برج واحد كان بلدوين قد شيد قبل ذلك بعام ، فتزاحموا بداخله . وفى منتصف الليل جاء أحد الأعراب إلى البوابة طالبا مقابلة الملك فأجيب إلى طلبه ؛ وكشف عن شخصيته قائلا إنه زوج السيدة التى تعطف عليها بلدوين أثناء غارة الأردن . وعرفانا منه بالجميل جاء يحذر بلدوين من هجوم مصرى فى الفجر ونصحه بالهرب فى التو واللحظة . وأخذ بلدوين بنصيحته . وآيا ما قد تكون مشاعر أسفه لتخليه عن زملائه - وليس هو بالرجل الذى يعتني كثيرا بالشرف - ارتأى له أن بقاء المملكة يتوقف على بقاء شخصه، فتسلل مع ثلاثة من رفاقه وأحد غلمانة خلال خطوط العدو تملأه الثقة فى فرسه "الغزال" الذى سيحملة سالما إلى مأمنه . وفى تلك الليلة تمكن فيكونت يافا ليثار أوف كامبارى ، وجوتمان أوف بروكسل من الهرب كل على حده . وتمكن جوتمان، رغم جراحاته البالغة من الوصول إلى القدس معلنا أخبار الكارثة ، وناصحوا بالمقاومة اعتقادا منه أن بلدوين ما يزال على قيد الحياة.

وفى باكورة اليوم التالى تسلك المصريون أسوار الرملة بأعداد غفيرة ووضعوا حزم الحطب حول البرج الذى لاذ به الفرسان . فأثر الفرسان وعلى رأسهم كونراد الإندفاع إلى الأعداء بدلا من الهلاك فى النيران . على أنه لم يكن هناك مهرب ، وفى لحظات قتلوا جميعا وأسر البعض منهم . وتركت شجاعة كونراد إنطباعها على المصريين فأبقوا على حياته وأرسلوه مع أكثر من مائة من زملائه أسرى إلى مصر . ومن بين من صرعو من القادة ستيفن البرجندى، وهيو أوف لوسينان ، وجيوفرى أوف فندوم ، وقتل معهم

ستيفن أوف بلوا وبذا استعاد سمعته بموته الجيد ، وإدس تستطيع زوجته الكونتيسة أديلا أن تنام ملء جفنيها^(١٠).

١١٠٢ م : الملك بلدوين فى يافا

وكانت الملكة والبلاط ، مرة أخرى ، فى يافا حيث أخبرهم روجر أوف روزوى ومن معه من الهارين بالهزيمة النكراء . وداهمهم الجزع من سقوط الملك مع كل فرسانه ، وراحو يعدون خطط الهرب بحرا ، فلا يزال فى الوقت متسع . لكن الجيش المصرى وصل إلى أسوار المدينة يوم ٢٠ مايو ، كما اقترب الأسطول المصرى فى الأفق الجنوبى . وتحققت أسوأ المخاوف عندما رفع جندى مصرى أمامهم رأسا بدت وكأنها رأس الملك ، لكنها كانت فى حقيقتها رأس جبرود أوف ويتشيك الذى كان شديد الشبه بالملك . وفى تلك اللحظة ، وكما لو كان فى الأمر معجزة ، شوهدت سفينة صغيرة مبحرة من ناحية الشمال وعليها راية الملك الخاصة به فى قمة الصارى.

كان بلدوين قد هرب من الرملة ويحم وجهه شطر الساحل محاولا اللحاق بالجيش فى يافا. لكن الجنود المصريين كانوا يجوبون البلاد ، فاضطر بلدوين إلى تمضية ليلتين ويومين متجولا خلال سفوح التلال شمال الرملة ، ثم أسرع بعبور سهل شارون إلى أرسوف التى وصلها مساء التاسع عشر ، فكانت مفاجأة سارة لحاكمها روجر أوف حيفا . وفى ذات الليلة لحق به فى أرسوف جنود الليل وعدادهم ثمانون فارسا جمعهم وقادهم هيو أوف سانت أومير ، وكانوا قد أسرعوا جنوبا بمقدم أنباء تقدم المصريين . وفى الصباح التالى اتجه هيو برجاله جنوبا فى محاولة لشق طريقه إلى يافا ، بينما أفلح بلدوين فى إقناع مغامر إنجليزى بالأبحار بسفينته وإختراق الحصار المصرى . ورفع بلدوين رايته ليدخل البهجة على بلاطه ، وما لبث المصريون أن شاهدوها فأرسلوا

(١٠) Fulcher of Chartres, II, xviii, I-xix, 5, pp. 436-44; Ekkehard of Aura, *Hierosolymita* 533-5; Albert of Aix, IX, 2-6, pp. 591-4; Bartolf of Nangis, pp. 533-5; William of Tyre, X, 20-1, pp. 429-32) تدخل الشيخ البدرى ؛ ورواية ابن الأثير (Ibn al-Athir, pp. 213-16) رواية مضطربة لأنها تقوم على أساس روايتين مختلفتين . وأنا أقبل التاريخ الذى أورده (Hagenmeyer (op. cit. pp. 162-6) رغم أن *the Chronicon S. 421* Maxentii تقول ٢٧ مايو ، وألبرت أوف آيكس "حوالى عيد العنصرة" أى حوالى ٢٥ مايو ؛ وحول موت ستيفن أوف بلوا ، وطبقا لرواية Guibert of Nogent, p. 245 ، فليس هناك شىء معروف بصورة قطعية ؛ ويرد تاريخ وفاته فى *Cartulaire de Notre Dame de Chartres* III, p. 115 وهو ١٩ مايو.

السفن من فورهم لاعتراض سفينة بلدوين ، غير أن رياحا شمالية قوية أعاقَت المصريين عن اللحاق بها، ودفعت سفينة بلدوين إلى داخل المرفأ بسرعة.

وشرع بلدوين من فوره فى إعادة تنظيم قواته . وقبل أن يتمكن المصريون من إحكام الحصار حول المدينة ، شق لنفسه طريقا وخرج لمقابلة هيو ومجموعة الجليل وأخذهم إلى داخل الأسوار . ثم أرسل إلى القدس إستدعاء جميع من يمكن الإستغناء عنه من هناك ومن الخليل . وتطوع راهب محلى بحمل الرسالة وتسلسل بها من يافا عبر خطوط العدو تحت طيات الظلام ، لكنه وصل القدس بعد ثلاثة أيام . وبشأكيده بقاء الملك على قيد الحياة عمّت الفرحة ، وأمكن جمع تسعين فارسا تقريبا وعددا أكبر من الخيالة ، وتحرزوا جميعا بقطعة من الصليب الحقيقى ، وأسرعوا جنوبا إلى يافا . أما الفرسان ، فقد تمكنوا من شق طريقهم إلى داخل المدينة لما كانوا عليه من تسليح جيد وعدة ، وأما الخيالة فقد حفرُوا إلى البحر فتركوا خيولهم وسبحوا إلى داخل المرفأ . وفى تلك الأثناء كتب بلدوين إلى تنكريد وبلدوين الرها بجنسائه الجسمية طالبا إرسال التعزيزات.

وقبل إنطلاق فرسان الشمال ، هبطت على يافا نجدة لم تكن فى الحسبان ؛ إذ دفعت الرياح إلى يافا أسطولا من مائتى سفينة أغلبها سفن انجليزية محملة بالجنود والحجاج القادمين من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وتمكن هذا الأسطول من تحطى الحصار المصرى . وبذا توفر لبلدوين المزيد مما كان يحتاجه من الرجال . وفى ٢٧ مايو خرج على رأس الجيش للقاء العدو . وليست لدينا تفصيلات المعركة ، ويدو أن المصريين حاولوا إستدراجه والإحاطة به دون جدوى ، وأخيرا اندفع عدد كثيف من الفرسان نحو العدو فشتتوا صفوفه فاستدار المصريون وهربوا . وبعد ساعات قليلة كانت القوة المصرية كلها تسرع الخطى إلى عسقلان، تاركة معسكرها بما فيه من غنيمة للمسيحيين^(١١).

ونجا بلدوين ومملكته بسلسلة من المصادفات رأى فيها المسيحيون يد الرب تمتد إليهم، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ، وليست استراتيجية المصريين العاجزة أقل تلك الأحداث ؛ إذ كان بمقدور كتيبة مصرية صغيرة أن تستولى على القدس بعد معركة الرملة مباشرة دون أن يضعف تطويق يافا ؛ لولا أن قبضة الوزير الأفضل على الأمور كانت تترأخى ، وكان ولده الأشرف ضعيفا لا طاعة له ، فأصاب الشلل حركته لما

(١١) Fulcher of Chartres, II, xx, I-xxi, 18, pp.444-55; Ekkehard of Aura, loc. cit.; Albert of Aix, IX, 7012, pp. 595-7; Ibn al-Athir, loc. cit

ساد بين قواده من صراع . وفى الصيف التالى أرسل والده حملة جديدة بحرا وبرا . على أنه أثناء إبحار الأسطول شمالا إلى يافا رفضت القوات البرية التقدم وراء عسقلان لما كان يشعر به قائدها الملوك تاج العجم من غيرة من أمير البحار القاضى ابن قادوس . وترتب على ذلك حبس تاج العجم لانعدام الولاء ، لكن السهم كان قد نفذ وضاعت أفضل فرصة لاسترداد فلسطين^(١٢) .

ولما علم تنكريد وبلدوين أوف لي بروج بمأزق القدس ، راحا يعدان العدة للإنطلاق جنوبا بغاية السرعة . وكان معهما وليم الأكيثانى الذى كان فى أنطاكية وقت وصول رسالة الملك بلدوين . وارتحلوا جميعا أعلى وادى العاصى مروراً بحمص ثم هبوطاً خلال الأردن الأعلى . وبدت قواتهم كبيرة بحيث تجنبت السلطات الإسلامية المحلية إيقاف مرورهم . ووصلوا يهودا فى أواخر سبتمبر . وأنداك ، لم يعد بلدوين فى حاجة عاجلة لمساعدتهما ، لكن وجودهما أغراه بمهاجمة الجيش المصرى فى عسقلان . ورجحت المناوشات كفة المسيحيين ، لكنهم لم يغامروا بالهجوم على تلك القلعة^(١٣) .

١٠١١م بلدوين ودياميرت

وكان تجمع حكام الفرنج مفيدا لبلدوين لأسباب أخرى ؛ إذ كان تنكريد ينوى المساعدة بشروطه ، لكنه فى الواقع مكن بلدوين من التغلب على أعضل مشاكله الداخلية . فقد سبق للبطريق دياميرت أن توج بلدوين يوم عيد الميلاد من سنة ١١٠٠م ، لكنه فعل ذلك على مضض دون أن تخفى مشاعره على بلدوين . وشعر بلدوين بضرورة السيطرة على الكنيسة ، فهى جيدة التنظيم وهى - لا السلطة العلمانية - التى تتلقى من أتقياء المتعاطفين فى الغرب الهبات وتركات المواريث المذكورة فى الرصايا . وقد حامت الشكوك حول ترقية دياميرت من الناحية القانونية ، خاصة وأن هناك شكاوى أرسلت إلى روما بشأنه ، أدت فى نهاية الأمر إلى أن أرسل البابا باسكال مثله موريس ، أسقف وكاردينال بورتو ، فى مهمة لتقصي الحقائق ، فوصل فى عيد الفصح من سنة ١١٠١م . وفى الحال اتهم بلدوين دياميرت ، فى حضوره ، بتهمة

Ibn al-Athir, loc.cit. (١٢)

(١٣) Ibn al-Athir p. 213 إن أمراء الشمال أصروا على الإنسحاب. Albert of Aix, IX, 15, p. 599; Ibn Moyassar, p. 464 ويقول ابن الأثير p. 213 إن أمراء الشمال أصروا على الإنسحاب.

الخيانة، وأظهر الخطاب الذى أرسله دياميرت إلى بوهمند بعد موت جودفري محرضا على معارضة استخلاف بلدوين ولو أدى الأمر إلى إستخدام القوة. فضلا عن ذلك أعلن أن دياميرت حاول إغتياله أثناء رحلته جنوبا. ومهما يكن الأمر بشأن احتمال تزوير الخطاب، فلا جدال فى وجود الخطاب نفسه. فما كان من موريس إلا أن منع دياميرت من المشاركة فى احتفالات عيد الفصح وقام بها بمفرده. وأما دياميرت، الذى أخذ منه الخوف على مستقبله فقد سعى إلى مقابلة بلدوين، وركع أمامه يزرع دموعه متوسلا بالمغفرة. لكن بلدوين رجل صعب المراس لا تلين له قناة، فأصرَّ على موقفه إلى أن تمتم دياميرت بأنه يدخر ثلاثمائة بيزانت. وعندئذ لانت قناة بلدوين، فهو دائم الاحتياج إلى المال، فقبل الهدية سرا ثم قصد إلى ممثل البابا وأعلن فى شهامة غفرانه لدياميرت. وأشرقت أسارير موريس، وهو الرجل المسلم، لنجاحه فى التوفيق بينهما^(١٤).

وبعد بضعة أشهر احتاج بلدوين مرة أخرى إلى المال ، فطلبه من دياميرت الذى أعطاه مائتى مارك مدعيا أن ذلك المبلغ هو كل ما كانت تحويه خزانة البطريرقية . على أن رجال الدين المشايخين لأرنولف همسوا فى أذن الملك بأن دياميرت يخفى مبالغ طائلة فى الواقع . وحدث بعد أيام قلائل أن أقام دياميرت مأدبة سخية على شرف ممثل البابا ، فقد دأب على استثمار موارثته . واتحتم بلدوين عليهما خلوتهما وألقى عليهما محاضرة استنكر فيها ما يتمتعان به من ترف المعيشة بينما قوات العالم المسيحى تتضور جوعا . فثارت ثائرة دياميرت ورد عليه قائلا ان للكنيسة أن تنفق أموالها كما يحلو لها ولا سلطة للملك عليها ، بينما حاول موريس تهدئة الموقف وقد بدا عليه القلق. ولم يكن هناك من سبيل لإسكات بلدوين الذى ساعده تدريبه القديم على أعمال القساوسة فى الإستشهاد بالقانون الكنسى ، وكان فى لسانه فصاحة فعلت فعلها فى موريس الذى أقنع دياميرت بأن يتكفل بكنيسة من الفرسان . ومع ذلك ، لم يدفع دياميرت المال أبدا برغم طلبات بلدوين المستمرة . وفى خريف ١١٠١م وصل مبعوث من الأمير روجر أوف أبوليا حاملا منحة قدرها ألف بيزانت للبطريق على أن يخصص ثلثها لكنيسة القبر المقدس، وثلثها الثانى للمستشفى ، وثلثها الأخير للملك للإتفاق على

(١٤) كتب ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, VII, 46-51, pp. 538-41) رواية معادية لدياميرت . وكان وليم الصورى William of Tyre (x, 26-7, pp.438-40) مدافعا على طول الخط عن حجة دياميرت فى مصالح استقلال الكنيسة ، وبطريقة المحتالين لم يذكر شيئا عن تحقيقات موريس . Riant, Inventaire, pp.218-19. Maurice.

الجيش. وتهور ديامبرت واحتفظ بالمنحة كلها، رغم أن شروطها لم تكس خافية. وعندما اشتكى بلدوين لم يعد فى وسع ممثل البابا المضى فى موازنة ديامبرت، وأعلن تنحيته عن البطريارية. فعاد ديامبرت إلى يافا حيث أمضى الشتاء، ثم ارتحل فى مارس إلى أنطاكية. وتلقاه صديقه القديم تنكريد مرحاب، وعهد إليه بكنيسة القديس جورج، وهى واحدة من أغنى كنائس المدينة. وفى ذات الوقت، ترك بلدوين منصب البطريق شاغرا بدعوى ضرورة إخطار روما. واقتحم إثنان من أتباعه خزانة البطريارية فوجدوا أن ديامبرت قد أخفى عشرين ألف بيزانت. أمّا موريس، الذى كان يباشر أعمال البطريارية بصفة مؤقتة، فقد تلفت تلك الفضائح صحته، فمات فى ربيع ١١٠٢م^(١٥).

١١٠٢م : خلع ديامبرت

عندما جاء تنكريد فى الخريف لإنقاذ بلدوين أعلن أنه يشترط إعادة تنصيب ديامبرت الذى كان بصحته. وأنداك كان بلدوين لئن العريكة إلى أقصى الحدود. غير أنه فى تلك الآونة وصل ممثل جديد للبابا - روبرت كاردينال باريس. فأصر الملك على عقد مجمع كنسى برئاسة روبرت لوضع الأمور فى نصابها، فأسقط فى يد تنكريد وديامبرت ولم يجرؤا على الرفض. وتقرر فى إحدى الجلسات إعادة تنصيب ديامبرت مؤقتا إلى حين إجراء تحقيق شامل. وبعد ذلك ألحق تنكريد جنوده بجنود الملك فى الحملة على عسقلان. وسرعان ما عقد المجمع الكنسى فى كنيسة القبر المقدس برئاسة ممثل البابا وبمساعدة أسقفى لاوون وبياتشيزا الزائرين، وحضر المجمع الكنسى أساقفة ورهبان فلسطين كلهم، وكذلك أسقف المصيصة من أراضى تنكريد. وبإيجاء من أرنولف أوف روه، قام أساقفة قيسارية وبيت لحم والرملة بترجيح الاتهامات إلى ديامبرت معلنين أنه أثناء رحلته إلى فلسطين عام ١٠٩٩م، ترأس أهل بيزا وهاجموا رفاقا مسيحيين فى جزيرة أيونيا؛ وسعى إلى إشعال حرب أهلية بين الملك بلدوين والأمير يوهنمند، واستولى على أموال أودعت لديه لرعاية الحجاج فى المستشفى فضلا عن جنود المسيح. وكانت التهم حقيقية لا سبيل إلى إنكارها، فلم يجد الكاردينال ممثل البابا مندوحة من إعلان عدم جدارة ديامبرت لمنصبه وأمر بخلعه. ولم يجد تنكريد ما يعترض به على هذا الإجراء الكنسى فاضطر إلى قبول الهزيمة. وصحبه ديامبرت فى

رحلة العودة إلى أنطاكية وأعيد تنصيبه في كنيسة القديس جورج إلى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى روما . لقد صنع لنفسه صورة رجل هرم فاسد جشع، وغادر فلسطين لم يأس لحاله أحد . لقد كان تعيينه ممثلاً رسولياً خطأ فادحاً ارتكبه البابا إيربان الثاني^(١٦).

أما أرنولف أوف روه ، الذي أعان بلدوين في الأمر كله من تلقاء نفسه ، فقد بلغ من المكر ما بلغه بحيث لم يحاول أن يحل محل دياميرت في منصبه . وبدلاً من ذلك ، وحينما طلب ممثل البابا مرشحاً للبطريرقية ، اقترح الأساقفة الفلسطينيون قساً هرماً يدعى إيفرمار ، جاء من ثيرون إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى ، وكان يشتهر بورعه وإحسانه . ورغم أنه وأرنولف من نفس البلد، إلا أنه لم يشاركه مكائده، وفاز باحترام الجميع . وابتهج ممثل البابا وهو يقوم برسم هذا القس الذي لا تشويه شائبة؛ كما أحس بلدوين بمشاعر الرضا لأن إيفرمار شيخ كبير لا يخشى جانبه، ومحال أن يغامر بفسد أنفه في السياسة، وفي ذات الوقت يستطيع أرنولف مواصلة وضع مخططاته دوغماً عائقاً.

على أن اليأس لم يداخل دياميرت. فحينما ذهب بوهموند - الذي كان يوفر له الحماية - إلى إيطاليا عام ١١٠٥م صحبه إلى روما ليثبت أحزانه للبابا باسكال الذي كان حذراً أول الأمر، لكنه بعد أن تريت قليلاً منحه مؤازرته، وربما كان مرد ذلك إلى نفوذ بوهمند الذي لا يقاوم. وأرسل البابا يطلب من بلدوين رداً على ما اتهمه به دياميرت، لكن الملك لم يعر الأمر انتباهاً، ربما لعلمه أن البابا دائماً يستمع لبوهمند. فألغى باسكال قرار خلع دياميرت قائلاً إن هذا الخلع كان نتيجة لتدخل سلطات مدنية. ولحسن الطالع إمتدت يد الرب لتصلح من حق البابا؛ فبينما كان دياميرت يتهيأ للعودة منتصراً لاستعادة عرشه البطريرقي مرض ومات في ميسينا يوم ١٥ يولية ١١٠٧م^(١٧).

١١٠٢م : انتخاب أرنولف بطريقاً

ولم تنته مشاكل البطريرقية . وتزايد شعور بلدوين بعدم الرضا عن إيفرمار، وربما كان يدرك ما للكنيسة من أهمية فائقة بحيث لا يصح أن تترك ، لمن لا كيان له ، وإنما

(١٦) Albert of Aix, IX, 14, 16-17, pp. 598-600; William of Tyre, loc. cit

(١٧) William of Tyre, XI, I, pp. 450-I

يلزم أن يرأسها، حليف له يتصف بالكفاءة . وعندما علم إيفرمار بإعادته نصيب دياميرت رسمياً، شد الرحال إلى روما ، ليجد عريضة دياميرت ميتاً مع شكاواه من السلطة المدنية . وعندما وردت أنباء موت دياميرت إلى فلسطين ، سارع أرنولف إلى روما كي يبذل جهوده لموازرة الملك . وكان البابا باسكال آنذاك يميل إلى إيفرمار ، غير أنه أدرك أن القضية أشد تعقيداً مما كان يظن ؛ فعهد بها إلى رئيس أساقفة آرل ، جييلين أوف سابران ، وهو شيخ طاعن في السن واسع الخبرة . ووصل فلسطين في ربيع ١١٠٨ م ، وقد سبقه إليها إيفرمار وأرنولف . واستقر رأيه على أن إيفرمار ليس أهلاً للمنصب ، وليس هناك من يرغب في عودته ، ولذا أعلن أن كرسي البطرياقية شاغراً وعقد مجلساً كنسياً لتعيين خلفاء له . واقترح بلدوين ترشيح جييلين ، فقبل بمشاعر الغبطة المشوبة بالحرج ، وتم تعيين إيفرمار رئيساً لأساقفة قيسارية الذي كان شاغراً لحسن الحظ ، وذلك من قبيل التعويض .

وترددت شائعات بأن أرنولف حرّض الملك على إختيار جييلين لتقدمه في السن وبذا سرعان ما ستصبح البطرياقية شاغرة مرة ثانية . وهذا ما حدث في الواقع ، إذ لم يعيش جييلين سوى أربع سنوات ، وعمومه انتخب أرنولف أخيراً ليعطي عرش البطرياقية دون معارضة من أحد^(١٨) .

وكان بلدوين يرى أن أرنولف بطريق مثالي ؛ وقد تمكن من الإحتفاظ بمنصبه برغم نفور أتباعه وبرغم ما نشأ لاحقاً من مشاكل حول زواج بلدوين الثاني . ولقد كان أرنولف فاسداً بلا شك . فعندما تزوجت ابنة أخته إيما من بابوستاس جاريه وهو روج حازر رضاه ، وهبها إقطاعية ثمينة في أرمينا تابعة لكنيسة القبر المقدس لكنه كان نشطاً وكفوا وكُرس نفسه للملك الذي يرجع إليه الفضل في التخلي نهائياً عن فكرة أن تخضع القدس لحكومة دينية ثيوقراطية بعاهل يكون مجرد وزير للدفاع ، وهي فكرة غير عملية كان يتصورها أغلب المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ؛ كما تدبر إشراك كنائس فلسطين كلها معه في الرأي ، حتى في خلع رجال الدين التابعين لكنيسة القبر المقدس ممن لا ينق في ولايتهم ، والذين عينهم جودفري أوف لورين . وباتساع المملكة غزوا ، كافح بلا هوادة في سبيل إتحاد السلطين الدينية والمدنية ضد البابا باسكال الذي كان يدافع عن الحقوق التاريخية غير العملية للكرسي الرسولي الأنطاكي ، مدفوعاً

Albert of Aix, x, 589, pp. 650-9, xii, 24, p. 704; William of Tyre, loc. cit. and XI, 4, pp. 455-6. (١٨)

بتحيزه المشووم لمناصرة أمراء أنطاكية النورماندين . ولم يكن أرنولف جديرا بالإحترام، وإنما كان خادما أميناً لمملكة القدس . وقد شجب المؤرخ وليم الصوري ذكره ولطخ سمعته دون وجه حق، لأنه بذل الكثير لتعزيز الحملة الصليبية الأولى^(١٩).

كما يرجع الفضل إلى أرنولف سيده الملك بلدوين في تحسن علاقة الهرمية اللاتينية بالمسيحيين المحليين . ففي بداية الأمر ، عندما كان أرنولف على رأس البطريركية سنة ١٠٩٩م ، نهب الطوائف الشرقية وطردها من كنيسة القبر المقدس . على أن ديامبرت كان عدواً أسوأ للطوائف الشرقية ، فلم تقتصر سياسته على طردهم من الكنيسة وحسب ، وإنما أيضاً من أديرتهم ومنشأتهم في القدس ، سواء كانوا أرثوذكس كالبونانيين أو الجورجيين ، أو هراطقة كالأرمن واليعاقبة والنساطرة . كما لوث آداب المجتمع التقليدي بالسماح للنساء بالخدمة في الأماكن المقدسة . ونتيجة لتلك الأفعال الشائنة انطفأت مصابيح كنيسة القبر المقدس عشية عيد الفصح ، ولم تهيئ النار المقدسة من السماء لإضاء تهامة أخرى إلى أن تشترك الطوائف الخمس المحرومة في صلاة ضراعة أن يغفر الرب للفرنجة . ووعى بلدوين المدرس ، وأصر على إنصاف الوطنيين ، وأن يحتفظ اليونانيون بمفاتيح كنيسة القبر المقدس ذاتها ؛ وبدوا أن جميع المسيحيين في فلسطين آزره منذ آنذاك . واقتصر تعيين كبار رجال الدين على الفرنج برغم وجود قساوسة يونانيين في الكنيسة ، ولقى ذلك الوضع قبولا من الأرثوذكس المحليين الذين سبق لكاهنهم الأعلى أن غادر البلاد خلال سنوات الاضطراب قبل الحملة الصليبية مباشرة . وبرغم ما كانت تحمله الأديرة الأرثوذكسية من نفور شديد من الهرمية اللاتينية فقد مارست نشاطها دون عائق ، ولم يجد الحجاج الأرثوذكس ولا الوطنيين مبررا للشكوى من السلطة المدنية ، ويبدو أن كنائس الهراطقة كانت راضية كذلك . لكن الوضع اختلف تماماً في الدويلات الفرنجية شمال سوريا حيث ساد الإستياء من ظلم الفرنج^(٢٠).

(١٩) William of Tyre, XI, 15, p. 479. وليم الصوري يستهجن انتهازية أرنولف.

(٢٠) أنظر أدناه الصفحات ٣٦٩-٣٧٢ . توجد رواية طويلة حول القدس في مخطوطة فولشر أوف تشارتر، وهي مطبوعة في طبعة *Recueil des Historiens des Croisades* ، ويلاحظ هاجنماير Hagenmeyer ، في طبعته عن فولشر ، أنها تظهر في مخطوطة واحدة فقط (لاتينية) ، ويرفضها كلها فيما عدا كلمات المقدمة "conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulcrum Domini" (II, viii, 2, p. 396). See his note 5, pp. 395-6 للإطلاع على كامل المناقشة. وفي ملحق خاص (ibid. pp. 831-7) حشر نصاً ، مع الصور التي وحدت في Bartolf of Nangis and Guibert of Nogent. ونظراً إلى أن فولشر أوف تشارتر هو القس الخاص للبلدوين ، فلا بد وأنه قد حصر هذا القدس . ويورد دانيال الموحومسي Daniel the

١١٠٣ م : حصار عكا

لم تفتّر عزيمة الوزير الأفضل لهزيمة يافا عام ١١٠٢ م ، ولا لإحفاق حملة الربيع من العام التالي ١١٠٣ م ، غير أنه استغرق وقتا أطول في إعداد جيش آخر . أمّا بلدوين ، فقد أرحى قبضته على الساحل الفلسطيني . وبرغم سيطرته على المدن الساحلية من يافا إلى حيفا ، واصل المغيرون المسلمون هجومهم على الطرق التي تربط بينهما ، وخاصة منحدرات جبل الكرمل ؛ بل إن الطريق من يافا إلى القدس لم يسلم من الإغارة كما ذكر الحاج سايولف^(٢١) . كما كان القراصنة يتسللون من مينائي صور وعكا الخاضعين للسيطرة المصرية للإغارة على التجارة المسيحية . وفي أواخر خريف ١١٠٢م قذفت العواصف بسفن الحجاج العائدين إلى أوطانهم - وهم الذين أنقذوا بلدوين في يافا في شهر مايو - إلى شتى شواطئ الساحل ، بعضها بالقرب من عسقلان ، والبعض الآخر بين صور وصيدا ؛ ولم يسلم أحد من الركاب ، فمات من مات ، ومن لم يموت بيع في أسواق الرقيق المصرية وفي ربيع ١١٠٣م حاصر بلدوين عكا بمساعدة بعض السفن الإنجليزية التي كانت لا تزال معه . وأوشكت الحامية على الإستسلام لولا وصول إثني عشر قادسا فاطميا وعدد كبير من سفن النقل القادمة من صور وصيدا تحمل الرجال وآلات إطلاق النيران الإغريقية ، فلم يجد بلدوين مفرا من رفع الحصار^(٢٢) . وحاول في الصيف التالي تطهير منطقة جبل الكرمل من قطاع الطرق ، فلم يصب نجاحا يذكر ، وأصيب في أحد الاشتباكات بجرح خطير في كليتيه وأشرف على الهلاك . وبينما هو واقف في فراش المرض في القدس جاءت أنباء الحملة المصرية المزدوجة بقيادة تاج العجم وابن قادوس . على أن امتناع تاج العجم عن التقدم وراء عسقلان أجبر ابن قادوس على محاولة حصار يافا بمفرده ، وبذل جهوده ببعض الحماس وليس كله . وبعد أن شفى بلدوين بالقدر الذي يسمح له بقيادة الجيش إلى الساحل ألقط الأسطول المصري^(٢٣) .

وفي مايو التالي وصل إلى حيفا من جنوا أسطول حربي سق وأن ساعد ريموند التولوزي في الاستيلاء على جبيل . وقابل بلدوين قادته وضمن تحالفهم لإخضاع عكا

Higumene (ed de Khitrowo, pp. 75-83) رواية القدس في عام ١١٠٧ ويتصح من هذه الروايات أن الإغريق قد منحوا مسؤولية كنيسة القيامة نفسها.

Albert of Aix, IX, 18, pp. 600-1. (٢١)

Albert of Aix, IXh, 15, p 59; Ibn I-Athir, p. 213 (٢٢) ذكر ابن الأثير عاما مختلفا ٩٥ هـ بدلا من ٩٦ هـ.

Fulcher of Chartres, II, xxiv, I, pp. 460-1, Albert of Aix, IX, 22-3, pp. 103-4. (٢٣)

بعد أن وعدهم بما اعتادوا عليه من قبل ، وهو ثلث الغنائم وامتيازات تجارية وأحد الأحياء في السوق؛ وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ مايو . وقامهم القائد الفاطمي المملوك ظهر الدولة الجيوشي مقاومة عنيدة ؛ لكن مصر لم ترسل إليه أية مساعدة ، فاضطر بعد عشرين يوما إلى أن يعرض التسليم بشروط مماثلة لشروط استسلام أرسوف ، وهي السماح بالمرور الآمن للمواطنين الراغبين في الرحيل مع منقولاتهم ، ومعاملة الباقين كرعايا للملك الفرنجي . وقبل بلدين الشروط والتزم بها، بل وأمر بالإبقاء على مسحد لرعايه المسلمين . أما بحارة إيطاليا فقد أبوا أن يتركوا تلك الثروة الهائلة تفلت من أيديهم فانقضوا على المهاجرين وقتلوا منهم خلقا كثيرا ونهبوهم جميعا ، مما أغضب بلدين وهم بمهاجمة أبناء جنوا لمعاقبتهم ، لولا أن وصل البطريق إيفرمار وأفلح في تهدئته ومصالحته بهم^(٢٤).

وبسقوط عكا ، نال بلدين ما كان يصبو إليه من مرفأ آمن في شتى الأجواء المناخية . وبرغم بعد الشقة عن القدس ، بما يزيد على مائة ميل ، سرعان ما أصبحت عكا الميناء الرئيسي للمملكة بدلا من يافا بعمراتها المائية المفتوحة . وفضلا عن ذلك ، كانت عكا هي الميناء الرئيسي الذي تشحن منه بضائع دمشق إلى الغرب ، ولم يتوقف هذا الطريق التجاري بعد الغزو الفرنجي ، وإنما شجعه مسلمو عكا المقيمون بها^(٢٥).

١١٠٥ م : معركة الرملة الثالثة

وفي صيف ١١٠٥م شرع الوزير الأفضل في آخر محاولة لإسترجاع فلسطين ؛ ففي أوائل أغسطس حشد في عسقلان جيشا مجهزا تجهيزا حسنا قوامه خمسة آلاف جندي من العرب الخيالة والمشاة السودانيين ، يقوده ابنه سناء الملك حسين . وتعلم المصريون مما فشلوا فيه من دروس سابقة ؛ فطلبوا مساعدة حكام دمشق الأتراك . ولو أن دمشق ساهمت بمساعدتها في عامي ١١٠٢ و ١١٠٣م لكانت مساعدة لها قيمتها . على أن دقاق الدمشقي مات في يونية ١١٠٤م، ونشأ الخلاف بين أسرته وأتابجه طغتكين ، بل جاء رضوان الحلبي سعيًا وراء نصيبه في الإرث.

(٢٤) Fulcher of Chartres, II, xxv, I-3, pp.462-4; Albert of Aix, IX, 27-9, pp.606-8, Caffaro, *Liberatio*, pp.71-2; Charter of Baldwin in *Liber Frium Reipublicae Genuensis*, vol. I, pp. 16-17.

(٢٥) أطر أدناه ص (٣٦٧). كانت التجارة مآزال مستمرة في زمن ابن حبر (١١٨٣).

وبدا طغتكين بتنصيب ابن الدقاق ، تنش ، على العرش ولما تجاوز من العمر عاما واحدا ؛ ثم إستبدله بأخى الدقاق ، أرتاش ، البالغ من العمر إثني عشر عاما. وسرعان ما أرتاب أرتاش فى نوايا الوصى طغتكين ، فهرب إلى حوران حيث أجاره أتكين أمير بُصرى ، ومنها استغاث بالملك بلدوين الذى دعاه إلى القدس . وفى تلك الملابسات إغتنبط طغتكين بطلب المساعدة من المصريين ، بيد أنه أثر عدم المغامرة بإرسال قوة كبيرة ، وإنما أرسل قائده صباو وعلى رأس ألف وثلاثمائة من الرماة الراكبين^(٢٦) وفى أغسطس دخل الجيش المصرى فلسطين حيث إنضم إليه جنود دمشق بعد هبوطهم خلال الأردن وعبر النقب . وكان بلدوين منتظرا فى يافا ، لكنه بعد أن شاهد الأسطول المصرى فى الأفق اختار الانتقال إلى موقع الرملة الذى لابد أن تدور فيه المعركة ، وعهد يافا إلى ليثار (أوف كمبارى) مع ثلاثمائة جندى . وكان بصحبته أرتاش الدمشقى الصغير المطالب بالعرش ، وكل من بقى من جند الفرنج فى فلسطين ، وحاميات الجليل وحيفا والخليل ، وكذلك الجيش الرئيسى المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من المشاة . كما استدعى بلدوين البطريق إيفرمار من القدس ، فجاءه مع مائة وخمسين رجلا جمعهم من هناك ومعهم الصليب الحقيقى .

وبدأت المعركة يوم الأحد ٢٧ أغسطس . ومع انبلاج الصبح اعتلى البطريق فرسه وسار فى غدو ورواح أمام صفوف الفرنج بكامل أرديته والصليب فى يده ، مانحا بركته وغفرانه ، وبعد ذلك هجم الفرنج ؛ لكن هجوما مضادا من الأتراك الدمشقيين كاد أن يكسر صفوف الفرنج لولا أن حمل بلدوين رايته فى يده وقاد هجوما بعثرهم . وحارب المصريون بشجاعة غير عادية، لكن ميسرتهم كانت قد ذهبت فى محاولة فاشلة لمفاجأة حيفا، وعادت بعد فوات الوقت . وبحلول المساء هزم المسلمون ؛ فاستدار صباو ورجاله عائدين إلى بلادهم ، وانسحب المصريون إلى عسقلان ، ومنها أسرع قائدهم سناء الملك عائدا إلى القاهرة . وكانت الخسائر جسيمة ، إذ قتل حاكم عسقلان وأسر حاكما عكا وأرسوف السابقان واقتديا فيما بعد بفدية كبيرة. وأعرب المؤرخ فولشر أوف تشارتر عن مشاعر الأسى من هرب سناء الملك لضياح الفدية السخية التى كان سيحصل الفرنج عليها. غير أن خسائر الفرنج كانت كبيرة أيضا. وبعد سلب المعسكر، لم يطارد بلدوين المصريين ، وكف عن مساندته للأمير الصغير أرتاش الذى عاد إلى الرحبة فى الفرات كسير القلب . وعاد الأسطول المصرى إلى مصر

ولم يحقق شيئا سوى هلاك بعض السفن فى عاصفة^(٢٧).

وكانت معركة الرملة الثالثة خاتمة المحاولات الكبيرة التى بذلها الفاطميون لاستعادة فلسطين ؛ لكنهم ظفروا حظرا دائما يتهدد الفرنج . ففى حريف ١١٠٦م أوشكت غارة صغيرة أن تنجح حيث فشلت الحيوش الكبيرة ؛ ففى أكتوبر من ذلك العام كان بلدوين مشغولا على الحدود فى الجليل ، وهاجم بضعة آلاف من فرسان المصريين معسكر حجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا من كان فيه . وخرج لهم حاكم يافا ، روجر أوف روزوى ، لكنه وقع فى كمين نصبوه له ، ولم ينقذه سوى فرسه الذى سابق به الريح عائدا إلى يافا . واشتعل حماس المصريين فى المطاردة ، حتى أنهم أدركوا أربعين من جنوده المشاة خارج البوابات وقتلهم . وبعد ذلك توجه المصريون شمالا باتجاه القدس ، وهاجموا حصنا صغيرا يطلق عليه كاستيل أرنو لم يكن بلدوين قد استكمل بناءه ، وكان مخصصا لحراسة الطريق . واستسلم العمال ، لكنهم قتلوا عدا قائلهم جيوفرى ، أمر قلعة برج داوود ، الذى أسروه للحصول على الفدية . وعندئذ سمع بلدوين بالغارة فسار جنوبا فى قواته ، فلم يجد المصريين مفرا من الإنسحاب إلى عسقلان^(٢٨).

١١٠٦ - ١١٠٨ م : هجمات على المدن الإسلامية الساحلية

وفى العام التالى كادت حملة مصرية أن تستولى على الجليل ، لكن بلدوين دحرها بنفسه . وفى عام ١١١٠ م توغل المصريون حتى أسوار القدس ، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا^(٢٩) وتكررت غارات مماثلة من حين لآخر على نطاق أصغر خلال السنوات العشر التالية ، الأمر الذى حرم المسيحيين من الأمان فى السهل الساحلى والنقب مستوطنين وحجاجا سواء بسواء ؛ على أن تلك الغارات كانت أكثر قليلا من كونها غارات إنتقامية لما أقدم عليه بلدوين من غارات على الأراضى الإسلامية .

وهكذا أطلق بلدوين يده فى محاولته لتوسيع المملكة . وكانت أهم أهدافه المدن الساحلية عسقلان جنوبا ، وصور وصيدا وبيروت شمالا . لكن عسقلان وصور كلاهما

(٢٧) -Albert of Aix,IX,48-50, pp 621-4, Fuleher of Chartres, II,XXXI, I-xxiii,3,pp 489 503,Ibn al-Athir,pp 228-9, Ibn Mueyziar, p 466

(٢٨) Albert of Aix, x, 10-14, pp 635-8

(٢٩) Ibid x, 33, pp 646-7, XI, 28, p 676

قلعة قرية بحامية كبيرة متواجدة بصورة مستديمة، ولا بد لإحصاءهما من إعداد العدة بعناية. وفي ربيع ١١٠٦م جاء إلى الأراضي المقدسة حشد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين، مما أغرى بلدوين بالتخطيط لحملة على صيدا، التي ما أن علم حاكمها بذلك حتى أرسل إلى الملك مبلغا ضخما من المال. وقبل بلدوين الهدية، فحاجته إلى المال لا نهاية لها. وبقيت صيدا آمنة لعامين آخرين^(٣٠).

وفي أغسطس ١١٠٨م، سار بلدوين مرة أخرى إلى صيدا يساعده أسطول صغير يتألف من بخارة مغامرين من شتى المدن الإيطالية، وعلى الفور استأجر حاكم صيدا مساعدة أتراك دمشق لقاء ثلاثين ألف بيزانت، بينما أبحر أسطول مصري من مصر وهزم الإيطاليين في معركة بحرية خارج الميناء، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار. وعلى الأثر رفض أهالي صيدا - ببعض المبررات - دخول الأتراك مدينتهم، خشية أن يكون لطفتكين أطماع فيها، بل رفض الحاكم دفع المبلغ المتفق عليه، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين؛ فأبدى الحاكم استعدادة للعدول عن رفضه، فوافقوا على تسعة آلاف بيزانت على سبيل التعويض ثم انصرفوا^(٣١).

وفي الصيف التالي تلقى برتراند التولوزي مساعدة من بلدوين في الاستيلاء على طرابلس؛ وفي المقابل أرسل برتراند في أوائل ١١١٠م الجنود لمساعدة بلدوين في الهجوم على بيروت. وكانت سفن جنوا وبيزا جاهزة لحصار المدينة، خاصة وأن طرابلس تعتبر قاعدة بحرية مناسبة. وحاولت السفن الفاطمية الآتية من صور وصيدا كسر الحصار، لكنها لم تفلح. واستمر الحصار من فبراير إلى مايو. وداخل الحاكم اليأس من وصول المساعدة، فهرب ليل مختزفا الأسطول الإيطالي إلى قبرص حيث سلم نفسه للحاكم البيزنطي. وفي ١٣ مايو استولى الخلفاء على المدينة التي تخلت عنها حاكمها بهجوم ارتكب فيه الإيطاليون مذبة عامة قتل فيها الكثير من السكان قبل أن يتمكن بلدوين من المحافظة على النظام^(٣٢).

Ibid. x, 4-7, pp. 632-4 (٣٠)

Ibid. x, 48-51, pp. 653-5; *Ibn al-Qalanisi*, p. 87. (٣١)

(٣٢) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-3, p. 536، ويدكر فولشر التاريخ ١٣ مايو في أشعار فلكية؛ ويرد Albert of Aix في صفحة (٦١١) التاريخ ٢٧ مايو؛ *Ibn al-Qalanisi* pp. 99-101، التاريخ ١٣ مايو.

١١٠١ م : الاستيلاء على صيدا

وأثناء ذلك الصيف تلقى بلدوين من الغرب مزيدا من التعزيزات البحرية . ففي سنة ١١٠٧ م أبحر أسطول من ميناء برجين النرويجي يقوده سيجورد ، الذى كان يشارك أخويه فى عرش النرويج ، وعبر بحر الشمال ، متوقفا فى إنجلترا فى الطريق إلى جبل طارق ، ثم قشتالة ، فالبرتغال ، فجزر باليار ، فصقلية ، وأخيرا عكا التى وصلها وقت أن كان بلدوين عائدا من إستيلائه على بيروت . وكان سيجورد أول رئيس متوج يزور المملكة ، ولذا استقبله بلدوين بأسمى آيات التشريف ، ورافقه شخصيا إلى القدس . ووافق سيجورد على مساعدة الفرنج فى حصار صيدا ، وبدأ الحلفاء الحصار فى أكتوبر . لكن تحصينات صيدا كانت شديدة القوة ، وبوصول أسطول فاطمى قوى من صور كادت السفن النرويجية أن تبعثر ولم ينقذها سوى وصول أسطول من البندقية وعلى رأسه كبير القضاة فى جمهورية البندقية بنفسه ، أورديلافو فاليري . وفى تلك الأثناء عوط حاكم صيدا لإغتيال بلدوين ؛ إذ وافق مرتد مسلم من العاملين فى خدمة بلدوين الشخصية على تنفيذ الاغتيال لقاء مبلغ كبير من المال ، على أن المسحوقين المحليين فى صيدا علموا بالمؤامرة ، فأطلقوا سهما يحمل رسالة إلى معسكر الفرنج يحذرون فيها الملك . وأخيرا استسلمت صيدا يوم ٤ يناير بنفس شروط عكا . ورحل وجهاء المدينة إلى دمشق مع منقولاتهم ، وأمسى الفقراء رعايا للملك الفرنجى الذى انتزع منهم حباية مقدارها عشرين ألف بيزانت ذهبى . وكوفئ البنادقة بهدية تتألف من كنيسة وبعض الممتلكات فى عكا . وعُهد بصيدا - باعتبارها بارونية - إلى إيوستاس حارثيه الذى كان بالفعل حاكما لقيسارية ، وقد عزز من - كززه بعد ذلك مباشرة بزواج سياسى من إيماء ، ابنة أخت البطريق أرنولف^(٣٣) .

وسيطر الفرنج على الساحل السورى كله ، باستثناء قلعتين: عسقلان فى الطرف الجنوبى وصور فى الوسط . وكان حاكم صور عصبيا ، فأرسل فى خريف ١١١١ م إلى طغتكين فى دمشق يستأجر منه فيلقا من خمسمائة من الرماة لقاء عشرين ألف بيزانت ، وفى ذات الوقت طلب السماح له ولوجهاء المدينة بإرسال ممتلكاتهم الثمينة

(٣٣) Fulcher of Chartres, II, xlv, 1-7, pp. 543-8; Albert of Aix, XI, 26, 30-4, pp. ٥75, ٥76-9, *Sigurdar Saga* ، ويذكر وليم المسيحيين المحليين ؛ 677; William of Tyre, XI, 14, pp. 476-9, *Agrip of Noregs Konungasogum*, passim; Sigurdar, Saga Jorsalafara ok Broedra فى Hans, pp. 75 ff. Ibn al-Qalanisi, pp. 106-8, Ibn al-Athir, p. 275, Dandolo in Muratori, Ss. R.I. vol. XII, p. 264; Tafer and Thomas, I, 86, 91, 145; Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, chap IV, passim.

إلى دمشق للحفاظ عليها؛ ووافق طغتكين ، وانطلقت من الساحل قافلة غنية فيها الأموال والممتلكات . وكان من الضروري أن تعبر القافلة بلادا يسيطر عليها الفرنج ، فتدبر الحاكم الصوري عز الملك رشوة فارس فرنجي يدعى رينفريد ليرشد القافلة ويضمن سلامتها ، فقبل الفارس الرشوة لكنه سارع بإبلاغ بلدوين ، الذى إنقض على وجهاء صور على حين غرة وسلبهم ثروتهم كلها . ووجد بلدوين فى تلك الثروة التى هبطت عليه فجأة تشجيعا للإستيلاء على صور ، فقاد جيشه كله فى نهاية نوفمبر لمهاجمة أسوار صور . بيد أنه كان يفتقر إلى أسطول بحرى لمساعدته ، برغم وجود اثنتى عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطى بوتوميت ؛ غير أن البيزنطيين غير راغبين فى القيام بعمل عدائى ضد الفاطميين الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، إلا فى حالة واحدة وهى أن يساعدهم بلدوين على استرداد المدن التى استولى عليها أمراء أنطاكية . وبينما تردد بلدوين فى الالتزام بشرطهم ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد الجيش الفرنجى بالمؤن . واستمر حصار صور حتى إبريل التالى . وحارب أبناء صور بشجاعة ، وأشعلوا النيران فى برج الحصار الخشبي المسائل الذى شيده بلدوين . لكن الحرب أضعفتهم ، على الأقل ، بحيث سعوا إلى طلب مساعدة طغتكين ، وقبل أن يطلب عز الملك هذه المساعدة كتب إلى البلاط المصرى ميرا تصرفه . وفشلت الاتصالات الأولى التى حاولها طغتكين ؛ إذ اعترض أحد الأعراب العاملين فى خدمة الفرنج حمامة زاحلة ، وأظهر زميله الفرنجى رغبته فى ترك الحمامة تواصل طيرانها، لكن الأعرابى أخذها إلى بلدوين . وتذكر بعض الرجال لاستقبال سفراء دمشق واعتقلوهم ثم قتلوهم. ورغم ذلك ، تقدم طغتكين إلى صور وباغت فرقة فرنجية تبحث عن الأعلاف ، وحاصر الفرنج فى معسكرهم بينما أغار على القرى . واضطر بلدوين إلى رفع الحصار، ولم يعد إلى عكا إلا بشق طريقه قتالا^(٣٤).

كما فشل بلدوين فى حملته على عسقلان بنفس القدر . إذ توجه إليها بعد استيلائه على صيدا مباشرة . لكن حاكمها شمس الخلافة ضاق ذرعا بكل هذا القتال ، فألهمته عقلية التجارية شراء هدنة حاول جباية ثمنها من سكان مدينة صور التى كانت ضمن نطاق سلطته . وعلمت مصر بتلك التصرفات ، فما كان من الأفضل إلا أن بعث بجنود مخلصين أمرهم بخلعه . وارتاب شمس الخلافة فى حقيقة نواياهم ، فرفض استقبالهم، بل طرد من جنوده من يرتاب فى تعاطفهم مع الفاطميين ، واستعان بمرتزقة

من الأرمس مكابهم . ثم ذهب بنفسه إلى القلنس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين، وعاد معه ثلاثمائة جدى فرنجى عيّنهم فى القلعة . وصّدم أهل عسقلان من تلك الخيانة ، فدبروا تمردا فى يوليه ١١١١م بمساعدة من مصر اغتالوا فيه شمس الخلافة وقتلوا الفرنج . وسارع بلدوين جنوبا لإنقاذ رجاله ، إلا أنه وصل بعد نفاد السهم . وبقيت عسقلان شركة فى حلق الفرنج لأربعين سنة أخرى^(٣٥).

كما فشل بلدوين فى محاولة مماثلة فى ربيع ١١١٠م لإنشاء محمية فى بعلبك بتواطؤ من حاكمها الخصى جمشتكين التاجى ؛ إذ علم طغتكين بالمؤامرة فاستعاض عن جمشتكين بابنه تاج الملك بورى^(٣٦).

١١٠٥ م : تشييد الحصون فى الجليل

بات شاغل بلدوين الأكبر أن يوفر للمملكة خطا ساحليا ملائما ؛ كما كان مهتما بمنحها قنوما ملائمة على النحو الذي يحقق لها أكبر فائدة من قرب المملكة من طرق التجارة العربية الكبيرة الآتية من العراق والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط ومصر . وعندما غادر تنكريد فلسطين إلى أنطاكية ، كان بلدوين قد عهد بإمارة الجليل - التى ظلت تحتفظ بالإسم الطنّان الذى أطلقه عليها تنكريد - إلى جاره السابق فى فرنسا ، هيو (أوف سانت أومير) الذى لقى تشجيعا على انتهاج سياسة عدوانية ضد المسلمين ؛ فبدأ بتشيد حصن طورون - المعروف اليوم بإسم تبين - فى الجبال على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق . ثم بنى حصنا آخر على التلال الواقعة جنوب غربى بحيرة طبرية كان العرب يسمونه علعال ، لاستخدامه بصورة أفضل فى الإغارة على الأراضى الخصبّة الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وقد استكمل تشييد الحصنين فى خريف ١١٠٥م . على أن الحصن الثانى لم يبق طويلا فى أيدي المسيحيين؛ إذ لم يكن طغتكين الدمشقى يسمح بتهديد أراضيه على هذا النحو . ولذا، وبينما كان هيو عائدا فى نهاية العام إلى علعال محملا بغنائم وفيرة بعد غارة ناجحة ، انقض عليه الجيش الدمشقى وجرح جرحا مميتا فى المعركة وتبعثر رجاله ، واستولى طغتكين على الحصن دون صعوبة . وكان أخو هيو ، حيرار (أوف سانت أومير) ، مريضا آنذاك وفارق

Albert of Aix, XI, 36-7, pp. 680-1, Ibn al-Qalanisi, pp. 108-10 (٣٥)

Ibn al-Qalanisi, op cit. p. 106, Sibṭ ibn al-Djauzi, p. 537 (٣٦)

الحياة بعد أخيه بفترة وجيزة ، فاضطر بلدوين إلى منح إقطاعية الجليل للفرانسى جرفاس (أوف باسوش)^(٣٧).

وتواصلت أعمال حرب العصابات . ففى عام ١١٠٦م أغار أبناء صور على طورون فى ذات الوقت الذى أغار فيه الدمشقيون على طيرة ، ولم يُكتب النجاح لأى من الغارتين . وباقتراب بلدوين أرسل الدمشقيون إليه فى معسكره رسولين يعرضان الإعداد لهدنة قصيرة . فاستقبلهما بمظاهر الإحترام والسخاء ، مما زاده شهرة على شهرة بين المسلمين ؛ غير أنها كانت هدنة قصيرة^(٣٨)؛ إذ أغار طغتكين على الجليل مرة أخرى فى ربيع ١١٠٨م ، واستطاع فى إحدى المعارك خارج طيرة أن يأسر جرفاس (أوف باسوش) وأغلب رجاله ، وأرسل إلى بلدوين يخبره بأن ثمن إطلاق سراحهم هو مدن طيرة وعكا وحيفا الثلاث. ولما رفض بلدوين العرض قُتل جرفاس ووضعت فروة رأسه بخصلاتها البيضاء المتماوجة على قائم أمام الجيش الإسلامى المنتصر^(٣٩) فأعاد بلدوين إلى تنكريد لقب أمير الجليل، والأرجح أن الإمارة كانت تدار من القدس . وفى ١١١٣م ، وهو العام الذى مات فيه تنكريد ، أمر بلدوين الرهاوي بنفى جوسلين (أوف كورتنای) ، فخلع الملك بلدوين عليه إمارة الجليل على سبيل التعويض^(٤٠).

١١٠٨م : هدنة مع دمشق

فى أواخر ١١٠٨م كان لكل من بلدوين وطغتكين مصالح رئيسية فى أماكن أخرى، فاتفقا على عقد هدنة لعشر سنوات تقضى بتقسيم عوائد منطقتي السواد وجبل عوف، أى شمال الأردن ، على أن يأخذ بلدوين ثلثها، وطغتكين ثلثها الثانى ، ويبقى الثلث الأخير للسلطات المحلية^(٤١). وربما ترجع أسباب تلك الهدنة إلى دوافع تجارية ؛ فالغارات تقضى على ما ينقل عبر البلاد من تجارة تعود بالنفع على الجميع . ولقد

(٣٧) William of Tyre, XI, 5, pp. 459-60; Ibn al-Qalanisi, pp. 72, 75; Ibn al-Athir, pp. 229 30; Albert of Aix, X, 8, pp 635-6.

(٣٨) Albert of Aix, X, 25-6, pp. 642-3; Ibn al-Qalanisi, p. 75.

(٣٩) Albert of Aix, X, 57, p. 658; Ibn al-Qalanisi, pp 86-7; Ibn al-Athir, pp. 268-9. ويطلق ابن الأثير على جرفاس : ابن أخت بالدين.

(٤٠) Albert of Aix, XI, 12, p. 668; William of Tyre, XI, 22, p. 492.

(٤١) Ibn al-Qalanisi, p. 92; Ibn al-Athir, p. 269.

كانت هدنة تجارية حالصة ؛ إذ لم تجمع طغتكين من أن يهب لمساعدة المدن الساحلية الإسلامية ، كما لم تقيد بلدوين في محاولته تحويل بعلبك إلى مدينة تابعة له . لكن المؤرخين العرب يذكرون بمشاعر الإمتنان ما أسفرت عنه تلك الهدنة من الحيلولة دون أن يغزو بلدوين الأراضي الدمشقية عندما ساحت له الفرصة لهزيمة طغتكين على يد وليم جوردن في أرقا^(٤٢) ، وربما نبعت رغبة بلدوين في الهدنة نتيجة لهزيمة جيرفاس وما ترتب عليها من خطر الغارات المنطلقة من الأردن على الجليل . وبالمثل رغب فيها المسلمون بعد غارتين حدثتا مؤخرا . إذ قام وليم كليتون ، ابن روبرت النورمندي ، الذي حلّ مؤخرا بفلسطين للحج ، بمهاجمة أميرة عربية ثرية كانت مرتحلة مع كل ممتلكاتها من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق ، والغارة الثانية على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مصر . وغنم الفرنج في الغارة الأولى أربعة آلاف جمل ، وغنموا في الثانية جميع بضائع القافلة التي قتل فيها كل من بقى على قيد الحياة فيما بعد على يد البدو^(٤٣) . وفي ١١١٣م حرق بلدوين المعاهدة بمهاجمته للأراضي الدمشقية .

وبعد أن أخفق بلدوين أمام صور في ١١١١م ، انشغل حيناً من الزمن ببعض الأمور شمالي سوريا . فقد سبق أن أوضح بجلاء في طرابلس في ١١٠٩م عزمه على أن يصبح سيداً لجميع فرنج الشرق . وأتاحت له أحداث أنطاكية والرها تأكيد دعواه كما استطاع أن يلفت الانتباه مرة أخرى إلى تضخيم سلطنة الشخصى . ذلك أنه كان مدركاً لحقيقة أن فلسطين بلاد مفتوحة للغزو والتسلل من الجنوب الشرقى خلال النقب ، فمن الضروري إذن السيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الميت وحتى خليج العقبة لعزل مصر عن العالم الإسلامى الشرقى . وفي ١١٠٧م أرسل طغتكين جيشاً دمشقى إلى أدوم (العراة) تلبية لنداء البدو المحليين هناك ، وذلك لإنشاء قاعدة للإغارة على يهودا . وكان فى برارى العراة هذه عدة أديرة يورانية ، فأرسل الراهب ثيودور يث بلدوين على التدخل ؛ فسار بلدوين جنوباً إلى أن اقترب من المعسكر التركى فى وادى موسى بالقرب من البتراء ، لكنه لم يكن راغباً فى قتال الترك ، فعرض الراهب ثيودور أن يذهب إلى القائد التركى كما لو كان هارباً ويخبره من اقتراب الجيش الفرنجى الضخم . فاستشعر الأتراك الخطر وانسحبوا بغاية السرعة عائدين إلى دمشق . وعاقب بلدوين البدو بإشعال النيران فى كهوفهم فدمرها واستولى على قطعانهم . وفى

(٤٢) Ibn al-Athir, pp. 269-70

(٤٣) Albert of Aix, x, 45, p. 653, Ibn al-Athir, p. 272

طريق عرودته شمالا اصطحب معه الكثير من المسيحيين الذين كانوا يخشون انتقام البدر^(٤٤).

وفى ١١١٥م عاد بلدوين إلى منطقة العرانة وقد عقد العزم على الإستيلاء عليها بصفة دائمة ؛ فهبط من الخليل ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وعبر وادى العرابة المقفر الذى يمتد من البحر الميت وحتى مشارف خليج العقبة ، ووصل إلى بقعة من البقاع الخصبة القليلة فى تلك المنطقة الجرداء ، وهى البقعة المعروفة بالشوبك ، فى رقعة شجراء بين المنخفض والصحراء العربية. وفى ذلك المكان الذى يبعد مائة ميل تقريبا من أقرب مستوطنة فرنجية ، شيد حصنا ضخما وترك فيه حامية وأسلحة جيدة ، وأطلق عليه إسم الجبل الملكى . وفى العام التالى قاد جيشه ومعه قافلة طويلة من البغال المحملة بالمؤن ، واندفع فى تهور إلى أماكن بعيدة غير معروفة من شبه الجزيرة العربية . وزار الجبل الملكى مرة أخرى ، ثم سار جنوبا إلى أن وصل أخيرا برحاله الذين نال منهم التعب إلى شواطئ البحر الأحمر فى العقبة ، حيث استمتعوا بالاستحمام فى البحر مع خيولهم ، وراحوا يصيدون الأسماك التى تشتهر بها تلك المياه. وانزعج السكان المحليون وأصابهم الذعر فلادوا بالفرار فى قواربهم ؛ واحتل بلدوين العقبة التى أطلق عليها الفرنج إيليا أو إيلين ، وحصنها بتشييد قلعة فيها ، ثم أشر إلى جزيرة فرعون الصغيرة التى أطلق عليها الفرنج جراى حيث بنى حصنا ثانيا ، وترك حامية فى كل حصن منهما . وبفضلهما أصبح الفرنج يسيطرون الآن على الطرق التى تربط بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وبإمكانهم الإغارة على القوافل بيسر يسير ، وبات من الصعب على أى جيش إسلامى أن يصل إلى مصر من الشرق^(٤٥).

١١١٨ م : بلدوين يغزو مصر

وبعد عودة بلدوين من شواطئ البحر الأحمر ، سار ثانية إلى صور لكنه اكتفى بفرض حصار برى صارم على المدينة ببناء حصن فى سكاندلون حيث يبدأ الطريق الساحلى فى الصعود بمحاذاة الجرف إلى الممر المعروف باسم سلم صور^(٤٦).

(٤٤) Albert of Aix, x, 28-9, pp. 644-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 81-2.

(٤٥) Albert of Aix, XII, 21-2, pp. 702-3; William of Tyre, XI, 29, p. 505. For Aila, see Musil, article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.

(٤٦) Fulcher of Chartres, II, lxii, I, pp. 605-6; William of Tyre, XI, 30, p. 507.

وشجع بلدوين عما حققه من إنجازات ، فشرع في ١١١٨م في حملة أكثر جسارة .
إد أن الجيوش الفاصمية قامت مؤخراً بعارين ماجحتين على أراضيها ؛ فبينما كان
منشعلا في الشمال مع الأتراك ١١١٣م . تمكنت الجيوش الفاطمية من التقدم حتى
أسوار القدس وهي نهب البلاد في طريقها وفي ١١١٥م أوشكت على النجاح في
مباغتة يافا والآل يأتي رد بلدوين على ذلك بغزو مصر نفسها ؛ فبعد مفاوضات حذرة
مع شيوخ القبائل في الصحراء ، قام في وقت مبكر من شهر مارس بقيادة جيش صغير
قوامه ستم مائتي فارس وأربعمائة راجل ، وروده جيئدا بالملون وسار به من الخليل
عابرا شبه جزيرة سيناء إلى ساحل البحر المتوسط في العريش (الفرما) الواقعة في عمق
الحدود المصرية بالقرب من فرع النيل البيلوزي وتهايا للهجوم على المدينة ، غير أن
الحامية هربت في الفرع ؛ وواصل مسيرته إلى النيل نفسه . وفقر رجاله أفواهم لرؤية
النيل الشهير غير أن بلدوين أصيب بمرض مميت ، وعاد باتجاه فلسطين وهو
يحتضر (٤٧)

تمكن الملك بلدوين ، بمحلاته التي لا تعرف الكلل ، وباتهازه لكل نهضة ، من أن
يرتقى بدويلته التي ورثها لتصبح دولة موحدة تحوى مقاطعة فلسطين التاريخية كلها .
وباستثناء صور وعسقلان ، سيطر على البلاد الممتدة من بيروت شمالا إلى بئر سبيع
جنوبا وحدود الأردن شرقا ونقاط حدودية في أقصى الجنوب الشرقي تتحكم في
المدخل من شبه الجزيرة العربية واعترف رفاقه المسيحيون في الشرق الغربي بسيادته
عليهم ؛ وفاز باحترام المسلمين وكان ما حققه من إنجازات بمثابة ضمان لعدم إمكان
تدمير مملكة القدس بسهولة.

وليس لدينا سوى القليل جدا من الشواهد التي تدلنا على إدارته الداخلية للمملكة .
وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول إنها كانت مملكة إقطاعية . لكنه احتفظ بأغلب البلد في
يديه هو شخصيا ، يعين النبلاء من طبقة الفيكونت نوابا له ، بل إن أكبر الإقطاعيات
بقيت لبضع سنوات بلا عامل ، ولم تكن الإقطاعيات ثورث بعد . إذ عندما قتل هيو
(أوف سانت أومير) ، ساد الظن بأن أخاه جيوار سيخلفه في الإمارة لو سمحت صحته
بتلك ، لكن حقه لم يكن حقا مطلقا وقد طور بلدوين مشروع دستور للمملكة ،
وحكم هو نفسه من خلال بيت ملكي كبير كان حجمه آخذا في الاتساع . وكان
لكل من أصحاب الإقطاعيات التابعين له بيته الكبير الخاص به . كما تعزى إليه

التزقيات التي أعدها مع الإيطاليين في الموانئ البحرية، وبرغم أنهم لم يُجبروا على مساعدة الحملات الصليبية إلا أنهم كانوا مضطرين للاشتراك بقواتهم البحرية في الدفاع عن الأحياء التي يحصلون عليها^(٤٨).

وقد أظهر بلدوين بجلاء نيته في السيطرة على الكنيسة . ولما أُيقِن من موازرتها عاملها بسخاء ومنحطها طوعية بعض الأراضي التي استولى عليها من الكفرة . لكنه كان في سخائه هذا على شيء من الخطأ؛ فالكنيسة غير ملتزمة بتزويده بالجنود. إلا أنه كان يتوقع من الناحية الأخرى أن تزوده بالمال.

وأظهرت أحداث كثيرة مدى ما كان بالبلدوين يتمتع به من شهرة بين المسيحيين المحليين . فمنذ تلك الحادثة التي حدثت في عيد الفصح من عام ١١٠١م، كان حريصا على احترام مشاعرهم . فكان يسمح لهم فيما يعقده من محاكمه بالحديث بلغاتهم الخاصة ، والتصرف بحسب عاداتهم الخاصة بهم ؛ ولم يكن من المسموح للكنيسة بالتدخل في ممارساتهم الدينية. وفي السنوات الأخيرة من حكمه شجّع هجرة المسيحيين، الهراطقة والأرثوذكس على السواء من البلدان المجاورة الخاضعة للحكم الإسلامي . فكان في احتياج لفلاحين كادحين يحتلون الأراضي التي باتت شاغرة في الخليل بعدما رحل المسلمون . وكان يشجع زواج الفرنج من الوطنيات ، وضرب هو نفسه المثل على ذلك . وقليل جدا من أصحاب لقب البارون تزوجوا من محليات ؛ بيد أن الممارسة أصبحت شائعة بين جنود الفرنج والمستوطنين الأفقر. وفيما بعد ، كان الأطفال المهجنون هم الذين يوفرون للمملكة أغلب احتياجاتها من الجنود.

وأظهر بالبلدوين شيئا مماثلا من الود إزاء المسلمين واليهود الذين باتوا من رعاياه ؛ فسمح بالقليل من المساجد والمعابد اليهودية. وفي المحاكم القانونية أصبح بإمكان المسلمين أن يقسموا بالقرآن واليهود بالتوراة ؛ وبذا غدا بإمكان المتخاصمين من الكفرة التطلع إلى العدالة . وسمح بالتزواج مع المسلمين . وفي عام ١١١٤م تلقى البطريق أرنولف توبيخا شديدا من البابا باسكال لعقده زواج بين مسيحي وسيدة مسلمة^(٤٩).

وفي تلك المسألة اتضح سوء فهم البابا باسكال للشرق مرة أخرى . فإذا أراد

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 228-30 (٤٨)

Rohricht, *Regesta*, n. 83, p. 19. (٤٩)

فرنجة الشرق البقاء بصورة دائمة، فلا ينبغي لهم أن يظلوا أقلية مغتربة ، وإنما يتعين أن يصبحوا جزءاً من العالم المحلي . وأما فولشر أوف تشارتر ، وهو قسيس بالدوين ، فقد أورد في تاريخه فصلاً حماسياً منظوماً عما لاحظته من معجزة الرب في تحويل الغربيين إلى شرقيين ، وبدلاً من أن امتزاج العرقين الشرقي والغربي يشير الإعجاب ، ورأى فيه الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم . وعلى مدى تواجد الدويلات الصليبية نجد القصة نفسها : افرنجي حكيم محنك في الشرق يتبع تقاليد بالدوين فيتبنى العادات المحلية ، وينشئ صداقات وتحالفات محلية ، بينما الوافدون الجدد من الغرب لا يجلبون معهم سوى الأفكار المتعصبة المتسلطة التي لا تجلب على البلاد سوى الكوارث .

وقد أساء بالدوين إلى البابا عندما استولى على مدينتي صيدا وبيروت الساحليتين وأخضع كنائسها لبطرياركية القدس ، ظناً منه أن الإدارة السليمة للملكة تستدعي ذلك ، وهي التي كانت طوال تاريخها تابعة لبطريق أنطاكية . واعترض بطريق أنطاكية - برتراند - لدى البابا من هذا التصرف غير الكنسي . وكان البابا قد أخطر القدس في ١١١٠م بإمكان تجاهل الأوضاع التاريخية للكنائس نظراً للظروف المتغيرة . على أن البابا ، وبضعفه المعهود ، غير في عام ١١١٢م من موقفه هذا وأيد مطالب أنطاكية ؛ وبهدوء تجاهل بالدوين هذا القرار الجديد للبابا . وعلى الرغم مما أبداه البابا باسكال من توبيخ لاذع، بقيت الأسقفيات خاضعة لبطرياركية القدس^(٥٠) .

١١١٣م زواج بالدوين من أديللا

وأما عن زواج بالدوين ، فقد ارتكب خطأ جسيماً . ذلك أنه منذ اليوم الذي هرب فيه حموه مذعورا من وحشية زوج ابنته ودون أن يعطى لبالدوين مهر ابنته المتفق، لم يعد بالدوين يهتم كثيراً بعروسه الأرمنية . وكان بالدوين شغوفا بالمغامرات الغرامية، لكنه كان يتوخى العقل ، ومنعه وجود مليكته معه في البلاط من الإنغماس في شهواته . وقد كان للملكة هي الأخرى سمعة الملكة الطروب حتى أنها ، كما قيل ، وهبت حظوتها لقرصنة مسلمين أثناء رحلتها من أنطاكية جنوباً إلى حيث ينتظرها عرشها . ولم يثمر زواجهما أطفالاً يؤثقون عرى الرابطة الزوجية بينهما؛ وبعد سنوات قليلة ، وبعد ما تحقق بالدوين من انتفاء أية فائدة سياسية لزواجه هذا، طردها من

البلاط بدعوى ارتكابها الزنا وأجبرها على دخول دير القديسة آن فى القدس ، وراح يغدق على الدير الهبات بسخاء ، مدهانة لضميره . على أن الملكة لم تكن تشعر ببناء دفن لحياة الرهينة ، وسرعان ما التمسست الإذن بالإعتزال فى القسطنطينية حيث بقيم والداها منذ أن طردهما الفرنج من مرعش ، وأجيب مطلبها . وفى القسطنطينية نضت عن نفسها رداء الرهينة ، وراحت تتذوق كل ما تقدمه المدينة العظيمة من ملذات^(٥١) وفى ذات الوقت أبهج بالدوين أن يجد نفسه قادرا على العودة إلى حياة العزوبة مرة أخرى . على أنه كان لا يزال فى حاجة إلى المال . وفى شتاء عام ١١١٢م علم بوجود أرملة مناسبة للغاية فى أوروبا تبحث عن زوج : إذ أن أدبلايدى السالونية - كونتيسة صقلية الأرملة - قد تركت لثوها الرصاية على كونتيتها لبلوغ ابنها الصغير ، روجر الثانى ، سن الرشد . وكانت فائقة الثراء . واجتذبتها اللقب الملكى . ولم يكن بالدوين يرغبها لما سيحصل عليه من بائنة وحسب ، وإنما أيضا لما تتمتع به من نفوذ على نورماندى صقلية ، فسوف يساعد التحالف معهم فى إمداده بالقوة البحرية، فضلا عن أن ذلك التحالف سيكون بمثابة توازن مضاد إزاء النورماندين فى أنطاكية . فأرسل طالبا يدها . وقبلت الكونتيسة ولكن بشروطها . إذ أن بالدوين أبتز بلا ولد بعد أن مات أبناؤه من زوجته الأولى فى الأناضول أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ولم تلد له وليكته الأرمينية . فأصرت أدبلايدى على أنه مالم يثمر زواجها من بالدوين بولد - وعمر كل من العريس والعروس لا يشر كثيرا بولد - فلا بد أن يتنقل تاج القدس إلى ابنها الكونت روجر.

وتم عقد الزواج . وفى صيف ١١١٣م أبحرت الكونتيسة من صقلية نحوها أبهة لم يشهدها البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترة قاصدة سيدنوس Cydnus للقاء مارك أنطونيوس . كانت متكئة على بساط خيوطه من ذهب فى سفيتها التى كانت مقدمتها مزدانة بصفائح من الذهب والفضة . وكانت هناك سفيتان أخريان بصحبتها، على جانبي كل سفينة ثلاثة صفوف من المجاديف ، مقدمتاها مزدانتان بنفس زينة سفيتها، وقلان حرسها العسكرى ، وقد تألق من بينهم الجنود العرب من حرس ابنها الشخصى، تلمع وجوههم السمراء فوق أرديتهم ذات البياض الناصع . وفى أثرياميا الذى تركته السفن وراءها كانت هناك سبع سفن أخرى امتلأت عنابرها بكنوزها الخاصة بها . وهبطت إلى الشاطئ فى عكا فى شهر أغسطس ، حيث كان الملك

(٥١) Guibert of Nogent, p. 259 الذى يذكر حياتها الخلية . ويفترض William of Tyre, XI, PP. 451-2 أنها انسأقت فى الشرور بعد طلاقها.

بالدوين فى استقبالتها بكل الروعة التى تستطيع مملكته إظهارها ، وكانت الأردية الحريية الفاخرة تكسوه وتكسو بلاطه كله ؛ وكانت خيولهم وبغالهم مزدانة بالأكسية الأرجوانية والذهب . وبسطت الشوارع بالبسط الفاخرة ، ورفرت الرايات الأرجوانية من النوافذ والشرفات . وعلى طول الطريق إلى القدس بدت المدن والقرى كما لو كانت فى ملابس مبهجة . كانت البلاد كلها فى بهجة، ولكنها ليست البهجة الكبيرة لمقدم السيدة الجديدة التى تخطر إلى شيخوختها بقدر ما كانت بهجة لما جلبته فى بطانتها من ثروة^(٥٢).

وبرغم تلك البداية الباهرة لم يحقق الزواج نجاحا. إذ تسلم بالدوين على الفور بائنته من الملكة ، وأنفقها فى تسديد أجور الجنود المتأخرة ، وفى الإنفاق على أعمال التحصينات ؛ وأسفر تداول هذه الأموال عن انتعاش اقتصاد البلاد . ولكن سرعان ما خبت الجذوة ؛ وانجلى مساوىء الزواج . ويتذكر أصحاب الورع أن زوجة بالدوين السابقة لم تطلق أبدا طلاقا قانونيا . وصددهم قيام البطريق أرنولف بكل طوعية بإنجاز ما كان فى حقيقته احتفالا بالجمع بين زوجتين؛ وسارع أعداء أرنولف فى استغلال تصرفه ذلك الشاذ . وزادت حدة الهجوم عليه عندما أغضب رعية بالدوين كلها اكتشاف أنه اقترح التخلص من ولاية عرش الملكة دون استشارة مجلسه . وانهمرت على روما الشكاوى ضد أرنولف. وبعد عام على الزواج الملكى ، وصل إلى القدس المندوب البابوى بيرينجار أسقف أورانج . فضلا عن إتهام أرنولف ببيع المقدسات والمناصب الكنسية ، تأكد لدى المندوب البابوى أنه قد غض النظر عن علاقة زنا، بل وباركها ؛ فجمع أساقفة ورهبان البطريرقية فى مجمع كنسى وأعلن خلع أرنولف. على أن أرنولف لا يخلع بهذه السهولة . فتدبر عدم تعيين خليفة له وانطلق هو نفسه إلى روما فى شتاء ١١١٥م، حيث مارس كل ما لديه من سحر إغوائى على البابا والكرادلة الذين قويت مشاعر العطف عليه لما أهداهم من هدايا اختارها لهم بعناية . ووقع البابا باسكال تحت نفوذه ، وأنكر قرار مندوبه البابوى . ووافق أرنولف على تقديم تنازل واحد : لقد وعد بأن يأمر الملك بطرد الملكة الصقلية . وعلى الأثر لم يكتف البابا بإعلان بطلان خلع أرنولف ، وإنما قام هو نفسه وقدم له الطيلسان ليرتديه ، وهكذا آيد

(٥٢) Albert of Aix, XII, 13-14, pp. 696-8; William of Tyre, XI, 21, pp. 487-9; Fulcher of Chartres, II, li, pp. 575-7. كانت أدملايدى إنة المركيز ماتفريد ، وإننة أخت صاحب حانة سالونا، وقد تزوجت روجر الأول الصقلى كزوجه الثالثة عام ١٠٨٩ ولعمرة نسيها أنظر Chalandon, *Histoire de la Domination Normande en Italie*, II, p. 391, n. 5.

بقاءه فى منصبه بما لا يدع مجالا لأية رية . وفى صيف ١١١٦م عاد أرنولف متصرا إلى القدس^(٥٣).

وقد أقدم أرنولف على هذا التنازل بلا تردد ؛ إذ كان يعرف ان بالدوين الآن ، وبعد أن أنفق البائنة - أصبح شبه آسف على زواجه ، كما لم تجد أدلايدى هى الأخرى أنها معجبة بمعبود سليمان فى القدس الذى تفتقر فيه إلى أسباب الراحة ، وهى التى اعتادت على الحياة الفاخرة فى قصر باليرمو . على أن بالدوين تردد ؛ فهو كاره لأن يخسر مزايا التحالف الصقلى ؛ فقاوم طلبات أرنولف إلى أن أصيب بمرض شديد فى شهر مارس ١١١٧م؛ وأنصت ، وهو بين يدي الموت، إلى كهنة الاعتراف الذين قالوا له إنه يموت وهو فى حالة من الإثم . وعليه أن يطرد أدلايدى ، وأن يستدعى زوجته السابقة لتكون إلى جانبه . ولم يستطع أن يلبي كل رغباتهم ؛ إذ أن الملكة السابقة لم تكن مهية لمغادرة القسطنطينية والتخلي عما كانت غارقة فيه من ملذاتها الرائعة . على أنه عندما شفى من مرضه أعلن إلغاء زواجه من أدلايدى ، التى نال منها الغضب ، وقد جردت من ثروتها ، فأبحرت عائدة إلى صقلية فى رحلة تكاد أن تكون بلا حراسة . وكان ذلك إهانة لم ينسها البلاط الصقلى أبدا . ومضى وقت طويل قبل أن تتسلم ملكة القدس أية مساعدة أو تعاطف من صقلية^(٥٤).

١١١٨م موت أمراء

خسف القمر يوم ١٦ يونية ١١١٧م، ومرة ثانية يوم ١١ ديسمبر ، وبعد ذلك بخمس ليال حدثت الظاهرة النادرة فتألاً الشفق القطبى الشمالى فى سماء فلسطين ، فكانت نذيرا مرعبا يتنبأ بموت أمراء^(٥٥) . ولم يكذب النذير . ففى ٢١ يناير ١١١٨م مات البابا باسكال فى روما^(٥٦) ، وفى ١٦ إبريل أنهت الملكة السابقة أدلايدى بموتها

(٥٣) خطاب باسكال الثانى المؤرخ فى ١٥ يولية ١١١٦، M. P. L. vol. CLXIII, cols. 408-9; Albert of Aix, XII, 24, p. 704; William of Tyre, XI, 24, pp. 499-500 .

(٥٤) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, *loc. cit.*; Fulcher of Chartres, II, lix, 3, p.601.

(٥٥) Fulcher of Chartres, II, lxi, 1-3, lxiii, 1-4, pp. 604-5, 607-8. (٥٥) Hagenmeyer تاريخ وقوع الظاهرة . ويذكر Fulcher موت باسكال ، بالدوين وأدلايدى وأرنولف وألكسيوس.

(٥٦) *Annales Romani, M.G.H.Ss.*, vol. v.p.477; William of Tyre, XII, 5, p. 518.

وجودها الذليل فى صقلية^(٥٧) ، ولم يعيش صديقها الزائف البطريق أرنولد سوى اثنى عشر يوما بعدها ، وشهد يوم ٥ إبريل موت السلطان محمود فى إيران ، وفى ٦ أغسطس مات الخليفة المستظهر فى بغداد^(٥٨) . وفى ١٥ أغسطس ، وبعد مرض طويل مؤلم ، مات فى القسطنطينية أعظم عواهل الشرق ، الإمبراطور ألكسيوس^(٥٩) ، وفى بداية الربيع عاد الملك بالدوين من مصر وقد ضربته الحمى . ولم يبق فى بدنه المرهق المتعب أية مقاومة . وقد حمله جنوده عائدتين به إلى قلعة العريش الحدودية الصغيرة ، وهو محتضرا . وهناك ، وبدقة عبر حدود المملكة التى تدين له بوجودها ، مات يوم ٢ إبريل بين ذراعى أسقف الرملة . وجئ بجثته إلى القدس ، وفى يوم أحد السعف ، ٧ إبريل ، رقد ليستريح فى كنيسة القبر المقدس ، بجانب أخيه جودفرى^(٦٠) .

وصاحب مركب الجنازة نواح الفرنج والمسيحيين المحليين على السواء ؛ بل إن العرب الزائرين كانوا متأثرين . كان ملكا عظيما ، قاسيا و مجردا من المبادئ الخلقية ، لم يكن محبوبا ، ولكن حظى باحترام عميق لما أبداه من نشاط وبصيره ونظام وعدالة فى حكمه . لقد ورث مملكة ضعيفة غير مستقرة ، لكن قوته الحربية ، وحدة ذهنه الدبلوماسية ، وتسامحه الحكيم ، أوجد لها مكانا راسخا بين ممالك الشرق .

Necrologia Panormitana, in Forschungen zur deutschen Geschichte, vol. XVIII, PP. (٥٧) 472; William of Tyre, XII, 5, P. 518 .

Ibn al-Athir, pp.310-11; Matthew of Edessa, ccxxvi, p. 297. (٥٨)

Zonaras, p. 759; William of Tyre, XII, 5, p. 517; Ibn al-Qalanisi, p. 157 (٥٩) أيضا. Matthew of Edessa , ccxxviii, pp. 300-1.

Fulcher of Chartres, II, xiv, 1-5, pp. 609-13; Albert of Aix, XII, 26-9, pp. 706-9; (٦٠) William of Tyre, XI, 31, pp. 508-0; Ibn al-Qalanisi, loc. cit.

الفصل السادس:

توازن في الشمال

توازن في الشمال

"فِيحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ"

(أشعيا : ١٩ - ٢)

كان الملك بالدوين الأول ، قبل وفاته ببضع سنين ، قد أعلن نفسه زعيما دون منازع لفرنجة الشرق . ولم يكن ذلك إنجازا يسيرا ، وقد أفلح فيه بالدوين بمهارته في استخدام الظروف .

وغدا تنكريد بلا غريم بين فرنجة شمال سوريا بعد أن وقع في الأسر في حران كل من بالدوين (أوف لو بورج) وجوسلين (أوف كورتناي) ، وبعد رحيل بوهيموند إلى الغرب؛ ونتيجة للشفاق الذي كان يحدثا بين المسلمين تمكن من انتهاز كل نهضة أمامه انتهازا كاملا . وكانت الامبراطورية السلجوقية تتداعى قطعة قطعة لأسباب تعزى في أهميتها إلى ما ساد من خلافات بين أمرائها بصورة أكبر من عزوها إلى ما كانت تواجهه من ضغوط خارجية . وارتفع نجم حكيمش - أتابج الموصل - بنصره في حران إلى مركز الصدارة بين عواهل الأتراك في شمال سوريا والجزيرة ، برغم فشله الذريع في

متابعة المهجور ضد الفرنج. وكان حليفه السابق ونده ، سقمان الأرمني صاحب مردين ، قد مات في باكورة ١١٠٥ م ، وهو في طريقه لمساعدة طرابلس المحاصرة ، وتنازع على الميراث أخوه إيلغازي ، وابنه إبراهيم^(١) وكان إيلغازي فيما مضى تحت إمرة رضوان الحلبي ، ولذا كان الأخير يأمل الآن في أن يمنحه إيلغازي - بعد الانتصار - نفوذا في الجزيرة ؛ لكن إيلغازي نسي الولاء القديم ، وكان رضوان نفسه غارقا في محاربة الفرنج لتأكيد زعامته العليا القديمة^(٢) وفي ١١٠٦ م مات الأمير الدانشمندى العظيم الملك غازي جوموشكين تاركاً وراءه مملكة مقسمة ؛ فأصبحت سيواس وأراضى الأناضول من نصيب ابنه الأكبر غازي ؛ وأمسّت ملطية وأراضى سورية من نصيب ابنه الأصغر سنقر ، وهو شاب لا خبرة له ، مما أغرى قلعج أرسلان - الذي تعاهد مع بيزنطة على السلام مؤخراً - بالتحول شرقاً ومهاجمة ملطية والاستيلاء عليها في خريف ١١٠٦ م^(٣) . ثم إنه خلع على نفسه لقب سلطان وحاول الحصول على الاعتراف بلقبه هذا في أنحاء العالم التركي ، وكان على استعداد لمصادقة من يعامله بهذه الصفة^(٤) .

ولم ينعم جكرمش بمركز الصدارة طويلاً ، إذ كان له حتماً أن يتورط في النزاعات الدائرة في السلطنة السلجوقية الشرقية . وعندما اضطّر السلطان بارقياروق إلى اقتسام أملاكه مع أخيه محمد في ١١٠٤ م ، تقرر ضم الموصل إلى أملاك الأخير . وحاول جكرمش أن يستقل بنفسه فأعلن أنه يدين بالولاء لبارقياروق فقط ، وتحدى جنود محمد؛ غير أن بارقياروق مات في يناير ١١٠٥ م وورث محمد أملاكه كلها ؛ فلم يجد جكرمش ذريعة للإستقلال عن محمد ، وأسرع إليه معلناً خضوعه إليه . وأظهر محمد الصداقة إلى حين ، وعاد شرقاً دون أن يغامر بدخول الموصل دخول المنتصرين^(٥) .

(١) ابن الفرات ، اقتبه 26 ، p. 248 ، La Syrie du Nord ، Cahen ؛ ويقول ابن الأثير - Athir ، pp. 226-7 ، إن إيلغازي أخذ مردين من إبراهيم في ١١٠٧ . وللإطلاع على التاريخ المعقد لأمرء المسلمين أنظر 246-9 ، Cahen ، op. cit. pp.

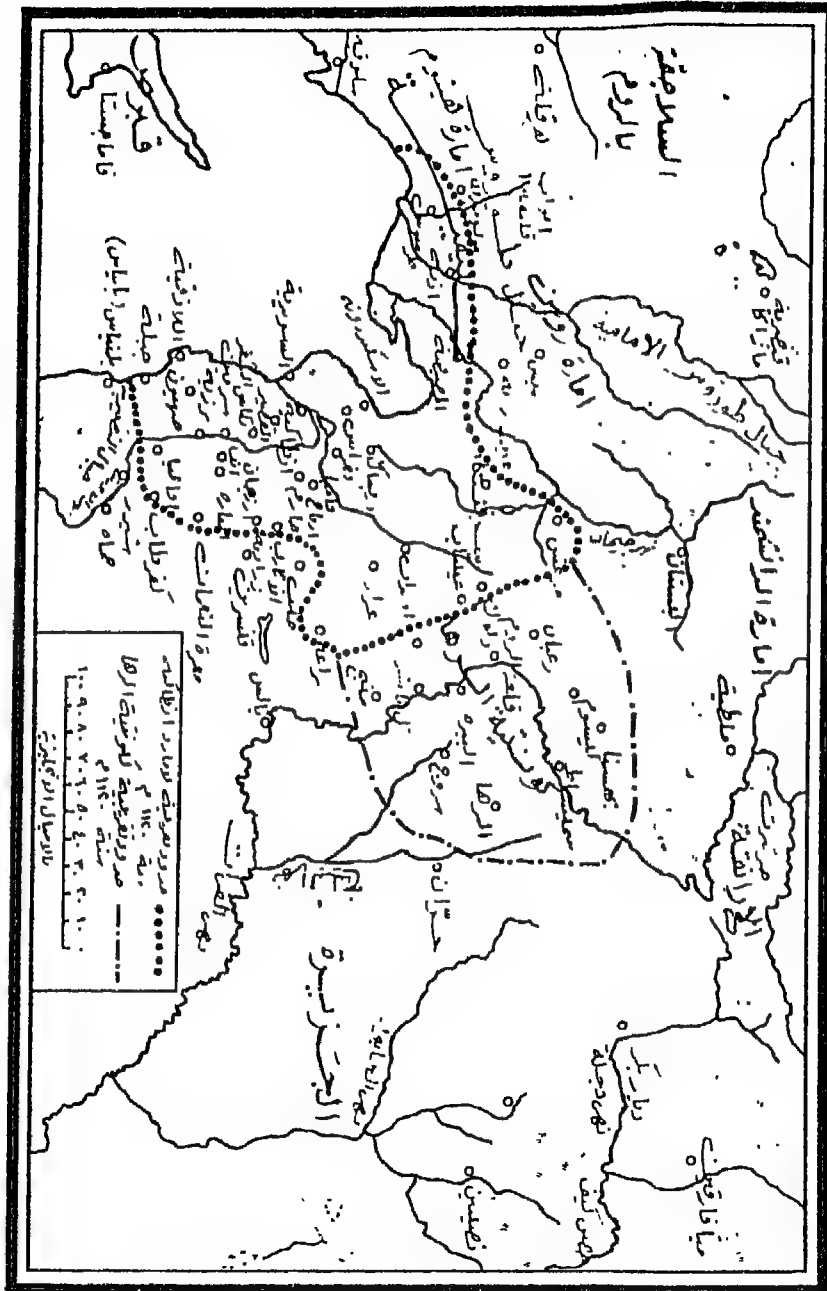
(٢) Ibn al-Athir ، loc. cit. .

(٣) ميخائيل السوري Michael the Syrian ، III ، p. 192 .

(٤) أنظر مقال 'Kilij Arslan' في دائرة المعارف الإسلامية . Encyclopaedia of Islam أما ابن القلانيسي ، وابن الأثير ، وغيرهما من المؤرخين العرب فيتوحدون جانب الحذر ولا يطلقون عليه سوى ممالك . ويسميه ماثيو الأورفي Matthew of Edessa وميخائيل السوري Michael the Syrian سلطان.

(٥) Ibn al-Athir ، pp. 224-5 .





خريطة رقم (١) شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

ثم شرع جكرمش فى تنظيم حملة جديدة ضد الفرنج ، وربما كان ذلك بناء على طلب محمد ، فتحالف مع رضوان الحلبي وصبوا، القائد العسكري لرضوان ، وايلغازى الأرتقى ، وزوج ابنته ألبو ابن أرسلانتاش صاحب سنقار. واقترح الحلفاء على رضوان إدخال البهجة على السلطان محمد بالهجوم على جكرمش ، ففى ذلك حنكة سياسية ومنفعة ؛ فساروا معا إلى مدينته الثانية نصيبين . غير أن عملاءه هناك أفلحوا فى الوقعة بين رضوان وايلغازى؛ فخطف الأول الثانى فى مأدبة أقامها أمام أسوار نصيبين ، وكبله بالسلاسل ؛ فقام العساكر الأراقة بمهاجمة رضوان وأجبروه على العودة إلى حلب. وهكذا نجى جكرمش وسار بنفسه وهاجم الرها؛ على أنه بعد أن أفلح فى هزيمة فرقة خرجت للتصدي له من جنود ريتشارد حاكم الإمارة، عاد إلى بلده ليواجه مشاكل جديدة^(٦).

وفى تلك الأثناء حاول قلج أرسلان بدوره الهجوم على الرها - وكان قد استولى لنوه على ملطية - لكنه وجد دفاعاتها قوية ، فتحول إلى حران التى كانت حاميتها تابعة لجكرمش ، وقد سلمته الحامية المدينة . وكان من الواضح أن سلاجقة الروم يسعون إلى توسيع رقعة سلطانهم فى العالم الإسلامى على حساب أبناء عموماتهم سلاجقة القرس^(٧).

ولم يغفر السلطان محمد أبدا ما راود جكرمش من نزعات استقلالية ، وكان يرتاب فى أنه متواطئ مع قلج أرسلان . وفى شتاء ١١٠٦م حرمه رسميا من الموصل ووهبها مع حكم الجزيرة وديار بكر لمغامر تركى يدعى جوالى سقاوه . فقاد جوالى جيشا ضد جكرمش الذى تقدم هو الآخر لقتاله ، لكن جكرمش هزم خارج المدينة مباشرة ووقع هو نفسه أسيرا ؛ وعلى الفور نصّب أبناء الموصل ابن جكرمش ، زنكى ، أتايجا لما كان لجكرمش من شعبية بينهم ، بينما أرسل الأصدقاء خارج المدينة إلى قلج أرسلان طالين مساعدته . وكان فى مأمول جوالى أن يستخدم جكرمش كورقة للمقايضة عليها ، غير أنه بعد أن مات جكرمش بغتة فى أسره ، رأى الحكمة فى الإنسحاب . وفتحت الموصل أبوابها لقلج أرسلان الذى وعد باحترام حريتها.

وربىخ جوالى دعائم سلطانه فى وادى الفرات ، ومن هناك تفاوض مع رضوان الحلبي واتفقا على خلع قلج أرسلان أولا ثم يتقدمان معا لمهاجمة انطاكية . وفى يونية

Matthew of Edessa, clxxxix, pp. 260-1. (٦)

Ibn al-Athir, p. 239. (٧)

١١٠٧م توجه الإثنان على رأس أربعة آلاف رجل وهاجما الموصل . وكان قلج أرسلان بعيدا وجيشه أصغر ، لكنه مع ذلك خف لمجابهة الحليفين على ضفاف نهر خيبر . وبرغم ما اتصف به من شجاعة ، فقد هزم هزيمة ماحقة وهلك هو نفسه وهو يعبر النهر هاربا^(٨).

وتركت نهاية قلج أرسلان أثرها على العالم الشرقي كله . إذ انزاح عن ميزنة خطر هائل في لحظة حاسمة كان فيها بوهيموند على وشك مهاجمة البلقان ؛ وتمكنت السلطنة السلجوقية الفارسية من أن يطول أجلها لقراءة قرن من الزمان ؛ وكسنت بمثابة أول مرحلة خطيرة في انفصال أترك الأناضول عن إخوانهم في الشرق الأبعد . وحرمت سوريا - لوقتها - من قوة خليفة بأن تحقق لها وحدتها.

وأصبح بإمكان جوالى دخول الموصل . وسرعان ما صنع من نفسه حاكما بغيضا بأفعاله الوحشية في حكمه؛ ولم يظهر لسيده السلطان عمدا احتراماً أكثر مما أظهره جكرمش من قبله . وبعد عام، خطط محمد لاستبداله، وأرسل إليه جيشا بقيادة المملوك مودود الذى أصبح النصير الرئيسى للإسلام خلال السنوات القليلة التى تلت^(٩).

١١٠٧م : إطلاق سراح جوسلين

وإثناء كل هذا الإضطراب كان بالدوين (أوف لوبورج) أسيرا فى الموصل ، بينما انتقل ابن عائلته جوسلين (أوف كورتناى) بعد موت سقمان إلى ايلغازى الذى كان يخطط لطرد ابن اخيه ابراهيم من ماردين ؛ على أن ايلغازى كان فى حاجة إلى المال والحلفاء ؛ ولذا وافق على إطلاق سراح جوسلين مقابل عشرين ألف دينار ووعده بمساعدة عسكرية . وتعهد رعايا جوسلين فى تل بشير طواعية بمبلغ الفدية ، وأطلق سراحه فى وقت ما من عام ١١٠٧م^(١٠) . وتمكن ايلغازى ، بالتريبات التى أعدها ،

(٨) المرجع السابق الصفحتان ٢٤٦ - ٢٤٧ . ويعتبر ماثيو الأورفى Matthew of Edessa, cxcvi, p. 264 أن موت قلج أرسلان بمثابة كارثة للعالم المسيحى كله ، أى الأرمن.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 259-61; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 241.

(١٠) يقول ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, pp. 195-6 إن مواطنى طرابزون سلموا أنفسهم كرهائن الى أن يتم جمع اللال ، ثم تراجعوا ، بحيث لم يدفع شيء فى الواقع ، على أن جوسلين عاد الى الأسر كرهينة لبالدوين ، وترك انطباعا راتعا على سلطان الموصل الذى طلب رؤيته خصيصا . ويفترض ابن الأثير Ibn al-Athir, p. 261 أن الفدية قد دفعت على النحو الواجب.

من الإستيلاء على ماردين . ثم سعى جوسلين إلى تخليص بالدوين الذى كان فى قبضة جوالى مع كل متعلقات جكرمش . ولقد اختبرت اللحظة اختيارا حسنا ؛ إذ كان جوالى فى حاجة إلى مساعدة لصده هجوم مودود القادم ؛ فطلب ستين ألف دينار، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين فى الرها ، وتحالفا عسكريا . وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تخلى أهالى الموصل عن جوالى وفتحوا بوابات مدينتهم لمودود، ووجد جوالى نفسه وقد طرد من الموصل، فوطد دعائم ملكه فى الجزيرة آخذا معه بالدوين^(١١).

وتمكن جوسلين من تجهيز ثلاثين ألف دينار بلا صعوبة كبيرة . وأحضر المال بنفسه إلى قلعة الجبار فى الفرات حيث يعيش جوالى الآن ؛ وعرض أن يبقى هو نفسه رهينة بدلا من بالدوين الذى سيتولى إحضار باقى الفدية . وتحركت مشاعر جوالى بهذه الحركة وأثارته بسالة الأمير الفرنجى ، وقبل جوسلين بدلا من بالدوين . وبعد أشهر قليلة أطلق سراح جوسلين واضعاً ثقته فى كلمته التى وعدها بتسديد باقى الفدية، وكان لثقته ما يبررها^(١٢) . ولقد أقدم على هذه الحركة بوازع القروسية من ناحية، وبدافع المصلحة الذاتية من الناحية الأخرى - إذ كان شديد الرغبة فى التحالف الفرنجى.

١١٠٨ م: مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين ومسلمين

مضى على تانكريد الآن أربع سنوات وهو سيد الرها التى يحكمها باسمه ابن عمه ريتشارد (أوف برنسيات) ؛ وكان تانكريد عزوفا عن تسليم الرها لبلدوين . وعندما ظهر بلدوين فى الرها وافق تانكريد على دفع ثلاثين ألف دينار ، لكنه رفض إعادة المدينة لبلدوين إلا بعد أن يقسم قسم الولاء له . ولم يكن بوسع بلدوين الموافقة باعتباره تابعا للملك القدس ، فذهب إلى تل بشير مغاضبا حيث لحق به جوسلين ، وأرسلا إلى جوالى يطلبان مساعدته . وسار تانكريد إلى تل بشير حيث وقعت مناوشات طفيفة اجتمع بعدها المتحاربون فى حلقة معقدة لمناقشة المسألة مرة أخرى ، ولكن دون جدوى . وأطلق بلدوين سراح مائة وستين أسيرا مسلما وأرسلهم هدية إلى

(١١) Ibn al-Athir, p. 260 P Bar-Hebraeus, loc. cit.

(١٢) Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. pp.81-2; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 243; Ibn al-Athir, p. 261.

حوالى بعد أن أعاد تجهيزهم ثم سار شمالا يبحث عن حلفاء آخرين. وكان حكم ريتشارد في الرها مكروها من الأرمن خاصة لقسوته وابتزازه ، ولذا ذهب بلدوين لزيارة كبير أمراء الأرمن في الجوار - كواسيل أمير كيسوم - الذى عزز مكانته مؤخرا باستمالة كاثوليكيوس الأرمني وأقنعه بالعيش فى كنفه . واستقبل كواسيل بلدوين فى مدينة رعبان ووعده بالمساعدة ، بينما أبهج أوشين الأرمني ، الذى كان يحكم كيليكيا باسم بيزنطة ، أن يخطو أية خطوة ضد تنكريد ، ومن ثم أرسل ثلاثمائة من المرتزقة البتشنج . وعاد بلدوين بهذا الحشد المخالف إلى تل بشير . ولم يكن تنكريد مستعدا للإساءة إلى العالم الأرمني كله ، لاسيما وأن برنارد - بطريق أنطاكية - اشاز بنفسه إلى جانب بلدوين ، فاضطر تنكريد على مضض إلى سحب ريتشارد أوف برينسيبات من الرها التى استقبلت بلدوين بمشاعر البهجة^(١٣).

ولم تكن سوى هدنة مؤقتة . وكان بلدوين مخلصا فى صداقته مع حوالى ، فأعاد له الكثير من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بناء المساجد فى مدينة سروج التى كان أغلب سكانها من المسلمين ، وأمر بإعدام كبير قضاتها بعد خذلانه إذ لم يكن مقبولا من السكان لارتداده عن الإسلام . واستشعر رضوان الحلبي الخطر من هذا التحالف ، إذ راح حوالى يهدد ممتلكاته فى الفرات ، فرد بالإغارة على قافلة بضائع تضم بعض فدية بلدوين المرسلة من تل بشير إلى بلاط حوالى . وفى سبتمبر ١١٠٨م استولى حوالى على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتى لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلا، وصلب أبرز المؤيدين لرضوان فى المدينة . وعلى الفور استنجد رضوان بتنكريد . وفى أوائل أكتوبر وصل بلدوين وجوسلين إلى منبج بين حلب والفرات مع بضع مئات من فرسانهما وانضما إلى جيش حوالى الذى كان يتألف من نحو خمسمائة تركى وعدد أكبر من البدو برئاسة ابن صدقة أمير بنى مزيد ، وبذا بلغ قوام الجيش المتحد قرابة ألفي رجل . وكان مع رضوان نحو ستمائة رجل لمواجهة الجيش المتحد ، لكن تنكريد جاء بقوة قوامها ألف وخمسمائة رجل . وحمى وطيس معركة يقا تل فيها مسيحيون ومسلمون مسيحيين ومسلمين . وبينما كان جنود حوالى يدفعون فرنج أنطاكية إلى الوراء شيئا فشيئا منزليهم بهم خسائر جسيمة ، كان البدو قد لاحظوا الخيول التى كان فرسان بلدوين يحتفظون بها بصورة احتياطية ، فتعذر عليهم مقاومة اغراء الخيول ، فتخلوا عن القتال وسرقوها وانطلقوا بها ، وإذ رأهم أترك حوالى يذهبون استدأروا

Fulcher of Charters, II, xxviii, 1-5, pp.477-81; Albert of Aix, x,37, p.648; Matthew (١٣) of Edessa, cxcix, p 266,

ولاذوا بالفرار . ونظر بلدوين وجوسلين فوجدا أنهما وحيدان أو يكادان ، فاضطرا إلى الفرار هما أيضا مع بقايا جنودهما، وقد كادا أن يقعوا في الأسر كلاهما . وقيل إن خسائر المسيحيين بلغت نحو ألفين^(١٤).

وانسحب جوسلين إلى تل بشير وعاد بلدوين إلى دلك شمال رواندان حيث حاول تنكريد محاصرته، لكنها كانت مجرد محاولة كفت عنها عندما سمع بشاعة اقتراب جاول. وفي نهاية الأمر استعاد بلدوين وجوسلين الرها فوجدا أهلها في حالة من الذعر . إذ أنهم ، خشية من أن يكون بلدوين قد مات ، ومن ثم يخضعون لحكم ريتشارد المقوت، اجتمعوا في كنيسة القديس يوحنا حيث قام الأرمن منهم بتوجيه الدعوة إلى الأسقف اللاتيني للمشاركة في انشاء حكومة مؤقتة إلى أن ينحلى الموقف . وعندما جاء بلدوين بعد ذلك بيومين ارتاب في أن الأرمن كانوا يدبرون خيانة لاستعادة استقلالهم . فضرب بسرعة وبقسوة . فاعتقل الكثير من الأرمن وفقاً أعينهم . ولم تسلم عينا الأسقف الأرمني إلا بغرامة باهظة تبرعت بها رعيته ، وأعقب ذلك طرد الأرمن قسرا من المدينة . وما حدث في واقع الأمر غير معروف، غير أنه من الواضح أن بلدوين لا بد وأن شعر بمخطر حسيم بحيث عكس اتجاه سياسته الأرمنية بصورة مفردة^(١٥).

١١٠٩ م : المصالحة بين أمراء الفرنج

وبرغم انتصار تنكريد ، وبرغم مصالحة جوالى بعد أشهر قليلة مع سيده السلطان الذى خلع عليه إمارة بعيدة في فارس ، لم يُقدّم تنكريد على أية محاولة لاجراج بلدوين من الرها، وبدلا من ذلك قاد حملة في خريف ١١٠٨ م ضد شيزر حيث قتل بصعوبة جماعة صغيرة من الأعداء فاجأها في كهف ، ثم ارتضى الرحيل عن شيزر مقابل جواد أصيل قُدّم له هدية^(١٦).

وفي الربيع التالي تورط في النزاع الذى نشأ بين وليم جوردون وبرتtrand التولوزى على ملكية الأراضي الفرنجية في لبنان . وقوبلت موافقته على أن يصبح وليم جوردون

(١٤) Matthew of Edessa, cxcix, pp. 266-7; Ibn al-Athir, pp. 265-7; Kemal ad-Din, p. 595; Ibn al- Fourat, quoted in Cahen, *op. cit.* p. 250 n. 34.

(١٥) Matthew of Edessa, cxcrv, pp. 267-8.

(١٦) Usama, ed. Hitti, pp 99-100.

من أتباعه بتدخل سريع من الملك بلدوين باعتباره سيّدا أعلى لجميع الفرنج الشرق . وعندما استدعاه الملك للحضور مع غيره من قادة الفرنج لقبول تحكيمه في المعسكر المقام أمام طرابلس ، لم يجرؤ على الرفض . وفي حضور الأمراء المجتمعين قام الملك بلدوين بتقسيم الميراث التولوزي ، ليس هذا وحسب ، بل أجاز تنكريد وبلدوين وجوسلين على التصالح والتعاون ضد الكفرة . وقد قبل تنكريد حق الملك في التحكيم ، ومن ثم اعترف بسيادته ، وإزاء ذلك سُمح له بأن يحتفظ بوليم جورودون كواحد من أتباعه ، وأعيد له لقب أمير الجليل وملكية المعبد في القدس ، وحصل على وعد باستئناف إدارة الإقطاعية في حالة عودة بوهمند إلى انطاكية . وقُلت تلك الزايا بعدما قتل ولیم جورودون وانتقلت أراضيه إلى برتراند الذي اعترف بالملك بلدوين وحده سيّداً له . على أن تنكريد تشجع على مهاجمة جبلة ، وهي آخر ممتلكات بني عمار ، فاستولى عليها في شهر يولية ١١٠٩ م ، وبذا باتت حدوده تتأخم حدود برتراند جنوباً^(١٧) .

وقد كان أمراً ضرورياً أن تتم هذه المصالحة بين أمراء الفرنج تحت الملك بلدوين . ففي أوائل ١١١٠م أعد مودود ، أتابع الموصل ، حملة ضد الفرنج تنفيذا لتعليمات سيده السلطان ، وفي إبريل توجه إلى الرها يساعده ايلغازي الأرتقي مع جنوده التركمان ، وسقمان القطبي أمير ميافارقين ، الذي كان يشتهر بأنه شاه أرمينيا . وبوصول أنباء تلك الحشود الإسلامية ، قام بلدوين (أوف لو بروج) بإيفاد جوسلين إلى القدس متوسلاً إلى الملك بلدوين إرسال تعزيزات عاجلة ، ومعه عن ريته في تشجيع تنكريد للأعداء . وأغار أصدقاء تنكريد ، من جانبهم ، بهجوم مماثل على بلدوين ، وإن كان أقل خطورة . وكان الملك بلدوين مشغولاً في حصار بيروت ، ولم يكن ليتحرك إلا بعد الاستيلاء عليها . غير أنه سارع بالانطلاق شمالاً متجنباً انطاكية ، اقتصاداً في الوقت من ناحية ولأنه لا يثق في تنكريد من ناحية أخرى ، ووصل أمام الرها في نهاية شهر يونيو . وبينما كان يقترب من المدينة لحقت به القوات الأرمينية التي أرسلها كواسيل وأمير البيرة وأبو الغريب ، زعيم البهلوان . وكان مودود يحاصر الرها منذ شهرين . وعندما لاحت في الأفق رايات فرسان القدس وبريق دروعهم تعكسه أشعة الشمس ، تراجع إلى حران وفي مأموه أن ينصب لهم كميناً ويهاجمهم هجوماً خاطفاً^(١٨) .

(١٧) Albert of Aix, xi, 3-13, pp. 664-8, 685-6; Ibn al-Athir, p.274.

(١٨) -Albert of Aix, xi, 16-18, pp. 670-2, Matthew of Edessa, cciv, pp. 270-3; Ibn al Qalanisi, p.103

وأطل بلدوين أوف لى بروج من قلعته منبسط الأسارير لمقابلة ابن عمه وسيده . ثم انه سرعان ما اشتكى تنكريد . فأرسل الملك مبعوثا إلى انطاكية يستدعى تنكريد فى قواته لينضم إلى الائتلاف المسيحي ولكى يرد على الاتهامات . وتردد تنكريد . على أن مجلسه الكبير أصر على الامتثال للاستدعاء . وفور وصوله وجه اتهامات مضادة إلى بلدوين أوف لى بروج قائلا إن مقاطعة أسروين التى تقع فيها الرها كانت دائما تعتمد على انطاكية طوال تاريخها، وانه سيدها الشرعى . فرد عليه الملك بلدوين في صرامة بأنه بصفته الملك المختار، ولكونه رئيسا للعالم المسيحي الشرقى ، يطلب من تنكريد أن يتصالح مع بلدوين (أوف لو بروج) ، وفى حالة رفض تنكريد واستمراره فى كيد المكائد مع الأتراك، فليس هو بأمير مسيحي وسيلقى حربا لا هوادة فيها باعتباره عدوا لهم . وآيد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تنكريد إلى التصالح^(١٩).

١١١٠ م : إخلاء الريف الرهاوى

وانطلق الجيش الفرنجى المتحد بطارد مودود الذى واصل تقيقره ليستدرج الفرنج إلى أرض معادية منتويا الالتفاف حوله بانحراف مفاجئ إلى الشمال . وأنذر الملك بلدوين فى الوقت المناسب ، فتوقف لمحاصرة قلعة شنار الواقعة إلى الشمال الغربى من حران . وهناك تبعثر الإئتلاف . إذ سمع تنكريد شائعات تقول إن رضوان الحلبي يعد العدة للهجوم على أنطاكية ، وجاء رسل من فلسطين يخبرون الملك بتحريك مصرى يهدد القدس . فتقرر التخلي عن حملة الجزيرة ، وعاد تنكريد إلى سميساط ، وقرر بلدوين (أوف لو بروج) - بناء على نصيحة الملك - عدم جدوى محاولة حماية الكوتية شرقى الفرات ، وتساقطت عبراته وهو يشاهد ما أحدثه مودود من خراب أثناء محاصرة الرها ، وخطط عدم الاحتفاظ بحاميات إلا فى القلعتين الكبيرتين أورفا وسروج وفى بعض الحصون القليلة الأصغر ، والتوقف عند أية محاولة لحراسة الحدود بعد الآن . ونصح السكان المسيحيين بالارتحال إلى الأراضى الأكثر أمانا على الضفة اليمنى للنهر الكبير ، فأخذوا بنصيحته . إذ جمع مسيحيو الريف ، وأغلبهم من الأرمن ، متعلقاتهم وتحركوا تحركا بطيئا باتجاه الغرب . على أن جواسيس مودود أخبروه بما كان يجرى تدبيره ، فأسرع فى آثارهم . وعندما وصل إلى نهر الفرات كان القادة الفرنج قد عبروا

Albert of Aix, xi, 20-4, pp.672-4; Fulcher of Charters, ii, xliii, 1-6, pp. 532-41; Ibn (١٩) al-Qalanisi, p.102

السهر فعلا ، ولكن القارين الكبيرين كانا عمليين فوق الطاقة بالجنود ، ففرقا قبل أن يعبر المدنيون . فانقض عليهم وهم على حالهم دون سلاح ، ولم يفلت من القتل رجل أو امرأة أو طفل إلا فيما ندر . وكانت هذه الإبادة الرهيبة للفلاحين الأرمن بمثابة ضربة لم تبرا منها المقاطعة تماما قط . فبرغم أنهم لا يعول عليهم سياسيا ، إلا أنهم كانوا أثرياء ويقومون بالأعمال الشاقة . وربما يستمر أمراء الفرنج في حكم الرها نفسها لسنوات قليلة تالية ، ومع ذلك ثبت أن مصير السيادة الفرنجية عبر الفرات هو الفشل المحتوم ، ومن ثم دمار رعاياهم التعساء من المسيحيين الوطنيين الخاضعين لهم^(٢٠) .

وفى سورة الغضب عاد بلدوين (أوف لو بورج) على رأس كتيبة عبر النهر للانتقام من مودود . لكن رجاله كانوا فاقدى الحيلة أمام عدوهم الذى يفوقهم عددا ، وهم هالكون لا محالة ، لولا أن اسرع الملك بلدوين لنجدتهم ومعه تنكريد الذى جاء على مضض^(٢١) .

وعاد الملك بلدوين جنوبا . ورجع تنكريد لمعاينة رضوان على خيائته بالإغارة على أراضيه . فهاجم حصن النقرة الواقع عبر الحدود مباشرة واستولى عليه ، ثم اتجه إلى مدينة الأثارب التى تبعد عن حلب بنحو عشرين ميلا . ولم يخف أي من زملاء رضوان المسلمين لنجدته ، فحاول أن يعرض على تنكريد ثمنا لرحيله ، لكن الثمن كان باهظا للغاية . وتوقفت المفاوضات بقرار خازن رضوان إلى معسكر تنكريد ومعه جزء من ثروة سيده . وفى نهاية الأمر سحقت آلات تنكريد أسوار مدينة الأثارب ، فاستسلمت المدينة فى شهر أكتوبر ١١١٠ م . وكان ثمن السلام الذى تكلفه رضوان هو مدينة الأثارب ، وزردنا الواقعة قليلا إلى الجنوب ، وعشرين ألف دينار ، وعشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة^(٢٢) ثم سار تنكريد لمهاجمة شيزر وحماه واشترى أمير شيزر من بنى منقذ فترة هدنة قليلة بأربعة آلاف دينار وجواد آخر . على أنه عندما انتهت الهدنة فى ربيع ١١١١ م عاد تنكريد وبنى حصنا قويا على تل يحاور فى ابن معشر يستطيع منه مراقبة كل شريك من المدينة أو إليها . ثم استولى على حصن بسكراثيل الواقع على الطريق من شيزر إلى اللاذقية . ودفع أمير حمص ألفي دينار كي يُترك فى

Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, xi, 7, p. 464; Matthew of Edessa, cciv, p. 273; Ibn al-Qalanisi, p. 103-4. (٢٠)

Albert of Aix, xi, 25, p. 675 (٢١)

Matthew of Edessa, cciv, p. 274; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 243; (٢٢)

سلام^(٢٣).

وكان هناك عاملان اثنان أسهما في نجاح تنكريد . الأول أن البيزنطيين كانوا غير مهياين لهجوم مضاد . وقد تسبب موت قلج أرسلان سنة ١١٠٧م في أن بات الموقف في الأناضول مائعا، إذ أسير ابنه الأكبر ملكشاه في موقعة الخابور ، وهو الآن في قبضة السلطان محمد . واستولت أرملة على ملطية والمقاطعات الشرقية لابنها الأصغر طغرل . وكان ابنه الآخر مسعود يعيش في بلاط الدانشمند . بينما استولى ابن رابع ، وهو عربي ، على قونية فيما يبدو . وكان السلطان محمد يخشى أن يستولى مسعود أو طغرل على الميراث كله ، فأطلق سراح ملكشاه الذي وطّد نفسه في قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان في جحود للعرفان^(٢٤) ولم يكن انهيار الحكومة المركزية السلجوقية مفيدا تماما لبيزنطة ، إذ راح السلاجقة يغيرون إغارات عديدة لاسمولة على الأراضي البيزنطية؛ غير أن الامبراطور الكسيوس تمكن من احتلال مختلف القلاع الحدودية، ومع ذلك كان عازفا عن المخاطرة بحملة على كيليكيا أو سوريا^(٢٥) وكان لسليته تلك المفروضة عليه أن عادت بالفائدة لا على تنكريد فقط ، وإنما أيضا على كواسيل الارميني الذي أقدم على تقوية امارته في جبال طوروس الشرقية ، وربما بموافقة الامبراطور ، ومن ثم أفلح في صد الهجمات التركية . وأما الأمراء الروبيون في طوروس، وهم الأكثر تعرضا للعدوان السلجوقي ، فلم يتمكنوا من زيادة قوتهم ، ومنعهم تنكريد من التوسع في كيليكيا ، وهكذا غدا كواسيل سيدا بلا غريم في العالم الأرمني^(٢٦).

انتشار الحشاشين

ولقد ظهرت طائفة جديدة ومدمرة في العالم الاسلامي أضافت مزيدا من الفائدة لتنكريد وفواجع أكثر لأية قوة اسلامية مضادة للصليبيين . فخلال العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر أسس حسن الصباح في فارس هيئة دينية ، عرفت فيما بعد بطائفة الحشاشين ، ونظمها تنظيما جيدا . وكان حسن قد تحول إلى المذهب الاسماعيلي الذي

(٢٣) Albert of Aix, xi, 43-6, pp. 684-6; Usama, ed. Hitti, pp. 95-6;.

(٢٤) See Cahen, *op. cit.* pp. 253-4. Michael the Syrian, iii, pp. 194-5; Ibn al-Qalanisi, p. 81 (a vague story)

(٢٥) Anna Comnena, xiv, i, v-vi, pp. 141-6, 166-72. See Chalandon, *op.cit.* pp.254-6.

(٢٦) عن كواسيل انظر: Matthew of Edessa, clxxxvii, pp 258-9; ccx, pp.281-2.

يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وغدا خبيرا بالباطنية وخباياها الخفية ، وطور تعاليمه على نفس اللاهوت الصوفي المجازي الاسماعيلي ، لكنها تعاليم غامضة ، على أن انجازها البارز يعتبر عمليا بصورة اكبر ، وهو انشاء نظام تتمثل وحدته في الطاعة العمياء لأوامره باعتباره السيد الأعظم ، واستخدم هذا النظام في اغراض سياسية موجهة ضد الخلفاء العباسيين في بغداد الذين تحدى شرعيتهم ، وبصورة أخص ضد أعوانهم من الأسياد السلاجقة الذين ساعدت قوتهم على بقاء الخلافة العباسية . وكان سلاحه السياسي الرئيسي هو الاغتيال^(٢٧) Assassination . وكانت الطوائف المبتدعة في الاسلام دائما ما تمارس الاغتيال في سبيل العقيدة ، على أن حسن الصباح افلح في الارتفاع به إلى مستوى عاليا من الكفاءة . إذ أن ما كان أتباعه عليه من تكريس لا مساءلة فيه واستعدادهم للارتحال إلى اماكن قاصية والمخاطرة بأرواحهم تنفيذاً لأوامره ، قد مكّنه من أن يضرب أى خصم له في أى مكان في العالم الاسلامى . وفى سنة ١٠٩٠م اتخذ حسن مقره في القلعة المنيعه (الموت) ، أى عش النسر ، في خراسان . وفى سنة ١٠٩٢م قام بأول اغتيال قتل فيه الوزير الأكبر نظام الملك الذى كان على جانب من الاقتدار بحيث يعد بمثابة الدعامة الرئيسية للأسرة الحاكمة السلجوقية في إيران . وتزداد أسطورة متأخرة تضيف إلى هول هذا العمل ، تقول إن نظام وحسن ، ومعهما الشاعر عمر الخيام ، كانوا من يتلقون العلم معا من أستاذهم العالم موفىق النيسابورى . وأقسموا جميعا على أن يساعد كل منهم زميله مدى الحياة . وكان سلاطين السلاجقة مدركين تماما للخطر الذى استحدثه الحشاشون ، لكن محاولاتهم للقضاء على قلعة عش النسر بءت كلها بالفشل . وبعد منعطف القرن مباشرة ، سرعان ما أنشئ مقر للحشاشين في سوريا احتضنه رضوان الحلبي الذى كان دائما على علاقة سيئة بنى عمومته السلاجقة ، وربما كان عميق التأثير بمذهب الحشاشين ، فضلا عما كان لزعيمهم أبى طاهر ، الصائغ الفارسى ، من نفوذ كبير على رضوان . وكانت كراهية الحشاشين للسنيين تجاوز كراهيتهم للمسيحيين وربما كان استعداد رضوان للتعاون مع تنكريد يعزى بدرجة كبيرة إلى تعاطفه مع معتقدهم . وكان اغتيال جناح الدولة أمير حمص عام ١١٠٣م أول أنجاز للحشاشين في سوريا ، وبعد ثلاث سنوات اغتالوا خلف ابن ملاعب أمير أمافيا ، على أنه لم يستفد من موته سوى فرنج انطاكية . وعلى الرغم

(٢٧) (المترجم) كلمة assassinate ، ومشتقاتها في سائر اللغات الأوروبية ، بمعنى الاغتيال ، مأخوذة من الكلمة العربية "حشاشين" نظرا لما كان أناع حس الصباح يقدمون عليه من جسارة فائقة في زمن الحملات الصليبية

من أن الحشاشين لم يكشفوا عن سياستهم ، حتى ذلك الوقت ، إلا باغتيالات متفرقة ، فقد كانوا بمثابة عنصر من عناصر السياسة الاسلامية ، دفع حتى المسيحيين إلى أن يحترموه^(٢٨).

١١١١ م : ائتلاف إسلامي جديد

وفي سنة ١١١١ م شرع مودود ، حاكم الموصل ، فى اعداد العدة مرة اخرى لتسيير جيش لمهاجمة الفرنج ، تنفيذا لأوامر سيده السلطان . وفى أوائل تلك السنة كان أهالى حلب حائقين على حاكمهم لما كان عليه من خروج على الدين وخضوع لتتكريد ، فأرسلوا وفدا إلى بلاط الخليفة فى بغداد للحث على اعلان الجهاد الذى يخلصهم من تهديد الفرنج . على أن الوفد لم يجد سوى وعود خاوية ، فاستشار أهالى بغداد فحدثت أعمال شغب أمام مسجد القصر . وفى تلك الآونة استقبل الخليفة سفارة من الامبراطور جاءت من القسطنطينية ، وكانت مثل هذه السفارات شيئا عاديا ، إذ كانت لكل من القسطنطينية وبغداد مصالح مشتركة فى معاداة الأسرة الحاكمة السلجوقية . بيد أنه يبدو أن الامبراطور الكسيوس اعطى تعليماته لمبعوثيه هذه المرة لمناقشة السلطات الاسلامية فى امكانية القيام بعمل مشترك ضد تنكريد^(٢٩) ؛ وقد أسهمت تلك المفاوضات فى أن أعلن المشاغبون أن الخليفة المسلم أسوأ من الامبراطور المسيحي . واستشعر الخليفة المستظهر الخطر من هذا الحماس ، لاسيما وان الاضطرابات أعاقته عن استقبال زوجته على النحر الذى يليق بها لدى عودتها من زيارة ابيها السلطان محمد فى اصبهان^(٣٠) ، فما كان من الخليفة الا أن أرسل إلى حميه الذى اصدر من فوره تعليماته لمودود بإنشاء تحالف جديد تحت قيادة ابنه الصغير مسعود . ووضع مودود فى قائمة التحالف المساعدة التى سيقدمها سقمان صاحب ميافارقين ، واياز بن

(٢٨) عن الحشاشين ، انظر von Hammaer فى *Histoire de l'Order des Assassins* ، وانظر كذلك مقال "الحشاشين" Assassins و "الاسماعيلية" Ismaili فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam* Brown; *Literary History of Persia*, vol. II, pp. 193 ff.

(٢٩) Ibn al-Qalanisi, *op. cit.* pp. 112-13 ، يقول ابن القلانيسى إن الامبراطور (الذى يطلق عليه لقب الممتلك ، بمعنى "المغتصب" 'userper') أرسل يحذر المسلمين من مخططات الفرنج ، ويقول ضمنا إن السفارة زارت دمشق . وربما لم يقترح الكسيوس سوى عمل موجه ضد تنكريد ، إذ لم يجد تأييدا من أي من زعماء الفرنج فى محارلته حمل تنكريد على تنفيذ معاهدة ديفول (انظر Ibn al-Athir, pp. 279-80 ، يورد ابن الأثير وصول السفارة الى بغداد نقلا عن ابن حمدون. Ibn Hamdun.

(٣٠) Ibn al-Athir, *loc. cit.*

إيلغازي ، والأميرين الكرديين أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجا صاحب أربل ، وبعض نبلاء النرس بزعامة برسق بن برسق صاحب همدان . وفي يولية أصبح الحلفاء على اهبة الاستعداد ، فانطلقوا في سرعة خاطفة عبر الجزيرة المحاصرة قلعة جوسلين في تل بشير . ولدى انتشار البأ أرسل اليهم (سلطان) أمير شيزر يستحثهم على الاسراع لتحذته . ورأى رضوان أن من السياسة أن يرسل اليهم للاسراع اليه ، إذ لا يستطيع الصمود طويلا ضد تنكريد . وتأثر مودود بما طرأ على وجدان رضوان من تغيير ، وعملا باقتراح أحمديل - الذي كان على علاقة سرية بجوسلين - رفع مودود الحصار عن تل بشير وسار بالجيش قاصدا حلب . غير أن رسالة رضوان كانت تخلو من الاخلاص ، فما أن اقترب الحلفاء المسلمون حتى أغلق رضوان البوابات دونهم واتخذ جانب الحيلة باعتقال الكثير من وجهاء المواطنين والقي بهم في السجن رهائن منعاً لأعمال الشغب . فأسقط في يد مودود . فما كان منه إلا أن حَرَّب البلاد حول حلب ثم سار جنوبا إلى شيزر حيث انضم اليه طفتكن الدمشقي الذي جاءه طلبا لمساعدته على استعادة طرابلس^(٣١).

أما تنكريد ، الذي كان معسكرا أمام شيزر ، فقد انسحب إلى أفاميا وأرسل إلى الملك بلدوين مستنجدا ، فاستجاب الملك واستنفر جميع فرسان الفرنج في الشرق . فجاء معه البطريق جيلين وتابعاه الرئيسيان في المملكة وهما إيوستاس جارنييه حاكم صيدا وولتر حاكم الحليل ، وصحبهم بتراند حاكم طرابلس في الطريق . ومن الشمال جاء بلدوين من الرها مصطحبا تابعيه الكبارين جوسلين حاكم تل بشير وباجان حاكم سروج . واستدعى تنكريد تابعيه من النواحي المحيطة بالإمارة الانطاكية ، فأحضر جوى - الملقب بالجدى - من طرسوس وريتشارد حاكم مرعش ، وجوى - الملقب خشب الزان - أمير حارم ، وروبرت حاكم السويدية ، ولونز حاكم تل مناس ، ومارتان حاكم اللاذقية ، ويونابولس حاكم سرمد ، وروجر حاكم هاب ، وإنجراند حاكم أفامية ، وأرسل كل من كواسيل والروبيون كتيبة أرمينية ، حتى أوشين حاكم لامبرون أرسل القليل من الرجال ربما كان دورهم يقتصر على التجسس نيابة عن الاميراطور . وبذا خلا الشمال من الجنود ، فكانت فرصة سائحة لطغرل ارسلان صاحب ملطية ، فقام على الفور بانتزاع البستان من الحامية الفرنجية الصغيرة واستولى على الجوار المحيط

Ibn al-Qalanisi, pp. 114-15; Kemal ad-Din, pp. 600-1; Ibn al-Athir, p. 282, Albert of (٣١) Aix, xi, 38, p. 681

بها، ثم قام بغارة داخل كيليكيا^(٣٢).

١١١١ م : فشل مودود

وإزاء هذا التركيز الفرنجي الذي بلغ قوامه ستة عشر ألف رجل ، انسحب مودود بحذر داخل أسوار شيزر رافضا استدراجه في معركة تم الإعداد لها بعناية ، لاسيما وان الامور لم تكن على مايرام في جيشه . فأما طغتكين فقد رفض المساعدة ما لم ينتقل مودود باتجاه الجنوب ، وفي ذلك مجازفة بالغة من الناحية الاستراتيجية ، وأما برسق الكردي فكان مريضا ورغب في العودة إلى بلاده ، وأما سقمان فقد مات فجأة وانسحب جنوده شمالا مع جيشه ، وأما أحمديل فسرعان ما تخلى كي يحاول انتزاع شيئا من الميراث ، وبقي اياز الأرتقى ، غير أن اباه ايلغازي هاجم الركب المصاحب لنعش سقمان في محاولة لم يكتب لها النجاح للاستيلاء على كنزه . ومع تقلص قوات مودود شيئا فشيئا ، لم يتمكن من المبادرة بالهجوم ، فضلا عن أنه كان عاجزا عن تمضية الشتاء وهو على هذا البعد البعيد من قاعدته ، فعاد إلى الموصل في الخريف^(٣٣).

وأظهر الفشل عدم استطاعة المسلمين رد الهجوم على الفرنج طالما بقي الفرنج متحدين ، وما هذه الوحدة إلا ما أحبرهم عليه الملك بلدين ، وبذا استطاع أن ينقذ ما أرسى الفرنج دعائمه في تلك المرحلة . وفي الصيف التالي أغار مودود على أراضي الرها ، وكان لغارته ثمارها لكنها لم تكن غارة حاسمة ، هذا في الوقت الذي أقدم فيه طغتكين على عقد تحالف مهلهل مع رضوان ، متكرما عليه نوعا ما، إذ حاول رضوان حث أصدقائه الحشاشين على قتله^(٣٤) ، على أن الخطر الاسلامي تبدد في تلك المرحلة. وكان حتما أن يعاود المسيحيون الشجار فيما بينهم مرة أخرى . فأولا ، قرر الفرنج مهاجمة كراسيل الذي أدت قوته الصاعدة إلى إثارة مشاعر الغيرة لدى بلدوين الأورفي وتنكريد ، فأغار تنكريد على أراضي واستولى على رعبان وراح

(٣٢) Matthew of Edessa, c. 1140, pp. 682-3; Albert of Aix, xi, 39-40, pp. 682-3; Michael the Syrian, iii, 275, p. 205. ويذكر ميخائيل السوري الاستيلاء على البستان.

(٣٣) Fulcher of Charters, ii, xlv, 1-9, pp. 549-57; Albert of Aix, xi, 41-3, pp. 683-4.

(٣٤) Kemal ad-Din, pp. 601-2; Albert of Aix (xi, 43, p. 684) ويذكر ألبرت الاستيلاء على عزاز في ذلك الوقت تقريبا، غير أن عزاز كانت ما تزال في حوزة المسلمين عام ١١١٨ م (انظر أدناه ص ١٦٤).

بعد العدة لحاصرة كيسوم قبل احلال السلام بينهما^(٣٥) ؛ وبعد ذلك تحول بلدوين كونت الرها فجأة ضد ابن عمته جوسلين . فقد حدث في صيف ١١١٢ م ، عندما كان مودود يهاجم الرها ، أن اكتشف جوسلين مؤامرة ارمينية تستهدف تسليم المدينة للمسلمين ، فأخطر بلدوين وبذا انقذه واشترك معه في معاقبة الخونة . غير أن بلدوين سمع في الشتاء التالي شائعات تقول أن جوسلين تحدث عن خلعه ليحل محله ، إذ كانت اقطاعية تل بشير إقطاعية غنية بينما تعاني أراضي الرها بقسوة من الغارات واضطرار السكان إلى الهجرة . وكان الأرمن يخبرون جوسلين بينما يحملون الكراهية لبلدوين الآن . ولم يكن في تصرفات جوسلين ما يؤكد رغبة بلدوين التي ربما كانت قائمة على اساس العيرة . وفي نهاية العام استدعى بلدوين جوسلين بدعوى المرض وضرورة مناقشة مسألة استخلافه . وعندما وصل جوسلين ، دون أن تخافه أدنى رغبة ، فرجى باتهامه بالتفاس عن امداد الرها بما يكفي من الأطعمة من أراضيه ، والقي به في غيابة السجن . ولم يطلق سراحه الا بعد أن وعد بالتنازل عن الاقطاعية . وفي بداية العام التالي تقريبا رحل جنوبا إلى القدس حيث أقطعه الملك بلدوين إمارة الجليل^(٣٦) .

١١١٢ م : موت تنكريد

شهد شمال سوريا تغيرات أخرى كثيرة في سنة ١١٢١ م . إذ مات كواسيل يوم ٢١ أكتوبر ، فسارعت ارملة إلى اغداق تنكريد بالهدايا كي تضمن مساعدته في استخلاف ابنها بالتبني واسيل دغا ، فأرسلت ضمن ما أرسلت تاجها المرصع بالجواهر المخصص للأميرة سيشيليا ، غير أن تنكريد كان يشتهي الميراث لنفسه^(٣٧) . ومن بين امراء الفرنج ، كان ريتشارد (أوف برنسيبات) قد مات في وقت ما من الربيع^(٣٨) ، ومات برتراند كونت طرابلس في يناير أو فبراير ، ولم يكن ابن برتراند الصغير وولي العهد (بونز) يشارك أباه حبه للبيزنطيين ولا كراهته لتنكريد ، وربما كان يحلسه يعتقد

(٣٥) Matthew of Edessa, cciv, pp 280-1

(٣٦) William of Tyre, xi, 22, pp.489-92; Matthew of Edessa, ccviii, p 280, مثير الأروفي إلى وجود مؤامرة ضد الفرنج أثناء حصار مودود؛ Chron. Anon. Syr., p.86, Ibn al-Qalanisi, op. cit. p 131

(٣٧) Matthew of Edessa, ccx, pp 281-2

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 127 يقول إن نأ وفاة برتراند وصل دمشق يوم ٣ فبراير.

أن حسن نوابا تنكريد ضرورية كى يوطد الكونت الشاب مكانته ، ومن ثم حرت مصالحة بين بلاطي طرابلس وانطاكية مما ضخم من نفوذ تنكريد^(٣٩) . وتأكدت سيادة تنكريد ، إذ بات جوسلين مخزيا ، وهذا كونت طرابلس صديقه ، ولقى أمير الأرمن العظيم حتفه ، فراح يعد العدة لحملة يقهر بها كواسيل ويضم اراضيه ، لولا أن سقط مريضا فجأة . وترددت الهمسات حتما عن السم ، على أن الراجح هو مرض التيفود . وإذا أيقن من عدم شفائه من مرضه ، سُمى ابن اخيه روجر (أوف ساليرنو) ، وهو ابن روجر (أوف برنسبات) ، ورثا له . على أنه أجبر روجر على أن يقسم على تسليم السلطة لابن بوهمند الصغير لو جاء الصبي إلى الشرق ، وفي ذات الوقت طلب من بونز أن يتزوج من أرملة الفرنسية التى لم يين بها - سيشيليا الفرنسية . ومات يوم ٢١ ديسمبر عام ١١١٢م ولم يجاوز السادسة والثلاثين^(٤٠) .

وليست شخصية تنكريد ساطعة بوضوح بين طيات ضباب التاريخ . كان بالغ النشاط والقدرة ، وكان دبلوماسيا حصيفا ، وجنديا بارزا ، وكان له حكمة تتزايد كلما تقدم به العمر . لكنه كان يفتقر إلى السحر الذى كان يحيط بخاله بوهمند . ولا يبدو أنه كان محبوبا بين رجاله ، بخلاف كاتب سيرته المثلث - رادولف (أوف كاين) . وكان رجلا صعبا ، دائم الاهتمام بنفسه ، متجردا من المبادئ الخلقية . وكان منضبطا مع بوهمند ، ومع ذلك تصرف حياله بالغدر ، كما كان غادرا مع رفيقه بلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذى لا يقل عنه عنادا وإنما يفوقه فى سعة الأفق ، لتسببت طموحاته فى أن يمضى إلى غاية المدى فى تحطيم فرنج الشرق ، إذ كان يتطلع إلى ترسيخ اماره انطاكية وتضخيمها ، وقد اصاب فى ذلك نجاحا بالغنا ، ولولاه لتداعى ما أسسه بوهمند . وما تاريخ أمراء انطاكية الطويل إلا ثمرة نشاطه . ولم يكن من بين جميع أمراء الحملة الصليبية الاولى سوى الملك بلدوين ، وهو المغامر المقلس كشأنه ، الذى تركت حياته أثرها هناك . ومع ذلك ، وبينما كان محمولا ليدفن فى رواق كتدرائية القديس بطرس ، لم يجد المؤرخون ما يورخونه من مشاهد الحزن عليه سوى القليل . وكان المؤرخ الوحيد الذى كتب عنه بجملة وتفجع لموته هو ماثيو الأورفى الأرمني Matthew of Edessa^(٤١) .

(٣٩) ييلر ان (بونز) قد التحق لبعض الوقت بعائلة تنكريد ، وتلقى منه لقب فروسيته.

(٤٠) Fulcher of Charters, ii, xlvi, i, pp 562-3 (12 December); Albert of Aix, xii, 8, p.693 (about Advent);

(٤١) Matthew of Edessa, loc. cit. وصفه بأنه "أعظم المخلصين أجمعين" .

وتحقق الرفاق بين الفرنج بتولى روجر اماره انطاكية - وقد اتخذ لنفسه لقب الإمارة على الرغم من اعترافه بحق ابن بوهمند فى المطالبة بها. وتزوج من سيشيليا اخت بلدوين كونت الرها^(٤٢) وبرغم ما اشتهر به من انه زوج غير مخلص ، كان دائما على علاقة طيبة بأخى زوجته . وأصبحت اخته ، ماريا، الزوجة الثانية لجوسلين (أوف كورتناي)^(٤٣) وتزوج بونز امير طرابس من أرملة تنكريد ، سيشيليا الفرنسية ، نزولا على رغبة تنكريد ، وغدا صديقا دائما لروجر^(٤٤)، ووجد بين الامراء الثلاثة اتفاقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى . ونتيجة لهذا التضامن النادر الحدوث ، وتحدد النزاعات فيما بين المسلمين فى الوقت ذاته ، ارتفعت السيادة الفرنجية فى شمال سوريا إلى اقصى ذروتها.

١١١٣م : موت مودود ورضوان

وشرع الملك بلدوين عام ١١١٣م فى حملة ضد طغتكى صاحب دمشق الذى أفلح اخيرا فى الحصول على مساعدة مودود وأباز الأرتقى . واستدرج الحلفاء المسلمون الملك بلدوين إلى الأراضى الدمشقية حتى جسر الصنيرة أعلى نهر الأردن . ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخى جانث الحذر ، فلهفته هزيمة منكرة^(٤٥)، فاستنجد بالأميرين بونز وروجر لمساعدته . ولولا وصولهما مع جميع فرسانهما لما استطاع الملك أن ينجو بنفسه . وتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى جوار طبرية ، لكنهم لم يغامروا بمواجهة الجيش الفرنجى كله . وبعد اسابيع قليلة من التردد عاد مودود

(٤٢) William of Tyre, xi, 9, p. 523، يطلق على روجر زوج اخت بلدوين ، وكذلك يفعل Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131. ويرد اسم سيشيليا فى ميثاق عام ١١٢٦م (Rhich, Regesta, Additamenta, p. 9) ويعطى Orderic Vitalis, x, 23, iv, p. 158 لروجر زوجة تركية اسمها ميلاز، وهى ابنة امير الدانشمند التى - بناء على روايته - ضمنت اطلاق سراح بوهمند . انظر اعلاه.

(٤٣) لم تكن ماريا لتعرف لولا شجار نشأ لاحقا بسبب بانثتها. انظر ادناه الصفحتين ١٦١ و ١٨١ . ويرد فى تاريخ مجهول Chron. Anon. Syr. أن جوسلين تزوجها عام ١١٢١م (ص ٨٩) ، غير انه من الواضح ان الزواج تم تربيته فى حياة روجر . واعتبرت ابنتهما (ستيفانى) عجوزا فى عام ١١٦١م - انظر ادناه ص ٣٦٢ ، الملحوظة ١

(٤٤) استنادا الى رواية Albert of Aix (xii, 19, p. 701) ، لم يتم الزواج حتى عام ١١١٥م . على انه يبدو أن ابن بونز (رموند الثانى) كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة عام ١١٣٦م.

(٤٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 132-6

وطغتك إلى دمشق . وهناك ، وفي آخر يوم من شهر سبتمبر ، وبينما كان مودود يخطو إلى داخل المسجد الكبير مع مضيفه، انقض عليه أحد الحشاشين وطعنه في مقتل . وفي الحال قتل طغتك القاتل ليبرئ نفسه من الجريمة. ورغم أن الرأي العام اعتبره مذنباً، إلا أنه التمس له العذر تأسيساً على أن مودود كانت له مخططاته حيال دمشق^(٤٦).

وتحرر الفرنج بموت مودود من عدو مرعب . وبعد مرور شهرين ، مات رضوان صاحب حلب في ١٠ يناير ١١١٣م^(٤٧) ، وكانت علاقاته الباردة مع رفاقه المسلمين ذات عون كبير في توطيد الفرنج في سوريا ، على أن الإسلام لم يستفد كثيراً بغيابة عن الساحة ، إذ خلفه ابنه ألب ارسلان الذي كان صبياً في السادسة عشرة من عمره ، وكان ضعيفاً فاسداً به قسوة وخاضعاً خضوعاً تاماً لخصميه المفضل لؤلؤ . أما الحشاشون، الذين كانوا في حماية رضوان قبل موته ، فقد عاملهم الحكم الجديد بجفاء ، بناءً على الأوامر الصريحة من السلطان محمد . الذي أرسل مبعوثه ابن بديع الفارسي وأحجر ألب ارسلان على اصدار أمر بقتل أبي طاهر وغيره من قادة الطائفة . وانطلق سكان حلب النافرين من الحشاشين منذ وقت طويل يقتلون من تناله أيديهم . وجاهدت الطائفة تدافع عن نفسها ، فحاولت الاستيلاء على القلعة بينما كان رضوان يختصر، لكن المحاولة باءت بالفشل^(٤٨) . ثم حاول افراد الطائفة مباغته قلعة شيزر أثناء أن كانت أسيرة الأمير تشاهد احتفال المسيحيين بعيد الفصح ، غير أن أهل المدينة شاركوا الأمير في مقاومتهم ، وكان نجاحهم الوحيد هو الاستيلاء على حصن قلعة القريب من بالس حيث يقترب طريق حلب بغداد من الفرات ، وبخلاف ذلك تحولوا إلى السرية أو لاذوا بحماية الفرنج ، غير أنهم كانوا لا يزالون اقوياء وبدأوا يحولون انتباههم إلى لبنان^(٤٩) ولم يدم عهد ألب ارسلان طويلاً . وعندما ذهب في زيارة ودية إلى دمشق استقبله طغتك استقبال الملوك . على أنه حدث في سبتمبر ١١١٤م أن ارتاع الخصي لؤلؤ من تصرفاته الوحشية حتى أنه كان يخشى على حياته، فدبر قتله في فراشه ونصب مكانه على العرش أخاه سلطان شاه البالغ من العمر ست سنوات . وخلال السنوات القليلة التي

(٤٦) Ibid. pp. 137-42

(٤٧) Ibid, p. 144; Kemal ad-Din, p. 602.

(٤٨) Ibn al-Qalanisi, pp 145-6; Kemal ad-Din, pp 603-4. See Cahen, op. cit pp 267-8.

(٤٩) ((Ibn al-Qalanisi, pp 146-8; Usama, ed. Hitti, pp.146,153) ولم يذكر أسامة تاريخاً للمحاولة في شيزر.

تلت كان لؤلؤ وضابطه شمس الحواس يسيطران على القلعة ويتحكمان في جيش حلب، وان كان وجهاء المدينة هم الذين يمسكون بزمام السلطة الحقيقية ، ولم يكن لؤلؤ ليحرز على اقبال رغباتهم. ونتيجة لغياب أمير قوى عن حلب، فضلا عن ضالة جيشها، باتت عاجزة لاتقدر على أكثر من الدفاع عن أسوارها . وبرغم إبعاد الحشاشين ، اعتبر حيرانها أن هناك ميلول شيعية خطيرة لدى السلطة الجديدة بسبب النفوذ الفارسي في المدينة ، مما أوجد لدى لؤلؤ الاستعداد لمواصلة السير على الدرب الذي سار عليه رضوان باقامة صداقة خافعة مع فرنج انطاكية^(٥٠).

وفي أعقاب موت مودود أمر السلطان بأن يوكل حكم الموصل إلى مثله لدى بلاط الخليفة ، أقنقر الرسقي ، وهو جندي تركي ابتسم له الحظ كسلفه . وكان من بين واجباته ادارة العمليات ضد الفرنج . ففي شهر مايو ١١١٤م قاد جيشا قوامه خمسة عشر الف رجل لمهاجمة الرها ، وبصحبه ابن السلطان مسعود ثميرك أمير سنقار، وتركي صغير يدعى عماد الدين زنكي ، وهو ابن أقنقر الأسبق الذي كان حاكما لحلب وحماه في السنوات السابقة على الحملة الصليبية . واستدعى ايلغازي حاكم مردين للانضمام للحملة، لكنه رفض ، فكانت الخطوة الاولى هي السير إلى مردين الأمر الذي اضطر ايلغازي إلى الرضوخ فأرسل ابنه أياز على رأس كتيبة من جنود التركمان . وحاصر المسلمون الرها طوال شهرين ، غير أن حاميتها كانت قوية ولدى المدينة الكثير من المؤن ، بينما لم يكن الريف المنهوب صالحا لإطعام القنارات المحاصرة ، ومن ثم اضطر الرسقي إلى رفع الحصار واكتفى بنهب الريف إلى أن أتاح له الأرمن مجالا جديدا للعمل^(٥١).

١١١٦م : سقوط واسيل دغا

بعد مؤامرة الأرمن عام ١١١٢م لتسليم الرها لمودود ، حُبكت مؤامرة ثانية وقت أن كان غزو مودود للأراضي الفرنجية وشيكا ، وبينما كان بلدوين في تل بشير يتسلم اقطاعية جوسلين . واكتشفت المؤامرة في الوقت المناسب . وفي صرامة طرد بلدوين السكان الأرمن جميعا من عاصمته فانتقلوا إلى سيمساط . وفي بدايات سنة ١١١٤م ،

(٥٠) Ibn al-Qalanisi, pp. 148-9; Kemal al-Din, pp 605-6

(٥١) Matthew of Edessa, ccxii, pp 282-3; ccxvi, p 287; Chron Anon. Syr p 86, Ibn al-Athir, pp 292-3

وبعد أن لقنهم الدرس سمح لهم بالعودة ، غير أن البعض كان قد ذهب إلى أراضي واسيل دغا - وريث كواسيل - الذى استشعر الخطر بطريقة ما من محاولات فرنجية تستهدف ميراثه . والآن قام هو وأمه التى تبنته بدعوة البرسقى لتخليصهما من الفرنج ، فأرسل البرسقى أحد ضباطه - سنقر الطويل - للتفاوض مع واسيل دغا فى كيسوم . وسمع الفرنج بذلك ، وهاجموا سقر والأرمن ، ولكن دون جدوى . على أنه قبل أن ينتهز المسلمون هذا التحالف الجديد دب خلاف بين البرسقى وأياز الأرتقى فسجن الأول الثانى . وما أن سمع ايلغازى - وهو أبو أياز - بذلك حتى استنفر عشيرته وسحب جنوده التركمان وهاجم البرسقى وهزمه شر هزيمة وأجبره على الانسحاب إلى الموصل . ومرة أخرى تنتهى الحملة الاسلامية المضادة للصليبية بالإخفاق التام^(٥٢).

ودفع الأرمن الثمن . إذ تقدم الفرنج لمعاقبة واسيل دغا ، ولم يتمكنوا من اقتحام عاصمته المنيعه رعبان . على أنه رأى من الحكمة التحالف مع الأمير الأرمينى توروس الذى دعاه إلى الحضور لمناقشة زواج تحالف ، لكنه اعتقله وسجنه وباعه لبلدوين كونت الرها . ولم يطلق سراح واسيل دغا إلا بعد وعد بالتخلي عن أراضيه كلها لبلدوين كونت الرها ، وسمح له بالذهاب إلى القسطنطينية للتقاعد . وبعد أن ضم بلدوين رعبان وكيسوم سنة ١١١٦م قرر إخضاع الامارات الأرمينية المتبقية فى وادي الفرات . وبدأ فى سنة ١١١٧م بخلع أبى الغريب حاكم البيرة ، وهو الذى سبق أن ساعده بلدوين أبان الحملة الصليبية الاولى فى تنصيب نفسه ، وأعطى مدينة البيرة لابن خالته - واليران أوف لي بويسيه - الذى تزوج ابنة أبى الغريب . وبعد ذلك أغار على باجرات - شقيق واسيل فازيل - فى لورديته الصغيرة فى خوروس الواقعة غربى الفرات ، وهو العدو السابق والصديق اللاحق لبلدوين الأول . وأخيرا اكتسح أراضي حليف آخر من حلفاء بلدوين ، هو الأمير قنسطنطين الجارجارى ، الذى اعتقله وسجنه فى سيمساط حيث وقع فيها زلزال أهلك هذه الضحية التعسة . وسرعان ما وجد الأمير الأرمينى نفسه العاهل الوحيد الأرمينى المستقل الباقي ، مما جعله يشعر بالرضا . على أن الشعب الأرمينى - باستثناء الروبيين - كان قد فقد الثقة فى الفرنج^(٥٣).

وكان تقلص الخطر من الشرق أحد العوامل التى ساعدت بلدوين كونت الرها فى

(٥٢) -Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-4, Michael the Syrian, iii, pp. 216-17; Ibn al Athir, pp. 292-3.

(٥٣) Matthew of Edessa, ccxiii-ccxiv, pp. 293-5. Chron. Anon. Syr. p. 86. شقيقا ليو (أوف لي بوايه) الذى كانت أمه Alice خالة بلدوين الثانى وابنة عم تكريد.

غزواته الأرمنية . وكان العام الذى سبقه زاعرا بالأحداث المثيرة ، ففى نوفمبر ١١١٤م حدث زلزال عنيف تسبب فى خراب الأراضى الفرنجية من انطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . وعلى أثر ما أشيع من أن السلطان محمد يعد العدة لحملة جديدة ، سارع روجر امير انطاكية فى جولة تفقّد فيها حصونة الرئيسية^(٥٤).

١١١٥م : حملة برسق بن برسق

كان السلطان محمد آخر السلاطين السلاجقة العظام . فقد تسلم من اخيه بركياروق دولة متفسخة ، لكنه استطاع فرض النظام فى العراق وايران ، والسيطرة على العرب المتمردين فى الصحراء الشرقية عام ١١٠٨م ، وتمكن من كبح جماح الحشاشين ، وانصاع له الخليفة المستظهر الذى كان كسولا فى قصره يكتب اشعار الحب . غير أن محاولاته فى تنظيم الحملات لطرد الفرنج من سوريا باءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى . وأيقن من أن النجاح لا يتأتى الا بفرض سلطته على الأمراء المسلمين هناك الذين تسببت غيرتهم وعصيانهم فى خيبة مساعيه . فبدأ بارسال ابنه مسعود لمباشرة حكومة الموصل ومن ثم ضمن ولاءها . وفى فبراير ١١١٥م سیر جيشا كبيرا باتجاه الغرب يقوده أمير همدان ، برسق بن برسق ، وفى صحبته أمير الموصل السابق ، جيوش بك ، وكذلك أمير سنجر ، تيمرك ، لمساعدته.

وشعر امراء سوريا المسلمون بالخطر كالفرنج . ولم يكن باستطاعة السلطان محمد أن يعتمد على احد فى سوريا سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجا أمير حمص . وبانتشار انباء الحملة سارع ايلغازى الأرتقى إلى دمشق لتأكيد تحالفه مع طغتكين ، غير انه فى طريق عودته وقع فى كمين اعده له أمير حمص واعتقله . ونتيجة لتهديد من طغتكين ، أطلق أمير حمص سراح ايلغازى شريطة احتجاز ابنه مكانه . وتمكن ايلغازى من العودة إلى مردين وجمع جنوده ثم اتجه غربا مرة اخرى كى ينضم إلى طغتكين ووعد الخصى لؤلؤ بمساعدة الجانيين كليهما . غير انه رأى أن انتصار السلطان ليس فى صالحه ، فانضم إلى طغتكين وايلغازى . وفى تلك الأثناء جمع روجر امير انطاكية قواته واتخذ لنفسه موضعا بجانب الجسر الحديدى عبر نهر العاصى ، حيث عقد معاهدة مع طغتكين وحلفائه - ولا نعرف بمبادرة من - وطلب انضمام جيشهم إلى جيشه امام اسوار اقامية

(٥٤) Fulcher of Charters, II, li, 1-5, pp. 578-80, Water the Chancellor, I, pp. 83-4; Matthew of Edessa, ccxvii, pp 287-9; Ibn al-Qalanisi, p. 149; Kemal ad-Din, p. 607.

الذى يعد مكانا رائعا لمراقبة تحركات برسق عندما يضطر إلى عبور نهر الفرات والتقدم نحو اصدقائه فى شيزر . وقدم الفرنج نحو ألفى فارس وراجل ، وقدم حلفاؤهم المسلمون نحو خمسة آلاف .

ولم يلق برسق أية مقاومة أثناء مروره بجيشه الضخم عبر الجزيرة . وكان فى مأمله اتخاذ حلب مقرا لقيادته ، لكنه عندما علم بانضمام لؤلؤ إلى اعدائه ، وعلى رأسهم طغتكين ، تحول جنوبا لمهاجمة هذا الأخير . وتمكن بمساعدة أمير حمص تمكن من شن هجوم مفاجئ على حماه التى كانت تابعة لطغتكين وفيها الكثير من امتعة الجيش ، وسقطت المدينة وانتهت مما اثار حنق المسلمين المحليين ، ثم إنه اتجه بعد ذلك إلى حصن كفرطاب الفرنجى . وأراد روجر القيام بهجوم مضلل ، غير أن طغتكين أقنعه بخطورة ما يريده ، وبدلا من ذلك طلب الحلفاء مساعدة الملك بلدوين وبونز أمير طرابلس فأسرعا شمالا ، الأول يقود خمسمائة فارس وألف راجل ومع الثانى مائتى فارس والفى راجل ، ودخلا المعسكر فى أفاميا على نيفر الأبراق . أما برسق ، وهو الآن فى قاعدته فى شيزر ، فقد أملت عليه الحكمة الانسحاب نحو الجزيرة . ولقد كان لخدعته فعلها . إذ اعتبر بلدوين وبونز أن سحب الخطر قد انقشعت وعادا أدراجهما ، وانفض جيش الحلفاء . واندفع برسق فجأة عائدا إلى كفرطاب واستولى على القلعة بعد مقاومة ضئيلة وسلمها إلى بنى منقذ . وعلى الفور كاتبه لؤلؤ من حلب - إما بوازع الخيانة أو بدافع الجبن - معتذرا عما سبق من خطاياهم وطالبا ارسال كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل برسق اليه جيوش بك على رأس فيلقه ، وبذا ضعفت قوته . ولم يكن روجر قد سرح جيشه ، وليس بإمكانه انتظار وصول العون من الملك بلدوين ولا من بونز ولا حتى من طغتكين ، وبعد أن استنجد ببلدوين كونت الرها ، رجا البطريق برنارد أن يبارك جنوده وأن يسمح بارسال قطعة من الصليب الحقيقى يأخذونها معهم ، ثم غادر انطاكية يوم ١٢ سبتمبر وسار جنوبا أعلى وادى العاصى إلى شاسيل روج ، بينما سار برسق شمال بطول خط مواز فى داخل البلاد . ولم يعلم أي من الجيشين بموقع الآخر ، إلى أن اندفع داخل المعسكر فى (شاسيل روج) فارس يدعى ثيودور برنفيل كان فى حملة استكشافية ، وقال إنه شاهد جيش السلطان يتحرك فى الغابة باتجاه تل دانيت بالقرب من مدينة سرميد . وفى صباح الرابع عشر من سبتمبر زحف الجيش الفرنجى فوق منطقة جبلية معترضة ، وانقض على برسق بينما كان الجنود يسرون فى غير عناية وامامهم الحيوانات حاملة الأمتعة ، وكانت بعض الكنائس قد توقفت بالفعل لنصب الخيام للاستراحة فترة الظهيرة ، بينما كان بعض أمراء الجيش قد ذهبوا إلى المزارع

المجاورة طلبا للمون ، وذهب البعض الآخر لاحتلال بزاعه . وحينما بدأت المعركة كان برسق وحيدا غاب عنه أكفأ قواده .

١١١٥ م : انتصار الفرنج فى تل دانيت

ولم يكن هجوم الفرنج متوقعا قط . إذ ظهروا فجأة من بين الأشجار واندفعوا بسرعة نحو المعسكر الذى لم يكن مستعدا تماما ، وسرعان ما عمت الفوضى الجيش الاسلامي كله ، وتعذر على برسق لم شمل رجاله ، وكاد هو نفسه أن يقع فى الأسر ، لكنه تمكن من التفهقر مع بضع مئات من الفرسان إلى تل ناتى بالقرب من تل دانيت حيث دحر الأعداء لفترة ، وبذل غاية جهده كي يسقط قتيلًا بدلًا من أن يواجه عار الهزيمة ، غير أن حراسه ألقوه فى نهاية الأمر بعدم جدوى مواصلة القتال فانسحب باتجاه الشرق . وكان حميرك ، أمير سنجار ، أكثر نجاحا بادئ الأمر ودحر ميمنة الفرنج ، لكن جوى فرسل ، أمير هارنس ، أحضر جنودا آخرين وتمكن من أن يحيط برجال سنجار ، ولم يسلم من الفرسان سوى أسرعههم . وبحلول المساء كانت بقايا الجيش الاسلامي تسرع فى غير نظام نحو الجزيرة^(٥٥).

كان انتصار الفرنج فى تل دانيت نهاية محاولات سلاطين ايران السلاجقة لاستعادة سوريا . ومات برسق بعد المعركة بأشهر قليلة من فرط الحزى والمهانة ، ولم يكن السلطان محمد على استعداد للمخاطرة بحملة جديدة . والآن ، أصبح الخطر الوحيد الذى يهدد الفرنج من الشرق هو الأمراء شبه المستقلين الذين كانوا غير متحدين وفى حالة من الإحباط . وغدت مكانة روجر أمير انطاكية فى أعلى درجاتها ، وسرعان ما استرد رجاله كفرطاب التى كان برسق قد سلمها لبني منقذ^(٥٦) . وشعر أمير حلب ودمشق بالخطر الحقيقي ، فسارع الأخير ، طغتكين ، إلى عقد سلام مع السلطان محمد الذى غفر له لكنه لم يقدم له معونة مادية^(٥٧) . وفى حلب قبع الخصى لؤلؤ يرقب

(٥٥) Fulcher of Charters, II, liv, 1-6, pp.586-90; Albert of Aix, XII, 19, p. 701; Walter the Chancellor, I, 6-7, pp.92-6 (the fullest account); al-Azimi, p.509; Ibn Hamdun in Ibn al-Athir, pp.295-8; Usama, ed. Hitti, pp.102-6; Michael the Syrian, III, p. 217; Chron. Anon. Syr.p.86.

(٥٦) Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٥٧) Ibn Hamdun, الذى يقول ان المبادأة جاءت من جانب السلطان, pp. 151-2 loc. cit.

الأحداث وهو فاقد الحيلة ، بينما عزز الفرنج مراكزهم من حوله ، فسعى إلى عقد تحالف أقوى مع طغتكين ، غير انه كان سئ السمعة على اجماله . وفي شهر مايو ١١١٧م اغتاله أنراك من حاميته وخلفه زميل خصي كذلك ، هو الأرمني المرتد ياروقتش ، الذي بادر بطلب مساندة الفرنج ، مانحا روجر حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق الذي يسلكه الحجاج إلى مكة ، كما منحه حق جباية رسوم الحج^(٥٨) . ولم تنفعه تلك التنازلات. إذ بدأ قتلة لولو يتصرفون باسم الإبن الأصغر لرضوان ، سلطانشاه ، الذي لم يعترف به ، فالتمس ياروقتش العون من ايلغازي الأرتقي . بيد انه عندما وصل جنود ايلغازي إلى حلب وجدوا أن ياروقتش قد سقط وأن وزير سلطانشاه ، ابن الملحي الدمشقي ، يتولى ادارة الحكومة ، فانسحب ايلغازي تاركا ابنه ، كزل تمرناش ، ممثلا له في حلب بعد أن استولى على قلعة بالس على الفرات ، وقد منحت له نظير مساعدته فيما لو حاول اليرسقي - الذي يحكم الآن في الرجة - الاستيلاء على حلب التي زعم أن السلطان عهد بها اليه . على أن ابن الملحي أيقن من أن ايلغازي ليس هو الخليف الذي يعتمد عليه تماما ، فقام بتسليم حلب ، وكذلك كزل ابن ايلغازي ، إلى أمير حمص - خيرخان - وأعد العدة لاستعادة بالس بمساعدة الفرنج . بيد أن تحالف ايلغازي مع طغتكين ثبت حديثه . فبينما سار طغتكين إلى حمص وأجبر خيرخان على التقاعد ، حرر ايلغازي بالس ودخل حلب في صيف ١١١٨م . وكان ابن الملحي قد سبق وان استبدل بخصي اسود يدعى ابن قراجا ، فاعتقله ايلغازي وحبسه ومعه ابن الملحي والأمير سلطانشاه^(٥٩) ، وأثناء هذه التحركات والمكائد ، كانت الأطراف جميعا كل بدوره تسعى إلى تدخل الفرنج . ورغم أن روجر لم يكن قط سيدا لحلب نفسها ، إلا انه استطاع احتلال الأراضى الواقعة شمالها ، فاحتل عزاز سنة ١١١٨م ، وبزاعة في أوائل سنة ١١١٩م ، وبذا عزل حلب عن الفرات في الشرق^(٦٠) .

وفي ذات الوقت على وجه التقريب ، كان روجر يعزز حدوده الجنوبية ، فاستولى على قلعة المرقب الواقعة على تل مرتفع يشرف على البحر من وراء بليئاس (بانياس - البلانة)^(٦١) .

(٥٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 155-6.

(٥٩) Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.* Kemal ad-Din, pp. 610-15; Ibn al-Athir, pp. 308-9.

(٦٠) Matthew of Edessa, ccxxvii, pp. 297-8; Kemal ad-Din, pp. 614-15.

(٦١) للاطلاع على المصادر العربية ، انظر المناقشة في 16. Cahen, op. cit. p. 279 n. ويدو ان بونز أمير

وهكذا ، وبنهاية سنة ١١١٨ م ، أصبح هناك توازن فى شمال سوريا . إذ غدا الفرنج جانباً مقبولا فى غط البلاد . وكانوا لا يزالون بعيدين عن الكثرة العددية ، غير أن تسليحهم كان جيداً ، وراحوا يشيدون القلاع ويتعلمون كيف يكيفون انفسهم مع نمط الحياة المحلى . فضلاً عن أنهم كانوا آنذاك متحدسين ، وكان روجر أمير انطاكية أعظم امراء المسيحيين فى الشمال إلى حد بعيد ، ولم يسبب تعاظمه امتعاضاً من جانب بلدوين كونت الرها ولا من هونز أمير طرابلس ، ولم يحاول من جانبه أن يتسبد عليهما وإنما شاركهما الإعتراف بسيادة ملك القدس . علي أن الأمراء المسلمين كانوا أقوى نفيراً ، لكن الفرقة سادتهم والغيرة غلبتهم ، ولم يجنبهم الفوضى سوى التحالف بين طغتكين والأراقة ، ومن ثمّ كان التوازن يميل بصورة طفيفة لصالح الفرنج . ولم تكن هناك قوة خارجية فى وضع يمكنها من الإخلال بهذا التوازن . إذ ليس بمقدور الملك بلدوين التدخل دائماً فى الشمال خشية تهديد الفاطميين فى مؤخرته ، كما أن سلطان ايران السلجوقي كفى بعد كارثة تل دانيث عن أية محاولة فعلية يؤكد بها سلطته فى سوريا . كما كانت القوات الرئيسيتان فى الأناضول ، بيزنطة وسلاجقة الروم ، فى وضع متوازن وقتئذ.

١١١٨ م : صدع فى الكنيسة اليقوبية

بل كان المسيحيون الوطنيون فى حالة توازن كذلك . ذلك أن الرعايا الأرمن فى الرها وأنطاكية كانوا بعيدين عن الأوهام وكان بهم غدر ، وكانت الدولة الأرمنية الوحيدة الحرة الباقية ، وهى إمارة الروبين فى جبال طوروس ، على استعداد للتنسيق مع الفرنج . فقد سبق أن أحضر أميرها (ليو) كتيبة لمساعدة روجر أمير انطاكية فى حصار عزاز^(٦٢) ، وحدث صدع فى الكنيسة اليقوبية أدى إلى انقسامها ، وفى سنة ١١١٨ م تقريباً تشاجر رئيسها البطريرق أناناسيوس ، الذى كان مقيماً فى انطاكية ، مع مطرانه فى الرها ، بار صابونى ، حول ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قراراً بحرمانه من المهام الكنسية . وإثارة منه للمشاكل ، لجأ المطران بار صابونى إلى بطريق

طرابلس ساعد روجر بعد خلاف طفيف حول بائة زوجة هونز ، وهى أرملة تنكريد ، سيشيليا ، التى كانت تطالب بمنحها جبلة ، غير أنها رضيت أخيراً بشاسيل روج وأرذغان (William of Tyre, xiv, 5, p. 612).

(٦٢) Matthew of Edessa, loc. cit. ، وعن تاريخ الروبين انظر. pp. 168 ff. Tournébeze, op. cit.

انطاكية اللاتينية ، برنار ، الذى استدعى أثناسيوس لمناقشة المسألة فى مجلس كنسى يعقد فى الكندرية اللاتينية . فجاء أثناسيوس معترضا . ونتيجة لعجز المترجم فهم برنار أن الخلاف يدور حول دُين خاص بين الأسقفين ، فأصدر حكمه على أثناسيوس متهما إياه بارتكابه السيمونية^(٦٣) ، لأنه لم يغفر للمدين . فاهتاج أثناسيوس لهذا الحكم ولم يعترف بصحته ولم يفهم معناه ، وأعرب عن احتجاجه بألفاظ فظة ، فما كان من البطريق برنار إلا أن أمر بجلده . وكان هناك صديق أرثوذكسى للبطريق أثناسيوس ، هو الفيلسوف عبد المسيح ، الذى أشار باللجوء إلى روجر أمير انطاكية ، الذى كان بعيدا آنذاك ، للإنتصاف . وغضب روجر على البطريق برنار ووبخه لتدخله فى امر لا يخصه ، وسمح لأثناسيوس بالرحيل من انطاكية عائدا إلى وطنه الأول ، دير مار بارسوما ، حيث أصبح أثناسيوس فى اراضى الأرائقة الذين منحوه حمايتهم . وأصدر حكما على بار صابون بالطرد من الكنسى ، وأخضع الكنيسة يعقوبية فى الرها تحت حكم الحرمان الكنسى ، مما دفع بالكثير من اليعاقبة واهالى الرها ، وقد حرموا من ممارسة طقوسهم الكنسية ، إلى تغيير مذهبهم والتحول إلى المذهب اللاتينى . وأطاع البعض البطريق . ولم يتحقق السلام طوال اعوام كثيرة ، وحتى بعد موت اثناسيوس^(٦٤) .

وكانت الجامع الأرثوذكسية فى انطاكية والرها مستاءة من الحكم اللاتينى ، على أنه لم يكن هناك ما يغويها مطلقا للتآمر مع المسلمين ، غير خلاف الأرمن واليعاقبة ، وانما كانت تتعهد فى حسرة تلهفا على عودة بيزنطة . على أن ما كان يوحد بين الأرمن واليعاقبة من اشتزاز إزاء الأرثوذكس كان بمثابة كايح لقوتهم .

١١١١م - ١١١٣م : مفاوضات بيزنطة مع الغرب

ومع ذلك ، وبرغم خشية فرنج الرها - بحق - من امكان ظهور خطر جديد فى الشرق ، ظلت بيزنطة العدو الرئيسى فى نظر فرنج انطاكية . ذلك أن الامبراطور الكسيوس لم ينس قط مطالبته بأنطاكية . وكان على استعداد للإعتراف بمملكة لاتينية فى القدس ، فقد اظهر حسن نواياه ببذل فدية سخية لإطلاق أسرى الفرنج لدى

(٦٣) (المترجم) السيمونية : شراء أو بيع المناصب الكهنوتية.

(٦٤) Michael the Syrian, III, pp. 193-4, 207-10.

الفاطميين من الرملة عام ١١٠٢ م ، وبوجود سفنه فى حصار عكا عام ١١١١ م الذى لم يكن فعالا . أما الملك بلدوين فكان من ناحيته دائم الكياسة والانضباط فى تصرفه حيال الامبراطور ، غير انه رفض ممارسة اى ضغط على تنكريد لتنفيذ بنود معاهدة ديفول^(٦٥) . ومنذ ايام الحملة الصليبية عام ١١٠١ م ، والعلاقات الفرنجية البيزنطية تلفها غيوم الريبة ، بينما لم تغفر القسطنطينية مطلقا تدخل البابا باسكال نيابة عن بوهمند عام ١١٠٦ م . وكان الكسيوس سياسيا لئى العريكة بصورة فائقة بحيث لم يدع للإستياء مجالا فى ساسته . وكان خلال عامى ١١١١ و ١١١٢ م يجرى سلسلة من المفاوضات مع البابا ، من خلال وسيطه رئيس دير مونت كاسينو . واستمال السلطات الرومانية بأن وعددها بتسوية الخلافات المتعلقة بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، وذلك لكى تقدم له أو لابنه تاج الغرب الامبراطورى ، واقترح أن يذهب بنفسه لزيارة روما . وكان البابا باسكال يعانى آنذاك من مصاعب حسيمة مع الإمبراطور هنرى الخامس ، ولذا كان على استعداد لدفع لمن غال لقاء مساندة بيزنطة ، على أن الحروب التركية واعتلال صحة الكسيوس حالت دون المضى فى مشروعه^(٦٦) . وأسفرت المفاوضات عن لاشئ . وفى عام ١١١٣ م ، قام رئيس اساقفة ميلانو ، بطرس كريسولان ، بزيارة القسطنطينية لمناقشة بعض الأمور الكنسية^(٦٧) غير أن جدله اللاهوتى مع اسقف نيقية ، ايوستراسيوس ، لم تساعد على بقاء العلاقات طيبة بين الكنيستين . والراجح أن الكسيوس نفسه لم يأخذ مخططة الايطالى الطموح مأخذًا جادا . وانما كانت للصدقة البابوية قيمتها لديه كرسيلة لكبح الطموحات النورماندين ولتعزيز سلطته على اللاتينيين فى الشرق .

وفى ذات الوقت لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا شيئا لاستعادة انطاكية . فقد ظلت معاهدة الإمبراطور مع بوهمند خطابا لا حياة فيه ، ولم يغض عنها تنكريد نظره فحسب ، وانما أضاف إلى اراضيه المزيد مما اغتصبه من البيزنطيين ، وسار روجر على نفس الدرب الذى سار عليه تنكريد . وكان الكسيوس يعلق الآمال على أن يصبح أمراء طرابلس عملاءه فى سوريا ، وقدم أموالا تحفظ فى طرابلس لتمويل المشاريع البيزنطية

(٦٥) Anna Comnena, xiv, ii, 12-13, pp. 152-3.

(٦٦) Chalandon, *op.cit.* pp. 260-3 with full references. انظر

(٦٧) Landolph, in Muratori, Ss. R.I. vol. v, p. 487; Chrysolan's speeches in M.P.L. vol. cxxvii, col. 911-19; Eustratius's speeches in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1, p. 15.

الطرابلسية المشتركة . على انه بموت برتراند ، اختار ابنه بونز التعاون مع الأنطاكيين ، ولذا قام بتوحيده ، السفير البيزنطى فوق العادة لدى الدويلات اللاتينية ، بالمطالبة باسترداد تلك الأموال ، لكنه لم يحصل عليها الا بعد أن هدد بقطع المون التى تصل طرابلس من قبرص ، ثم رأى من حصافة رأى إعادة الذهب والجواهر الثمينة إلى بونز لأنها كانت ممنوحة لبرتراند شخصيا ، وفى مقابل ذلك أقسم بونز بمين السواء للإمبراطور ، وربما كان ذلك هو قسم عدم الإضرار الذى سبق أن أقسمه جده ريموند . واستخدمت بيزنطة الأموال التى استردتها فى شراء الخيول للجيش البيزنطى من دمشق والرها والجزيرة العربية^(٦٨).

١١١٢م - ١١١٥م: حروب سلجوقية ضد بيزنطة

كان من الواضح عدم امكان اغواء بونز كى يعمل ضد انطاكية ، بينما حال النشاط التركى دون تدخل الامبراطور بصورة مباشرة فى سوريا . ومنذ أن مات الملك غازى انوشكين الدانشمندى عام ١١٠٦م ، وقلج أرسلان السلجوقى عام ١١٠٧م ، لم يعد فى الأناضول عاهل تركى عظيم . وكان بإمكان الكسيوس الحفاظ على سلطته شيئا فشيئا فى مناطق الأناضول الغربية وبطول الساحل الجنوبى ، ما لم ينصرف انتباهه إلى النورماندين . وأتذلك ، حاول الأمير البارز حسن أمير كبادوكيا الإغارة على الأراضى البيزنطية عام ١١١٠م ، وتقدم حتى فيلادلفيا مستهدفا أزمير . وقد عهد الكسيوس مؤخرا إلى إيوستاثيوس فيلوكان ادارة الأراضى الواقعة غربى الأناضول وكلفه بتطهير المقاطعة من الأتراك . فتمكن بقواته القليلة من ملاحقة جيش حسن الذى كان منقسما إلى فرق شتى مغيرة هزمها الواحدة تلو الأخرى ، وتقهقر حسن بسرعة ، فباتت سواحل بحر إيجه آمنة من الغارات . على انه فى نفس ذلك العام ، أطلق سراح ملكشاه - أكبر أبناء قلج أرسلان - من الأسر الفارسى ، فاتخذ من قونية عاصمة له ، وسرعان ما سيطر على أغلب ميراثه بعدما هزم حسن وضم أراضيه . وأخذ العبرة من مصير أبيه فتحجب التورط فى الشرق . لكنه سرعان ما شعر بأن لديه مايكفى من القوة ، فانطلق يستعيد الأراضى التى فقدتها قلج أرسلان فى زمن الحملة الصليبية الأولى . وشرع فى الأشهر الأولى من سنة ١١١٢م فى الإغارة داخل الامبراطورية متحها إلى فيلادلفيا حيث صدّه القائد البيزنطى جابراس ، فتفاوض على هدنة . غير انه أغار مرة

اخرى عام ١١١٣م ، وسير حملة عاجلة انطلقت خلال بيثينيا ووصلت أسوار نيقسية ذاتها ، بينما توغل قائده محمد إلى بومانيوم الأبعد إلى الغرب حيث هزم القائد البيزنطي وأسره ، وأغار قائده الآخر منالوك على أييدوس الواقعة على الدردنيل ذات الإيرادات الكثيرة من الجمارك ، وهاجم ملكشاه نفسه برجاموم واستولى عليها . وانطلق الامبراطور للملافة المغيرين ، لكنه أثر الانتظار والامساك بهم في طريق عودتهم محملين بالأسلاب الكثيرة . وانقض عليهم اثناء مرورهم من دوريليوم بالقرب من كورثايوم وظفر بهم تماما واستعاد كل ماكان بحوزتهم من أسلاب وأسرى . وفى عام ١١١٥م ترددت أنباء بأن ملكشاه يعد العدة لمعاودة الاغارة ، فأمضى الكسيوس وقتا طويلا من العام يطوف تلال بيثينيا ، وفى العام التالى ، وبرغم اشتداد مرضه ، قرر أخذ زمام الهجوم بنفسه ، فسار جنوبا باتجاه قونية والتقى بالجيش التركى بالقرب من فيلوميلىوم ، وانتصر مرة اخرى وأجبر ملكشاه على التوقيع على معاهدة سلام تعهد فيها باحترام حدود الامبراطورية التى كانت تسيطر آنذاك على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية فى كيليكيا وغرب أنقره الداخلى ، والصحراء المالحة وفيلوميلىوم . وفشلت محاولات ملكشاه فى معاودة الغزو . وبعد أشهر قليلة خلعه أخوه مسعود عن عرشه وقتله بعد أن تحالف مع الدانشمند . غير أن الأتراك ظلوا متحصنين بصورة راسخة فى قلب الأناضول . وباتت بيزنطة عاجزة عن أخذ زمام الهجوم فى سوريا . وكان أهم المستفيدين من هذه الحروب الأرمن فى جبال طوروس وأمير انطاكية الفرنجى^(٦٩) .

الباب الثانى:

الذروة

الفصل الأول:

الملك بالدوين الثانى

الملك بلدوين الثاني

"لَا يُعَدُّ لَكَ رَجُلٌ عَنْ كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ"

(الملك الأول ٩ : ٥)

أهمل الملك بلدوين آخر واجبات الملوك . فلم يوصي بمن يخلفه على العرش . وانعقد مجلس المملكة على عجل . وبدا لبعض النبلاء أن خروج التاج من بيت آل بولونيا أمر غير وارد . فقد خلف بلدوين الأول أخاه جودفري ، ومازال هناك أخ ثالث هو إيوستاس ، كونت بولونيا ، أكبر الثلاثة . فأرسل الرسل على عجل بطريق البحر لإبلاغ الكونت بوفاة أخيه والتماس حضوره لتسلم الميراث . بيد أن إيوستاس كان عازفا عن مغادرة بلده المليء بالمسرات والرحيل إلى الشرق بما فيه من مخاطر ، لكنهم أخبروه أن ذلك واجب ينبغي له القيام به . فانطلق إلى القدس ، لكنه عندما وصل أبوليا قابل رسلا آخرين حاملين الأنباء بأنه قد قضى الأمر ، واستخلف غيره . ورفض اقتراحا بأن يواصل رحلته ويحارب دون حقوقه ، فعاد على الأثر إلى بولونيا وهو غير

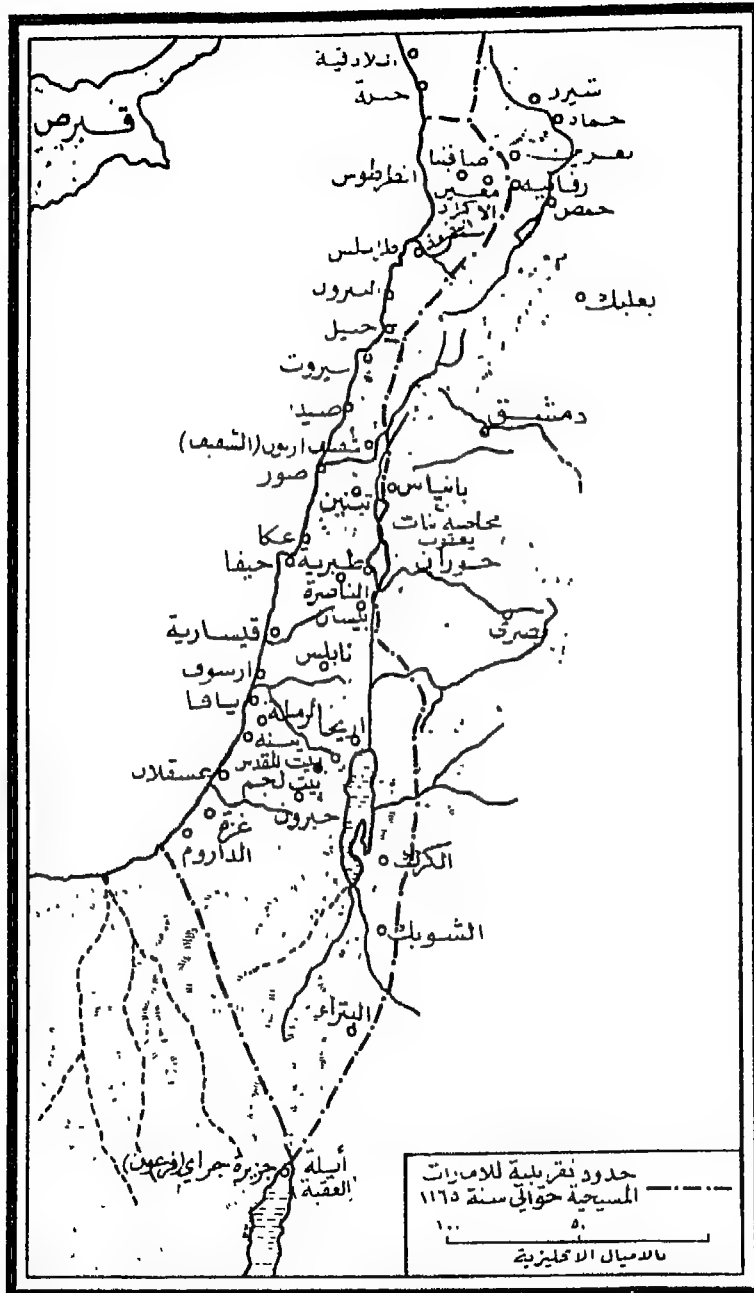
كاره^(١).

وما حدث فى واقع الأمر أن القلة من أعضاء المجلس هى فقط التى أبدت استخلافه. ولقد كان بعيدا ، الأمر الذى يعنى بقاء العرش خاليا لأشهر كثيرة . وكان أكثر أعضاء المجلس نفوذا هو جوسلين (أوف كروتناى) أمير الجليل ، الذى طلب منح العرش لبلدوين (أوف لو بورج) ، كونت الرها . وقد اتخذ جانب الحذر وهو يذكّر أعضاء المجلس بأنه ليس هناك ما يجعل بلدوين محبوبا لديه هو شخصا ، إذ سبق أن اتهمه بلدوين بالخيانة زورا وبهتانا ، وأمر بنفيه من أراضيه فى الشمال . غير أن بلدوين رجل اقتدار وشجاعة ، وهو ابن عم الملك الراحل ، وهو الوحيد الباقى على قيد الحياة من فرسان الحملة الصليبية الأولى العظام . فضلا عن ذلك ، كان فى تقدير جوسلين أنه إذا غادر بلدوين الرها إلى القدس، فإن أقل ما يفعله لابن عمه الذى كافأه بسخاء على الإساءة أن يعهد إليه بكونتية الرها . ولقى اقتراح جوسلين تأييدا من البطريق أرنولف ، وراحا معا يستحثان المجلس على الموافقة . وفى نفس اليوم الذى شُيعت فيه جنازة الملك ، وكما لو كان الأمر حسما لمناقشة المجلس ، ظهر بلدوين (أوف لو بورج) فجأة فى القدس . وربما سمع بمرض الملك فى العام الذى قبله ، ولذا رأى من المناسب القيام بحج الفصح إلى الأراضى المقدسة . واستقبل بمشاعر البهجة ، وانتخبه المجلس ملكا بالإجماع . وفى يوم أحد الفصح ، ١٤ ابريل ١١١٤ م ، وضع البطريق أرنولف التاج على رأسه^(٢).

وكان بلدوين الثانى كرجل يختلف عن سلفه اختلافا كبيرا . فبرغم ما كان عليه من وسامة ، بلحيته الطويلة الشقراء ، غابت عنه الهيبة التى كان يتصف بها بلدوين الأول . كان أيسر لقاء ، أنيسا، مغرما بخفة الظل ، لكنه كان فى ذات الوقت حاد الذهن ، ماكرا ، أقل انفتاحا ، وأقل طيشا، وأكثر ضبطا للنفس . كان ذا مقدرة على الإتيان باللفتات الضخمة ، لكنه على الجملة كان وضيعا خاليا من الكرم. وبرغم تعسفه فى الشؤون الكنسية ، كان عظيم الورع ، وكانت ركبته متورمتين من كثرة الصلاة . وعلى خلاف بلدوين الأول ، لم يكن هناك ما يعيب حياته الخاصة ، إذ ضرب هو وزوجته مورفيا الأرمنية مثلا رائعا على السعادة الزوجية المثالية ، وهو أمر

(١) William of Tyre, XII, 3, pp. 513-16 ولا نعلم على وجه اليقين الترتيبات التى أعدها ليولونيا . وقد ماتت زوجته ، ماري الاسكتلندية عام ١١١٦ م .

(٢) Fulcher of Charters, III, i, 1, pp. 615-16; Albert of Aix, XII, 30, pp. 707-10; William of Tyre, XII, 4, p. 517.



خريطة رقم (٢) جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

كان نادرا في الشرق الفرنجي^(٣).

وكوفي حوسلين كما توقع بكونتية الرها باعتباره تابعا للملك بلدوين ، تماما كما كان بلدوين نفسه تابعا لبلدوين الأول . كما اعترف كل من روجر امير انطاكية ، وهو صهر الملك ، وبنو أمير طرابلس ، بالملك الجديد سيدا أعلى ، إذ كان مقررا أن يبقى الشرق الفرنجي موحدا تحت تاج القدس^(٤). وبعد أسبوعين من تتويج بلدوين مات البطريق أرنولف . وكان في خدمته للدولة مخلصا ذا كفاءة إلا أنه ، وبرغم براعته التبشيرية ، تورط في عدد ضخم من الفضائح تحول دون احترامه كرجل كنيسة ، ومن المشكوك فيه ما إذا كان بلدوين قد تأسى لموته . وحرص على أن يُنتخب مكانه قس بيكاردي^(٥) هو جورمون البيكوني الذي لا نعرف شيئا عن سابق حياته . وكان اختيارا موفقا ، إذ كان جورمون يشترك مع أرنولف في خصائص عملية تعلوها طبيعة القداسة ، ولقى الإحترام من الكافة . وجاء تعيينه في اعقاب موت البابا باسكال مؤخرا ، وبذا بقيت العلاقات طيبة بين القدس وروما^(٦).

١١١٩م : غارات في شرق الأردن

لم يكد بلدوين يستقر على العرش حتى سمع الأنباء المشوومة عن تحالف مصر ودمشق. إذ كان الوزير الفاطمي الأفضل متلهفا على معاقبة بلدوين الأول على ما أقدم عليه من غزو متعجرف لمصر، بينما شعر طغتكين في دمشق بالخطر من تعاظم قوة الفرنج . فسارع بلدوين بارسال سفارة إلى طغتكين الذي ، طلب من الفرنج التخلي عن كافة الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن مدفوعا بثقتة من مساعدة مصر. وكان جيش مصري ضخم قد تجمع خلال الصيف على الحدود متخذا موضعه خارج مدينة اشدود ، ووجهت الدعوة لتغطكين كي يتولى قيادته . واستنفر بلدوين مليشيات انطاكية وطرابلس لتعزيز جنود القدس ، وسار جنوبا لملاقاة العدو . وظل الجيشان يواجهان بعضهما البعض طوال ثلاثة أشهر ، لا يجرو أي منهما على التحرك ، إذ كان

(٣) William of Tyre, XII, 2, pp.512-13. (انظر أعلاه ص ٦٧).

(٤) استدعى بلدوين بعد توليه العرش مباشرة كلا من روجر وبنو لقتال المصريين تحت قيادته . (انظر أدناه ص. ١٤٦).

(٥) (المترجم) نسبة الى اقليم بيكاردي التاريخي الواقع شمال فرنسا.

(٦) Albert of Aix, loc. cit.; William of Tyre, XII, 6, p.519

كل فرد - كما جاء على لسان المؤرخ فولشر (أوف تشارتر) - يفضل الحياة على الموت . وفي نهاية الأمر تفرق الجنود في كل من الجانبين عاندين إلى بلادهم^(٧).

وفي تلك الأثناء تأخر رحيل جوسلين . إذ كان وجوده في الجليل أكثر الحاحا من وجوده شمال البلاد ، حيث يبدو أن الملكة مورفا كانت ما تزال هناك ، وحيث كان واليران ، لورد البيرة يتولى الحكومة^(٨) . وكان على جوسلين الدفاع عن الجليل ، باعتباره أميرها ، من غارات دمشق . وفي الخريف شاركه بلدوين في غارة على أذرع في حوران ، وهي بمثابة مخزن حبوب دمشق . وخرج بوري ، ابن طغتكين ، لملاقاتهم ، لكنه هزم لتهوره . وبعد هذه الواقعة حول طغتكين انتباهه إلى الشمال مرة أخرى^(٩).

وفي ربيع ١١١٩م علم جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية ترعى قطعانها شرقي نهر الأردن على نهر اليرموك . فانتطلق لينهبها يصحبه اثنان من بارونات الجليل ، هما الأخوان جودفري ووليم (أوف بور) ، ونحو مائة وعشرون من الخيالة . وانقسمت الجماعة لمحاصرة رجال القبيلة . لكن الأمور سارت مسارا سيئا ، إذ علم رئيس القبيلة والتزم جانب الحذر ، وضل جوسلين طريقه في التلال . وأما جودفري ووليم فقد سقطا في كمين أعد لهما، وقتل جودفري ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وعاد جوسلين تعيسا إلى طبرية وارسل من يختار الملك ، الذي سار شمالا وأدخل الخوف في قلوب البدو فأعادوا الأسرى ودفعوا تعريضا ، وسمح لهم بتمضية الصيف في سلام^(١٠).

وأثناء وجود بلدوين في طبرية للراحة في طريق عودته من هذه الحملة القصيرة ، جاءه الرسل من أنطاكية متوسلين أن يسرع شمالا مع جيشه ، بغاية ما يستطيعه من سرعة.

ذلك أنه منذ انتصار روجر أمير أنطاكية في تل دانيت ، باتت مدينة حلب التعسة لا حول لها ولا قوة في منع العدوان الفرنجي ، وقد أمضتها أن تضع نفسها تحت حماية ايلغازي الأرتقي ، وبعد استيلاء روجر على البزاعة عام ١١١٩م أمست محاصرة من

Fulcher of Charters, III, ii, 1-3, pp. 617-19; William of Tyre, XII, 6, pp. 518. (٧)

Chron. Anon. Syr., p. 86. (٨)

Ibn al-Athir, pp. 315-16. (٩)

pp. 325-6. Ibid. (١٠)

ثلاث جهات . وكانت خسارة البزاعة فوق ما يتحملة ايلغارى الذى لم يكن مند آنذاك ، ولا حليفه الدائم طغتكين صاحب دمشق ، على استعداد للمخاطرة بكامل القوات فى معركة ضد الفرنج ، إذ كانا يخشيان سلاطين الشرق السلاجقة ، بل ويحملان لهم مقتا يفوق الخشية . على أن السلطان محمد قد مات فى ابريل ١١١٨ م ، ومن ثم انطلقت طموحات الحكام وصغار الأمراء فى سائر أنحاء اميراطوريته . وحاول ابنه الشاب ووريثه محمود جاهدا توطيد سلطته إلى أن اضطر أخيرا فى أغسطس ١١١٩ م إلى تسليم السلطة العليا لعمه سنجر ، ملك خراسان ، وأمضى ما تبقى له من حياة قصيرة فى التمتع بمتع الصيد والقنص . وأما سنجر ، الذى كان آخر حكام أسرته على كل الاراضى السلجوقية الشرقية ، فكان مقتدرا بما فيه الكفاية ، غير أن مصالحه تركزت فى الشرق ، ولم يشغل نفسه قط بسوريا ، وكذلك كان شأن ابناء عمومته من سلاجقة الروم ، الذين صرفتهم الخلافات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الدانشمند ، والحروب مع بيزنطة ، عن امكان تدخلهم فى الشؤون السورية^(١١) . وأخيرا اتاحت الفرصة لأكثر الأمراء المحليين عنادا ، ألا وهو ايلغازى ، الذى لم تكن رغبته فى القضاء على الدويلات الفرنجية تفوق رغبته فى الحصول على حلب لنفسه ، على أن هذه الرغبة الأخيرة تحمل فى طياتها الرغبة الأولى.

١١١٩ م : معركة بحر الدم

وخلال ربيع ١١١٩ م راح ايلغازى يجول فى املاكه ، يجمع جنود التركمان ، ويرتب لاستجلاب الكنائس من الأكراد ومن القبائل العربية فى الصحراء السورية . ومن باب الشكليات المحضة طلب المساعدة من السلطان محمود ولم يصله رد . ووافق حليفه طغتكين على الجئ من دمشق ، ووعد بنو منقذ فى شيزر بأن يشغلوا روجر إلى الجنوب من اراضيه^(١٢) . وفى شهر مايو انطلق الجيش الأرتقى الذى قيل أن قوامه بلغ أربعين ألف رجل . وتلقى روجر النبأ رابط الجأش ، غير أن البطريق برنار حثه على طلب المساعدة من الملك بلدوين ومن بونز امير طرابلس . وأرسل الملك بلدوين من طبرية من يقول إنه سيحضر بغاية السرعة التى يستطيعها وسيحضر معه جنود طرابلس ،

(١١) Ibn al-Athir, pp. 318-23. وانظر مقال "Sandjur" و "السلاجقة" Seldjuks فى دائرة المعارف الإسلامية. *Encyclopaedia of Islam*

(١٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 157-7; Kemal ad-Din, pp. 615-16.

وأنه ينبغي لروجر أن ينتظر متخذًا زمام الدفاع . ثم جمع بلدوين جيش القدس وحصّنه بقطعة من الصليب الحقيقي الذي كان تحت رعاية إيفرمار ، رئيس اساقفة قيسارية^(١٣) .

وفي الوقت الذي أغار فيه بنو منقذ على افاميا ، أرسل ايلغازى فصائل التركمان ناحية الجنوب الغربي كي يصنع اتصالا يصله بهم وبالجيش الصاعد من دمشق . وأغار هو نفسه على اراضى الرها ، لكنه لم يذلل اية محاولة للإغارة على عاصمتها الحصينة . وفي منتصف يونية عبر نهر الفرات عند بالس وتقدم ليضرب معسكره فى قنسرين التى تبعد نحو خمسة عشر ميلا جنوب حلب انتظارا لطفتكين . ولم يكن روجر على ما يكفى من الصبر ، إذ انه قرر ملاقة العدو فى الحال ، على الرغم من رسالة الملك ، وبرغم التحذير الصارم من البطريق برنارد ، وبرغم كل التجارب السابقة التى خاضها امراء الفرنج . فقاد جيش انطاكية كله يوم ٢٠ يونية ، وكان مؤلفا من سبعمائة من الخيالة وأربعة آلاف من المشاة ، وعبر به الجسر الحديدى ، وضرب معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، الواقع على الحافة الشرقية لسهل سرمداء ، حيث توفر الأراضى القاحلة دفاعا طبيعيا جيدا . وبرغم ضآلة حجم قواته بكثير عن قوات العدو ، كان يأمل فى امكان الانتظار لحين وصول بلدوين .

وفى قنسرين ، علم ايلغازى تمام العلم بتحركات روجر كلها ، إذ أن عيونه تنكروا فى هيئة تجار وأمعنوا فى فحص معسكر الفرنج ثم أبلغوا ايلغازى بما عليه الجيش الفرنجى من ضآلة العدد . وبرغم أن ايلغازى كان يفضل انتظار وصول طفتكين ، فقد ألح عليه امراؤه التركمان كي يبادر بالهجوم على معسكر الفرنج . وفى يوم ٢٧ يونية تحرك جزء من جيشه لمهاجمة حصن الأتارب الذى كان فى حوزة الفرنج ، وتوفر الوقت لروجر كي يدفع ببعض رجاله إلى هناك تحت قيادة روبرت (أوف فنيه بون) ، ثم ألقاه أن يجد العدو على مثل هذه المسافة القريبة ، وبهبوط الظلام أرسل كل ما كان لدى الجيش من أموال إلى حصن أرتاح الواقع على الطريق إلى أنطاكية .

وظل روجر طوال الليل قلقا يتقرب أخبار تحركات المسلمين ، وهب الجنود من راحتهم على صوت رجل يسير فى نومه ، يجرى فى انحاء المعسكر صائحا إن كارثة قد حلت بهم . وفى فجر يوم ٢٨ يونية اعلن الكشافون للأمر أن المعسكر محاصر . وهبت من الجنوب رياح الخماسين الجافة التى تبعث الوهن فى الأبدان ، ولم يكن فى المعسكر نفسه سوى القليل من الطعام والماء ، ورأى روجر الإندفاع خلال صفوف العدو أو

الهلاك . وكان بطرس رئيس اساقفة افاميا ومن قبل رئيس اساقفة القسطنطينية ، مع الجيش ، وهو أول أسقف فرنجي في الشرق . قام بجمع الجنود في حشد واحد والقي فيهم موعظة واخذ اعترافاتهم جميعا ، واخذ اعتراف روجر في خيمته . ، محه العمران للكثير من آثام بدنه . ثم إن روجر أعلن في ثبات انه ذاهب للصيد إلا أنه أرسل أولا فرقة أخرى من الكشافين وقعت في كمين ، وهربوا قليل من أفرادها من محو من الكمين عائدين إلى المعسكر معلنين أن لا سبيل لاختراق الحصار . وقسم روجر الجيش إلى أربعة اقسام وقسم خامس احتياطي ، وعلى الأثر باركهم رئيس الأساقفة مرة أخرى وانطلقوا في كامل النظام في هجومهم على الأعداء .

على أنه كان هجوما يائسا من بدايته . ولم يكن هناك مهرب من جحافل الخيالة والرماة التركمان . فكان أول من أصيب بالذعر من بين الفرنج ، المشاة المجندين من السريان والأرمن ، لكن لم يكن هناك ملجأ يهربون إليه ، فتزاحموا فيما بين الفرسان ، وبذا أعاقوا الجياد ، وتحولت الرياح فجأة شمالا وزاد هبوبها حاملها معها سحب الأتربة تلقى بها في وجوه الفرنج . وفي مستهل المعركة تمكن عدد يقل عس مئة من فرسان الفرنج من اختراق صفوف التركمان ، وانضموا إلى روبرت (أوف فيه بون) الذي كان عائدا من الأنارب للاشتراك في القتال ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهربوا جميعا إلى انطاكية . وبعد ذلك بقليل ، تمكن رينالد مازوار وفرسان قليلون من الهرب والوصول إلى مدينة سمردا الصغيرة في السهل . ولم يبق على قيد الحياة أحد غير هؤلاء من جيش انطاكية . وسقط روجر نفسه قتيلًا عند قاعدة صليبه الضخم المرصع بالجواهرات ، وسقط حوله فرسانه عدا القليل الذين كانوا أقل حظًا ، إذ أخذوا أسرى . وبانتصاف النهار كان كل شيء قد انتهى . ويطلق الفرنج على هذه المعركة Ager Sanguinis ، بحر الدم^(١٤)

١١١٩ م : ايلغازي ضيّع انتصاره

وفي حلب ، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا ، لبث المسلمون يتقربون الأنباء في

(١٤) William the Chancellor, II, 2-6, pp. 101-111 الذي يورد أكثر الروايات اكتمالا ؛ William of Tyre, II, 9-10, pp. 523-6; Fulcher of Charters, III, iii, 24, pp. 621-3) قصيرا يقول فيه ان الكارثة سببها غضب الرب مما اعتاده روجر من ارتكاب الزنا (Matthew of Edessa, cccxvi pp. 276-7; Michael the Syrian, III, p. 204; Ibn al-Qalanisi, pp. 159-61. Kemal ad-Din, pp. 61618; Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 324-5.) يقول فولشر ان خسائر الفرنج بلغت سبعة آلاف وخمسمائة الاثر اكتمال بعد عنده

قلق . وفي وقت الظهر تقريبا جاءت شائعة بأن نصرا مؤزرا قد تحقق للإسلام ، وفي لحظة الأذان لصلاة العصر شهد أول المنتصرين وهم يقتربون . ولم يمكث ايلغازى فى أرض المعركة الا لتوزيع الغنائم على رجاله ، ثم سار إلى سرمدا حيث استسلم له رينالد مازوار . وتأثر ايلغازى من هيئة رينالد التى بدت رابطة الجنان ، فأبقى على حياته . وسحب المنتصرون الأسرى الفرنج ورائهم عبر الوادى ، وراح التركمان يعذبونهم ويقتلونهم فى حدائق الكروم إلى أن أمر ايلغازى ، الذى كان يفاض رينالد فى تلك الأثناء ، بالكف عن ذلك ، لأنه لم يشأ حرمان سكان حلب من مشهد الأسرى . وسبق من تبقى إلى حلب التى دخلها ايلغازى المنتصر وقت الغروب ، وهناك عذبوا حتى الموت فى الشوارع^(١٥) .

وفى الوقت الذى كان ايلغازى يحتفل فيه بانتصاره ، وصلت انطاكية الأنباء المرعبة عن المعركة ، وتوقع الجميع وصول التركمان لمهاجمة المدينة التى خلت ممن يدافع عنها من الجنود . وفى تخضم الأزمة تولى البطريق برنارد القيادة . وأول ما كان يخشاه خيانة المسيحيين المحليين الذين ذاقوا من أفعاله بهم الأمرين فباتوا مغتربين بين أهل انطاكية ، فأرسل فى الحال من يجردونهم من السلاح وفرض عليهم أمرا بحظر التجول . ثم قام بتوزيع ما جمعه من سلاح على رجال الدين الفرنج والتجار ووضعهم على الأسوار للمراقبة . وظلوا فى حالة تأهب ليلا ونهارا ، بعدما أرسلوا رسولا إلى الملك بلدوين كى يسرع الخطى^(١٦) .

على أن ايلغازى لم يتابع انتصاره . وانما كتب إلى عواهل العالم الاسلامى يخبرهم بنصره ، ورد عليه الخليفة بأن أهده رداء الشرف ولقب نجم الدين^(١٧) . وفى تلك الأثناء سار إلى ارتاح حيث كان أحد الأساقفة قائدا لأحد أبراجها ، فقام بتسليمه إلى ايلغازى مقابل رحيله إلى انطاكية سالما . غير أن رجلا معين يدعى يوسف ، ربما كان من الأرمن ، ومسؤولا عن القلعة التى تحوى ثروة روجر ، اقنع ايلغازى بتعاطفه مع المسلمين لولا أن ابنه محتجز فى انطاكية كرهينة . فتأثر ايلغازى بالقصة وعهد إلى يوسف هذا بالمدينة واكتفى بإرسال احد أمرائه للإقامة كممثل له فى المدينة^(١٨) . وعاد

Kemal ad-Din, *loc. cit.*; Walter the Chancellor, II, 7, pp. 111-13. (١٥)

Walter the Chancellor, II, 8, pp. 114-15. (١٦)

Ibn al-Athir, p. 332. (١٧)

Walter the Chancellor, II, 8, p. 114. (١٨)

من ارتاح إلى حلب حيث توالى عليه سلسلة من الاحتفالات إلى أن ساءت صحته وبدأت معاناته . وأرسل جنود التركمان للإغارة على ضواحي أنطاكية ونهب ميناء السويدية ، لكن التقارير أفادت وجود حاميات قوية في المدينة . وهكذا ضيغ المسلمون ما فازوا به من ثمار معركة بحر الدم^(١٩) .

ومع ذلك كان الموقف حسيما للفرنج . فقد وصل بلدوين اللاذقية ، وبرز وراءه على مقربة ، قبل أن يعلم النبأ . فغذ السير ولم يتوقف حتى لمهاجمة معسكر للتركمان بلا حماية بالقرب من الطريق ، ووصل أنطاكية دون حادثة في الأيام الأولى من أغسطس . وكان إيلغازي قد أرسل بعض جنوده لاعتراض الجيش المنقذ ، واضطر بونز الذي كان خلف بلدوين بمسيرة يوم إلى تفادي هجومهم ولم يتأخر كثيرا . واستقبل الملك استقبالا سارا من اخته الأميرة سيشيليا الأرملة ، ومن البطريق ، ومن كل الناس . وأقيم قداس شكر للرب في كاتدرائية القديس بطرس . وبدأ بتطهير الضواحي من المغتربين ، ثم قابل وجهاء المدينة لمناقشة حكومتها في المستقبل . وكان الأمير الشرعي ، بوهمند الثاني ، الذي كان روجر دائم الاعتراف بحقوقه ، صيبا في العاشرة من عمره يعيش مع امه في إيطاليا ، وليس هناك من بقى لتمثيل البيت النورماندى في الشرق ، إذ هلك الفرسان النورمانديون جميعا في معركة بحر الدم . فتقرر أن يتولى بلدوين نفسه ، باعتباره السيد الأعلى للشرق الفرنجى ، حكومة أنطاكية إلى أن يبلغ بوهمند سن الرشد ، وأن يتزوج بوهمند واحدة من بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع إقطاعيات الإمارة التي تركتها الكارثة بلا أصحاب . وتقرر ، بقدر الإمكان ، أن تتزوج المزمولات اللاتي سقط أزواجهن في المعركة من فرسان يناسبهن من جيش بلدوين أو من الوافدين الجدد من الغرب . ونجد الأرملة الأميرتين أرملة تنكريد ، التي أصبحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، وقد أصبحتا زوجتين لتابعين جديدين للملك على أراضيهما التي هي بمثابة المهر لكل واحدة منهما . وفي ذات الوقت ، يرجح أن بلدوين أعاد ترتيب إقطاعيات كونتية الرها ، وتقرر رسميا تعيين جوسلين ، الذي تبع الملك من فلسطين ، كونت الرها . وبعد أن اطمأن بلدوين لإدارة البلاد ، تقدم موكبا من حفاة الأقدام إلى الكاتدرائية ، ثم قاد جيشا مؤلفا من نحو سبعمائة فارس وبضعة آلاف من المشاة للملاقاة المسلمين^(٢٠) .

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 332-3. واستنادا إلى ما قرره أسامة ، فإن إيلغازي إذا ما شرب الخمر يظل يشعر بأنه خمور مدة عشرين يوما.

(٢٠) -Walter the Chancellor, II, 9-10, pp. 115-18; Fulcher of Charters, III, vii, 13, pp. 633

١١١٩ م : معركة مُحكمة في هاب

والآن انضم طغتكين إلى ايلغازى ، وانطلق الزعيمون يوم ١١ أغسطس للاستيلاء على الحصون الفرنجية الواقعة شرقي نهر العاصى ، بدءا بالآثارب التى استسلمت حاميتها فى الحال مقابل المرور الآمن إلى أنطاكية . وفى اليوم التالى واصل الأميران الزحف على زردنة التى سبق أن غادرها أميرها ، روبرت المجزوم ، إلى أنطاكية ، ومرة أخرى استسلمت الحامية فى مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ، لكن التركمان قتلوهم فور خروجهم من البوابات . وكان بلدوين يأمل فى انقاذ الآثارب ، لكنه ما أن عبر الجسر الحديدى حتى قابل حاميتها . فانطلق جنوبا وسمع بحصار زردنة ، لكنه ارتاب فى أن المسلمين ينوون التحرك جنوبا لتطهير الحصون المحيطة بمعرة النعمان وأناميا ، فسارع بالانطلاق قدما وضرب معسكره فى الثالث عشر فى تل دانيت ، فى نفس مسرح انتصار روجر عام ١١١٥ م . وعلم فى الصباح التالى أن زردنة قد سقطت ورأى من الحكمة التقهقر قليلا ناحية أنطاكية . وفى تلك الأثناء جاء ايلغازى وفى مأموله مباغتة الفرنج وهم نيام بالقرب من قرية هاب . غير أن بلدوين كان مستعدا . إذ أدلى باعتزافه ، وألقى رئيس اساقفة فيسارية موعظة فى الجنود ثم رفع الصليب الحقيقى ليباركهم ، واصبح الجيش على استعداد للقتال .

وساد الاضطراب المعركة . إذ ادعى كل من الجانبين الانتصار ، على أن الفرنج هم الذين فازوا فى الواقع . فقد دحر طغتكين بونز امير طرابلس فى ميمنة الفرنج ، لكن جنود طرابلس حافظوا على صفوفهم . وإلى جانبه هاجم روجر المجزوم كتيبة حمص وقد عقد العزم على استعادة زردنة ، لكنه وقع فى كمين وبات أسيرا . وصمدت ميسرة الفرنج وقلبه ، وفى اللحظة الحاسمة تمكن بلدوين من رمى الأعداء بجنود جدد ، فاستدار عدد من التركمان وهربوا . على أن أغلب جيش ايلغازى غادر ساحة القتال فى نظام جيد . وعاد ايلغازى وطغتكين باتجاه حلب ومعهما صفوف ضخمة من الأسرى ، واستطاعا أن يخبرا العالم الاسلامى أن النصر كان حليفهما . ومرة أخرى أبهج سكان حلب مشاهدة مجزرة للمسيحيين بالجملة ، إلى أن أبدى ايلغازى امتعاضه ، لخسارة الفدية التى كانت يمثل هذا المال الكثير بعد أن اوقف القتل ريثما يجرب جواداً

Orderic Vitalis (xi, 25, vol. iv, p. 245)؛ يذكر أورديريك فيتاليس أن سيشيليا ، كوتيسمة طرابلس ، كانت تستثمر الفرسان بالاقطاع . واستثمرت أرملة روجر بالاقطاع فرسانا فى عام ١١٢٦ م. (Rhrich, Regesta, Additamenta, p.9) وربما انتقلت فى ذلك الوقت مرعش من سيادة أنطاكية الى سيادة الرها.

جديداً. وسُئل روبرت المجزوم عن ثمن فديته فرد قائلا انها عشرة آلاف قطعة ذهبية ، فأرسله ايلغازى إلى طغتكين أملا فى رفع السعر ، لكن طغتكين لم يكن قد روى بعد ظمأه من الدماء . ورغم أن روبرت كان صديقا قديما لطغتكين منذ أيام ١١٥١ م ، إلا أن هذا الأخير أطاح رأسه بنفسه ، مما تسبب فى امتعاض ايلغازى الذى كان يريد مبلغ القدية تسديدا لرواتب جنده^(٢١).

ووصل إلى انطاكية من فر من جيش بونز حاملين معهم أنباء الهزيمة ، لولا أن وصل رسول أرسلته الأميرة سيشيليا ومعه خاتم الملك برهانا على نجاحه . ولم يحاول بلديون نفسه ملاحقة جيش المسلمين ، وإنما اتجه جنوبا إلى معرة النعمان وإلى الروج التى استولى عليها بنو متقذ . فأخرجهم منها لكنه أبرم معهم معاهدة يعفيهم فيها من دفع الجباية السنوية التى سبق أن طلبها روجر . واسترد ما استولى عليه المسلمون من حصون فيما عدا البيرة والأثارب وزردنة ، ثم رجع بلديون إلى انطاكية فى موكب المنتصرين ، وأرسل الصليب المقدس جنوبا ليصل القدس فى الوقت المناسب لعيد ظهور الصليب يوم ١٤ سبتمبر^(٢٢) وأمضى هو نفسه الحزيف فى انطاكية يستكمل ما بدأه قبل المعركة من ترتيبات . وفى ديسمبر عاد إلى القدس تاركا البطريق برنارد لمباشرة حكومة انطاكية نيابة عنه ، بعد أن نصب جوسلين فى الرها^(٢٣) واصطحب معه إلى الجنوب زوجته وبناته الصغيرات اللاتى حضرن من الرها . وفى احتفالات عيد الميلاد فى بيت لحم توجت زوجته مورفيا ملكة^(٢٤).

١١١٩ م : فشل حملة الأراقة

ولم يجازف ايلغازى بمهاجمة الفرنج مرة أخرى ، إذ كان جيشه يتقلص شيئا فشيئا . فقد جاء جنود التركمان من اجل الأسلاب فى المقام الأول ، وبعد معركة تل دانيت بقوا بلا عمل وقد نال منهم الضجر ورواتبهم تأخر سدادها ، فشرعوا فى العودة إلى

(٢١) Walter the Chancellor, II, 10-15, pp. 118-28; William of Tyre, XII, 1112, pp. 527-30; Kemal ad-Din, pp. 620-2; Usama, ed.Hitti, pp. 14950.

(٢٢) (المترجم) عيد ظهور الصليب Exaltation of the Cross ، عيد يحتفل فيه بذكرى ما اشتهر من ظهور الصليب للامبراطور قسطنطين ، واستداده فيما بعد من الفرس.

(٢٣) Walter the Chancellor, II, 16, pp. 129-31; William of Tyre, XII, 12, p. 530.

(٢٤) Fulcher of Charters, III, vii, 4, p. 635; William of Tyre, XII, 12, p. 531

بلادهم ومعهم زعماء العرب من أبناء الجزيرة ، ولم يكن يوسع ايلغازى منعهم من العودة ، إذ سقط هو نفسه مريضاً مرة أخرى وظل يتأرجح بين الحياة والموت لأسبوعين ، وعندما برأ من مرضه كانت فرصة إعادة جمع الجيش قد وُتت ، فغادر حلب عائداً إلى عاصمته الشرقية في ماردين ، وعاد طغتكين إلى دمشق^(٢٥).

وهكذا أخفقت الحملة الأرتقية الضخمة ولم تحقق شيئاً ملموساً للمسلمين ، فيما عدا حصون حدودية قليلة وتخفيف الضغط الفرنجي على حلب . بيد أنها كانت نصراً معنوياً عظيماً للإسلام . ولم يكن صدهم في معركة تل دانيت تعويضاً يوازن الانتصار الرائع في معركة بحر الدم . ولو كان ايلغازى أكثر قدرة ويقظة لفاز بأنطاكية . إذ أن ما حدث من قتل الفرسان النورماندين وأميرهم على رأسهم ، قد شجّع أمراء الجزيرة وشمالي العراق على تجديد هجماتهم ، ولاسيما وأنهم قد تحرروا مما كان سيدهم الأعلى السلجوقي في فارس يمارسه عليهم من وصاية إسمية . وسرعان ما كان مقدراً أن يظهر رجل أعظم من ايلغازى . وأما الفرنج ، فكانت أسوأ نتائج الحملة هي خسارتهم الفادحة من الرجال . فليس من اليسر تعويض من سقطوا في معركة بحر الدم من الفرسان ، والأكثر من المشاء . على أن الفرنج لقنوا الدرس جيداً الآن وهو أن فرنج الشرق ينبغي لهم أن يتعاونوا دائماً وأن يعملوا معاً متحدين . فقد أنقذ الملك بلدوين أنطاكية بتدخله الفوري ، وتحقق ما أمله ظروف الساعة من استعداد الفرنج كافة لقبول الملك على أنه السيد الأعلى النشط . لقد أحدثت الكارثة رقياً فيما أقامه الفرنج في سوريا.

وبعد أن عاد بلدوين إلى القدس راح يشغل نفسه بإدارة مملكته . فاستخلف على إمارة الجليل ولیم (أوف بور) وبقيت الإمارة في أسرته . وفي يناير ١٢٠١م استدعى الملك رجال الكنيسة وكبار حائزي الأراضي في المملكة لحضور مجلس عقد في نابلس لمناقشة النهوض بأخلاقيات رعاياه ، وربما كان ذلك محاولة منه لكبح ما كان يميل إليه المستعمرون اللاتينيون في الشرق مما وجدوه من اعتياد التراخي واليسر ، كما كان مهتماً في الوقت ذاته برفاهيتهم المادية . إذ أنه في ظل بلدوين الأول وجد عدد متزايد من اللاتينيين تشجيعاً على الاستقرار في القدس ، فبدأ ظهور طبقة بورجوازية لاتينية آخذة في التضخم شيئاً فشيئاً إلى جانب المحاربين ورجال الدين في المملكة ، والآن حصلت هذه الطبقة البورجوازية على كامل حرية التجارة من وإلى المدينة ، وفي الوقت

Walter of Chancellor, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, p. 161; Kemal ad-Din, pp. 624-5. (٢٥)

ذاته ، ولضمان الامدادات الكاملة من الطعام ، سُمح للمسيحيين الوطنيين ، بل للتجار العرب استجلاب الخضروات والحبوب معفاة من الرسوم الجمركية^(٢٦).

١١١٨-١١٢٠م: بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان

كان أهم حدث داخلي في تلك السنوات هو إرساء القواعد لأنظمة دينية عسكرية للرهبان الفرسان . ففي عام ١٠٧٠م قام بعض المواطنين الأتقياء من مدينة أمالفى بإنشاء نُزل في القلص لإيواء الفقراء من الحجاج ، وقد سمح الحاكم المصري آنذاك للفنصل الأمالفى باختيار موقع مناسب ، وكرّست المنشأة للقديس يوحنا المتصدق Saint John the Almsgiver ، وهو بطريق الاسكندرية الخير في القرن السابع . وكان موظفو النزل من أبناء أمالفى أصلاً ، وكانوا قد أخذوا على أنفسهم العهود الرهبانية ، ويخضعون لتوجيهات "السيد" الذي كان يخضع بدوره للسلطات البندكتية في فلسطين^(٢٧) . وفي وقت استيلاء الصليبيين على القدس كان "السيد" رجلاً يدعى جيرارد Gerard ، وربما كان من أبناء أمالفى . وقبل بدء حصار القدس نفاه حاكم القدس المسلم من المدينة هو ورفاقه في الدين ، فأفاد الصليبيون من معلوماته القيمة عن الأحوال الداخلية في المدينة . وقد حث الحكومة الفرنجية الجديدة على منح الهبات للمستشفى ، وانضم الكثير من الحجاج إلى موظفيه الذين سرعان ما تحرروا من إطاعة تعليمات البندكتيين ، وراحوا يجمعون الأموال كي يستقل النظام بنفسه تحت اسم "أصحاب المستشفى" the Hospitallers ، ويدنون بالطاعة للبابا مباشرة . وخلعت عليه المزيد من الأراضي ، وقدم له أغلب كبار رجال الدين في الملكة عشور ايراداتهم . ومات جيرارد حوالي عام ١١١٨م وخلفه الفرنسي ريموند اوف لو بوى Raymond of Le Puy ، الذي كانت لديه أفكار أكبر . فاستقر رأيه على أنه لا يكفي لنظامه مجرد إرشاد الحجاج واستضافتهم ، وإنما ينبغي للنظام أن يحارب كي تظل طرق الحج مفتوحة . وكان النظام يضم إخوة كانت واجباتهم سلمية محضة ، بيد أن واجباتهم تحولت الآن إلى رعاية مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود دينية تلزمهم بالبقاء في حالة

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 20; Mansi, *Concilia*, vol. xxi, pp. 262-6; William of Tyre, xii, xiii, p. 531.

(٢٧) (المترجم) التسمية مشتقة من اسم الراهب الإيطالي القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٤٣م). وهو مؤسس النظام البندكتي ويوم أحياء ذكره ١١ يولية. ويسمى أيضا القديس بندكت النورسياني. St. Benedict of Nursia

من الفقر الشخصي والعفة والطاعة ، وتكريس حياتهم لقتال الكفرة . وفى ذات الوقت على وجه التقريب ، وكما لو كان الأمر إعلانا للمركز الأكبر "للمستشفى" ، ودون أن يلحظ أحد ، استعير عن اسم القديس "يوحنا" المتصدق المعلن عنه قديسا راعيا للنظام ، بالحوارى "يوحنا" الرسول . وتميز فرسان المستشفى بعلامة صليب أبيض يضعونها على أرديتهم الكهنوتية فوق لباسهم الحربي.

وساعد على هذا التحول إنشاء فرسان المعبد فى ذات الوقت . وفى واقع الأمر ، فإن فكرة وجود نظام يجمع بين الجانبين الدينى والعسكرى ربما تكون قد نبعت فى ذهن فارس من مقاطعة شامبانيا يدعى هيو اوف باين Hugh of Payens كان قد حث الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م على السماح له بأن يستقر مع بعض رفاقه فى جناح القصر الملكى ، المسجد الأقصى سابقا ، فى منطقة المعبد . وكشأن فرسان المستشفى ، اتبع فرسان المعبد بادئ الأمر النظام البينديكى ، غير أنهم رسّخوا أنفسهم فى الحال تقريبا كنظام مستقل ، بثلاث طبقات : الفرسان ، على أن يجرى فى عروقهم جميعا دم النبلاء ؛ وضباط النظام، الآتين جميعا من الطبقة البورجوازية ، وكانوا هم سائسى الخيول والخدم المشرفين لمجتمع النظام ؛ ورجال الدين ، الذين كانوا القسوس الرعاة المسؤولين عن المهام غير العسكرية . وكانت العلامة التى تميز أعضاء المعبد هى صليب أحمر يوضع على رداء أبيض بالنسبة للفرسان ، وعلى رداء أسود بالنسبة لضباط النظام . وكان أول واجب أخذ عليه القسم لهذا النظام هو الحفاظ على الطريق من الساحل حتى القدس نظيفا من قطاع الطرق ، لكنهم سرعان ما أصبحوا يشتركون فى أية حملة حربية تشترك فيها المملكة . وأمضى هيو نفسه الكثير من وقته فى أوروبا الغربية يجنّد المجندين لنظامه .

ومنح الملك بلدوين النظاميين العسكريين كامل مساندته . وكانا مستقلين عن سلطته ولا يدينون بالولاء إلا للبابا . وحتى الإقطاعيات الضخمة التى بدأ يخلعها عليهما هو وأتباعه لم تكن تنطوى على أى التزام بالحرب فى جيش الملك ، غير أن أجيال قد مضت قبل أن يصيب النظامان من الثراء ما يكفيهما لتحدى السلطة الملكية . وفى الوقت ذاته ، كانا يزودان المملكة بما كانت فى حاجة ماسة إليه ، ألا وهو جيش نظامى يجنود مدرين ، مكفول وجوده المستديم . وفى الإقطاعيات الدنيوية ، إذا مات فجأة صاحب الإقطاعية ، فقد يترتب على انتقال الإقطاعية إلى امرأة أو إلى طفل ، أن يحدث توقف فى إمداد الجنود ويتكرر تورط الملك فى أعمال مضطربة ومصالح مختلفة . كما لا يستطيع الاعتماد على تعويض من مات من اللوردات، بغيرهم من الوافدين

الجلد من الغرب كلما احتاج اليهم . لكن الأنظمة العسكرية ، بتنظيمها ذى الكفاءة ، وما لها من فتنة ومهابة تتخلل العالم المسيحي الغربى ، تستطيع أن تضمن إمدادا منتظما من المقاتلين المكرسين ، الذين لن تلهيهم أطماع أو مكاسب شخصية^(٢٨).

وفى عام ١١٢٠م عاد بلدوين إلى انطاكية . إذ أن بلاق وإلى ايلغازى على أثارب، بدأ يغير على الأراضي الانطاكية بينما زحف ايلغازى نفسه على الرها . وضدت الغارتان كلاهما، على أن ايلغازى اقترب من جوار انطاكية ، فتوترت أعصاب البطريق برنار وارسل إلى القدس ، إلى الملك بلدوين . وفى يونية شرع بلدوين فى مسيرته شمالا ، حاملا معه مرة أخرى الصليب الحقيقى ، مما سبب الأسى لكنيسة القدس التى كانت نافرة من أن ترى مثل هذا الأثر الثمين يتعرض لمخاطر الحرب . ورحل البطريق جورموند نفسه مع الجيش ليكون مسؤولا عن هذا الأثر . وعندما وصل بلدوين إلى الشمال وجد أن ايلغازى ، الذى اضعفه انصراف جنوده التركمان ، قد انسحب فعلا ، وشعر المسلمون بالخطر حتى انهم استدعوا طغتكين إلى حلب . واثناء الحملة التى تلت تبادل كل من الطرفين الكر والفر حتى أنهك المسلمون فى نهاية الأمر وانسحب طغتكين إلى دمشق ، وعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين . وتحدد خط حدود يفصل منطقة نفوذ كل منهما ، فقطع هذا الخط فى مكان ما (طاحونة) إلى نصفين ، وفى مكان آخر قسم الخط حصنا إلى نصفين ، وهدمت المباني برضاء الطرفين ، واما زردنا التى بقيت جيبا اسلاميا فقد جردت من تجهيزاتها العسكرية^(٢٩) . وفى وقت مبكر من الربيع التالى عاد بلدوين إلى القدس بعد أن فاز بنصر معنوى لم تسفك فيه الدماء . وكان مطلوبا فى الجنوب ، إذ اعتقد طغتكين أنه فى كامل انشغاله فى الشمال ، فأغار بغارات مكثفة فى الجليل . وفى شهر يولية ١١٢١م ، انتقم بلدوين بعبوره نهر الأردن وانتهب الجولان ، واحتل حصنا ثم دمره ، وكان طغتكين قد بناه فى

(٢٨) عن الأنظمة العسكرية انظر (William of Tyre, xii, 7, pp. 520-1) (فرسان المعبد) و، (xviii, pp. 822-3) (فرسان المستشفى) . وللإطلاع على مقالات عصرية جيدة انظر Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers en Terre Sainte*; Curzon, *La Règle du Temple*; Melville, *La Vie des Templiers*. ويورد ميخائيل السورى مقالا كاملا عن فرسان المعبد وسميهم (الإخوة الفرنج 3-201, pp. iii) انظر ايضا La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 217-25.

(٢٩) Fulcher of Charters, iii, ix, 1-7, pp. 638-42; Walter the Chancellor, ii, 16, p.131; -Matthew of Edessa, ccxxx, pp. 302-3; Michael the Syrian, iii, pp. 205-6; Kemal ad Din, p/627; Ibn al-Qalanisi, p. 162; Grousset, *op.cit.* i, p.574, يذكره ميخائيل السورى، فيحط بين بلاق وبلق ابن اخى ايلغازى، الذى كان آنذاك فى حملة ابعده إلى الشمال (ابن القلانيسى، المرحع السابق).

حيث أن " وفي تلك الأثناء كان جوسلبر يجيى ثمار غزوة ناجحة فى أراضي ايلغازى
فى الحرية^(٣١)

١١٢١م الحملة الصليبية الجورجية

ظهر خلال صيف ١١٢١م ظهر عامل جديد ترك بصماته على السياسات
الشرقية فعلى مسافة بعيدة إلى الشمال ، عند سفوح الجبال القوقازية ، فرض ملوك
جورجيا (الكرج) البجراتيون سلطانهم على الشعوب المسيحية التى كانت ما تزال
مستقلة عن السيادة الإسلامية ، ووسع الملك داود الثانى سلطته إلى جنوب وادى الرّس
حيث أصبح فى نزاع مع الأمير السلجوقى طغرل ، أمير أران . وبعد هزيمة طغرل من
قوات داود ، وجّه طغرل الدعوة إلى ايلغازى كى يشترك معه فى حرب مقدسة ضد
الملك المسيحى قليل الأدب . وكانت الحملة التى تلت بمثابة كارثة للمسلمين ، وفى
أغسطس ١١٢١م ، كاد الجورجيون أن يمتثلوا شأفة الجيش المتحد بين طغرل وايلغازى
، وبما ايلغازى نفسه بشق الأنفس وهو يهرب عائدا إلى ماردن . وتمكن الملك داود
من ترسيخ دعائم ملكه فى العاصمة الجورجية القديمة تفليس ، وبحلول عام ١١٢٤م
استولى على شمال أرمينيا والحاضرة آنى ، وهى موطن أسرته القديم . ومنذ آنذاك
والعالم التركى كله يدرك إدراك اليأس للخطر الماثل عليه من جورجيا بموقعها
الاستراتيجى الرائع بل أن هذا الخطر لم تخف حدته بموت داود الثانى عام
١١٢٥م^(٣٢) ، إذ ورث خلفاؤه شدته وكانت شجاعتهم، التى أبقت المسلمين فى
حالة عصية دائمة إزاء جبهتهم الشمالية ، ذات قيمة عظيمة للفرنج على الرغم مما يبدو
من عدم وجود اتصال مباشر بين القوتين المسيحيّتين ، إذ كان الجورجيون مرتبطين
ببيزنطة بروابط الدين والتقاليد ، ولا شعور بالود لديهم نحو الفرنج ، فضلا عن أن
ما لقيته مؤسساتهم فى القدس من برود المعاملة لم تكن لتدخل السرور على مثل هذا

(٣) Fulcher of Charters, III, x, 1-6, pp.643-6

(٣١) Ibn al-Qalanisi, *op cit*. p 163; Kemal ad-Din, pp 623-6

(٣٢) Georgian Chronicle (in Georgian), pp. 209-10 215, Matthew of Edessa ccxxx1-11.

ccxxxix, ccxliii, pp. 303-5, 310-1 313-14; Ibn al- Qalanisi, p 164. Ibn al-Athir pp

١٦٠ (١٣٠) p 130. Kemal ad-Din, pp 628-9; Walter the Chancellor ١٦٠ p 130.

٢٠٦ Michael the Syrian, III, p 206

الشعب المتكبر (٣٣).

ومع ذلك ، وجد بلدوين أن مصير ايلغازي بات تحت رحمة الجورجيين ، وفي ذلك فرصة لم يدعها تفلت منه . ذلك أن ايلغازي عين ابنه سليمان مؤخرًا واليا على حلب ، لكن هذا الابن الطائش انتهز هزيمة والده واعلن استقلاله ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن التصدي للهجوم الذي شنّه عليه بلدوين على الفور، تصالح مع الفرنج متنازلاً لهم عن زردنه وأتارب ، وهما ثمة انتصار أبيه ايلغازي . فسارع ايلغازي إلى معاقبة ولده العاق، ولكنه ارتأى من الحكمة تأييد المعاهدة مع بلدوين ، الذي عاد إلى القدس وقد نال منه السرور بحصاد ذلك العام (٣٤).

وفي وقت مبكر من عام ١١٢٢م ، خلع بونز ، كونت طرابلس ، فجأة ولاءه للملك . ولسنا نعرف سبب هذا العصيان ، فيصعب أن نفهم ما هي المساعدة التي كان ينتظرها لكي يحتفظ بولائه للملك . وقد حنق بلدوين واستدعى أتباعه على الفور للحضور ومعاقبة العاصي . وسار الجيش الملكي من عكا، وباقترابه من بونز استسلم وغفر له (٣٥) . بيد أن استسلامه كان مؤقتاً ، إذ أن ايلغازي كان على شفا الحرب مرة أخرى بعد أن حرّضه ابن أخيه بلك ، الذي كان أميراً على سروج والآن حاكم خازريت . وعندما علم بلدوين بتلك الأنباء رفض أن تصديقها، فقد وقع معاهدة مع ايلغازي وهو يعتقد أن السيد المذهب - ويستخدم المورخ العربي كلمة "شيخ" - يحافظ على كلمته، لكن ايلغازي لم يكن سيداً مهذباً ، وقد وعده طغتكين بالمساعدة . فحاصر زردنا التي سبق أن أعاد الفرنج تشييدها ، وكان قد استولى على جزء من التحصينات عندما اقترب بلدوين . وتلى ذلك حملة بدون معركة ، إذ لم يشأ بلدوين أن يستدرج إلى كمين بما اعتاده الترك من التظاهر بالهرب كخدعة عسكرية . ومرة أخرى، كان المسلمون هم أول من سأم الكر والفر ، فعادوا إلى بلدهم . وأرسل بلدوين الصليب الحقيقي إلى القدس وهو مرتاح البال ، وذهب هو نفسه إلى

(٣٣) عن المؤسسات الجورجية في القدس ، انظر، *Georgian Chronicle*, pp. 222-3 and Brosset, *Additions et Eclaircissements*, x, pp. 197-205. وترد ملاحظات مرجحة في *Rey, Les Colonies Franques*, pp. 93-4، ومن الجائز أن يكون التهديد الجورجي المستمر للأراقة والسلاجقة في بيرسارمينيا، قد ساعد بصورة غير مباشرة في تعاضد قوة زكي.

(٣٤) Kemal ad-Din, p.629; Ibn al-Athir, pp. 340-50.

(٣٥) of Charters, iii, xi, pp.647-8; William of Tyre, xii, 17, pp. 536-7.

انطاكية^(٣٦).

١١٢٢ م : الكونت جوسلين يقع أسيراً

قبل وصول الصليب الحقيقي إلى القدس ، وصلت من الرها أنباء سيئة . ففي ١٣ سبتمبر ١١٢٢ م ، كان الكونت جوسلين وواليران أمير البيرة على جواديهما مع قوة صغيرة من الفرسان بالقرب من سروج عندما وجدوا انفسهم فجأة امام جيش ملك . فهاجموا الجيش ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت السهل إلى بحيرة من الطمي ، فانزلت الجياد وتعثرت ، ولم يجد التركمان خفيفو التسليح صعوبة في الاطاحة بالفرننج . وأسر جوسلين وواليران وستون من رفاقهما . وعلى الفور عرض ملك اطلاق سراحهم مقابل التخلي عن الرها . وبرفض جوسلين الاستماع إلى هذه الشروط ، اقتاد ملك الأسرى إلى قلعة في خرتبرت^(٣٧).

ولم يكن لأسر جوسلين كبير أثر في القوة البشرية للدويلات الصليبية . فوجد في الشهر التالي فرسان الرها يغيرون بنجاح غنى الأراضي الاسلامية . غير أنه كان لطمة للمهابة الفرنجية أجبرت بلدوين على أن يضيف إلى مشاغله عملاً آخر بأن تولي مرة اخرى إدارة الرها . ولحسن الحظ مات ايلغازي في شهر نوفمبر في ميافارقين ، وقسم أبنائه وأبناء اخوته الميراث الأرثقي . فكانت ميافارقين من نصيب سليمان أكبر أبنائه ، وحصل أصغر أبنائه ثمرتاش على ماردين ، أما ملك فقد زاد من املاكه في الشمال وأخذ حران في الجنوب ، وذهبت حلب إلى ابن اخيه بدر الدولة سليمان^(٣٨).

وكان المسلمون قد استردوا اثارب مؤخرًا ، وفي إبريل من العام التالي استغل بلدوين ما ساد من اضطراب وحاول اجبار حاكم حلب الجديد الضعيف على تسليمها إلى الأبد . وبعد أن استعاد الملك مدينة البيرة شرع في الرحلة إلى الرها كي يرتب

(٣٦) Fulcher of Charters, III, xi, 3-7, pp. 648-51; Kemal ad-Din, pp. 632-3; Ibn al-Qalanisi, p.166.

(٣٧) Fulcher of Charters, III, xii, 1, pp. 651-2; Matthew of Edessa, cccxxiv, pp. 306-7; Kemal ad-Din, p. 634; Anon. Chron. Syr. p. 90, كان يحضر زوجته إلى البيت ، أخت روجر . ولكن لا توجد اشارة عن اعتقالها ، وحيث ان روجر قد وهب اخته الهبات ، فلا بد وان يكون الزواج قد حدث قبل موت روجر .

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 166; Ibn Hamdun, p. 516; Kemal ad-Din, pp. 632-4; Matthew of Edessa, loc. cit. (يورد ماثيو مقالا يدل على جهل بالاستخلاف الأرثقي).

حكومتها. فوضع جيوفري الراهب ، وهو لورد مرعش، على رأس ادارتها ، ثم مضى مع قوة صغيرة باتجاه الشمال الشرقي كي يستطلع الموضع الذى أسر فيه جوسلين . وفى ١٨ ابريل ضرب معسكره على مسافة غير بعيدة من كركر على نهر الفرات . وبينما كان يتهيأ للاستمتاع برياضة الصباح مع صقره ، غافلاً عن اقترابه من التركمان، انقض بلك على المعسكر. وقتل أغلب الجيش، وأسر الملك نفسه ، وعومل باحترام وأرسل تحت الحراسة لينضم إلى جوسلين في قلعة خرتوت (٢٩).

١١٢٣م : بلدوين وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر

ومرة أخرى اجتمع بلديون وجوسلين في الأسر . لكن الأمر هذه المرة أخطر مما كان عليه عام ١١٠٤م ، إذ أن بلديون الآن هو الملك ، أي بؤرة الهيكل القرنبي كله . وقد برهنت قدرته الإدارية على بقاء الهيكل قائما ، إذ واصل جيو فرى الراهب تدبير حكومة الرها ، وعندما وصلت الانباء أنطاكية ، عاد البطريق برنارد فجعل من نفسه السلطة المسؤولة مرة أخرى . وفى القدس ، أشيع أولا أن الملك قتل ، فقام البطريق جورموند باستدعاء مجلس المملكة للانعقاد فى عكا . وعندما حان وقت انعقاده انجلت حقيقة وقوعه فى الأسر . وانتخب المجلس أيوستاس جازنييه ، لورد قيسارية وصيدا ، كى يعمل نائبا ووكيلا عن المملكة إلى حين تخليص الملك . وسارت الحياة الادارية فى الأراضى الثلاث دونما عائق (٤٠).

واكتسب الأمير بلك مكانة عليّة ، غير انه لم يستغلها في توجيه ضربة قاضية إلى الفرنج، وإنما استخدمها في ترسيخ نفسه في حلب . وكان ذلك عملا أصعب مما كان يتوقع لأنه لم يكن محبوبا هناك . وأصبح سيدها في يونية ، ثم هاجم الممتلكات الفرنجية الواقعة أكثر إلى الجنوب ، وما أن استولى على البارة في شهر اغسطس حتى اضطر إلى التوجه شمالا مرة أخرى إثر أنباء جاءت من خربتوت ^(٤١).

Fulcher of Charters, III, xvi, 1, pp. 658-9; William of Tyre, XII, II, p. 537; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 247; Matthew of Edessa, CCXXV, pp. 307-8; Ibn al-Qalanisi, p. 167; Ibn al-Athir, p. 352. (79)

Fulcher of Chartres, III, xvi, 1-3, pp. 659-61; William of Tyre, XII, 17, p. 538. (40)

(٤١) Keman ad-Din, pp. 636-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 167-8. للاطلاع على مختلف ما كتب عن استيلاء بلدك على حلب انظر.. Cahen, op.cit. p. 296 n.35.

ذلك أن جوسلين كان محبوا دائما من الأرمن . وبعد وصوله إلى الشرق سرعان ما حذا حذو بلدوين الأول وبلدوين الثاني وتزوج من فتاة أرمنية هى اخت ثوروس الروينى، ولم تكن أرثوذكسية المولد - مثل ملكي القدس - ولكنها كانت من أتباع الكنيسة الأرمنية المستقلة ، ومن ثم كان أغلب أبناء بلدها يتعاطفون معها تعاطفا عظيما . وقد ماتت الآن ، وتزوج جوسلين مرة اخرى ، على أن علاقته الحميمة بالارمن استمرت ، ولم يُظهر لهم قط ما أظهره سلفه بلدوين الثاني من قسوة . وكانت قلعة خرتبرت واقعة فى الاراضى الأرمنية ، ووافق فلاح أرمنى على توصيل رسالة إلى أصدقاء جوسلين الأرمن . وجاء خمسون منهم متنكرين إلى قلعة خرتبرت ، وحصلوا على اذن الدخول كى يعرضوا على الحاكم مظلمة لهم باعتبارهم من رهبان وتجار المنطقة . وما أن دخلوا القلعة حتى أخرجوا أسلحتهم من طيات أردبتهم وتكاثروا على رجال الحامية . ووجد بلدوين وجوسلين فجأة أنهما اصبحا سيدين فى سجنهما . وبعد تشاور وحيز تقرر أن يغادر جوسلين القلعة ويطلب العون قبل أن يأتى الجيش الأرتقى، بينما يحاول بلدوين الحفاظ على القلعة . وتسلسل جوسلين مع ثلاثة من رفاقه الارمن ، وبعدها أفلح فى التسلسل خلال القوات التركية المتجمعة ، أرسل أحد رجاله عائدا ليطمئن الملك . وانطلق هو نفسه خلال ارض العدو الخطرة ، يتجسس فهارا ويتخبط ليلا فى ضجر على قدميه . وانحسرا وصل الهاربون إلى نهر الفرات ، ولكن جوسلين لا يعرف السباحة ، بيد أنه كان يحمل معه قربتين من قرب النبيذ كان يحمل فيهما الماء ، فنفخ فيهما من فمه واستخدمهما كطوافتين ، وتمكن رفيقه ، وهما من السباحين الأقوياء ، من دفعه عبر النهر فى الظلام . وفى اليوم التالى وجدهما أحد الفلاحين الذى تعرف على الكونت ورحب به مبتهجا ، إذ سبق وأن أعطاه جوسلين بعض الصدقة . وبمساعدة الفلاح وأسرته واصل جوسلين ارتحاله الحزير إلى تل بشير حيث كشف عن نفسه لزوجته وللبلاط . ولم يتوقف هناك وإنما أسرع إلى أنطاكية لجمع الجنود لانقاذ الملك. لكن جيش أنطاكية كان صغيرا، وكان البطريق برنارد عصبيا. وبناء على اقتراحه أسرع جوسلين على جواد يسابق الريح إلى القدس. وكان أول ما فعله أن قدم قيوده قربانا على مذهب كالفارى (موضع صلب المسيح). ثم استدعى مجلس الفرسان وقص عليهم قصته. وتحمس البطريق جورمون والوكيل ايوستاس فى جمع الجنود الذين انطلقوا تحت قيادة البطريق جورمون والصليب الحقيقى فى المقدمة، باتجاه تل بشير. على أنهم برصوهم هناك سمعوا أنهم قد وصلوا بعد فوات الأوان.

ذلك أن بلك ، الذى سمع بأنباء الثورة فى خرتيرت، صعد بجيشه من الجنوب بسرعة أذهلت معاصريه . ولدى وصوله عرض على بلدوين مروراً مأموناً إلى بلده لقاء تسليم القلعة . ورفض بلدوين إما لعدم ثقته فى الأمير أو لأنه لم يشأ التخلي عن رفاقه. على أن القلعة كانت أقل مناعة مما كان يظن، إذ سرعان ما نسف مهندسو بلك جداراً اقتحمه الجيش الأرمنى . ولم يظهر بلك الآن أى رحمة ، خاصة بوجود حريمه فى القلعة وقد انتهكت حرمتهم . وجرى بكل من كان يدافع عن القلعة ، فرنجى أو أرمنى وكل امرأة ساعدتهم - والراجح أن كانت هناك إماء من الأرمنيات فى الحريم - وألقى بهم من فوق أسوار القلعة ليلقوا حتفهم . ولم يسلم سوى الملك وابن أخ له ، وواليرين . فأقتيدوا إلى قلعة حرّان حيث المزيّد من الأمان^(٤٢).

١١٢٤ م : موت بلك

ولم يجازف جوسلين بالهجوم على حرّان . وبعد أن استغل جيشه فى غارة ناجحة فى حوار حلب، تخلّى عنها وعاد إلى تل بشير . وكان بلك عاجزاً بنفس القدر عن الافادة من الموقف . فلا يستطيع واليه على حلب إلا أن يرد على الفرنج بتحويل كنائس حلب إلى مساجد ، مما أثار ثائرة المسيحيين المحليين ، لكنهم لم يلحقوا ضرراً قط باللّاتين. وجاء بلك بنفسه إلى حلب لاعداد العدة لحملة جديدة . غير أنه فى أوائل ١١٢٤م تمرد عليه أمير منبج ، لكن ثمرقاش الأرمنى اعتقله وسحق التمرد بناء على تعليمات بلك ، على أن شقيق المتمرد ، ويدعى عيسى ، كان يحتل القلعة واستنجد بجوسلين . ولقى بلك جيش جوسلين وهزمه ، وقتل جيوفرى الراهب ، ثم انطلق إلى منبج ، وهو متلهف على حفظ النظام هناك ، بعدما تسلم استدعاءً عاجلاً من الجنوب، من عكا . غير أن سهماً طائشاً أصابه من قلعة منبج أنهى حياته يوم ٦ مايو . ومات

(٤٢) Fulcher of Chartres, III, xxiii-xxvi, 6, pp. 676-93; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. pp. 248-10. يقول فيتاليس إن الملكة مورفا الأرمنية المولدة ساعدت فى تجنيد المواطنين لانتفاذ الملك . ويضيف أن المسجدة أرسلوا إلى فارس لكنهم أطلق سراحهم لاحقاً، William of Tyre, XII, 18-20, pp. 538-41; Matthew of Edessa, cccxxvi, pp. 308-10; Ibn al-Qalanisi, p. 169; الحظ توجد فجوة فى نص ابن القلانيسى، Michael the Syrian, III, p. 637; (Kemal ad-Din, p. 211. وربما كان ابن بلدوين هو أخو Manasses of Hierges ، ابن اخته هوديرنا (انظر أدناه ص ٢٣٣). ويقول لنا ميخائيل، الذى يسميه بار نول (Arnulf?) انه كان ابن إحدى الأخوات . ويبدو أن اخت بلدوين الأخرى ، ماهالدا ، سيدة فيزى ، كان لديها ابناً واحداً ، تزوج ابنة عم له وريثة وتولى إمارة Rethel ، William of Tyre XII, I, pp. 511-12, ٤.

وهو يتمتع قائلاً إن موته بمثابة ضربة مميتة لكفاح الإسلام . وكان على حق، إذ كان هو الوحيد ، من بين جميع القادة الأتراك الذين حاربهم الفرنج ، الذى أظهر أقصى درجات النشاط والحكمة . ولم تستمر قوة الأراقة طويلاً بعده^(٤٣).

وفى مملكة القدس نفسها لم يترتب على غياب بلدون فى الأسر أي أثر ضار ، وإنما أغوت المصريين بغزو البلاد مرة أخرى . وفى مايو ١١٢٣م تحرك جيش مصرى كبير خارجاً من عسقلان إلى يافا . وعلى الفور قاد ايوستاس جازنييه جيش القدس للتصدي له ، وذهب معه الصليب الحقيقى ، بينما سار مواطنو القدس المسيحيون وهم حفاة الاقدام فى مواكب زياحية إلى الكنائس . وكانت جوانب الاحتياط المتصفة بالورع هذه مطلوبة ، إذ عندما واجه الفرنج المصريين عند يمينه يوم ٢٩ مايو ، استدار المصريون هارين برغم تفوقهم العددي ، تاركين معسكرهم نهياً للمسيحيين^(٤٤) وكان ذلك آخر انجازات ايوستاس الذى مات يوم ١٥ مايو . وجرى على العادة السائدة فى المملكة ، اتخذت أرملته من فورها، وهى إما ابنة أخت البطريق أرنولف الغنية ، زوجها آخر هو كونت يافا ، هيو (أوف لو بواسيه) ، كى لا تحرم أرضها من مستأجر نشط . وأمر مجلس المملكة بنقل منصب وكيل المملكة (كونستابل) إلى وليم (أوف بور) أمير الجليل^(٤٥).

١١٢٣م : وصول أسطول بندقى إلى عكا

فى عام ١١١٩م ، وبعد معركة بحر الدم مباشرة ، كتب الملك بلدوين إلى جمهورية البندقية ملتصاً مساعدتها، فبرغم أن المصريين لا يمثلون خطراً جسيماً على البر ، إلا أن أسطولهم ما يزال يسيطر على غرب فلسطين . وقد عرض على البندقية فى المقابل مزايا تجارية ، وعزز البابا هذا الطلب ، وقرر الدوج (رئيس قضاة البندقية)، دومينيوكو ميشيللى ، تلبية هذا الالتماس . ومرت حوالى ثلاث سنوات قبل أن تجهز حملة البندقية .

(٤٣) Fulcher of Chartres, III, xxxi, 1-10, pp. 721-7; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 260; William of Tyre, XII, II, pp. 570-1; Matthew of Edessa, ccxi, pp. 311-12; -Kemal ad-Din, pp. 641-2; Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130; Ibn al-Qalanisi, pp. 168 9 (ولا يذكر ابن القلانيسى موت بلك).

(٤٤) Fulcher of Chartres, III, xvi, 3-xix, I, pp. 661-8; William of Tyre, XII, I, pp. 543-5.

(٤٥) Fulcher of Chartres, III, xxii, pp. 674-5; William of Tyre, loc. cit. (أوف بواتيه) انظر ادناه ص ١٩١ . تزوج إما قبل ابريل ١١٢٤م. (Rohrich, Regesta, p.25).

وفى ٨ اغسطس ١١٢٢م ، أبحر من فينيسيا ما يزيد كثيرا على مئة سفينة حربية تحمل الرجال والخيول وأدوات الحصار . على أن هذا الاسطول لم يبحر مباشرة إلى فلسطين ، إذ تشاجرت فينيسيا مؤخرا مع بيزنطة بسبب محاولة من الامبراطور جون كومنينوس لتقليل مزاياها التجارية ؛ ولذا توقف البنادقة لمهاجمة جزيرة كورفو البيزنطية . وطوال نحو ستة اشهر من شتاء ١١٢٢-١١٢٣م ، ضرب الدوج حصارا عقيما على مدينة كورفو . وفى نهاية ابريل ، جاءتهم سفينة مبحرة على عجل من فلسطين لتخبر البنادقة بكارثة الملك . فرجع الدوج الحصار على مضض ، واخذ معه اسطوله الذى لا يقهر شرقا ، ولم يكن يوقه الا مهاجمة اية سفينة بيزنطية تقابله . ووصل ميناء عكا فى نهاية مايو وسمع أن أسطولا مصريا يبحر فى شواطئ عسقلان . فأبحر جنوبا لمقابله ، وأرسل فى المقدمة سفنه ذات أسلحة خفيفة كى يوقع الأسطول المصرى فى كمين . ووقع المصريون فى الفخ ، إذ ظنوا أنهم سيحصلون على نصر يسير فأبحروا خارج الميناء ، ليجدوا انفسهم وقد حوصروا بين أسطولين للبنادقة يفوقانهم عدداً ، ولم تقلت بالكاد من الكارثة اية سفينة مصرية ، فالبعض غرق ، والبعض الآخر استولى عليه البنادقة ، ثم استولوا فى طريق عودتهم على اسطول تجارى قابلهم يتألف من عشر سفن مملوئة عن آخرها^(٤٦) ، وبذا تعاضل نصرهم .

وكان وجود الاسطول البندقي فرصة ثمينة ينبغي انتهازها . ودارت مناقشة حول ما إذا كان يتعين استغلال الاسطول فى الاستيلاء على عسقلان أو صور ، وهما القلعتان الاسلاميتان الباقيتان على الساحل . وأيد نبلاء يهودا مهاجمة عسقلان ، وأيد نبلاء الجليل مهاجمة صور . وأخيرا قرر البنادقة مهاجمة صور ؛ إذ أن ميناءها هو الأفضل على طول الساحل ، وهو الآن ميناء الأراضى الدمشقية الغنية ، وهو مركز تجارى أكثر أهمية بكثير من عسقلان ، ففيه مكان رسو مفتوح للسفن ، ومن حوله البلاد الداخلية الفقيرة . على أنهم أصرّوا على الثمن الذى يطلبونه . وتطاولت المفاوضات حول الشروط طوال الخريف . وفى عيد الميلاد من عام ١١٢٣م ، استمتع القادة البنادقة بما اغدقه الصليبيون عليهم من متع القدس ، وحضروا الصلوات فى بيت لحم . وفى وقت مبكر من السنة الجديدة تم توقيع معاهدة فى عكا بين ممثلى جمهورية البندقية من ناحية ، وبين البطريق جورمون ، والوكيل وليم والمستشار باجان باسم الملك الأسير ، من ناحية اخرى . وتقضى المعاهدة بأن يتسلم البنادقة شارعا بكنيسة ، وحمامات ومخبزا ، معفاة

(٤٦) Fulcher of Chartres, III, xx, 1-8, pp. 669-72; William of Tyre, XII, 23, pp. 546-7; *Historia Ducum Veneticorum*, M. G. H. Ss. vol. xiv, p. 73

جميعاً من كل الإلتزامات المألوفة ، وذلك فى كل مدينة من مدن المملكة . ولهم مطلق الحرية فى استخدام الأوزان والمقاييس الخاصة بهم فى كافة تعاملاتهم ، وليس فقط فيما بينهم ، وأن يعفوا من كافة المكوس والرسوم الجمركية فى سائر أنحاء المملكة . ولهم أن يتسلموا بيوتاً إضافية من عكا ، وثلاث كل من صور وعسقلان إذا ساعدوا فى الاستيلاء عليهما . فضلاً عن كل ذلك ، يُدفع لهم مبلغ سنوى مقداره ثلاثمائة بيزانت عربى (ساراسانى) يضاف إلى العوائد الملكية فى عكا . وفى المقابل وافقوا على استمرارهم المعتاد فى تسديد ثلث أجور سفر الحجاج للخزانة الملكية . بل طالب البنادقة بأنه لا ينبغي للمملكة أن تخفف الرسوم الجمركية المفروضة على الرعايا الآخرين دون موافقة البنادقة . وأقسم البطريق جورمون على الإنجيل بأن الملك بلدوين سوف يؤيد المعاهدة عندما يطلق سراحه ، وهو ما حدث فى الواقع بعد سنتين ، رغم أن بلدوين رفض قبول الشرط الأخير ، الذى يعنى أن تصبح تجارة المملكة كلها خاضعة لمصالح البندقية^(٤٧) . وبعد توقيع المعاهدة تمرك الجيش الفرنجى أعلى الساحل إلى صور ، وأبحر الاسطول البندقى فى خط مواز له . وبدأ حصار صور يوم ١٥ فبراير ١١٢٤م^(٤٨) .

١١٢٤م : حصار صور

كانت صور ما تزال تابعة للخلافة الفاطمية . وكان مواطنوها فى عام ١١١٢م قد صُدموا من ضالة المساعدة التى تلقوها من مصر أثناء حصار المدينة فى العام الذى قبله ١١١١م ، مما دفعهم إلى السماح لطغتكين بأن يولّى عليها واليا من عنده ، فأرسل واحداً من أقدر قواده ، الأمير مسعود ، لكى يياشر أمور المدينة . وفى الوقت ذاته ، كانت سيادة مصر معترفاً بها ، وكان الأئمة فى المساجد يدعون على المنابر للخليفة الفاطمى ، الذى كان مطلوباً منه إرسال مساعدة بحرية منتظمة إلى المدينة^(٤٩) . وسارت الحكومة الثانية سيرا سلساً لعشر سنوات ، ويعزى ذلك بلوحة كبيرة إلى حرص الوزير الأفضل على حسن العلاقات مع طغتكين ، فهو فى حاجة إلى صداقته ضد الفرنج . لكن أحد الحشاشين اغتال الأفضل فى ديسمبر ١١٢١م فى أحد شوارع القاهرة .

(٤٧) Tafel and Thomas, I, pp. 84-9; Rhricht, *Regesta*, pp. 23-5; William of Tyre, XII, 4-5, pp. 547-53; Fulcher of Chartres, III, xxvii, 1-3, pp. 693 5.

(٤٨) Fulcher of Chartres, III, xviii, I, pp. 695-6.

(٤٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 128-30, 142.

فرغب الخليفة الأمر ، الذى أصبح سيد نفسه أخيراً ، فى استعادة السيطرة على صور . فأرسل إليها أسطولاً عام ١١٢٢ م ، كما لو كان يقصد تعزيز الدفاع عن المدينة ، وقام أمير البحر بتوجيه الدعوة إلى حاكم المدينة مسعود ليتفقد السفن ، وعندما صعد ظهر السفينة اختطفه وأخذه إلى القاهرة . واستقبل استقبالاً حسناً هناك ، وأرسل بكل مظاهر التشريف إلى طغتكين ، الذى لم يشأ أن يشير نزاعاً حول استعادة الفاطميين للمدينة . على أنه باقتراب الفرنج من المدينة ، أعلن الخليفة الأمر عدم استطاعته أن يفعل شيئاً لانقاذ المدينة بعد تدمير أسطولها ولذا أسلم دفاعاتها إلى طغتكين الذى دفع إليها لتوه سبعمائة جندي تركي ومون لمواجهة الحصار^(٥٠).

ولم يكن يربط صور بالبر الرئيسى للبلاد سوى برزخ ضيق كان الاسكندر الأكبر قد شيده ، وكانت تحصيناتها فى حالة جيدة . على أنه كان يعيها نقطة ضعف واحدة؛ إذ كانت مياه الشرب تأتي خلال قناة من داخل البلاد ، لعدم وجود آبار فى شبه الجزيرة . وقطع الفرنج هذه القناة فى اليوم التالى لمجيئهم ، لكن أمطار الشتاء ملأت صهاريج المدينة ، ومضى بعض الوقت قبل أن يشعر السكان بنقص المياه . واستقر الفرنج فى معسكر بين الحدائق واليساتين حيث يلتقى البرزخ بالبر الرئيسى للبلاد . وأرسي البنادقة سفهم بمحاذاتهم ، لكنهم دائماً ما كانوا يحتفظون بقادس فى البحر لاعتراض أية سفينة قد تحاول الانبحار للدخول إلى الميناء . وكان القائد الأعلى للجيش هو البطريق جورمون ، وكان يثير الانطباع بأن لديه من السلطة أكثر مما لدى الوكيل (الكونستابل) . وكان كونت طرابلس ، عندما جاء بجيشه للانضمام إلى القوات المحاصرة ، قد أبدى استعداده لأن يطيع البطريق فى كل شئ ، وهذا تنازل ربما لم يكن يمنحه لوليم (أوف بور)^(٥١).

وتواصل الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف . ودأب الفرنج على قصف منتظم للأسوار عبر البرزخ من آلات أحضر البنادقة مواد صنعها . وكان المدافعون عن المدينة من جانبهم مجهزين جيداً براحات الحجارة والنيران الاغريقية التى كانوا يطلقونها على مهاجميهم . وحاربوا حرباً رائعة ، غير أن أعدادهم الضئيلة لم تكن تسمح لهم بمحاولات الخروج . وخشية أن يجبرهم الجوع والعطش ونقص الرجال على التسليم ، تسلل

(٥٠) Ibid. pp.165-6, 170-1; Ibn al-Athir, pp. 356-8.

(٥١) Fulcher of Chartres, III, xxviii, I-xxx, 13, pp. 695-720 وقد أورد استطراداً طويلاً حول تاريخ صور؛ William of Tyre, III, 7, p. 565

رسلهم خارج المدينة لحث طغتكين والمصريين على الاسراع لنجدتهم . فقام جيش مصرى بهجوم مضلل على القدس نفسها ، ووصل إلى ضواحي المدينة المقدسة . غير أن مواطنيها وتجارها ورجال الدين والقساوسة أسرعوا إلى أعلى أسوارها الضخمة ، ولم يجازف القائد المصرى بمهاجمتها . وسرعان ما قام جيش مصرى آخر بنهب المدينة الصغيرة بلين أو (ماهومرى La Mahomerie) ، على مبعده أميال قليلة شمال القدس ، وقتل سكانها . على أن هذه الغارات المنفردة لا تنقذ صور . بل كان طغتكين أقل حماساً في مساعدتها ، وعندما بدأ الحصار تحرك بجيشه إلى بانياس عند منبع نهر الأردن منتظرا أخبار وصول أسطول مصرى يستطيع أن ينسق معه هجومه على المعسكر الفرنجى ، ولكن لم يبحر أسطول مصرى أعلى الساحل ، إذ لم يستطع الخليفة أن يجمع أسطولا . وكان الفرنج يفتشون هذا التلاقى بين القوات البحرية والبرية المعادية ، ولذا بقى الاسطول البندقى لعدة أسابيع خارج صور ليعترض المصريون ، وأرسل البطريق جيشا كبيرا على رأسه بونز أمير طرابلس وويلم (أوف بور) لمقابلة طغتكين . وعندما وصلوا بانياس ، قرر طغتكين عدم المجازفة بمعركة وانسحب إلى دمشق . والآن بات الأمل الوحيد للمحاصرين فى صور هو تلك الأرتقى ، الذى اشتهر بأنه أسر الملك وأزعج ملك أن يخنف لنجدتهم ، لكنه قتل فى منبج فى شهر مايو.

وبنهاية شهر يونية أصبح الوضع داخل صور باعسا على اليأس . إذ أخذ الطعام والشراب فى التناقص وسقط الكثير من رجال الحامية . وأيقن طغتكين من أن المدينة سوف تستسلم لا محالة ، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض استسلام المدينة بالشروط المعتادة ، بأن يُسمح للسكان الراغبين فى مغادرة المدينة بالرحيل الآمن مع منقولاتهم ، ويحتفظ من يرغب فى البقاء بحقوق المواطنة . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، برغم ما بدا على الجنود والبحارة من غيظ شديد لدى سماعهم بأنه لن يكون هناك سلب ونهب ، وهددوا بالتمرد . وفى ٧ يولية فتحت البوابات واستولى الجيش الفرنجى على المدينة ، ورفعت راية الملك على البوابة الرئيسية ، ورايتا كونت طرابلس والدوج البندقى على البرجين الراقيين يمين ويسار البوابة الرئيسية . والتزم القادة بكلمتهم ، فلم يحدث سلب ، ومر موكب طويل من المسلمين فى سلام خلال المعسكر الصليبي . وهكذا انتقلت آخر مدينة اسلامية ساحلية واقعة شمال عسقلان إلى المسيحيين ، وعاد جيشهم مبتهجا إلى القدس ، وأبحر البنادقة عائدين إلى فينيسيا بعدما حصلوا على رطل

اللحم^(٥٢) الخاص بهم^(٥٣).

١١٢٤م : فدية الملك بلدوين

وصلت الأنباء السارة الملك بلدوين في شيزر . فبعد موت بلق ، انتقلت مسؤولية حبس الملك إلى ثمرتاش بن ايلغازي ، الذي لم ترقه المسؤولية وفضل فكرة الحصول على فدية سخية . فطلب من أمير شيزر الدخول في مفاوضات مع الفرنج . ورحلت الملكة مورفيا إلى الشمال لتكون أقرب ما يمكن من زوجها ، وقامت هي والكرونت جوسلين بترتيب الشروط مع الأمير . وكانت الفدية المطلوبة باهظة . فكان على الملك أن يسدد لثمرتاش ثمانين ألف دينار ، وكان عليه التخلي عن مدن أتابر ، وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزر ، لتصبح مدنا تابعة لحلب - حيث خلف ثمرتاش سلطة بلق ، وعليه أيضا مساعدة ثمرتاش في اختضاع زعيم البدو دويس بن صدقة ، الذي استقر في الجزيرة . وينبغي له أن يدفع عشرين ألف دينار مقدما ، ويتم الاحتفاظ برهائن في شيزر لحين دفع المبلغ المتبقى ، وما أن يتسلم المسلمون المبلغ يطلق سراح بلدوين . وعن الرهائن ، طلب ثمرتاش أصغر أطفال الملك ، الأميرة جوفيتا ذات السنوات الأربع ، وابن جوسلين ووريثه ، صبي في الحادية عشرة من عمره ، وعشرة من أبناء النبلاء . ولكي يظهر الأمير سلطان شيزر حسن نواياه ، أرسل بعض افراد أسرته إلى حلب . وفي نهاية يونية ١١٢٤م ، غادر بلدوين حران على جواده الصوأل الخاص به الذي كان ثمرتاش قد احتفظ له به ، ومعه هدايا كثيرة ثمينة . وذهب إلى شيزر ، حيث أكرم أميرها وفادته لاعفائه قبل ذلك بخمس سنوات من الأموال المستحقة على شيزر لأنطاكية ، وقابل ابنته ورفاقها الرهائن . وبوصولهم سُمح له بالانطلاق إلى انطاكية التي وصلها في الأيام الأخيرة من شهر اغسطس^(٥٤).

(٥٢) (المترجم) اشارة الى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " فليرجع اليها من شاء.

(٥٣) Fulcher of Chartres, III, xxxii, I-xxxiv, 13, pp. 728-39, يحدد فولشر تاريخ الاستيلاء على المدينة (ويوجه اللوم ظلما الى أبناء انطاكية لعدم تعاونهم)؛ William of Tyre, XIII, 13-14, pp. 358-9 giving the date; Ibn al-Qalanisi, pp. 573-6; يعطى التاريخ ٩ يولية Abu'lFeda, pp. 15-16 يحدد التاريخ ٥ يولية؛ Matthew of Edessa, ccxli, p. 314.

(٥٤) Usama, ed. Hitti, pp. 133, 150; Kemal ad-Din, pp. 643-4; Matthew of Edessa, ccxli, pp. 312-13 ويذكر ماثيو الأروفي ان جوسلين والملكة قاما بترتيب الفدية ، واضاف ان تيمورتاش قتل واليران وابن اخ الملك - والراجح ان سبب ذلك ان الملك يخاف شروط فديته، (Michael the Syrian) وفي الموائيق سُميت جوفيتا Joveta بأسماء مختلفة Yvette, Ivetta or Juditta, III, pp. 212-225.

والآن ، وبعد أن نال بلدوين حريته ، خان الشروط التي قبلها . فقد أكد له البطريق برنارد انه ليس سوى الوصى على انطاكية وسيدها ، وليس من حقه التنازل عن اراضيها التي تنتمي إلى الشاب بوهمند الثاني . واقتنع بلدوين عن طيب خاطر بالحجة وأرسل ينجير ثمرتاش بعميق الاعتذارات انه لسوء حظه البالغ لا يستطيع عصيان البطريق . وكان ثمرتاش مهتماً بتسلم المال أكثر من اهتمامه بالأرض ، فغفر الاساءة خشية ضياع باقي الفدية . ولما وجد بلدوين أن ثمرتاش على هذا القدر من الازعان ، لم يخرم شرطه الآخر الذي بموجبه وعد بمساعدته ضد الأمير البدوي ديبس بن صدقة ، وبدلاً من ذلك استقبل سفارة من ديبس للتخطيط لعمل مشترك ضد حلب . وولد التحالف بينهما . وفي اكتوبر انضم جيشا انطاكية والرها إلى رجال ديبس الأعراب أمام أسوار حلب . وسرعان ما تعزز هذا التحالف بمقدم المطالب بعرش حلب إلى معسكرهم ، سلطان شاه (بن رضوان) ، الذي هرب مؤخراً من سجن الارائقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، اخي سلطان سلاجقة الروم ، وكان الدانشمند قد أخرجه مؤخراً من ملطية فراح يبحث عن حلفاء.

ولم يبدل ثمرتاش أية محاولة للدفاع عن حلب . إذ كان أخوه سليمان صاحب ميافارقين يقضى آخر أيامه ، وأراد ثمرتاش أن يستوثق من الميراث ، فمكث في ماردين تاركاً وجهاء حلب يقاومون قدر استطاعتهم ، فقاوموا لثلاثة اشهر كان الرسل خلالها يأتونه فيسعى استقبالهم ، إذ لا رغبة لديه في أن يسببوا له مزيداً من المضايقة ، فتوجهوا إلى الموصل وأثاروا اهتمام أتابيجها ، أفسنقر الرسقى ، الذي سبق وأن قاد جيوش السلطان ضد الفرنج عام ١١١٤ م . وكان الرسقى يكره الأرائقة ، فأرسل قادة من عنده لاستلام قلعة حلب بينما انطلق هو نفسه مع الجيش ، برغم مرضه ، تشييعه بركات السلطان . وعندما اقترب من حلب أمر خيرخان صاحب حمص ، وطغتكين صاحب دمشق بالانضمام اليه ، فأرسل كلاهما الكنائب . وقبل استعراض القوة هذا ، كان التحالف الفرنجي - البدوي قد تفكك . إذ رحل ديبس مع قبيلته باتجاه الشرق ، بينما انسحب بلدوين إلى قلعة الأثارب . وفي نهاية يناير دخل الرسقى حلب ، لكنه لم يحاول مطاردة الفرنج فعاد الملك إلى انطاكية ومنها إلى القدس التي وصلها في ابريل ١١٢٥ م بعد غيبة عامين^(٥٥).

(٥٥) Fulcher of Chartres, III, xxxviii-xxxix, 9, 2, pp. 751-6; William of Tyre, XIII, 15, pp. 576-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 172-3; Kemal ad-Din, pp. 645-50; Usama, ed. Hitti, p. 133; Matthew of Edessa, ccxlv, pp. 314-15.

١١٢٥ م : معركة عزاز

ولم ينتظر الملك طويلا في القدس . إذ كان البرسقى أكثر رعبا للفرنج من الأراقة . فقد تمكن من توحيد مسلمى شمال سوريا تحت سلطته لكونه سيد الموصل وحلب ، ويحظى بموازة السلطان ، وخضع طغتكين وأمير حمص لزعامته . فى شهر مارس قام بزيارة شيزر ، التي كان أميرها ، سلطان بن منقذ ، تواقا دائما لمصادقة ذوى الشأن ، فسلمه الرهائن الفرنج ، الأميرة يرفيتا وجوسلين الصغير ورفاقهما . وفى شهر مايو ، قاد تحالفا اسلاميا جديدا وهاجم القلعة الفرنجية كفرطاب واستولى عليها ، وحاصر زردنا . فأسرع بلدوين شمالا لانقاذ زردنا ، وقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فبلغ قوامها ألف ومائة فارس وألفين من جنود المشاة . وانطلق المسلمون إلى عزاز حيث جرت فى نهاية شهر مايو واحدة من أكثر المعارك تعطشا للدماء فى تاريخ الحملات الصليبية . فحاول المسلمون النزال رجل لرجل ، معتمدين على تفوقهم العددي غير أن تفوق لباس الحرب وضخامة ابدان الفرنج كان فوق طاقة المسلمين ، فهزموا هزيمة حاسمة . ومن الغنائم الكثيرة تمكن بلدوين من جمع مبلغ ثمانين ألف دينار المطلوبة لفدية الرهائن ، إذ تخلى كل فارس عن جزء من نصيبه لانقاذ ابنة الملك . ورغم أن المال كان من حق ثمرتاش فى الواقع ، إلا أن البرسقى قبله وأعاد الرهائن . وأرسل مبلغ آخر إلى شيزر لافتداء السجناء والرهائن الذين كانوا ما يزالون هناك . وفور اطلاق سراحهم هاجمهم أمير حمص ، غير أن بنى منقذ سارعوا لانقاذهم وارسلوهم إلى حيث يتخذون طريقهم.

وبعد المعركة أبرم المتقاتلون هدنة . فاحتفظ المسلمون بكفرطاب التي أعطيت لأمر حمص ، ولم تكن هناك تغييرات أخرى على الأرض . وبعد أن ترك البرسقى حامية فى حلب عاد إلى الموصل . وحل السلام على الشمال طوال ثمانية عشر شهرا^(٥٦).

وعاد بلدوين إلى فلسطين ، حيث قام فى خريف ١١٢٥ م بغارة على الأراضي الدمشقية ، ومظاهرة عسكرية لاستعراض القوة أمام عسقلان . وفى يناير ١١٢٦ م قرر قيادة حملة جادة ضد دمشق، وغزا حوران . فجاءه طغتكين لملاقاته ، وتلاقى الجيشان عند تل الشقب ، حوالى عشرين ميلا جنوب غرب دمشق . ومال ميزان الحرب لصالح

(٥٦) -Fulcher of Chartres, III, xlii, 1-xliv, 4, pp. 761-71; William of Tyre, XIII, II, pp. 578 80; Sigebert of Gembloux, M.G.H.Ss. vol. VI, p. 380; Kemal ad-Din, p. 651; Bustan, p. 519; Usama, loc. cit.; Matthew of Edessa, ccxlvii, pp. 315-18, Michael the Syrian, III, p.221.

المسلمين أول الامر ، وتمكنت فصيلة التركمان التابعة لطغتكين من التوغل حتى المعسكر الملكي . لكن بلدوين فاز في النهاية وطارد الأعداء حولاً إلى نصف المسافة باتجاه دمشق ، غير أنه نظراً لخسائره الجسيمة رأى الحكمة في التخلي عن الحملة وانسحب إلى القدس محملاً بالغنائم^(٥٧).

وفي مارس ١١٢٦م هاجم بونز أمير طرابلس القلعة الإسلامية رافنية التي تتحكم في مدخل البقاع من وادي نهر العاصي . وهي هدف فرنجي منذ وقت طويل ، منذ أن استولى عليها طغتكين عام ١١٠٥م . وبينما استنجد حاكمها بطغتكين والبرسقى ، طلب بونز مساعدة الملك بلدوين . وسارع الأميران المسيحيان بالسير إلى القلعة ، قبل أن يتهاً المسلمون للمجئ لانقاذها بوقت طويل . فاستسلمت لهما بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً . وكان الاستيلاء عليها ذا قيمة عظيمة للفرنج ، فزيادة على أنها بمثابة حماية لطرابلس نفسها ، أصبحت تؤمن طرق المواصلات بين القدس وأنطاكية^(٥٨).

وفي تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطوطهم . وفي خريف ١١٢٦م أبحر الاسطول من الاسكندرية لمهاجمة الساحل المسيحي . ولما سمع البرسقى بذلك راح يخطط لهجوم متزامن في الشمال فحاصر الأثارب . وكان بلدوين على حق عندما قرر أن الهجوم الأخير هو الأخطر فأسرع إلى أنطاكية. وما حدث في واقع الأمر أن المصريين قاموا بغارات على ضواحي بيروت ثم وجدوا المدن الساحلية محصنة جيداً بالحاميات حتى أنهم سرعان ما عادوا إلى النيل^(٥٩). وفي الشمال ، انضم جوسلين إلى بلدوين وأجيرا المسلمين على الانسحاب من الأثارب ولم يجازف أيّ من الجانبين بالدخول في معركة . وسرعان ما أعيد إبرام الهدنة . وعاد البرسقى إلى الموصل بعد أن نصب ابنه عز الدين مسعود حاكماً على حلب . وفي نفس يوم وصوله ، ٢٦ نوفمبر ، طعنه أحد الحشاشين طعنات قاتلة^(٦٠).

(٥٧) Fulcher of Chartres, III, xlvi, 1-7, 1, 1-15, pp. 772-4, 784-93; William of Tyr, XIII, 17, pp. 581-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 574-7.

(٥٨) Fulcher of Chartres, III, li, 4, lii, 1, pp. 795-7, 798-9; William of Tyre, XIII, 19, pp. 585-6; Ibn al-Qalanisi, p. 180; Kemal ad-Din, p. 652.

(٥٩) Fulcher of Chartres, III, lvi, 1-5, pp. 803-5; William of Tyre, XIII, 20, pp. 587-8.

(٦٠) Fulcher of Chartres, III, lv, 5, pp. 802-3; Ibn al-Qalanisi, pp. 177-8; Kemal ad-Din, pp. 653-4.

وتسبب موت البرسقى فى فوضى عارمة بين المسلمين ، زادت سوءً بموت ابنه مسعود بعده بأشهر قليلة ، ربما بالنسم ، خاصة وأنه قد تشاجر مع طغتكين . وأما حلب فتجاذبتها أيدي كثيرة . إذ كانت تتأرجح بين طومان ، الذى عيّنه مسعود ، وضلع أبه ، وهو مملوك أرسله السلطان ، وبدر الدولة سليمان الأرتقى ، وابن رضوان ابراهيم السلجوقى^(٦١) .

١١٢٦م : وصول بوهمند الثانى

وفى نفس الوقت على وجه التقريب تنفس بلدوين الصعداء بعد أن استراح من وصايته على انطاكية . ذلك أن بوهمند الثانى الصغير بلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاماً ، وما هو قد أتى ليتسلم ميراثه ، بعد أن تخلص من اراضيه فى ايطاليا لابن عمه روجر الثانى الصقلى . وقد أبحر من أوترانتو فى شهر سبتمبر ١١٢٦م مع أسطول صغير يتألف من أربع وعشرين سفينة تحمل عدداً من الجنود والجياد . ونزل إلى شاطئ السويدية فى وقت مبكر من أكتوبر ، وسار مباشرة إلى انطاكية حيث رحب به الملك بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وقد ترك انطباعاتاً ، إذ كان له مظهر ابيه الفخيم ، بهيئته الطويلة وشعره الأشقر ووسامته ، وأظهر جواً من التنشئة الرفيعة اكتسبه من أمه كونستانس ابنة الملك فيليب الأول الفرنسى . وفى الحال سلمه الملك بلدوين الامارة بكل ممتلكاتها ، وبكل ما كان يتصف به من دقة وأمانة ، وقد تأثر سفير شيزر عميق التأثير عندما رأى الملك منذ آنذاك يدفع للأمير ما كانت تستهلكه جياد جيش القدس . وكان بصحبة الملك ابنته الثانية ، الاميرة أليس ، وتنسيقاً للخطوة المرسومة سلفاً تزوجها بوهمند الثانى . وبدأ بوهمند عهده بداية لامعة ، بهجوم على كفرطاب فاستعادها من أمير حمص ، وسرعان ما نسمع بعد ذلك بشجاعته فى مناورات مع جيش شيزر^(٦٢) .

واستطاع الملك بلدوين أخيراً العودة جنوباً وهو يشعر أن موت البرسقى وبحي

(٦١) Ibn al-Qalanisi, pp. 181-2; Kemal ad-Din, p. 654; Michael the Syrian, III, p. 225.

(٦٢) Fulcher of Chartres, III, lviii, 1-4, lxi, 1-5, pp. 805-9, 819-22) تتوسط تاريخ فولشر عن مخاطر البحر المتوسط وأنواع الثعابين التى توجد على شواطئه. وبعد فصل آخر حول طاعون الفئران عام ١١٢٧م ، ينتهى تاريخ فولشر (William of Tyre, XIII, 21, pp. 588-9; Orderic Vitalis, XI, 9, vol. IV, p. 266; Matthew of Edessa, ccl. p. 319) ماثيو الأورفى أن بلدوين وعد بوهمند باستخلامه على عرش القدس، Michael the Syrian, III, p. 224; Usama, ed. Hitti, p. 159.

بوهمند سوف يتيح له حرية تدبر مملكته . فأمضى سنة ١١٢٧م فى سلام دائم حتى اننا لا نعرف شيئا عن تحركاته ، باستثناء حملة قصيرة شرقى البحر الميت فى شهر اغسطس (٦٣) . وفى باكورة ١١٢٨م مات صديقه المخلص البطريق جورمون . وخلفه قس فرنسى آخر هو ستيفن (أوف لا فيرتيه) رئيس دير القديس جون إنفاليه فى تشارترز ، وهو نبيل المولد ، تربطه قرابة بالملك بلدوين . وكان بلدوين يأمل فى أن تودى روابط القرابة إلى التعاون بروح الود ، لكنه سرعان ما اكتشف انه كان واهما. ذلك أن البطريق الجديد جدد فى الحال مسألة الاتفاق الذى سبق وأن عقده جودفرى مع البطريق ديامبرت . فطالب بأن تكون يافا ملكية ذاتية للبطريرقية ، وذكر الملك بأنه فور أن يتم الاستيلاء على عسقلان ، فلا بد أن تسلم اليه القدس نفسها . ورفض بلدوين الاصات لتلك الطلبات ، لكنه لم يدر كيف يعالجها . وساءت العلاقات بين البلاط الملكى والبطريرقية طوال عام ١١٢٩م . وفى أوائل ١١٣٠م ، اوشكت الأزمة أن تصبح علنية ، لولا أن مات ستيفن بعد فترة مرض قصيرة . وارتاب أصدقاؤه فى السم . إذ عندما جاء الملك لزيارة البطريق المحتضر والاستفسار عن صحته علق هذا الأخير بمرارة : "سيدى ، ها أنا مفارق كرهبتك" . وحقا ، كان موته شيئا مرغوبا . وتدبر بلدوين انتخاب خلفه وليم (أوف ميسينا) رئيس دير القبر المقدس ، وهو رجل شديد الورع والطيبة ، يرغم شئ من البساطة وسوء التعليم . ولم تكن لديه طموحات سياسية ، وكانت سعادته فى إنفاذ مشيئة الملك . ونتيجة لذلك غدا محبوبا من الجميع (٦٤).

١١٢٨م : الاستخلاف على العرش

كان الأمر الثانى الهام أن يرتب بلدوين خلافة العرش . إذ لم تلد له الملكة مورفيا ذكورا ، وانما كان هناك أربع بنات : ميليسند ، وأليس ، وهوديرنا ، ويوفيتا . والآن اصبحت أليس أميرة انطاكية ، واما هوديرنا ويوفيتا فكانتا طفلتين . وتقرر أن تخلفه ميليسند بعد اقترانها بزواج مناسب . وفى ١١٢٨م ، وبعد أن استشار مجلسه ، ارسل وليم (أوف بور) ، ومعه لورد بيروت ، جوى بريسبار إلى فرنسا ملتصبا من ملك

(٦٣) Ibn al-Qalanisi, p. 182.

(٦٤) William of Tyre, XIII, 25-6, pp. 594-5, 598; أحيانا كان يسمى الراهب وليم (أوف مالينز of Malines) وأما ميسينا Messines فهى تقع فى غرب فلاندرز.

فرنسا لويس السادس أن يختار من بين النبلاء الفرنسيين رجلا مناسباً لهذا المقام الرفيع . ورشح الملك كونت أنجو ، فولك الخامس ، الذى كان فى الأربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ، ريشين ، ومن زوجته برترادا (أوف مونت فورت)، والتى اشتهرت بعلاقة الزنا مع الملك فيليب الأول ملك فرنسا. وكان فولك رئيس عائلة عظيمة قامت خلال العقدين الماضيين ببناء واحدة من أغنى الثروات الاقطاعية الهائلة فى فرنسا ، وأضاف إليها هو نفسه اضافات كثيرة عن طريق الحرب ، والزواج ، والدسائس . وفى نفس ذلك العام حقق نصرا عائليا بتزويج ابنه الصغير ووريثه ، جيوفرى ، من الامبراطورة الأرملة ماتيلدا ، وهى الابنة الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من هنرى الأول الإنجليزى ووريثة إنجلترا ونورماندى. وفولك الآن أرملة ، وقد قرر أن يتخلى عن اراضى العائلة لابنه ، ويكرس نفسه لخدمة الصليب . وقد سبق وان ذهب إلى القدس حاجا عام ١٢٠١م ، ولذلك كان بلدوين يعرفه معرفة شخصية . ولما كان مرشحا مرموقا هكذا ، ويحظى بتأييد ملك فرنسا ، وموازرة البابا هونوريوس الثانى ، فقد قبله الملك بلدوين بمشاعر الغبطة ، وكان تواقا لأن تحوز ترتيبات الاستخلاف استلطاف النبلاء فى مملكته ، فمن المستحيل على أى من هؤلاء النبلاء أن يجادل فى مزايا هذا الأمير المحارب ، الذى يتميز بهذه الرفعة ، وزوج كبرى كرىمات الملك.

غادر فولك فرنسا فى اوائل الربيع من عام ١٢٩م ، يصحبه وليم (أوف بور) وجوى بريسبار . ونزلوا إلى البر فى عكا فى شهر مايو وتوجهوا إلى القدس . وهناك ، وفى اواخر الشهر ، تزوج فولك وميليسند فى حفول عظيمة مبهجة . وقد حاز هذا الترتيب قبول البلد بأسره ، ربما باستثناء واحد . إذ أنه لم يحرك ساكنا لدى الاميرة ميليسند نفسها ، بقامته القصيرة ، ونحافته ، وشعره الأحمر ، وعمره الوسط ، والذى فرضته عليها فرضا مزايه السياسية (٦٥).

(٦٥) William of Tyre, xiii, 24, p. 593, xiv, 2, p. 608; Halphen et Poupardin, *Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambazientium Dominorum*, p. 115 and *Gesta Consulum Andegavorum*, pp. 69-70. كان فولك قد تزوج Arenburga أو Guibergera ، وريثة Maine حوالى عام ١١٠٩م ، وواصل الحرب ضد هنرى الأول الإنجليزى بسبب ميراثها. وقد انتهت المشكلة بزواج ابنه جيوفرى (١٧ يونيو ١١٢٨م) من الامبراطورة ماتيلدا وكانت ابنته سييلا قد تزوجت من Thierry اوف الزاس، كونت فلاندرز. وقد حج بالفعل إلى القدس عام ١١٢٠ (وليم الصورى ص. ٦٠٨). ويرد خطاب البابا هونوريوس الثانى إلى بلدوين الذى يطريه فيه ، فى Rozière, *Cartulaire du Saint Sépulcre*, pp. 1718.

١١٢٦ م : الحشاشون فى بانياس

شرع بلدوين فى عام ١١٢٩ م بمساعدة فولك فى اضخم مشاريع عهده كله ، ألا وهو غزو دمشق . فقد مات طغتكين صاحب دمشق يوم ١٢ فبراير ١١٢٨ م ، وكان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل مافى السيادة من معنى ، واكثر شخصيات المسلمين احتراماً فى غربى سوريا^(٦٦) . وقبل ذلك ببضع سنوات تمكن أحد زعماء الحشاشين ، وهو باهرام من استرأباد ، من الهرب من فارس وذهب إلى حلب ، ورسخ نفسه قائداً للحركة الاسماعيلية السرية فى شمال سوريا . ورغم ما كان يلقاه من مساندة ايلغازى ، كان ابناء حلب يمتقون هذه الطائفة ، وأجبر باهرام على النزوح من حلب ، قادماً إلى دمشق وهو يعول على التوصية التى منحها اياه ايلغازى ، فاستقبله طغتكين استقبالا حسناً . واستقر هناك ، واخذ يجمع المناصرين من حوله شيئاً فشيئاً ، وفاز بتعاطف المزدقانى وزير طغتكين . وتعاضمت قوة الطائفة مع انكار أهل دمشق السنين ، ولذا طلب باهران الحماية من المزدقانى . ونزولاً على طلب الوزير ، قام طغتكين فى نوفمبر ١١٢٦ م بتسليم الطائفة القلعة الحدودية بانياس - الواقعة تحت تهديد الفرنج - وبذا باتت الآمال تراود طغتكين فى استغلال نشاطات الطائفة . وأعاد باهرام تحصين القلعة وجمع حوله كل اتباعه ، وسرعان ما بدأوا يرهبون الجوار . أما طغتكين ، الذى كان ما يزال يوفر لهم الحماية من الناحية الرسمية ، فقد أزمع القضاء عليهم ، لكن المنية عاجلته قبل أن تسنح له الفرصة . وبعد ذلك بأشهر قليلة قتل باهرام فى صدام مع قبيلة عربية بالقرب من بعلبك كان باهرام قد قتل شيخها . وتولى من بعده فارسى آخر يدعى اسماعيل^(٦٧) .

وخلف طغتكين ، كأتابع دمشق ، ابنه تاج الملك بورى ، الذى عقد العزم على أن يخلص نفسه من الحشاشين . واتخذ خطوته الاولى فى سبتمبر ١١٢٩ م ، بأن قتل فجأة راعى الطائفة ، الوزير المزدغانى ، بينما كان حاضراً المجلس فى الايوان الوردى فى دمشق . وفى التو اندلعت فى دمشق أعمال الشغب ، التى كانت من دبير بورى ، وقُتل كل من وقعت عليه الايدى من الحشاشين . وفى بانياس ، شعر اسماعيل بالخطر ، فبدأ مفاوضات مع الفرنج لكى ينقذ شيعته .

وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها الملك بلدوين . إذ انه لدى سماعه بموت

(٦٦) Ibn al-Qalanisi, pp.183-6; Ibn al-Athir, pp.317-18

(٦٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 179-80, 187-91; Ibn al-Athir, pp 382-4.

طغتكين ، أرسل هيو (أوف باين) ، وهو السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إلى أوروبا لتجنيد الجنود هناك معلنا أن دمشق باتت الهدف . وعندما جاءت رسلة اسماعيل ، شرع جنود الفرنج في استلام بانياس من الحشاشين ، وبدأوا يعدون العدة كي يستقر بها اسماعيل وطائفته في داخل الأراضي الفرنجية . وهناك مرض اسماعيل بالدوستاريا ، ومات بعد ذلك بأشهر قليلة وتفرق أتباعه^(٦٨) ، وجاء بلدوين نفسه إلى بانياس في أوائل نوفمبر على رأس جيش القدس كله الذي زاد ضخامة بوصول الوافدين الجدد من الغرب . وتقدم دون مقاومة جادة وعسكر عند الجسر الخشبي ، الذي يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب دمشق . وحشد بوري جيشه قبالتهم والمدينة من خلفه . ولم يتحرك أي من الجيشين لعدة أيام ، وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل تتألف أساسا من الوافدين الجدد ، تحت قيادة وليم (أوف بور) لجمع الطعام والمواد قبل أن يجازف بمحاصرة المدينة . على أن وليم لم يستطع السيطرة على رجاله الذين كان اهتمامهم منصبا على السلب والنهب أكثر من اهتمامهم بجمع المون بطريقة منظمة . وعلم بوري بذلك . وفي باكورة أحد الأيام المتأخرة من نوفمبر ، انقض فرسانه التركمان على وليم وهو على بعد عشرين ميلا جنوب المعسكر الفرنجي . وحارب الفرنج بشدة ، لكنهم غلبوا ، ولم يسلم منهم سوى وليم نفسه وخمسة وأربعين من رفاقه بقوا على قيد الحياة ليخبروا الملك بما حدث^(٦٩).

وقرر بلدوين السير في التو للملاقاة الاعداء وهم يحتفلون بنصرهم ، وأعطى الأمر بالتقدم . وفي تلك اللحظة بدأت الأمطار تهطل بغزارة السيول الجارفة ، واستحال السهل إلى بحر من الطمي ، ونشأت أنهار عميقة قطعت الطرق بعرضها . وفي مثل هذه الظروف يكون الهجوم مستحيلا . وأصيب الملك بخيبة أمل مريرة ، فتخلى عن أية فكرة لمواصلة الحصار . وانسحب الجيش الفرنجي انسحابا بطيئا وانما في نظام مشي إلى بانياس ، ومنها إلى داخل فلسطين ، حيث تفرق الجيش^(٧٠).

(٦٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 191-5; Ibn al-Athir, pp. 384-6.

(٦٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 195-8.

(٧٠) William of Tyre, xiii, 26, pp. 595-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 198-200.

١١٢٧ م : نزاع بين بوهمند الثاني وجوسلين

أسهمت أحداث الشمال في اشتداد قسوة الشعور بخيبة الأمل . إذ كان بلدوين يأمل في أن ينتهز بوهمند الثاني وجوسلين ما عمّ حلب من فوضى ويستوليا أخيراً على المدينة الإسلامية العظيمة . على أنه بالرغم من نجاح غارات كل منهما على أراضي حلب في خريف ١١٢٧ م ، كان التعاون بينهما بعيداً ، فكل منهما غير من صاحبه . وكان جوسلين بهدنة مع البرسقي ، قد حصل على مقاطعات كانت أنطاكية تحتلها لفترة من الزمن . وما هو أسوأ ، أن ماريا زوجة جوسلين الثانية ، أخت روجر أمير انطاكية ، كانت قد حصلت على وعد بان يكون مهرها مدينة عزاز ، بينما اعتبر بوهمند أن روجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له في أن يهب أرضاً أنطاكية . ورفض الاتفاق ، مما دفع جوسلين إلى توجيه جنوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للاغارة على القرى الأنطاكية القريبة من الحدود . وأطلق البطريق برنارد حرماناً من شركة المؤمنين ضد إمارة الرها كلها ، لكن ذلك لم يردع جوسلين . وأحيط الملك علماً بأنباء النزاع ، فتملكه الحنق ، واسبغ باتجاه الشمال في أوائل ١١٢٨ م ، وأجبر الأميرين على التصالح مع بعضهما . ولحسن الحظ أصيب جوسلين ، الذي كان أكثر شراسة ، بمرض فجائي ارتأى فيه عقوبة من السماء ، ووافق على أن يعيد إلى بوهمند الأسلاب التي أخذها ، والظاهر أنه تخلى عن مطالبته بمدينة عزاز . غير أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان . إذ ضاعت فرصة ذهبية في العام التالي في دمشق ولن تتكرر قط . إذ وجد الاسلام بطلاً جديداً بالغ القوة^(٧١).

ذلك أن الخليفة العباسي المسترشد ، الذي خلف الشاعر الودود المستظهر عام ١١١٨ م ، فكّر خلال الأشهر الأخيرة من عام ١١٢٦ م ، في استغلال النزاعات العائلية بين سلاطين السلاجقة كي يتحرر من سيطرتهم ، مما اضطر السلطان محمود ، وكانت بغداد واقعة ضمن مناطق نفوذه ، إلى أن يتوقف عن الصيد لارسال جيش إلى هناك ، وأمر عليه قائده عماد الدين زنكي . وقد ذاعت شهرة زنكي في الحروب ضد الفرنج ، وكان أبوه أقسنقر حاكماً لحلب قبل فترة الحملات الصليبية . وبعد حملة يسيرة ، تمكن زنكي من الإيقاع بقوات الخليفة في (منطقة واسط) ، وأجبر الخليفة على الطاعة . وسرّ الخليفة المسترشد مما أبداه زنكي من تصرف فيه الحذق واللباقة بعد انتصاره ، وعند تعيين اتابج جديد للموصل بعد موت البرسقي ، جاء بذهن السلطان محمود تعيين

William of Tyre, XIII, 22, p. 590; Michael the Syrian, III, p. 224; Kemal ad-Din, p. 665. (٧١)

شيخ القبيلة البدوي دويس ، غير انه وافق الخليفة على أن زنكى مرشح افضل . وتم تنصيب ابن السلطان ، ألب ارسلان الشاب ، أميراً للموصل مع زنكى كأناجه . وأمضى زنكى شتاء عام ١١٢٧م فى الموصل ينظم حكومته هناك . وفى ربيع عام ١١٢٨م سار إلى حلب مدعياً أنها جزء من أراضى البرسقى . وكان سكان حلب قد اجهدهم ما عانوه من الفوضى ، فاستقبلوه بمشاعر البهجة ، ودخل المدينة فى موكب حافل يوم ٢٨ يونية^(٧٢) .

ورأى زنكى فى نفسه بطل الإسلام ضد الفرنج ، لكنه لم يشأ أن يضرب الآ عندما يعد للأمر عدته . فأبرم هدنة مع جوسلين تستمر أربع سنوات ، راح اثناءها يعزز من قوته فى سوريا . وسارع اميرا شيزر وحمص إلى الاعتراف بسيادته عليهما . ولم يكن يخشى الأول ، أما الثانى فقد حثه على مساعدته فى حملة ضد حماه التابعة للإملاك الدمشقية ، مع الوعد بمنحه حق ولايتها . على انه ما أن تم الاستيلاء على حماة حتى استبقاها زنكى لنفسه وسجن خير كان أمير حمص ، رغم عدم تمكنه من الاستيلاء على حمص ذاتها . وكان بورى أتابج دمشق ، الذى وعد بالانضمام اليه فى الجهاد ضد المسيحيين ، مشغولاً للغاية فى حروبه ضد القدس بحيث لم يعترض بصورة ايجابية على ما اقدم عليه زنكى . وبنهاية عام ١١٣٠م كان زنكى سيد سوريا دون منازع حتى حمص جنوباً^(٧٣) .

١١٣٠م : مصرع بوهمند الثانى

وفى نفس ذلك العام أصيب الفرنج بكارثة جسيمة . إذ كان بوهمند الثانى يطمح فى أن يضم إلى امارته كافة الاراضى التى كانت تضمها من قبل . كانت القوة الانطاكية تتدهور فى كيليكية ، وكانت طرسوس وأدنة مائتالان فى أيدي الفرنج ، ويبدو انهما كانتا بمثابة مهر أرملة روجر ، سيشيليا أخت الملك بلدوين ، وقد بقيت الحامية الفرنجية فى المصيصة . أما فى داخل البلاد الأبعد ، فقد كانت (عين زربة) فى قبضة الأمير الأرمنى ثوروس الروينى الذى اتخذ عاصمته فى سيس القرية . وقد مات ثوروس عام ١١٢٩م ، ومات ابنه قنسطنطين بعده بأشهر قليلة فى احداث مكيدة فى

(٧٢) عن تاريخ زنكى حتى عام ١١٢٨م انظر Cahen, op.cit. pp.306-7, and nn. 12 and 13 (with references).

(٧٣) Ibn al-Qalanisi, pp. 200-2; Kemal ad-Din, p. 658; Matthew of Edessa, cclii, p. 320.

القصر . وكان الأمير التلى هو ليو الأول ، شقيق ثوروس^(٧٤) وظن بوهمند أن اللحظة قد حانت لاسترداد (عين زربة) . وفى فبراير ١١٣٠م زحف بقوة صغيرة أعلى نهر جيحان نحو غايته . وشعر ليو بالخطر وطلب المساعدة من الأمير غازى، الدانشمندى ، الذى تصل اراضيه الآن إلى جبال طوروس . ولم يعلم بوهمند بهذا التحالف، وبينما كان يتقدم أعلى النهر بلا اكتراث لما كان يقابله من مقاومة طفيفة ، انقض عليه الأتراك الدانشمند وقتلوا رجال جيشه كلهم . وقيل إن الأتراك لو تعرفوا على الأمير نفسه لأبقوا على حياته طمعا فيما كان سيدفع من فدية. لكن الذى حدث أن الأمير الدانشمندى أخذ رأسه وحَنَطها وجعلها شعارا أرسله هدية إلى الخليفة^(٧٥).

وتسبب تدخل بيزنطة فى عرقلة الأتراك عن متابعة انتصارهم ، وبقيت عين زربة فى حوزة الأرمن^(٧٦) . غير أن موت بوهمند كان بمثابة الكارثة لأنطاكية ، فقد تولى بوهمند اماره انطاكية بحق الوراثة ، وتقضى العواطف بأن تنتقل حقوقه إلى وريثه . غير أن زواجه من أليس لم ينجب سوى طفلة واحدة فى الثانية من عمرها تدعى كونستانس . وكان ينبغي أن يقوم الملك ، مستخدما حقه بصفته السيد الأعلى ، بتعيين وصى لها . لكن أليس ، ودون انتظار تلك الخطوة من أبيها ، تولت الوصاية لتوها. لكنها كانت طموحة . وسرعان ما انتشرت الشائعات فى انطاكية انها تريد أن تحكم لا كوصية ، وإنما باعتبارها السيد الحاكم . وكان من المقرر أن تودع الطفلة كونستانس داخل اسوار الدير ، أو عندما تصل البلوغ ، تتزوج من زوج فقير . وهكذا فقدت الأم الشاذة شعبيتها فى الامارة ، التى يشعر فيها الكثير من الرجال بأن هذه الأوقات تستدعى وصيا محاربا . وعندما سمعت أليس أن الملك فى طريقه إليها من القدس ، شعرت بأن القوة تنزلق من قبضتها، فالتحذت خطوة يائسة . إذ كان هناك رسول فوق صهوة جواد تحيطه الزينة ومحلّى بأزهى الأغطية المزركشة ، يسرع العدو إلى حلب ، إلى أتابعها زنكى ، تعلن له انها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك انطاكية.

Vahram, *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 500. (٧٤)

William of Tyre, xiii, 27, pp.598-9; Orderic Vitalis, xi, 10, vol. iv, pp. 267-8; (٧٥)
Romuald, M.G.H.Ss. vol. xiv, p.420; Michael the Syrian, iii, p. 227; *Chron. Anon.*
Syr. pp.98-9; Ibn al-Athir, p. 468.

Michael the Syrian, (iii, p.230) (٧٦) بقرل ميخائيل إن جون كومنينوس بدأ فى الحال هجوما على الأتراك . (انظر ادناه ص ٢٤٦).

وكان الملك بلدوين قد اسرع إلى الشمال مع زوج ابنته فولك، على اثر سماعه بموت بوهمند، ليتولى الرصاية على الوريث ويعين الوصى. وباقتراه من المدينة، القت قواته القبض على مبعوث أليس إلى زنكى. فشنته الملك فى الحال. وعندما ظهر امام انطاكية وجد ابنته قد أغلقت البوابات فى وجهه. فاستدعى جوسلين لمساعدته وعسكر امام المدينة. وفى داخل المدينة فازت أليس بتأييد مؤقت بعدما اغرقت الجنود والناس بالمال من خزانة الإمارة. وربما كانت الدماء الأرمنية التى تجرى فى عروقها جعلتها محبوبة بين المسيحيين الوطنيين. غير أن النبلاء الفرنج لن يوازروا امرأة ضد سيدهم. وبعد ايام قليلة قام فارس نورماندى، وليسم (أوف افرس)، والراهب بطرس اللاتينى، بفتح بوابة الدوق لجوسلين، وبوابة القديس بولس لفولك. وفى اليوم التالى دخل الملك. وحجزت أليس نفسها فى برج من الأبراج، ولم تظهر الا عندما ضمن لها وجهاء المدينة حياتها وتلى ذلك مقابلة مؤلمة بين بلدوين وابنته التى ركعت أمامه مرعوبة فى عارها. وأراد الملك تجنب الفضيحة، ولا شك فى أن قلب الأب بداخله قد خفق لابنته، فغفر لها، لكنه أبعداها عن الرصاية ونفاها إلى اللاذقية وجبلية، وهى الأراضى التى منحها لها بوهمند الثانى مهرا. وباشر هو نفسه الرصاية، وحصل من كل لوردات انطاكية على القسم له ولحفيدته معا، وبعد أن عهد إلى جوسلين بمسؤولية الرصاية على انطاكية وأميرتها الطفلة، عاد إلى القدس فى صيف ١١٣٠م^(٧٧).

١١٣١م : موت بلدوين الثانى وجوسلين الأول

وكانت تلك آخر رحلاته. إذ أضنته حياة طويلة حافلة بنشاط لا ينتهى لم يقطعها سوى فترتين بيمستين قضاها فى الأسر. وبدأت صحته تنهار فى ١١٣١م، وبحلول أغسطس، بدا جلياً انه يحتضر. وأبدى رغبته فى أن ينقل من القصر فى القدس إلى مكان اقامة البطريق الملحق بمباني كنيسة القبر المقدس، حتى يموت أقرب ما يمكن من الجمجمة^(٧٨). وعندما شارف على النهاية استدعى نبلاء المملكة إلى حجرته، ومعهم ابنته ميليسيند وزوجها فولك وابنها وسميه بلدوين البالغ من العمر سنة واحدة. ومنح

William of Tyre, xiii, 27, pp. 599-601; Micael the Syrian, iii, p. 230; Kemal ad-Din, (٧٧) pp. 660-1.

(٧٨) (المترجم) الجمجمة Calvary، أو الموضع الذى صلب فيه المسيح خارج اورشليم.

هولك رمببسيديد بر كاته ودعا الجميع إلى فبرهما على انهما سيدا المملكة . وكان هو نفسه مرديا رداء كاهن تحت رسامته كاهنا من كهنة كنيسة القبر المقدس . وتمت رسامته بالكاد قبل أن يموت يوم الجمعة ٢١ اغسطس ١١٣١ م ، ودفن في كنيسة القبر المقدس ، وسط نواح يستحقه ملك عظيم^(٧٩) .

ولم يعيش ابن عمه ورفيقه القديم جوسلين كونت الرها فترة طويلة بعده . وفي الوقت الذي كان فيه الملك يموت تقريبا ، راح جوسلين يحاصر قلعة صغيرة شمال شرق حلب ، وبينما كان يتفقد رجاله انهيار من تحته أحد الأنفاق كان رجاله قد حفروه . وكانت جراحاته بالغة وتددت الآمال في شفائه . وبينما هو راقد يحتضر ، جاءت الأنبياء بأن الأمير الدانشمندی غازي قد رحف على مدينة كيسوم ، وهي القلعة العظيمة التي نصب فيها جوسلين مؤخرا بطريق انطاكية اليعقوبى . وشدد الأتراك ضغطهم على كيسوم ، وأمر جوسلين ابنه بالذهاب لانقاذها . غير أن جوسلين الصغير اجاب بأن جيش الرها ضئيل للغاية بحيث تنتفى صلاحيته . فما كان من الكونت المسن إلا أن نهض من فراشه ، وحملوه في محفة على رأس جيشه ليحارب الأتراك . وجفل غازي من انباء قدومه ، إذ كان يظنه قد مات فعلا ، وفي حالة القلق التي راودته رفع الحصار عن كيسوم . وجاء من المدينة رسول يعدو ليخبر جوسلين الذي أمر بأن توضع محفته على الأرض حتى يتمكن من توجيه الشكر إلى الرب . وكان الجهد والانفعال فوق احتماله ، فمات هناك على حافة الطريق^(٨٠) .

وموت بلدوين وجوسلين ، يأتي الجيل القديم من الرواد الصليبيين إلى نهايته . وفي السنوات التي سوف تلى ، نجد انماطا جديدة من النزاعات بين صليبي الجيل الثاني . رجال ونساء من أمثال جوسلين الثاني والأميرة أليس ، أو من مثل بيت طرابلس ، المهياً لأن ينتظم في نمط الحياة الشرقية ، ولا يعبأ إلا بالحفاظ على ما في

(٧٩) William of Tyre, XIII, 28, pp. 601-2; Orderic Vitalis, XII, 23, vol. iv, p. 500 . Ibn al Qalanist, pp 207-8 يذكر ابن القلانيسي تاريخ الوفاة يوم الخميس ٢٥ رمضان ، لكنه يخطئ العام ويذكر (٥٢٦ هجرية) .

(٨٠) William of Tyre, xiv, 3, pp. 609-11; Michael the Syrian, III, 232; *Chron. Anon. Syr* pp 99-100

حوزته من ممتلكات، والوافدين الجدد الآتين من الغرب نسيتمهم العدوانية ، غير
المصقولين ، الذين يستعصى عليهم الفهم ، من أمثال فولك ، أم محمود (أوف بواتيه)،
أو رينالد (أوف شاتيلون) المشنوم^(٨١).

(٨١) Ibn al-Athir, pp. 389-90 يتحقق ابن الأثير من الظروف المتغيرة واحتفاء برؤى الصليبيين من ناحية، وبداية الوحدة الإسلامية تحت راية زنكي من ناحية أخرى

الفصل الثانى:

الجيل الثانى

البيل الثاني

"لَأَنَّهُمْ وَكَدُوا أَوْلَادًا أَجْنَبِيَّينَ"

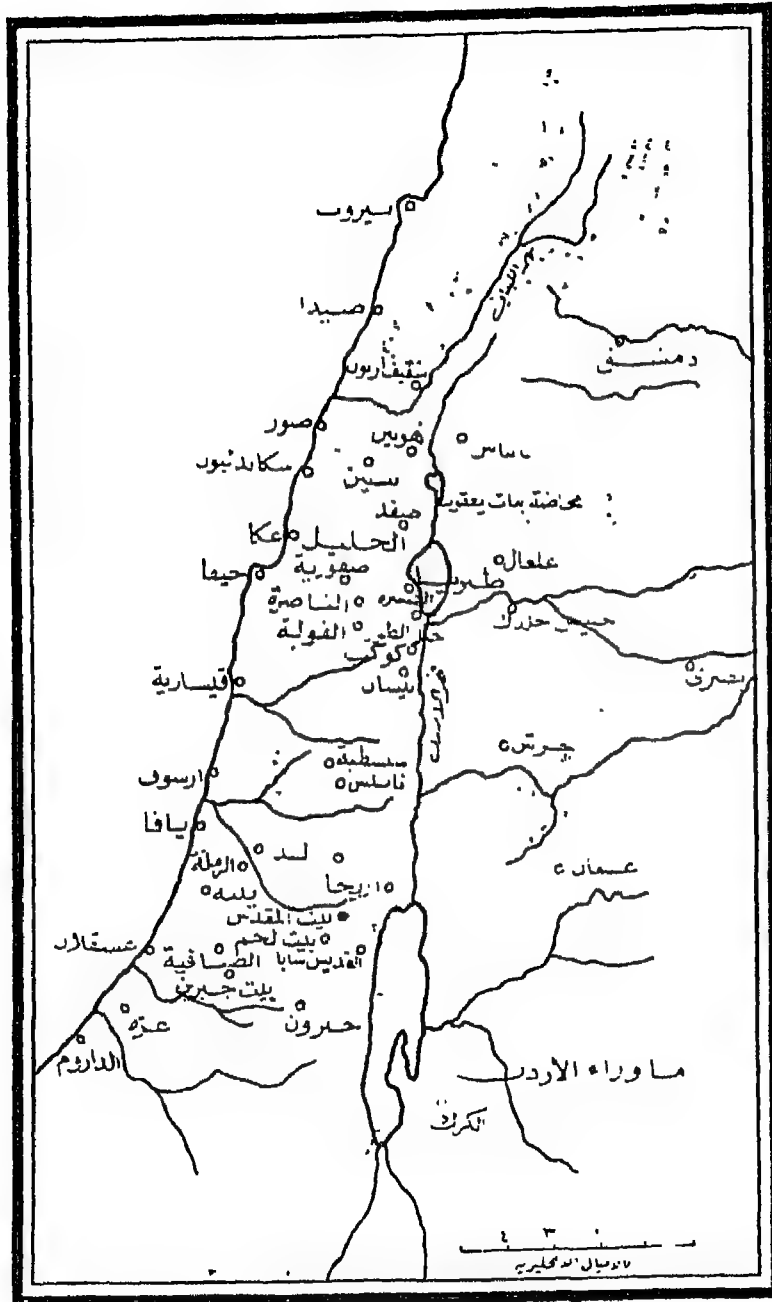
(مُوشَع ٥ : ٧)

في ١٤ سبتمبر ١١٣١ م ، وبعد ثلاثة أسابيع من وفود الملك بلدوين الثاني ساجيا
ليستريج في كنيسة القبر المقدس ، شهدت الكنيسة ذاتها تتويج الملك فولك والملكة
ميليسند . وأقيمت الحفول البهيجة في مناسبة استخلاف العاهل الجديد^(١).

على أنه بينما قبل بارونات مملكة القدس الملك فولك دون تردد ، كان أمراء
الشمال الفرنج أقل استعدادا لقبوله كسيد أعلى . إذ سبق وأن كان كل من بلدوين
الأول وبلدوين الثاني سيذا أعلى لجميع الدويلات الفرنجية لأن لكل منهما من القوة
والشخصية ما يمكنه من ذلك . غير أن الوضع القانوني لم يكن واضحا بأي حال من
الأحوال ، ففي حالة الرها ، اعترف جوسلين الأول - كبلدوين الثاني من قبله -

بسيادة سلفه عندما غدا سلفه هذا ملكا للقدس وورثه الإقطاعية . فهل يعني ذلك الترتيب أن يصبح ورثة جوسلين أتباعا لورثة بلدوين الثاني؟ فى طرابلس خضع الكونت برتراند لسيادة بلدوين الأول كى يوفر الحماية لنفسه من عدوان تنكريد ، غير أن ابنه بونز حاول فعلا انكار حقوق بلدوين الثانى ، ولم يعترف بتلك الحقوق الا لأنه كان يفتقر إلى ما يكفى من القوة لتحدى قوات الملك . وفى انطاكية ، اعتبر بوهمند الأول نفسه أميرا ذا سيادة . وأما تنكريد ، وبرغم انه كان وصيًا فقط وليس أميرا ، فقد رفض أن يعتبر نفسه تابعا للملك إلا فيما يتصل بامارته للجليل . وعلى الرغم من أن روجر وبوهمند الثانى قد اعترفا ببلدوين الثانى سيدا أعلى ، فمن الجائز الجدل بأنهما كانا مخطئين فى ذلك . وكان الوضع معقدا بما كان الامبراطور البيزنطى يطالب به من حق مشروع فى الحصول على انطاكية والرها ، بموجب المعاهدة المبرمة بين الامراء والامبراطور فى القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، والحصول أيضا على طرابلس بسبب ما اعترف به الكونت برتراند من سيادة للامبراطور .

وأدت خلافة فولك إلى إثارة المسألة برمتها. فتولت أليس ، شقيقة زوجته ، زعامة مريحة المعارضة لسيادته العليا ، وقد خضعت لأبيها الملك بلدوين وهى فى خزى شديد، لكنها الآن أعادت تأكيد مطالبها بأن تكون وصية على ابنتها الصغيرة . وفى حالة إمكان التوصل إلى أن ملك القدس ليس السيد الأعلى لأنطاكية فلن تكون مطالبها هذه بلا أساس تستند إليه ، إذ أنه من المعتاد فى كل من بيزنطة والغرب منح الوصاية لأم الطفل الأمير . وقد كان موت جوسلين الأول ، بعد شهر تقريبا من موت بلدوين ، فرصة أتاحت لها ؛ إذ أن جوسلين كان وصيا على الأميرة الصغيرة كورنستانس ، ولن يلجأ بارونات انطاكية إلى تعيين ابنه جوسلين الثانى وصيا مكان أبيه. وكان كونت الرها الجديد ينصت إلى ما كانت أليس تتملقه به من إطراء وهو فى حالة من خيبة الأمل ، فلا شك فى انه هو الآخر غير مستعد لقبول فولك سيدا أعلى له . وأيدها بونز امير طرابلس أيضا ، وكانت زوجته سيشيليا قد حصلت من زوجها الأول ، تنكريد ، على أراضى قلعة اليعمور (روج) وأرزغان مهرانها، ومن ثم أصبح من خلالها أحد عظام بارونات الإمارة الأنطاكية . وأيقن من أن تحرر انطاكية من القدس سوف يمكن طرابلس من أن تسير على نفس الدرب . وقد فازت أليس فعلا بتأييد أرفع البارونات شأنا فى جنوب الامارة وهم: الأخوان وليم وغارينتون فى زردنا، ولوردات صهيون، وهى القلعة العظيمة التى شيدها البيزنطيون على التلال الواقعة خلف اللاذقية؛ وكان لديها أنصارها فى أنطاكية نفسها. غير أن أغلب لوردات انطاكية كانوا ينحشون



خريطة رقم (٣) مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

من أن تحكمهم امرأة. وعندما سمعوا شائعات بما تدبره أليس أرسلو معوقا إلى القدس لاستدعاء الملك فولك.

وفي الحال انطلق فولك من القدس مع جيش كان الأمر محديا ليس بوسعه تجاهله. وعندما وصل إلى حدود طرابلس رفض بونز أن يدعه يمر وكانت الكونتيسة سيشيليا أخت غير شقيقة لفولك، ولم تفلح مناشدته لها باسم حقوق القرابة. وكان على جيش القدس أن يتقدم بحرا من بيروت إلى السويدية. وما أن هبط في الأراضي الأنطاكية حتى زحف الملك جنوبا وهزم الحلفاء المتمردين في شاستيل روج (اليحمور). لكنه لم يكن على ما يكفي من القوة لمعاقبة أعدائه. إذ اعتذر له بونز وتصالحا. وبقيت أليس دون أن يلحقها أذى في اللاذقية، في أراضيها التي أخذتها على سبيل المهر. وغفر للأخوين وليم وجاريتون (أميرا صهيون)، وكذلك جوسلين كونت الرها الذي لم يكن حاضرا في المعركة. ومن المشكوك فيه ما إذا كان فولك قد حصل على قسم الولاء من أي من بونز أو جوسلين، ومن مواضع الشك كذلك مدى نجاحه في تحطيم الحزب الذي تحزب لأليس. وبعد شهور قليلة قتل وليم (أمير صهيون) في غارة إسلامية صغيرة على زردنا، وعلى الفور تزوج جوسلين أرملته بياتريس التي ربما منحته زردنا باعتبارها بائنتها. على أن السلام تحقق في ذات الوقت. واحتفظ فولك نفسه بالوصاية على أنطاكية، وعهد بإدارتها إلى وكيل الإمارة (الكونستابل)، رينالد مازوار لورد مرقب. وعاد هو نفسه إلى القدس ليشارك في مأساة مرعبه في البلاط^(٢).

١١٣٢م: هيو (أوف لو بواسيه) والملكة ميليسند

كان من بين النبلاء شاب وسيم يدعى هيو (أوف لو بواسيه) لورد يافا. وكان أبوه، هيو الأول (أوف لو بواسيه) الأورليانزي، وهو ابن عم مباشر للملك بلدوين الثاني، زعيما للمعارضة البارونية للملك لويس السادس ملك فرنسا، ودمر في عام ١١١٨م قلعة (لو بواسيه) وحرمه من أقطاعيته. وكان شقيقا هيو 'جيلدون'،

(٢) William of Tyre, xiv, 4-5, pp 611-14; Michael the Syrian, iii, p. 233; Kemal ad-Din, p. 664, ويقول كمال الدين إن وليم صاحب زردنا قتل في الحرب الأهلية ولكن ابن القلانيسي (p. 125) يقول إن وليم قد قتل في وقت مبكر من عام ١٠٣٣م. والراجح أن يعود تاريخ تمرد أليس إلى وقت مبكر من عام ١١٣٢م.

راهب دير القديسة ماري جوزافات ، واليران امير البيرة ، قد ذهبوا بالفعل إلى الشرق . وعندما أصبح بلدوين مؤخرًا ملكًا للقدس ، قرر هيو اللحاق بهم ومعه زوجته ماييللا^(٣) . وانطلقا مع ابنتهما الصغير هيو وأثناء مرورهم في أبوليا سقط الولد مريضًا ، فتركاه هناك في بلاط بوهمند الثاني وهو ابن عم ماييللا المباشر . ولدى وصولهما فلسطين منحهم بلدوين لوردية يافا . ومات هيو الأول بعد ذلك مباشرة ، وعلى اثر ذلك انتقلت ماييللا واقطاعيتها إلى فارس ولونى^(٤) هو ألبرت (أوف نامور) . وسرعان ما سار كل من ماييللا والبرت على نفس دربه الذي انتهى بهما إلى القبر . وأما هيو الثاني ، وهو الآن في نحو السادسة عشرة من عمره ، فقد أبحر من أبوليا للمطالبة بحيرائه . واستقبله بلدوين استقبالا حسنا وسلمه اقطاعية والديه ، وأبقاه في البلاط الملكي حيث كان أهم رفاقه ابنة عمه الأميرة الصغيرة ميليسيند . وفي نحو عام ١١٢١ م تزوج إمّا، ابنة اخت البطريق ارنولف وأرملة أيوستاس جارنييه ، وهي سيدة في سن ناضجة غير أن أملاكها كانت شاسعة . وفتنّها زوجها الطويل الرسيم ، غير أن ابنيها التوأمين ايوستاس الثاني وريث صيدا ، والثر وريث قيسارية ، كانا يكرهان زوج امهما الذي كان يكبرهما بقليل^(٥) وفي أثناء ذلك تزوجت ميليسيند من فولك ، ولم تحفل به مطلقا برغم حبه الكبير لها . وبعد تولي العرش استمرت في ألفتها مع هيو ، وشاع في البلاط القيل والقال ، فتمكنت الغيرة من فولك . وهناك اعداء كثيرون يعادون هيو بزعامة ابني زوجته ، فأشعلوا شكوك فولك ، وأخيرا ، جمع هيو حوله -

(٣) كانت أم هيو الأول (أوف لو بواسيه) واسمها أليس (أوف مونتهيرى)، أخت أم بلدوين الثاني ميليسند (خاتنه). وهذا وارد في Cuissard, *Les Seigneurs du Puiset*, p. 89. ومن الواضح ان الراهب جيلدون (أوف سانت ماري جوزافات) ، واليران صاحب البيرة ، كانا أخويه . وماييللا هي ابنة هيو كونت روسي وامها هي سييللا ابنة روبرت جيسكارد ، كونت روسي . أنظر ادناه المرفق الثالث للاطلاع على شجرة النسب الأولى ، ١ و ٢ . ويخطئ وليم الصوري (انظر المرجع ادناه ص. ١٩٣، ملحوظة ١) بافتراضه ان هيو الثاني ولد في أبوليا ، وفي هذه الحالة يكون قد تزوج في السادسة من عمره !.

(٤) المترجم : نسبة الى وآلون ، أى المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا وما حولها من مناطق فرنسية.

(٥) اسما ابني ايوستاس جارنييه ليسا يقينين . ويظهر وولتر كلورد قيسارية وصيدا في وثيقة رسمية مؤرخة في ١٢ سبتمبر ١١٣١ (Rohrich, *Regesta*, p.35)؛ وكان ايوستاس الثاني لورد صيدا عام ١١٢٦ (Rohrich, *Regesta Additamenta*, p.8) ويظهر ايوستاس ووالتر كإبني ايوستاس الأول في وثيقة رسمية في نفس العام (Rohrich, *Regesta*, p.28). ولكن *Lignages* يسمى الابنين جيرارد ووالتر ، كما ان جيرار Gerard يسمى جوى Guy في Assises. انظر La Monte, *The Lords of Sidon in Byzantion*, vol xvii, pp.188-90. الذي يجعل جيرار ابن ايوستاس الثاني، ويجعل موت الأخير قبل عام ١١٣١ عندما أصبح وولتر وصيا لجيرار .

دفاعاً عن النفس - مجموعة من خاصته كان أبرز أعضائها رومان (أوف بوى) لورد منطقة الأردن. وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك والكونت الذى اشتهر عنه التعاطف مع الملكة . وسادت مشاعر التوتر طوال أشهر الصيف من عام ١١٣٢ م . وفى يوم ما فى أواخر الصيف، عندما كان القصر زاخراً بالوجهاء من ذوى الجاذبية فى المملكة، وقف ولتر جارنييه واتهم زوج أمه ، هيو ، صراحة بأنه يتآمر على حياة الملك، ودعاه متحدياً إلى منازلته كى يبرئ ساحته . وأنكر هيو التهمة وقبل التحدى . وحددت المحكمة العليا تاريخ النزال، وعاد هيو إلى يافا والتر إلى قيسارية، لكى يجَهِّز كل منهما نفسه للنزال.

وعندما أوف يوم النزال ، جاء والتر إلى مكان النزال المحدد وهو فى أهبة الاستعداد، ولكن هيو لم يظهر . وربما شعرت الملكة بالخطر ، إذ مضت الأمور شأواً بعيداً، فترسلت إليه أن يتغيب ، أو ربما كانت الكونتيسة إيمّا هى التى ارتاعت عندما تصورت أنها لابد وأن تفقد إما الزوج أو الابن ، أو ربما كان هيو هو نفسه ، الذى كان مدركاً لما ارتكبه من اثم ، خائفاً من انتقام الرب . ومهما يكن السبب ، فقد كان جنبه دليلاً ناصعاً على خيائته . ولم يعد بوسع أصدقائه تأييده أكثر من ذلك . وأعلن مجلس الملك غيايباً أنه مذنب، مما جعل هيو يعيش فى ذعر دائم ، فهرب إلى عسقلان ملتسماً الحماية من الحامية المصرية . فأعادته فصيلة مصرية إلى يافا وبدأت تنتهب سهل شارون ، فصارت خيانة هيو الآن صريحة . وانقلب عليه أهم أتباعه ، باليان ، لورد بينه ووكيل يافا ، وعندما جاء جيش ملكى على عجل من القدس إلى يافا ، استسلمت له يافا فى الحال . حتى المصريين ، وجدوا فى هيو حليفاً عقيماً فتخلوا عنه. فلم يكن له من بد سوى أن يسلم نفسه للملك .

ولم يكن عقابه قاسياً ، إذ كانت الملكة صديقه ، كما نصح البطريق وليسم (أوف ميسين) بالرحمة . وكان الملك نفسه راغباً فى تهدئة الأمور ، إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها . فضلاً عن أنه فى ١١ ديسمبر ، وعندما استنفر الجيش للزحف على يافا ، كان أتابع دمشق قد فاجأ قلعة بانياس واستعادها للإسلام . وتقرر نفى هيو ثلاث سنوات ، يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفى من العقوبة.

١١٣٢ م : محاولة قتل هيو

أثناء أن كان هيو ينتظر سفينة تنقله إلى إيطاليا ، ذهب إلى القدس فى وقت مبكر

من العام الجديد لتوديع اصدقائه . وبينما هو يلعب النرد فى احدى الامسيات عند باب أحد حوانيت الفراء ، تسلسل فارس بريتوني^(٦) من ورائه وطعنه فى رأسه وفى بطنه ، فحملوه وهو ينزف نزيف الموت ، وفى التو حامت الشبهات حول الملك ، غير أن فولك تصرف فورا تصرفا لا يخلو من حصافة ، وسُلم الفارس إلى المحكمة العليا لمحاكمته ، واعترف بأنه قد تصرف بمحض رغبته ، آملا بذلك أن يفوز بعطف الملك ، وحكم عليه بالاعدام عن طريق بتر أوصاله قطعة قطعة . ونُقذ حكم الاعدام علنا . وبعد أن بترت ذراعا الضحية ورجلاه ، ولكن مازالت رأسه كما هى ، أجبر على إعادة النطق بالاعتراف . وبنا أنقذت سمعة الملك ، غير أن الملكة لم تكن راضية . وبلغ بها الغضب من أعداء هيو أن ظلوا لشهور عديدة يخشون الاغتيال ، ولم يجرؤ زعيمهم ، راووت أمير نابلس ، على المشى فى الشوارع بدون حراسة . بل يقال أن الملك فولك كان خائفا على حياته . على أن رغبته الوحيدة كانت الفوز بمخطوة زوجته ، فكان يوافقها على كل شيء ؛ أما هى ، وقد أحبطت فى الحب ، فسرعان ما وجدت العزاء فى التمتع بالسيطرة^(٧) .

وقد نجح هيو من محاولة قتله ، ولكن ليس لفترة طويلة . وتقاعد فى بلاط ابن عمه ، الملك روجر الثانى الصقلى ، الذى منحه اقطاعية جارجانو حيث مات فيها بعد فترة قصيرة^(٨) .

ولاشك فى أن فولك قد وجد الراحة فى توجيه انتباهه إلى الشمال مرة أخرى ، إذ كان الوضع هناك نذير سوء للفرنجة أكثر مما كان عليه الوضع فى أيام بلدوين الثانى . فليس فى أنطاكية أمير قوى ؛ وجوسلين الثانى فى الرها يفتقر إلى نشاط أبيه وحسه السياسى ، كان شخصا بلا جاذبية ، إذ كان قصيرا بدينا ذاكن الشعر والجلد ، تتناثر فى وجهه البشور ويرز الأنف الهائل وتتحفظ عيناه البارزتان . وكان حريا بأن يأتى بلفتات كريهة ، لكنه كان كسولا مترفا فاسقا ولا يصلح قط لقيادة أهم ثغور العالم المسيحى الفرنجى^(٩) .

(٦) (المترجم) نسبة إلى مقاطعة بريتون Breton الواقعة شمال غربى فرنسا.

(٧) ترد القصة مطوّلة لدى وليم الصورى William of Tyre, xiv, 15-17, pp. 627-33 ويذكر ابن القلانيسى (ص ٢١٥) بانتصاب وجود نزاع فيما بين الفرنج - غير مألوف لديهم

(٨) William of Tyre, xiv, 17, p. 633.

(٩) William of Tyre, xiv, 3, p. 610 . واستنادا لما جاء فى (Crhron. Anon. Syr) p. 35 ولد جوسلين الثانى عام ١١١٣م

وكانت ندرة القيادة بين الفرنج شديدة الخطر ، إذ أن المسلمين لديهم زنكى الآن ، وهو الرجل القادر على جمع قوات الإسلام . وكان حتى الآن يتحين الفرصة ، إذ كان غارقا في أحداث العراق بحيث لم يتمكن من استغلال الوضع الذى ساد فيما بين الفرنج . فقد مات السلطان محمود بن محمد عام ١١٣١ م ، تاركا ممتلكاته في العراق وجنوب فارس لابنه داود . غير أن سنجر ، وهو المهيمن في الاسرة ، قرر أن يرث الميراث إلى أخى محمود ، طغرل صاحب قزوین وشقيق محمود ، مما دفع أخوى محمود الآخرين - مسعود صاحب فارس و سلجوق شاه صاحب اذربيجان - إلى التقدم بمطالب لهما . وسرعان ما تنازل داود الذى لم يؤيده الخليفة المسترشد ولا رعاياه . ولفترة من الزمن أعلن في بغداد عن قبول طغرل ، إذ كان نفوذ سنجر في جعبته ، وأجبر سنجر مسعود على التخلي . على أن سنجر نفسه سرعان ما انطفأت جذوة اهتمامه بهذا الأمر ، وعلى الاثر جاء سلجوق شاه إلى بغداد وفاز بتأييد الخليفة . فاتجه مسعود إلى زنكى يناشده المساعدة ، فزحف زنكى على بغداد ، لكن قوات الخليفة و سلجوق شاه هزمته بالقرب من تكريت . ولولا أن حاكم تكريت الكردي ، نجم الدين أيوب ، نقله عبر نهر دجلة ، لكان معتقلا أو مقتولا . ووجد الخليفة في هزيمة زنكى تشجيعا له على تحقيق حلمه في بعث ما كان لآل بيته من قوة . وشعر حتى سنجر بالخطر ، فعاد زنكى - وهو نائبه - الهجوم مرة أخرى على بغداد في يونيو ١١٣٢ م ، وهذه المرة متحالفا مع الزعيم البدوي دويس المتقلب الأهواء . وكان زنكى منتصرا في بداية المعركة ، لكن الخليفة تدخل بنفسه ، وهزم دويس هزيمة منكرة ثم تحول منتصرا إلى زنكى الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الموصل . وفي الربيع التالى وصل المسترشد إلى هناك على رأس جيش ضخم ، وبدا كما لو أن العباسيين سوف سيتراجعون أمجادهم الخوالى ، إذ كان سلطان العراق السلجوقي أكثر قليلا من كونه تابعا للخليفة . غير أن زنكى كان قد انسحب من الموصل وبدأ مناوشاته مع معسكر الخليفة بلا هوادة وقطع عنه الامدادات . وبعد ثلاثة اشهر انسحب المسترشد^(١٠) وانتكست محاولة البعث العباسي . وخلال العام التالى أزاع الأمير السلجوقي مسعود تدريجيا غيره من المتطلعين إلى سلطنة العراق ، برغم محاولات المسترشد الفاشلة في منعه . ففي معركة جرت رحاها في دایمرج في يونيو ١١٣٥ م ، هزم جيش الخليفة

(١٠) Mas'ud ibn Atabegs of Mosul, pp.78-85 و Ibn al-Athir, pp. 398-9
 Encyclopaedia of Mohamunad', 'Tughril I, and Sanjar'
 Islam.

هزيمة نكراء اوقعها به مسعود وألقى القبض على الخليفة نفسه ، ونفاه إلى ازربيجان حيث قتل الحشاشون ، وربما كان مسعود متواطئا معهم . ونُصّب في الخلافة ابنه رشيد الذي استنجد بالمتطوعين إلى سلطنة العراق داود السلجوقي وزنكي ولكن بلا طائل . وتدبر مسعود خلع رشيد من الخلافة عن طريق القضاة في بغداد، وتمكن خليفته المقتفى من إبعاد زنكي عن رشيد وداود بما وعدّه من وعود سخية . وهكذا ، وبعد أن نال زنكي التأييد باللقاب تشريف جديدة من المقتفى ومن مسعود ، وجد نفسه قادرا ابتداء من عام ١١٣٥م قُدّما على تحويل اتبائه نحو الغرب^(١١).

١١٣٣م : فولك ينقلد بونز أمير طرابلس

بينما كان زنكي منشغلا في العراق ، كان واليه على حلب (سوار) الذي عينه يدير شئون سوريا نيابة عنه ، ولم يكن بوسع زنكي أن يرسل إليه الكثير من الجنود ، غير أنه نتيجة لإغراءات سوار التحقت مختلف جماعات قطاع الطرق التركمان بخدمته ، وتجهز بهم في ربيع ١١٣٣م لمهاجمة انطاكية . واستنجد الأنطاكيون الخائفون بالملك فولك كي يأتي لانقاذهم . وأثناء ترحاله شمالا مع جيشه قابلته في صيدا كوثيسة طرابلس وأخبرته بأن زوجها بونز وقع في كمين نصبته عصابة من التركمان في جبال النصيرية وهربوا إلى قلعة بعين على حافة وادي العاصي . ونزلوا على رغبتها سار فولك مباشرة إلى بعين ، وباقترابه انسحب التركمان . وأعادت تلك الحادثة ماكان بين فولك وبونز من علاقة ودودة. وسرعان ما تزوج بعد ذلك ابن بونز ووريثه - ريموند - من اخت ملكة القدس هوديرنا، بينما تزوجت ابنته - آجنس - من ابن وكيل فولك في انطاكية - الكونستابل ريموند مازوار أمير المرقب^(١٢).

وبعد أن أنقذ فولك كونت طرابلس ، واصل تحركه إلى انطاكية ، حيث علم أن ساور قد أفلح في الاغارة على مدينة تل بشير الواقعة في اراضي الرها ، وأنه حشد جيشا ليستخدمه ضد انطاكية . فتأخر فولك بضعة أيام متخذًا جانب الحذر ثم تقدم نحو معسكر المسلمين في قنسرين وباغته ليلا بهجوم مفاجئ فاضطر سوار إلى التقهقر

(١١) Abul' Feda, pp. 21-3; Ibn al-Athir, *Atabegs of Mosul*, pp. 88-91; Ibn at- Tiqtaqa, *AlFakhiri*, pp. 297-8.

(١٢) William of Tyre, xiv, 6, pp 614-15; Ibn al-Qalanisi, pp. 221-2; Ibn al - Athir, pp. 399-400.

والتخلي عن عيابه ، غير أن النصر كان أبعد ما يكون عن الاكتمال ، إذ أن المسلمين في المناوشات التي تلت قضاها تماما على عدة فصائل فرنجية . لكن فولك دخل انطاكية دخول الظافرين قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٣ م . وما أن رحل حتى عاود سوار الاغارة على الأراضي المسيحية^(١٣) .

١١٣٥ م : زككى أمام دمشق

وباستثناء تلك الغارات الحدودية ، مرت سنة ١١٣٤ م بسلام فيه الكفاية . وفي العام التالي أضعفت الثورات العالم الاسلامي ؛ ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي الحافظ كنج سلطان الوزارة بأن عين ابنه حسن وزيرا . لكن الشاب كاد أن يظهر نفسه في صورة وحش مخبول ، إذ أطاح برؤوس أربعين أميرا تباعا لاتهامهم باتهامات تافهة مما تسبب في اندلاع الثورة . ولم ينقذ الخليفة نفسه الا بعد أن قتل ابنه بالسم وسلم جسده للثائرين ، ثم عين وزيرا ارمينيا ، فاهرام ، الذي انصرف اهتمامه إلى زيادة ثراء اصدقائه ورفاقه المسيحيين أكثر من اهتمامه باتخاذ اجراءات عدوانية ضد الفرنج^(١٤) . وكانت دمشق على نفس القدر من العجز ، فقد مات برورى ابن طغتكين عام ١١٣٢ م ، وخلفه ابنه اسماعيل كأتابج . وبدأ حكم اسماعيل بداية ساطعة بالاستيلاء على بانياس من الفرنج وبعليك وحماه من أنداده ، لكنه سرعان ما بدأ يمزج بين القسوة الطاغية وحماية الضرائب الجائرة ، مما استفز البعض في محاولة لاغتياله ، فأنزل عقوبة الإعدام بالجملة ، حتى انه علق على الجدران شقيقه هو نفسه ، سونج ، لأوهى مظنات الرية . وأزمع بعد ذلك القضاء على مستشار ابيه وموضع ثقته ، يوسف بن فيروز . وقد تحملت أمه ، الأميرة المهية زمرد ، موت ابنها سونج وهي متمالكة لنفسها ، لكن يوسف كان حبيبها ، فراحت تدبر أمرها لانقاذه . وبات اسماعيل مدركا أنه غير آمن حتى في قصره ، وفي لحظة الشعور بالخطر كتب إلى عدو أبيه القديم ، زككى ، يعرض عليه أن يصبح تابعا له اذا استطاع زككى أن يقيه في السلطة ، وان لم يفعل زككى ذلك فسوف يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن بوسع زككى أن يرحل عن الموصل دون أن يهزم الخليفة العباسي المسترشد ، غير أنه في ذات الوقت لا يستطيع تجاهل النداء

William of Tyre, XIV, 7, pp. 615-16; Ibn al-Qalanisi, pp. 222-3; Kemal ad-Din, p. 665. (١٣)

Ibn al-Athir, pp. 405-8. (١٤)

الذى تسلمه متأخرا للغاية . فعبر الفرات يوم ٧ فبراير، لكن زمرد قبل ذلك بستة أيام، نفّذت اغتيال اسماعيل وتولية ابنها الأصغر شهاب الدين محمود . وأرسل زنكي رسله إلى الاتابج الجديد كى يستسلم ، غير أن هذا الأخير ، وبتأييد من سكان دمشق ، رد على الرسل باعتذار مهذب . ولما وصل زنكى إلى دمشق ، وقد استسلمت له حمّاه وهو فى الطريق ، وجد دمشق فى حالة دفاع . وأخفقت محاولته قصف الأسوار ، وسرعان ما نفدت المون من معسكره ، وتخلّى عنه البعض من جنوده . وفى تلك اللحظة وصلت سفارة من الخليفة المسترشد ، ترحّبه أن يتلطف ويحترم استقلال دمشق . وقبّل زنكى بامتنان اعتذاراً مكّنه من الانسحاب دون مساس بمكائنه . وحل السلام بين زنكى ومحمود ، وقام زنكى بزيارة رسمية لدمشق ، غير أن محمود لم يتوفّر لديه ما يكفى من الثقة فى زنكى بحيث يرد الزيارة ، فأرسل أخاه بدلا منه^(١٥).

وكانت تلك الحادثة ، التى جاءت فى وقت ضعفت فيه مصر ، بمثابة فرصة نادرة للفرنج لاسترداد بانياس والمبادرة بالعدوان . غير أن فولك ترك الفرصة تفلت من بين يديه . ذلك أن زنكى، بعدما خلّص نفسه من دمشق، راح يغير على الأراضى الأنطاكية . فبينما كان قائده ساوار يهدد تل بشير وعيتاب وعزاز ، مانعا وجود الاتصال بين جيّشى انطاكية والرها ، كان زنكى يكسح طريقه مرورا بمحصون الحدود الشرقية ، كقرطاب ، والمعرة ، وزردنا، والأثارب مستوليا عليها الواحدة تلو الأخرى. ولحسن حظ الفرنج اضطر وقتئذ إلى العودة إلى الموصل ، ولكن الدفاعات الحدودية ضاعت من الفرنج^(١٦).

وأرغمت تلك الكوارث فولك على السير إلى الشمال مرة أخرى . وكان مايزال وصيا اسميا على انطاكية ، لكن السلطة هناك كانت فى يد البطريق الوقور برنارد . على أن برنارد مات فى أوائل الصيف ، وقد كان رجل دولة مقتدرا ، نشطا ، ثابا ، شجاعا ، لكنه كان حازما مع نبلاء الفرنج ، ومتعصبا إزاء المسيحيين الوطنيين . وهلّل العوام لخليفته أسقف المصيصة اللاتينى ، رادولف (أوف دومفوروت) الذى ، فاتخذ لنفسه العرش البطريقى دون انتظار انتخاب كنسى . وقد كان رادولف رجلا مختلفا جدا ، إذ كان مليحا ، برغم حوّل طفيف، محبا للآبهة ، مبسوط اليد ، بشوشا ، ليس

(١٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 211-36, أورد ابن القلايسى رواية كاملة للغاية ، لكنه يعزو الدوافع الجديرة بالثناء الى قتل السيدة المهيبة لابنها . فيقول ان الوزير الأول لإسماعيل كان كرديا مسيحيا، هو برتراند الكافر . pp. 403-5. Ibn al-Athir, pp. 667-70; Kemal ad-Din, p. 329; Bustan,

(١٦) Kemal ad-Din, p. 670.

بصاحب علم ولكنه كان متحدثا فيه استدراج وفصاحة ، لكنه كان - وراء قناع من الشفقة - متعلقا بالدنيا ، طموحا ، خبيثا . ولم يكن راغبا فى أن يسيطر عليه الملك ورجاله ، ولذا استهل المفاوضات مع السيدة الأرملة الأميرة أليس التى كانت مازال تعيش فى اراضيها فى اللاذقية . ووجدت أليس فرصتها وناشدت اختها الملكة ميليسند للمساعدة . وجاء فولك إلى انطاكية فى اغسطس فى زيارة قصيرة . وشعر بأن القوة تنقصه بحيث يحتاج على انتخاب رادولف انتخابا غير عادى ، ولا يستطيع الآن أن يرفض شيئا تراه زوجته . وسُـمـح للأميرة أليس بالعودة إلى انطاكية . وبقي فولك وصيا ، ولكن السلطة باتت مشاركة فى تحالف غير يسير بين الأرملة والبطريق^(١٧).

١١٣٦ م : استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى انطاكية

وما لبث رادولف أن تشاجر مع رجال الدين التابعين له ، وبقيت أليس سيدة المدينة . ولكنها كانت فى وضع مقلقل ، إذ كان أهم تأييد لها يأتيها من السكان المسيحيين الوطنيين ، وكما ظهر من محاولتها التواطؤ مع زنكى ، كان تقديرها للعواطف الفرنجية شيئا ضئيلا . والآن طافت بذهنها خطة أفضل . فقد ارسلت فى نهاية عام ١١٣٥ م مبعوثا إلى القسطنطينية يعرض يد ابنتها الأميرة كونستانس لابن الامبراطور الأصغر مانويل . وربما اقدمت على هذا التصرف ، كما اعلن الصليبيون المرتاعون ، بنوازع طموحاتها الشديدة ؛ غير أنها فى واقع الأمر قدمت أفضل حل للمحافظة على شمالى سوريا . إذ كان العنصر اليونانى قريبا فى انطاكية ، والتهديد الاسلامى يتعاظم فى ظل زنكى ، والامبراطورية البيزنطية هى القوة الوحيدة التى يتوفر لها ما يكفى من القوة للتصدى لهذا التهديد . إن دولة تابعة ، يجرى حكمها فى ظل السيادة الامبراطورية ، أولا بالأميرة نصف الارمينية أليس ، ثم بصورة مشتركة بين أمير بيزنطى وأميرة فرنجية ، كانت خليقة حقا بأن تلحم اليونانيين والفرنج معا من اجل الدفاع عن العالم المسيحى . غير أن نبلاء الفرنج باتوا فى رعب شديد ، ورأى البطريق رادولف نفسه وقد أزيل من منصبه لصالح يونانى بغض . ويبدو أن بارونات انطاكية استشاروا الملك فولك أثناء زيارته حول أنسب زوج لكونستانس . والآن ذهب رسول سرا إلى الملك يقول إن من اللازم العثور على زوج فى الحال . وبعد أن استعرض فولك

(١٧) William of Tyre, xiv, 9, 20, pp. 619-20, 636 .. كان فولك فى انطاكية فى اغسطس عام ١١٣٥ م وفقا لما جاء فى Rhricht , Regesta, p. 39

كل أخلاته من الأمراء الفرنسيين ، قرر اختيار ريموند (أوف بواتيه) وهو الابن الأصغر لدوق أكيان ولیم التاسع ، وكان آنذاك في إنجلترا في بلاط الملك هنري الأول الذي تزوجت ابنته مؤخرا من ابن فولك جيوفري . وأرسل فارس من فرسان المستشفى ، جيرارد جيبار ، إلى إنجلترا لإحضاره وروعت أقصى درجات السرية ، فلا يجب أن تعرف أليس شيئا ، ولا تؤمن حتى الملكة لو علمت . وهناك خطر آخر يكمن في عداوة الملك روجر الصقلي الذي لم يغفر البتة لمملكة القدس اهانتها لأمه أديلايدى ، والذي كانت طموحاته في البحر المتوسط لا تدعه قط يسمح بمرور من يتطلع إلى الإقتران بأعظم الوريثات في الشرق . ووصل جيرارد إلى البلاط الإنجليزي وقبل ريموند العرض . لكن الملك روجر اطلع على السر ، اذ كان نورمانديو إنجلترا وصقلية على اتصال وثيق ببعضهم البعض دائما . فقرر القبض على ريموند الذي لن يجد سفينة تقله إلى سوريا إلا من ميناء في جنوب إيطاليا . واضطر ريموند إلى تجزئة بطاقته والتكسر على هيئة حاج حينا ، وخدام لتاجر حينا آخر ، وتمكن من التسلل من خلال الحصار ، ووصل انطاكية في ابريل ١١٣٦ م .

ولم يكن وصوله ليخفى على أليس ، ولذا ذهب في الحال لمقابلة البطريق . وعرض عليه البطريق رادولف المساعدة بشروط أن يخضع ريموند له ويذعن له في كل شيء . فلما وافق ريموند طلب رادولف الاجتماع مع أليس ليخبرها أن ذلك الغريب الفتان جاء طالبا يدها . وهي قصة مقنعة ، إذ كان ريموند في السابعة والثلاثين ، وأليس دون الثلاثين ، وابنتها كونستانس بالكاد في التاسعة . وبينما كانت أليس في قصرها تنتظر خطيب المستقبل ، اختطف البعض كونستانس وذهبوا بها إلى الكندراتية حيث سارع البطريق بإجراء زفافها بريموند . وانهزمت أليس . فليس للأرملة المسنة حقوق إزاء الزوج الشرعى للورثة . فتقاعدت مرة أخرى في اللاذقية لتبقى متفطرة القلب ما تبقى من حياتها القصيرة^(١٨).

وكان ريموند في ميعة الصبا ، وسيما ذا قوة بدنية رائعة . ولم يصب من العلم إلا القليل ، مغرم بالمقامرة، طائش وكسول في ذات الوقت ، على أنه كان ذا شهرة في الكياسة وطهارة السلوك^(١٩) . وسرعان ما تسببت شهرته بين الناس في ارتياع البطريق

(١٨) William of Tyre, xiv, 20, pp. 635-6; Cinnamus, pp. 16-17; Robert of Torigny (I.p. 184)، ويعتقد روبرت ان ريموند تزوج ارملة بوهمند الثاني .

(١٩) William of Tyre, xiv, 21, pp. 637-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p.522، يصف كمال الدين كيف كان يستطيع ثنى قضيب حديدى (Cinnamus (p.125) الذى يقارنه بهرقل .

الذي استمرت مشاكله مع تابعيه من رجال الدين ، ووجد نفسه يعامل باحترام وانما في الواقع مسلوب القوة . وأيد النبلاء ريموند تأييدا قويا ، إذ كانت حقيقة الوضع بالنسبة لهم من الخطورة بحيث لا يملكون غير ذلك ، فكانت الامارة مهتزة لفقداء الدفاعات الشرقية ، ليس هذا وحسب وانما قام احد المغامرين التركمان فى الجنوب ، فى جبال النصيرية ، بالاستيلاء على حصن بكسرايل من صاحبه رينالد مازوار عام ١١٣١م ، وفى عام ١١٣٦م كاد يستولى على بلاطنس . ثم إن بكسرايل قد استردت بعد ذلك . وفى الجنوب الأبعد ، حيث سبق للفرنج الاستيلاء على قلعة قدموس عام ١١٢٩م ، عادت تلك القلعة عام ١١٣١م إلى الأمير المسلم ، سيف الدين ابن عمرون صاحب قلعة كهف التي باعها فى العام التالى لزعيم الحشاشين أبو الفتح . وفى عام ١١٣٥م اشترى الحشاشون قلعة كهف نفسها من أولاد سيف الدين ، وفى شتاء عام ١١٣٦م انتزعوا حصن الجزية من الفرنج^(٢٠) . وكانت كيليكيا قد ضاعت فعلا من أنطاكية . ذلك أنه فى عام ١١٣١م ، بعد موت برهمند الثانى مباشرة ، هبط الأمير ليو الروينى - بعد أن تدبر حماية ظهره بتحالف مع الأمير الدانشمندى - إلى السهل واستولى على المدن الثلاث : المصيصة وطرسوس وأدنه . وكان أخوه وسلفه ، ثوروس ، قد أفلح قبل ذلك بسنوات قليلة فى طرد الحاميتين البيزنطيتين من سيس وعين زربة فى داخل البلاد . وفى ١١٣٥م انتزع ليو من بلدوين - لورد مرعش - قلعة سرفتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . على أن قبضة الأرمن على كيليكيا كانت ضعيفة ، إذ لجأ إليها قطاع الطرق وباتت سواحلها مرتعا للقراصنة^(٢١) .

١١٣٦م : الحرب مع الأرمن

ولم تكن كونتية الرها أفضل حالا . إذ أن ثمرتاش الأرمنى ضم مؤخرا بعض أراضيها فى الشرق ، وفى الشمال تنازل ميخائيل أمير كركر الأرمنى الذى عجز عن الصمود أمام الترك ، عن أراضيها للكونت جوسلين الذى سلمها فى خطوة طائشة إلى العدو الشخصى لميخائيل ، بازل ، شقيق بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) الأرمنى ، فشبت حرب أهلية بين الأميرين الأرمنيين ، واضطر جوسلين إلى تزويد

(٢٠) Ibn al-Qalanisi, p. 241; Usama, ed. Hitti, p. 157; Kemal ad-Din, p. 680.

(٢١) Gregory the Priest, p. 152; Michael the Syrian, III, pp. 230-3; Armenian Rhymed Chronicle, p.499; Sembath the Constable, p 615.

كركر بحامية من عنده ، لكنه لم يستطع الحيولة دون أن يتناوب الأرمن والأتراك نهب الريف . فأغار سوار على منطقة تل بشير عام ١١٣٥ م ، وفى إبريل ١١٣٦ م تقريبا ، وفي نفس الوقت الذى وصل فيه ريموند (أوف بواتيه) إلى الشرق ، لم يكشف قائده أفشين بشق طريقة خلال الاراضى الانطاكية حتى اللاذقية فى الجنوب وهو يحرق القرى وينهبها فى طريقه ، وانما استدار شمالا فيما بعد مارا بمرعش وكيسوم ، وكان أميرهما - بلدوين ، التابع الرئيسى لكونت الرها - يفتقر إلى القوة التى يدافع بها عن اراضيه^(٢٢).

واعترز ريموند أن تكون أول مهامه استعادة كيليكيا ، وكان عليه أن يوفر الحماية لمؤخرته قبل أن يغامر بمحابة زنكى . ومعاقبة الملك سار مع بلدوين أمير مرعش لمهاجمة الروبين ، لكن التحالف لم يكن مكتملا . إذ أن جوسلين أمير الرها ، ورغم كونه تابعا للملك وسيدا لبلدوين ، كان أيضا ابن أخت ليو الأرميني (صاحب كيليكيا) ومالت عواطفه ناحية خاله ، ولم تعد سلطة ملك القلس كافية لاعادة توحيد امراء الفرنج . وتمكن ليو - بمساعدة جوسلين - من دحر الجيش الأنطاكي . وإذ هو منتصر ، وافق على مقابلة شخصية مع بلدوين الذى غدر به وسجنه وبعثه أسيرا إلى أنطاكية . وفى غيبة ليو تشاجر أبناؤه الثلاثة ، وانتهى أمر كبيرهم ، كونستانتين ، إلى أن اعتقله أخواه وأعميا عينيه . لكن الفرنج فى الوقت نفسه لم ينتفعوا من الأحداث بشئ . وقام الامير الدانشمندى محمد الثانى ابن غازى بغزو كيليكيا ، مدمرا الحصاد ، ثم تحول إلى اراضى بلدوين فانتهبها فى طريقة حتى كيسوم . ولم يجد ليو ، الذى هزته الكوارث ، من وسيلة سوى أن يشتري حريته بالتخلي عن مدن كيليكيا لريموند ، لكنه وهو فى طريق عودته إلى وطنه تناسى وعده . واشتعلت مرة اخرى حرب مضطربة إلى أن تمكن جوسلين فى اوائل ١١٣٧ م من رتق هدنة بين المتحاربين الذين ارتاعوا من انباء جاءتهم من الشمال ، مفادها أن الاميرة أليس ليست حمقاء مع كل ماحدث^(٢٣).

ولم يتمكن الملك فولك من تقديم أى عون فعلى لصديقه ريموند ، إذ كان عليه مواجهة خطر اقرب إليه . ذلك أن حكومة اتابج دمشق الصغير محمود كانت خاضعة

(٢٢) Michael the Syrian, III, p. 244; Ibn al-Qalanisi, pp. 239-40; Kemal ad-Din, p. 672
(٢٣) Gregory the Priest, *loc cit.* (and note by Dulaurier); Sembat the Constable, p. 616; Matthew of Edessa, ccliii, p. 320-1

لما كان يمارسه يوسف - عشيق أمه - من سيطرة هادئة ، غير أنه فى إحدى أمسيات ربيع ١١٣٦ م ، وبينما كان الأتابج محمود يمشى فى الفناء مع يوسف والقائد المملوكي، بزواجٍ انقض الأخر فجأة على يوسف وطعنه طعنات قاتلة ثم هرب إلى كتيبته فى بعلبك . ومن هناك هدد بالزحف على دمشق ما لم يصبح هو الوزير الأول . فأذعن محمود لرغبته ، وسرعان ما اتخذ الدمشقيون موقفا عدوانيا من الفرنج ، ففى بداية العام التالى قاموا بغزو كورتية طرابلس ، يساعدهم المسيحيون المحليون الذين لا يحملون ولاء للفرنج ، فقاموا بارشادهم سرا خلال ممرات لبنان إلى داخل السهل الساحلى ، وبذا بوغت الكورت بوزن ، فخرج بجيشه الصغير للملاقاتهم فلقى هزيمة كانت بمثابة كارثة ، وهرب هو نفسه داخل الجبال ، ولكن فلاحا مسيحيا خاناه وأوشى به للمسلمين فقتل فى الحال . أما أسقف طرابلس ، جيرارد ، الذى أسر فى المعركة ، فكان أسعد حظا إذ لم يتعرف عليه احد ، وسرعان ما تمت مبادلته على انه رجل ليس له أهمية . واستولى بزواج على حصن حدودى أو أننين ، لكنه لم يجازف بمهاجمة طرابلس نفسها ، وسرعان ما عاد إلى دمشق يحمل الغنائم الكثيرة^(٢٤).

١١٣٧ م : استخلاف ريموند الثانى فى طرابلس

استمر حكم بوزن فى طرابلس خمساً وعشرين سنة . ويبدو انه كان إداريا مقتدرا، ولكنه كان عديم القيمة من الناحية السياسية ، متلهفا دائما إلى التحرر من تسيد ملك القدس عليه ولكنه كان بالغ الضعف بحيث لا يستطيع تحقيق الاستقلال . وخلفه ابنه ، ريموند الثانى ، الذى كان مزاجه أكثر حدة ، وقد بلغ الآن من العمر الثانية والعشرين ، وتزوج مؤخرا من الأميرة هوديرنا شقيقة مليسند ملكة القدس، وكان منصرفا إليها بكل جوارح الغيرة . وكان أول ما يده من اعمال أن انتقم لمقتل أبيه ، ليس من مماليك دمشق، فقوتهم لا قبل له بها وإنما من مسيحيي لبنان الغادين ، فزحف على القرى التى تحوم الشوك حول مساعدتها للأعداء ، وراح يقتل الرجال ويأخذ النساء والأطفال لبيعهم عبدا فى طرابلس . وتركت قسوته بصمات الجبن على اللبنانيين ، مما أدى إلى نفورهم من الفرنج^(٢٥).

(٢٤) William of Tyre, xiv, 23, p. 640; Ibn al-Qalanisi, pp. 240-1; Ibn al-Athir, pp. 419-20

(٢٥) William of Tyre, loc. cit

ولم يستحسن زنكى ما قام به بزواج من نشاط . فهو لا يفضل مهاجمة الفرنج مع وجود دولة مسلمة عدوانية مستقلة على جانب من جوانبه . وفى نهاية يونية زحف على حمص ، التى كان يحكمها أنثر المملوك المسن باسم أتايچ دمشق . وظل زنكى أمام المدينة نحو من اسبوعين ، إلى أن جاءت انباء اقتراب جيش فرنجى قادم من طرابلس . وآيا ما كانت نوايا الكونت ريموند ، تسبب تحركه فى أن يرفع زنكى الحصار عن حمص ويتحول إلى الفرنج . وبينما كان ريموند يتقهقر أمامه ، أخذ يتقدم لمحاورة قلعة بعين العظيمة الواقعة على المنحدرات الشرقية لثال النصيرية ، والتى تتحكم فى المدخل إلى البقاع ، بينما أرسل ريموند إلى الملك فولك فى القدس طالبا مساعدته .

وكان فولك قد تسلم لثوره نداء عاجلا من أنطاكية ؛ لكنه لا يستطيع تجاهل التهديد الاسلامى لطرابلس . فأسرع شمالا مع كل ما استطاع جمعه من رجال كى يلحق بريموند . وانطلقا معا فى مسيرة اضطرابية حول سفوح لثال النصيرية إلى مونت فرات . وكانت رحلة شاقة سرعان ما جعلت الجيش فى حالة يرثى لها . وكان زنكى قد ابتعد باقترابهما ، لكنه عندما سمع بمآلاتهم عاد وأطبق عليهم من حولهم عندما كانوا خارجين من الثلال بالقرب من القلعة . وبوغت الفرنج المرهقون . وحاربوا بشجاعة لكن المعركة سرعان ما انتهت ، تاركة أغلب الفرنج جثثا ملقاة فى الميدان ، والآخريين فى الأسر ، بمن فيهم كونت طرابلس ، بينما هرب فولك مع قلة من حرسه الشخصى إلى داخل القلعة^(٢٦) .

١١٣٧ م : استسلام قلعة بعين

بادر الملك فولك ، قبل أن يتمكن زنكى من محاصرة القلعة ، بإرسال الرسل إلى بطريق القدس ، وكونت الرها ، وأمير أنطاكية ، متوسلا إرسال العون العاجل . واستجاب الثلاثة لندائه متجاهلين المخاطر الأخرى ، إذ أن وقوع الملك وكل فرسانه فى الأسر قد يعنى فعلا نهاية المملكة . فقام البطريق وليم بتجميع باقى المليشيات المتبقية فى فلسطين وقادها - والصليب المقدس على رأسها - شمالا إلى طرابلس . وهبط جوسلين الرها من الشمال متناسيا همومه المحلية ، وانضم إليه فى الطريق ريموند أمير أنطاكية الذى اضطر إلى مغادرة عاصمته فى هذه اللحظة على مضض . وكانت

(٢٦) William of Tyre, xrv, 25m oo, 643-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 242-3 (أغفل ابن القلانيس بلباقة ذكر التحالف الدمشقى الفرنجى)؛ Kemal ad-Din, pp. 672-3; Ibn al-Athir, pp. 420

فلسطين حسنة الحظ جدا ، إذ لم يكن جيرانها فى مزاج عدوانى ، وقد تعرت من كل رجائها المخاريين . فكانت مصر مشلولة بثورة فى القصر أدت إلى الاستعاضة عن الوزير الأرمينى باهرام واستبداله بوزير آخر عفيف مناهض للمسيحيين هو رضوان بن الوحشي ، الذى كان مشغولا تماما بقتل اصدقاء سلفه والعراك مع الخليفة . وأغارت حامية عسقلان على ليديا ، لا أكثر^(٢٧) . وكان الملوك بزواج والى دمشق أكثر خطورة ، فما أن غادر البطريق مملكة القدس حتى سمح لنفسه بنهب البلاد فى طريقه جنوبا حتى مدينة نابلس المفتوحة فقتل سكانها ، لكنه بالنسبة لدمشق كان يخشى ما يترتب على تمتع زنكى بانتصار ساحق ، بحيث لم يكن يرغب فى الضغط على الفرنج إلى آخر المدى^(٢٨) .

وتجمعت قوات الاغاثة فى نهاية يولية فى البقاع ، بينما كان يأس الملك آخذا فى التزايد فى قلعة بعين ، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجى ، وأخذ تموينه يتناقص ، وزنكى يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار يرحم بها الحجارة فتندق أسوار القلعة . وأخيرا بعث فولك رسولا إلى زنكى يسأله عن شروطه . ولهبجته التى تخالطها الريبة ، طلب مجرد تسليم قلعة بعين ، وبامكان الملك الانصراف مع كل رجاله فى حرية . وفضلا عن ذلك ، سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين فى المعركة بمن فيهم كونت طرابلس وبدون أية فدية . فقبل فولك فى الحال . وحافظ زنكى على كلمته ، وجئ بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكى الذى عاملهم بكامل مظاهر التشريف ، وأهدى الملك رداً فاخرا وسمح لهم باصطحاب اخدانهم ، وساروا فى طريقهم آمنين . وقابلوا جيش الاغاثة فى البقاع ، أقرب مما كانوا يظنون . واغتاز البعض لاكتشافهم انهم لو صمدوا قليلا فرما أمكن انقاذهم ، على أن آخرين أكثر تعقلا أسعدهم أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب^(٢٩) .

والحقيقة أن ما كان عليه زنكى من رفق وأناة ما يفتأ يتسبب فى ذهول المؤرخين . لكن زنكى كان على دراية تامة بما يفعله . فليست بعين بالجائزة الحقة ، وامتلاكها سيمنع الفرنج من التوغل فى وادى العاصى الأعلى . كما أنها فى موقع يتحكم تماما

(٢٧) William of Tyre, xiv, 26 645-7.

(٢٨) *Idem*, xiv, p. 647

(٢٩) William of Tyre, xiv, 28-9, pp. 545-51; Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.*; Kemat ad-Din, *loc. cit.*; Ibn al-Athir, pp. 421-3.

فى حماء وحمص الدمشقية ، والحصول عليها بلا مزيد من الحرب فيه الغناء ، لأنه كان راغبا عن المجازفة بمعركة مع قوة الإغائة الفرنجية على مثل هذا القرب القريب من تخوم دمشق التى لن يتردد حكامها فى انتهاز ما قد يعانيه من هزيمة . فضلا عن ذلك كان زنكى ، كشأن أعدائه الفرنج ، يشعر بالقلق من الأنباء الآتية من الشمال.

الفصل الثالث:

مطالب الإمبراطور

مطالبج الامبراطور

"لَا يَنْكِلُ عَلَى السَّوِّ يَفْضِلُ لَأَنَّ السَّوِّ يَكُونُ أُجْرَتُهُ"
(أيوب ١٥ : ٣١)

أما الأنبياء التي تسببت في رتق سلام بين الفرنج والأرمن ، والتي جعلت الأمير ريموند يشعر كارها لمغادرة أنطاكية ، والتي دفعت زنكى إلى اظهار الرحمة لأعدائه ، فهي أنباء تحرك جيش ضخيم فى داخل كيليكيا يقوده الامبراطور جون كومنينوس بشخصه . فمنذ أن فشل الامبراطور الكسيوس فى الحضور إلى انطاكية اثناء الحملة الصليبية الاولى ، اعتاد السياسيون في الشرق الفرنجى على تجاهل بيزنطة تجاهلا لا يخلو من تلطف ، وحتى مع فشل محاولة بوهمند غزو الامبراطورية من الغرب فشلا ذريعا ، فقد عجز ألكسيوس تماما عن ضمان تنفيذ شروط المعاهدة التي وقعها بوهمند . وكما يعلم فرنج أنطاكية جيدا ، كانت همومه الأقرب إلى وطنه هي التي صرفته عن ذلك . واستمرت تلك الهموم لما يقرب من ثلاثين سنة ، نظرا للحروب المتقطعة المنتشرة

فى كل مكان من تخوم الامبراطورية ؛ فكانت هناك غزوات البولوفستيين^(١) عبر الدانوب الأسفل ، كما حدث فى عامي ١١١٤م و ١١٢١م . وكان هناك التوتر المستمر مع الهنجارين فى الدانوب الأوسط ، الذى اندلع حربا صريحة عام ١١٢٨م ، ووصل الغزو الهنجارى لشبه جزيرة البلقان حتى صوفيا ، لكن الامبراطور دحر هذا الغزو وهزم الهنجارين فى أراضيهم . ودأبت المدن التجارية الإيطالية على الاغارة من حين لآخر على الامبراطورية كى تنتزع مزايا تجارية ، فحصلت بيزا على معاهدة تفضيلية عام ١١١١م ، وأما البندقية ، فاستمرت الحرب بينها وبين بيزنطة أربع سنوات بعد أن رفض الامبراطور جون تجديد الامتيازات التى منحها أبوه ، وفى ١١٢٦م استردت بعد تلك الحرب كافة ما كان لها من حقوق . وكان نورمانديو جنوب إيطاليا، فى حالة من الجبن منذ هزيمة بوهمند فى دورازو (ديرهاكيوم) ، وأصبحوا مصدر خطر مرة أخرى عام ١١٢٧م عندما قام روجر الثانى الصقلى بضم إقليم أبوليا . ثم أن روجر الثانى ، الذى اتخذ لنفسه لقب ملك عام ١١٣٠م ، تلبسته كراهية عائلته لبيزنطة ، رغم ميوله إلى اقتباس أساليبها ورعاية فنونها . لكن طموحاته كانت من الاتساع بحيث كان من اليسير دائما العثور على حلفاء لكبح طموحاته . فلم يكف بالسعى للسيطرة على ايطاليا وحسب ، وإنما كان يطالب بانطاكية باعتباره الممثل الوحيد الباقى على قيد الحياة من ذكور بيت هوفيل ، بل والقلس نفسها استنادا إلى المعاهدة التى ابرمتها امه أديلالدى مع بلدون الأول^(٢).

الأيام الأخيرة من حكم الكسيوس الأول

ولم يكن هناك سلام فى آسيا الصغرى . وخلال الحملة الصليبية الأولى وبعدها عزز الكسيوس قبضته على الثلث الغربى من شبه الجزيرة وعلى السواحل الشمالية والجنوبية ، ولو أنه تعامل مع الأمراء الأتراك فقط لاستطاع الاحتفاظ بأملاكه سليمة ، لكن جماعات من التركمان دأبت على التسلل داخل البلاد بحيث تضاعفت أعدادهم

(١) (المترجم) : البولوفستيون Polovstians بالروسية أو الكومان Kuman بالبيزنطية أو الكيشاك Kipchak : اتحاد قبائلى احتل مناطق شاسعة من السهول الآسيوية الأوروبية ، من شمال بحر الآرال وحتى شمال البحر الأسود.

(٢) عن روجر الثانى انظر. Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 1-51. وبasil of Edessa اليعقوبى يعمل وصف تخطيطى عن الغزو البولوفستى عام ١١٢١م ، وقد أفاد منه ميخائيل السورى (Michael the Syrian (III, p. 207).

وقطعانهم ، وكان حتما أن يتدفقوا فى الوديان الساحلية سعيا وراء مناخ الطف ومراع أكثر ، ومن ثم، كان لابد من انهيار الحياة الزراعية المستقرة للمسيحيين . وفى واقع الأمر ، كلما كان ضعف الأمراء يزداد كلما زاد رعاياهم البدو ضراوة وخطورة على الامبراطورية^(٣).

وفى الوقت الذى مات فيه ألكسيوس عام ١١١٨م، كانت الأناضول التركية مقسمة بين السلطان السلجوقي مسعود ، الذى كان يحكم من قرنية الجزء الجنوبى من وسط شبه الجزيرة ، من نهر صغارى إلى جبال طوروس ، والأمير الدانشمندى غازى الثانى، الذى كانت أراضيه ممتدة من نهسر هاليس إلى نهر الفرات . وقد ابتلعا ما بينهما من الامارات الأصغر ، باستثناء ملطية فى الشرق حيث كان اخو مسعود الأصغر ، طغرل، يحكم تحت وصاية امه وزوجها الثانى ، بلك الأرتقى . وعلى الرغم مما احرزه البيزنطيون من انتصار فى فيلوميلوم عام ١١١٥م ، وما اعقب ذلك من محاولة رسم الحدود ، استعاد الأتراك فى السنوات التالية لارديكيا الفريجية وتوغلوا داخل وادى نهر المياندر وقطعوا الطريق الذاهب إلى أضايا . وفى الوقت ذاته كان الدانشمند يشدد هجماتهم باتجاه الغرب داخل بافلاجونيا . وكان الامبراطور الكسيوس يخطط لحملة يسترد بها مناطق الحدود الأناضولية عندما عرض له مرضه الأخير^(٤).

١١١٨م : ولاية عهد جون كومنينوس

جلبت ولاية عهد الامبراطور جون قوة جديدة لبيزنطة . وكان جون ، الذى يطلق عليه رعاياه (كالويوانيس) ، أى جون الطيب ، واحدا من تلك الشخصيات النادرة التى لا يجد فيها أى مؤرخ من معاصريه ما يعيبها ، باستثناء مؤرخ واحد، هو أخته المؤرخة أنا كومنينى التى كانت أكبر أولاد الكسيوس . وكانت فى طفولتها قد خطبت إلى ولى العهد الامبراطورى الصغير كونستنتين دو كاس ، الذى حدث وأن وعده الكسيوس باستخلافه امبراطورا . على أن موته المبكر ، بعد مولد أخيها مباشرة ، كان بمثابة ضربة

(٣) يرد موجز جيد حول مسار وأثر الغزوات التركمانية فى 'حرب المسلم والمسيحي لامتلاك آسيا الصغرى' Ramsay, War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor, in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp. 295-8.

(٤) Anna Comnena, xv, i, 6-vi, 10, pp.187-213; Chalandon, *Règne d'Alexius I Comnène* (٤) , pp. 268-71

قاسية لطموحاتها ، ودأبت فيما بعد ساعية لاصلاح ما ألحقته بها العناية الالهية من ظلم، بمحاولة اقناع والدها ، وبموافقة أمها ، بان يترك العرش الامبراطورى لزوجها القيصر نيسفوروس برينيوس ، حتى عندما كان الامبراطور راقدا في فراش الموت ، بين زوجته وابنته تمرّضانه بغاية جهدهما ، ودأبت المرأتان أثناء تمرّضه على المطالبة بعدم توريث جون . لكن الكسيوس قرر أن يخلفه ابنه . وعندما دخل عليه ابنه جون لتوديعه ، ناوله الرجل المحتضر خاتمه الامبراطورى في هدوء ، وأسرع جون لاغلاق بوابات القصر ، فأفادته السرعة ، اذ هتف به الجيش ومجلس الشيوخ (السّينيت) امبراطورا حاكما فى الحال ، وأسرع البطريق إلى تأييد قرارهما باقامة حفل تنويجه فى كنيسة القديسة صوفيا . وهكذا غلبت الحيلة والدهاء أنا وامها الامبراطورة . على أن جون كان يخشى من أن يحاول أشياءعهما الاعتداء على حياته ، حتى انه رفض حضور جنازة أبيه بعدما توفرت له معلومات قوية بوجود مخطط لاغتياله فى هذه المناسبة . وبعد أيام قليلة دبّرت أنا مؤامرة للتخلص منه أثناء وجوده فى قصر الضاحية الهادئة فيلوباتيوم . غير أن المؤامرة كان بها نقطة ضعف خطيرة ؛ إذ أن ترتيبها كان يقضى بتتويج نيسفوروس برينيوس ، ولكنه لم يكن راغبا فى العرش ، وربما كان هو الذى انذر الامبراطور . وعاقب جون المتآمرين برفق شديد ، وربما لم تكن الامبراطورة الأم على علم بالمؤامرة ، لكنها مع ذلك تقاعدت فى أحد الأديرة . وصودرت ممتلكات أبرز المؤيدين لأنا ، لكن الكثير منهم استعادها فيما بعد . وحُرمت أنا نفسها من ممتلكاتها لفترة ، ثم عاشت منذ آنذاك فى عزلة تامة . ولم يعاقب نيسفوروس الذى امتهن مع زوجته مهنة التاريخ ذات التبعات الأقل، عزاء لهما عن ضياع التاج^(٥).

وأصبح جون آمنا الآن . وكان فى الثلاثين من عمره رجلا نحيفا صغيرا داكل الشعر والعينين والبشرة خاصة . وكان صارما فى معالجة للأمور ، فلم يكن يشارك أغلب أفراد أسرته ما كانت تسعد به من مناقشات أدبية ودينية . فهو فوق كل شئ جندى ، يشعر بالسعادة فى الحملات أكثر مما يشعر بها فى القصر . على انه كان إداريا دقيقا ومقتدرا ، وبرغم قسوته على نفسه كان كريما مع أصدقائه ومع الفقراء وعلى استعداد أن يظهر فى أبهة حافلة إذا دعت الحاجة . وكان حنوناً حليماً مع أسرته ومخلصاً لزوجته ، الأميرة المنجارية بيريسكا ، ثم سُميت اسما مسيحيا إيرين ، غير أن تأثيرها عليه كان ضئيلا برغم مشاركتها له فى صرامته وأوجه احسانه . وكان صديقه

(٥) Anna Comnena, xv, xi, 1-23, pp. 229-42; Zonaras, iii, p. 759 (رواية زوناراس أقل تحيزاً)؛ أنظر Chalandon, *op.cit.* pp.273-6, and *Les Comnènes*, pp. 18.

الحميم الوحيد هو كبير خدمه ، وهو تركي يدعى أكسوخ الذي أسر وهو صبي عند الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧م ونشأ في القصر . وكان تصور جون لردوره الإمبراطوري تصورا رفيعا، وقد ترك له أبوه أسطولا قويا وجيشا مولفا من خليط من الأجناس لكنه كان جيد التنظيم والتجهيز ، كما ترك له خزانة فيها ما يكفي لتدبير سياسة نشطة . ولم يكن يرغب في الحفاظ على حدود الامبراطورية وحسب، وإنما يستزج كذلك حدودها القديمة، ويحبل المطالب الامبراطورية في شمال سوريا إلى واقع^(٦).

وبدأ جون حملته الأولى ضد الأتراك في ربيع ١١١٩م . فهبط خلال فريجيا واستعاد لاوديشيا . واضطر للعودة إلى القسطنطينية للدواعي عاجلة ، لكنه عاد بعد شهر ليستولى على سوزوبوليس ويعيد فتح الطريق إلى أضاليا . وبينما كان يهاجم السلاجقة بنفسه في الغرب ، كان قد جهّز لمهاجمة الدانشمند في الشرق . وقد استغل كونستنتين جابراس ، دوق طرابزون ، شجارا بين الأمير غازي وزوج ابنته الأمير التركي ابن منجو الذي اتخذ في طارناغي بأرمينيا مقرا له ، فهب لمساعدة الأخير . لكن غازي ومعه حليفه طغرل أمير ملطية هزمه واخذاه أسيرا ، فاضطر إلى دفع ثلاثين ألف دينار ليفتدي نفسه . وحدث خلاف بين غازي وطغرل في ذلك الوقت حال دون أن يتابع الترك انتصارهم^(٧).

١١٣٧م : جون يعد العدة لغزو سوريا

لم يتمكن جون من التدخل في الأناضول في السنوات القليلة التي تلت ، إذ شهدت تلك السنوات تعاظم قوة الدانشمند ينذر بالخطر . ففي سنة ١١٢٤م ، وعندما مات بلط الأرتمقي زوج ام طغرل أمير ملطية ، اثناء القتال في الجزيرة ، هاجم الأمير غازي ملطية وضمها، الأمر الذي أبهج المسيحيين الوطنيين هناك إذ وجدوا حكمه سييرا ومنصفا . ثم استدار غازي غربا وانتزع من البيزنطيين أنقرة وجنجره وقسطمونية ووسع سلطانه جنوبا حتى ساحل البحر الأسود ، مما عزل كونستنتين جابراس برا عن القسطنطينية فأعلن نفسه حاكما مستقلا في طرابزون . وفي ١١٢٩م ، وبعد موت

(٦) .Chalandon, *op. cit.* pp.8-11, 19.

(٧) *Ibid*, pp. 35-48

الأمير الروبيني ثوروس ، تحول اهتمام غازي إلى الجنوب ، وفي العام التالي ، وبتحالفه مع الأرمن ، ذبح الأمير بوهمند الثاني أمير انطاكية على ضفاف نهر جيحان . ومهما كانت آراء جون حول انطاكية ، فإنه لم يكن يرغب في أن تنتقل إلى أمير مسلم قري ، فشن هجوما فوريا على بافلاجونيا مما حال بين غازي وبين متابعة انتصاراته . ولحسن الحظ كان سلاجقة الأناضول في حالة من الضعف بسبب خلافات عائلية . ففي ١١٢٥م تمكن الأمير عرب من انتزاع عرش أخيه السلطان مسعود الذي هرب إلى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بمظاهر التشريف . ثم ذهب بعد ذلك إلى زوج امه غازي الدانشمندی واستطاع بمساعدته ، وبعد اربع سنوات من الكفاح ، من استعادة عرشه . ولاذ أخوه عرب بدوره إلى القسطنطينية حيث مات^(٨).

وابتداء من ١١٣٠م إلى ١١٣٥م دأب جون على الخروج بحملة ضد الدانشمند كل سنة . وفي مرتين توقف الحملة بسبب مكائد من أخيه ، اسحق سيباستوكراتور ، الذي هرب من البلاط . وامتضى السنوات التسع التالية في التآمر مع شتى الأمراء المسلمين والأرمن . وفي ١١٣٤م عاد من الحروب لموت الامبراطورة المفاجئ . وفي سبتمبر ١١٣٤م ، عندما هدد الموقف بحرب الأمير غازي ، تمكن من استعادة كل الأراضي التي فقدتها باستثناء جنجرة التي استعادها في العام التالي . وأما ابن غازي وخليفته ، محمد ، فقد ضايقته المشاجرات العائلية فلم يعد بوسعه معودة هجماته . وأما مسعود ، الذي حُرم من مساعدة الدانشمند ، فقد توصل إلى اتفاق مع الامبراطور^(٩).

وتملك الخوف أترارك الأناضول ، فغدا جون مهياً للتدخل في سوريا . بيد أنه من الضروري أن يحمي ظهره أولا . ولذا وصلت سفارة بيزنطية في عام ١١٣٥م إلى ألمانيا في بلاط الامبراطور الغربي لوثير ، وعرضت عليه نيابة عن جون معونات مالية ضخمة مقابل الهجوم على روجر الصقلي . وتواصلت المفاوضات عدة أشهر إلى أن وافق لوثير على مهاجمة روجر في ربيع عام ١١٣٧م^(١٠) وهُزم الهنجايريون عام ١١٢٨م ، وزحفت حملة عام ١١٢٩م إلى الصرب فأخضعتهم . وبذا تحقق الأمان للدفاع على

(٨) -Chalandon, pp. 77-91; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 223-4, 227, 237.

(٩) Cinnamus, pp. 14-15; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 237-49.

(١٠) .Peter Diaconus, in *M.G.H.Ss.* vol. VII, p. 833.

الدانوب الأسفل^(١١) وأدت معاهدة أبرمت في ١١٢٦م إلى عزل أبناء ييزا عن حلفائهم النورمانديون ، وأمسى الامبراطور الآن على علاقة طيبة بكل من البندقية وجنوا^(١٢).

وفي ربيع عام ١١٣٧م ، تجمع الجيش الامبراطوري وعلى رأسه الامبراطور وأبناؤه في أضايا وتقدم شرقا داخل كيليكيا ، وكان الاسطول الامبراطوري يحرس ميمنته ، فبوغت الأرمن بأبناء اقتزاه كما بوغت الفرنج بنفس القدر. وحاول ليو الروبيني ، وهو الآن سيد سهل كيليكيا الشرقي ، أن يوقف تقدمه بمحاولة الاستيلاء على القلعة الحدودية البيزنطية سيلوقية ، لكنه أجبر على التقهقر . واكتسح الامبراطور مرسين ، وطرسوس ، وأذنه ، والمصيصة ، والتي استسلمت له كلها في الحال . وفي عين زربة ، اعتمد الامير الارميني على تحصيناتها الهائلة في صده ، وقاومت حاميتها طوال سبعة وثلاثين يوما ، غير أن آلات الحصار التي كانت في حوزة البيزنطيين سحقت أسوارها ، واضطرت المدينة إلى التسليم ، وانسحب ليو داخل جبال طوروس العالية ، ولم يعبأ الامبراطور بمطاردته آنذاك . وبعد أن طهر عدة حصون ارمنية في الجوار من حامياتها ، قاد قواته جنوبا مرورا بإسوس والإسكندرونة ، والبوابات السورية إلى داخل سهل أنطاكية . وفي ١٩ أغسطس ظهر أمام أسوار المدينة وضرب معسكره على الضفة الشمالية لنهر العاصي (الأرند)^(١٣).

وكانت أنطاكية بغير أميرها ، إذ ذهب ريموند (أوف بواتيه) لإنقاذ الملك فولك من بعيرين وكان معه جوسلين امير الرها . ووصلا البقاع ليجدا الملك قد نجا من القلعة. وانتري فولك الذهاب بنفسه إلى أنطاكية لمقابلة البيزنطيين ، لكنه فضل العودة إلى القدس بعد التجارب التي مر بها مؤخرا . وسارع ريموند بالعودة إلى أنطاكية ليجد الامبراطور قد بدأ حصاره للمدينة ، ولكن الحصار لم يكن مستكملا بعد ، فتمكن من أن يتسلل داخلا مع حرسه الشخصي من خلال البوابة الحديدية تحت القلعة.

(١١) Chalandon, *op.cit.* pp. 59-63, 70-1.

(١٢) *Ibid.* pp.158-61

(١٣) Cinnamus, pp. 16-18; Nicetas Choniates, pp. 29-35; William of Tyre, xiv, 24, pp. 341-2; Matthew of Edessa, ccliv, p.323; Sambat the Constable, pp. 616-17; Gregory the Priest, pp. 152-3; Michael the Syrian, iii, p. 45; Ibn al-Athir, p. 424; Ibn al Kiyalyani, i.e. (في صفحة ٢٤٠، ملحوظة ٢، يورد الناشر قراءة مغايرة في). Qalanisi, pp.2401 الى Imanyal, Emmanuel غير انه جون هو الذي يتحدث عنه المورخ.

١١٣٧ م : ريموند يقدم فروض الولاء للإمبراطور

ظلت الآلات البيزنطية تدق التحصينات عدة أيام . ولم يكن فى مأمول ريموند الحصول على مساعدة من الخارج ، ولم يكن واثقا من مشاعر السكان داخل الأسوار ، وقد بدأ الكثير من الناس ، حتى من باروناته هو نفسه، يدركون الحكمة من سياسة أليس العنيدة . ولم يمض وقت طويل حتى هادر ريموند بارسال رسالة إلى الامبراطور يعرض عليه الاعتراف بسيادته مقابل الاحتفاظ بالإمارة باعتباره مندوبا امبراطوريا، وكان رد جون هو الاستسلام بلا قيد أو شرط ، وعندئذ أخبره ريموند بأن عليه استشارة الملك فولك ، وأرسلت الرسائل بغاية السرعة إلى القدس . على أن رد فولك كان عقيما ، إذ قال الملك : "نعلم جميعا ، وقد دأب كيراؤنا من قديم على تعليمنا ، أن أنطاكية كانت جزءا من امبراطورية القسطنطينية إلى أن اخذها الأتراك من الامبراطور واحتفظوا بها أربع عشرة سنة ، وأن مطالب الامبراطور الواردة فى المعاهدات المبرمة مع أسلافنا صحيحة . أفينبغى لنا إذن إنكار الحقيقة والتنكر لما هو صحيح؟" ولم يكن بوسع ريموند أن يتردد أكثر من ذلك ، بعدما عرض عليه الملك ، سيده الأعلى ، هذه النصيحة . ووجد مبعوثوه أن الامبراطور على استعداد لتقديم تنازلات . وتقرر أن يأتى ريموند إلى معسكره ويقسم كامل قسم الولاء له ، وأن يصبح رجلا من رجاله ويمكنه من دخول المدينة والقلعة . فضلا عن ذلك ، وفى حالة تعاون الفرنج مع البيزنطيين فى الاستيلاء على حلب وما جاورها من المدن ، يعيد ريموند انطاكية إلى الامبراطورية ويأخذ بدلا منها إمارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وخمص. وأذن ريموند . وركع أمام الامبراطور وقدم له فروض الولاء والطاعة. ولم يصبر جون عندئذ على دخول انطاكية ، لكن الراية الامبراطورية رفرفت فوق القلعة^(١٤).

وقد أظهرت المفاوضات موقف الفرنج المضطرب إزاء الامبراطور . وربما كانت احتياجات اللحظة العاجلة هى التى أملت الرد الذى كتبه فولك ، الذى كان يعلم تماما أن زنكى هو العدو الأكبر للمملكة الفرنجية ، وليس بوسع الملك الإساءة إلى القوة المسيحية الوحيدة القادرة على صد المسلمين ، وربما مارست الملكة ميليسند نفوذها لصالح سياسة من شأنها أن تبرئ اختها أليس وتلحق الخزي بالرجل الذى خدعها . على أن هذا رأى الذى كتبه فولك ربما كان هو رأى الذى ارتآه محاموه . وبرغم كل

William of Tyre, xiv, 30, pp. 651-3; Orderic Vitalis, xiii, 34, pp. 99-100; Cinnamus, (١٤) pp. 18-19; Nicetas Choniates, pp.36-7

ما أتاه بوهيموند الأول من دعاية ، كان رأى الصليبيين الأكثر ارتياها أن المعاهدة المفقودة بين الكسيوس وآباتهم في القسطنطينية ما تزال صالحة ، وإن انطاكية كان ينبغي أن تعود إلى الامبراطورية ، وإن حنث بوهمند وتنكريد بما أقسماء من قسم إنما هو تفريط لأية مزاعم قد يزعمونها . وكان ذلك رأيا امبراطوريا أكثر تطرفا مما كان يراه الامبراطور نفسه . والحكومة الامبراطورية تتصف بأنها دائما واقعية ، وقد رأت أن طرد الفرنج من انطاكية دون تقديم تعريض أمر غير عملي ويخلو من الحكمة . وفضلا عن ذلك ، كانت تود تحديد التخوم مع الدويلات التابعة بحيث يسيطر الامبراطور على سياستها العامة وفي نفس الوقت تتحمل تلك الدويلات صدمات هجوم الأعداء . ولذلك لم يركز موقف الامبراطور على معاهدة القسطنطينية ، وإنما على المعاهدة الموقعة مع بوهمند في ديفول . إذ طلب استسلام انطاكية غير المشروط باعتبار ذلك استسلاما من تابع متمرّد ، غير أنه كان على استعداد لأن يترك انطاكية تستمر كدولة تابعة . ومطلبه العاجل هو أن تتعاون معه في حملاته ضد المسلمين^(١٥).

بات الوقت متأخرا هذا العام للقيام بحملة ولذا عاد جون ، إلى كيليكيا ليستكمل غزوها ، بعد أن رسخ سلطته . وهرب امامه الأمراء الروبيون إلى داخل جبال طوروس العالية ، ولذا ثلاثة من أبناء ليو وهم مليخ ، وستيفن ، وكنسطنطين الضريير ، باين عمتهم جوسلين أمير الرها . وصمدت فاهكا التي تعد بمثابة قلعة الأسيرة لبضع أسابيع بقيادة قائدها المقدام كنسطنطين الذي كان لنزله مع ضابط من الكتيبة المقدونية يدعى إيوستراتيوس ، أبلغ الأثر في الجيش الامبراطوري كله . وبعد سقوط فاهكا مباشرة ألقى القبض على ليو وولديه الكبيرين روبين وثوروس ، وأرسلوا إلى السجن في القسطنطينية حيث أعدم روبين لثوه ، لكن ليو وثوروس فازا بالرفقة من الامبراطور الذي سمح لهما بالعيش تحت المراقبة في البلاط . ومات ليو هناك بعد أربع سنوات ، وانتهى أمر ثوروس بفراره وعودته إلى كيليكيا . وبعدما استكمل جون غزو المنطقة ، ذهب إلى منتجع شتوي في السهل الكيليكى حيث جاءه بلدوين حاكم مرعش ليقدم له فروض الولاء ويلتمس حمايته من الأتراك . وفي الوقت ذاته ، أرسلت سفارة امبراطورية إلى زنكي كي يتولد لديه الانطباع بأن البيزنطيين غير راغبين في الشروع في مغامرة عدوانية.

١١٣٨ م : المسيحيون يحاصرون شيزر

وفى فبراير التالى ، وبأوامر من الامبراطور ، اعتقلت سلطات انطاكية فجأة كل التجار والمسافرين من حلب والمدن الاسلامية المجاورة ، كى لا ينقلوا فى اوطانهم ما شاهدوه من استعدادات عسكرية . وفى أواخر مارس تحرك الجيش الامبراطورى إلى انطاكية حيث انضم إليه جنود أمير انطاكية وكونت الرها وكذلك كتيبة من فرسان المعبد . وفى أول ابريل عبر الحلفاء إلى اراضى الأعداء واحتلوا مدينة بلاط . وفى الثالث من الشهر ظهروا أمام البراعة التى صمدت لخمسة أيام بقيادة زوجة القائد . وانقضى اسبوع آخر فى جمع الجنود المسلمين فى المنطقة وقد لاذ اغلبهم بمغارات الباب حيث اجبرهم البيزنطيون على الخروج بيت الأدخنة فى المغارات . وكان زنكى مع جيشه أمام حماه يحاول أن يخرج منها الحامية الدمشقية عندما اخبره الكشافون بالغزوات المسيحية . فسارع بارسال الجنود بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . وكان جون يبنى نفسه بمباغثة حلب ، لكنه عندما وصل امام اسوارها يوم ٢٠ ابريل وشن عليها هجوما ، وجدها فى حالة دفاع قوى ، فقرر عدم المضى مع أثقال الحصار واستدار جنوبا . وفى ٢٢ ابريل احتل آثارب ، وفى ٢٥ معرة النعمان ، وفى ٢٧ كفرطاب . وفى يوم ٢٨ كان جيشه أمام بوابات شيزر .

كان صاحب شيزر هو الأمير المنقذى أبو العساكر سلطان ، الذى تدبر استقلاله عن زنكى . ولذا ربما كان جون يأمل فى أن يصرف زنكى اهتمامه عن مصير حلب . غير أن امتلاكها سوف يتيح للمسيحيين السيطرة على أواسط العاصى وسوف يعوق زنكى عن مزيد من التقدم فى سوريا . وشدد البيزنطيون الحصار ، وسرعان ما احتلوا جزءا أسفل المدينة ، وأحضر الامبراطور ما لديه من راجمات الحجارة الضخمة لرجم أعلى المدينة فى التل شديد الانحدار المطل على نهر العاصى . وتروى المصادر اللاتينية والاسلامية على السواء ما بدا من شخص الامبراطور من شجاعة ونشاط ، وكفاءة الرجم كذلك ، فقد بدا كما لو كان فى كل مكان فى ذات الوقت فى خوذته الذهبية، يتفقد الآلات ، ويشجع المهاجمين ، ويواسى الجرحى . وشاهد أسامة ابن اخي الامير ما أحدثته المنجنيقات اليونانية من دمار مرعب إذ كانت القذيفة الواحدة منها تدمر بيوتا بكاملها ، بينما انسحقت السارية الحديدية التى تحمل علم الامير ، وهوت إلى أسفل فنفضت فى بدن رجل كان فى الشارع فقتلته . على انه بينما دأب الامبراطور ومهندسوه على العمل بلا كلل ، تخلف الفرنج . إذ كان ريموند يخشى الإقامة فى شيزر حال الاستيلاء عليها وهي فى خط المواجهة للعالم المسيحى، تاركا أسباب الراحة فى

أنطاكية ، بينما لم يكن جوسلين ، الذى كان يحمل الكراهية لريموند ، يود أن يراه وقد وطّد نفسه فى شيزر وربما فى حلب لاحقا ، ولذا كان لمساته أثرها فى تشجيع ما يحمله ريموند من تراخٍ طبيعى ومن عدم ثقة فى البيزنطيين . وبدلا من أن يشترك الأميران فى القتال ، أمضيا أيامهما فى خيمتهما يلعبان النرد . ولم يكن لتويخات الامبراطور من أثر سوى أن دفعتهما دفعا إلى بعض النشاط الحامل لفترة وحيزة . وفى ذات الوقت رفع زنكى حصاره عن حماه وتقدم باتجاه شيزر . وكان مبعوثوه قد أسرعوا إلى بغداد ، حيث كان السلطان عازفا عن تقديم المساعدة أول الأمر ، إلى أن اندلعت أعمال شغب صارخة بالجهاد ، مما اضطره إلى ارسال حملة . ووعد الأمير داود الأرمنى بجيش قوامه خمسين ألفا من التركمان من الجزيرة . كما أرسلت رسائل إلى الأمير الدانشمندى بطلب شن هجوم فى الأناضول . فضلا عن أن زنكى كان مدركا تماما لما يسود البيزنطيين والفرنج من شقاق ، راح عملاؤه فى الجيش المسيحي ينفثون ما يمكنه الأمراء اللاتين من ازدراء للإمبراطور.

١١٣٨ م : دخول جون أنطاكية

على الرغم من كل ما بذله جون من قوة ، فإن صخور شيزر ، وشجاعة المدافعين عنها ، وبلادة الفرنج ، اجتمعت كلها وهزمت . واقترح عليه بعض حلفائه الخروج للملاقاة زنكى خاصة وإن جيشه اصغر من جيش المسيحيين ، لكنه لم يشأ أن يترك آلات الحصار دون حراسة ، ولا أن يثق بالفرنج الآن . لقد كانت المجازفة فائقة الضخامة . وتدبر أمره واحتل جزء المدينة الأسفل كله ، وفى حوالى ٢٠ مايو أرسل إليه امير شيزر يعرض دفع تعويض ضخيم واهدائه أجود خيوله وأردية حريرية وأنفس كنزين لديه : منضدة مرصعة بالجواهر ، وصليب بفصوص اليواقيت سبق وأن أخذ من الامبراطور رومانوس ديوجينيس فى منزكيرت قبل سبع وثلاثين سنة ، فضلا عن قبوله الاعتراف بالامبراطور سيده الأعلى ودفع جباية سنوية له . فما كان من جون ، الذى كان يشعر بالغثيان من حلفائه اللاتين ، إلا أن قبل الشروط ، ورفع الحصار فى ٢١ مايو . وبينما كان الجيش الامبراطورى العظيم يتحرك عائدا إلى أنطاكية ، جاء زنكى إلى شيزر . وبعد عدة مناوشات قليلة ضئيلة الخطر لم يشأ أن يجازف بمطاردة الانسحاب البيزنطى^(١٦).

وصل جون بجيشه إلى أنطاكية وأصر على دخول المدينة في موكب حافل، فتقدم على صهرة جواده وسار على جانبيه أمير أنطاكية وكونت الرها على الأقدام كما لو كانا سائسين لفرسه . وقابله عند البوابة البطريق وكل رجال الدين ومشوا بين يديه خلال الشوارع المزودة بأعلام الزينة الملونة حتى الكندراية حيث أقيم قداس وقور ، ومنها إلى القصر حيث اتخذ مكان إقامته . واستدعى ريموند ، وألمح أن الأمير فشل مؤخرا في واجباته كتابع ثم طلب أن يدخل الجيش المدينة ويتسلم القلعة ، إذ أن الحملات المقبلة ضد المسلمين يتعين التخطيط لها في أنطاكية ، وهو في حاجة إلى القلعة لتخزين ما لديه من أموال ومواد الحرب . وارتاع الفرنج . والتمس ريموند بعض الوقت للنظر في هذا الطلب بينما انسل جوسلين خارجا من القصر . وما أن خرج من القصر حتى طلب من جنوده نشر شائعة بين السكان اللاتين في المدينة بأن الامبراطور يطلب طردهم في الحال ، وحثهم على مهاجمة السكان اليونانيين . ولدى تفجّر أعمال الشغب اندفع عائدا إلى القصر ، صالحا بالامبراطور أنه جاء مجازفا بحياته ليحذره من الخطر المحدق به . وبقينا كانت هناك ضجة وهرج في الشوارع ، وكان اليونانيون الغافلون يقتلون . ولا أحد يعلم في الشرق أين ينتهي الشغب . ولم يكن جون يحب المعاناة لليونانيون في المدينة ولا أن تغلق عليه ابواب القصر مع حرسه الخاص فقط، وقد انقطع الاتصال بجيشه البعيد على ضفاف نهر العاصي . فضلا عن انه علم أن سلاجقة الاناضول قاموا بغزو كيليكيا وأغاروا على أذنة، بفضل دبلوماسية زنكى . ولم ينخدع بحيلة جوسلين ، لكنه قبل أن يخاطر بعداوة صريحة مع اللاتين لابد وان يؤمن تماما خطوط مواصلاته، فأرسل إلى ريموند وجوسلين قائلا إنه في الوقت الراهن لا يطلب أكثر من تحديد قسم التبعية وأنه لا بد من أن يرجع إلى القسطنطينية . وغادر القصر عائدا إلى جيشه ، وعلى الفور هدأت أعمال الشغب بأوامر من الأميرين . غير انهما كانا ما يزالان في حالة من التوتر وفي تلهف كبير لاسترداد حسن نوايا الامبراطور ، حتى أن ريموند عرض تواجد موظفين امبراطوريين في المدينة وهو يظن - صوابا - أن جون لن يقبل بهذا العرض الذي يخلو من الاخلاص . وبعد وقت قصير ودع جون كلا من ريموند وجوسلين بمظهر خارجي يحمل الصداقة وكامل الريبة المتبادلة . ثم قاد جيشه

41; Michael the Syrian, *loc.cit.*; Usama, ed. Hitti, pp.26, 124, 143-4; Ibn al-Qasbi, pp.248-52; Kemal ad-Din, pp. 674-8; Ibn al-Athir, pp.426-8. القصيدة التهمة التي وجهها Prodomus إلى الامبراطور بأن الجور هو الذي انقذ شيزر (M.P.G. vol. cxxxiii, cols. 1344-9).

عائدا إلى كيليكيا^(١٧).

١١٣٩م : جون فى الأناضول

والجدير بالملاحظة عدم التعرض للكنيسة طوال مفاوضات جون حول انطاكية . وكانت سلطات الكنيسة اللاتينية تخشى أن يصر الامبراطور على تنفيذ البند الوارد فى معاهدة ديفول بأن تعود البطريرقية إلى الحظيرة الاغريقية . ذلك انه فى مارس ١١٣٨م ، أصدر البابا إينوسنت الثانى أمرا يحظر على أى عضو فى كنيسة البقاء مع الجيش البيزنطى فى حالة إقدام هذا الجيش على أى عمل مضاد للسلطات اللاتينية فى انطاكية وليس هناك أدنى شك فى أن البابا أصدر هذا الأمر استجابة لطلب أنطاكية . ولا بد وأن جون كان عازفا عن إثارة أية مشكلة دينية إلى أن ترسخ أقدامه على أرض صلبة سياسيا واستراتيجية ، ولو أنه استطاع تقديم إمارة أخرى بدلا من انطاكية إلى ريموند ، لتمكن من إعادة بطريق يوناني إلى المدينة . لكنه فى الوقت ذاته ، وعلى الملأ ، كان متساعا إزاء الوجود اللاتينى عندما كان فى موكبه الوقور داخل المدينة إذ جاء رادولف (أوف دومفرنس) وحياه وسار بين يديه إلى القُداس الذى تم فسي الكندرية^(١٨).

وعاد جون متباطئا إلى القسطنطينية بعد أن ارسل قسما من جيشه لمعاقبة مسعود السلجوقى على غارته فى كيليكيا ، فطلب مسعود السلام ودفع تعويضا . وخلال عامي ١١٣٩م و١١٤٠م انشغل الامبراطور مع الامير الدانشمندی الذى كان عدوا أخطر بكثير من السلاجقة . إذ لم يكتف عمده بغزو كيليكيا العليا عام ١١٣٩م والاستيلاء على قلعة فاهكا ، وإنما قاد أيضا حملة باتجاه الغرب توغلت حتى نهر صغاري . وبتحالفه مع قسطنطين جابراس ، دوق طرابزون المتمرد ، تمكن من حراسة جانبه الشمالى . وخلال صيف ١١٣٩م أفلح جون فى دحر الدانشمند خارج بيثينيا وبافلاجونيا ، وفى الخريف سار شرقا بمحاذاة ساحل البحر الأسود . واستسلم

(١٧) William of Tyre, xv,3-5,pp.658-65; al-Azimi (p.352) is the only other chronicler to mention the plot.

(١٨) William of Tyre, xv,3,p.659. ولكن ابن القلانيسى يقول (ص ٢٤٥) ان جون طلب بطريقا يونانيا لأنطاكية . وربما اضطرب عليه الأمر بين مطالب جون والمطالب اللاحقة التى طالب بها مانويل . ويرد خطاب إينوسنت ، المؤرخ فى ٢٥ مارس ١١٣٨م فى *Cartulaire du Saint Sépulcre*, ed. Rozière, p.86.

قسطنطين جابراس ، وتحول الجيش الامبراطوري إلى داخل البلاد لمحاصرة قلعة نقصار الدانشمندية . وكانت مهمة صعبة ، إذ وهبتها الطبيعة القوة والحماية الجيدة ، وفي تلك البلاد الجبلية الوعرة يصعب الحفاظ على خطوط المواصلات . وتأسى جون لخسارته الجسيمة في جتوده ، ولقرار ابن أخيه ، جون بن أخيه اسحق ، إلى صفوف الاعداء وتحوله إلى الاسلام وزواجه من ابنة مسعود . ويدعى السلاطين العثمانيون انهم من نسله . وفي خريف ١١٤٠م غزى جون عن مواصلة الحملة وأعاد جيشه إلى القسطنطينية وفي نيته استئناف الحملة في العام التالي . لكن الأمير محمد مات في العام التالي ، ونوقفت القوة الدانشمندية عن نشاطها مؤقتا بما دار لديها من حرب أهلية اشتعلت بين الورثة ، ومن ثم يستطيع جون العودة إلى مشروعه الأكبر وأن يحول انتباهه مرة أخرى إلى سوريا^(١٩).

وسرعان ما خسر في سوريا ما فازت به حملته ضد المسلمين عام ١١٣٧م ، إذ استعاد زنكي كفرطاب من الفرنج في مايو ١١٣٧م ، ومرة النعمان وبزاعة وأتاب في الحريف . وفي السنوات الأربع التالية كان زنكي مشغولا تماما بمحاولته الاستيلاء على دمشق ، وقد فشل فرنج شمال سوريا الكسالي في انتهاز فرصة الصعوبات التي يواجهها زنكي . وفي كل سنة يتبادل ريموند وسوار والي حلب الغارات في أراضي بعضهما البعض ، ولكن لم تحدث معركة كبرى^(٢٠) . وفازت كونتية الرها بسلام نسبي ، نظرا للنزاعات المهلكة بين امراء المسلمين حول الحدود ، والتي وتفاسقت بموت محمد الدانشمندی . وكان الامبراطور جون يراقب الأحداث بعناية من القسطنطينية ، وبدا له بوضوح أن فرنج شمال سوريا لا قيمة لهم كجنود للعالم المسيحي.

١١٣٩م : خلع البطريق رادولف

ويرجع ما ظهر على ريموند من عدم المبالاة إلى نقص القوة العاملة من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى شجاره مع البطريق رادولف . ولم يكن في نيته قط أن يخرم قسمه بطاعة البطريق في كل شيء ، وكانت عجرفة رادولف تثير ثأثرته . وعشر على حلفاء في بعض رجال الكنيسة الملحقين بالكندرازية يتزعمهم رئيس الشماسية ،

(١٩) Nicetas Choniates, pp. 44-9; Michael the Syrian, III, p. 248

(٢٠) Kemal ad-Din, pp. 681-5

لامبرت ، وكاهن يدعى أرنولف (أوف كلابريا) . وبتشجيع من ريموند ، رحلوا إلى روما في أواخر عام ١١٣٧م للشكوى من انتخاب رادولف بطريقة غير كنسية ، وعند مرورهم في أراضى الملك روجر الثانى ، استأثره أرنولف - المولود من بين رعاياه - ضد رادولف بأن أكد له أن رادولف قد ضمن لريموند عرش انطاكية ، وهو العرش الذى طالما كان روجر الثانى يشتهيهِ . واضطر رادولف إلى اللحاق بهم في روما للدفاع عن نفسه ، وعندما وصل بدوره إلى جنوب إيطاليا اعتقله روجر . لكنه أوتى من سحر البديهة وإغراء اللسان ما جعله يفوز بالملك إلى جانبه بسرعة . وواصل الرحلة إلى روما حيث انتصر سحره مرة أخرى . ونضا عن نفسه طيلسانه الأسقى ووضعه على مذبح القديس بطرس ، ثم استرده من البابا . وفى طريق عودته خلال إيطاليا لاستئناف مسؤوليات عرشه البطريراقى ، عامله الملك روجر معاملة ضيف الشرف ، لكنه عندما وصل انطاكية ، رفض أتباعه من رجال الدين - يؤازرهم ريموند - أن يحيموه التحية المألوفة وهى مقابته عند بوابات المدينة . فتنظّاه رادولف بمظهر الرجل الوديع الجروح ، وتقاعد سرا فى دير بالقرب من السويدية ، وبقي هناك إلى أن دعاه جوسلين أمير الرها - الساعى دائما إلى إحراج ريموند - إلى زيارة رسميه لعاصمته ، حيث استقبل رئيس الأساقفة استقبال السيد الروحى الأعلى . وسرعان ما قرر ريموند أن الأسلم له شخصيا أن يعود البطريرق إلى انطاكية ، ولما عاد لقي من التحية كل آيات التشريف التى يردّها .

على أن ملف التحقيق أعيد فتحه من جديد فى روما نظرا لما أثاره ريموند من هياج واضطراب . وفى ربيع ١١٣٩م ، أرسل بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر الحالة فى مكانها . وذهب بطرس الذى كان طاعنا فى السن لزيارة الأماكن المقدسة ، وأثناء رحلة العودة إلى الشمال مات فى عكا . وكان موته خزيا على أعداء رادولف ، وحتى أرنولف (أوف كلابريا) عرض خضوعه لرادولف الذى منعه غطرسته من قبول ذلك العرض ، فثارت ثائرة أرنولف وعاد إلى روما وحث البابا على إرسال مندوب آخر ، البيريك ، أسقف أوستيا . ووصل المندوب الجديد فى نوفمبر ١١٣٩م ، وعقد على الفور مجمعا كنسيا حضره كل مطارنة الشرق ، بمن فيهم بطريق القدس . وكان جليا أن تعاطف المجمع يميل إلى جانب الأمير ورجال الدين المعارضين ، وكان رئيس أساقفة أفاميا سيلولن يحاول الدفاع عن البطريرق رادولف فطرده من المجمع ، ومن ثم رفض رادولف حضور جلسات المجمع المنعقدة فى كندراكية القديس بطرس ، عندما طرد مؤيده الوحيد . وبعد رفضه الاستدعاء لثالث مرة ليدفع عن نفسه الاتهامات الموجهة إليه ،

أعلن الجميع خلعه . وانتخب الجميع مكانه آميرى (أوف ليموج) رئيس كهنة الكنيسة ، وهو رجل ضخيم ، نشيط ، ويكاد يكون أميا ، ومدين لأرنولف بأول درجات تقدمه ، لكنه كان حصيفا عندما أنشأ علاقة الصداقة مع ريموند . وبناء على قراره المكتوب ألقى ريموند البطريق السابق فى غيابة السجن . وفيما بعد هرب رادولف وذهب إلى روما حيث فاز مرة أخرى بتأييد البابا والكرادلة . لكنه قبل أن يتمكن من استغلال مساعدتهم لإعادة توطيد مكانته وافته المنية فى وقت ما من عام ١١٤٢ م ، وحامت الشكوك حول السم . وضمت تلك الحادثة التعاون المخلص من كنيسة انطاكية ، على أن ما كان يتصف به البطريق من معاملة جائرة ، ترك انطبعا قبيحا حتى بين رجال الدين الذين كانوا يكرهونه الكراهية كلها^(٢١).

١١٤٢ م : جون يعود إلى كيليكا

وفى ربيع ١١٤٢ م كان جون مهيا للعودة إلى سوريا . وكما حدث عام ١١٣٦ م ، احتاط لحماية ظهره بتحالف مع العاهل الالماني ضد روجر الصقلى ، وزار سفراؤه بلاط كونراد الثالث ، خليفة لوثير ، لعمل الترتيبات الضرورية ولكى توضع اللمسات الأخيرة للصداقة بخاتم الزواج ، وعادوا عام ١١٤٢ م ومعهم اخت زوجة الملك كونراد ، بيرثا (أوف سولزباخ) ، التى تقرر أن تصبح زوجة أصغر ابناء جون - مانويل تحت اسم إيرين . كما ضمن جون النوايا الحسنة للمدن البحرية الايطالية^(٢٢). وفى ربيع ١١٤٢ م قاد جون وأبنائه الجيش عبر الأناضول إلى أضايا ، وهو يدحر فى مسيرته السلاجقة ورعاياهم التركمان الذين كانوا يحاولون مرة أخرى شق طريقهم إلى فريجيا ، ويقوى الدفاعات الحدودية . وبينما كان الامبراطور منتظرا فى اضايا ، اصابته مصيبة جسيمة . إذ أن أكبر أبنائه ألكسيوس ، المعين وريثا ، سقط مريضا ومات هناك . وتقرر أن يعهد إلى ابنه الثانى والثالث - أندرونيكوس واسحق - بنقل الجثة بحرا إلى القسطنطينية ، وأثناء الرحلة مات أندرونيكوس هو الآخر^(٢٣) . وبرغم هاتين

(٢١) William of Tyre, xiv, 10, pp. 619-20, xv, ii-16, pp. 674-85. وهو مصدرنا الوحيد.

(٢٢) Chalandon, *op. cit.* pp. 161-2, 171-2

(٢٣) Cinnamus, p. 24; Nicetas Choniates, pp. 23-4. إن جون كان ينوى توريث الامبراطورية لألكسيوس ، وأن يحصل مانويل ، أصغر ابنائه ، على إمارة تألف من انطاكية و أضايا وقبرص.

الفاجعتين، واصل جون زحفه شرقا معلنا أن الهدف هو كيليكيا العليا لاستعادة ما أخذه الدانشمند من قلاع ، إذ لم يرغب في إثارة شكوك الفرنج^(٢٤) ، وشق الجيش طريقه الوعر خلال كيليكيا وعبر سلسلة جبال امانوس العليا المسماة جياورداغ، وفي منتصف سبتمبر ظهر فجأة أمام تل بشير ، العاصمة الثانية لجوسلين أمير الرها. وبوغت جوسلين فسارع إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للامبراطور وقدم له رهينة ، ابنته ايزابيلا . فاستدار جون واتجه نحو انطاكية ، وفي ٢٥ سبتمبر وصل إلى قلعة باحراس وهي قلعة فرسان المعبد العظيمة التي تتحكم في الطريق من كيليكيا إلى انطاكية . ومن هناك ارسل إلى ريموند طالبا تسليم المدينة كلها له ، وكرر ما سبق أن عرضه من تقديم اسارة جديدة للأمير من الغزوات المقبلة.

وانزعج ريموند . فبقينا عقد الامبراطور عزمه الآن على متابعة مطالبه والحصول عليها بالقوة ، ويبدو أن المسيحيين الوطنيين كانوا على استعداد لمساعدة البيزنطيين . وحاول الفرنج كسب الوقت . فرد ريموند بأنه لابد وأن يستشير اتباعه ، وبذا غير تماما الوضع القانوني الذي ارتكز عليه عام ١١٣١م وانعقد مجلس في انطاكية أعلن فيه الأتباع - وربما استدعاهم البطريق الجديد على وجه السرعة - أن ريموند يحكم كمجرد زوج وريثة انطاكية ، ومن ثم لاحق له في التخلي عن أراضيها ، بل إن الأمير والأميرة معا لا يستطيعان تغريب الامارة او مبادلتها دون موافقة أتباعهما الذين سوف يطيحون بهما من على العرش اذا حاولا ذلك . وحمل اسقف جبلة رد المجلس إلى جون الذي استشهد بسلطة البابا في تأييد رفض المطلب الامبراطوري غير انه عرض على جون أن يدخل انطاكية في موكب يكلله الوقار . ولم يكن في هذا الرد الذي يتعارض تماما مع كل تعهدات ريموند السابقة أى خيار يختاره جون سوى الحرب . على أن الموسم كان متقدما جدا بحيث لا يسمح بالعمل الفوري ، ولذا راح جون ينهب ممتلكات الفرنج في حوار المدينة ، ثم انسحب إلى داخل كيليكيا لاستعادة القلاع التي اخذها الدانشمند ولكي يمضي الشتاء^(٢٥).

(٢٤) William of Tyre, xv, 19, p 688 ، بشير ولهم الى ان ريموند دعا جون للتدخل خشية من زنكي، ولكن Nicetas Choniates (p.52) يتحدث عنه مخفيا خططه وأن وصوله الفعلي الى سوريا كان مفاجأة (William of Tyre, *ibid.* p. 689) .

(٢٥) William of Tyre, xv, 19-20, pp. 688-91; Nicetas Choniates, pp. 52-3; Gregory the Priest, p.156; Matthew of Edessa, cclv, p.325.

ومن كيليكيا أرسل جون سفارة إلى القدس لتعلن للملك فولك عن رغبته في زيارة الأماكن المقدسة ولكي يناقش مع الملك عملاً مشتركاً ضد الكفرة . واسقط في يد فولك . فهو لا يرغب في نزول الجيش الامبراطوري العظيم إلى فلسطين ، وسوف يكون ممن ما يقدمه الامبراطور من مساعدة هو حتما الاعتراف بسيادته . وانطلق أسقف بيت لحم ، انسيلم ، وبصحبه آمر قلعة القدس ، رورد ، ورئيس رهبان فرسان المعبد جيوفري الذي كان دارساً جيداً لليونانية ، ليشرحوا لجون أن فلسطين بلد فقير لا يستطيع توفير الطعام لإعاشة جيش ضخم كجيش الامبراطور ، ولكنه اذا تعطف بالحضور مع حرس صغير فسوف يكون الملك في غاية السرور للترحيب به . وقرر جون عدم الاصرار على طلبه أكثر من ذلك حالياً^(٢٦).

في مارس ١١٤٣م ، عندما أتم الامبراطور استعداداته للاستيلاء على انطاكية ، منح نفسه عطلة قصيرة يذهب فيها لصيد الخنزير البري في جبال طوروس . وأثناء الصيد أصيب عرضاً بسهم فجرحه . ولم يعبأ كثيراً بهذا الجرح . لكن الجرح تعفن وسرعان ما دخل في مرحلة الاحتضار بسبب تسمم الدم . وواجه جون نهايته رابط الجأش ، وظل حتى آخر لحظة يعمل في الترتيب لاستخلافه ولاستمرار الحكومة استمراراً لسلسا . لقد مات أكبر ابنين من ابنائه الأربعة . وكان الثالث اسحق ، الموجود الآن في القسطنطينية ، شاباً متقلب المزاج . فقرر جون أن يورث الامبراطورية للأصغر والأحد ذكاً ، مانويل ، وحث صديقه العظيم ، أكسوك كبير متبوعيه ، مساندة مانويل في مطلبه . ويديه الضعيفتين وضع التاج على رأس مانويل واستدعى جنترالاته للتهاتف للامبراطور الجديد وبعد أن نطق باعتزافه الأخير لراهب جليل من بامفيليا ، مات يوم ٨ ابريل^(٢٧).

وكان موت جون بمثابة الخلاص لأنطاكية الفرنجية . وفي الوقت الذي أسرع فيه

(٢٦) William of Tyre, xv, 21. pp. 691-3. يقول (Cinnamus, p.25) إن جون أعدّ قرايين للقدس.

(٢٧) William of Tyre, xv, 22-3, pp. 693-5; Cinnamus, pp. 26-9; Nicetas Choniates, pp. 56-64; Matthew of Edessa, cclv, p. 325; Gregory the Priest, p. 156; Michael the Syrian, iii, p. 254; Ibn al-Qalanisi, p 264; Bustun, p. 537.

أكسوك إلى القسطنطينية يسبق الأنباء لحماية القصر والحكومة من أية محاولة من جانب اسحق بن جون للمطالبة بالعرش ، كان مانويل يقود الجيش عائداً به عبر الأناضول. وإلى أن يتأكد أولاً من عاصمته ، ليس هناك مجال للمزيد من المغامرات في الشرق . ونحى المشروع الامبراطوري جانبا ، ولكن ليس لفترة طويلة^(٢٨).

(٢٨) Cinnamus, pp. 29-32، يتحدث عن سفارة انطاكية تتصف بالوقاحة ذهبت الى مانويل الذي رد بأنه سوف يعود لتأكيد حقوقه, William of Tyre, xv, 23, Nicetas Choniates, pp. 65-9; .p.696.

الفصل الرابع:

سقوط الرها

سقوط الرها

"رَبِّ مُلْكٍ مُّعْجَلٍ فِي أَوَّلِهِ . أَنَا آخِرُهُ فَلَا تَبَارِكْ"
(أَسْأَلُ ٢٠ : ٢١)

تنفس فرنج الشرق الصعداء لدى سماعهم نبأ وفاة الامبراطور ، ولم يلحظوا في تنهدات راحتهم كم كان الأتابج زنكي أكثر منهم ارتياحا بكثير وهو ألد أعدائهم^(١). وقد أمضى زنكي فترة سنتين ، من ١١٤١م ، وهو يعاني الحرج من رغبة السلطان مسعود في إعادة تأكيد سلطته عليه . ولم يتمكن زنكي من تجنب غزو السلطان لأراضى الموصل إلا بالتظاهر في الوقت المناسب بالخضوع له ، إلى جانب هدية مالية وإرسال ابنه كرهينة^(٢). ولو قد حدث غزو بيزنطي لسوريا في تلك اللحظة ، لانهت مخططات زنكي في الجهة الغربية ، بل زاد تهديد تلك المخططات من جراء تحالف بين

(١) يمثل الموقف الاسلامي حيال البيزنطيين فيما أورده ابن القلانيسي (ص ٢٥٢) عندما كان يتحدث عن انسحاب الامبراطور عام ١١٣٨م فيقول : "اطمأنت كل القلوب بعد حزنها وخرفها".

(٢) Ibn al-Athir, pp. 241-2

ملك القدس وأتابج دمشق ، نشأ نتيجة لخوفهما المشترك منه .

وبعد انهيار التحالف الفرنجي البيزنطي عام ١١٣٨ م ، عاد زنكى إلى ما كان فيه من محاولة الاستيلاء على دمشق . وكان حصاره لحمص قد توقف مرتين ، المرة الأولى بتقدم الفرنج إلى قلعة بعين ، والمرة الثانية بحصار الفرنج لشيزر . وقد عاد الآن فى كامل قوته إلى حمص ، وأرسل إلى دمشق طالبا يد أم الأتابج للزواج ، الأميرة زمرد ، عارضا حمص مهرا لها . ولم يكن الدمشقيون فى موقف يساعدهم على الرفض . وفى يونية ١١٣٨ م تزوجت السيدة الأرملة من زنكى ودخلت جنوده حمص . وإظهارا لحسن النوايا ، أقطع زنكى حاكم حمص المملوك المسن أنر إقطاعية تضم قلعة بعين التى احتلها حديثا وبعض الحصون فى الجوار^(٣) .

وكانت أسرة بورى الحاكمة فى دمشق حسنة الحظ ، إذ لم يتخذ أنر مقامه فى قلعة بعين وإنما جاء إلى دمشق . وهناك قُتل الأتابج الصغير شهاب الدين محمود فى فراشه على يد ثلاثة من أقرب غلمانه ، وكان ذلك فى ليلة ٢٢ يونية ١١٣٩ م . ولو كان زنكى - الذى حامت حوله شكوك التواطؤ - يأمل بذلك فى الاستيلاء على الحكم فقد خاب أمه ، إذ باشر أنر فى الحال تسيير دفة الأمور ، فصلب القتلة ، واستدعى الأخ غير الشقيق للأتابج ، جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، ليتسلم عرش محمود . وفى المقابل أعطى محمد بعلبك لأنر الذى تزوج من أم التابج الجديد . لكن أنر بقي فى دمشق مسؤولا عن الحكومة . ولم يصادف ذلك هوى لدى زنكى ، وخاصة بتشجيع زوجته زمرد وأخ لمحمد ، هو باهرام شاه الذى كان يحمل عداوة شخصية لأنر . وفى أواخر صيف ١١٣٩ م حاصر بعلبك بجيش ضخيم وأربع عشرة آلة من آلات الحصار ، فاستسلمت المدينة يوم ١٠ أكتوبر ، كما استسلمت يوم ٢١ من الشهر حامية القلعة - التى شُيّدت من بقايا معبد بعل الكبير - بعد أن أقسم زنكى على القرآن بالإبقاء على حياة افراد الحامية ؛ لكن زنكى حنث بقرصه ، إذ قتلوا جميعا شر قتلة وبيعت نساؤهم سبايا . ولم يكن زنكى يقصد من ذلك سوى ترويع الدمشقيين ، لكنها جعلت مقاومتهم أكثر صلابة وأدت بهم إلى النظر إلى زنكى على انه عدو خرج عن العقيدة^(٤) .

وفى الأيام الأخيرة من تلك السنة عسكر زنكى بالقرب من دمشق ، وعرض على

(٣) Ibn al-Qalanisi, p. 252; Kemal ad-Din, pp. 678-9

(٤) Ibn al-Qalanisi, pp. 253-6; Ibn al-Athir, p. 431

الأتابع محمد بعلبك أو حمص بدلا من دمشق . وكان الأمير الصغير حريا بالقبول
لوسمح له أنر . ورفض هذا الأخير تحرك زنكي لمحاصرة المدينة . وفي خضم تلك الأزمة
مات محمد يوم ٢٩ مارس ١١٤٠ م . بيد أن الدمشقيين كانوا يحملون الولاء لآل
بورى، ولم يجد أنر صعوبة فى رفع ابن محمد الشاب بحير الدين أبى إلى العرش . وفى
ذات الوقت قرر أنر أن لديه من الميررات الدينية والسياسية ما يدفعه إلى طلب مساعدة
المسيحيين ضد عدوه الغادر . فانطلقت من دمشق سفارة يرأسها الأمير أسامة بن منقذ
قاصدة القدس^(٥) .

١١٣٩ م : التحالف الفرنجى مع دمشق

كان الملك فولك يحاول انتهاز فرصة ما يعانيه الدمشقيون من ارتباك كى يحكم
قبضته على منطقة ما وراء نهر الأردن . وفى صيف ١١٣٩ م زاره ثيبرى (أوف الزاس)،
كونت فلاندرز ، زوج سيبيللا ابنة فولك من زواجه الأول . وبمساعدة ثيبرى أغار
فولك على جلعاد ، وبشئ من الصعوبة استولى على حصن صغير بالقرب من عجلون،
وذبح المدافعين عنه^(٦) . ولم يحسن من كده سوى القليل . إذ أنه عندما عرض عليه أنر
عشرين ألف بيزنت شهريا وإعادة قلعة بانياس لقاء طرد زنكى من دمشق ، لم يتردد فى
تغيير سياسته . ولم تكن فكرة هذا التحالف جديدة ، فقد سبق وان حدث فى أوائل
١١٣٨ م أن رحل أسامة إلى القدس نيابة عن أنر لمناقشة جدوى التحالف . وبرغم ما
استقبله به البلاط الفرنجى من مظاهر التشريف ، إلا أنه رفض ما عرضه من مقترحات .
أما الآن ، فالبلاط الفرنجى يفهم ما تشكله الأخطار الناجمة عن تعاظم قوة زنكى ،
وعندما استدعى فولك مجلسه لينظر فى العرض ، كان هناك شعور عام بأنه ينبغي
قبوله^(٧) .

بعد تسلم الفرنج رهائن من دمشق ، انطلق جيشهم فى ابريل قاصدا الجليل .
وسار فولك متوخيا جانب الحذر ، وتوقف بالقرب من طبرية بينما استمر الكشافون .
وهبط زنكى على الساحل المقابل لبحر الجليل كى يراقب تحركاته ، فوجده ماكشا لا

(٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 256-9

(٦) William of Tyre, xv, 6, pp. 665-8

(٧) Ibid. xv, 7, pp. 668-9; Ibn al-Qalanisi, pp. 259-60

يتحرك ، فعاد لمحاصرة دمشق . وعلى الأثر انطلق فولك شمالا . ولم يكن زنكى ليجازف بأن يقع بين فكي الفرنج والدمشقيين ، ولذا انسحب مبتعدا عن دمشق . وعندما قابل فولك قوات أنر إلى الشرق قليلا من بحيرة الحولة في وقت مبكر من يونية ، علموا أن زنكى انسحب إلى بعلبك . وعادت بعض قوات زنكى في وقت متأخر من الشهر للإغارة حتى وصلت إلى أسوار دمشق ، لكن زنكى انسحب بجيشه الرئيسى إلى حلب ولم يصبه أذى^(٨) . وبذا أنقذ التحالف دمشق دون معركة . والتزم أنر بشروط الصلقة ، وكان جنوده يحاصرون بانياس حصارا متقطعا لعدة شهور خلت . وانتهاز أحد قادة زنكى - إبراهيم بن طرغوث - فترة همد في الحصار وراح يغير على الساحل بالقرب من صور حيث بوغت بجيش فرنجى أنطاكي يقوده ريموند جاء جنوبا لمساعدة فولك في الحملة الدمشقية . وهزم ابراهيم وقتل . وسرعان ما قرر المدافعون عن بانياس التسليم عندما شاهدوا أنر نفسه وبصحبه فولك وريموند ، اللذين شجعتهما زيارة المندوب البابوى ، ألريك (أوف بوفيه) . ورتب أنر تعويض المدافعين عن بانياس بأراض بالقرب من دمشق ، ثم سلم المدينة للفرنج الذين نصبوا فيها حاكمها السابق ، رينيه (أوف بروس) ، بينما تقرر تعيين آدم ، رئيس شمامسة عكا ، أسقفا لها^(٩) .

وتأكد تحالف فولك وأنر بزيارة قام بها الأخير بعد ذلك مباشرة إلى بلاط الملك فى عكا يصحبه فيها أسامة . ولقيا استقبالا ساداه الود والتملق ، ثم ذهبوا إلى حيفا والقدس ، وعادا خلال نابلس وطبرية . وتمت الجولة فى جو تميز بحسن النية البالغة ، رغم أن أسامة لم يوافق البتة على كل ما شاهده^(١٠) . فضلا عن ذلك ، أظهر فولك رغبته المخلصة فى صداقة الدمشقيين . إذ شكوا له مما يقوم به رينيه (أوف بروس) من غارات من بانياس على قطعانهم ، فأصدر فولك أوامره الصارمة بأن يكف رينيه عن غاراته وأن يدفع تعويضات للضحايا^(١١) .

(٨) William of Tyre, xv, 8, pp. 669-70; Ibn al-Qalanisi, p.260; Kemal ad-Din, p. 682

(٩) William of Tyre, xv, 9-11, pp. 770-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 260-1

(١٠) Usama, ed Hitti, pp. 166-7, 168-9, 226

(١١) Ibid, pp.93-4

١١٤٠م : بناء القلاع على الحدود الجنوبية

شعر الملك فولك بالاطمئنان على حكمته فى حوالى عام ١١٤٠م. وكانت الأحوال فى شمال سوريا قد تدهورت منذ أيام أسلافه ، ولم يكن يشعر بأن له مكانة أو سلطة هناك . بل ومن المشكوك فيه ما اذا كان جوسلين أمير الرها يعترف بسلطته هناك . لكنه كان آمناً فى نطاق سلطانه الخاص به . وقد لقن الدرس الذى يفرض على الفرنج تخفيف خصومتهم للمسلمين إذا أرادوا العيش هناك ، وينبغى لهم أن يكونوا على استعداد لمد يد الصداقة لأقلهم خطورة ، وقد طوع الملك نبلاءه بحيث ساروا معه على نفس درب سياسته . واجتهد فى الوقت نفسه كي يوفر الحماية للبلد . فشيدت على الحدود الجنوبية ثلاث قلاع للحراسة من غارات المصريين الآتية من عسقلان: ففي ينة، الواقعة على مسافة عشرة أميال تقريباً جنوب غرب اللد ، وفى بقعة وفيرة المياه تتحكم فى تلاقي الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة ، استغل أطلال المدينة الرومانية القديمة بمنية لتشييد قلعة رائعة عهد بها إلى باليان ، وشهرته "العجوز" ، شقيق فيكونت تشارترز . وكان باليان يمتلك الأرض فى ظل لوردات يافا ، وفاز بعطف فولك عندما ساندته الملك ضد هيو (أوف لو بواسيه) . ولأنه أمر قلعة ينة ، فقد رفع إلى مصاف كبار مستأجرى الأرض ، وتزوج هيلفيس ، وريثة الرملة . وكانت ذريته تشكل أشهر عائلة نبيلة فى الشرق الفرنجى^(١٢).

وإلى الجنوب من ينة يقع الطريق المباشر من عسقلان إلى القدس ، تحرسه قلعة (الحراسة البيضاء Blanchegarde) ، على التل الذى يسميه العرب تل الصافية ، أى المشرقة . وقد أصبح وكيلها ، أرنولف ، من أغنى وأقوى بارونات المملكة^(١٣). وبنيت القلعة الثالثة فى بيت جبريل عند القرية التى يسميها الصليبيون خطأ بئر سبع . وكانت تتحكم فى الطريق من عسقلان إلى الخليل ، وعهد باستحكاماتها إلى فرسان المستشفى^(١٤). ولم تكن تلك الاستحكامات على ما يكفى من الاكتمال بحيث تمنع كل الغارات المنطلقة من عسقلان . ففي ١١٤١م ، اخترق المصريون تلك

William of Tyre, xv, 24 pp.696-7. For Balian's origin , see Ducange, *Familles d'Outre Mer*, ed.Rey, pp.360-1 (١٢)

William of Tyre, xv, 25, pp. 697-9. (١٣)

Ibid. xiv, 22, pp.638-9. Martin, 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacovites de Jérusalem. II', *Journal Asiatique*, 8 me série, vol. XIII, pp.34-5, gives Szrian evidence suggesting that the castle was being built in 1135. (١٤)

الاستحكامات وهزموا قوة صليبية صغيرة فى سهل شارون^(١٥)، غير أن تلك التحصينات كانت قادرة على صد أى هجوم جاد من الجنوب على القدس ، وكانت بمثابة مراكز للإدارة المحلية .

وفى الوقت ذاته اتخذ فولك الخطرات الكفيلة بإخضاع البلاد شرقى وجنوبى البحر الميت للرقابة الصارمة . وقد ساعدت اقطاعية الشوبك ، بقلعتها الواقعة فى واحة فى تلال إيدوم ، فى تحكم الفرنج المطلق فى طرق القوافل الذاهبة من مصر إلى الجزيرة العربية وسوريا ، على أن القوافل الاسلامية كانت ما تزال تمر آمنة على الطرق ، وكان المغيرون من الصحراء ما يزالون قادرين على الاختراق والوصول إلى يهودا . ومنذ أن تولى فولك العرش منح رومان (أوف لو بوي) الشوبك ومنطقة ماوراء الأردن نحو عام ١١١٥م . لكن رومان ساند هيو (أوف لو بواسيه) ضد الملك ، الذى صادرهما وحرّم ابنه من وراثتهما ، ومنح الاقطاعية لباجان الساقى الذى كان من أرفع مسؤولي بلاطه . وكان باجان إداريا قويا حاول إحكام رقابته على المنطقة الكبيرة التى يحكمها . ويبدو انه أفلح فى أن يستتب الأمن فى البلاد حتى جنوب البحر الميت ، ولكن عندما كان فولك مشغولا فى جلعاد عام ١١٣٩م تمكنت جماعة من المسلمين من عبور نهر الأردن على مقربة من اتصاله بالبحر الميت والإغارة على يهودا، حيث نصبت شركاً - بخدعة تفهقر زائف - قضت فيه على جماعة من فرسان المعبد كانت قد أرسلت للتصدى لها . وربما نقل باجان مقره من الشوبك فى الشراه إلى مواب لكى يسيطر على الطرف الشمالى للبحر الميت وطرفه الجنوبي أيضا . وهناك فى مواب ، وبموافقة الملك عام ١١٤٢م ، وعلى تل يسميه المؤرخون حجرة الصحراء Petra Deserti ، بنى قلعة عظيمة تعرف باسم كرك مواب . وكانت ذات موقع رائع يسيطر على الطرق الوحيدة التى تربط مصر عمليا بغربى الجزيرة العربية والداخلية إلى سوريا ، ولم تكن تلك القلعة تبعد كثيرا عن مخاضات نهر الأردن الأسفل . وكان بلدوين الأول قد أنشأ فعلا مرقبا أسفل شاطئ خليج العقبة ، عند إيلين أو أيله . ونصّب باجان حامية أقوى هناك ، وكذا فى حصن وادى موسى بالقرب من البزاء القديمة . وقد ساعدت تلك الحصون ، مع الشوبك وكرك ، فى توطيد سيادة لورد منطقة الأردن على أراضى إيدوم (الشراه) ومواب ، وعلى ما يحيطها من حقول غنيّة بالحبوب ، ومنخفضات الملح على البحر الميت على الرغم من أن الفرنج لم يستعمروا تلك المناطق بجديّة ، وواصلت قبائل

البدو حياتها البدوية القديمة فى المناطق القاحلة ، تدفع أحيانا مجرد إتاوة للفرنجة^(١٦).

وتحسنت الحالة الأمنية الداخلية فى المملكة فى عهد فولك . إذ كان الطريق بين يافا والقدس فى وقت استخلافه ما يزال محفورا بالمخاطر بسبب قطاع الطرق الذين لم يعتادوا على التحرش بالحجاج وحسب ، وإنما كانوا يقطعون كذلك امدادات الطعام الذاهبة إلى العاصمة . وفى ١١٣٣ م ، وبينما كان الملك غائبا فى الشمال ، نظم البطريق وليم حملة ضد قطاع الطرق وشيّد حصنا سمي (شاسيل إيرنوت) بالقرب من بيت نوبه ، حيث يصعد الطريق القادم من اللد إلى داخل التلال . وكان تشييدها تسهيلات للسلطات فى حراستها للطريق ، وبعد اتمام التحصينات على الحدود المصرية ، لم يكن المسافرين يواجهون صعوبة أثناء رحلتهم من الساحل إلا فيما ندر^(١٧).

١١٤٣ م : مؤسسات الملكة مليسند

ليس لدينا سوى القليل عن حكومة المملكة فى السنوات الأخيرة من حكم فولك . فبعد سحق تمرد هيو (أوف لو بواسيه) ، بعد أن هدأت رغبة الملكة فى الإنتقام ، أيد البارونات التاج بغاية الإخلاص . وكانت علاقات فولك بكنيسة القدس طيبة على الدوام . إذ أن البطريق وليم (أوف ميسين) الذى توجّه والذى قدّم له أن يعيش من بعده ، ظل صديقه الوفي الذى يرعاه . ويتقدم الملكة مليسند فى السن اتجهت اهتماماتها إلى أعمال التقى والورع ، برغم أن المقصود من أهم مؤسساتها هو زيادة مجد أسرتها . وكّرت نفسها لأخواتها ، فغدّت أليس أميرة لأنطاكية ، وهوديرنا الآن كونتيسة طرابلس ، أما الصغرى جوفيتا التى أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين ، فلم تعثر لها على زوج مناسب . وقد انخرطت فى التدين وأصبحت راهبة فى دير القديسة آن فى القدس . و اشترت الملكة عام ١١٤٣ م من كنيسة القبر المقدس قرية بيتانى ، كبديل لأراضى قريبة من الخليل ، وبنت هناك ديرا للراهبات تخليدا

(١٦) William of Tyre, xv, 21, pp.692-3. وعن منتجات المنطقة انظر Abel, GÉOGRAPHIE DE LA PALESTINE, I, p 505. وعن الأثر الواقع على التجارة الاسلامية انظر 1-320. Wiet, op.cit. أنظر 'Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain'، فى Revue de l'Orient Latin, vol. iv, pp. 191f. والقلعة فى وادى موسى تقع على تل شديد الإنحدار يعرف الآن باسم وير Wucira خارج ضواحي البتراء، حيث تبنى أطلال خرائب صليبية كثيرة عبر وادى موسى. كما توجد أطلال قلعة صغيرة من العصور الوسيطة على تل الحابس فى وسط البتراء.

(١٧) William of Tyre, xiv, 8, p. 617

للقديس لازاروس وأختيه مارثا ومارى ، وجعلت أريحا بكل بسايتها ومزارعها المحيطة وقفا على الدير، وحصته ببرج . وحتى لا تتضح دوافع الملكة غاية الوضوح ، عيّنت أول رئيسة لدير الراهبات راهبة ممتازة عجوز تريد أن تحتضر ، وقد ماتت بعد شهرين قليلة بمهارة شديدة . ومن باب الواجب انتخب دير الراهبات رئيسة له جوفيتا البالغة من عمرها أربعة وعشرين ربيعاً . وبذا كانت جوفيتا تقوم بدور مزدوج ، أميرة تجرى فى عروقها الدماء الملكية ، ورئيسة أغنى أديرة الراهبات فى فلسطين ، ومن ثم كانت تشغل مكانة متميزة بمجلة مابقى لها من عمرها الطويل^(١٨).

كان ذلك أكثر عطايا الملكة مليسند الخيرية إسرافاً ، على أنها حرّضت زوجها على أن يهب كنيسة القبر المقدس عدة هبات على هيئة أراض ، ودأبت على إنشاء دور دينية على درجة من السخاء طوال فترة ترميلها كما كانت مسؤولة عن تمسين العلاقات مع الكنيستين اليغقوية والأرمينية . وقبل الاستيلاء الصليبي على القدس كان اليعاقبة قد هربوا كلهم معاً إلى مصر . وعندما عادوا وجدوا الضياع التى كانت تملكها كنيستهم فى فلسطين قد منحت لفارس فرنجى ، جوفير ، الذى أسره المصريون عام ١١٠٣م ومن ثم استعاد اليعاقبة أراضيهم . غير أن جوفير ، الذى ظنه الجميع ميتاً ، عاد عام ١١٣٧م من الأسر وطالب بممتلكاته . وبدخل الملكة تدخلا مباشراً ، سُمح لليعاقبة الاحتفاظ بممتلكاتهم ، بعد دفع ثلاثمائة بيزانت لجوفير على سبيل التعويض . وفى عام ١١٤٠م بُد كاثوليكوس بطريق الأرمن وقد حضر مجعاً كنسياً للكنيسة اللاتينية هناك . كما وهبت مليسند العطايا لدير القديس ساباس الأرثوذكسى^(١٩).

أما سياسة فولك التجارية فكانت امتداداً لسياسة سلفه . فكان يحترم التزاماته حيال المدن الإيطالية التى تسيطر الآن على تجارة تصدير البلد . غير أنه رفض رفضاً مطلقاً منح حق الاحتكار ، وفى ١١٣٦م عقد معاهدة مع تجار مرسيليا ، وأعدا منحهم أربعمائة بيزانت سنوياً من عوائد يافا ، لصيانة منشآتهم هناك^(٢٠).

(١٨) William of Tyre, xv, 26, pp. 699-700 كانت جوفيتا مسؤولة عن تعليم حفيدة اختها سيبلا ملكة المستقبل (انظر أدناه ص ٤٦٥) . وماتت فى وقت ما قبل عام ١١٧٨م ، إذ قالت رئيسة دير الراهبات ، إيفا (أوف ييشانى) إنها قد خلفتها فى رئاسة الدير (*Cartulaire de Ste Marie*, Josaphat, ed. Kohler, p. 122).

(١٩) Nau, 'Le croisé Iorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique*, 9me série, vol xiv, pp. 421-316 Rohricht, *Regesta*, pp. 1067-7.

(٢٠) Rohricht, *Regesta*, p.40. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p 272 وبعد ١٦ سنة أعطاهم بلدين الثالث حيا فى القدس 70 p. Rohricht, *Regesta*.

١١٤٣م : موت الملك فولك

فى خريف ١١٤٣م كان البلاط فى عكا يستمتع بالهدأة التى أتاحها انسحاب زنكى من دمشق . وفى ٧ نوفمبر رغبت الملكة فى الخروج لنزهة خلوية . وبينما الجماعة الملكية على جيادها متجهة إلى داخل البلد فزع أرنب ، وركض الملك ينهب الأرض وراءه . وفجأة تعثر جواده وألقى الملك من على ظهره ، وسقطت صهوة الفرس الثقيلة مرتطمة برأسه . وعادوا به فاقد الوعي والجراحات فظيعة فى رأسه إلى عكا حيث مات بعد ثلاثة أيام . وكان ملكا طيبا لمملكة القدس ، لكنه لم يكن بالملك العظيم ولا بقائد فرنج الشرق^(٢١).

وصدرت عن الملكة مليسند ألفاظ الأسى ، التى حرّكت مشاعر البلاط كله ، لكن ذلك لم يصرفها عن تولى شؤون المملكة . وكان من بين أولادها من فولك إبنان : بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة ، وأماليك ابن سبع سنين . وكان فولك قد تولى العرش باعتباره زوجها ، وكانت حقوقها كورثة معترف بها كلها . غير أن فكرة وجود ملكة وصية بمفردها لم تخالط أذهان البارونات . ولذا عيّنت ابنها بلدوين زميلا لها وباشرت هى الحكومة . واعتبر تصرفها تصرفا دستوريا مثاليا وأيده مجلس المملكة عندما قام البطريق وليم بتتويجها هى وبلدوين يوم عيد الميلاد^(٢٢) . وكانت مليسند امرأة ذات اقتدار وكان حكمها خليقا بالنجاح فى أوقات أكثر سعادة . واتخذت مستشارها ابن عمها الركيل (الكونستابل) مناس (أوف هيرجز) ابن اللورد الوالونى الذى تزوج اخت الملك بلدوين الثانى ، هوديرنا (أوف ريثيل) . وقد برز مناس الشاب فى بلاط عمه ، حيث كفلت له قدراته وعلاقاته الملكية تقدما مطردا . وعندما مات باليان العجوز فى يينة ، بعد موت فولك مباشرة ، تزوج مناس أرملته هيلفيس ، ورثته الرملة التى كانت تسيطر على السهل الفلسطينى كله بحقها الشخصى وبحق أولادها . وكان مقدرا أن يشعر البارونات بالاستياء عاجلا أو آجلا من قوة مناس ، إذ كان هو والمملكة يميلان إلى الحكم الاستبدادى على أنه لم تكن فى الوقت الراهن أية معارضة للملكة^(٢٣).

(٢١) William of Tyre, xv, pp. 700-2; Matthew of Edessa, cclvi, p. 325; Ibn al-Qalanisi, p. 265. كسب سان برنار خطاب تعزية للملكة مليسند (no. 354, M.P.L. vol. CLXXXII, cols. 556-7)

(٢٢) William of Tyre, xvi, 3, p. 707 وعن وضع مليسند الدستورى أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 14-18

(٢٣) William of Tyre, xvi, 3, p. 707 ، يقرّط الملكة . وعن مناس (انظر ادناه ص ٣٨٦) . وزواجه سجله وليم . وكثيرا ما يظهر اسم هيلفيس Helvis فى صكوك عقود ، e.g. Rohricht, *Regesta*,

وكان لتوليها العرش عيب خطير . ففى ظل حكم الملك فولك ، كان وضع ملك القدس كسيد أعلى للدويلات الصليبية يتنامى نظريا وليس عمليا ، ومن غير الراجع أن يولى أمراء الشمال انتباهها اكسير إلى سيادة امرأة وطفل . وعندما كانت المشاجرات تتفجر بين أمير أنطاكية وكونت الرها، كان ملك القدس القوى - كبلدوين الثانى - يشد الرحال شمالا ويهدئ الخلافات قسرا . وهذا مالا تستطيعه ملكة ولا ملك صبى ، وليس هناك من يملك السلطة الغالبة .

أما ريموند أمير أنطاكية فمئذ أن مات الامبراطور جون ، وصد زنكى أمام دمشق، بُعثت من جديد ثقتة فى نفسه ، فأرسل فى الحال إلى الامبراطور الجديد مانويل طالبا إعادة كيليكيا إلى إمارته ، وعندما رفض مانويل طلبه هذا قام بغزو المنطقة، وقد اضطر مانويل نفسه أن يبقى فى القسطنطينية فى الشهور الأولى من حكمه ، لكنه أرسل حملة برا وبحرا بقيادة الأخوين كونتوستيفانوس وبرسق التركى المرتد وأمير البحار ديميتريوس براناس ، ولم تكف الحملة بطرد ريموند من كيليكيا ، وإنما طاردت جنوده حتى أسوار أنطاكية^(٢٤) . وكان ريموند قبل ذلك بأشهر قليلة قد أضاف أراض حلبية وصلت إلى البزاعة بينما تقدم جوسلين أمير الرها حتى الفرات لمقابلته . غير أن جوسلين وقع فجأة هذنة مع سوار ، حاكم حلب ، حطمت مخططات ريموند . وزادت العلاقات سوء بين ريموند وجوسلين . ويبدو أن جوسلين قد اضطر منذ نحو عام ١١٤٠م إلى أن يقبل ريموند كسيد اعلى له ، بيد أن الود كان غائبا عنهما تماما . وكان جوسلين قد أغاظ ريموند بتدخله لصالح البطريق رادولف ، وجاءت هذه الهدنة تكاد أن تقطع العلاقات بينهما^(٢٥) .

١١٤٤م : حصار الرها

كان زنكى يراقب تلك المشاحنات . وقد حرره موت الامبراطور من أخطر عدو كامن ، ولن يتخذ الدمشقيون أى عمل ضده بدون مساعدة الفرنج ، ولا يحتفل أن

pp.22,76

(٢٤) Cinnamus, pp. 33-4

(٢٥) Azimi, p.537; Ibn al-Qalanisi, p. 266. يضع جوسلين تاريخ وثيقة رسمية فى عام ١١٤١م Raimundo Antiochiaie principe regnante' (Rohricht, Regesta, p.51) ويجعله وليسم الصورى (xvi, 4, p.710) يلعب الى ريموند على انه سيده عام ١١٤٤م .

تشرع مملكة القدس الآن في مغامرات ، وإذن فلا ينبغي تفويت الفرصة . وفي خريف ١١٤١م هاجم زنكي قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقي ، الذي تحالف مؤخرًا مع حوسلين . وتعزيزًا لهذا التحالف خرج حوسلين من الرها بأكثر جيشه هابطًا باتجاه الفرات ، لقطع اتصالات زنكي مع حلب فيما يبدو . وقام مراقبون مسلمون في حرّان باعطار زنكي بتحركات حوسلين . وفي الحال أرسل زنكي فصيلة بقيادة ياغي سياني أمير حماه كي يباغت مدينة الرها ، لكن ياغي سياني ضل طريقه في ظلام ليلة مطيرة من ليالي نوفمبر ، ووصل الرها ليجد زنكي قد سبقه إليها بالجيش الرئيسي يوم ٢٨ نوفمبر . وكان أبناء الرها وقتئذ قد أُندروا وتجهزت الدفاعات بالمدافعين .

وتواصل حصار الرها أربعة أسابيع . وكان حوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده كلهم ، ولذا عُهد بالدفاع إلى رئيس الأساقفة اللاتيني هيو الثاني ، وسانده بإخلاص الأسقف الأرميني جون والأسقف اليعقوبي بازل . وربما كان زنكي يأمل في إغواء المسحيين الوطنيين بالتخلي عن الولاء للفرنج ، لكن خابت آماله كلها . واقترح بازل اليعقوبي طلب هدنة ، لكن الرأي العام عارضه . على أن المدافعين ، برغم بسالتهم ، كانوا في قلة من عددهم ، وقد تراجع حوسلين نفسه إلى تل بشير . ويتقده المؤرخ وليم الصوري انتقادًا لاذعًا لثراخيه عن انقضاء عاصمته . غير أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يجازف بمعركة مع جيش زنكي . وكان حوسلين واثقًا من صمود التحصينات العظيمة في الرها لبعض الوقت ، وبماكانه وهو في تل بشير أن يعترض أية تعزيزات قد يستدعيها زنكي من حلب ، وكان يعوّل على مساعدة جيرانه الفرنج . وكان قد أرسل من فوره إلى أنطاكية وإلى القدس . وفي القدس عقدت الملكة مليسند مجلسًا سمح بجمع جيش أرسلته بقيادة الوكيل مناس (الكونستابل) ، وفيليب أمير نابلس ، وإيليناند (أوف بور) أمير الجليل . وفي أنطاكية ، لم يفعل ريموند شيئًا ، وضاعت هباء كل مناشدات حوسلين له باعتباره سيده الأعلى ، وبدون مساعدته لم يكن حوسلين ليجرؤ على مهاجمة زنكي ، فلبث في تل بشير منتظرًا وصول جيش الملكة .

لكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل . إذ أن جيش زنكي أخذ يتضخم بمجموع الأكراد والتركمان التي انضمت إليه من وادي دجلة الأعلى ، فضلًا عن آلات الحصار الجيدة التي كانت معه . وفي داخل الرها ، كان رجال الدين والتجار ، الذين يشكلون جُلّ الحامية ، يفتقرون إلى الخبرة الحربية ، ومن ثم فشلت هجماتهم المضادة وعمليات التلغيم المضادة . وساد الظن أن هيو رئيس الأساقفة يحتجز الأموال التي اكتنزها برغم شدة الحاجة إليها للدفاع . وفي عشية عيد الميلاد انقض

جدار في السور بالقرب من بوابة الساعات وتدفق سيل المسلمين خلال الفجوة فهرب السكان في فزع إلى القلعة ليجدوا بواباتها مغلقة في وجوههم بأمر رئيس الأساقفة ، الذي بقي هو نفسه خارجها في محاولة يائسة للحفاظ على النظام . وهلك الألوف تحت الأقدام في الهرج والمرج ، وجد جنود زنكي في أعقابهم يقتلون ألرفا أكثر بمن فيهم الأسقف ، إلى أن دخل زنكي نفسه على جواده وأمر بإيقاف المذبحة . وبقى على حياة المسيحيين الوطنيين . أما الفرنج فقد جُمعوا كلهم وقتلوا ، وبيعت نساؤهم في الرق . وبعد يومين ، استسلم لزنكي القس اليعقوبى بارسوما ، الذي كان يتولى قيادة القلعة^(٢٦).

١١٤٥ م : سياسة زنكي في الرها

عامل زنكي المدينة معاملة طيبة بعد أن خلصها من الفرنج ، وعيّن عليها كوجك على والي إربل ، مع السماح للمسيحيين ، الأرمن واليعاقبة وحتى اليونانيين ، بتدبير معين من تدابير الحكم الذاتى . وعلى الرغم من تدمير الكنائس اللاتينية ، لم تمس كنائسهم ، ووجدوا تشجيعا على جلب اخوانهم في الدين لإعادة إسكان المدينة ، وعلى نحو خاص فاز الأسقف السورى بازل بعطف الغزاة بسبب رده المتكبر على سؤلهم له ما إذا كان جديرا بالثقة ، إذ أجاب بأن ولاءه للفرنج أظهرت مدى ما يتمتع به من قدرة على الولاء . أما الأرمن ، وكانت أسرة كورتنائى الحاكمة دائما مشهورة بينهم ، فكانوا أقل ميلا إلى النظام الجديد^(٢٧).

ومن الرها توجه زنكي إلى سروج ، وهى ثانى قلعة فرنجية عظيمة شرقى الفرات ، فسقطت هى الأخرى له فى يناير . ثم انه تقدم إلى البيرة ، وهى المدينة التى تحكم فى أهم مخاضة عبر نهر الفرات ، على أن الحامية الفرنجية أظهرت مقاومة شديدة .

(٢٦) William of Tyre, xvi, 4-5, pp. 708-12; Matthew of Edessa, cclvii, pp.326-8; Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr., pp.281-6. (لا يوجد فى مكان آخر رواية أكثر اكتمالا بالتفاصيل) Bar Nerses Shnorhal, *Elegy on the fall of Edessa*, pp. 2ff; Kemal ad-Din, pp 685-6; Ibn al-Qalanisi, Hebraeus, trnas. Budge, pp. 268-700; Ibn al-Athir, pp.443-6. والكثير من المؤرخين الأوروبيين يذكرون سقوط الرها بعض الشيء . وترد اشارة الى سقوط الرها فى خطاب القديس برنارد , no. 256, M.P.L.vol. CLXXXII, col. 463, ويخبرنا ابن الأثير أن مسلما فى بلاط الملك روجر فى صقلية جاتته رؤيا تخاطرية (تلياني) بالاستيلاء على الرها.

(٢٧) Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. loc. cit.

وكان جوسلين قريبا فى المتناول ، وجيش الملكة يقترب ، وفى تلك الأوقات سمع زنكى شائعات بوجود اضطرابات فى الموصل . فرفع الحصار عن البيرة وأسرع باتجاه الشرق . وكان لايزال من الناحية الإسمية مجرد أتابع الموصل يحكمها للأمير السلجوقى الصغير ألب أرسلان ابن مسعود . وعاد إلى الموصل ليجد أن ألب أرسلان حاول تأكيد سلطته فقتل القائد التابع للأتاج ، جقر . وقد جاء اختيار الوقت غاية فى السوء ، إذ أن زنكى ، الذى قهر عاصمة فرنجية ، قد بلغ ذروة الهيبة فى العالم الإسلامى . فخلع ألب أرسلان عن العرش وأعدم مستشاريه ، وفى ذات الوقت بعث الخليفة سفارة إلى زنكى ، محملة بالهدايا ، لتخلع عليه شرف تلقية بالملك الغازى^(٢٨).

وتردد صدى سقوط الرها فى العالم كله . فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد جاءهم ، إذ انهارت دولة مسيحية دخيلة فى قلب أراضيهم ، واقتصر وجود الفرنج على الأراضى المطلة على البحر المتوسط . وتظهرت الآن الطرق التى تربط بين الموصل وحلب من الأعداء ، وتم خلع الإسفين المحشور بين أتراك إيران وأتراك الأناضول . وكان زنكى جديرا بلقبه الملكى . أما الفرنج ، فقد هبط عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ، ووقع من مسيحيى غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة . ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على مايرام فى الشرق ، ومن ثم نشطت حركة للتبشير بحملة صليبية جديدة.

كان من الضرورى ارسال حملة صليبية جديدة فى واقع الأمر، إذ كان أمراء فرنج الشرق لا يزالون عاجزين عن التعاون مع بعضهم البعض برغم المخاطر المحيطة بهم . وقد حاول جوسلين إعادة بناء إمارته فى الأراضى التى يحتلها إلى الغرب من الفرات ، وأن يجعل من تل بشير عاصمته^(٢٩). على أنه ، وعلى الرغم من أن زنكى سرعان ما سوف يهاجمه ، فإنه لم يغفر لريموند رفضه المساعدة . وجاهر بخلافه معه ، وأنكر سيادته عليه . وكان ريموند رافضا للمصالحة بنفس القدر، ولكنه كان مدركا لخطر العزلة . وفى عام ١١٤٥م ، وبعد أن هزم غارة من التركمان قرر الرحيل إلى القسطنطينية ملتسما المساعدة من الامبراطور مانويل الذى رفض استقباله فور وصوله . ولم يأذن له بمقابلة إلا بعد أن رقع ريموند فى ندامة متضعة أمام قبر الامبراطور جون . ثم أن مانويل عامله

(٢٨) Chron. Anon. Syr. pp. 286-8; Ibn al-Qalanisi, pp.268-9; Ibn al-Athir, pp.445-8; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p.371 n.11.

(٢٩) كان جوسلين ما يزال يمتلك الأراضى الواقعة من سمساط ، مروراء عرش (وهى فى حوزة التابع بلدين) جنوب البيرة وعيتاب وراوندان وتل بشير.

معاملة رقيقة كيّسة ، وحمله بالهدايا ووعدته بمعرفة مالية . لكنه لم يعد بمساعدة عسكرية عاجلة ، إذ أن البيزنطيين يخوضون حرباً تركية على أراضيهم ، ونحذنا عن حملة في المستقبل وباتت الزيارة في نظر باروناته مهينة ومجحوة ، لكنها مع ذلك أثمرت ثمرة واحدة مفيدة . إذ أنها لم تمر دون أن يلحظها زنكي ، فقرر تأجيل المزيد من الهجوم على فرنج الشمال وأن يحول انتباهه مرة أخرى إلى دمشق^(٣٠).

١١٤٦ م : مصرع زنكي

في شهر مايو ١١٤٦ م سار زنكي إلى حلب كي يعد العدة لحملة على سوريا . وبينما كان يعبر الرها علم بمؤامرة دبرها الأرمن حاولوا بها التخلص من حكمه وإعادة جوسلين ، وقد سحقها كوجك على بسهولة . وأمر زنكي بإعدام زعماء المؤامرة ، ونفى جزءاً من السكان الأرمن حل محلهم ثلاثمائة أسرة يهودية جلبهم زنكي لما كانوا يشتهرون به من استعداد لتأييد المسلمين ضد المسيحيين^(٣١) . وفي الصيف قاد زنكي جيشه جنوباً إلى مدينة قلعة جعبر الواقعة على الطريق المباشر الذاهب من الفرات إلى دمشق ، كان بها أمير ضئيل الشأن رفض الاعتراف به سيداً أعلى له . وبينما كان يحاصر المدينة ، حدثت في ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦ م مشاجرة بينه وبين أحد الخنصيان من أصل فرنجي عندما ضبطه يشرب من قدحه الخاص به . فاحتدم الخنصي غيظاً مما سمعه من توبيخ ، فانتظر حتى نام ثم قتله^(٣٢).

كان اختفاء زنكي المفاجئ نبأ سار تلقاه كل أعدائه الذين راودهم الأمل في تمزيق مملكته لما سوف ينشأ من خلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وهو خلاف عادة ما يعقب وفاة أمراء المسلمين . وبينما كان جسده ساجياً وحيداً لم يدفن بعد ، أسرع أكبر ابنائه سيف الدين غازي ، يصحبه الوزير جمال الدين الأصفهاني ، إلى الموصل لتولي الحكومة هناك ، بينما استولى ابنه الثاني ، نور الدين ، على خاتم الوزارة من اصبع الجثة وانطلق إلى حلب كي ينادي به شيركوه الكردي ، الذي أنقذ أخوه أيوب حياة زنكي عندما

(٣٠) Cinnamus, p. 35; Michael the Syrian, III, p. 267.

(٣١) Michael the Syrian, III, pp. 267-8; Chron. Anon. Syr. p.289; Ibn al-Qalanisi, p. 270; Ibn al-Furat, loc. cit.

(٣٢) William of Tyre, xvi, 7, p.714; Michael the Syrian, III, p.268; Chron. Aon.Syr. p.291; Ibn al-Qalanisi, pp.270-1; Kemal ad-Din, p.688.

هزمه الخليفة عام ١١٣٢ م . وكان انقسام المملكة بمثابة العلامة للأعداء كى يبدأوا غزورهم . ففي الجنوب استعداد جنود أنر الدمشقيون بعلبك ، وأحضروا أمير حمص ، وياغى سيانى أمير حماه فأصبحتا تابعين لدمشق . وفي الشرق أقدم ألـب أرسلان على محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة ، بينما استعداد أراتقة ديار بكر مدنا كانوا قد فقدوها^(٣٣) . وفي الوسط قاد ريموند أمير انطاكية غارة حتى أسوار حلب نفسها ، بينما خطط جوسلين لإعادة احتلال الرها . وأجرى عملاؤه اتصالات مع الأرمن فى المدينة وفازوا بتأييد اليعاقبة ، فانطلق جوسلين نفسه مع جيش صغير انضم اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم . ومرة أخرى رفض ريموند مساعدته ، ولكنه رفض له ما يبرره هذه المرة ، لسوء تخطيط الحملة . إذ كان جوسلين يأمل فى مباغثة الرها ، ولكن المسلمين كانوا على استعداد ، وعندما وصل أمام أسوار المدينة يوم ٢٧ أكتوبر لم يتمكن - إلا بالمساعدة الوطنية - من اقتحام طريقه إلى داخل المدينة ذاتها ، غير أن حامية القلعة كانت فى انتظاره . وكان جنوده من ضالة العدد بحيث تعذر اقتحام تحصنها عنوة . فلبث فى المدينة حائرا لا يدرى ماذا يفعل . وفى تلك الأثناء وصل الرسل من نور الدين فى حلب ، الذى كان جيشه الآن يهاجم ريموند هجوما مضادا فى أراض انطاكية ، فاستدعى الجيش للعودة فى الحال وطلب المساعدة من الحكام المسلمين فى الجوار . وفى يوم ٢ نوفمبر ظهر أمام الرها ، وبذا وقع جوسلين بينه وبين القلعة ، وارتأى أن فرصته الوحيدة فى الجلاء العاجل . وتمكن خلال الليل من التسلل خارجا مع رجاله ومع عدد كبير من المسيحيين الوطنيين ، ويم وجهه شطر القرات . وتبعه نور الدين عن كثب . وفى اليوم التالى دارت رحى المعركة . وصمد الفرنج صمودا جيدا إلى أن أمر جوسلين فى تهوور بهجوم مضاد دحره المسلمون ، وتفتت الجيش الفرنجى مذعورا . وقتل بلدوين أمير مرعش فى ميدان المعركة ، وأصيب جوسلين بجرح فى رقبته ، وتمكن من الهرب مع حرسه الخاص ولاذ بسميساط حيث لحق به الأسقف اليعقوبى بازل . وألقى القبض على الأسقف الأرمنى جون واقتيد إلى حلب . وأما المسيحيون المحليون الذين تخلى عنهم الفرنج فقد قتلوا جميعا ، وباتت نساؤهم إماء وأطفالهم رقيقا . وفى الرها تقرر نفي السكان المسيحيين جميعا . وأصبحت المدينة العظيمة ، التى يُدعى بانها كانت أقدم كومونيك مسيحي فى العالم ، خاوية مروحة ، ولم تبق قط حتى يومنا هذا^(٣٤) .

(٣٣) Ibn al-Qalanisi, pp.272-4; Ibn al-Athir, pp.455-6; see Cahen, 'Le Diyarbekr' in *Journal Asiatique*, 1935, p.352.

(٣٤) William of Tyre, xvi, 14-16, pp.728-32; Matthew of Edessa, cclviii, pp.328-9 (giving the wrong date 1147-8); Michael the Syrian, iii, pp.270-2. Basil the Doctor,

١١٤٧ م : الفرنج يتخاصمون مع أنر

أيقن أعداء زنكى انهم لم يكسبوا من وفاته سوى القليل . فضلا عن أن ولديه ، برغم قلة المودة فيما بينهما ، كانا من الحكمة بحيث لم يتشاجرا . وبادر سيف الدين غازى ، برغم انشغاله الشديد مع الأراطة ، بالترتيب لمقابلة مع أخيه ، تم فيها الاتفاق بسلام على تقسيم الميراث . فأخذ سيف الدين اراضى العراق ونور الدين اراضى سوريا . وفي نفس تلك الأثناء على وجه التقريب تعزز وضع نور الدين نتيجة لتصرف أحمق غير متوقع ارتكبه فرنج القدس . ففي وقت مبكر من عام ١١٤٧ م ، قام أحد قواد أنر ، ألتوتناش ، والى بصرى وصلخد الواقعتين فى حوران ، وكان أرمينيا ثم تحول إلى الإسلام ، بإعلان استقلاله عن دمشق وذهب إلى القدس ملتصقا بتأييدها عارضا تسليم الفرنج بصرى وصلخد إذا نصّبوه فى لوردية فى حوران . وكان تصرف الملكة مليسند سليما جدا بدعوتها مجلسها لمناقشة الاقتراح . وكان قرارا هاما ذلك الذى سوف يتخذ؛ إذ أن مساندة ألتوتناش تعنى تمزيق التحالف مع دمشق . غير انه كان عرضا مغريا ، فأغلب سكان حوران من المسيحيين الملكيين^(٣٥) ، من الطائفة الأرثوذكسية . وبهذه المساعدة المسيحية سيكون من اليسر احتلال حوران ، والسيطرة عليها سوف تضع دمشق تحت رحمة الفرنج . وتردد البارونات ، ثم أمروا بأن يتجمع الجيش عند طبرية ، غير انهم ارسلا إلى أنر سفارة تقول إنهم اقترحوا تنصيب ألتوتناش . ففضب أنر ، لكنه رغب فى تجنب الانفصال خوفا من نورالدين ، فرد على الملكة يذكّرها بأنه وفقا لقانونها هي الخاص بالاقطاع ، لا يستطيع أى حاكم تأييد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده ، وعرض تسديد أية مصروفات تكون قد تكبدتها من جراء تجهيز الحملة . فأرسلت الملكة فارسا يدعى برنارد فاشير إلى دمشق يقول إنها لسوء الحظ ملتزمة بتأييد ألتوتناش الذى سوف يعيده جيشها إلى بصرى ، وتعهدت بعدم إلحاق أى أذى بالأراضى الدمشقية بأى حال . وسرعان ما عاد برنارد وقد اقنعه أنر بأن الاقتراح يحل من الحكمة والصواب . وأقنع الملك الصغير

Elegy on Baldwin, p.205; *Anon. Chron. Syr.* pp.292-7; Ibn al-Qalanisi, pp.274-5; Ibn al-Athir, pp.455-8 (and *Atabegs*, p. 156); *Bustan* p. 541.

(٣٥) (المترجم) الملكيون Melchites أو Melkites: تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحي سوريا ومصر بما انتهى اليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية . وللتفصيل انظر الجزء الأول ، ص ٣٢ ، الحاشية رقم (١).

بلدوين بآرائه ، وعندما نوقش الأمر مرة أخرى في المجلس تقرر التخلي عن الحملة . ولكن حماس الجنود كان قد اشتد الآن ، وحق قادة الدهماء في الجيش لإلغاء غارة على الكفرة كانت ستعود عليهم بالأسلاب ، فأنكروا برنارد ورموه بالخيانة وأصروا على الحرب . فخاف الملك والبارونات وأذعنوا للدهماء .

وفي شهر مايو ١١٤٧م عبر الملك على رأس الجيش الفرنجي نهر الأردن ودخل الجولان . غير أن الأمر لم يكن ما توقعه الجنود من نصر مؤزر ، ذلك أن أنر كان قد أعد العدة تماما ، فراح جنوده التركمان يخفون الحركة ومعهم أعراب المنطقة يضايقون جنود الفرنج أثناء كدحهم أعلى وادي اليرموك باتجاه درعا . وكان أنر نفسه قد أرسل سفارة إلى حلب ملتصا العون من نور الدين الذي ابتهج لهذه المناشدة . وولد تحالف . ووافق أنر على منح يد ابنته إلى نور الدين ، الذي وعد بالحضور فوراً لمساعدته ، وقد تقرر أن تعود حماه إلى نور الدين ولكن عليه أن يحترم استقلال دمشق . وفي نهاية مايو وصل الفرنج إلى درعا الواقعة على أكثر قليلا من منتصف المسافة بين الحدود وبُصرى ، بينما سارع أنر إلى صلخد الواقعة أبعد إلى الشرق ، والتي طلبت فيها حامية ألتوتناش الهدنة . وتحرك أنر غربا كي ينضم إلى نورالدين الذي هبط من حلب بالسرعة القصوى . وزحفا معا إلى بُصرى فما كان من زوجة ألتوتناش إلا أن سلمتها إليهما ووصلت أنباء الاستسلام مساءً إلى الفرنج عندما وصلوا على مرمى البصر من بصرى وقد عانوا في ترحالهم غاية الرهق وشدة الظمأ ، ومن ثم لم يتمكنوا من مهاجمة المسلمين ، ولم يكن بوسعهم سوى التقهقر . وكانت رحلة الإياب أصعب من رحلة الذهاب ، إذ سرعان ما تناقص الطعام ، والكثير من الآبار قد دمرت ، وتعلق الأعداء بمؤخرتهم يضايقونهم ويقتلون الجماعات الشاردة . وأبدى الملك الصبي بطولة عظيمة عندما رفض اقتراحا بأن يترك الجيش الرئيسي ويسرع إلى مأمن مع حرس شخصي يجري اختياره ، وبفضل ما ضربه من مثل ظل الإنضباط في حالة جيدة . وأخيرا قرر البارونات عقد السلام مع أنر ، وأرسلوا رسولا يتحدث العربية ، ربما كان برنارد فاشر ، يلتمس هدنة ، لكنه قتل في الطريق . ومع ذلك ، وبوصول الجيش إلى الرحبة الواقعة على سفح جبل عجلون ، جاء رسول من أنر عارضا إعادة تموين الفرنج . ذلك انه لم يشأ أن يمحو الجيش الفرنجي تماما مع وجود نور الدين على مقربة منه ، ورفض الملك العرض في غطرسة ، على انه لوحظ ظهور فارس غريب غامض على فرس أبيض يرفع راية قرمزية قاد الجيش بأمان إلى حدر . وبعد مناوشة أخيرة هناك عبر الجيش نهر الأردن عائدا إلى داخل فلسطين . وكانت الحملة باهظة التكاليف ولا مغزى لها .

وكشفت عن حماقة الفرنج في السياسة والاستراتيجية برغم ما قد ينسب عليهم من مهارة في القتال^(٣٦).

١١٤٧ م : ارتفاع نجم نور الدين

لم تعد الحملة بالنفع على أحد سوى رجل واحد فقط هو نور الدين . واستعاد أنهر حران في الواقع . وعندما ذهب التوتانش إلى دمشق راجيا المغفرة ، فقتت عيناه والقى في غيابة السجن ، ولحق الخزي بأصدقائه . على أن أنر بات مدركا إدراك اليأس لما أصبح عليه نور الدين من قوة . وشعر بالخطر على مستقبله وظل مشتاقا لاستعادة التحالف الفرنجي . ومع ذلك ، التزم نور الدين بمعاهدته مع أنر ، وعاد شمالا لمواصلة مهمته في تجريد الإمارة الأنطاكية من كل أراضيها الواقعة شرق العاصي . وفي نهاية ١١٤٧ م ، كان قد استولى على أرتاح وكفرلاتا وبسرفوت والبلاط^(٣٧).

وهكذا برز نور الدين العدو الرئيسي للمسيحيين . وهو الآن في التاسعة والعشرين من عمره ، غير أن حكمته كانت أكبر من سنه ، بل كان معارضوه يعجبون بنزوعه إلى العدالة والاحسان والورع الصادق . وربما لم يبلغ مبلغ والده زنكي في ذكائه العسكري ، لكنه كان أقل قسوة وغدرا وأبعد شأوا في صواب حكمه على الرجال . وكان وزراؤه وقواده على اقتدار وإخلاص ، ومصادره المادية أقل مما كان عليه أبوه ، إذ كان بمقدور زنكي أن يطلب ثروات العراق الأعلى ، التي أمست الآن في حوزة سيف الدين . ولذلك ورث سيف الدين مصاعب زنكي مع الأرائقة ومع الخليفة ومع السلطنة السلجوقية ، تاركا نور الدين يوجه كل انتباهه إلى الغرب لا يشغله شغل . وفضلا عن ذلك ، بقي ولدا زنكي مخلصين لرباطهما العائلي . إذ أن سيف الدين خليف بان يرسل العون إلى نور الدين وقت الشدة دون أن يطمع في ضم نصيبه من أراضي الأسرة . وكان هناك ابن ثالث ، تم تنصيبه في حران كتابع لنور الدين ، بينما كان أصغر افراد الأسرة قطب الدين ، ينشأ في بلاط أخيه الأكبر في الموصل . وغدا نور

(٣٦) William or Tyre, xvi, 8-13, pp. 715-28; Ibn al-Qalanisi, pp. 276-9; Abu Shama, pp. 50-3.

(٣٧) Kemal ad-din, ed. Blochet, pp. 515-16; Ibn al-Athir, pp. 461-2

الدين ، بمثانة روابطه الأسرية ، وبتحالفه مع أنر ، فى مآمن مما قد يشكله رفاقه المسلمون من أخطار ، ومن ثم صار الرجل المناسب تماماً ليقود الإسلام فى هجومه المضاد، ولكى لا يعمل مسيحيو الشرق على تركيز جهودهم ضده^(٣٨).

الباب الثالث:

الحملة الصليبية الثانية

الفصل الأول:

اجتماع الملوك

اجتماع الملوك

"قُمْ وَاعْمَلْ وَلِيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ"
(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٦)

ما أن علمت القدس بسقوط الرها حتى أرسلت الملكة ميليسيند مبعوثيها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها بصدد إرسال سفارة إلى روما لإبلاغ البابا وطلب ارسال حملة صليبية جديدة . وتقرر اختيار هيو أسقف جبلة ليكون سفيرا ، لما أصاب من شهرة بين المسيحيين اللاتينيين لمعارضته مطالب الامبراطور جون . وبرغم حالة العاجلة التي اتصفت بها سفارته لم يصل الأسقف إلى المقر البابوي قبل خريف عام ١١٤٥ م . وكان البابا إيوجينيوس الثالث في مدينة فيتربو ، إذ كانت روما تحت سيطرة جماعة تزدرى الحكم البابوي . وكان بصحبته المورخ الألماني أوتو (أوف فريزنجن) ، الذي سجل تلقى البابا للأنباء المرعبة على الرغم من أنه كان أكثر اهتماما هو نفسه بالمعلومات التي حملها أحد أساقفة عاهل مسيحي في شرق فارس ، يدعى جون من

النساطرة، ويجرّز تقدما ناجحا ضد الكفرة^(١). وكان قد غزا فعلا العاصمة الفارسية Ecbatana (همدان) ، غير أنه اتجه إلى منطقة ثلجية في الشمال حيث فقد عددا غفيرا من رجاله مما اضطره إلى العودة . وكان ذلك إيذانا بدخول بريستر جون الأسطوري في صفحات التاريخ^(٢).

ولم يشارك البابا إيوجينيوس المؤرخ في آماله التي عقدها على بريستر جون في انقاذ العالم المسيحي. وكان في حالة من القلق البالغ . وفي ذات الوقت جاءه وفد من أساقفة الأرمن من كيليكيا، يتلهفون على المساعدة ضد بيزنطة^(٣) . ولم يكن بوسع البابا اهمال واجباته نحو الشرق . وبينما ذهب الأسقف هيو لإطلاع عواهل فرنسا وألمانيا بأنباء الرها ، قرر البابا إيوجينيوس التبشير بحملة صليبية^(٤) . على أن البابوية لم تكن في وضع يمكنها من توجيه الحركة على النحو الذي حاوله البابا إيربان ؛ فمنذ أن اعتلى إيوجينيوس عرش البابوية في فبراير لم يتمكن من دخول روما ، فضلا عن ذلك لم يكن قادرا على السفر عبر الألب . ولحسن الحظ كان على علاقة طيبة بالعاهلين الرئيسيين في أوروبا الغربية ، إذ كان كونراد (أوف هوهنشتافن) ملك ألمانيا مدينا بعرضه للمساندة الكنسية وقد قام الممثل البابوي بتوجيهه . وكانت العلاقات البابوية أكثر ودا مع لويس السابع ملك فرنسا الورع التائب من بعض الجرائم التي ارتكبها في وقت مبكر بسبب نفوذ زوجته إليانور الأكيثانية ، وارتضى أن يُسلم قياد أمره كله للمستشارين الكنسيين ، وبصورة ملحوظة لرئيس دير رهبان كليرفو ، القديس برنارد. وقرر البابا أن يكون الملك لويس هو المستهدف لتقديم المساعدة للشرق ، أما كونراد ملك ألمانيا فكان في احتياج لمساعدته في إيطاليا لإخضاع الرومان وكبح طموحات روجر الثاني الصقلي ، ولم يشأ أن يتولى كونراد التزامات أخرى . وكان لويس ملكا للأراضي التي جاء منها أغلب أمراء ولوردات فرنج الشرق ، ومن ثم كان هو القائد المرشح لقيادة الحملة التي سوف تخلصهم . وفي أول ديسمبر ١١٤٥م أصدر إيوجينيوس أمرا بابويا إلى الملك لويس وكافة الأمراء والمخلصين في المملكة الفرنسية

- (١) (المترجم) : النسطورية Nestorianism مذهب مسيحي هرطيقى يعزى الى البطريق نسطوريوس Nestorius (بطريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١) القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، إلهية وبشرية .
- (٢) Otto of Freising, *Chronica*, pp. 363-7. See Gelber, *Papst Eugen III*, p. 36.
- (٣) أنظر 9-235. Tournebiz, *Histoire Politic et Religieuse de l'Arménie*.
- (٤) *Chronicon Mauriniacense*, R.H.F. vol II, p.88; Otto Freising, *Gesta Friderici*, pp.54-7.

يحثهم على الذهاب لانقاذ العالم المسيحى الشرقى واعدا إياهم بالحفاظ على ممتلكاتهم في الحياة الدنيا وغفران خطاياهم في الحياة الآخرة^(٥).

حملات صليبية متفرقة

ارتفاع الغرب لسقوط الرها . وكانت جذوة الحملة الصليبية الأولى وحماسها قد هدأت بعد أن ألهب احتلال القدس خيال الرجال ، فكانوا يسارعون طواعية إلى تلبية النداءات الآتية من الشرق بطلب التعزيزات ، كما اتضح من الحملات الصليبية عام ١١٠١ م . غير أن الحملات الصليبية عام ١١٠١ م كانت نهاياتها فاجعة ، وبرغم ذلك صمدت دويلات الشرق الفرنجية وعززت مواقعها . وكانت التعزيزات ما تزال تزد على الشرق ، على ضآلتها البالغة، ولم ينقطع سيل المهاجرين الذين بقى الكثير منهم فترات طويلة بما يكفي لاشتراكهم فى إحدى الحملات الصيفية . وكان من بين هؤلاء الحجاج زعماء من مثل سيجورد النرويجي ، أو كانت هناك جماعات كبيرة من الرعاع، كالانجليز، والفلاندرز من البلجيك والداينركين ، ممن جاءوا عام ١١٠٦ م . وكانت المدن البحرية الإيطالية ترسل من حين لآخر أسطولا للمساعدة فى الاستيلاء على بعض الموانئ ، وان كانت دوافعها المعلنة تمثل فى المصالح التجارية ، كما كانت تجلب معها أعدادا متزايدة من التجار الايطاليين . غير انه منذ حكم بلدوين الأول قلّت حملات الحجاج المسلحة هذه ، وكانت الحملة الوحيدة الملحوظة فى السنوات الأخيرة الحملة التى قادها صهر الملك فولك ، ثيرى كوفت فلاندرز . وتواصل تدفق المهاجرين - من أصغر الأبناء المفلسين - مثل باليان (أوف تشارتر) مؤسس بيت إيبيلين (ينبة)، أو بارونات من أمثال هيو (أوف لو يواسيه) أو مناس (أوف هيرج) ممن كانوا يعقدون الآمال على استغلال علاقة القرابة بالبيت المالك . ومن العوامل الأكثر دواما ونفعا الفرسان الذين جاءوا للانضمام إلى النظامين العسكريين الكبيرين : فرسان المعبد وفرسان المستشفى ، اللذين أخذوا تدريجيا فى مباشرة مهام الجيش الدائم للمملكة ، وكانت هبات الأراضي الكبيرة التى أغدقها التاج عليهم شاهدا على مدى التقدير الذى ينالونه . على انه منذ أن تبعثت جيوش الحملة الصليبية الاولى ، لم تكن هناك قوة

(٥) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 8796, vol. II, p. 26. Caspar, 'Die Kreuzzugsbulen' Eugens III, in *Neues Archiv*, vol XLV, pp.285-306K. البابوى هو قطعا أول ديسمبر ١١٤٥، الأمر الذى ينسف النظرية الفرنسية القائلة بأن لويس السابع هو الذى حرّض على الحملة الصليبية.

فرنجية في الشرق لديها من القدرة ما يكفي لشن هجوم كبير على الكفرة.

كانت صدمة الكارثة في الرها ضرورية لإثارة الغرب مرة أخرى . ففي ذلك الوقت بدت الدويلات الصليبية في سوريا في منظور أوروبا الغربية مجرد الجناح الأيسر للحملة المضادة للإسلام باتساع البحر الأبيض المتوسط ، وأسبانيا جناحها الأيمن حيث كانت ما تزال هناك مهام يقوم بها الفارس المسيحي . وكان تقدم الصليب في اسبانيا قد توقف في العقدين الثاني والثالث من القرن الثاني عشر بسبب المشاجرات التي جرت بين الملكة أوركا ملكة قشتالة وزوجها الملك ألفونسو الأول ملك أراجون . غير أن ابن الملكة ، ألفونسو السابع ، ووريثها من زواجها الأول اليرجندى أحدث نهضة في قشتالة . وبعد ست سنوات من استخلافه بدأ سلسلة من الحملات ضد المسلمين جاءت به في عام ١١٤٧م إلى بوابات قرطبة حيث تم الاعتراف بسيادته العليا . وقد سبق أن اتخذ لنفسه عام ١١٣٤م لقب امبراطور ليظهر انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة وأنه ليس تابعا لأحد . وفي تلك الأثناء تحرر ألفونسو الأول من مشاكل كاستيل المعقدة بموت زوجته أوركا ، فأمضى سنواته الأخيرة وهو يبادر بهجوم في مورسيا Murcia بدرجات متفاوتة من النجاح . وعلى طول الساحل راح ريموند برينجار الثالث كونت برشلونة ، يوسع من سلطانه جنوبا . ومات ألفونسو الأول عام ١١٣٤م ، وحكم أخوه الراهب السابق راميرو حكما مشووما لثلاث سنوات . وفي عام ١١٣٧م تزوجت ابنته البالغة من العمر ستين - الملكة بترونيلا - من ريموند برينجار الرابع عاهل برشلونة ، واتحدت قطالونية وأراجون في قوة واحدة مكنتها بحريتها القوية من استكمال استعادة شمال شرق اسبانيا وهكذا كانت الأمور في عام ١١٤٥م تسير على ما يرام على المسرح الأسباني ، غير أن عاصفة كانت تتجمع . ذلك أن المرابطين ، الذين سيطروا على أسبانيا المسلمة طوال النصف الأخير من القرن ، وقعوا فريسة اضمحلال لا مخرج يرتجى منه . وحل محلهم في إفريقيا الموحدون ، وهم يمثلون طائفة من المصلحين النساك ، تكاد عقيدتهم اللاهوتية أن تكون غنوصية^(٦) . وكانوا يصرون على أنهم طبقة من المقتدرين ، يأسسها ولي من أولياء الرب يدعى ابن تومرت ، وواصل خليفته عبد المؤمن نشاط هذا المذهب بمزيد من العنف فهزم زعيم المرابطين - تاشفين بن علي - وقتله بالقرب من المدينتين عام ١١٤٥م ، وفي العام التالي استكمل الاستيلاء

General Organization Of the Alexā:

dria-Library (GOAL)

(٦) (الترجمة) : الغنوصية أو Gnosticism معرفة الأمور الروحية . وتطلق عموما على طائفة مسيحية هرطقية في القرن الأول حتى القرن الثالث كان أفرادها يدعون معرفتهم بالأمور الروحية.

على المغرب واصبح على استعداد للانتقال إلى اسبانيا^(٧) . ونتيجة لتلك التوقعات لم يلقى الفرسان المسيحيون في اسبانيا بالاً للنداء الآتى من الشرق . ومن الناحية الاخرى، وبعد أن تأسست الممالك الأسبانية بصورة مضمونة الآن ، لم يعد هؤلاء الفرسان يوفرون لفرسان وامراء فرنسا نفس النطاق الذى كان سائدا فى القرن المنصرم .

الملك روجر الثانى الصقلّى

احتل الملك روجر الثانى الصقلّى مركز الصدارة فى ميدان القتال ضد الاسلام . وكان قد وحّد كافة الأراضى النورماندية فى ايطاليا واتخذ لنفسه اللقب الملكى عام ١١٣٠ م . وقد وعى جيدا ما لمملكته من أهمية استراتيجية ، إذ كانت ذا موقع مثالى للسيطرة على البحر المتوسط . غير أنه لكى يستكمل تلك السيطرة كان ضروريا أن يكون له موطن قدم على الساحل الافريقى قبالة صقلية . واتيحت لروجر الفرصة لما ساد بين الاسر الحاكمة الاسلامية من مشاحنات وندبة فى شمال افريقية ، فاقم من حدتها اضمحلال قوة المرابطين فى المغرب وضعف السيادة الفاطمية فى تونس ، فضلا عن أن المدن الافريقية كانت تعتمد على واردات الحبوب من صقلية . غير أن حملاته الأولى من ١١٢٣ إلى ١١٢٨ م لم تعد عليه بنفع يذكر سوى حصوله على جزيرة مالطة . وفى عام ١١٣٤ م ، وبمساعدة قضائية جاءته فى وقتها ، استمال الحسن - صاحب مهدية - إلى قبول سيادته العليا ، وفى العام التالى احتل جزيرة جربة الواقعة فى خليج قابس وانفتحت شهيته بغارات ناجحة على السفن الاسلامية ، فبدأ فى مهاجمة المدن الساحلية ، وفى يونية ١١٤٣ دخل جنوده طرابلس لكنهم أجبوا على الانسحاب . وبعد ثلاث سنوات كاملة أعاد احتلال المدينة ، فى وقت اندلاع ثورة داخلية فيها كانت تنصّب أميرا من امراء المرابطين حاكما عليها ، وتعذر إخراجه منها هذه المرة ، وغدت طرابلس نواة لمستعمرة نورماندية فى افريقيا^(٨) .

وهكذا أصبح الملك روجر مناسبا بصورة تثير الإعجاب للاشتراك فى الحملة الصليبية الجديدة . غير أنه كان موضع ريبة . فلم يكن سلوكه من يستشعر الواجب إزاء البابوية قط ونادرا ما كان يوليها المراجعة الواجبة . وقد شعر ذوو السلطان

(٧) عن المهادين انظر *Codera, Decadencia y Desaparicion de los Almoravids en Espana* ، ومقال Bel عن 'Almohads' فى دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islām* .

(٨) Chalandon, *Domination Normande en Italie*, pp. 158-65.

الآخرون في أوروبا بالامتعاظ من تجرؤه على تتويج نفسه ملكا؛ وقد علق القديس برنار في رسالته إلى لوثير ملك ألمانيا قائلا: "إن من يجعل من نفسه ملكا لصقلية فإنما يهاجم الامبراطور"^(٩). ويعني اعتراض القديس برنار عدم موافقة الرأي العام الفرنسي . وكان روجر ما يزال يفتقر إلى الشعبية بين أمراء الشرق ؛ إذ أظهر بجلاء انه لم يغفر البتة لمملكة القدس اساءة معاملتها لوالدته أديلايدى ، وفشلها فى استخلافه ملكا للقدس على نحو ما ينص عليه عقد الزواج ، وكان يطالب بأنطاكية ميراثا باعتباره الوريث الوحيد من الذكور من ذرية ابن عمه بوهمند . لقد كان وجوده فى الحملة الصليبية غير مرغوب فيه ، لكن الآمال كانت معقودة عليه للمضى فى حربه على الاسلام فى منطقته الخاصة به^(١٠).

ومن اليسير تفهم اختيار البابا للملك فرنسا ، لويس ، لتنظيم الحملة الصليبية الجديدة ، وقد استجاب الملك للنداء مثلها . وعندما وصل الأمر البابوى ، الذى جاء بعد وقت قصير من وصول الأنباء التى حملها أسقف جبله ، كان لويس قد أصدر لثوره استدعاء لكبار مستأجري الأرض لمقابلته فى يوم عيد الميلاد فى بروج . وعندما اجتمعوا اخبرهم انه قد قرر أن يأخذ الصليب ورجاهم أن يخذلوا حذوه . وداهمته مشاعر الأسف فى خيبة أمله من ردهم ؛ فلم يظهر عوام النبلاء حماسا لطلبه ، وأعرب رجل الدولة البارز فى المملكة - سوجر ، رئيس دير رهبان سانت دينيس - عن عدم موافقته على غياب الملك المتوقع . ولم يفصح أحد عن موازرتة لسيدته سوى أسقف لانجر^(١١).

١١٤٦ م : التجمع فى فيزيلاى

ثبطت همة الملك لويس لما أظهره أتباعه من عدم المبالاة ، فقرر إرجاء مناشدته ثلاثة أشهر ، واستدعى تجمعا آخر لمقابلته فى فيزيلاى يوم عيد الفصح ، وفى ذات الوقت كتب يطلع البابا على رغبته فى قيادة حملة صليبية ، وأرسل إلى الرجل الوحيد فى فرنسا الذى كان له من السلطة ما يفوق سلطته هو نفسه ، ألا وهو برنار رئيس دير رهبان كليفر . وكان القديس برنار الآن فى ذروة شهرته . ومن العسير علينا الآن

(٩) Saint Bernard, letter no. 139, in M.P.L. vol. CLXXXII, col. 294.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 22-3.

(١١) pp. 393 ff.; Odo of Deuil, p. 121 Vita Sugerii Abbatis,

أن نلتفت وراءنا عبر القرون لنعرب عن تقديرنا لما كان له من نفوذ رائع على كل من عرفوه ؛ إذ أن لهيب فصاحته فقد رواءه فيما بقي من كلمات مكتوبة . ولكونه لاهوتيا مجادلا بدا الآن صارما فظًا جافيا ، لكنه منذ اليوم الذى عُيِّن فيه رئيسا لدير رهبان كليرفو عام ١١١٥م ، وهو آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمره، وحتى وفاته بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا ، كان صاحب الأثر المهيمن على الحياة الدينية والسياسية فى أوروبا الغربية : فهو الذى أعطى النظام البندكتى قوته الدافعة ، وهو وحده - دون معين فى الأغلب - الذى انقذ البابوية من رغام الصدع الذى كساد بسببه أناكليتوس^(١٢)، إذ كان فى وعظه حماس وإخلاص ، وكان شجاعا قويا ، وقد خلعت حياته مما يعيها، فكانت تلك المزايا تجتمع لديه وتمكّنه من الانتصار لأية قضية يمنحها موازرتة ، باستثناء قضية واحدة فقط هي حالة طائفة الكشار المبررة فى لانجدوك^(١٣). وكان مهتما منذ زمن طويل بمصير العالم المسيحى الشرقى وسبق أن أسهم هو نفسه عام ١١٢٨م فى وضع مبدأ إنشاء نظام فرسان المعبد . وعندما ترجاه البابا والملوك

(١٢) (المترجم): بعد وفاة البابا هونوريوس الثانى عام ١١٣٠م انتخب أغلب الكرادلة أناكليتوس الثانى Anacletus II ، وانتخب أقلية الكرادلة إينوسنت الثانى Innocent II ، ورُسم الباباوان كلاهما عما أنذر بصدع فى الكنيسة جسيم . ودعا الملك الفرنس لويس السادس ملك فرنسا (السمين) مجلسا لتقرير الشرعية البابوية عام ١١٣٠م ، فاختار المجلس البابا إينوسنت لكن أناكليتوس أجبر غريمه إينوسنت على الهرب الى فرنسا حيث آثفه الراهب القديس برنار (أوف كليرفو) الذى هاجم اعتدال أناكليتوس من أسلافه اليهود . ويرغم تحالف أناكليتوس مع الملك روجر الصقلى الطموح ، فقد تغلب مناصرو إينوسنت بمن فيهم الإمبراطور البيزنطى جون الثانى كومنينوس والإمبراطور الألماني لوثير الثانى على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذى اصطحب إينوسنت وقاد جيشا ألمانيا عام ١١٣٢م واحتل روما كلها ماعدا الجزء الذى يمتلئه انصار أناكليتوس. وبعد رحيل لوثير أجبر أناكليتوس غريمه إينوسنت على الحرب من روما مرة أخرى فلجأ الى بيزا حيث عقد مجلسا عام ١١٣٤م وأعلن الحكم على أناكليتوس بالحرمان الكنسى . وتمكن الإمبراطور لوثير فى حملته الثانية (١١٣٦-٧) من طرد روجر الصقلى من جنوب إيطاليا ، وبذا أمسى أناكليتوس بقليل من المناصرين، فمات منها بلذلك الصدع الوشيك ، ولكن الآراء منقسمة حول تلك المسألة حتى يومنا هذا .

(١٣) (المترجم) : الكشار Cathari: طائفة مسيحية هرطقية ازدهرت فى القرنين ١٢ و١٣ فى لانجدوك Languedoc فى جنوب فرنسا وانحاء من أوروبا الغربية. اعتنقت ثنائية ماثوية جديدة ذات مبدئين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، قالت إن للمادة شر والإنسان مغترب فى هذا العالم الشرير . كانت لها قواعد صوم صارمة منها الامتناع التام عن أكل اللحوم . حظرت المضاجعة الجنسية ونادت بالتيرو التام النسكى من العالم . أعادت كتابة القصة الانجيلية وطوّرت خرافة مدروسة لتحل محلها بعد ان تحفظت على أغلب العهد القديم الذى أنكره بعض أفرادها برمته . ورفضت مبدأ التحسد Incarnation وليس عيسى عليه السلام سوى ملاك ، وما آلامه البشرية وموته إلا مجرد وهم . وهاجمت فساد الكنيسة الكاثوليكية واهتماماتها الدنيوية هجوما لاذعا. جرّدت الكنيسة الكاثوليكية ضدها الحملة الصليبية الألبنسية the Albigensian Crusade وراح بارونات شمال فرنسا يجربون تولوز وبروفانس ويقتلون الكشار والكاثوليك على السواء.

للمساعدة فى التبشير بالحملة الصليبية لى النداء بشغف^(١٤).

وتجمعت الحشود فى فيزيلاى Vézelay يوم ٣١ مارس ١١٤٦ م ، وبانتشار الأنباء بأن القديس برنار سوف يشر فى هذا الجمع ، جاء الزائرون من سائر انحاء فرنسا . وكما حدث فى كليرمونت منذ نصف قرن ، كان الحشد من الضخامة بحيث تعذر اجتماعه فى الكاتدرائية ، فتحدث القديس برنار وهو يعتلى منصة أقيمت فى حقل خارج المدينة الصغيرة . ولم تسجل الأجيال كلماته ، وإنما نعرف فقط انه قرأ الأمر البابوى الداعى إلى حملة مقدسة مع وعد المغفرة لكل من يشارك فيها ، ثم استغل فصاحته التى لا تبارى كى يوضح الحالة التى تتطلبها الدعوة البابوية . وسرعان ما وقع الحاضرون أسرى لنفوذه الطاغى ، وبدأ رجال يصيحون طالين الصليبان - "الصليبان ، اعطونا الصليبان ا" - ولم يمض طویل وقت قبل أن تنفذ المواد التى سبق اعدادها لخياطة الصليب، فنضى القديس برنار رداءه الخارجى والقى به لتمزيقه إلى صليبان صغيرة ، وغربت الشمس ولا زال هو ومساعدوه يخطون الصليبان، إذ كان المخلصون الذين نذروا انفسهم للذهاب فى الحملة الصليبية يفدون بأعداد آخذة فى التزايد^(١٥).

وكان الملك لويس أول من أخذ الصليب . وتلهف اتباعه على أن يحذوا حذوه وقد نسوا ما أبدوه من برود سابق . وكان من بينهم أخوه روبرت كونت دريو ، وألفونسو - جوردان كونت تولوز الذى ولد هو نفسه فى الشرق ، ووليم كونت نهرس الذى قاد أبوه إحدى الحملات الفاشلة عام ١١٠١ م ، وهنرى وريث كوتية شامباني ، وثيبرى (أوف فلاندرز) الذى سبق له أن حارب فى الشرق وكانت زوجته ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسيند ، وأماديرس (أوف سافوى) عم الملك ، وأرشبالد كونت يوربون ، وأراس وليزيو من أساقفة لانجر وكثير من نبلاء المرتبة الثانية . وجاءت الاستجابة الأعظم حتى من رعاع الناس^(١٦) . واستطاع القديس برنار أن يكتب للبابا

(١٤) Odo of Deuil, p. 21. واستنادا الى Otto Freisingen فإن البارونات رغبوا فى استشارة القديس برنار قبل أن يلزموا انفسهم (Gesta Friderici, p. 58) وعن القديس برنار وفرسان المعبد ، أنظر Vacandard, *Vie de Saint Bernard*, ii, pp.227-49.

(١٥) Odo of Deuil, p. 22; *Chronicon Mauriniacense*, loc. cit; Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp. 158-60.

(١٦) كان أسقف لانجر هو Godfrey de la Roch Faillée ، وكان راهب كليرفو ومعت الى القديس برنار بصلة قرابة . ولا نعرف سوى القليل عن أسقف أراس Alvisus الذى كان سابقا رئيسا لدير أنشين . وجعلته الأساطير المتأخرة أحلا لـ Suger دون أى أسس لذلك . وكان أسقف ليزيو Arnulf of Séz.

بعد ذلك بأيام قليلة قائلا : "أنت أمرت . وأنا أطعت . وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتى مثمرة . قد فتحت فمى . تكلمت . وعلى الفور تضاعفت اعداد الصليبيين إلى ما لا نهاية . القرى والمدن الآن مهجورة . ستجد بالكاد رجلا واحدا لكل سبع نساء . وفى كل مكان ترى أرامل لا يزال أزواجهن على قيد الحياة".^(١٧).

١١٤٦م : القديس برنار فى ألمانيا

وإذ تشجع القديس برنار بما صادفه من نجاح ، قام بجولة فى برجندي واللورين وفلنדרز ، يبشر بالحملة الصليبية فى طريقه . وبينما كان فى فلاندرز تلقى رسالة من رئيس اساقفة كولونيا يترجاه الحضور على الفور إلى أراضى الراين ؛ ذلك أنه كما حدث فى أيام الحملة الصليبية الأولى ، فإن ما أثارته أنباء الحركة من حماس انقلب ضد اليهود . ففى فرنسا اشتكى رئيس دير رهبان كلانى ، بطرس الموقر، من أن اليهود لا يدفعون اسهاما ماليا لإنقاذ العالم المسيحى ؛ وفى ألمانيا اتخذ الازدراء لليهود شكلا أكثر شراسة ؛ إذ أن راهبا بندكتيا متعصبا يدعى رودولف راح ينفث الإيحاء عذابا لليهود فى كافة أنحاء أراضى الراين : فى كولونيا ومينز وورمز وسبير وستراسبورج . وبمثل رئيسا أساقفة كولونيا ومينز ما فى وسعهما لإنقاذ الضحايا ، إلى أن استدعيا برنار أخيرا للتعامل مع البندكتي. فسارع برنار بالرحيل من فلاندرز وأمر بعودة رودولف إلى دير . وعندما عاد الهدوء مكث برنار فى ألمانيا ، إذ بدا له أن على الألمان كذلك الانضمام إلى الحملة الصليبية^(١٨).

ولم يكن للألمان دور متميز حتى الآن فى الحركة الصليبية . وإنما كان حماسهم

دارسا كلاسيكيا للأذواق العلمانية للتميزة . وقد اعتبر أسقفا لانجر وليزير نفسيهما أنهما وقد منحنا وضع المنديين البابيرين، رغم أن المنديين البابيرين كانا فى الواقع هما Theodwin الألماني كاردينال بورتو، Florentine كاردينال جويدو . واعتبر John of Salisbury فى *Historia Pontificalis* pp. 54-5 أن المشاحنات التى دارت بين الأسقفين وازدراءهما المشترك للكاردينالين تعزى بدرجة كبيرة إلى فشل الحملة الصليبية . وكان يعتقد أن Godfrey of Langres أكثر تعقلا من Arnulf of Lisieux.

(١٧) St Bernard, letter no. 247, in *op. cit.* col. 447

(١٨) St. Bernard, letters no. 363, 365, in *op. cit.* cols. 564-8, 570-1; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 58-9; Joseph ben Joshua ben Meir, *Chronicle*, trans.

Biellablotsky, I, pp. 116-29. وساعد الشائعات التى انتشرت عن قتل اليهود لطفل مسيحي فى نورريش على إثارة المشاعر ضدهم . انظر Vacandard, *op.cit.* II, pp. 274-81.

السماء عليه ، وصاح به قائلا : "يا إنسان ، ما الذى كان ينبغي لى أن افعله لك ولم افعله ؟" فتحركت مشاعر كونراد فى اعماقه ووعد باتباع اوامر القديس^(٢٠).

ورحل القديس برنار عن المانيا وقد تملكته الغبطة بما أنجزه من عمل . وسافر خلال شرقى فرنسا يشرف على ترتيبات الحملة الصليبية وراح يكتب للبيوت البندىكية فى كافة أنحاء أوروبا يأمرها بتشجيع الحركة . وعاد إلى المانيا فى شهر مارس للمساعدة فى مجلس فى فرانكفورت عندما تقرر ارسال حملة صليبية ضد السلاف شرقى أولدنبرج . وكان المقصود من وجوده أن يظهر انه بينما يناصر حملة صليبية فى الشرق فإنه لا يرغب فى أن يهمل الألمان واجباتهم الأقرب . وعلى الرغم من أن البابا سمح للمشاركين بارتداء الصليب فى هذه الحملة الصليبية، إلا أنها أخفقت إخمافا تاما تسبب بدرجة كبيرة فى تأخر تحول السلاف إلى المسيحية . وسارع برنار من فرانكفورت إلى دير رهبانه فى كليرفو ليستقبل البابا الزائر^(٢١).

١١٤٧م : البابا إيوجينىوس فى فرنسا

كان البابا إيوجينىوس قد امضى عيد الميلاد من عام ١١٤٥م فى روما ؛ غير أن المتاعب مع أهل روما أجبرته على سرعة انسحابه مرة أخرى فى فيترى ، بينما خضعت روما نفسها لتأثير المحرض على الاثارة ضد الكنيسة ، أرنولد (أوف بريشيا) . وتحقق إيوجينىوس من انه بدون مساعدة الملك كونراد لن يستنى له إعادة تنصيب نفسه فى المدينة المقدسة ، وفى ذات الوقت قرر عبور جبال الألب إلى فرنسا لمقابلة الملك لويس والاشراف على الحملة الصليبية ، فغادر فيترى فى شهر يناير ١١٤٧م ووصل مدينة ليون يوم ٢٢ مارس . وتلقى اثناء ترحاله أنباء عما بذله القديس برنار من أنشطة، فلم يُسر تماما لذلك . ذلك أن احساسه العملى جعله يتخيل حملة صليبية فرنسية خالصة تحت الرعامة العلمانية للملك فرنسا وبدون القيادة المنقسمة التى كادت أن تحطّم الحملة الصليبية الأولى ، وها هو القديس برنار قد حول الحركة إلى مغامرة دولية ؛ ومن الجائز

(٢٠) Otto of Freisingen, *Gesta Friderick*, pp. 60-3; *Vita S. Bernardi*, cols. 381-3 . ويحتمل ان يكون كونراد قد تأثر بسماعه ان غريمه Welf VI of Bavaria قرر ان يأخذ الصليب . (انظر Cosack, 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug' in *Mitteilungen des Instituts für osterreichische Geschichtsforschung*, vol XXXV ; غير ان قرار ويلف أعلن لكونراد فى وقت قصير جدا بحيث لم يكدها هذا الأخير ان يسمع به انظر 4-53 pp. (Gleber, *op. cit.*).

(٢١) See St Bernard, letter no. 457, *loc. cit.*; Vacandard, *op.cit.* II, pp. 297-8

المسيحي موجهها نحو التنصير القسرى للسلافيين الرثينين على حدودهم الشرقية . فمنذ بداية القرن كان العمل التبشيري والاستعمار الألماني يجريان على قدم وساق في المقاطعات السلافية في بوميرانا وبراندنبرج ؛ وقد اعتبر اللوردات الألمان أن توسع العالم المسيحي هذا عمل يفوق في أهميته الحرب ضد الاسلام الذي بدأ تهديده لهم نائيا ونظريا ، ومن ثم أعرضوا عن الاستجابة لتبشير القديس برنار . كما لم يكن ملكهم كونراد (أوف هوهنشتافن) ، برغم إعجابه الشديد بالقديس ، أكثر تلهفا للإنصاف اليه . فكانت لديه اهتمامات في البحر المتوسط ، غير انها كانت مقيدة بايطاليا حيث وعد البابا بتقديم المساعدة ضد الرومان المتمردين وضد روجر الصقلي ، لقاء تنويجه الامبراطوري الذي يتمناه . كما أن وضعه في المانيا نفسها لم يكن مستقرا . فبرغم انتصاره في فينسر ج عام ١١٤٠م إلا أنه كان يلقي العداوة من مناصري بيت ويلف ، وفي الوقت ذاته كانت التصرفات الغريبة من اخوته واخواته غير الأشقاء تشير له المتاعب بطول جناحه الشرقي . وكذب القديس برنار إلى الأساقفة الألمان ليضمن تعاونهم . ثم قابل الملك في فرانكفورت في خريف عام ١١٤٦م ، لكن كونراد راوغه ؛ وتهيا برنار للعودة إلى كليرفو لولا أن توسل اليه الأساقفة مواصلة تبشيره بالحملة الصليبية في فيريورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس . وسرعان ما نجحت الجولة حتى مع ضرورة ترجمة المواعظ الدينية بمعرفة مترجم الماني . وتدافعت قطعان الرعايا ليأخذوا الصليب . وفشلت المحاصيل في المانيا ذلك العام وانتشرت المجاعة . والتصور جوعا خليقي بأن يولد شعورا غامضا بالنشوة ؛ والأرجح أن الكثيرين ممن استمعوا إلى برنار قد ظنوا - كشأن حجاج الحملة الصليبية الأولى - أن الرحلة ستوصلهم إلى فردوس اورشليم الجديدة في السماوات^(١٩) .

ووافق الملك كونراد على مقابلة القديس برنار مرة أخرى في يوم عيد الميلاد من عام ١١٤٦م أثناء عقده لمجلس تشريعي في مدينة سباير . ومرة ثانية طلب القديس برنار من الملك في موعظته يوم عيد الميلاد أن يأخذ الصليب ، لكن ندائه لم يحرك من الملك ساكنا . على انه بعد يومين القى برنار موعظة أخرى أمام البلاط ، وتحدث كما لو كان هو المسيح نفسه مطروقا الملك ومذكرا إياه بالأفضال التي أمطرتها

(١٩) Bernhardi, Konrad III, oo, 563-78k الذي يورد موجزا كاملا للحملة الصليبية ضد السلافيين . وفي St Bernard's letter no. ٤٥٧ (٢-651 op. cit. يأمر القديس مسيحي المانيا بالخروج في الحملة الصليبية في الشرق . وفي رقم cols 4٥٨-652 يصدر نفس الأمر الملك بوهيميا وشعبها . والمؤرخون من مثل William of Tyre, Odo of Deuil وأغلب المؤرخين المعاصرين يشيرون إلى كونراد على انه امبراطور ، غير انه في الواقع لم يلق قط تنويجا امبراطوريا .

جدا عمليا أن ترجح كفة المنافسة بين الملوك على كفة تصوراته الرائعة. فضلا عن ذلك ، سوف يحرم البابا من مساعدة الملك كونراد التي يعلق عليها الآمال في إيطاليا . فاستقبل أنباء الاشتراك الألماني استقبالا غاية في البرود . لكنه لم يكن بوسعه منع الألمان من الاشتراك^(٢٢).

وقابل البابا الملك لويس في ديجون أثناء الرحلة في فرنسا في الأيام الأولى من أبريل، ووصل كليرفو يوم ٦ أبريل . وارسل إليه الملك كونراد سفارة هناك يلتبس مقابلته في ستراسبورج يوم ١٨ من الشهر ؛ لكن إيوجينيوس كان قد وعد بتمضية عيد الفصح - يوم ٢٠ أبريل - في سانت دينيس ولن يغير من خطته . وأعد كونراد العدة للرحيل إلى الشرق دون مباركة من البابا شخصيا . وفي تلك الأثناء أجرى إيوجينيوس مقابلات عديدة مع الراهب سوجر الذي كان مقررا أن يحكم فرنسا أثناء غيبة الملك لويس . وعقد مجلسا في باريس للتعامل مع هرطقة جيلبرت (أوف دي لا بوريه) ، وقابل لويس مرة أخرى في سانت دينيس يوم ١١ يونيو . وبينما كان لويس يستكمل ترتيباته الأخيرة ، رحل البابا ببطء جنوبا للعودة إلى إيطاليا^(٢٣).

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا يعدان فيه العدة للحملة الصليبية ويخططان لرحلة برية طويلة ، كانت هناك حملة أكثر تواضعا تتألف من إنجليز مع بعض البلجيكيين من الفلاندرز وأبناء شمال هولندا (من الفريزيين) ، استلهموا ما قام به عملاء القديس برنار من تبشير بالخروج بحرا إلى فلسطين . فأبحرت السفن من إنجلترا في أواخر الربيع من عام ١١٤٧ ؛ وفي أوائل يونيو أجبرها سوء الأحوال الجوية على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالي . وقابلهم مبعوثو ألفونس هنري ، كونت البرتغال ، الذي كان قد حقق استقلال بلاده مؤخرا وكان يتفاوض مع البابوية على منحه لقب ملك عمير بنجاحه في حملاته ضد المسلمين . وكان قد استغل ما يواجهه المرابطون من صعوبات وانتزع نصرا كبيرا في عريق عام ١١٣٩ ، وفي عام ١١٤٧ كان قد وصل إلى ضفاف نهر التاجة بعد استيلائه على شنترين . وقد رغب الآن في مهاجمة العاصمة الإسلامية لشبونة وكان في حاجة إلى مساعدة بحرية . وجاء وصول الصليبيين في وقته المناسب . إذ أكد لهم مبعوثه ، أسقف أوبورتو ، عدم الحاجة إلى القيام برحلة طويلة إلى فلسطين اذا كانوا يريدون الحرب من اجل الصليب ؛ فهنا كفرة

See Gleber, *op. cit.* pp. 22-7, 48-61 (٢٢)

Odo of Deuil, pp. 24-5 (٢٣)

فى متناول اليد ، ولن ينال الصليبيون الجدارة الروحية فحسب ، وإنما أمامهم ضياع غنية يمكنهم الفوز بها هنا والآن . فرافق البلجيكيون والفريزيون من فورهم ، لكن أفراد الفصيلة الإنجليزية ترددوا ، إذ أخذوا على أنفسهم العهد بالذهاب إلى القدس ، وكان الأسقف قد أفلح فى اقناع قائدهم ، هنرى جلانفيل حاكم سافوك ، بالبقاء . واضطر قائد الفصيلة الإنجليزية إلى بذل كل ما فى وسعه من نفوذ لتحريض أفراد فصيلته على البقاء . وبعد أن تم الإتفاق على الشروط أبحر الأسطول الصغير جنوب نهر التاجة للانضمام إلى الجيش البرتغالى ؛ وبدأ حصار لشبونة . ودافع المسلمون عن مدينتهم ببسالة ، ولم تستسلم الحامية إلا فى أكتوبر ، بعد أربعة اشهر ، بعد ضمانات بالمحافظة على ارواح أفرادها وممتلكاتهم . وعلى الفور نقض الصليبيون عهدهم وانغمست أيديهم فى مذبحه كبيرة للكفرة قام بعدها أفراد الفصيلة الإنجليزية بتبادل التهينة على ما قدموه من "فضيلة" ، مع أنهم لم يلعبوا فيها سوى دور ضئيل . وبعد انتهاء الحملة واصل بعض الصليبيين رحلتهم إلى الشرق ، غير أن أغلبهم بقى فى حالة استيطان تحت التاج البرتغالى . ورغم أن هذه الحادثة كانت إيذانا بتحالف طويل بين إنجلترا والبرتغال ، وبرغم أنها كانت بمثابة إرساء القواعد لانتشار المسيحية وراء المحيطات ، فإنها لم تفعل سوى القليل لمساعدة المسيحيين فى الشرق حيث كانت القوة البحرية بالغة الأهمية للقضية^(٢٤).

١١٤٧ م : الملك كونراد يغادر ألمانيا

فى الوقت الذى تأخر فيه الشماليون فى البرتغالى كان ملكا فرنسا وألمانيا قد شرعا فى الرحيل برا إلى الشرق . وكان الملك روجر الصقلى قد أرسل إلى كل منهما يعرض نقلهما ونقل جيشيهما بحرا . وكان طبعيا أن يرفض كونراد ذلك العرض إذ كان لفترة طويلة عدوا لروجر ، وكذلك فعل لويس . ولم يكن البابا راغبا فى تعاون روجر ؛ ومن المشكوك فيه ما اذا كانت البحرية الصقلية من الضخامة بحيث تحمل كل الجنود الذاهبين فى الحملة الصليبية . ولم يكن لويس راغبا فى أن يسلم نفسه - وقد انفصل عن نصف جيشه - إلى رجل اشتهر بمضايقة الحافل فضلا عن كونه عدوا لدودا لعم الملكة

(٢٤) المصدر الرئيسى للأصلى للحملة الصليبية البرتغالية هو Osborn, *De expugnatione* Lyxbonensi, مطبوع فى Stubbs *Memorials of the Reign of Richard I*, vol. I, pp. cxliv-clxxxii. أنظر ايضا Ermann, 'Die Kreuzzugegedanke in Portugal' in *Historische Zeitschrift*, vol cxi, pp.23-53.

الفرنسية . فكان السفر برا أكثر أمانا وأقل تكلفة^(٢٥).

وانتوى الملك كونراد مغادرة ألمانيا في عيد الفصح من عام ١١٤٧م ، وكان قد تلقى سفارة بيزنطية في ديسمبر في مدينة شبير ، أخبرها برحيله الفوري إلى الشرق . على أنه لم يبدأ رحلته في واقع الأمر إلا في نهاية مايو . وغادر راتيسبون في الأيام الأخيرة من الشهر وعبر إلى هنجاريا . وكان الجيش بالغ الضخامة . إذ تحدث المؤرخون المرتاعون عن مليون جندي ؛ والأرجح أن العدد الإجمالي للرجال المسلحين والحجاج قد بلغ عشرين الفا . وجاء مع كونراد اثنان من الملوك التراب : فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا . وكان على رأس النبلاء الألمان فريديريك ، دوق سوابيا ، وهو ابن اخي كونراد وورثه . وكانت هناك كتبية من اللورين بقيادة ستيفن أسقف ميتر ، وهنرى اسقف تول . ولقد كان جيشا مشاغبا؛ فكان الأقطاب الألمان يفارون من بعضهم البعض ، ودامت الاحتكاكات بين الألمان والسلاف وأبناء اللورين من الناطقين بالفرنسية . ولم يكن كونراد بالرجل الذى يسيطر على الجيش ويقيه في حالة انضباط ، إذ جاوز عمره الآن الخمسين بكثير ، وصحته لا هى بالجيدة ولا بالسيئة ، ومزاجه ضعيف قلق . وقد بدأ في تفويض الكثير من سلطاته إلى يدى ابن أخيه فريديريك القويتين غير المتمرسين^(٢٦).

وعبر الجيش الألماني هنجاريا في شهر يونية . وكان ملك هنجاريا الصغير (جيزا) ودودا جدا ، ولم تحدث حادثة سيئة . وفى هنجاريا جاءت سفارة بيزنطية يرأسها ديميتريوس ماكريمبولائس والإيطالى ألكسندر (اوف جرافينا) وقابلت كونراد وسألته - نيابة عن الامبراطور - ما إذا كان قد جاء صديقا أم عدوا ، ولكى تزجأه أن يقسم القسم بألا يأتى من الأفعال ما يضر بمصالح ورفاهية الامبراطور . وقد أحسن اختيار قسم عدم الإضرار هذا ؛ إذ كان القسم المعتاد في اجزاء معينة من الغرب يؤخذ من تابع لسيده؛ وهو الذى أقسمه ريموند التولوزى لألكسيوس أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ومع ذلك كان القسم مصاغا بحيث اذا رفضه كونراد فمعنى هذا انه قد وصم نفسه بعداوة الامبراطور . ولقد أقسم كونراد هذا القسم . فوعده السفراء البيزنطيون بتقديم

(٢٥) كان الملك لويس قد اعلن لروجر عن الحملة الصليبية (Odo of Deuil, p.22)، على أنه عندما اقترح روجر أن يشترك في الحملة بصورة ايجابية نبذ الملك لويس مساعدته مما تسبب في استعادة المورخ Odo لأحزانه (ibid. p.24).

(٢٦) Odo of Freisingen, *Chronica*, p. 354 and *Gesta Friderici*, pp. 63-5.

كل المساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية^(٢٧).

١١٤٧ م : الألمان فى البلقان

فى يوم ٢٠ يولية تقريبا دخل كونراد اراضى الامبراطورية عند برانيتشوف . وساعدت السفن البيزنطية فى نقل رجاله عبر نهر الدانوب . وفى نيش ، قابله حاكم المقاطعة البلغارية ، ميخائيل براناس وزود الجيش بالطعام الذى سبق تخزينه استعدادا لوصوله . وفى صوفيا ، التى وصلها بعد ذلك بأيام قليلة ، أقام حاكم ثيسالونيكا ، ميخائيل باليولوجوس ابن عم الامبراطور ، ترحيبا رسميا لكونراد من الامبراطور . وحتى الآن سارت الأمور على ما يرام . وكتب كونراد إلى اصدقاء له فى المانيا يخبرهم بأنه راض عن كل شئ . على انه بعد مغادرته صوفيا بدأ رجاله فى نهب الريف رافضين أن يدفعوا للقرويين مقابل ما يأخذونه منهم ، بل انهم قتلوا من اعترض عليهم . وعندما تلقى كونراد الشكاوى اعترف بأنه عاجز عن فرض الانضباط على الغزاة . وفى فيلوبوبوليس حدثت احداث فوضوية أسوأ ، إذ سُرق المزيد من الطعام ، وحدثت اعمال شغب عندما قام أحد المشعوذين ببعض الحيل وفى مأموله الحصول على بعض المال من الجند ، فاتهمه الألمان بالسحر . واضرمت الحرائق فى الضواحي ، بيد أن اسوار المدينة كانت من القوة بحيث تعذر على الألمان مهاجمتها . وكان احتجاج رئيس الأساقفة ميخائيل اتاليكوس لدى كونراد من القوة بحيث شعر الأخير بالخجل وعاقب زعماء العصابات . ثم أن مانويل أرسل الجنود لمصاحبة الصليبيين وضمان عدم خروجهم عن الطريق . ولم يؤد ذلك إلا إلى عمل فريد من أعمال الفوضى الأسوأ ؛ إذ تكرر الصدام بين البيزنطيين والالمان . وبلغت الأمور ذروتها من السوء بالقرب من أدورنه عندما هاجم بعض قطاع الطرق البيزنطيين وجيها المانيا كان قد تخلف لمرضه وقتلوه ؛ فما كان من فريدريك (اوف سوابيا) إلا أن حرق ديرا كان بالقرب من مكان ارتكاب الجريمة وقتل قاطنيه . وانتقاما لذلك ، دأب البيزنطيون على قتل الشاردين المخمورين - وكانوا بأعداد غفيرة بين الألمان - أينما وقعوا عليهم . وعندما تمكن القائد البيزنطى بروسوخ من تهدئة الأمور واستأنف الجيش مسيرته ، جاءت سفارة من مانويل ، الذى شعر بالخطر الشديد ، تحت كونراد على أن يسلك الطريق الذهاب إلى سيستوس على بوغاز الدردنيل والعبور من هناك إلى آسيا . ولما كان مقررا أن تستمر

مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ، فقد اعتُبر طلب مانويل عملاً غير ودي لم يوافق عليه كونيتراد . ويدعو أن مانويل قرر آنذاك مقاومة الصليبيين بالقوة ، لكنه في آخر لحظة ألغى أوامره المرسلة إلى بروسوخ . وسرعان ما نزل بالألمان عقاب الهسى . فبينما كانوا مستلقين في معسكرهم في شيرفاس الواقعة في سهل ترافيا ، فاجأهم سيل مفرق أطاح بخيامهم وأغرق الكثير من الجنود ودمّر الكثير من ممتلكاتهم ، ولم ينبج من الأذى سوى فصيلة فريديريك التي كانت تعسكر فوق ربوة أكثر ارتفاعاً . ولم تحدث حوادث أخرى جسيمة إلى أن وصل الجيش القسطنطينية في العاشر من سبتمبر على وجه التقريب^(٢٨).

وجاء الملك لويس والجيش الفرنسي في اعتابهم بعد شهر تقريباً . وكان الملك نفسه قد انطلق من سانت دينيس في الثامن من يونيو ، وبعد أيام قليلة استدعى أتباعه لمقابلته في ميتز . والأرجح أن حملته كانت اصغر من حملة كونيتراد . وقد جاء معه كل النبلاء الذين أخذوا الصليب معه في فيزيلاي للرفاء بعهودهم ، وكان مع الملك زوجته ، إيلانورا الأكيثانية ، أعظم وريثة في فرنسا وابنة اخت أمير أنطاكية . وكانت كونتيسات فلاندرز وتولوز وكثيرات من السيدات الفخيمات قد ارتحلن مع أزواجهن . وانضم إلى الجيش السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إيفيرارد (أوف بار) مصطحباً معه فصيلة من الذين جندهم في نظام فرسانه^(٢٩) . وكان عمر الملك نفسه ستة وعشرين عاماً ، وقد اشتهر عنه الورع وليس قوة الشخصية ، وقد مارس كل من أخيه وزوجته نفوذهما عليه ؛ وكفائد كان يفتقر إلى التدريب والحسم^(٣٠) . وعلى الجملة كان جنوده أكثر انضباطاً وأقل شيطنة من الألمان ، ورغم وجود حالات من الفوضى حدثت في مدينة فورمز عند عبور نهر الراين.

(٢٨) Cinnamus, pp. 69-74; Nicetas Choniates, pp. 82-7; Odo of Deuil, p. 38. وكان المؤرخ Odo of Freisingen, *Gesta* . ٣٦ قد سبق له أن ذكر احتمال من قبل في صفحة ٣٦ . *Friderici*, pp. 65-7.

(٢٩) ترد قائمة بالصليبيين أوردها Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp.158-60. والقائلة بأن الملكة إليانور جاءت على رأس مجموعة من الأمازون تقوم على أساس ملحوظة Nicetas p.80 بأن الجيش الألماني كان يشتمل على عدد من النساء المسلحات تسليحاً كاملاً .

(٣٠) تدل صورة شخصيته التي أوردها Suger في مولفه *Gesta* وفي رسائله الخاصة به على أنه لم يكن رجلاً حاسماً.

١١٤٧م : وصول الفرنسيين إلى القسطنطينية

وعندما انضمت جميع الفصائل الفرنسية إلى الملك ، انطلق الجيش عبر بافاريا . وفي راتسيون التي وصلها يوم ٢٩ يونية ، كان هناك سفيران من الامبراطور مانويل في انتظاره ، هما ديميتريوس ماكريمبولاتيس الذي سبق وان أجرى مقابلة مع كونراد في هنجاريا ، وآخر يدعى موروس . وطلبا ضمانا بأن يتصرف لويس كصديق أثناء تواجده في الأراضي الامبراطورية وأن يعد بأن يعيد إلى الامبراطورية أية ممتلكات سابقة لها قد يستولى عليها في الحملة . وكان واضحا انهما لم يطلبوا منه أن يقسم قسم عدم الإضرار ، إذ كان خليقا بأن يعي مغزاه تماما . وأعلن لويس رسميا أنه جاء كصديق ، لكنه لم يعد شيئا بشأن الغزوات المقبلة ، إذ وجد الطلب مبهما بصورة خطيرة^(٣١) . ومن راتسيون ارتحل الجيش في سلام لخمسة عشر يوما خلال هنجاريا ووصل الحدود البيزنطية في نهاية أغسطس^(٣٢) . وعبر المرتحلون الدانوب عند برانيتشيفو وسلكوا الطريق الرئيسي خلال البلقان . ووجدوا بعض الصعوبة في شراء ما يكفي من الطعام ، إذ سبق أن استهلك الألمان كل ما كان متاحا ، وما ارتكبه الألمان من تجاوزات أثار الريبة لدى السكان المحليين الذين باتوا عازفين عن المساعدة . فضلا عن ذلك ، لم يكن التجار المحليون على استعداد لمنح أية تخفيضات في الأسعار بعد تصميمهم على الدفع أولا . غير أن المسؤولين البيزنطيين كانوا ودودين ، واستطاع القادة الفرنسيون السيطرة على انضباط رجالهم . ولم تحدث مشاكل جسيمة إلى أن اقترب الجيش من القسطنطينية رغم أن الفرنسيين بدأوا يشعرون بالازدراء تجاه كل من البيزنطيين والألمان . وفي أدرنه حاولت السلطات دون جدوى ما حاولته مع كونراد من حث لويس على تجنب العاصمة وعبور الدردنيل إلى آسيا . وفي ذات الوقت ، كان بعض الفرنسيين قد نفذ صبرهم من تمهل الجيش في سيره ، فأسرعوا قُدما ليلحقوا بالألمان . لكن الألمان كانوا يفتقرون إلى الود ، إذ رفضوا منحهم مخصصات الطعام . لذا قامت فصائل اللورين - وكانت على غير وفاق مع زملائها الألمان - بالانضمام إلى الجنود الفرنسيين وأشعلت رأيا عاما فرنسيا مناهضا للألمان^(٣٣) . وهكذا ، وقبل أن يصل الملك الفرنسي إلى القسطنطينية ، كانت العلاقات بين الجيشين الصليبيين مصطبغة بصبغة الريبة والمرارة ،

(٣١) Cinnamus, p. 82; Odo of Deuil, pp. 28-30 يقول أودو إن لويس جعل ممثليه يقسمون نيابة عنه.

Odo of Deuil, pp.30-4. (٣٢)

pp. 35-44 Ibid (٣٣)

٣٠٤

وقد اتخذ الألمان والفرنسيون سواء بسواء موقفا عدائيا إزاء بيزنطة ؛ وليس ذلك بشيرا
بنجاح الحملة الصليبية .

الفصل الثانى:

الشقاق المسيحى

الشقاق المسيحي

"خُصُومَاتٌ وَمُحَاسَدَاتٌ وَسَخَطَاتٌ وَتَحْزِينَاتٌ وَمَذَمَاتٌ
وَتَبِيحَاتٌ وَتَكْبِيرَاتٌ وَتَشْوِيشَاتٌ"

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٢٠)

عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية إلى القسطنطينية أول الأمر كان الامبراطور مانويل مستغرقاً في شؤون الأناضول . وبرغم الحملات التي أطلقها أبوه وجده من قبل في المقاطعات الآسيوية للامبراطورية ، بقى الوضع مشيراً للقلق ، إذ لم يسلم من الغزوات التركية سوى المقاطعات الساحلية ، أما في داخل البلاد فكانت الغارات التركية تكاد أن تكون سنوية ، تكتسح البلاد مجتنبه الحصون الكبيرة وهي تراوغ الجيش الامبراطوري ، وقد هجر سكان المواجهة قراهم وهربوا إما إلى المدن أو إلى الساحل . وأقام مانويل سياسته على أساس إنشاء خط حدودي محدد تحرسه سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض عن قرب . وكانت دبلوماسيته وحملاته تستهدف الحفاظ على هذا الخط.

وكان الأمير الدانشمندى محمد بن غازى قد مات فى ديسمبر عام ١١٤١م ،

وكان يمثل القوة الاسلامية الرئيسية فى آسيا الصغرى ، فاندلعت بعد موته الحروب الأهلية بين ابنائه واخوته ، وقبل نهاية سنة ١١٤٢م انقسمت الإمارة إلى ثلاثة أجزاء احتفظ ابنة ذو النون بقيصرية مزাকা ، بينما احتفظ أخواه يعقوب أرسلان بن غازى وعين الدولة بن غازى بسيواس وملطية على التوالى . وقد رأى مسعود سلطان قونية السلجوقى فى هذا الانقسام فرصته فى السيطرة على أترك الأناضول . فغزا اراضى الدانشمند وبسط سلطانه على المقاطعات الممتدة حتى نهر الفرات ، فتسبب هذا العدوان فى إثارة مشاعر الخوف لدى الأخوين يعقوب أرسلان وعين الدولة فسعىا إلى التحالف مع بيزنطة . وبموجب معاهدة رعا عقدت عام ١١٤٣م أصبحا تابعين للإمبراطور بدرجة ما . وبعد ذلك حول مانويل انتباهه نحو مسعود الذى توغلت غاراته إلى ملاجينه الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليوم ، ورد تلك الغارات على أعقابها ، لكنه سرعان ما عاد إلى القسطنطينية لاعتلال صحته ، وللمرض المميت الذى أصيب به اخته المحبوبة ماريا ، التى دلت على اخلاصها له عند تأمر زوجها ، القيصر جون روجر النورمانى المولد ، على العرش وقت استخلاف أخيها . وفى عام ١١٤٥م غزا مسعود الامبراطورية مرة اخرى واستولى على حصن براكانا الصغير فى إيسوريا ، وبذا هدد خطوط المواصلات البيزنطية مع سوريا ، وسرعان ما أغار بعد ذلك على وادى نهر المياندر وحتى البحر تقريبا.

١١٤٦م : حملة مانويل ضد قونية

قرر مانويل ان الوقت قد حان لضرب مسعود بشدة ويزحف على قونية . وكان قد تزوج حديثا ، وقيل إنه أراد أن يُطلع زوجته الألمانية على روائع الفروسية البيزنطية . وفى صيف عام ١١٤٦م أرسل إلى السلطان إعلانا رسميا بالحرب ، وانطلق فى موكب فخيم بطول الطريق مارا بدوريليوم جنوبا إلى فيلوميليوم حيث حاولت فصائل تركية التصدى له لكنها اندحرت . وتراجع مسعود باتجاه عاصمته التى عزز حاميتها، لكنه رغم ذلك بقى فى الأراضى المفتوحة وأرسل يطلب التعزيزات من الشرق على عجل . وعسكر الجيش البيزنطى لعدة شهور امام قونية التى كان السلطان يدافع عنها . وكان موقف مانويل إزاء أعدائه يتصف بالكياسة ؛ ذلك انه عند انتشرت الشائعات بمقتل السلطان ، أرسل إلى السلطانة يخبرها بان القصة غير حقيقية ؛ وحاول - دون طائل - أن يفرض على حنوده احترام مقابر المسلمين خارج المدينة . وفجأة أصدر أمره

بالانسحاب . وقيل فيما بعد انه قد سمع شائعات بتحريك الحملة الصليبية ؛ لكنه مع ذلك لم يكذب يعلم بالقرار المتخذ في فيزيلاى ذلك الربيع . وكان بالقطع مرتابا في التوايا الصقلية ، وربما تحقق فعلا من أن هناك شيئا يأخذ بجراه . كما انه علم أن مسعود تلقى تعزيزات كبيرة لجيشه ، فكان يخشى من الإمساك به ووراءه خطوط مواصلات طويلة محفوفة بالأخطار . فتقهقر ببطء في غاية النظام عائدا إلى أراضيه^(١).

وقبل إمكان الترتيب لحملة أخرى ضد قونية ، وجد مانويل نفسه يواجه الواقع الفعلي للحملة الصليبية ، فانتابه القلق وله العذر؛ إذ لم تكن تجارب البيزنطيين مع الصليبيين باعثة على الطمأنينة ، ولذا وافق مانويل على ما اقترحه عليه مسعود في ربيع ١١٤٧م من عقد هدنة وإعادة براكانا وما استولى عليه في غزواته الأخيرة . وبسبب هذه المعاهدة نعت العالم المسيحي بالخيانة . غير ان عداوة كونراد التي اتضحت قبل أن يتلقى الألمان نبأ المعاهدة تظهر أن توجهات الامبراطور نابعة من منبج الحكمة وليس هناك ما يجعله ملتزما إزاء رفيق مسيحي يفكر علنا في مهاجمة القسطنطينية . كما لا يستطيع مانويل أن يقتبط بحملة لا شك في انها سوف تشجع امير أنطاكية على تناسي احترامه وتبعيته . وإذا ما دخل في حرب جادة مع الأتراك فرما كانت عوننا للصليبيين في مرورهم عبر الأناضول ، غير انها كانت ستجعلهم يلحقون أضرارا لا حد لها بالامبراطورية التي تعتبر حصنا للعالم المسيحي . ففضل عدم التورط الذي ربما يضعفه في ذلك الوقت الحساس لا سيما وان هناك حربا وشيكة مع صقلية^(٢).

١١٤٧م : الألمان يعبرون إلى آسيا

كانت العلاقات طيبة بين مانويل وكونراد حتى ذلك الحين ؛ إذ جمع بينهما الخوف المشترك من روجر الصقلي ؛ فضلا عن ان مانويل تزوج حديثا من أخت زوجة كونراد^(٣). على ان سلوك الجيش الألماني في البلقان ، ورفض كونراد اتخاذ الطريق الذي يعبر مضيق الدردنيل جعله يشعر بالخطر . وعندما وصل كونراد أمام

(١) أنظر Chalandon, les Comnènes, pp. 248-58. ويقول ميخائيل السوري Michael the Syrian (III, p. 275) إن مانويل عقد سلاما مع الأتراك خشية الصليبيين ، وأنه تمكن من صدهم لستين.

(٢) Chalandon, op. cit., pp. 266-7. اندلعت الحرب مع صقلية في الواقع في صيف ١١٤٧م (Odo of Deuil (p. 53) ويشير إليها. (po. cit. p. 318 n. 1)

(٣) وقد تم الزواج في يناير ١١٤٦م. (Chalandon, op. cit. p. 262 n 3)

القسطنطينية خصص لإقامته قصر فيلرباتيوم بالقرب من الأسوار ، وعسكر جيشه حوله . على أنه في غضون أيام قليلة راح الألمان ينهبون القصر بحيث لم يعد صالحا للإقامة وانتقل كونراد عبر رأس القرن الذهبي إلى قصر بيكريديوم، فسي مواجهة ناحية فانار . وفي تلك الآونة ارتكب جنوده أعمال العنف ضد السكان المحليين ، وأرسلت فصائل من الجنود البيزنطيين لقمعهم ، وتلى ذلك سلسلة من المناوشات . وعندما طلب مانويل الانتصاف قال كونراد بادئ الأمر إن الاعتداءات لم تكن هامة ؛ ثم هدد بالعودة في العام التالي والاستيلاء على العاصمة . ويدور أن الامبراطورة - أخت زوجة كونراد - تمكنت من تهدئة العاهلين . وكان مانويل يحث الألمان على سرعة عبور البوسفور لما كان يخشاه مما سوف يترتب على اتصال الألمان بالفرنسيين، وفجأة أذعن الألمان ، إذ انهم بدأوا بالفعل في مشاجرات مع أول القادمين الفرنسيين . وأمكن تحقيق وفاق ظاهري ، وعبر كونراد وجيشه إلى خلقدونية ومعهم الكثير من الهدايا النفيسة وقد تلقى كونراد نفسه بعض الخيول الجميلة . غير أنه رفض اقتراحا بترك بعض رجاله للخدمة مع الامبراطور لقاء حصوله على بعض الجنود البيزنطيين في كيليكيا ، وكان ذلك الترتيب ملائما لمانويل في حربه مع روجر الصقلي^(٤).

وعندما وصل كونراد إلى خلقدونية طلب من مانويل تزويده بممرشدين يأخذونه عبر الأناضول ، وعهد مانويل بتلك المهمة إلى رئيس الحرس الفارنجي، ستيفن . وفي الوقت ذاته نصح الألمان بتجنب الطريق المستقيم العابر لشبه الجزيرة ، واتخاذ طريق الساحل الملتف إلى أضاليا، وبذا يسلكون طريقهم فسي الأراضي الواقعة تحت السيطرة الامبراطورية. كما اقترح مراعاة الحكمة وإعادة جميع الحجاج غير المقاتلين إلى بلادهم إذ ليس في وجودهم سوى احراج للجيش . ولم يعبأ كونراد بهذه النصيحة وإنما انطلق إلى نيقية . وبوصوله هناك أعاد التفكير وقرر تقسيم الحملة . فقرر ان يصطحب أوتو (أوف فريسينجين) فرقة تضم اغلب الحجاج غير المقاتلين ، فسي طريق يخترق لاوديفيا على نهر ليكوس إلى أضاليا ، بينما يسلك هو نفسه ومعه القوة المقاتلة الرئيسية طريق الحملة الصليبية الأولى مخترقا داخل البلاد^(٥).

(٤) Cinnamus, pp.74-80; Nicetas Choniates, p.87; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Annales Epistolae in Jaffé, Bibliotheca, 1, p.166. يقول إن الامبراطور استقبله استقبالا حسنا. Odo of Deuil, pp.39-40 ويقول Herbipolenses, pp.4-5; Romuald of Salerno, p.424; طبقا للحسابات الإغريقية عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من الجنود والحجاج الألمان . والأرجح ان الرقم الصحيح هو ٩٥٦٦ شخصا. كما يقول إن كونراد لم يقابل مانويل مقابلة شخصية.

(٥) Cinnamus, pp. 80-1 .

غادر جيش كونراد نيقية يوم ١٥ أكتوبر مع ستيفن الفارابجي كبير المرشدين . وطوال الأيام الثمانية الأولى ، أثناء تواجدهم فى اراضى الامبراطور ، كانوا يحصلون على جيد الطعام ، رغم أنهم فيما بعد اشتكوا من ان عملاء الامبراطور خلطوا ما كانوا يزودونهم به من دقيق بالطباشير ، كما انهم كانوا يعطونهم عملات منخفضة القيمة . على انهم لم يزودهم بالطعام أثناء سترهم فى الأراضى التركية التى افتقروا فيها إلى الماء بصورة خاصة . وبوصولهم فى ٢٥ أكتوبر إلى نهر باثى الصغير بالقرب من دوريليوم ، فى حوار الموقع الذى شهد الانتصار الصليبي العظيم قبل ذلك بنصف قرن ، انقضى عليهم الجيش السلجوقي كله . وكان مشاة الألمان فى حالة من التعب والعطش ، والكثير من الفرسان مترجلون لإتاحة الراحة لخيولهم المرهقة ؛ فبوغتوا بفرسان الأتراك الخفاف يهجمون عليهم فى هجمات متكررة سريعة مفاجئة . وكانت فى حقيقتها مذبح لا معركة . وحاول كونراد أن يلم شعث رجاله ، ولكن دون جدوى . وبحلول المساء كان يسابق الريح هربا مع قليلين ممن بقوا على قيد الحياة عائدا إلى نيقية . لقد فقد تسعة أعشار جنوده وكل ما كان يشتمل عليه معسكره . وباع المنتصرون الغنائم فى الاسواق المنتشرة فى سائر أنحاء الشرق الاسلامى حتى فارس^(٦) .

١١٤٧م : الفرنسيون يعبرون إلى آسيا

وفى تلك الأثناء كان الملك لويس والجيش الفرنسى فى الطريق إلى القسطنطينية التى وصلها يوم ٤ أكتوبر، ليحدا حرس المقدمة وجيش اللورين فى حالة اشتزاز سببتها وحشية الألمان من ناحية ، وأنباء هدنة مانويل مع الأتراك من ناحية أخرى . وحالت السلطات البيزنطية دون اتصال فصائل اللورين مع الفرنسيين برغم توسلات مبعوث لويس ، إيفرارد (أوف بارر) السيد الأعظم لفرسان المعبد^(٧) . فاقترح أسقف لانجرز - راهب كليرفو بتعصبه غير المسيحى - على الملك وجوب تغيير سياسته وعقد تحالف مع روجر الصقلي ضد الغدر اليونانى (البيزنطى) . على ان الوساسوس المتسلطة على لويس منعه من الأخذ بهذا الاقتراح مما أثار الشعور بخيبة الأمل لدى باروناته .

(٦) Cinnamus, pp. 81-2; Nicetas Choniates, p. 89; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.152; Annales Palidenses p.82; Annales Herbipolenses, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.53, 56-8; William of Tyre, xvi, 21-2, pp.740-4; Michael the Syrian, III, p.276.

(٧) Odo of Deuil, pp. 40-1 .

لقد شعر بالرضا من استقباله في البلاط الامبراطوري وفضل الأخذ بالنصيحة الرقيقة التي نصح بها أسقف ليزير ذو النزاع الانسانية ، وأقام في قصر فيلوباتيوم الذي جرى تنظيفه بعد الاحتلال الالماني ، ودعى إلى مآدب في القصر الامبراطوري في بلاشيرناي حيث لقي ضروب الخفاوة ، واصطحبه الامبراطور في جولة شامد فيها معالم المدينة العظيمة . واقتن كثير من نبلائه بنفس القدر لما لاقوه من الاهتمام بهم^(٨). على ان مانويل تدبر سرعة عبور الجيش مضيق البوسفور ، بعدما استقر الجيش في خلقدونية ، قطع الامدادات عن الفرنسيين متذرعاً بأعمال شغب أثارها حاج فلنكي ظن أنه خدع. ورغم ان لويس شق من ارتكب الجريمة في الحال، امتنع مانويل عن إعادة تمرين الجيش إلى ان أقسم لويس أخيراً بأن يعيد إلى الامبراطورية ما يمكنه أن يعين على استعادته من ممتلكاتها المفقودة ، ووافق على أن يعترف البارونات بولايتهم مقدماً للامبراطور في كل أرض جديدة يحتلونها ، فاعترض النبلاء الفرنسيون ؛ غير أن لويس اعتبر الطلب مقبولاً نظراً لحاجته الشديدة للمساعدة البيزنطية ، لاسيما بوصول شائعات حول الكارثة الألمانية^(٩).

وفي أول نوفمبر وصل الجيش الفرنسي نيقية حيث أيقن من هزيمة كونراد ، إذ وصل فريدريك (أوف سوابيا) على جواده إلى المعسكر الفرنسي وأخبرهم بالقصة وطلب من لويس ان يذهب من فوراً لمقابلة كونراد . وسارع لويس إلى مقر الرئاسة الألمانية ودارت المشاورات بين الملكين . وقررا كلاهما أن يتخذا طريق الساحل المتجه جنوباً ليكونا في داخل الأراضي البيزنطية . وكان الجيشان على وفاق في تلك اللحظة. ولم يجد الألمان طعاماً في المنطقة التي يعسكرون فيها بعد أن استولى الفرنسيون على كل ما كان متاحاً ، فأغار الألمان على القرى المجاورة، فما كان من الشرطة البيزنطية إلا أن هاجتهم في الحال ، ولم ينقذهم سوى فصيلة فرنسية يرأسها كونت سواسون الذي سارع لإنقاذهم بناء على طلب كونراد . وفي تلك الأثناء كان كونراد قادراً على المحافظة على نوع من الانضباط بين جنوده . وقد تركه أغلب الحجاج الباقين على قيد الحياة عائدين يتلمسون طريقهم إلى القسطنطينية ، ولا نعلم عنهم شيئاً بعد ذلك^(١٠).

Cinnamus, pp. 82-3; Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, p.488; Odo of Deuil, (٨) pp. 45-6, 47-8

Odo of Deuil, pp. 48-51. (٩)

Odo of Deuil, pp. 58-60; William of Tyre, xvi, 23, pp. 744-5. (١٠)

وانطلق الجيشان معا . وفى ١١ نوفمبر ضربا معسكريهما فى إيسرون بالقرب من
باليق سراى الحديثة ، وهناك غيرا الخطة مرة اخرى . ويرجح أنهما تلقيا تقارير حول
الرحلة التى قام بها أوتو (أوف فريسينجين) بطول الطريق المباشر الذهاب إلى فيلادلفيا
ولاوديفيا . ولا نعلم عن تلك الرحلة سوى القليل ، عدا وصول تلك الحملة فى نهاية
الأمر إلى أضايا وهى مرهقة وقد انخفض عدد افرادها ، تاركة على جانبي الطريق
الكثير من الموتى الذين سقطوا صرعى تضورهم جوعا او ضحايا المغيرين الأتراك . وقرر
الملكان السير على مسافة أقرب إلى الساحل خلال الأراضى الأكثر خصوبة ، ومدومة
الاتصال بالاسطول البيزنطى . وواصل سيرهما خلال أدراميتيوم وبرجاموم وأزمير
وهبطا إلى إفسوس . وكان جيش لريس فى الطليعة بينما كان الألمان يشقون طريقهم
فى الخلف بمسيرة يوم تقريبا وقد باتوا موضع سخيرة مهينة من حلفائهم الملتكئين .
ويسجل المؤرخ البيزنطى سيناموس Cinnamus الصيحة الفرنسية "نحركوا يا ألمان" التى
قذفهم بها الفرنسيون بازدراء^(١١).

١١٤٧ - ١١٤٨ م : الفرنسيون فى آسيا الصغرى

وعندما وصلوا إلى إفسوس كانت صحة كونراد قد تدهورت بحيث تخلف هناك .
وما أن سمع مانويل بذلك حتى أرسل له الهدايا الثمينة وحشه على العودة إلى
القسطنطينية حيث استقبله استقبالا طيبا وأنزله فى القصر . وكان مانويل شديد
الاهتمام بالطب وأصر على ان يكون طبيبا لضييفه واستعاد كونراد صحته وقد مس
أعماق مشاعره ما لمسه من اهتمام الامبراطور والامراطورة . وأثناء هذه الزيارة تمت
ترتيبات زواج أخيه هنرى ، دوق النمسا ، من ثيودورا ، ابنة أخى الامبراطور ،
أندرونيكوس . وبقي الملك الألمانى وأهل بيته فى القسطنطينية حتى أول مارس ١١٤٨ م
عندما نقلهم اسطول يزنطى صغير إلى فلسطين^(١٢).

وأثناء الأيام الأربعة التى أمضاها الملك لريس فى إفسس ، تلقى رسالة من مانويل

(١١) Odo of Deuil, pp.61-3. ويناشر سيناموس Cinnamus الفرق بين الجيشين . إذ كان الفرنسيون
أفضل حالا على خيولهم ومعهم الرماح ، بينما كان الألمان راجلين ومعهم السيوف . وقد أورد عبارة
"نحركوا يا ألمان" بالحروف الاغريقية.

(١٢) Cinnamus, pp.85-6; letters of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.153; Annales
Hdribolenses, p.6; Odo of Deuil, pp.63-4; William of Tyre, xvi, 23, pp. 745-6.

يخبره فيها أن الأتراك يعدون العدة للحرب ونصحه بتجنبهم وأن يبقى في نطاق المأوى الذى توفره الغابات البيزنطية . ومن الواضح ان مانويل كان يخشى أن يعاني الفرنسيون من الترك فتلقى عليه الملامة ؛ وفى ذات الوقت لم يكن راغبا فى أن يحدث ما يعكر السلام المعقود بينه وبين السلطان ، ولا سيما وأن الحرب الصقلية على الأبواب . ولم يرد لويس . كما لم يرد عندما كتب له مانويل محذرا من ان السلطات البيزنطية لن تمنح مواطنيها من الانتقام لأية اضرار يسببها الصليبيون . ذلك ان انضباط الجيش الفرنسى كان آخذا في الانهيار ، وكانت العاصمة تتلقى شكاوى المواطنين من تمرد الصليبيين على القانون^(١٣).

وشق الجيش الفرنسى طريقه الملتوى أعلى وادى نهر مياندر . وفى ديسمبر ، حيث أمضوا عيد الميلاد ، ظهر الأتراك وبدأوا فى مضايقة الصليبيين حتى وصلوا إلى الجسر الذى يعبر النهر فى أنطاكيا البيسيدية^(١٤)، حيث دارت معركة مدروسة، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم فوق الجسر وانسحب الأتراك داخل أسوار انطاكيا البيسيدية . ولا نعرف شيئا عن الظروف التى مكنت الأتراك من اللجوء إلى تلك القلعة البيزنطية ، وهى الحادثة التى اعتبرها الفرنسيون بمثابة خيانة للعالم المسيحى ، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ؛ على أنه سواء كانت الحامية المحلية للقلعة قد مالت إلى القوة الأقوى ، أو كان هناك نوع من الترتيب الخاص مع الكفرة ، فمن غير المحتمل أن يكون الامبراطور نفسه قد أجاز الخطأ^(١٥).

وكانت المعركة التى دارت أمام الجسر فى أنطاكيا البيسيدية قد حدثت فى أول يناير ١١٤٨م تقريبا . وبعد ذلك بثلاثة ايام وصل الصليبيون إلى لاوديفيا ليجدوها مهجورة ؛ إذ أن سمعتهم دفعت بالسكان إلى النزوح إلى التلال ومعهم كل المؤن . وتعذر على الجيش ان يجمع أية أطعمة للمرحلة الشاقة التى تنتظره، إذ أن الطريق إلى أضاليا كان ملتفا حول مجموعة من الجبال العالية المقفرة ؛ فكانت الرحلة شاقة فى أحسن الظروف . أما بالنسبة لجيش جائع يكافح عواصف شهر يناير ، والأتراك متعلقون بأطرافه يتصيدون الشاردين والمرضى بلا هوادة ، فكانت الرحلة بمثابة كابوس.

(١٣) Cinnamus, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.63-5 .

(١٤) (المترجم) بيسيديا : Pisidia كوتية قديمة كانت تقع فى أواسط جنوب آسيا الصغرى ، جنوب فريجيا.

(١٥) Odo of Deuil, pp. 65-6; William of Tyre, xvi, 24, pp. 746-7

فعلى طول الطريق كان الجنود يرون جثث الحجاج الألمان الذين هلكوا فى سيرهم قبل ذلك بأشهر قليلة . ولم تعد هناك محاولات لفرض الانضباط ، فيما عدا مجموعة فرسان المعبد . وكانت الملكة والسيدات المصاحبات لها يرتعدن فى مخفاتهن وقد أقسمن ألا يواجهن مرة أخرى قط مثل تلك المحنة . وفى عصر أحد الأيام ، وبينما بدأ الجيش يهبط باتجاه البحر ، عصى جودفرى (أوف رانكون) قائد حرس المقدمة ، أوامر الملك بأن يضرب المعسكر فوق قمة الممر ، وهبط إلى اسف التل ففقد الإتصال بالجيش الرئيسى ، فكانت فرصة سانحة لهجوم الأتراك . وثبت الصليبيون فى موقعهم ؛ غير ان هبوط الظلام هو وحده الذى أنقذ حياة الملك ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة^(١٦) .

١١٤٨م : الفرنسيون فى أضايا

ومن هنا قدما كان الطريق أيسر ، إذ لم يغامر الأتراك بالهبوط إلى السهل . وفى بداية فبراير وصل الصليبيون إلى أضايا حيث كان حاكمها البيزنطى إيطاليا يدعى لاندولف . وبناء على أوامر الامبراطور بذل ما أمكنه فى التخفيف عن الغربيين . غير ان أضايا ليست بالمدينة الكبيرة التى تتوفر فيها موارد الطعام الضخمة ، وانما كانت فى موقع سيئ فى الريف وقد انتهبها الأتراك مؤخرًا . وأتذاك تقلصت مخزونات الشتاء ، بعد أن أخذ الحجاج الألمان الجزء المخصص للتخزين ، فلا عجب من قلة المتاح من المؤن وارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا . على أنه فى نظر الفرنسيين الغاضبين المحبطين ، كان كل ذلك بمثابة دليل آخر على الخيانة البيزنطية . والآن قرر الملك لويس أن تتواصل الرحلة بحرا ، وتفاوض مع لاندولف للحصول على السفن . ولم يكن من اليسر فى ذلك الوقت من العام بجميع اسطول فى ميناء على الساحل الكارامانى الموحش . وأثناء الانشغال فى جمع السفن الناقلة ، هبط الأتراك وشنوا هجوما مفاجئا على معسكر الصليبيين . ومرة أخرى ألقى الفرنسيون باللائمة على البيزنطيين ، الذين ربما لم يذللوا أى جهد للدفاع عن هؤلاء الضيوف النقال الذين لولا وجودهم لما كانت هناك غارات تركية . وعندما وصلت السفن كانت من قلة العدد بحيث يتعذر نقل الجيش كله ، ولذا

(١٦) William of Tyre, xvi, 25, pp. 747-9. Ibid pp. 67-7, 71-2; وعن القصة التى لا أساس لها القائله بأن الملكة إيلينورا مسؤولة عن الكارثة ، انظر Walker, 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain' in American Historical Review, vol. LV, pp. 857-61. وكان Odo of Deuil مسؤولا عن الكثير من الأعمال الطيبة فى تزيويد الجيش بالطعام . وهو متواضع للغاية بحيث لم يذكر ذلك (William the Monk, Dialogus Apologeticus).

ملأها لويس بأهل بيته هو وبأكبر عدد يمكن أخذه من الفرسان ، وأبحر إلى ميناء السويدية الذى وصله يوم ١٩ مارس. ومدارة من الملك لضميره لتخليه عن جيشه ، ترك مع لاندولف خمسمائة مارك كى يقوم على رعاية المرضى والجرحى ، ويرسل الباقي بحرا - إذا أمكن - وترك كونت فلاندرز وكونت بوربون ليتوليا مسؤولية الإشراف . وفى اليوم التالى لرحيل الملك اندفع الأتراك هابطين إلى السهل وهاجموا المعسكر . واستحال دحرهم دحرا فعلا نظرا لعدم كفاية الفرسان ؛ ولذا حصل الصليبيون على إذن باللجوء إلى داخل الأسوار ، حيث عولجوا علاجا جيدا وحصل المرضى منهم على الرعاية الطيبة ؛ وضاعف لاندولف من نشاطه لجمع المزيد من السفن. ومرة أخرى لم يجد ما يكفى من السفن للحملة كلها، ولذا هذا ثيرى كونت فلاندرز، وأرشيماكد كونت بوربون، حذو مليكهما وركبا السفن مع أصدقائهما وباقي الفرسان، تاركين المشاة والحجاج لمواصلة طريقهم برا بقدر استطاعتهم^(١٧). وأعد لاندورف معسكرا خارج المدينة لمن تبقى من الجيش، لكن الجنود التمساء الذين هجرهم قادتهم رفضوا الإقامة على الساحل خوفا من تعرضهم لهجمات رماة الأتراك، وبدلا من ذلك انطلقوا مرة أخرى يشقون طريق العذاب إلى كيليكيا، ووراءهم من تبقى من مشاة كونراد الألمان يبرون أقدامهم، والجميع على حالهم من الجهل وعدم الانضباط والريبة فى مرشديهم، والمضايقات تتواصل من جانب الأتراك المقتنعين كذلك بأن البيزنطيين متحالفين معهم. وفى أواخر الربيع وصل أقل من نصفهم إلى انطاكية^(١٨).

١١٤٧ - ١١٤٨ م : السياسة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية

فى إحدى الرسائل الكثيرة المرسلة من الملك لويس إلى الراهب سوجر - وموضوعها جميعا لا يتغير وهو طلب المزيد من المال - نسب الملك ما نزل بالصليبيين من كوارث فى الأناضول إلى "خيانة الامبراطور وأخطائنا أيضا". ودأب المؤرخ الفرنسى الرسمى للحملة الصليبية - أودو اوف دويل Odo of Deuil - على مهاجمة الامبراطور مانويل بصورة دائمة وبجمية زائدة وردد صدها المؤرخون الغربيون حتى يومنا

(١٧) William of Tyre, pp. 73-6
Odo of Deuil, pp. 749-51

(١٨) Odo of Deuil, pp. 76-80 .

هذا ، باستثناءات قليلة^(١٩) ، وتسببت النكبات التي منى بها الصليبيون في تنغيص العلاقات بصورة شديدة بين العالم المسيحي الغربى والشرقى بحيث ينبغي فحص الاتهامات فحصا دقيقا . فيشكو أودو من أن البيزنطيين لم يقدموا ما يكفى من امدادات الغذاء التي تقاضوا عنها أسعارا فادحة ، ولم يقدموا ما يكفى من وسائل النقل، ولا ما يكفى من المرشدين ، والأسوأ من هذا كله أنهم تحالفوا مع الأتراك ضد رفاقهم المسيحيين . والاتهامات الأولى سخيفة . فلا توجد دولة فى القرون الوسطى - حتى وان كانت منظمة تنظيميا جيدا كبيزنطة - تمتلك ما يكفى من مخزونات الطعام بالقدر الذى يمكنها من امداد جيوشين كبيرين بصورة غير عادية هبطا عليها دون دعوة وباخطار مسبق بفترة وجيزة ؛ وعندما يندر الطعام ترتفع الأسعار حتما . وأما محاولات الكثير من التجار وبعض المسؤولين الحكوميين خداع الغزاة ، فهذا أمر يقينى . فمثل هذا السلوك لم يكن قط ظاهرة نادرة فى التجارة ، ولا سيما فى العصور الوسطى وفى الشرق . وليس من المعقول أن يُترقع من لاندولف إمداد العدد الكافى من السفن لجيش بكامله فى ميناء أضايا الصغير فى منتصف الشتاء ؛ كما لا يمكن إلقاء اللوم على المرشدين - ونادرا ما يؤخذ بنصائحهم - إذا كان غالبا عنهم آخر ما قام به الأتراك من تدمير الجسور والآبار ، أو فى حالة هربهم إزاء التهديدات والأعمال العدوانية من جانب الرجال الذين يرشدونهم . ومسألة التحالف التركى أكثر حساسة ، على أنه ينبغي النظر إليها من وجهة نظر الامبراطور مانويل ، الذى لم يوجه الدعوة إلى الحملة الصليبية ولا كان راغبا فيها . وكان له أسبابه المعقولة لاستنكارها . ذلك أن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك قد تعلمت جيدا كيف توقع الفتنة بين شتى الأمراء المسلمين ضد بعضهم البعض ومن ثم تعزل كلا منهم بدوره ؛ إذ من شأن حملة أعد لها إعلام جيد كالحملة الصليبية أن توحد حتما جبهة الأعداء ضد العالم المسيحي . فضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستراتيجية البيزنطية ضد الاسلام ، كان من الضروري السيطرة على أنطاكية ؛ وقد فازت بيزنطة أخيرا بهذه السيطرة عندما أعلن الأمير ريموند عن خضوعه المذل فى القسطنطينية . ولا بد حتما أن يغريه وصول حملة صليبية على رأسها ابنة اخته (اليانور) وزوجها (لويس السابع) بالتخلي عن تبعيته ؛ ولم يكن تصرف الصليبيين ، عندما كانوا ضيوفا فى أراضى الامبراطور ، هو السلوك الذى من شأنه أن يزيد من حب الامبراطور لهم ؛ فقد دأبوا على النهب ، وهاجموا شرطته ، وتجاهلوا

(١٩) Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, pp.495-6 وموقف Odo of Deuil الشامل مناهض للبرنانيين بصورة هستيرية.

طلباته بأن يسلكوا طرقا معينة ، وجاهر الكثير من وجهائهم بضرورة الهجوم على القسطنطينية . وفى ضوء هذه الحقائق، تبدو معاملته لهم كريمة متجملة بالصبر ، وهذا ما تحقق منه بعض الصليبيين . غير أن الغربيين لم يفهموا ولم يغفروا معاهدته مع الأتراك، إذ كانت الاحتياجات العريضة للسياسة البيزنطية بعيدة عن إدراكهم ، ولقد اختاروا أن يتجاهلوا - رغم إدراكهم يقينا - الحقيقة التى مفادها أنه بينما كانوا يطلبون العون من الامبراطور ضد الكفرة كانت أراضيه هو نفسه خاضعة لهجوم حثود من قوة مسيحية اخرى ؛ ذلك أنه فى خريف عام ١١٤٧م احتل الملك روجر الصقلى جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشا للإغارة على شبه الجزيرة اليونانية . وخربت طيبه (ثيبس) ، واختطف الألو من عمالها للمساعدة فى صناعة الحرير الوليدة فى باليرمو، وحتى كورينث نفسها - وهى القلعة الرئيسية فى شبه الجزيرة - استولوا عليها وجردوها من كنوزها . وعاد النورمانديون الصقليون عمليين بالأسلاب إلى كورفو التى خططوا الاحتفاظ بها لتكون بمثابة تهديد دائم للامبراطورية وقبضة خانقة على البحر الأدرياتيكي . وانما كانت شدة الهجوم النورماندى هى التى دفعت مانويل إلى اتخاذ قراره بالانسحاب من قرنية عام ١١٤٦م وقبول ما قدمه السلطان من عروض للسلام فى العام التالى . وإذا كان مانويل يوصم بأنه خائن للعالم المسيحى ، فيقينا تكون للملك روجر الصقلى الأسبقية عليه.

١١٤٧ - ١١٤٨م : دور الامبراطور

كان الجيش البيزنطى كبيرا ، لكن وجوده لم يكن مطلقا فى كل مكان وفى كل وقت . وكانت الحاجة تستلزم استخدام أفضل الجنود ضد روجر . ثم كانت هناك شائعات بوجود قلاقل فى السهول الروسية ، حدث أن أسفرت فى صيف عام ١١٤٨م عن غزو بولوفتسيانى للبلقان . ومع وجود الصليبيين على مقربة ، لم يستطع مانويل تعرية حدوده فى كيليكيا من الرجال ؛ إلى جانب أن مرور الصليبيين خلال الامبراطورية كان يعنى ضرورة زيادة الشرطة العسكرية زيادة كبيرة . وبكل تلك المشاغل ، لم يتمكن الامبراطور من توفير قوات حدودية كاملة لتغطية حدوده الطويلة فى الاناضول ، ففضّل هدنة تساعد رعاياه فى الاناضول على أن يعيشوا حياتهم متحررين من تهديد الغارات التركية . وقد تسبب الصليبيون فى تعريض هذه الهدنة للخطر ؛ إذ كان تقدم كونراد إلى دوريليوم بمثابة استفزاز مباشر للأتراك . أما لويس ،

فبرغم بقاءه داخل الأراضى البيزنطية ، إلا أنه جاهر بإعلانه أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء داخل المدى الذى تحرسه الحاميات البيزنطية . ومن المحتمل تماما أن يكون مانويل - وهو يواجه هذه المشكلة - قد أعد ترتيبا مع الأتراك تغاضى بمقتضاه عن الاغارة على اراضيه طالما انهم يهاجمون الصليبيين فقط ، وان الأتراك التزموا بالصفقة ، مما يولد انطبعا واضحا بأنهم كانوا فى حلف مع السكان المحليين الذين كان يستوى عندهم الصليبيون والأتراك فى سرقة قطعانهم ومخزونات طعامهم ، والذين كانوا فى تلك الظروف يفضلون الأتراك بطبيعة الحال^(٢٠) على انه من المستحيل أن نصدق ما أكده أودو (أوف دويل) من أن السكان المحليين انضموا إلى جانب الأتراك في الهجوم على الصليبيين. فهو يوجه هذا الاتهام إلى سكان أضايا بعد أن قال مباشرة إن الامبراطور عاقبهم فيما بعد لتعاطفهم مع الصليبيين^(٢١).

إن المسؤولية الرئيسية عن الكوارث التى حلت بالصليبيين فى الأناضول ينبغى ان تقع على حماقاتهم هم أنفسهم . وكان الامبراطور حريا فى الواقع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل ، وانما لا يكون ذلك إلا على حساب المخاطرة الجسيمة بامبراطوريته . بيد أن المسألة الحقيقية أعمق من ذلك . فهل كان الأفضل للعالم المسيحى أن تكون هناك حملات عرضية فخمة تأتى إلى الشرق ، يقودها خليط من المشايين الحمقى والمغامرين الغلاظ ، لإنقاذ دولة متفحمة يتوقف وجودها على تشتت المسلمين ؟ أم أن تستمر بيزنطة التى ظلت طويلا حارسة للحدود الشرقية فى القيام بدورها دون أن يسبب لها الغرب الحرج ؟ لقد أظهرت قصة الحملة الصليبية الثانية بصورة حتى أوضح مما أظهرت الحملة الصليبية الأولى أن السياستين ليستا متفقتين . وعندما سقطت القسطنطينية نفسها وراح الأتراك يهدرون هدير الرعد على أبواب فينسا ، كان يمكن أن نفهم أي السياستين هى السياسة الصحيحة.

(٢٠) للاطلاع على مشاغل مانويل فى ذلك الوقت أنظر Chalandon ويكرر ميخائيل السورى الكثير من اتهامات الفرنج لليونانيين (III, p. 276) على أن المصادر الاسلامية ، مثل أبو شامة فى صفحة ٥٤ ، تقول إن مانويل كانت له قضية مشتركة مع الفرنج.

(٢١) Odo of Deuil, p. 79.

الفصل الثالث:

الإخفاق التام

الإخفاق التام

"تَشَاوَرُوا مَشُورَةَ قَبْطُلْ"

(لشُعْبَاء ٨ : ١٠)

فى ١٩ مارس ١١٤٨ م وصلت أنطاكية أنباء نزول الملك لويس إلى البر فى ميناء السويدية ، فهبط إليها الأمير ريموند وأهل بيته كلهم للترحيب به ومرافقته إلى المدينة. ومضت الأيام الأولى فى حفول وسرور . وبذل الوجهاء من نبلاء انطاكية ما فى وسعهم لإدخال البهجة على ملكة فرنسا وعقيلات السيدات فى حاشيتها ؛ ونسى الزائرون المشاق التى مروا بها فى هذا الربيع السورى البهيج وسط مفاخر البلاط الأنطاكى . وما أن انتعشوا حتى بدأ ريموند يناقش القادة الفرنسين خطط حملة ضد الكفرة ؛ إذ كانت الآمال العراض تداعب خيال ريموند بمجئ الحملة الصليبية . ولقد كان فى وضع محفوف بالمخاطر ؛ إذ كان نور الدين يوطد سلطانه الآن على طول الحدود المسيحية من الرها إلى حماة ، وقد أمضى خريف عام ١١٤٧ م ينتزع القلاع الفرنجية الواحدة تلو الأخرى شرق نهر العاصى ، وكان الكونت جوسلين منشغلا

للغاية فى الحفاظ على كورتيته فى تل بشير . وفى حالة هجوم إسلامي على أنطاكية بأعداد كبيرة فإن القوة الوحيدة القادرة على مساعدة ريموند هى بيزنطة ، والأرجح أن لا يصل جنود بيزنطة إلا بعد فوات الأوان ، وعلى أية حال سوف تصر بيزنطة على تشديد تبعية أنطاكية . وقدم الجيش الفرنسى - رغم أن حوادث الرحلة قللت من قوة المشاة - هذا التعزيز الهائل من الفرسان بحيث يتمكن فرنج أنطاكية من أخذ زمام الهجوم . ودأب ريموند على تحريض الملك على ضرورة أن يضربا معا قلب قوة نور الدين - مدينة حلب - وحث الكثير من الفرسان الفرنسيين على الانضمام إليه فى استطلاع مبدئى حتى أسوارها ، مما تسبب فى انتشار الذعر بين سكانها^(١).

١١٤٨ م : لويس والينور فى أنطاكية

غير انه عندما حانت لحظة العمل تردد الملك لويس ، قائلا إن قسمه الصليبي يجبره على أن يذهب إلى القدس أولا قبل أن يبدأ فى أية حملة . غير أن العذر كان مجرد قناع يخفى وراءه عجزه عن اتخاذ قرار . لقد كان أمراء الشرق الفرنجى كلهم يطلبون مساعدته ؛ فالكونت جوسلين يعلق عليه الآمال فى استعادة الرها ، أليس سقوطها هو الذى حرك الحملة الصليبية كلها؟ وكان ريموند أمير طرابلس يطالب بحق رابطة أبناء الخوالة، إذ كانت أمه أميرة فرنسية ، فسعى إلى مساعدته لاستعادة قلعة بعيرين . ثم حدث أن جاء إلى أنطاكية فى شهر ابريل بطريق القدس نفسه ، مرسلا من البلاط الأعلى للملكة، يلتمس منه الإسراع جنوبا ، وليخبره بأن الملك كونراد موجود بالفعل فى الأراضى المقدسة^(٢). وفى نهاية الأمر كان هناك دافع شخصى محض هو الذى جعل الملك يستقر على رأى. ذلك أن الملكة إينور كانت أذكى من زوجها للغاية ؛ وكانت قد أدركت فى الحال الحكمة التى ينطوى عليها مخطط ريموند ، على أن ترددها لعواطفها البادية ومساندتها لخاها (ريموند) لم يكن لها من أثر سوى إثارة غيرة زوجها لويس . وبدأت الألسن فى القيل والقال ، وكانت الملكة والأمير يشاهدان معا أغلب الأوقات . ودارت الهمسات بأن افتتان ريموند يتجاوز اهتمامه بحال بابنة اخته . وشعر لويس بالخطر على شرفه ، فأعلن عن رحيله فى الحال ، فما كان من الملكة الا أن

(١) William of Tyre, xvi, 27, pp.751-3; William of Nangis, I, p. 44.

(٢) البطريق هو Fulcher of Angoulême ، رئيس أساقفة صور الأسبق ، عيته ملسيند عقب وفاة William of Messines عام ١١٤٧ م.

اعلنت عن بقائها فى انطاكية وعزمها على السعى للحصول على الطلاق من زوجها ؛ وردا على ذلك جر لويس زوجته بالقوة من قصر خالها وانطلق إلى القدس مع جنوده جميعا^(٣).

وكان الملك كونراد قد هبط إلى البر فى عكا مع أهم أمرائه فى منتصف ابريل ولقى فى القدس استقبالا وديا ومشرفا من الملكة ملسيند وابنها^(٤). وبعد ذلك بشهر استقبل الملك لويس بمظاهر تشريف مماثلة عند دخوله الأراضى المقدسة . ولم تشهد القدس قط مثل هذا الحشد الرائع من الفرسان والعقيلات^(٥). غير انه قد غاب كثيرون بصورة ملحوظة . ذلك أن ريموند أمير أنطاكية تملكه الحق مما أتاه لويس ، فنفض يديه من الحملة الصليبية برمتها . وعلى أية حال لم يكن بوسعهم أن يترك إمارته وهى تعاني من الضغط الشديد من اجل بعض المغامرات فى الجنوب . كما لم يستطع الكونت جوسلين أن يترك تل بشير . وأما غيبة كونت طرابلس فتعزى إلى حادثة عائلية فاجعة. إذ كان من بين الصليبيين الذين أقسموا القسم فى فيزيلاى ، ألفونسو - جوردان ، كونت تولوز . وكان قد ركب البحر مع زوجته وأولاده من القسطنطينية وهبط فى عكا بعد كونراد بأيام قليلة . وكان لوصوله مع كتيبة كبيرة أن أشعل حماس فرنج الشرق إذ كان بالنسبة لهم شخصية خيالية ، فهو ابن الصليبي القديم ريموند (أوف تولوز) وقد ولد فى الشرق على جبل الحجاج أثناء أن كان والده يحاصر طرابلس . بيد أن بغيته كان إحراجا للكونت الذى يحكم طرابلس ، وهو حفيد برتراند، الإبن غير الشرعي للكونت ريموند. فإذا ما طالب ألفونسو - جوردان بطرابلس ، يصعب إنكار ذلك عليه ؛ ويبدو أنه أحب أن يذكر حقوقه . وفى طريقه شمالا من عكا إلى القدس ، توقف قليلا فى قيصرية . وهناك ، مات فجأة من الألم . وربما كان سبب موته مرض حاد مثل التهاب الزائدة الدودية ، إلا أن الجميع فكروا فى السم فورا ، وجاهر إبن الميت - برتراند - باتهام ابن عمه ريموند أمير طرابلس بتدبير قتله . واعتقد آخرون أن الملكة ملسيند هى التى ارتكبت الجرم عملا بوصية اختها المحبوبة - الكونتيسة هوديرنا - زوجة ريموند . ولم يثبت شئ من ذلك ؛ غير أن ريموند شعر بالسخط من الإتهام

(٣) William of Tyre, *loc. cit.* الذى يطلق على إلينور : المرأة "البهاء" لكنه لا يفترض انها غير مخلصه. وقد أورد شكوك الملك. John of Salisbury (*Historia Pontificalis*, p.53).

(٤) William of Tyre, xvi, 28, pp. 753-4; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.88-9.

(٥) William of Tyre, xvi, 29, pp. 754.

فامتنع عن أى تعامل مع الحملة الصليبية^(٦).

١١٤٨ م : قرار الهجوم على دمشق

عندما وصل كل الصليبيين إلى فلسطين ، وجهت الملكة ملسيند والملك بلدوين الدعوة اليهم لحضور تجمع كبير تقرر عقده فى عكا يوم ٢٤ يونية ١١٤٨ م . وكان حشدا مؤثرا . فكان المضيفون الملك بلدوين ، والبطريق فولشر مع رئيسى أساقفة قيسارية والناصرية ، والسيدى الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وأبرز أساقفة وبارونات المملكة . وجاء مع كونراد أخواه غير الشقيقين ، هنرى جاسوميرجوت أمير النمسا ، وأوتو (أوف فريسينجن) ؛ وابن أخيه فريديريك (أوف سوابيا) ، وويلف (أوف بافاريا) والكثير من الأمراء الأقل . وكان مع الملك لويس أخوه روبرت (أوف دروو) وخطيب ابنته هنرى (أوف شامباني) ، وثيرى كونت فلاندرز ، وكذلك برتراند الصغير ، الابن غير الشرعى لألفونسو - جوردان . ولا نعرف المسار الذى سارت فيه المناقشة ولا الذى تقدم بالاقترح الأخير . وقرر الجمع ، بعد قليل من المعارضة ، ترسيخ كل قوته فى الهجوم على دمشق^(٧).

ولقد كان القرار هو الحماسة عينها . فدمشق ستكون فى الواقع جائزة ثمينة ، واستيلاء الفرنج عليها سوف يقطع الصلة تماما بين مسلمى مصر وأفريقيا وبين اخوانهم فى الدين فى شمال سوريا والشرق . غير أنه من بين الدول الاسلامية جميعا كانت المملكة البورية الدمشقية هى وحدها التى كانت تتطلع إلى أن تبقى على علاقة صداقة مع الفرنج ؛ إذ أنها - كشأن ذوى البصيرة من الفرنج - كانت تعتبر عدوها الرئيسى هو نور الدين . والمصلحة الفرنجية تقضى بالحفاظ على صداقة دمشق إلى أن يتم سحق نور الدين ، وأن يظل الخلاف مفتوحا بين دمشق وحلب . ويعتبر الهجوم على الأولى أنجح وسيلة لأن يرغمى حكامها فى أحضان نورالدين ، كما أظهرت أحداث العام الفائت . لكن بارونات القدس كانوا يشتهون الأراضى الخصيبة التى تدين بالولاء لدمشق ، وكانوا يعانون مرارة الألم فى تذكرهم للخزى الذى أصابهم مؤخرا ، ولا بد

(٦) William of Tyre, xvi, 28, p. 754d؛ ويفترض William of Nangis, I, p. 43 أن ملسيند - متورطة فى القتل.

(٧) William of Tyre, xvii, I, pp. 758-9 الذى يورد قائمة بأبرز الحاضرين من رجال الدين والعلماء؛ Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p.89; Suger, Gesta Ludovici, pp.403-4.

أن ملكهم الشاب ذا المعنويات المرتفعة كان متلهفا على الشار. ولم تكن حلب تعني شيئا للصليبيين الزائرين ، وإنما كانت دمشق هي المدينة المبعجة في الأسفار المقدسة والتي ستكون استعدادتها من الكفرة بمثابة تمجيد للرب وليس هناك من جدوى في توزيع الملامة في اتخاذ هذا القرار ، غير أن المسؤولية الأكبر ينبغي أن تقع على عاتق البارونات المحليين الذين كانوا يعرفون الوضع ، أكثر من وقوعها على عاتق الوافدين الجدد الذين كانوا ينظرون إلى المسلمين كلهم نفس النظرة^(٨).

وفي منتصف يولية ، انطلق الجيش المسيحي ، من الجليل خلال بانياس ، وهو أكبر جيش على الإطلاق يدفع به الفرنج إلى ميدان القتال . وفي يوم السبت ٢٤ يولية ضرب معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق . وفي بداية الأمر لم يأخذ الأمير أنسأ الحملة الصليبية مأخذا جادا ، بعد أن سمع بخسائرها الجسيمة في الأناضول ، وعلى أية حال فإنه لم يتوقع أن تجعل الحملة من دمشق هدفا لها . لكنه عندما اكتشف الحقيقة سارع بإصدار الأوامر لحكام المقاطعات بإرسال كل من يمكن الاستغناء عنه من الرجال ؛ بينما هرع رسول إلى حلب طالبا المساعدة من نور الدين . وتوقف الفرنج أولا في الموضع المسمى مناكل العساكر على بعد حوالي ثمانية أميال جنوب دمشق التي كانت أسوارها وأبراجها البيضاء تومض من خلال ما تعج به البساتين من أوراق كثيفة ؛ غير أنهم سرعان ما تقدموا شمالا إلى قرية الميزة حيث المياه الوفيرة . وهناك حاول الجيش الدمشقي وقف تقدمهم لكنه أجبر على الانسحاب وراء الأسوار . وابتهج زعماء الصليبيين بانتصارهم ، فأرسلوا جيش القدس إلى داخل البساتين لتطهيرها من مقاتلي حرب العصابات ؛ وما أن حل عصر اليوم حتى كانت البساتين الواقعة جنوب المدينة في قبضة الفرنج الذين راحوا يغززون متاريس الحسائك الخشبية من الأشجار التي كانوا يقطعونها . وبعد ذلك ، وبفضل شجاعة كونراد شخصيا ، شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى أسفل أسوار المدينة تماما . وظن مواطنو دمشق الآن أن كل شيء قد ضاع وبدأوا في وضع المتاريس والحواجز في الشوارع إيذانا بالصراع الأخير اليائس . لكن المد تحول في اليوم التالي ؛ إذ أن التعزيزات التي طلبها أنس بدأت تتدفق إلى داخل المدينة من خلال البوابات الشمالية للمدينة ، وبمساعدها شن هجوما مضادا دحر المسيحيين بعيدا عن الأسوار . وأثناء اليرمين التاليين كرر الهجمات ، بينما زاد توغل رجال حرب العصابات داخل الحدائق

والبساتين . وكانت عملياتهم من الخطورة البالغة للمعسكر بحيث اجتمع كونراد وبلدوين وقررا إخلاء البساتين جنوب المدينة والانتقال إلى الشرق وضرب المعسكر في بقعة لا يجد فيها العدو مثل هذه التغطية . وفى يوم ٢٧ يولية تحرك الجيش كله إلى السهل خارج الأسوار الشرقية . ولقد كان القرار بمثابة كارثة ؛ إذ كان الموقع الجديد يفتقر إلى المياه ويواجه أقوى قسم فى الأسوار ؛ وتستطيع الآن فرق الهجوم الدمشقية أن تتحرك بحرية أكبر فى أنحاء البساتين . وفى واقع الأمر ، اعتقد الكثير من جنود الفرنج أن البارونات الفلسطينيين الذين نصحوا الملكين ، لابد وأنهم تلقوا الرشاوى من أونر لقاء نصبتهم . ذلك أن انتفاحهم أضاع آخر فرصة للإستيلاء على دمشق . وكان جنود أونر يتزايدون فى أعدادهم ، وكان يعلم أن نور الدين فى طريقه جنوبا ، فراح يحدد هجماته على المخيم الفرنجى . وبات الجيش الصليبي - وليس المدينة المحاصرة - هو الذى يحارب حربا دفاعية^(٩).

١١٤٨ م : مشاجرات فى المعسكر المسيحي

فى الوقت الذى ترددت فيه المهمات عن الخيانة فى أنحاء الجيش المسيحي ، اختلف قواده جهارا حول مستقبل دمشق بعدما يحتلونها . فتوقع بارونات مملكة القدس إدماجها اقطاعية فى المملكة ، واتفقوا على تعيين جوى بريسبار - لورد بيروت - لوردا لها ، ويبدو أن الملكة ملسيند وكونستابل مناس قد وافقا على هذا الترشيح . غير أن ثيرى (أوف فلاندرز) كان يشتهى دمشق التى كان يرغب فى الاحتفاظ بها اقطاعية شبه مستقلة على غرار طرابلس . وفاز بتأييد كونراد ولويس والملك بلدوين الذى كانت اخته غير الشقيقة زوجة ثيرى . ولما علم البارونات المحليون بتأييد الملوك لثيرى توائى نشاطهم ؛ وزاد مؤيدوا من كانوا دائما يعارضون الهجوم على دمشق ، وربما كانوا على صلة خفية بأونر ، إذ كانت هناك همسات حول مبالغ طائلة من الأموال المدفوعة المزيفة - وهذا صحيح - التى عثر عليها أثناء مرورها بين دمشق وبين بلاط القدس وأمير الجليل (إليناند). وربما قال لهم أونر إنهم إذا انسحبوا فى الحال فسوف يتخلى عن تحالفه مع نور الدين . وسواء استغل أونر هذا الجدل استغلالا محمدا أم لا ، فلاشك فى أنه كان له أثره على نبلاء المملكة . وكان نور الدين قد وصل

(٩) -William of Tyre, xvii, 2-5, pp. 760-7; Ibn al-Qalanisi, pp 282-6; Abu Shama, pp. 55
9, Usama, ed. Hitti, p 124.

بالفعل إلى حمص وراح يتفاوض على شروط مساعدته لأوثر ؛ فطلب ضرورة السماح لجنوده بالدخول إلى دمشق ؛ وكان أوثر يناصر كسبا للوقت ؛ إذ كان الجيش الفرنجي فى وضع صعب أمام دمشق ، ولا يتوقع وصول تعزيزات ، بينما يستطيع رجال نور الدين أن يكونوا فى ساحة القتال فى غضون أيام قليلة. وفى حالة مجيئهم ، فلن تبحث شأفة القوة الصليبية عن آخرها وحسب ، وإنما سوف تكون دمشق فى قبضة نور الدين يقينا^(١٠).

والآن انتعج بارونات فلسطين كلهم - بعد فوات الأوان - بحماقة مواصلة الحرب ضد دمشق ؛ وراحوا يضغطون برأيهم على الملك كونراد والمملك لويس . وأصيب العاهلان الغربيان بالصدمة ؛ وليس باستطاعتهم المضى فى الجدل السياسى الحبيث ، لكنهما كانا يعلمان أنهما لا حيلة لهما بدون مساعدة الفرنج المحليين . واشتكى المملكان علانية من عدم الطاعة التى وجدها بين الفرنج المحليين وافتقارهم إلى الحماس للقضية . لكنهما أصدرا الأمر بالانسحاب^(١١).

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٨ يولية ، أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق ، هدم الجيش المعسكر وبدأ طريق العودة باتجاه الجليل . ورغم أن أموال أوثر ربما كانت ثمن انسحابهم فإنه لم يدعهم يرحلون فى سلام . إذ أن فرسان الزكرمان الخفاف تعلقوا بمناحيهم ومؤخرتهم طوال اليوم كله والأيام القليلة التالية ، وهم يمحطون حشودهم بسهامهم ، وتحول الطريق إلى فراش لجثث الرجال والخيول ، تسببت عفونتها فى تلوث السهل طوال أشهر كثيرة تالية . وفى أوائل أغسطس عادت تلك الحملة العظيمة إلى فلسطين وعاد الجنود المحليون إلى منازلهم . وكانت كل إنجازاتها أنها فقدت العديد من رجالها والكثير من مواردها وعانت من خزي مرعب . إن ما أتاه هذا الجيش الجرار بتخليه عن هدفه بعد مجرد أربعة أيام يعد بمثابة لظمة مريرة للكثيراء المسيحي.

(١٠) William of Tyre, xvii, 6, pp. 767-8. Rey, 'Les Seigneurs de Barut', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 14-15. ويحدد Rey البارون المرشح على أنه Guy of Beirut ، وذلك من Assise, II, p. 458. ريبورد ميخائيل السورى (III, p. 276) شائعة الأموال التى دفعت للملك بلدوين وإيليناند ، والتى قبلها خشية من طموحات كونراد. ويقول Bar Hebraeus (trans Budge, p. 274) إنه لم يجد القصة لدى أى كاتب عربى . ويقول ابن القلانيسى فى صفحة (٢٦٤) إن الفرنج شعروا بالخطر من اقتراب الجيوش الإسلامية . ويقول ابن الأثير (pp. 469-70) إن أوثر بالقطع حذر الفرنج المحليين من تلك الجيوش وبذر الخلاف بينهم وبين ملك ألمانيا.

(١١) William of Tyre, xvii, 7, pp. 768-70. وتدرج الترجمة الفرنسية محوما على (البولاني) أى الفرنج الذين نشأوا فى الشرق . ويلقى كونراد باللوم على البارونات المحليين . انظر letter in *Wibaldi. Epistolae*, pp. 225-6

وتحطمت تماما أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُقهرُونَ ، التي أكسبت هيتها إبان المغامرة العظيمة للحملة الصليبية الأولى . وعادت الحياة إلى معنويات العالم الإسلامي^(١٢).

١١٤٨ م : الملك كونراد يغادر فلسطين

لم يمكث الملك كونراد في فلسطين بعد عودته من دمشق ؛ وإنما اصطحب حاشيته يوم ٨ سبتمبر وركب سفينة متجهة إلى ثيسالونيكا . وبوصوله إليها تلقى دعوة ملحة من الامبراطور مانويل لتمضية أعياد الميلاد في بلاطه الامبراطوري . والآن ساد الوفاق التام بين العاهلين . واستمر ابن اخيه الصغير فريديريك في ضغيته للبيزنطيين وتوجيه اللوم اليهم عن الخسائر الألمانية في الأناضول ، ورغم ذلك لم يفكر كونراد إلا في تحالفه النفيس مع الامبراطور ضد روجر الصقلي ، وبات أسيرا لجاذبية مانويل الشخصية وضيافته البهيجة . وأثناء زيارته تمت مراسم زواج أخيه هنري كونت النمسا من ابنة أخي مانويل ثيودورا بأعظم مظاهر الآبهة . وبكى البيزنطيون في ذهولهم لرؤيتهم أميرتهم الشابة المحبوبة تذهب ضحية لهذا المصير البربري - وكما كتب أحد شعراء البلاط مواسيا أمها: "راحت قربانا لوحش الغرب" . غير أن الزفاف كان علامة على المصالحة التامة بين البلاطين الألماني والبيزنطي . وغادر كونراد القسطنطينية في فبراير ١١٤٩ م عائدا إلى ألمانيا ، وحاملا معه تحالفا بينه وبين مانويل ضد روجر الصقلي ، يقضي بتقسيم أراضي الواقعة على شبه الجزيرة الإيطالية^(١٣).

وفي الوقت الذي كان فيه كونراد يستمتع بما تقدمه القسطنطينية من أسباب الراحة ، لبث الملك لويس مثيرا في فلسطين وكتب له الراهب سوجر المرة تلو الأخرى راجيا منه العودة إلى فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على حسم أمره . إذ كان بلا شك راغبا في تمضية عيد من أعياد الفصح في القدس . وكان يعلم أن عودته سيعقبها طلاق وما يترتب عليه من كافة المترتبات السياسية . فسعى إلى تأجيل اليوم الشؤم .

(١٢) William of Tyre, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, pp. 286-7.

(١٣) William of Tyre, xvii, 8, pp. 770-1; Cinnamus, pp. 87-8; *Annales Palidense*, p. 83; Otto of Saint Blaise, p. 305; Otto of Freising, *Gesta Friderici*, p. 96. من الشعر قالما Prodromus على شرف زواج ثيودورا في R.H.C.G. II, P. 772 ؛ لكه يشير إليها قصيدة مرسله لأمها على أنها راحت ضحية "لوحش من الغرب". p 768 *Ibid.*

وفى الوقت ذاته ، وبينما جدد كونراد صداقته مع بيزنطة ، كان لويس يزداد مقتنا للإمبراطور كلما خطر بذهنه ، وغير سياسته وسعى إلى التحالف مع روجر الصقلى . وكان خلافه مع ريموند أمير انطاكية بمثابة تنحية أهم عقبة فى طريق هذا التحالف الذى سوف سيزيد الشحنة مع بيزنطة . وأخيرا غادر لويس فلسطين فى أوائل صيف عام ١١٤٩م فى سفينة قبرصية سرعان ما انضمت إلى أسطول صقلى يبحر فى المياه الشرقية من البحر المتوسط . وكانت الحرب الصقلية ضد بيزنطة ما تزال دائرة ؛ وبينما كان الأسطول يدور حول ييلوبونيز^(١٤) هاجمته سفن البحرية البيزنطية . فسارع الملك لويس باصدار الأوامر برفع العلم الفرنسى على سفينته ، وبهذا سُمح له بمواصلة الانحمار ؛ غير أن سفينة أخرى تحمل الكثير من أتباعه وممتلكاته وقعت فى أيدي البيزنطيين الذين أخذوها إلى القسطنطينية غنيمة حرب . ومرت أشهر كثيرة قبل أن يوافق الامبراطور على إعادة الرجال والمناخ إلى فرنسا^(١٥) .

وهبط لويس إلى البر فى كلابريا فى نهاية يولية ، واستقبله الملك روجر فى بوتنزا . وعلى الفور اقترح الملك الصقلى شن حملة صليبية جديدة يكون هدفها الأول الانتقام من بيزنطة . ووافق لويس ومستشاروه بسهولة ، وواصل رحلته إلى فرنسا وهو ما يفتأ يخبر كل شخص فى طريقه بما لقيه من غدر البيزنطيين وضرورة معاقبتهم . وكان البابا إيوجينوس - الذى قابله لويس فى تيفولى - فاطر الحماس ، غير أن الكثير من أعوان البابوية رحبوا بالمخطط . وبدأ الكاردينال ثيودوين فى البحث عن مبشرين لتشجيعها ، فمنحه بطرس المبحل مؤازرته . وعندما وصل لويس إلى فرنسا حرض الراهب سوجر على الموافقة . والأهم من كل ذلك أن القديس برنارد أصابته الحيرة من تصارييف العناية الإلهية التى قضت مشيئتها بانتهاء حملته العظيمة مثل هذه النهاية المؤسفة ، فقبل متلهفا اعتبار بيزنطة مصدرا لكل ما لحق بالحملة الصليبية من كوارث ، وأطلق طاقاته جميعها فى استنزال الثأر من السماء على الامبراطورية الآتمة . بيد أنه لكى تنجح الحركة لابد لها من الاستعانة بمساعدة الملك كونراد الألماني ؛ وكونراد الألماني لن يتعاون معها ، إذ أنه كان يرى بوضوح شديد أصابع عدوه روجر ، ولم يجد سببا فى التخلي عن تحالفه

(١٤) (المترجم): ييلوبونيز: Peloponnese, Peloponnesus or Peloponncsos شبه جزيرة تكون الجزء الجنوبي من اليونان حاليا.

(١٥) Cinnamus, p.87, letter of Suger (*Sugeri Opera*, ed. de la Marche, pp. 258-60); William of Nangis, I, p. 46. وقد احتجز البيزنطيون السفينة التى تقل الملكة إليزبث لفرقة (John of Salisbury, *Historia Pontificalis*, p. 61)

مع مانويل لكى يزيد روحه قوة على قوة . وجاءته المناشدات من الكاردينال ثيودوين ومن بطرس المبجل ولكن بلا جدوى ؛ وتوسل إليه القديس برنارد نفسه وأطلق الرعود فى وجهه ، بلا طائل كذلك ؛ إذ كانت المرة الأخيرة التى أخذ فيها كونراد بنصيحة القديس هى نصيحة الحملة الصليبية الثانية . ولن يسمح لنفسه بأن يقع فى الفخ مرة أخرى . وبرفض الملك كونراد تقديم المساعدة ، لم يكن هناك مفر من التخلي عن المخطط . وهكذا تأجلت الخيانة العظمى للعالم المسيحى التى نفثها القديس برنارد إلى ما بعد نصف قرن آخر .

١١٤٩م : برتراند التولوزى

ولم يمكث فى الشرق سوى أمير واحد من أمراء الحملة الصليبية الثانية ؛ ولم تكن إقامته هناك من اختياره . ذلك أن برتراند التولوزى ، وهو ابن الكونت ألفونسو من الزنا ، لم يتحمل رؤية ميراث طرابلس الكبير فى حوزة ابن عمه الذى يرتاب فى أنه قاتل أبيه . فلبث فى فلسطين إلى أن غادرها الملك لويس ، ثم سار شمالا برجاله أبناء لانجدوق (فى جنوب فرنسا) كما لو كان ينوى ركوب البحر من ميناء شمالى سوري . وبعد أن عبر السهل الذى يفتح فيه وادى البقاع باتجاه البحر تحول فجأة إلى داخل البلاد واحتل قلعة العريمة ، ومن هناك تحدى الجنود الذين أرسلهم الكونت ريموند من طرابلس لإقتلاعه . وكانت القلعة فى موقع مرتفع جيد كما لو كان وكرا للنسر ؛ إذ أنها تسيطر على الطرق الموصلة من طرابلس إلى طرطوس ومن طرابلس إلى داخل البلاد أعلا البقاع . ولم يجد الكونت ريموند من يتعاطف معه بين الأمراء من رفاقه المسيحيين ، ولذا أرسل إلى دمشق طالبا المساعدة من أوثر الذى استجاب بسرور ودعا نور الدين للانضمام إليه ؛ وبذا أظهر استعدادا للتعاون مع نور الدين ضد المسيحيين دون الإضرار بمحاولته الحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة القدس . وفى واقع الأمر فإنه بذلك يرضى الملكة مليسند بمساعدة زوج أختها . وقد هبط الأميران المسلمان على العريمة التى لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا الحشد الكبير . ونهب المسلمون الظافرون القلعة عن آخرها ثم دمروها تدميرا وتركوها للكونت ريموند ليحتلها مرة أخرى وانسحبوا وفي أثرهم صف طويل من الأسرى . وكان برتراند وأخته من نصيب نور الدين الذى أخذهما إلى حلب حيث أمضيا اثني عشر عاما فى الأسر^(١٦) .

ولقد كانت خاتمة ملائمة للحملة الصليبية الثانية ، أن يقع آخر صليبي فيها أسيرا لدى المسلمين الحلفاء لرفيقة الأمير المسيحي الذي حاول أن يسلبه امارته . وليست هناك مغامرة في العصر الوسيط بدأت بآمال أكثر روعة منها . إذ أن الحملة الصليبية الثانية ، وقد خطط لها البابا ، وبشرت لها وأوحتها فصاحة القديس برنارد الذهبية ، وقادها العاهلان الرئيسيان في أوروبا الغربية ، كانت واعدة بالكثير من أجل مجد وخلاص العالم المسيحي . على أنها عندما وصلت إلى نهايتها المخزية بانسحابها الكثيب من دمشق ، كان كل ما حققته من انجاز هو تنغيص العلاقة بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين حتى كادت أن تصل إلى مرحلة الصدام ، وزرع بذور الريبة بين الصليبيين من الوافدين الجدد والفرنجة المقيمين في الشرق ، والمباعدة بين الأمراء الفرنجة الغربيين عن بعضهم البعض ، والتقريب الأوثق بين المسلمين من بعضهم البعض ، وإلحاق أضرار مهلكة بما اشتهر به الفرنج من الإقدام العسكري . وربما حاول الفرنسيون أن يلحقوا لائمة الإخفاق التام على غيرهم ، على الامبراطور مانويل الخوون ، أو على بارونات فلسطين فاترى الحماس ، وربما راح القديس برنارد يهدر رعوته ضد الأشرار ممن تدخلوا في مشيئة الرب ؛ غير أن الحملة الصليبية في واقع الأمر قد انتهت إلى لا شئ بسبب قادتها ، بضراوتهم وجهلهم وحمقتهم العقيمة.

الباب الرابع:

تصول المدد

الفصل الأول:

الحياه فى الشرق الفرنجى (أوتريميه)

الحياة في الشرق الفرنجي (أوتريمية)

"بَلْ عَمَلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الْأُمَمِ الَّذِينَ هُمْ كُنتُمْ"

(جزئيات ١١ : ١٢)

فشلت الحملة الصليبية الثانية ، فكان فشلها نقطة تحول في قصة الشرق الفرنجي . وكان سقوط الرها بمثابة اكتمال المرحلة الأولى من البعث الإسلامي ، ثم انهارت الحملة العظيمة انهيارا يرثى له ، وهي الحملة التي كان يفترض لها أن تعيد السيادة الفرنجية ، وبذا جاء انهيارها تثبيتا لمكاسب الإسلام.

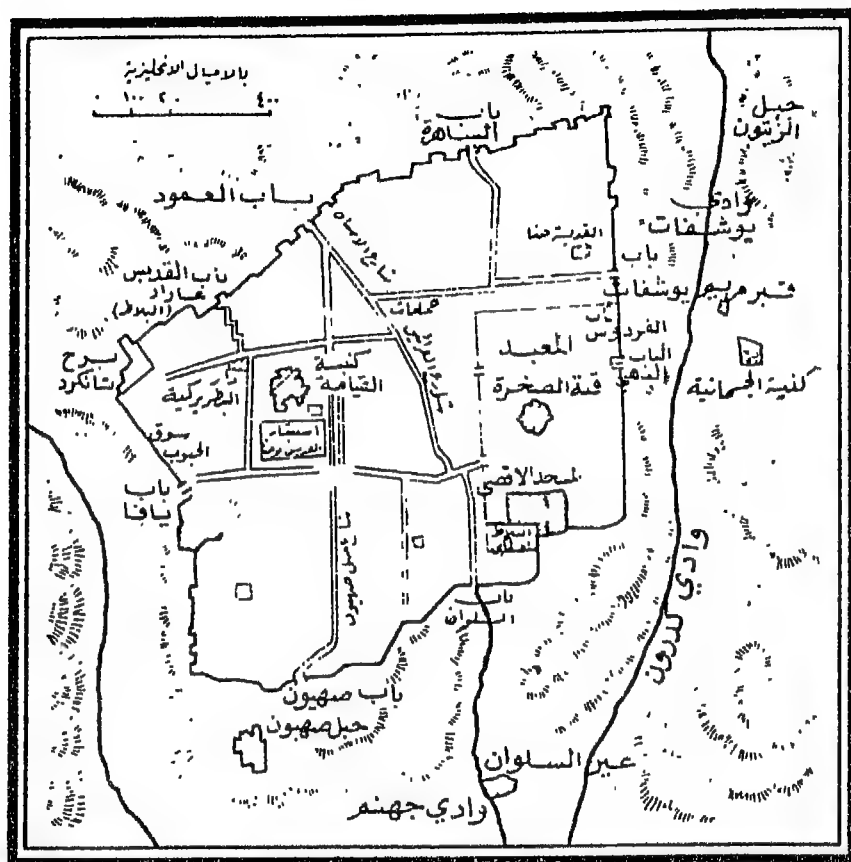
ومن أهم أسباب ذلك الفشل اختلاف العادات والتوقعات بين الفرنج المقيمين في الشرق وأبناء عموماتهم في الغرب . ذلك أن الصليبيين صدموا بعد أن اكتشفوا وجود مجتمع في فلسطين غير أفراد أسلوب حياتهم على مدى جيل واحد. كانوا يتحدثون لهجة فرنسية ، وكانوا أتباعا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، وحكومتهم تتبع التقاليد التي نطلق عليها التقاليد الإقطاعية . على أن هذا التشابه المصطنع لم يكن له من أثر سوى أن زاد من حيرة الوافدين الجدد بسبب تلك الفروق.

ولو كان المستعمرون أكثر عددا لتمكنوا من الاستمرار بأساليبهم الغربية ، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة فى بلد كان مناخه وأسلوب حياته غريبين عنهم . وليس فى الامكان معرفة الأعداد الحقيقة إلا حدسا ؛ لكن يبدو أنه لم يحدث فى أى وقت أن زاد عدد البارونات والفرسان المقيمين إقامة دائمة فى مملكة القدس عن ألف شخص . وأما أقاربهم من غير المقاتلين ، من النساء والمسنين ، فلم يزدوا كثيرا على ألف أخرى . وكانت مواليد الأطفال كثيرة ، لكن القليل منهم بقى على قيد الحياة . وبتعبير آخر ، وبخلاف رجال الدين الذين كان عددهم مئات قليلة ، وفرسان النظامين العسكريين ، لم يكن هناك سوى عدد يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف شخص من البالغين فى الطبقات العليا الفرنجية^(١) . وربما كان مجموع سكان طبقات الفروسية فى إمارة أنطاكية وكورتنتي طرابلس والرها هو نفس العدد^(٢) ، وبقيت تلك الطبقات نقيّة العرق عموما . أما فى الرها وأنطاكية فكانت هناك زيجات مختلطة مع اليونانيين المحليين والأرستقراطية الأرمنية ؛ إذ تزوج كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى - عندما كان كل منهما كونت الرها - من زوجة أرمنية من الطائفة الأرثوذكسية ، وقيل لنا إن بعض نبلائهم قد حذوا حذوهما . وكانت زوجة إبلين الأول وزوجة فاليران أمير البيرة أرمنيتين من أتباع الكنيسة المنفصلة على أنه لم يكن فى الجنوب أرستقراطية مسيحية محلية ، وإنما كان العنصر الشرقى الوحيد يتألف ممن تجرّى فى عروقهم دماء أرمنية فى العائلة المالكة وآل كورتناى ، وفيما بعد ذرية الملكة البيزنطية ماريّا كومينا - سواء الذرية المالكة أو ذرية إبلين^(٣) .

(١) ربما كان فى الجيش العظيم الذى هزم فى حطين ١٢٠٠ فارس ، منهم ٣٠٠ فارس من فرسان المعبد، وربما مثلهم من فرسان المستشفى . وأما البارونات والفرسان العلمانيين فلا يمكن لعددهم أن يزيد على ٧٠٠ شخص ، ومع ذلك اشترك جميع الفرسان فى المعركة . ولم يتخلف فى القدس سوى اثنين فقط . وكان هذا الجيش يشتمل على القليل من الفرسان الآتين من طرابلس أو أنطاكية . وكان عدد معين من الفرسان قد غادر المملكة مع بلدوين (أوف إبلين) أنظر أدناه صفحتى ٤٦٤، ٤٥٤ . وفى تقديرات جون (أوف إبلين) أن الملكة كانت تستطيع فى عهد بلدوين الرابع استدعاء ٥٧٧ فارسا بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، و ٥٠٢٥ ضابطا من ضباط النظام. (Ibelin, pp. 422-7)

(٢) ليس فى الإمكان معرفة أرقام أنطاكية وطرابلس إلا حدسا . وربما لم تكن الرها تشتمل على مايزيد على ١٠٠ أسرة من أسر النبلاء وفرسان الفرج . وربما كانت كورتنتي طرابلس تشتمل على ٢٠٠ أسرة وأنطاكية أكثر بكثير . وفى عام ١١١١م ، يقول Albert of Aix (XI, 40-1, pp. 182-3) إن تل بشير قدمت ١٠٠ فارس والرها ٢٠٠ فارس ، غير أنه لا بد وأن كان الكثير منهم من الأرمن.

(٣) أنظر أدناه ، شجرات الأنساب.



خريطة رقم (٤) بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

أما طبقة "ضباط الصف" فكانت أكثر عدداً ؛ وكان أفرادها أصلاً بمثابة دعامة المشاة الفرنجية كاملة التسليح ، وقد استقروا في أقطاعات اللوردات . ولما كانوا بلا مفاخر أنساب يفاخرون بها ، كانوا يتزوجون من المسيحيات الوطنيات ؛ وبحلول عام ١١٥٠م بدأوا يشكلون طبقة من "المخلطين" التي برزت بالفعل مع المسيحيين الوطنيين . وفي عام ١١٨٠م كان عدد ضباط الصف يقدر بأكثر قليلاً من ٥٠٠٠ شخص ؛ لكننا لا نستطيع أن نعرف النسبة المتبقية ممن تجرّى في عروقهم الدماء الفرنجية الخالصة . وربما كانت طبقة جنود المرتقة "sodeers" تدعى هي الأخرى بأنها من نسل فرنجي . وأما طبقة "أنصاف الأتراك" Turcopoles التي نشأت محلياً وتسلمت وتدرّبت على غرار الفرسان البيزنطيين الخنفاف ، والتي أخذت إسمها منهم ، فكانت تتألف جزئياً من المسيحيين الوطنيين والمتحولين ، وجزئياً من أنصاف الطبقات ، وربما كان هناك فرق بين أنصاف الطبقات المتحدثين لغة آبائهم وبين المتحدثين لغة أمهاتهم . وربما كان "أقطاب الأتراك" ينحدرون من تلك الأخيرة^(٤) .

وكان المستوطنون كلهم تقريباً من أصل فرنسي فيما عدا المدن الكبيرة . وكانت لغة المخاطبة في مملكة القدس وإمارة انطاكية هي اللغة المألوفة لدى الفرنسيين الشماليين والنورمان والتي تدعى Langue d'oeil . وفي كورنثية انطاكية بخلفيتها التولوزية ربما كانت تستخدم بادئ الأمر لغة البروفنسال القديمة Langue d'oc وقد اغتاض الحاج الألماني جون (أوف فورزبرج) ، الذي زار القدس حوالي عام ١١٧٥م ، لعدم وجود أي دور للألمان في المجتمع الفرنجي برغم ادعائه أن جودفري وبلدوين الأول كانا من أصل ألماني . وابتهج عندما عثر أخيراً على منشأة دينية كل العاملين فيها على وجه الحصر من الألمان .

وكانت المدن تشتمل على مستعمرات إيطالية كثيرة . إذ كان البنادقة وأبناء جنوا يمتلكون شوارع في القدس نفسها . وكانت هناك منشآت لأبناء جنوا - مضمونة بمعاهدة - في كل من يافا وعكا والسويدية وانطاكية ، ومنشآت للبنادقة في أكبر تلك المدن . وكان لأبناء بيزا مستعمرات في صور وعكا وطرابلس واللاذقية . وكانت كلها كميونات تدار بالحكم الذاتي ، وكان مواطنوها يتكلمون الإيطالية ولم يختلطوا اجتماعياً بغيرانهم . وكانت هناك على شاكلتها منشآت يملكها أبناء مرسيليا في عكا

(٤) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp 160-2; Munro, *The Kingdom of the Crusaders*, pp.106-7, 120-1.

وبافا وصور وحيل ، ومنشآت بملكها أبناء برشلونة في صور . وباستثناء عكا ، كان عدد الأشخاص في كل من تلك المستعمرات لا يزيد على مئات قليلة^(٥).

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود

كانت الأغلبية الساحقة من السكان تتألف من المسيحيين . وفي مملكة القدس كان هؤلاء المسيحيون من أصل مختلط ، أغلبهم يتحدث العربية ، وقد أطلق عليهم بلا أكثر اسم المسيحيون العرب ، وكلهم تقريبا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفي كونية طرابلس كان بعض السكان أعضاء في الطائفة المونوثليتيية (التي تؤمن بوحدة إرادة المسيح ذي الطبيعتين) والتي تسمى الطائفة المارونية . وفي المناطق الأبعد إلى الشمال كان السكان في أغلبهم من الوحيديطبيين Monophysites^(٦) التابعين للكنيسة يعقوبية ، غير أنه كانت هناك مستعمرات كبيرة جدا للأرمن ، وكل أفرادها تقريبا من أتباع الكنيسة الأرمنية المنفصلة ، وكان في أنطاكية واللاذقية وكيليكيا بمجموعات كبيرة من الأرثوذكس المتحدثين باليونانية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان في الأراضي المقدسة مستعمرات دينية من كل طائفة دينية . وكانت الأديرة أرثوذكسية أساسا وتحدث اليونانية ؛ ووجدت كذلك منشآت جورجية أرثوذكسية ، كما كان في القدس خاصة مستعمرات للوحيديطبيين من الأقباط المصريين والاثيوبيين على السواء ، ومن اليعاقبة السريان ، وجماعات لاتينية قليلة كانت قد استقرت هناك قبل الحملات الصليبية^(٧) . وقد هاجرت جماعات إسلامية كثيرة بعد إنشاء المملكة المسيحية ، على

(٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7, يشير إلى أن الأنشطة التجارية للايطاليين خلال القرن الثاني عشر كانت تركز أساسا على مصر والقسطنطينية. وكانت الموانئ الساحلية السورية أقل بكثير في أهميتها بالنسبة لهم.

(٦) (المترجم): أي القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، بخلاف الطائفة القائلية بوجود طبيعتين له بشرية وإلهية

(٧) ليس هناك سوى أدلة قليلة على وجود مسيحيين وطنيين في فلسطين أثناء القرن الثاني عشر. انظر أدناه الصفحات ٣١٩-٢٣. و Rey, *Les Colonies Franques*, pp.75-94. عن الأقباط والاثيوبيين أنظر Gerulli, *Ethopi in Palestina*, pp 8 ff

أن هناك قرى إسلامية كانت ما تزال موجودة حول نابلس^(٨)، وبقي سكان مقاطعات كثيرة على إسلامهم بعد أن احتلها الفرنج في وقت لاحق . وفي شمال الجليل ، بطول الطريق من بانياس إلى عكا ، كان الفلاحون على وجه الحصر تقريباً مسلمين . وأبعد إلى الشمال ، في البقاع وحبال النصيرية ووادى نهر العاصي، كانت هناك طوائف إسلامية هرطيقية تعترف بالحكم الفرنجي^(٩). وبطول الحدود الجنوبية وما وراء نهر الأردن كانت هناك قبائل رحّل بدوية . وأدت مذابح اليهود والتهديد بها إلى تقليص أعداد اليهود بدرجة كبيرة في فلسطين وسوريا المسيحية . وشعر بنيامين تيودلا بالأسى عندما زار البلاد لضالة عدد مستعمراتهم^(١٠) ، وكان عددهم في دمشق وحدها أكثر من عددهم في كل الدويلات المسيحية^(١١) ، على أنهم في وقت ما خلال القرن الثاني عشر اشتروا احتكار صناعة الصباغة من التاج ؛ وكانت صناعة الزجاج في أيديهم بدرجة كبيرة^(١٢) ، وكان في نابلس طائفة سامرية^(١٣) صغيرة تعيش هناك^(١٤).

وكانت تلك المجتمعات المختلفة تشكل قاعدة الدويلات الفرنجية ؛ ولذا لم يكن الأسياد الفرنج يتسببون في إزعاجهم ، إلا فيما ندر . وحيثما تمكن الرطنيون من إثبات ملكيتهم للأرض كان يسمح لهم بالاحتفاظ بها ؛ غير أن أصحاب الأرض في فلسطين وطرابلس كانوا كلهم تقريباً من المسلمين، باستثناء الأراضي التي تملكها الكنائس المحلية، وقد هاجروا فراراً من الغزو الفرنجي تاركين أراض شاسعة تساعد الحكام الجدد على تثبيت أتباعهم من بنى جلدتهم . وبدا أنه لم تعد هناك قرى حرة باقية مثل تلك

(٨) تسبب المسلمون حول نابلس في امتشاع الخطر للفرنسيج بعد حطين (Abu Shama, p.302) وعن المسلمين في عكا وحولها انظر . Ibn Jubayr, ed. Wright, pp.8 ff.

(٩) أنظر . Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 170 ff. ويشير Burchard of Mt Sion إلى شتى الطوائف الإسلامية في شمال سوريا. (P.P.T.S. vol. XII, p. 18)

(١٠) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, pp. 26-47

(١١) *Ibid.* pp. 47-8.

(١٢) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, p. 35 (dye-monopoly at Jerusalem). *Ibid.* pp.26-47. وصور أنطاكية وصور.

(١٣) (المترجم): نسبة إلى طائفة من اليهود توشك الآن على الانقراض، وترى أنها تتسبب إلى السامرة القديمة، ويسمون أنفسهم بـ إسرائيل (أو الشيميريم) أي "المراعين" لأنهم لا يعتلون كمرجع لهم إلا التوراة محصورة في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم.

(١٤) *Ibid.* pp.33-4 واستادا إلى بنيامين (pp. 32-44) ، كانت هناك ألف أسرة وروحدت غيرها في قيسارية وعسقلان.

التي كانت موجودة في العهود البيزنطية المبكرة . وكان كل مجتمع من مجتمعات القرى مرتبطا بالأرض ويدفع حصة من انتاجها للسيد ؛ غير أن تلك الحصة لم تكن موحدة . ففي الجزء الأكبر من البلد ، حيث كان القرويون يتبعون نظام الزراعة المختلطة البسيط ، ربما كان السيد يتوقع ما يكفي من الإنتاج لإطعام أهل بيته والتابعين له من "المخلطين" وأنصاف الأتراك" الذين كانوا يعيشون في جماعات حول القلعة ؛ إذ لم يكن الفلاح المحلى مناسباً هو نفسه لأن يكون جندياً . وكانت الزراعة تدار في السهول الخصيبة على أساس تجارى بصورة أكبر . فكان السيد يستغل البساتين وحدائق الكروم ، وقبل كل ذلك مزارع قصب السكر ، وربما كان الفلاح يتقاضى ما يزيد قليلاً عن قوته . ولم تكن هناك أعمال عبودية فيما عدا بيت السيد ، رغم أن أسرى المسلمين ربما كانوا يعملون مؤقتاً في أراضي الملك أو أراضي السيد الأعظم . وكان التعامل بين القرويين وسيدهم يجري عن طريق رئيسهم ، وأحياناً كان يسمى بالإسم العربى (الرئيس) وأحياناً بالشكل اللاتينى ريجولوس regulus وكان السيد يستخدم إلى جانبه أحد مواطنيه على أنه الترجمان (dragoman) ، وهو سكرتير يتحدث العربية بإمكانه مسك الدفاتر^(١٥).

إقطاعيات المملكة

على الرغم من التغير الطفيف الذى حدث في حياة الفلاحين ، أعيد تنظيم مملكة القدس تنظيمًا ظاهرياً على غرار الإقطاعيات التي نطلق عليها "إقطاعية". فكان نطاق السلطة الملكية يتألف من المدن الثلاث القدس وعكا و نابلس ، وفيما بعد مدينة دارون الحدودية وما حولها من أراض . وكان نطاقاً يشغل جزءاً كبيراً من المملكة ، إذ أن الملوك الأوائيل ، وخاصة الملكة ملسيند ، دأبوا على الإسراف في إهداء الأراضي لأصدقائهم وللكنيسة وللنظاميين العسكريين الدينيين . وكانت هناك أجزاء أخرى تقطع كباتنة للأرامل من الملكات . وكانت أهم الإقطاعيات الأربع للمملكة هي كورنتية يافا التي كانت تخصص عادة لأحد المتعلمين من البيت الملكي ؛ وإمارة الجليل ، التي تدين بإسمها الفخيم لطموح تنكريد ؛ وإقطاعية صيدا السيادية ؛ وإقطاعية ما وراء الأردن

(١٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades ed de l'Orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7, حيث يرد فيها دراسة نفيسة حول هذه المسألة العويصة.

السيادية . ويبدو أن حائزى تلك الإقطاعيات كان عندهم موظفون كبار تقليدا لما كان عليه الملك . وهذا ما كان يفعله كذلك لورد قيسارية ، الذى كانت إقطاعيته بنفس الأهمية تقريبا ، رغم أن تصنيفها جاء مع الإقطاعيات الإثنى عشرة الثانية . وبعد حكم بلدوين الثانى، كانت حيازة الأرض تقوم على أساس الحق الوراثى بحيث تؤول إلى الإناث فى حالة عدم وجود وريث من الذكور . وليس فى الإمكان إخلاء المستأجر إلا بقرار من المحكمة العليا إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة . غير أنه كان لدينا للملك أو لسيده الأعلى بعدد محدد من الجنود فى حالة طلبهم منه ، ويبدو أنه لم تكن هناك فترة زمنية محددة لخدمتهم . وكان كل من كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل مدينا بمائة فارس كاملى التسليح ، وأما لورد منطقة الأردن فكان مدينا بستين فارسا^(١٦).

وقد اختلفت أحجام الإقطاعيات . فكانت الإقطاعيات العلمانية تتحدد بالغزو وكانت عبارة عن قطع محددة من الأرض . على أن ممتلكات الكنيسة والنظامين العسكريين ، كانت آخذة فى التضخم بسبب الهبات الخيرية ووصايا التورث ، أو ما يتلائم استراتيجيا فى حالة النظامين الدينين العسكريين ، وقد تبعثر تلك الممتلكات فى أنحاء الدويلات الفرنجية . وكانت وحدة القياس التى تقاس بها الأراضى هى القرية ، أو الدار *casal* ، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثها ؛ لكن القرى كانت تختلف فى أحجامها كذلك . وفى شمال الجليل حول صفد ، يبدو أن القرى كانت تشتمل فى المتوسط على مجرد أربعين من السكان الذكور ، لكننا نسمع عن قرى أكبر حول الناصرة ، وقرى أصغر حول صور حيث كان السكان عموما أكثر كثافة مع ذلك^(١٧).

كما كان هناك لسرودات عاديون يتحصلون على إقطاعيات نقدية ، أى كانوا يحصلون من مدن وقرى معينة على إيراد مالى ثابت لقاء التزامهم بتوفير الجنود بأعداد متناسبة . وكانت تلك الإقطاعيات المالية وراثية ويكاد يستحيل أن يلغىها الملك^(١٨)، وإنما كان يأمل - كما هى الحال فى إقطاعيات الأراضى - أن يموت صاحب الإقطاعية المالية دون أن يترك ورثة ، أو على الأقل يترك بنتا ترثه ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يختار لها زوجا أو أن يصير على أن تختار هى زوجا من ثلاثة رجال يرشحهم هو^(١٩).

(١٦) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.138-65; Rey, *op.cit.* pp. 1-56, 109-64.

(١٧) Cahen, *op. cit.* pp. 291-8.

(١٨) La Monte, *op. cit.* pp. 144-51.

(١٩) Grandclaude, 'Liste d'Assises de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*, p 340 إن تاريخ القانون الذى يسمح للورثة باختيار زوج من بين ثلاثة

وكانت المدن الملكية مجبرة على توفير الجنود بحسب ثرواتها . فكان على القلس توفير واحد وستين جنديا ، و نابلس خمسة وسبعين جنديا ، وعكا ثمانين جنديا . على أن الجنود لم يكونوا من الطبقة البورجوازية ، وإنما من النبلاء المقيمين فى المدينة ، أو أصحاب المنازل فيها . وكان رجال الدين البارزون مدينين بالجنود كذلك فى مقابل ضياع الأراضى التى فى حوزتهم أو ملكيتهم للمنازل . أما الطبقة البورجوازية فكانت تدفع للحكومة ضرائب مالية . وكانت الضرائب المنتظمة مفروضة على الموانىء والصادرات ، وعلى المبيعات والمشتريات ، وعلى رسو السفن والحجاج ، وعلى استخدام الموازين والمقاييس . كما كانت ضريبة الأرض *terraticum* مفروضة على ممتلكات الطبقة البورجوازية ، ولا نعرف عنها سوى القليل . وبالإضافة إلى ذلك ، قد تدفع ضريبة خاصة لبعض الحملات . ففى عام ١١٦٦م كان على غير المقاتلين أن يدفعوا عشرة فى المائة من قيمة منقولاتهم ؛ وفى عام ١١٨٣م كانت هناك ضريبة وأسمالية مقدارها واحد فى المائة على الممتلكات والديون يدفعها جميع السكان ، مقترنة بنسبة اثنين فى المائة على إيرادات المنشآت الكنسية وممتلكات البارونات . وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيده إلى جانب ما تدفعه القرية على انتاجها ؛ وكان على الرعايا المسلمين دفع العشر أو الدائم *dime* (أى مبلغ ضئيل) يذهب إلى الكنيسة . ودأبت الهرميات اللاتينية على محاولة تمديد ضريبة الدائم هذه لتطبق على المسيحيين المنتمين إلى كنائس هرطيقية . لكن تلك الهرميات اللاتينية لم تفلح رغم أنها أجبرت الملك أمالريك على رفض عرض من الأمير الأرمينى ثوروس الثانى بارسال مستعمرين إلى المقاطعات الفلسطينية الخالية من السكان لأن رجال الهرمية اللاتينية أصروا على أن يدفع هؤلاء المستعمرون الجدد الدائم^(٢٠) . على أن المسلمين قد وجدوا فى هذا الدائم مستوى ضريبى عام أقل فى ظل الحكم الفرنجى عن مستواه فى ظل الحكام المسلمين المجاورين . كما أنهم - أى المسلمين - لم يُستبعدوا من الالتحاق بالوظائف الحكومية البسيطة ، إذ كان بإمكانهم - والمسيحيين كذلك - الالتحاق بوظائف مسؤولى الجمارك ومحصلى الضرائب^(٢١) .

يرشحهم الملك يرجع الى ما بعد عام ١١٧٧م . غير أن بلدوين الثالث عرض على كونستانس فى أنطاكية الاختيار من بين ثلاثة خطاب فى عام ١١٥٠م . ومع ذلك لا يستطيع الملك إجبارها على قبول أى منهم (انظر أدناه صفحة ٢٣١).

(٢٠) Cahen, *op. cit.* pp. 299-302. وأورد Ernoul, pp. 27-30 عرض ثوروس.

(٢١) Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 305.

الدستور

من المحال أن نذكر شيئا دقيقا عن دستور الدويلات الفرنجية لأنه لم يكن هناك دستور ثابت فى أى وقت . وعندما قدم القانونيون المتأخرون ما جمعه من مثل "كتاب للملك Livre au Roi" أو "قوانين القدس Assisses de Jerusalem"، إنما كانوا يحاولون اكتشاف المجالات التى تسببت فيها القرارات المحددة فى تغيير العادات المقبولة ، وليس وضع قانون حكومى راسخ . وكانت هناك اختلافات محلية . إذ لم يكن أمير انطاكية أو كونت الرها أو كونت طرابلس يصادف مشاكل من الأتباع سوى القليل . بينما كان ملك القدس فى وضع أضعف . فهو ممسوح الرب ، وزعيم الفرنج المقبول فى الشرق ، لا غريم له ، بعد أن وضع بلدوين حدا لطموحات البطريارقية . على أنه فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أميرا أنطاكية وطرابلس توريت سلطانهما بقواعد الاستخلاف الوراثى المقبولة ، كانت الملكية انتخابية ، وإن كان الشعور العام ربما يؤيد الحق الوراثى . وفى عام ١١٧٤م كان بلدوين الرابع مقبولا دون منازع ليخلف أباه، رغم أنه كان فى الثالثة عشرة فقط من عمره فضلا عن إصابته بالجذام . على أن تثبيت الملك بالانتخاب كان ضروريا . وكان الناصبون أحيانا يضعون شروطهم ، كما حدث عندما أجبر أمالريك الأول على تطليق زوجته آجنس قبل أن يسمحوا له بتتويجه . وعندما يكون الوريث الطبيعى امرأة تكون هناك تعقيدات أخرى ؛ إذ يتعين انتخاب زوجها كملك ؛ غير أن هذا الملك الزوج ربما اعتبر أنه يستمد حقوقه من خلاطها . وفى حالة الملكة ملسيند وابنها بلدوين الثالث ، لم يكن هناك أحد يعلم جيدا ما يكون عليه الوضع القانونى ؛ واتضحت المشكلة الدستورية برمتها بصورة فاجعة بعد موت بلدوين الخامس عام ١١٨٦م^(٢٢).

المحكمة العليا

كان الملك هو قمة الهرم الاجتماعى ، لكنها قمة منخفضة . فباعتباره ممسوح الرب ، كانت له مكانة ما ، ومن ثم فالإساءة إليه خيانة عظيمة . وهو رئيس المحكمة العليا، والقائد الأعلى لقوات المملكة ، وهو المسؤول عن الإدارة المركزية ويعين المسؤولين فيها . وباعتباره السيد الأعلى لأتباعه ، يستطيع منعهم من التصرف فى

(٢٢) فى أماكن متفرقة من 87-137 pp. La Monte, op. cit. واطر أعلاه ص ٢٧١ وأدناه ص ٣٨٦ ، ٥٠٢ .

أراضيهم ، وبماكانه احتيار الأرواح للورثيات . ولأنه ليس له سيد أعلى فوقه ، يستطيع أن يهب الهبات كما يعلو له من ممتلكاته الخاصة ، رغم .ه عادة ما كان يُشرك زوجته وأولاده فى منح الهبة - كما كان يفعل نملأوه عما يتصرفون فى أراضيهم - خوفاً من أن تثار لاحقاً بعض الشكاوى حول مائة الأرملة أو ميراث الإرس . غير أن السلطة الملكية كانت تنتهى عند هذا الحد . وكانت الإيرادات الملكية مقبذة وتناقص سبب ما يهبه من هبات سخية . ولقد كان الملك دائماً فى حاجة إلى المال . وكان على رأس المملكة ، لكنه تحت قانون المملكة الذى كانت المحكمة العليا تُنشئ . وتُنفذ المحكمة العليا من كبار مستأجرى الأرض فى المملكة ، وهم اللوردات الذين يديسون بالولاء المباشر للتاج . وكان أبرز رجال الدين يحضرون بمصل حبارتهم للأراضي . أما المجتمعات الأجنبية التى تمتلك الأراضي فى المملكة ، مثل الساذقة وأساء جوا ، فكانوا يرسلون ممثلين عنهم . ومن الحائز دعوة كبار الراترين للحضور ، رغم انهم لا يمثون جزءاً من المحكمة ولا يحق لهم التصويت^(٢٣) .

والمحكمة العليا هى أساساً محكمة قانونية ، ومن ثم كان لها وفيفتان رئيسيتان . الأولى أن توضح الجواب القانونى المتصل بقضية معينة . ومعنى ذلك أنها كانت تصدر تشريعات ؛ إذ كانت كل قاعدة assise من الناحية النظرية مجرد بيان للقانون ، لكنها كانت فى الواقع تحديدًا لقانون جديد كذلك . وثانياً ، كانت تُحاكم المذنبين من أعضائها وتنظر فى القضايا التى قد يرفعها بعضهم ضد بعض . وكانت المحكمة عن طريق الأنداد ملمحاً أساسياً فى التقاليد الفرثية ؛ وكان مركز الملك هو الأول بين الأنداد primus inter pares من كبار مستأجرى الأرض ، رئيسهم وليس سيدهم . والنظرية التى تؤسس ذلك الوضع هى أن المملكة لم يقهرها ملك ، وإنما مجموعة من الأنداد الذين انتخبوا ملكهم بعد ذلك . وهى النظرية التى تبرر للمحكمة أن تنتخب ملوكاً على التعاقب ، وفى الحالة التى يكون الملك فيها دون سن الرشد أو فى حالة وقوعه فى الأسر ، تنتخب المحكمة وصياً أو مشرفاً ملكياً bailli كما كانت المحكمة العليا تستشار فى أهم المسائل السياسية ، وكان ذلك تطوراً محتماً ، إذ لا يستطيع الملك بدون تعاون أتباعه تنفيذ سياسته إلا نادراً . وفى عام ١١٦٦م توسعت المحكمة العليا لتشمل أتباع الأتباع arrière-vassals ، كجزء من مخطط أماليك الأول كى يحد مساندة للتاج ضد أتباعه الرئيسيين . وفى عام ١١٦٢م أجبر المحكمة على إصدار

قاعدة assie تسمح لأتباع الأتباع بالاستئناف ضد أسيادهم أمام المحكمة العليا . وفى حالة رفض السيد الاستجابة للاستدعاء ، يستطيع كبار مستأجره أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف التاج . ورغم أن هذا القانون قد زود الملك بسلح نافع ضد نبلائه ، إلا أنه على المدى البعيد زاد من سلطة المحكمة العليا لا أكثر ، بل وأمكن استخدامه ضد الملك . ويبدو أن المحكمة كانت تنظر فى القضايا بعناية وبما يملية الضمير ، ورغم ذلك كانت نتيجة المحاكمة عن طريق النزال مقبولة كدليل . ولم يكن لها مكان انعقاد محدد ، وإنما يستطيع الملك استدعائها فى أى مكان يراه ملائما . وفى عهد المملكة الأولى عادة ما كانت تعقد فى القدس أو عكسا . وبدأ النبلاء المتلففون على حضورها ، يهملون اقتطاعاتهم ويتخذون لأنفسهم أماكن للإقامة فى أى من المدينتين^(٢٤) . غير أن قوتهم كهيئة جماعية ضعفت بمشاجراتهم المتكررة والضغائن العائلية التى تضخمت وتعمدت بمرور الزمن ، وكانت أسر النبلاء كلها تقريبا مرتبطة بعلاقات زواج فيما بينها .

ويعتضى مبدأ المحاكمة عن طريق الأنداد ، كان للمستوطنين الفرنج من غير النبلاء محاكمهم البورجوازية الخاصة بهم cours des bourgeois . وكانت تلك المحاكم البورجوازية موجودة فى كل مدينة كبيرة ، ويرأسها دائما فيكونت المدينة Viscount ولكل محكمة هيئة محلفين من اثنى عشر محلفا يختارهم السيد من رعاياه اللاتينيين المولودين أحرارا ، وكانوا يعملون عمل القضاة ، رغم استطاعة أحد أطراف الخصومة اختيار احدهم ليكون محاميه ، وفى هذه الحالة لا يشترك هذا المحامى المحلف فى إصدار الحكم . كما كان يُطلب من المحلفين أن يشهدوا على أى عمل أو وثيقة فى المحكمة . وعلى خلاف الممارسة فى المحكمة العليا ، كانت هناك سجلات دقيقة لكافة الإجراءات القانونية . وكانت المحاكم البورجوازية تجتمع بصفة منتظمة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع ، فيما عدا أيام الأعياد . وكانت تنظر فى الدعوى المرفوعة بين أحد النبلاء وأحد البورجوازيين . وكانت المحكمة البورجوازية تقرر التحاكم بالنزال والتحاكم بالماء^(٢٥) .

وبادئ الأمر كان للمجتمعات الوطنية محاكمها الخاصة بها فى القضايا البسيطة برئاسة الزعيم المحلى الذى يعينه الفيكونت ، حيث تطبق قوانينها العرفية . غير انه فى

(٢٤) Ibid pp 106-13 ويذكر Usama أمثلة لمحاكمات عن طريق النزال العردي . الماء (ed. Hitti, pp.167-9)

(٢٥) La Monte po. cit. pp 105-8

عهد الملك امالريك الأول أنشئت محكمة الدعوى Cour de la Fonde فى كل مدينة من المدن الثلاث والثلاثين التجارية الرئيسية . وكانت تنظر فى الشؤون التجارية وكافة الدعاوى الأخرى ، حتى الجنائية ، التى يتنازع فيها السكان الوطنيون . وكان يرأسها مشرف ملكى bailli ، يعينه السيد المحلى ، وتتألف من ستة محلفين اثنان من الفرنج وأربعة من الوطنيين . وكان المتخاصمون الوطنيون يقسمون القسم كل على كتابه المقدس ؛ ويستطيع المسلمون أن يقسموا على القرآن ؛ وقد أعجب الزائرون المسلمون بنزاهة الاجراءات القانونية . كما كانت محكمة الدعوى تسجل المبيعات والهبات من كافة الممتلكات فيما عدا العقارات وكانت بمثابة مكتب لجمع ضرائب المشتريات . وفى الامكان الاستئناف لدى المحكمة البروجوازية بنفس اجراءاتها . كما أنشأ أمالريك محكمة السلسلة Cour de la Chaine فى جميع المدن البحرية ، للنظر فى القضايا المتعلقة بالملاحة ولكى تكون بمثابة مكان لتسجيل الرسوم الجمركية ورسوم رسو السفن . وكان محلفوها يختارون من التجار والبحارة . وبالإضافة إلى ذلك كان للمجتمعات التجارية الإيطالية والبروفنسالية محاكمها الاستشارية الخاصة بها للنظر فى شؤونها الداخلية . وكان لكبار الاقطاعيين محاكمهم الخاصة بهم "محكمة البارونات" لتتاول النزاعات التى تنشأ بين أتباعهم من الفرسان . وكان هناك اثنان وعشرون محكمة من تلك المحاكم وكذلك أربع محاكم لأملاك الملك . وكان لكل محكمة من تلك المحاكم الكثيرة مجالها المحدد بوضوح ؛ وحيثما تكون هناك دعوى تشتمل على خصمين من مرتبتين مختلفتين، كانت الدعوى تنظر فى المحكمة الملزمة لأدناهما^(٢٦).

وبسبب مفهوم القانون فى العصور الوسطى الذى لم يكن يتطلب قوانين محددة ، إلا عندما تنشأ الحاجة إلى تحديد نقطة بعينها ، يبدو أن النشاط التشريعى للحكومة كان متعسفا ذا نزوات . ومن بين القوانين الواردة فى القرن الثالث عشر فى قواعد القدس Assise de Jérusalem ، الأرجح أن ستة قوانين يرجع تاريخها إلى عهد الدوق جودفرى ، وتسعة عشر قانونا آخرين من الفترة حتى عام ١١٨٧ م ، ومنها أحد عشر قانونا يمكن تحديد تواريخها بالتقريب^(٢٧).

(٢٦) pp.108-9Ibid

(٢٧) Grandclaude, op.cit. pp.322 ff., يورد قائمة بالقواعد التى يمكن إرجاعها إلى الفترة ١٠٩٩-١١٨٧ م. ويحدد ستة قواعد لعهد جودفرى وإحدى عشرة قاعدة للملك من بلدين الأول إلى بلدين الرابع (رغم أنه يظن أن إحدى تلك القواعد التى تقضى ببيع الاقطاعيات التى لا ورثة لها لدفع فدية الملك يرجع تاريخها إلى ما بعد وقوع Guy فى الأسر فى حطين . ومع ذلك ، ربما تشير إلى أسر بلدين الثانى). كما توجد ست قواعد يتعذر

الإدارة

كان المسؤولون الرئيسيون في الأسر الكبيرة يشارون الإدارة بعد أن يختارهم من كبار مستأجرى الأرض في المملكة. وكان للقهرمان Seneshal الترتيب الأول في الأسبقية فهو الذي يرأس الاحتفالات ، ومن ثم يحمل الصولجان أمام الملك في حفل التتويج ، وهو رئيس الخدمة المدنية ، والمسؤول بصورة خاصة عن الخزانة (الأمانة Secrète) وهو الذي يشغل المركز الذي تدفع فيه الأموال المستحقة للتاج ، وتتخذ منه الرواتب ، وهو الذي يحتفظ بسجلات لكافة التعاملات المالية التي تشترك فيها الحكومة. وكانت الأمانة Secrète عبارة عن مكتب واسع التنظيم أخذته الفرنج عن العرب الذين سبق أن أخذوه بدورهم عن البيزنطيين . ويأتى بعد القهرمان الياور أو الكورنستابل Constable الذى كان ذا سلطة فعلية أقوى ، إذ كان رئيس الجيش - تحت الملك - والمسؤول عن كافة جوانب تنظيمه وإدارته . وفى حفل التتويج يحمل راية الملك ويمسك بلجام حصانه، وهما مهمتان زائدتان على مسؤولياته . وكان مسؤولا عن الإمدادات العسكرية والعدالة العسكرية . وكان المرتزقة الذين يستأجرهم الملك أو أحد النبلاء يخضعون لنطاق سلطته الخاصة ، ويستثنى من تسلمهم لرواتبهم على النحو الملائم . وفى حالة غياب الملك أو نائبه الملكى bailli عن الحملة تكون له كامل السيطرة عليها . وكان يساعده المارشال الذى كان بمثابة القائم مقامه فى كل شئ . وكان حاجب الملك Chamberlain مسؤولا عن أسرة الملك وأمواله الشخصية . وكان يتنفع بمركزه هذا، بالهدايا التي يغدقها عليه الأتباع الآتين للإعراب عن احتراماتهم للملك . وكانت هناك أراض معينة مخصصة لهذا المكتب ؛ على انه فى عام ١١٧٩م باعها حاجب الملك جون (أوف بيليزم) دون أن تكون هناك إساءة فاهرة للملك . أما مهام كبير الخدم Butler فليست معروفة ، وربما كانت واجباته تقتصر على الاحتفالات . وكان المستشار Chancellor - كشأنه فى الغرب - رجل دين دائما، رغم أنه لم يكن قسيس الملك على نحو ما اعتاد عليه الغرب . وباعتباره رئيسا للديوان الملكى كانت مهمته صياغة كافة المواثيق وتسجيلها وختمها بالخاتم الملكى . وظل الديوان الملكى مكتب سجلات . ولما لم تكن هناك عدالة ملكية ولا قانون عام ، فلم يُطلب منه البتة أن يصدر أوامر رسمية أو أن ينشئ محكمة خاصة به ، ويدو أن السجلات كانت محفوظة جيدا برغم بقاء القليل منها . وكانت لغة الديوان الملكى فى القرن الثانى عشر

هى اللاتينية ، وتعدد التاريخ بالسنة الميلادية والخمسة عشرية الرومانية^(٢٨)، وأحيانا إضافة السنة الملكية أو عدد السنوات المنصرمة منذ الاستيلاء على القدس. وتبدأ السنة فى عيد الميلاد. وكان الملوك يضعون لأنفسهم أرقاما ابتداء من بلدوين الأول بغض النظر عن أسمائهم . ولم يكن لقب الملك يأخذ صيغة محددة بادئ الأمر ، لكنه أصبح فى نهاية الأمر لقباً معيارياً^(٢٩) "ملك القدس اللاتينية المدنية المقدسة بفضل الرب" (per Dei gratiam in sancta civitate Jerusalem Latinorum Rex).

وكان الفكر كونه أهم المسؤولين المحليين ، إذ كان يمثل الملك فى المدن الملكية، وهو اللورد فى المدن البارونية . وكان يجمع الضرائب المحلية ويرسلها إلى الخزانة بعد أن يستبقى حاجته من مصروفات الحكومة المحلية، وكان مسؤولاً عن المحاكم القانونية المحلية وعن حفظ النظام عموماً فى مدينته . ويأتى اختياره من أسرة نبيلة لكن مركزه لم يكن وراثياً . وكان الذى يليه فى القيادة ما يعرف باللقب العربى المحتسب Mathesep، وأحيانا رئيس ضباط النظام Master-Sergeant ، الذى كان مسؤولاً أصلاً عن لوائح التسويق^(٣٠).

الدويلات التابعة

نادى ملك القدس بالسيادة على كل الدويلات الفرنجية فى الشرق ، واعتبر أن من حقه مطالبة حكامها بتسيير الجنود للانضمام إليه فى حملاته . وواقع الأمر أن تلك السيادة لم تكن موجودة إلا عندما يكون الملك قوياً بما يكفى لفرضها ، بل لم تكن أنطاكية ولا طرابلس من الناحية النظرية تعتبر جزءاً من المملكة . وقد تمكن الملوك الأوائل من فرض السيادة الشخصية على طرابلس . وقدم الكونت برتراند فروس الولاء لبلدوين الأول عام ١١٠٩م لما منحه من الأراضى . وسعى الكونت بونز إلى إنكار تبعيته لبلدوين الثانى عام ١١٢٢م لكن محكمته العليا هى التى أجبرته على الخضوع ، وفى عام ١١٣١م رفض السماح للملك فولك المروى فى أراضيه ، لكن الملك عاقبه وأجبره على الخضوع مرة أخرى . وفى الفترة من عام ١١٦٤م إلى ١١٧١م كان الملك

(٢٨) (المترجم) الخمسة عشرية الرومانية Roman Indiction : دورة زمنية من ١٥ سنة أسسها الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ باعتبارها فترة ضريبة.

(٢٩) La Monte, *op.cit.* pp. 114-37، حيث يرد أفضل مرجع لوظائف مسؤولى الدولة.

(٣٠) *Ibid.* pp. 135-6, 167-8.

أما اليريك وصيا على طرابلس للكونت الطفل ريموند الثالث ، غير أن ذلك لكونه أقرب الأقرباء الذكور للصبي وليس كسيده الأعلى. وعندما شب ريموند الثالث عن الطوق لم يعترف قط بالسيادة للملك رغم أنه كان تابعا للملك فيما يتصل بإمارة الجليل التي تملكها زوجته . وأثناء حملة عام ١١٨٧م التي اشترك فيها كامير للجليل ، أعلنت كونتية طرابلس التابعة له عن حيادها . وأما علاقة القدس بكونتية الرها ، فكانت الرابطة الشخصية هي التي تربط الملكين ؛ فعندما عين بلدوين الأول بلدوين الثاني ليخلفه في الرها ، أخذ منه قسم التبعية ، وحذا بلدوين الثاني حذوه مع جوسلين (أوف كورتناي) . على أن جوسلين اعترف في أواخر أيامه بأمر انطاكية سيده الأعلى له . وكانت انطاكية في وضع مختلف ، إذ أن بوهمند لم يعترف بأى سيد أعلى له ، وهذا ما لم يفعله الوصيان تنكريد وروجر اللذان عينتهما كلاهما المحكمة العليا في الإمارة. وكان بلدوين الثاني يقوم بأعمال الرضى على الأمير الصغير بوهمند الثاني من عام ١١١٩م إلى عام ١١٢٦م ، بيد أنه يبدو أن ذلك كان بناء على دعوة من المحكمة العليا وليس بالحق القانوني . ودعى مرة أخرى عام ١١٣١م لسبب آخر زائد وهو كونه جد الأميرة كونستانس الصغيرة ، التي بدا للمحكمة أن مصالحها معرضة للخطر بسبب أمها أليس . وبعد موته ، وعندما حاولت أليس مرة أخرى الاستيلاء على السلطة ، دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتسلم الرضاية بدلا منه . ومرة أخرى كان الملك هو أقرب الأقرباء الذكور للأميرة باعتباره زوج خالتها . ولو كان في الشرق آنذاك أحد أفراد آل هوتفيل الذكور لكان هو المختار كوصي . وبالمثل ، عندما اختار الملك زوجها للأميرة كان يتصرف بناء على طلب المحكمة العليا وليس كسيد أعلى . وكان بلدوين الثاني قد طلب من ملك فرنسا اختيار زوج لوريثته ملسيند دون أى افتراض بأنه قبل السيادة الفرنسية . وعندما حان الوقت كى تختار كونستانس زوجها ثانيا ، اختارته بمحض اختيارها كأمر ذات سيادة . وإذا كانت قد طلبت الإذن من الملك بلدوين الثالث ، فذلك لأن زوجها الذى اختارته كان تابعا للملك . وفى عام ١١٦٠م دعا الأنطاكيون الملك بلدوين الثاني كى يتولى الرضاية ؛ ومرة أخرى لأن الملك كان أقرب الأقرباء الذكور لأميرهم . إن الوضع القانوني لم يتضح بجلاء قط . وربما كان أمير انطاكية يعتبر ملك القدس أعلى منه مكانة ولكن ليس سيده الأعلى^(٣١).

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp.187-202. وانظر أيضا 436pp - Cahen, *La Syrie du Nord*.
7. ومع ذلك كان بوهمند الثاني تابعا لأمالريك بسبب الإنطاكية النقدية التي كان يتقاضاها
فى عكا.

وكانت أنطاكية هي الأخرى متميزة عن طرابلس والرها في نظام حكماتها . ولا نعرف عن الرها سوى القليل ، وقد ضاعت الموثائق التي ربما يكون الكونت قد أصدرها . ويفترض أن كان له بلاط من أتباعه كأي لورد إقطاعي عظيم ؛ غير أن مرضع الكونتية كأول المخافر الأمامية للعالم المسيحي حال دون أي تطور دستوري . فكانت معيشة أميرها شديدة الشبه بحياة أحد الأمراء الأتراك ممن كانوا يحيطون به ، وكان المستعمرون الفرنج قليلين ، وكذلك كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة . وكان الكونت يعتمد بدرجة كبيرة على المسؤولين الأرمن المدربين على النمط البيزنطي ، وقد اضطرت الحروب شبه الدائمة إلى أن يحكم حكما فرديا مطلقا بصورة أكبر مما لو كان الحال عليه في أراض هادئة . ويسدو أن دستور كونتية طرابلس كان مماثلا لدستور القدس . وكان للكونت حكمته العليا التي تقيده بأحكامها . بيد أن لقبه كان وراثيا وليس اختياريا ، وكانت أملاكه الشخصية أكثر بكثير من أملاك أي من أتباعه . وباستثناء أمر أو أمرين من أمور السياسة الجسام ، لم يكن الكونت يصادف متاعب من بارونات سوى القليل ، إذ كان البارونات منحدرين من الأتباع التولوزيين لأسلافه ، فيما عدا لوردات جبيل من أبناء جنوا . وكان لأهم مسؤولي البلاط نفس القاب ووظائف مسؤولي بلاط القدس . وبالمثل كان الفيكونت يدير مدن الإمارة^(٣٢).

إمارة أنطاكية

كانت المؤسسات في إمارة أنطاكية تماثل في ظاهرها مثيلاتها في مملكة القدس . فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة بورجوازية ونفس المسؤولين الكبار . وكان لأنطاكية قوانينها الخاصة بها Assises ، غير أن مغزاها العام كان متسقا مع مغزى قوانين القدس . ومع ذلك ، كانت هناك فروق كثيرة مستترة تحت السطح ؛ فكان لقب الأمير وراثيا ، ولم تكن المحكمة العليا تتدخل إلا لتعين وصى إذا دعت الحاجة ، وكان الأمير يسيطر منذ البداية في أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيها ، وكان ضنينا في منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية ، وإنما كانت الإقطاعيات النقدية تناسبه بصورة أفضل . ويبدو أن القضاة المعينين من قبل الأمير يقتصرون على المحكمة العليا ، وأن ممثليه الخصوصيين يسيطرون على المحاكم البورجوازية . أما إدارة المدن والأملاك الأميرية ، فقد تبنى الأمير النظام البيزنطي بما له من بيروقراطية مقتدرة ووسائل معتنية في

La Monte, *op. cit.*, *loc. cit.*; Richard, *Le Comté de Tripoli*, pp. 30-43. (٣٢)

جمع الضرائب . وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وجبله دوقها الذى كان مسؤولا مسؤولية كاملة عن البلدية . والأمير هو الذى يعينه أو يفصله كما يحلو له ، لكنه أثناء فترة توليه لمنصبه يبدو انه كان عضوا من أعضاء المحكمة العليا . ودائما ما كان دوق اللاذقية ودوق جبلة يعينون من بين السكان الوطنيين ، أما دوق أنطاكية فكان ذا مولد فرنجى نبيل ، وانما يساعده فيكونت قد يكون وطنيا . وقد عزز أمراء أنطاكية أنفسهم - كشأن أبناء عموماتهم فى صقلية - إزاء طبقة النبلاء باستغلالهم للمسؤولين المولودين محليا والذين كانوا يعتمدون كلية على ما كان الأمراء يولونهم من معروف . وقد وجدوا فى انطاكية مجتمعا محليا متعلما من أصل يوناني وسيرباني وأرميني، باقيا منذ العصور البيزنطية . وكانت هناك رقابة زائدة على المحكمة العليا من خلال تعيين القضاة للبت فى المسائل القانونية الخالصة كما هو الحال فى المحاكم البورجوازية . وقد ورث الأمراء ما كانت تتبعه بيزنطة من نظام تقييم الضرائب وجمعها، وكان لخزانتها *Secrète* بيروقراطيتها الخاصة بها ، ولا تعتمد فى إيراداتها على المحاكم المحلية كما هو الحال فى القدس . وكانوا يوجهون السياسة بقليل من الاعتبار للمحكمة العليا ، ويرمون معاهداتهم الخاصة بهم مع القوى الأجنبية . وكان تنظيم الامارة كله مرتبطا ببعضه البعض بصورة أوثق وأكفا مما كان عليه فى الدويلات الفرنجية الأخرى . ولولا الحروب الدائمة فى انطاكية ، وضآلة شأن الأمراء أو وقوعهم فى الأسر واستبدال أسرة حاكمة نورماندية بأخرى فرنسية ، لتطورت حكومة انطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية^(٣٣).

السيادة الامبراطورية

وزادت أهمية أنطاكية الفريدة بعلاقتها الخاصة مع الامبراطور البيزنطى . إذ كان الامبراطور ، وفقا للنظرية البيزنطية ، رئيسا للكومنوليث المسيحى . ورغم أنه لم يحاول قط ادعاء السيادة على عواهل الغرب ، كان يعتبر العالم المسيحى الشرقى مجاله الخاص به . ذلك أن المسيحيين الأرثوذكس فى ظل الخلافة الاسلامية كانوا تحت حمايته ، وكان المسلمون يعترفون بالتزاماته إزاءهم ، ولم تكن لديه أية نية فى التخلّى عن واجباته بسبب الغزو الفرنجى . على انه كان هناك فرق بين انطاكية والرها من ناحية وبين القدس وطرابلس من الناحية الأخرى . فلم يكن البلدان الأخيران يشكلان جزءا

(٣٣) Cahen, *op. cit.* pp.435 ff. حيث يرد مقال كامل عن الدستور الأنطاكي وتطوره.

من الامبراطورية منذ القرن السابع ، على خلاف البلدين الأولين اللذين كانا مقاطعتين امبراطوريتين أثناء حياة الامبراطور الكسيوس الأول . وعندما كان الكسيوس يحث زعماء الحملة الصليبية الأولى على الاعتراف بسيادته ، كان يفرق بين الأراضى الامبراطورية السابقة التى كان يتعين إعادتها إليه كأنتاكية ، وبين الغزوات الأخرى التى لم يكن يدعى سوى سيادة غير محددة عليها . وفشل الصليبيون فى احترام ما أقسموا عليه ، ولم يستطع الكسيوس إرغامهم على ذلك . بيد أن السياسة البيزنطية كانت دائما واقعية ؛ إذ أن الكسيوس عدّل من طلباته بعد انتصاره على بوهمند بالسماح للنورماندين - فى معاهدة ديفول - بحكم أنطاكية وأما كأنباع له بصورة صارمة ، وطلب ضمانات معينة مثل تنصيب بطريق يونانى . وكانت تلك المعاهدة بمثابة حجر الأساس للمطالب البيزنطية ، لكن الفرنج تجاهلوها . ويبدو أن الرأى العام الفرنجى كان يرى أن بوهمند قد تصرف تصرفا سيئا إزاء الامبراطور ، لكن الامبراطور ضيع قضيته بعدم ظهوره شخصيا . ومع ذلك ، كانت حقوق الامبراطور تتأكد عند ظهوره شخصيا ، وتعبير آخر ، وبالحكم من نصيحة الملك فولك عام ١١٣٧م ، فإن مطالبته بالسيادة تصبح مقبولة كمطلب معقول من الناحية القضائية عندما يكون فى وضع يمكنه من فرض مطالبته ، وإن اختار ألا يفعل ذلك ، ففى الامكان غض النظر عنها . وكانت هناك مناسبات أخرى قليلة عومل فيها الامبراطور كسيد أعلى ، مثلا عندما طلبت الأميرة كونستانس من الامبراطور مانويل اختيار زوج لها ؛ على أنها لما وجدت اختياره لا يسرها تجاهلته . وهكذا كانت السيادة الامبراطورية متقطعة خفيفة فى ثقلها ، غير أن أمراء انطاكية ومحاميهم كانوا يشعرون بالقلق إزاءها ؛ وبقيت بمثابة تقييد كامن لاستقلال سيادة الأمير .

وقد اعترف كونت الرها بالسيادة الامبراطورية عام ١١٣٧م ؛ لكن الرها كانت بعيدة عن الحدود الامبراطورية ، وكانت المسألة أقل إلحاحا . ووافق الرأى العام الفرنجى على أن تبيع كونتييسة الرها عام ١١٥٠م ما تبقى من اراض فى الرها للامبراطور ؛ على انه من الواضح أن ذلك قد حدث لتعذر الدفاع عن تلك الأراضى ضد المسلمي . وكان ريموند التولوزى على استعداد للاعتراف بسيادة الامبراطور ، وفى عام ١١٠٩م قدم ابنه برتراند فروض الولاء للامبراطور الكسيوس عن كونتييته المقبلة . وكرر ريموند الثانى هذا الولاء للامبراطور جون عام ١١٣٧م . ورغم أن ريموند الثالث هاجم بيزنطة عام ١١٥١م ، إلا أنه تلقى مساعدة من البيزنطيين عام ١١٦٣م ، وربما كانت لفته من مانويل لإظهار سيادته العليا . بيد أن هذا الولاء ربما كان قاصرا على طرطوس وجيرانها

التي كانت تنتمي من الناحية التقليدية لأراضي أنطاكية كجزء من "موضوع" اللاذقية. أما العلاقات الشرعية بين بيزنطة ومملكة القدس فكانت ما تزال أقل دقة . إذ أن بلدوين الثالث قدم فروض الولاء للإمبراطور مانويل في أنطاكية عام ١١٥٨م ؛ وفي عام ١١٧١م قام أمالريك بزيارة القسطنطينية كنائب - وان عومل كنائب رفيع المستوى. وكان كل من بلدوين وأماليك يعتبر الصداقة البيزنطية جانباً أساسياً في سياستهما ، ومن ثم كانا على استعداد لمنح بعض التنازلات . ورغم ذلك ، يبدو أن محاميهما لم ينظروا إلى هذه التبعية بأكثر من كونها تبعية نفعية مؤقتة^(٣٤).

التنظيم الكنسي

إذا كان هناك سيد أعلى للملك القدس فهو البابا . إذ كانت الحملة الصليبية الأولى تتوقع قيام دولة دينية ثيوقراطية في فلسطين ؛ ولو عاش البطريق أديمار (أوف لو بوى) لربما أمكن تطوير شيء من مثل هذا التنظيم ، وربما كانت تلك الفكرة هي التي جعلت جودفري يحجم عن قبول تاج ملكي . وأما البطريق ديامبرت - خليفة أديمار - فكان يتخيل دولة يسيطر عليها بطريق القدس . وعكس بلدوين الآية باتخاذ التاج وباستغلال أعداء ديامبرت داخل الكنيسة . وكان واضحاً أن البابوية لن تقر قيام بطريرقية شديدة القوة في القدس ، إذ قد تعمل على ترسيخ دعائمها هي نفسها كما كان ديامبرت يأمل، لما لها من موضع خاص وثروة آخذة في التنامي ، بحيث تصبح كفواً شرقياً لروما، ومن ثم كان من اليسير على الملك الإفادة من البابا ضد البطريق . وكانت التقاليد تفرض عليه تقديم فروض الولاء للبطريق في حفل التتويج ، غير أنه سعى إلى ترسيخ لقبه من البابا . وكانت تلك التبعية للبابا أكثر قليلاً من التبعية الإسمية ، ولا صرامة فيها أكثر مما كان الباباوات يدعونه من تسيد على الممالك الأسبانية ؛ على أنها كانت تبعية مفيدة للمملكة ، إذ كان الباباوات يشعرون بأنهم مسؤولون عن مواصلة امتداد الأراضي المقدسة بالرجال والمال ، وتقديم المساعدة الدبلوماسية كلما دعت الحاجة إليها. وفي الإمكان كذلك استخدام البابوية في كبج البطريرقية وممارسة بعض

(٣٤) عن علاقات أنطاكية بيزنطة أنظر Cahen, *op.cit.* pp.437-8 وعن علاقات طرابلس بيزنطة أنظر Richard, *op.cit.* pp. 26-30 وعن كامل مسألة المزايم البيزنطية المتصلة بالدول الصليبية أنظر La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantion*, vol.vii

السيطرة على النظامين العسكريين . غير انه من الناحية الأخرى قد يساعد البابا النظامين العسكريين ضد الملك ؛ وكثيرا ما تدخل البابا عندما كان الملك يحاول كبح جماح المدن التجارية الإيطالية^(٣٥).

وكانت الكنيسة فى المملكة خاضعة لبطريق القدس . وبعدما سببته طموحات ديامبرت من اضطراب بادئ الأمر ، أصبح هو نفسه فى واقع الأمر خادما للتاج . وكانت الهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس ترشح اثنين من البطارقة يشار الملك واحدا منهما . وتحت البطريق كان هناك أربعة من رؤساء الأساقفة لصور ، وقيسارية ، والناصره ، ورعبوت - مواب ؛ وتسعة أساقفة ، وتسعة رؤساء أديرة رهبان يحق لهم وضع تاج الأسقف ، وخمسة نواب لرؤساء أديرة الرهبان ؛ على انه كانت هناك أديرة أخرى معينة تعتمد على البابوية مباشرة ، وتقوم بأعمال النظامين العسكريين . وكانت كنيسة فلسطين ذات ثراء فائق سواء ثراء اقطاعيات الأراضى أو الإقطاعيات النقدية . وعادة ما كان أبرز رجال الكنيسة مدينين بتقديم جنود خدمات ضباط النظام وليس جنود خدمات الفرسان ؛ فكان البطريق والهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس مدينين بتقديم خمسمائة من ضباط النظام ، وأسقف بيت لحم مائتين ، ورئيس أساقفة صور مئة وخمسين ، وكذلك رؤساء أديرة رهبان القديسة ماري جوزافات وجبل صهيون . وكان دير راهبات بيثاني - الذى أسسته الملكة مليسند لأختها - يمتلك مدينة أريحا كلها . فضلا عن ذلك ، كانت لدى البطريراقية والكثير من الأديرة الأكثر شهرة أراض شاسعة وعقارات فى سائر أنحاء أوروبا الغربية ، وكانت إيراداتها ترسل إلى فلسطين . وكان للكنيسة محاكمها الخاصة بها لتعامل مع الحالات التى تتصل بالهرطقة والانضباط الدينى والزواج ، بما فى ذلك الطلاق والزنا ، والمواثيق الدينية ، وكانت تلك المحاكم تسير على خطى القواعد والاجراءات المعتادة فى محاكم القانون الكنسى فى الغرب^(٣٦).

وكانت أراضى أنطاكية وطرابلس والرها تابعة كنسيا لبطريق انطاكية . وتسبب رسم حدود نطاق سلطة البطريق فى إثارة المشاكل ؛ إذ أن صور كانت داخلية من الناحية التقليدية فى بطريراقية أنطاكية ، رغم أنها كانت تشكل جزءا من مملكة القدس بطريق الغزو . وحكم باسكال الثانى بنقل صور ، بأسقفياتها المستقلة فى عكا وصيدا

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 203-16. (٣٥)

La Monte, *op. cit.* pp.215-16; Rey, *op. cit.* pp. 268-9 (٣٦)

وبيروت ، إلى القدس ؛ وقد تم ذلك لاتساقه مع الحقائق السياسية . غير أن المحاولات التي بذلها بطارقة القدس للفوز بنطاق السلطة على الأسقفيات الطرابلسية الثلاث في طرابلس وطرطوس وجبله فشلت برغم تأييد البابوية من حين لآخر . ويبدو أن ريموند التولوزي كان يمني نفسه بكنيسة مستقلة في كونتيته المقبلة ؛ غير أن خلفاءه سلموا بالسيادة الكنسية لأنطاكية ، إذ كان الأمر يسيرا عليهم لأنهم كانوا يعينون أساقفتهم دون تدخل.

وكان بطريق أنطاكية - كشأن زميله بطريق القدس - يُنتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة ، لكن تعيينه في الواقع يتم بمعرفة الحاكم العلماني الذي كان بمقدوره أن يعزله كذلك . ونعرف أن أمراء معينين قدموا فروض الولاء للبطريق أثناء تنصيبهم ، لكن الأرجح أن ذلك كان فقط في ظل الظروف الاستثنائية . وكان بطريق أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرطوس والمصيصة ، وكذلك الرها . أما رئاسة أسقفية تل بشير فقد أنشئت فيما بعد باللقب الرسمي "هيرابوليس (مينبج) Hierapolis (Menbij)" ، وكان عدد الأسقفيات يختلف باختلاف الظروف السياسية . فكان هناك تسعة رؤساء ونوابان لأديرة الرهبان اللاتينية . وأهم منشأتين رهبانيتين هما دير القديس بول ودير القديس جورج ، حيث يبدو أن الرهبان البندكتيين قد حلوا محل الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سيميون حيث كانت الطقوس اللاتينية والطقوس اليونانية موجودة جنباً إلى جنب . ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى المرتفع من الثراء الذي كانت عليه كنيسة القدس ؛ إذ كان هناك في واقع الأمر الكثير من المنشآت الفلسطينية تمتلك ضياعاً في الإمارة^(٣٧).

النظامان العسكريان

قبل نهاية القرن الثاني عشر بوقت طويل كان النظامان العسكريان قد بسطا كامل سلطانهما على الكنائس العادية في الدويلات الفرنجية . فمنذ إنشائهما كانت أعداد أفرادها وثروتهما آخذة في الارتفاع بصورة مطردة ، وبحلول عام ١١٨٧م كان النظامان العسكريان يمثلان أهم ملاك الأراضي في الشرق الفرنجي ؛ إذ أخذت ضياعهما تتزايد باستمرار عن طريق الهبات والشراء على السواء. وانضم الكثير من

النبلاء الفلسطينيين إلى صفوفهما ، وكان الجنود يفدون إليهما من الغرب بصورة منتظمة ؛ إذ كانوا يشعرون حاجة عاطفية فيهم كانت سائدة آنذاك ، عندما كان الكثير من الرجال تواقين إلى أن يسلكوا حياة دينية وتعمل في أنفسهم الرغبة الدفينة في عمل إيجابى والقتال من أجل العقيدة . كما كانوا يشعرون حاجة سياسة يملئها النقص المتواتر فى جنود الشرق الغربى ؛ إذ كان التنظيم الإقطاعى يعتمد بصورة مفرطة على ما يحدث فى الحياة العائلية للنبلاء من حوادث لتقديم البديل عن الرجال من ضحايا المعارك أو المرض ، فكان الصليبيون الزائرون يشاركون فى الحرب مشاركة إيجابية طوال فصل أو فصلين ثم يعودون إلى أوطانهم ، بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، إذ كانا يقدمان امدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين المكرسين الذين لا يكلفون الملك شيئا إلى جانب ما كانوا عليه من ثراء بحيث بنوا الحصون وحافظوا عليها على نطاق لم يكن يقدر على الإضطلاع به من اللوردات العلمانيون سوى القلة ، ولولا مساعدتهم لهلكت الدويلات الفرنجية فى مهدها . وليس لدينا معلومات عن أعداد أفرادهما سوى ما تدل عليه الأحداث . ففي عام ١١٥٨م شارك فرسان المستشفى فى الحملة المصرية بإرسال خمسمائة فارس وعدد متناسب من الجنود الآخرين ؛ وكان عدد فرسان المعبد الذين اشتركوا فى حملة عام ١١٨٧م ثلاثمائة تقريبا . وفى كل من الحالتين ربما كانت تلك الأعداد تمثل الفرسان القادمين من مملكة القدس فقط ، بخلاف عدد معين كان يستبقى كحاميات . وربما كان نظام فرسان المستشفى هو النظام الأكبر والأكثر ثراء من نظيره ، غير أن فرسان المستشفى دأبوا على الانشغال بالأعمال الخيرية . وكانت دور الضيافة التابعة لهما فى القدس تتسع لألف حاج ، وكانت لديهم مستشفى - للمرضى المعدمين الباقين على قيد الحياة بعد الغزوات العربية المضادة . وكانوا يوزعون الصدقات يوميا على الفقراء بسخاء أدهش الزائرين . وكانوا - مع فرسان المعبد - يحرصون طرق الحجاج ويهتمون بصفة خاصة بأماكن الاستحمام المقدسة فى الأردن . كما كان فرسان المعبد يوزعون الصدقات ، وإنما بتبذير أقل من فرسان المستشفى . وكان جل الاهتمام منصبا على الأمور العسكرية ، وقد اشتهروا بالشجاعة فى الهجوم وكانوا يعتبرون أنفسهم متخصصين فى الحرب الهجومية ؛ كما اتقنوا الأعمال المصرفية وسرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين ؛ وفيما بعد ساءت سمعتهم لما كان يشوب طقوسهم الخفية الغريبة من ربة وتشكك ؛ لكنهم حتى ذلك الوقت كانوا محل تقدير عام لشجاعتهم وفروسياتهم^(٣٨) .

(٣٨) للإطلاع على المراجع المتصلة بالنظامين العسكريين انظر أعلاه ص ١٥٨ ، الملحوظة رقم ١

والى جانب مزايا النظامين العسكريين كانت هناك المساوى كذلك ، إذ لم يكن للملك سيطرة على النظامين وإنما كان السيد الأعلى الوحيد لهما هو البابا ؛ وكانت الأراضي التي توهب لهما تتحول إلى وقف عليهما ، وليس هناك خدمات يلتزمان بها ، ورفضاً أن يدفع كبار مستأجرى أراضيها العشور المستحقة للكنيسة . وكان فرسانهما يحاربون مع جيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر . وربما وضع الملك أو اللورد من حين لآخر حصناً تحت السيطرة المؤقتة لفرسانهما ، وكان يطلب منهما أحياناً العمل كأوصياء على بعض القصر . وفي تلك الحالات كانوا جديرين بالقيام بالخدمة على صورة ملائمة . وكان السيدان العظميان ، أو نائبيهما ، يحضران المحكمة العليا للمملكة؛ وكان مظهرهما يحضرون فى المحاكم العليا التابعة لأمير انطاكية وكونت طرابلس . غير أن ما كانوا يشيرون به من نصح يخلو من أية مسؤولية ، فإذا لم تلق السياسة الرسمية هوى فى انفسهم يرفضون التعاون ، كما حدث عندما قاطع فرسان المعبد الحملة على مصر عام ١٠٥٨ م . وكان تواتر المنافسة بين النظامين بمثابة مصدر خطر دائم ، فنادراً ما أمكن إقناعهما بالاشتراك معا فى حملة . وكان كل نظام يسير طبقاً لما اختطه لنفسه من خط دبلوماسى بغض النظر عن السياسة الرسمية للمملكة . فنجد كلا النظامين يبرم المعاهدات مع حكام المسلمين ، وليست قصة المفاوضات مع الحشاشين عام ١١٧٢ م سوى دليل على استعداد فرسان المعبد للتضحية بترتيب تتضح الحاجة الماسة إليه ، وذلك من أجل مصالحهم المالية ، وازدراءهم الصريح لسلطة البلاط الملكى . وكان فرسان المستشفى طوال تاريخهم أكثر اعتدالاً ولا يتصفون بالأنانية، على أن النظام ، حتى مع هذا ، كانت له الأسبقية على المملكة .

وهناك توازن مماثل بين المزايا والمساوى يظهر فى علاقات الدويلات الفرنجية بالمدن التجارية الإيطالية والمدن التجارية فى البروفانس الفرنسى^(٣٩) . لقد كان المستعمرون الفرنج جنوداً لا بحارة . وفيما بعد طورت كل من طرابلس وانطاكية أسطولا صغيراً ، وبنى النظامان العسكريان أساطيل أصغر ؛ لكن المملكة نفسها ، بموانئها القليلة الجيدة ، والنقص العام فى الأخشاب ، لم يكن لديها قط مؤسسة بحرية ملائمة . فكان من الضروري لأية حملة تشتمل على قوة بحرية لغزو المدن الساحلية ، أو الحملات التى جُردت على مصر ، الإستعانة ببعض القوى البحرية ، وكانت القوتان البحريتان العظيمتان فى الشرق هما بيزنطة ومصر . على أن مصر كانت دائماً عدواً كامناً

(٣٩) أنظر أدناه الفصلين الثانى والثالث ، فى أماكن متفرقة .

حقيقيا ، و بيزنطة محل ربية دائما . وكان ممكنا أن تربي الفائدة من الأسطول الصقلي لولا أن السياسة الصقلية لم تكن حذيرة بالثقة . ومن ثم بات الإيطاليون والفرنسيون الشماليون هم الحلفاء الأفضل ؛ وزاد من أهمية مساعدتهم الحاجة إلى إبقاء الطرق البحرية الموصلة بالغرب مفتوحة ولتقلل الحجاج والجنود والمستعمرين إلى الشرق الفرنجى . بيد انه كان يتعين دفع مقابل للمدن التجارية التى طلبت تسهيلات وحقوق تجارية ، وأن يكون لها أحيائها الخاصة بها فى المدن الأكبر ، والإعفاء التام أو الجزئى من الرسوم الجمركية؛ وكان من الضرورى منح مستعمراتهم امتيازات زائدة فيما يتصل بالأرض . ولم تسبب تلك الامتيازات فى جعلتها استياء لدى السلطات الفرنجية . فآية خسارة فى الإيرادات سوف يوازنها ما يحفزونه من انتعاش التجارة ؛ ولم تر المحاكم الملكية ما يضطرها إلى إنفاذ قوانين جنوا أو البندقية ، خاصة وان القضايا التى تشتمل على مواطن من مواطنى المملكة ، أو على جريمة جسيمة مثل القتل ، كانت تترك لهم . وكانت هناك منازعات من حين لآخر ؛ إذ كان البنادقة فى حالة عداء دائم مع رئيس أساقفة صور ، ودام شجار طويل بين أبناء جنوا والملك أمالريك الأول . وفى كل من الحالتين أيدت البابوية الإيطاليين ، وربما كان الحق القانونى فى جانبهم . على أن المدن التجارية لم تخرج من أجل رفاهية العالم المسيحى ، وانما وراء مجرد الكسب التجارى . وعادة ما كانت المصلحتان تحدتان فى آن واحد ؛ لكنهما إذا ما اصطدمتا كانت المصلحة التجارية العاجلة هى السائدة . ومن أجل ذلك ، لم يكن الإيطاليون والفرنسيون الشماليون على علاقة صداقة منتظمة مع الملك . وفضلا عن ذلك ، كانت غير النظامين من بعضهما البعض زادت شحوب طفيف إذا قورنت بما كانت عليه الغيرة المتفشية فيما بين المدن التجارية ؛ فكانت البندقية على استعداد لمساعدة المسلمين على نحو أسرع بكثير من مساعدتها لجنوا أو بيزا أو مرسيليا ، ويصدق نفس الشئ على ما كانت تراه غريمتها المدن الأخرى . وهكذا ، وبينما كانت المساعدة التى تقدمها تلك المدن جميعا أمرا أساسيا للحفاظ على بقاء الشرق الفرنجى ، فإن ما كان سائدا بين مستعمرها من مكائد وشغب ، واستعدادهم الطوعى للإقدام على خيانة القضية المشتركة من أجل منفعة لحظية ، قضى على الكثير من القيمة المرتجاة منها^(٤٠) .

وبدوا فى نظر الحجاج خاصة فى صورة جشعة مخزية ، وبصورة غير مسيحية؛ ذلك أن الغزو كان حافزا كبيرا لرواج حركة مرور الحجاج ، بحيث كان النزول الضخم

الذى يمتلكه فرسان المستشفى كامل العدد دائما . وبرغم الهدف الأسمى للحملة الصليبية ، ظل الطريق العابر للأناضول على حالته غير الآمنة ؛ إذ لا يجرؤ على تحدى أخطاره سوى جماعة مسلحة تسليحا جيدا ، ومن ثم كان الحاج العادى يفضل السفر بحرا بعد أن يجد له مضجعا فى سفينة ايطالية حيث كانت أجرة السفر باهظة التكلفة . وربما يجتمع عدد من الحاج لاستئجار سفينة بكاملها ، وحتى مع هذا كان استئجار القبطان والبحارة باهظ التكلفة كذلك . وكان الأرخص للحاج من شمال فرنسا أو انجلترا أن يرتحل مع إحدى القوافل الصغيرة التى كانت تبخر سنويا من أحد موانئ القنال الانجليزى إلى الشرق . غير انها كانت رحلة طويلة مخوفة بالمخاطر ؛ ففيها التعرض لعواصف الأطلنطى ؛ فضلا عن سفن القرصنة الاسلامية المنتظرة فى مضيق جبل طارق وبطول الساحل الأفريقى ، ولم تكن هناك موانئ من أويورتو أو لشبونة وحتى صقلية يمكن الحصول منها على الماء والمؤن بسلام ، وكان من العسير أن تحمل السفينة من الإمدادات ما يكفى للرجال والخيول الذين تقلهم . فكان الأيسر بكثير السفر برا إلى بروفانس أو ايطاليا لركوب سفن اعتادت على الرحلة اعتيادا حسنا . وبالنسبة لمن يحج بمفرده كان العثور على مضجع فى سفينة أيسر وأرخص فى موانئ ملك صقلية ، لكن الجماعات الكبيرة كانت تعتمد على اساطيل المدن التجارية الكبيرة^(٤١).

الملابس

وعندما كان المسافر يهبط فى عكا أو صور أو السويدية ، يجد نفسه فى الحال فى جو غريب . إذ كانت البنية الفوقية للشرق الفرنجى تخفى تحتها أرضا شرقية . وكانت حياتها الفاخرة تصدم الغربيين وترك فيهم أثرا ، خاصة وان الحياة فى أوروبا الغربية كانت ما تزال بسيطة متقشفة ؛ إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف ونادرا ما تُغسل ، إذ كانت تسهيلات الغسيل قليلة ، فيما عدا بعض المدن القديمة التى تعلقت بها تقاليد الحمامات الرومانية . وحتى فى أعظم القلاع ، كان الأثاث خشنا ولا يرتجى منه أكثر من تأدية الغرض ، وكادت السجاجيد أن تكون مجهولة . وكان الطعام رديئا

(٤١) Cahen, "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. أنظر L'Orient latin et commerce du Levant", in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, p. 333

يفتقر إلى النوعية ولا سيما خلال أشهر الشتاء الطويلة . وفى كل مكان تقل الراحة وتتضاءل الخصوصية . أما الشرق الفرنجى فكان على نقيض مذهب . وربما لم يكن هناك الكثير من البيوت التى تصل ضخامتها وروعتها ما كان عليه القصر الذى بناه آل إبلين فى أوائل القرن التالى فى بيروت، بأرضياته الفسيفسائية ، وحوائطه الرخامية ، وسُقُفه المطلية ، ونوافذه الكبيرة السخية، التى يطل بعضها على البحر غربا ، وبعضها الآخر على الجبال شرقا حيث الحدائق والبساتين . ويقينا كان القصر الملكى فى القلنس - المنشأ فى جزء من المسجد الأقصى - أقل تواضعا ، مع أن قصر عكا كان صرحا شامخا. على أن جميع البلاء والبورجوازيين الأثرياء ملأوا منازلهم فى المدن بمفاخر مماثلة؛ فكانت تحوى البُسط ، والسُتر الدمقسى ، والموائد وصناديق النفائس ذات التقرسات الرائعة ، وأكسية الفرُش والموائد الخالية من العيوب ، ومعدات الطعام الذهبية والفضية ، وسكاكين الموائد ، والخزف المزخرف الراقى ، وحتى صحاف الخزف الصينى المجلوبة من الشرق الأقصى . وكانت المياه فى أنطاكية تنقل من عيون دافنى إلى كافة المنازل الكبيرة خلال قنوات المياه المبنية والأنابيب . والكثير من المنازل الواقعة بطول الساحل اللبنانى كانت لها إمداداتها الخاصة بها . أما فى فلسطين ، حيث تقل وفرة المياه ، فكان للمدن صهاريج تخزين منظمة تنظيما جيدا ؛ وفى القلنس كانت شبكة الجوارير التى شيدها الرومان ما تزال فى حالة مثالية . وكانت أماكن القلاع الحدودية الكبيرة محددة لتكون مريحة كمنازل المدن تقريبا ، على الرغم من تجهيم الحياة وشراستها خارج الأسوار . فكانت فيها حمامات ، ومخادع مزدانة لسيدات الأسرة وقاعات استقبال رائعة. وأما الحصون التابعة للنظامين العسكريين فكانت أبسط بقدر طفيف ، أما فى المقار الأسرية العظيمة ، مثل قلعة الكرك فى مؤاب أو غيرها فى طبرية ، كان أمر القلعة يعيش عيشة تزيد فى روعتها عن حياة أى ملك فى أوروبا الغربية^(٤٢).

وسرعان ما اصطبغت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاخرة بنفس القدر الذى اصطبغت به مفروشاتهم . فعندما يخلع الفارس أرديته الحربية ، يرتدى بُرنسا حريريا يطل رأسه منه ، وعادة ما يحيط رأسه بتوربان (عمامة ضيقة لا حرف لها) ؛ وكان عند خروجه فى حملة يرتدى معطفا كُتانيا فوق دروعه ، لحماية الدروع المعدنية من الشمس، وكوفية على النمط العربى فوق خوذته . واتخذت ملابس السيدات الزى الشرقى التقليدى الذى يتألف من ثوب داخلى طويل (روب) ، وسترة (بلوزة) قصيرة

(٤٢) Cahen, *La Syrie du Nord*, pp 129-32. Rey, *op.cit.* pp.3-10. ريسورد كاهنCahen
مقالا عن انطاكية وأسباب الراحة فيها.

أو معطف قصير ، بتطريز كثيف بخيوط الذهب ، وربما مطرزة بالمجوهرات . وكن في الشتاء يرتدين الفراء كما كان يفعل أزواجهن . وكن خارج المنزل يضعن حماراً كالنساء المسلمات ، وذلك لحماية بشرتهن المطلية بوافر الطلاء أكثر من كونه حماراً للعبة ، وكن يحشين مشية رقيقة متكلفة . بيد أنه على الرغم من جو الرقة والتراخي هذا كله ، كان فيهن شجاعة كأزواجهن وإخوتهن ، فكانت الكثيرات من نبيلات النساء يتسلمن قيادة الدفاع عن حصونهن في غيبة بعولتهن . وقد حذت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الأرستقراطية وكثيراً ما بزّتهن في سخاء زيتتهن . وكانت المحظيات الناجحات - وهي طبقة لم تكن معروفة حتى آنذاك في المجتمع الغربي - رائعات بنفس القدر . ويقول المؤرخ وليم الصوري عن السيدة باشيا دي ريفيري ، وهي زوجة صاحب حانوت من نابلس أوقعت البطريق هيراكليوس في حبائل فتتها، إنك قد تظن أنها كونتييسة أو بارونة مما ترتديه من حرير وجواهر^(٤٣).

ولأن بدت تلك الفخامة غريبة للحاج الغربي، فقد كانت شيئاً طبيعياً للزائر القادم من الشرق الإسلامي أو من بيزنطة. ولم يكن للمستعمرين الفرنج مندوحة من محاولة التكيف مع بيعتهم الجديدة، ولا مهرب من الاتصال باتباعهم وجيرانهم. وكان المناخ من الأمور التي يتعين وضعها في الاعتبار؛ فشتاء فلسطين وسوريا يكاد يطابق شتاء أوروبا الغربية في كآبته وبرودته ، لكن فترة دوامه أقل. وأما الصيف الطويل القائل فسرعان ما تعلم منه المستعمرون أن لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة، وتناول أطعمة مختلفة، وتعديل أوقاتهم اليومية. ولا محل لعادات الشمال الفظة، وبدلاً منها كان عليهم أن يتعلموا الأساليب الوطنية. وعليهم توظيف الخدم الوطنيين ، وكانت المربيات الوطنيات يقمن على رعاية أطفالهم، وسائسو الخيول يعتنون بجيادهم. وكانت هناك أمراض غريبة في الأنحاء، ومن ثم كان أطباؤهم فاقدي الحيلة حيالها، وسرعان ما اضطروا إلى الاعتماد على الطب الوطني^(٤٤). وكان حتماً عليهم أن يتفهموا الوطنيين

(٤٣) تظهر صورة تذكير على العملات النقدية وهو يرتدي الثوبان أو عمامة الرأس الضيقة بلا حافة (انظر إعلانه ص ٦٤) وفي عام ١١٩٢م شكر هنري (أوف شامباني) صلاح الدين على هدية الثوبان التي أهداها له معلناً أن تلك الأشياء تلقى استحسان زملائه وأنه سوف يرتديها دائماً (انظر Rey, op. cit. pp.11) ويصف ابن جبر، Ibn Jubayr (ed. Wright, p.309) ملابس زفاف مسيحي في عكا عام ١١٨٤. (وعن باشيا أنظر أدناه ص ٤٨٢).

(٤٤) الطبيب الطرابلسي الذي يفترض أنه دس السم لبلدوين الثالث كان وطنياً (انظر أدناه ص ٤١٤). وعندما كان أماليك على فراش الموت أثبت الأطباء الوطنيون أنهم أكثر حكمة من أطباء الفرنج (انظر أدناه ص ٤٥٥). وعين أماليك رجلاً يدعى سليمان بن داود وإبنة الأكبر في منصب طبيسي البلاط ، بينما كان الابن الثاني لسليمان يشغل منصب معلم

وان يمتزجوا بهم؛ وما ساعد على ذلك غيبة الأرستقراطية الوطنية ، التي كانت خليقة بتحدى حكمهم، بعد أن هرب المسلمون من مملكة القدس وكونتية طرابلس. أما فى الأماكن الأبعد إلى الشمال، فكانت الطبقتان الأرستقراطيتان اليونانية والأرمينية تشعران بالغيرة منهم، وتدخلت السياسة فى تفاهمهما المتبادل، رغم أن الأرمن فى نهاية الأمر تقابلوا معهم فى منتصف الطريق وتبنوا الكثير من العادات الفرنجية^(٤٥).

الصدقة مع المسلمين

لم يكن من الممكن قط أن يحل السلام الدائم بين الفرنج وجيرانهم المسلمين ، وإنما كانت هناك اتصالات آخذة فى التزايد . إذ كانت إيرادات الدويلات الفرنجية تتألف بدرجة كبيرة من الضرائب المفروضة على التجارة بين داخل البلاد المسلمة وبين الساحل؛ فكان يتعين السماح لتجار المسلمين بحرية الحضور إلى الموانئ البحرية ومعاملتهم معاملة معقولة . ومن العلاقات التجارية نبتت الصداقة . ذلك أن نظام فرسان المعبد - بأنشطته المصرفية الضخمة - كان على استعداد لتوسيع عملياته بحيث يصبح دائما للعملاء الكفرة، والاحتفاظ بمسؤولين متخصصين فى شؤون المسلمين . وفى ذات الوقت ، كان الساسة الأعقل بين الفرنج يرون أن لا دوام لمملكتهم إلا إذا بقى العالم الاسلامى مشتتا ، ومن أجل ذلك باتت البعثات الدبلوماسية فى هيئة وذهب . وكان لوردات الفرنج والمسلمين على السواء يُستقبلون بآيات التشريف فى كل من بلاط غريم العقيدة . وكثيرا ما كان الأسرى أو الرهائن يعضون سنوات فى حصون الأعداء أو قصورهم . ورغم المعاناة التى تجشمها مسلمون قليلون فى تعلم اللغة الفرنسية ، كان الكثير من الفرنج - نبلاء وتجار - يتكلمون العربية ، بل إن القليل منهم اهتم بالأدب العربى مثل رينالد أمير صيدا . وفى وقت الحرب كان كل جانب يعرب عن التقدير لما يلمسه من لفتات الكياسة والفروسية . وفى أوقات السلم كان اللوردات من كل جانب يشاركون لوردات الجانب الآخر فى رحلات الصيد^(٤٦).

ركوب الخيل فى البلاط . انظر، 'Indigènes et Croisés', 1934 Cahen, Syria, ولم يترك الطب الفرنجى أى انطباع لدى أسامة (انظر أدناه ص ٣٦٩).

(٤٥) انظر. 8-561, *La Syrie du Nord*, Cahen.

(٤٦) عن رينالد أمير صيدا انظر أدناه ص ٥٢٦. عندما كان المسلمون يتفاوضون مع الحكام المسيحيين ، كان المسلمون يصرون على أن يدفع فرسان المعبد ضمانات مالية - مثلا المورخ أبو شامة, p. 32 Abu Shama, وكان ريموند الثالث كونت طرابلس يتحدث اللغة

كما غاب كامل التعصب الدينى . إذ كانت للعقيدتين العظيمتين خلفية مشتركة ؛ فحيثما تُكتشف فى الخليل آثار يعتقد أنها لإبراهيم واسحق ويعقوب كان المؤرخون المسلمون على نفس القدر من الاهتمام الذى كان عليه المسيحيون^(٤٧) . وحتى فى اوقات الحرب كان حجاج الفرنج يستطيعون التوغل حتى مزار سيدة ساريناى Our Lady of Sardenay على التلال خلف دمشق^(٤٨) ، وكان البدو الذين يحرسون دير سانت كاترين العظيم فى صحراء سيناء يحرسون دائما زائريه^(٤٩) . وتسببت المعاملة الوحشية التى كان رينالد (أوف شاتيلون) يعامل بها الحجاج المسلمين فى أن شعر رفاقه فى العقيدة بصدمة كادت أن تكون مساوية لما شعر به صلاح الدين من حنق . وكان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre على استعداد للاعراب لنور الدين عن تقديره لورعه رغم اختلافه معه فى العقيدة . وكثيرا ما كان الكتاب المسلمون يعربون عن اعجابهم بالفروسية الفرنجية^(٥٠) .

ويرد أروع وصف للجو السائد آنذاك فى مذكرات أسامة بن منقذ فى شيزر . وكان بنو منقذ يؤلفون أسرة حاكمة ضئيلة الشأن تعيش فى خوف دائم من أن يستولى عليها مسلمون آخرون يفرقونها قوة ، ولذا كانوا على استعداد للتفاهم مع الفرنج ، وأمضى أسامة نفسه سنوات كثيرة فى كل من بلاطى دمشق والقاهرة عندما كان كلاهما على علاقة دبلوماسية وثيقة بالقدس . وكثرا ما كان أسامة يقوم بزيارات للأراضى الفرنجية ، كمبعوث وكسائح وكرياضى ؛ ورغم أنه فى كتابته يحدد لكل تلك الأنشطة سوء المصير فى الآخرة ، كان له أصدقاء كثيرون من الفرنج يستمتع بمناقشاتهم . وقد صدمته فجاجة ما كانوا عليه من الطب ، رغم أنه تعلم منهم علاجا ناجحا لنوع من أنواع مرض الدرن الورمى ، وصُيِّق لمدى الحرية المسموح بها لنسائهم،

العربية ، ويكاد يكون من اليقين ان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre كان يقرأ العربية ، أو كان يستخدم أمناء يعرفون اللغات الشرقية . (انظر ادناه ص ٥٣٤) .

(٤٧) يشير ابن القلايسى الى الاكتشاف. Ibn al-Qalanisi, p. 161. أنظر أيضا Kohler, 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 477 ff.

(٤٨) عن سيدة ساردينياى Our Lady of Sardenay ، انظر . Rey, *op. cit.* pp. 291-6.

(٤٩) عن دير سانت كاترين وحججه انظر . Rey, *op. cit.* pp. 287-91.

(٥٠) مثلا ، يطلق (xx, 31, p. 1000) William of Tyre على نور الدين (الأمير العادل، الفطن الحصيف، والأصل الثانى للتقاليد الدينية et providus, princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus).

وشعر بالخرج عندما عرض عليه صديق فرنجي ارسال ابنه كى يتعلم فى اوروبا الغربية . وكان يراهم برابرة بعض الشئ ، ويضحك منهم مع أصدقائه المسيحيين الوطنيين ، غير انه كان يستطيع أن يتوصل إلى تفاهم معهم . وكان الرافدون الجدد من الغرب بمثابة العقبة الواحدة التى تعوق الصداقة ، ففى احدى المرات كان جالسا مع فرسان المعبد فى القدس وقام يصلى فى ركن من المسجد الأقصى بعد أن استأذنهم ، فأهاناه أحد الفرسان إهانة فظة ، وسارع فارس آخر من فرسان المعبد يشرح له أن ذلك الرجل اللفظ قد جاء لتوه من اوروبا وهو لا يعرف بعد أى سلوك حسن^(٥١).

الكنيسة الأرثوذكسية

دأب المهاجرون فى الواقع، بطبيعتهم الفجة، على تدمير سياسة الشرق الفرنجى، وهم الذين جاءوا لحرب من أجل الصليب وقد عقدوا العزم على عدم السماح بأى تأخير فى تحقيق غايتهم. وكانوا أقرباء فى الكنيسة بوجه خاص . ولم يكن أى من بطارقة القدس اللاتين فى القرن الثانى عشر قد ولد فى فلسطين ، وليس هناك من عظام رجال الكنيسة اللاتينية سوى وليم رئيس أساقفة صور الذى أنكر عليه منصب البطريراقية . ونادرا ما كان نفوذ الكنيسة مؤيدا للتفاهم مع الكفرة ؛ بل كان نفوذها فاجعا بشكل أكبر فى علاقاتها حتى مع المسيحيين الوطنيين . وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ عظيم لدى عواهل المسلمين ، وكان الكثير من أشهر مشاهير الكتاب والفلاسفة العرب ، وجميع الأطباء تقريبا مسيحيين . وكانوا خليقين بتشكيل جسر بين العالمين الشرقى والغربى.

وقد قبلت طوائف الأرثوذكس فى فلسطين الهرمية اللاتينية نظرا لوجود رجال الدين الأرثوذكس الأعلى جميعا فى المنفى وقت الغزو . وحاول البطريرق دياميرت أن يحرم قساوستهم من مراكزهم فى كنيسة القبر المقدس ، غير أنه حدثت أحداث فى قداس النار المقدسة عام ١١٠١م ، وأبقى نفوذ الملك على رجال الدين فى الكنيسة وسمح باقامة الشعائر الأرثوذكسية فيها . وكان التاج صديقا دائما للأرثوذكس ، فكانت مورفيا - مليكة بلدين الثانى وأم مليسيند - أميرة ارثوذكسية ، وكذلك كانت الملكتان زوجتا ولدئى مليسيند أرثوذكسيين. وكان بلدين الأول يظهر آيات

التشريف في تعامله مع رئيس دير القديس ساباس ، وهي الهرمية الأرثوذكسية الرائدة التي بقيت في فلسطين ؛ ووهبت الملكة مليسيندا الأراضى للدير الذى ربما كان مدينا للتاج ببعض الخدمات . وتمكن الامبراطور مانويل من الحفاظ على مكانته الحامية للمصالح الأرثوذكسية ، ويتضح ذلك مما قام به من اصلاحات كان مسؤولا عنها فى الكنيستين الكبيرتين : كنيسة القبر المقدس وكنيسة الميلاد . وفى ذات الوقت تقريبا ، وربما بمساعدة الامبراطور ، أعيد بناء وزخرفة دير القديس إيوثيموس فى برية يهودا . على أن المودة لم تتزايد بين رجال الدين اللاتين واليونانيين ؛ ففي عام ١١٠٤م استقبل الحاج الروسى دانيال بحفاوة فى المنشآت اللاتينية ، لكن الحاج اليونانى فوكاس الذى حج عام ١١٨٤م ، وبرغم زيارته لمنشآت لاتينية ، لم يستلطف اللاتينيين ، باستثناء راهب اسباني عاش في وقت ما فى الأناضول ، ويقص مرحا معجزة أربكت الكاهن اللاتينى الذى يطلق عليه أسقف اللد "المتحّم" . والأرجح أن محاولة الهرمية اللاتينية لفرض دفع العشور على الأرثوذكس ، إلى جانب ازدهارها للأرثوذكس حتى أنه كان نادرا ما تسمح لهم الكنائس الكبيرة باقامة شعائر عقيدتهم ، هو الذى قلل استحباب الأرثوذكس للحكم الفرنجى ، وجعلهم على استعداد لقبول استرداد صلاح الدين للبلاد - بل وللترحيب به - بعد أن انتهت حماية مانويل لهم . وفى انطاكية ، أسفر وجود مجتمع يونانى قوى ، وما حدث من تطورات سياسية عن ظهور العدواة علانية بين اليونانيين واللاتين ، مما أضعف الامارة على نحو جسيم^(٥٢).

(٥٢) انظر Daniel the Higuemene فى اماكن متفرقة ، وJohn Phocas, *A Brief Description*، فى اماكن متفرقة . وانظر ايضا Rey, op.cit. pp.75-93 ، وCahen loc.cit. عندما كانت الحاجة الروسية ليوفروسين (Euphrosyne of Polotsk) تموت فى فلسطين التمتت مع رئيس دير القديس ساباس أن يجد لها مقبرة ملائمة باختياره رئيس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . انظر de Khitrowo, 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne' فى 32'5. pp. III, *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, رقم الكتاب الأرثوذكس المتأخرون - مثل دوتيسوس Dositheus فى القرن السادس عشر - والذين كرهوا التسليم بحقيقة ان الأرثوذكس قبلوا البطارقة اللاتين من ١٠٩٩م الى ١١٨٧م ، باصدار قائمة بستة بطارقة أو سبعة فى الفترة بين وفاة سيميون عام ١٠٩٩م وحتى ١١٨٧م ، Oriens Christianus, III, p.1243; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, pp.498-503) وهناك من يدعى John ، بطريق القدس ، الذى آيد إدانة Soterichus عام ١١٥٧م ، وجون آخر بطريق القدس - ويفترض انه نفس الشخص - الذى كتب بحثا ضد اللاتين فى نفس الفترة تقريبا (91. p. *Gesch. der Byz. Literatur*, Drumbacher) ويحتمل ان الإمبراطور مانويل كان يفكر فى إعادة الاستيلاء على بطريركية القدس ، واحتفظ بطريق لذلك اليوم . غير انه من الواضح ان الأرثوذكس فى فلسطين خضعوا للبطريق اللاتينى . ويتأكد وجود قساسة يونانين فى كنيسة القبر المقدس ، فى *Carilaire du Saint Sépulture*, ed. Rozière, p 177.

وفى المملكة ذاتها ، لم تكن طوائف المراطقة بذات أهمية خارج القلس ، حيث كانت كلها تقريبا تحتفظ بمنشآت فى كنيسة القبر المقدس . وحاول ديامبرت دون جدوى طردهم هم ايضا ؛ فقد حفظ لهم التاج حقوقهم . وكانت الملكة مليسند فى الواقع قد منحت تأييدها شخصا للسريان اليعاقبة عند نظر الدعوى التى رفعوها ضد فارس فرنجى ، وفى كورتية طرابلس كانت أهم كنيسة هرطيقية هى كنيسة الموارنة ، وأتباعها هم الباقون من العقيدة المونوثليتيية^(٥٣) وعاملتهم الكنيسة المسيحية بما يندر من اللباقة والصبر ؛ وفى عام ١١٨٠م وافقت الطائفة على الإعتراف بسيادة الكرسي الأسقفى الرومانى ، شريطة أن يحتفظ رعاياها بطقوسهم الدينية وعاداتهم السريانية ولم يتخلوا عن معتقدهم الهرطيقى النقال بوجود إرادة واحدة للمسيح . وأما عن مفاوضاتهم - التى لا نعرف عنها سوى النذر اليسير - فقد أدارها باقتدار البطريق ليمرى بطريق انطاكية . إن القبول بهذه الكنيسة المتحدة الأولى^(٥٤) يظهر أن البابوية كانت على استعداد للسماح بأعتراف متشعبة ، وحتى بلاهوت مشكوك فيه ، شريطة الإعتراف بسلطتها النهائية^(٥٥).

رفاهية الشرق الفرنجى

كانت الكنيسة الأرمنية المنفصلة فى اماره انطاكية قوية وتلقى التشجيع من الأمراء ، الذين رأوا فيها غريما نافعا ضد الكنيسة الأرثوذكسية . وفى الرها كان الأرمن يحظون بصداقة آل كورتنائى رغم أنهم كانوا محل ريبة من بلدوين الأول وبلدوين الثانى . وجاء الكثير من أساقفة الأرمن للاعتراف بسيادة البابا ، وحضر البعض منهم عددا من المجمع الكنسى الذى عقدتها الكنيسة اللاتينية ، وهم يغفرون فى التعاليم اللاتينية مالا يغفر فى التعاليم اليونانية . وفى بادئ الأمر كان السريان اليعاقبة فى عداوة صريحة للصليبيين ويفضلون الحكم الاسلامى ؛ ولكن بعد سقوط الرها ، أصبحوا فى حالة صلح مع أمير انطاكية ، إسميا بسبب معجزة عند قبر القديس بارسوما ، فعليا

(٥٣) (المترجم): المونوثليتيية Monothelism : معتقد لاهوتى يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٥٤) (المترجم): الكنيسة المتحدة Uniate Church : أبة كنيسة مسيحية شرقية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإنما تمارس طقوسها الخاصة بها وأعراقها وما الى ذلك.

(٥٥) انظر Dab, article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol.x, 1.

لشعورهم شعورا عاما بخسوف من بيزنطة وكراهيتها . وكان البطريق اليعقوبى ميخائيل - وهو احد عظام مؤرخى عصره - صديقا للبطريق ليمرى ، وقام بزيارة ودية للقدس . ولم يكن هناك من كنائس المراطقة الأخرى كنيسة تعتبر ذات اهمية فى الدويلات الفرنجية^(٥٦).

وأما المسلمون من رعايا الفرنج ، فقد قبلوا اسيادهم بهدوء ، واعتزفوا بعدالة ادارتهم ؛ ومن الواضح أنهم لا يعتمد عليهم اذا ساءت أمور المسيحيين . وأما اليهود ، فكانوا على حق فى تفضيلهم حكم العرب الذين كانوا يعاملونهم دائما بأمانة وشفقة ، ولو بازدراء معين^(٥٧).

كان الشرق الفرنجى، فى نظر الحاج الغربى المعاصر، بمثابة صدمة لما كان عليه من رفاهية وفجور. وأما المؤرخ العصورى فكان بالآخرى يتأسى لتعصب الصليبيين وبربريتهم المشينة . ومع ذلك ، يمكن تفسير كلا الجانبين بالجو الذى كان سائدا هناك . فكانت الحياة بالنسبة للمستعمرين الفرنج غير يسيرة ومحفوفة بالمخاطر . إذ كانوا فى أرض ازدهرت فيها المكائد والقتل ، والعدو يتربص عبر الحدود القريبة . ولم يكن أحد يعلم متى سوف يسلم من طعنة خنجر تأتيه من احد الحشاشين المخلصين ، أو متى ينجو من سم يدسه له خدومه . وتفشت بينهم امراض غامضة لا يعرفون عنها سوى القليل ؛ وحتى بمساعدة الأطباء المحليين ، لم يعيش فرنجى طويلا فى الشرق . وكانت النساء أكثر حظا من الرجال ؛ لتجنبهن مخاطر القتال . ونظرا للمعرفة الطبية الأفضل فى الشرق ، كانت الولادة أقل خطورة منها فى الغرب . بيد أن وفيات الاطفال كانت مرتفعة ، ولا سيما بين الأولاد . فكانت الإقطاعية تلو الإقطاعية تقع فى يد ورثة ، يغوى ميراثها مغامرى الغرب المتوردين للنساء ؛ على انه فى الأغلب الأعم كانت الضياع الضخمة تفتقر إلى سيد لها وقت الأزمة ، ولم تكن أية زيجة سوى مسألة نزاع وتآمر . وغالبا ما كان الزواج عقيما ، إذ فشل الكثيرون من أعنف المحاربين فى أن ينجب طفلا . وأدى التزاوج بين العائلات النبيلة القليلة إلى زيادة التنافس الشخصى . وكانت الاقطاعيات توهب وتقسّم بقليل من الاعتبار للضرورات الجغرافية ؛ وتواترت المشاجرات بين أقرب الأنساب.

(٥٦) أنظر أدناه ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة. Nau's edition of Michael the Syrian

(٥٧) 304-5 pp Ibn Jubayr, ed Wright, وتظهر احصائيات Benjamin of Tudela ازدهارا أعظم لليهود فى ظل الحكم الاسلامى.

وكان الهيكل الإجتماعى الذى جلبه الفرنج من الغرب يستلزم نظام استخلاف وراثى منتظم ، واعتناء بالقوة العاملة . وكان الانحطاط المادى للعنصر الانسانى غاية فى الخطورة ؛ فأحاطهم الخوف وحوشا وخونة ، وأطلق الإرتياب حبهم للمباهج التافهة . وبينما كانت سيطرتهم آخذة فى الضعف والوهن ، زاد اسرافهم فى مباريات الفروسية ومظاهر البطولة . وكان الزائرون والوطنيون على السواء يرتاعون لما يرونه حولهم من فسوق وتطرف، وكان أسوأ المسيئين هو البطريق هيراكليوس^(٥٨) بيد أن الزائر الأعقل كان يفهم أن تحت هذا السطح الرائع كان كل شئ سيئا ؛ فالملك الذى كان مثقلا بالحرير والذهب كان دائم الحتياج إلى المال لدفع رواتب جنده . وربما يلقى فارس المعبد المتعرج - الذى يعد أكياس نقوده عدا - استدعاء فى اية لحظة ليقا تل بشراسة تفوق ما عرفه الغرب . وقد ينهض المعربدون - كضيف قلعة كيراك فى ١١٨٣ م - من المائدة على أصوات آلات المنجنيق يقذفها الكفرة لتدق أسوار القلعة . إن زخرف الحياة الأنيقة المرحة فى الشرق الفرنجى كانت معلقة بخيط رفيع من القلق ، والريية ، والخوف ؛ وقد يتساءل المتفرج بحق ما اذا كانت المغامرة تستطيع أن تستمر طويلا ، حتى فى ظل أفضل الحكام.

-*Estoire d'Eracles*, II, p.88; Ernoul, pp.83-7; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.5 (٥٨)
 6; Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum*, I, p. 188
 الأخير سقوط القدس الى فساد فرنج الشرق.

الفصل الثانى:

ارتفاع نجم نور الدين

ارتفع نجم نور الدين

"وَخَرَجَ غَالِبًا وَلَكِنِّي يَغْلِبُ"

(رؤيا بوحنا اللاهوتي ٦ : ٢)

كان ريموند أمير أنطاكية مصيبا في حثه زعماء الحملة الصليبية الثانية على السير للاستيلاء على حلب . ولقد جنى عليه فشله في اقناعهم ، فكلفه حياته . ذلك أن نور الدين كان العدو الرئيسي للعالم المسيحي ؛ ولو كان هناك جيش كبير لدى ريموند في ١١٤٧م لكان خليقا بأن يسحقه . كان نور الدين سيد حلب والرها ، ولم يكن أوتنر صاحب دمشق ولا صغار الأمراء المستقلين في وادي العاصي ليخفوا لنجدته ؛ كما لم يكن ليعتمد على مساعدة أخيه سيف الدين صاحب الموصل الذي كانت له مشاكله الخاصة به في العراق . غير أن حماقة الصليبيين دفعت بأوتنر إلى الدخول في تحالف معه يبقى طالما بقي الخطر ؛ وواتته فرصة التدخل في شؤون طرابلس فراح يحكم قبضته على أواسط سوريا .

وكان لريموند كذلك ما يبرر رفضه الانضمام إلى الحملة الصليبية . فلم يكن

يسعه، لا هو ولا جوسلين كونت الرها، ترك أراضيها مكشوفة لنور الدين، وحتى عندما كان الصليبيون أمام دمشق أغار جنود من حلب على الأراضي المسيحية. وذهب جوسلين نفسه - تحت علم الهدنة - إلى معسكر نور الدين متوسلا الرحمة؛ وكان كل ما حصل عليه فترة راحة مؤقتة^(١). وفي تلك الأثناء كان مسعود سلطان قونية في سلام مع بيزنطة، فانتهاز ما كان فيه الفرنج من ارتباك وهاجم مرعش. فاستعد ريموند للملاقاته، ولذا أرسل مسعود إلى نور الدين للقيام بهجوم مضلل، فأجيب إلى طلبه؛ غير أن ريموند كان قد تحالف مع كردى من زعماء الحشاشين - على بن وفا - الذى كان يحمل من الكراهية لنور الدين ما يفوق كراهيته للمسيحيين، فباغت ريموند نور الدين فى نوفمبر ١١٤٨م أثناء زحفه خلال القرى الواقعة فى سهل السواد فى أفاميا، على الطريق من أنطاكية إلى مرعش. وكان قائدا نور الدين الرئيسيان - شيركوه الكردى وابن الداية من وجهاء حلب - قد تشاجرا، ورفض الأول الاشتراك فى المعركة؛ واضطر الجيش الإسلامى كله إلى أن ينسحب انسحابا سريعا مشينا. وفى الربيع التالى هاجم نور الدين البلاد مرة أخرى وهزم ريموند فى بجراس بالقرب من ساحة القتال السابقة. ثم تحول جنوبا لمحاصرة قلعة إيناب، وهى واحدة من المعاقل القليلة المتروكة للمسيحيين شرقى نهر العاصى، فسارع ريموند لانقاذها ومعه جيش صغير وقليل من حلفائه الحشاشين يقودهم على بن وفا؛ وتلقى نور الدين معلومات خاطئة عن قوة ريموند، اضطر إلى الانسحاب. وفى حقيقة الأمر، كان جيش نور الدين الذى يتألف من ستة آلاف فارس يفوق جيش الفرنج المؤلف من أربعة آلاف فارس وألف راجل. وإزاء نصيحة على ابن وفا قرر ريموند تعزيز حامية إيناب. على أن نور الدين أدرك الآن ضعف ريموند. ففى ٢٨ يونية ١١٤٩م كان الجيش المسيحى معسكرا فى قاع واد من الوديان بالقرب من نبع مراد فى الوادى بين إيناب ومستنقع الغاب، فزحف جنود نور الدين أثناء الليل وحاصروا الجيش المسيحى. وفى الصباح تحقق ريموند من أن فرصته الوحيدة للخروج هى الهجوم؛ غير أن طبيعة الأرض كانت ضده، وهبت رياح قذفت بالأتربة فى أعين فرسانه أثناء شق طريقهم على خيولهم أعلى المنحدر، ولم تمض ساعات قليلة حتى اجتثت شأفة الجيش كله. وكان بين القتلى رينالد أمير مرعش وزعيم الحشاشين على ابن وفا. وهلك ريموند نفسه، قتله شيركوه وبذا استعاد استحسان سيده الذى فقدته فى أفاميا. ووضعت جمجمة الأمير فى صندوق فضى، وأرسلها نور الدين هدية لسيده

الروحي الخليفة في بغداد^(٢).

١١٥٠ م : إعتقال الكونت جوسلين

كان جوسلين كونت الرها هائلا مهدنة مزعومة مع المسلمين ، ولذا رفض مساعدة غريمه القديم ريموند . والآن جاء دوره . إذ أن نور الدين اخترق الأراضي الأنطاكية مستوليا على أرزغان وتل كشفان ، ثم داهم حاميتي أرتاح وحارم الواقعتين أبعد إلى الشمال ، وبهذا استكمل إحكام قبضته على أواسط وادي العاصي ، ثم تحول غربا ليظهر أمام أسوار أنطاكية نفسها وراح يغير على الجوار حتى على ميناء السويدية^(٣) . ولم يبذل جوسلين أية محاولة لإنقاذ رفاقه الفرنج ، وإنما سار إلى مرعش يحده الأمل في الاستيلاء على ميراث رينالد الذي كان زوج ابنته . ودخل المدينة ، لكنه تركها باقتراب السلطان مسعود ، تاركا فيها حامية سرعان ما استسلمت للسلاجقة نظير الوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ؛ لكنهم عندما انطلقوا مع قساوستهم على الطريق الذاهب إلى أنطاكية ، قتلوا عن آخرهم . وطارد مسعود جوسلين حتى جوار تل بشير . بيد أن التعزيزات كانت تقترب ، ولم يكن نور الدين راغبا في أن يرى جوسلين - الذي كان لا يزال عميله - يفقد أراضيه ليفوز بها السلاجقة . ووجد مسعود أن من السياسة أن ينسحب . وبعد ذلك ، سعى أراتقة الجزيرة - الذين حدد لهم نور الدين وأخويه حدودهم الجنوبية - إلى التوسع بطول الفرات على حساب الأرمن في كركر الذين كانوا أتباعا يدفعون الجزية لرينالد . وبدد جوسلين طاقاته عبثا بارسال المساعدة إلى بازل حاكم كركر ، إذ استولى قره أرسلان الأرتقي على كامل مقاطعة كركر وخرتبرت ، مما أبهج المسيحيين اليعاقبة الذين كانوا يفضلون حكم أرسلان بصورة لا حدود لها على حكم رينالد لتحيزه الشديد إلى جانب الأرمن ، ومشاعره البغيضة نحو اليعاقبة^(٤) . وفي شتاء عام ١١٤٩ م خاصم نور الدين جوسلين ؛ ولم تنجح هجماته

(٢) William of Tyre, xvii, 9, pp. 771-3p ; وخطاب قهرمان نظام فرسان المعبد إلى السيد الأعظم Everard ، الوارد في R.H.F. vol. xv, p.541 ؛ وأيضا Michael the Syrian, pp. 122-3; Cron. Anon. Syr. Syriac edition, p.296; Matthew of Edessa, cclix, p. 329; Gregory the priest, p.142; Ibn al-Qalanisi, pp. 288-92; Abu Shama, pp. 10-12; Ibn al-Furat, loc.cit . ويحدد ابن الفرات موقع المعركة بأنه أرض الحاتم .

(٣) William of Tyre, xvii, 10pp. 774-5; letter to Everard, loc. cit.; Chron. Anon. Syr (Syriac edition), p.299; Ibn al-Qalanisi, p.293; Ibn al-Athir, Atabegs, p. 180.

(٤) Matthew of Edessa, cclix, pp. 330-1; Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian, (٤)

الأولى ، لكنه فى إبريل ١١٥٠م ، وبينما كان جوسلين متجها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك ، انفصل عن حرسه المرافق له ووقع فى أيدي بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغنم ؛ وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة ، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من أسريه . وفقت عيناه وسجن فى حلب حيث مات بعد تسع سنين فى ١١٥٩م^(٥).

وهكذا ، وبحلول صيف عام ١١٥٠م ، كانت كل من إمارتي انطاكية وما تبقى من كونتية الرها قد فقدتا سيديهما . ولم يغامر نور الدين بالمضى إلى أكثر من ذلك . وعندما وصلت أنطاكية أنباء موت ريموند ، حول الطريق إلى المدينة إلى حالة دفاع وسارع بإرسال مبعوث جنوبا يلتمس من الملك بلدون أن يخف للنجدة . ثم انه حصل من نور الدين على هدنة قصيرة بعد أن وعد بتسليم انطاكية فى حالة عدم وصول الملك بلدوين . وكان ذلك ملائما لنور الدين الذى توخى جانب الحذر فى عدم محاصرة انطاكية ، بينما كان قادرا على الإستيلاء على أفاميا وهى آخر القلاع الأنطاكية فى وادى نهر العاصى . وهرع الملك بلدوين شمالا مع فرقة صغيرة تتألف فى أغلبها من فرسان المعبد . وأغوى ظهوره نور الدين للقبول بهدنة أطول ساعدت على كبح مسعود من مهاجمة تل بشير . بيد أنه على الرغم من إنقاذ أنطاكية ، تقلصت الإمارة لتقتصر على وادى انطاكية نفسها والساحل من الإسكندرونة إلى اللاذقية^(٦).

iii, 294-6 and Armenian version, p.346.

(٥) William of Tyre, xvii, ii, pp. 776-7; Matthew of Edessa, cclix, pp. 331-2; Michael the Syrian, iii, p. 295; *Chron. Anon. Syr.*, p.300; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, op.cit. p.386; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 523-4; *Bustan*, p.544; Ibn al-Qalanisi, p.300; Ibn al-Athir, p.481; Sibte ibn el-Djauzi, p. 122. المراجع . فيقول وليم إنه كان ذاهبا إلى أنطاكية تلبية لنداء من البطريق ؛ بينما يقول كل من ماثيو (أوف إيديسا - الرها) وابن الفرات إنه كان يسعى إلى الحصول على المساعدة من انطاكية ؛ ويرد فى التاريخ المجهول Anonymous Chronicle انه ذهب ليضمن الوصاية على انطاكية . ويعزو وليم انفصاله عن صحبته إلى تلبية لنداء الطبيعة ، بينما يعزو سيب بن الجوزى إلى علاقة حب مع فتاة تركمانية ، وابن الفرات إلى سقوطه من على جواده أثناء اصطدام الجواد بشجرة - واستنادا إلى ميخائيل السورى لم تكن الشجرة موجودة إلا فى خياله (ويرى المؤرخون السريان أن اعتقال جوسلين جاء انتقاما إلهيا لاضطهاد اليعاقبة)؛ ويقول المؤرخون السريان إن يهوديا تعرف عليه . والتاريخ المجهول هو فقط الذى يقول بتعميته . ويضيف ميخائيل السرياني إنه لم يسمح له بالاعتراف - وهو على فراش الموت - على يد قس لاتينى ، وإنما تلقى اعترافه أسقف يعقوبى من الرها.

(٦) William of Tyre, xvii, 15, pp.783-4; Ibn al-Qalanisi, pp. 293-4, 300-1.

١١٥٠ م : استسلام تل بشير لبيزنطة

بقى بعد ذلك ترتيب حكومة الامارتين العاريتين من رئيسيهما . وكان نور الدين قد هاجم تل بشير بعد اعتقال جوسلين ، غير أن الكونتيسة بياتريس أعدت دفاعا شجاعا أجبر نور الدين على الانسحاب . ومع ذلك ، كان من الواضح عدم امكان الاحتفاظ بتل بشير ؛ إذ كانت مكثظة باللاجئين من الفرنج والأرمن القادمين من المقاطعات البعيدة عنها . وكان المسيحيون اليعاقبة يجهرون بالعصيان ، وقد انزلت المنطقة كلها عن انطاكية بغزوات نور الدين . وأثناء أن كانت الكونتيسة تعد العدة للتخلي عن أراضيها جاءت رسالة من الامبراطور مانويل ، الذى كان مدركا للموقف، عارضا أن يشتري منها كل ماتبقى من بلدها . والتزمت بياتريس بواجبها فأحالت العرض إلى الملك بلدوين الذى كان فى انطاكية . وناقش العرض لوردات مملكته المرافقين له ، ولوردات انطاكية ، الذين شعروا بالاشمئزاز لفكرة تسليم أية أراض ليوناني بغض ؛ غير انهم قرروا بعد الموافقة أنه لو فقد العالم المسيحى تلك الأماكن الآن فيكون الامبراطور هو المخطئ . وأحضر حاكم كيليكيا البيزنطى - توماس - أجولة من الذهب ، لا ندرى عددها ، إلى كونتيسة انطاكية ، التى سلمت جنوده فى المقابل القلاع الست : تل بشير وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك واليرة . وصاحب جيش الملك الحاميات البيزنطية فى رحلتها ، وفى طريق العودة قام بحراسة الكثير من اللاجئين الفرنج والأرمن المرتابين فى الحكم البيزنطى والذين فضلوا الأمان الأكبر فى انطاكية . واحتفظت الكونتيسة من الصفقة بقلعة واحدة هى قلعة الروم الواقعة على الفرات بالقرب من سميساط ، والتى اعطتها لكاثوليكوس بطريق الأرمن . وبقيت القلعة مكان إقامة تحت السيادة التركية لقرن ونصف من الزمان . وبينما كان الجيش الملكى واللاجئون فى طريق عودتهم حاول نور الدين مباغتتهم فى عينتاب ، غير أن التنظيم الرائع الذى نظمته الملك حافظ عليهم . وتوسل اليه أبرز بارونات - همفري (أوف تورون) وروبرت (أوف سورديفال) - السماح لهم بالاستيلاء على عينتاب بإسمه ، لكنه التزم بالصفقة التى عقدها مع الامبراطور^(٧) .

(٧) William of Tyre, xvii 16-17, pp.784-9 . لم يذكر المؤرخون البيزنطيون الصفقة . وللإطلاع على التاريخ والأدلة التى أوردها المؤرخون المسلمون انظر Michael Cahen, op.cit.p.388 n.24; .the Syrian, iii, p 297, and Armenian version, p 343 . ويرد التخلي عن روم قلعة فى Vartan, p.435, and Vahram, Rhymed Chronicle, p.618. وتقول نسخة ميخائيل السريانية إن الكونتيسة طلست من كاثوليكوس مساعدة لورد أرمني فى روم قلعة ، ولكن كاثوليكوس نصب نفسه فيها بالخدعة .

أما لماذا عرض الامبراطور الصفقة ، فليس يقينيا . إذ ظن الفرنج أن كبرياء الامبراطور جعله يعتقد أن بإمكانه الاحتفاظ بتلك القلاع . ولا يحتمل انه كانت تنقصه المعلومات بهذه الدرجة . بل انه كان يتطلع إلى المستقبل ؛ إذ انه كان يأمل منذ وقت طويل أن يأتي بقواته إلى سوريا ، فاذا فقدوا الآن فسوف يمكنه استعادتها فيما بعد ، ولن يكون هناك نزاع حول مطالبته . وفي حقيقة الأمر ، فقدوا في أقل من سنة ، عندما تحالف نور الدين مع مسعود السلجوقي . ولقد ولد التحالف في اليوم التالي لاعتقال جوسلين ، وتثبت بزواج نور الدين من ابنة مسعود ، وتقرر أن تكون تل بشرير مهرا لها . على أن مسعود لم ينضم إلى زوج ابنته في الهجوم على يياتريس ، وإنما راح يتملى العيش باستيلائه على كيسوم وبهسنا في شمال البلاد ، وقد منحهما لإبنه قلعج أرسلان . وفي ربيع ١١٥١م راح نور الدين ومسعود كلاهما بهاجمان الحاميات ، وسارع الأراتقة للحصول على نصيبهم . فسقطت عيتاب ودلوك في يد مسعود ، وسميساط والبيرة في يد تمرقاش الأرتقي صاحب ماردين ، ورواندال في يد نور الدين . وفي تل بشرير نفسها قاوم البيزنطيون لفترة ، لكن الجماعة اجبرتهم على الخروج والتسليم لنائب نور الدين حسان أمير منبج في يولية ١١٥١م^(٨) وذهب كل ماتبقى من أثر لكونتية الرها . وتقاعدت الكونتيسة يياتريس في القدس مع ولديها جوسلين وآجنس ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا أدوارا فاجعة في سقوط المملكة^(٩).

١١٥٠م : خطاب الأميرة كونستانس

ضاعت الرها ، وبقيت انطاكية . وترك موت ريموند الأميرة كونستانس أرملة بأربعة أطفال صغار . وكان العرش عرشها بحق الميراث ؛ غير أنه ساد الشعور بضرورة أن يحكم رجل في مثل هذه الظروف . وكان ابنها الأكبر - بوهموند الثالث - في الخامسة من العمر عندما مات أبوه ؛ ولابد من وجود وصي من الذكور إلى أن يشب عن الطوق . وكان البطريق إيمري قد تولى المسؤولية وقت الأزمة ، لكن الرأي العام العلماني لم تعجبه فكرة وجود وصي من رجال الكنيسة . واتضحت ضرورة زواج

(٨) William of Tyre, loc.cit.; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p.277; Michael, Armenian version, p.297; Ibn al-Qalanisi, p.309; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 132 (with the wrong date).

(٩) ربما كانت إيزابيلا - ابنة جوسلين الثاني الأخرى - (انظر اعلاه ص ٢٢٢) ميتة آنذاك ، رغم ان رليم الصوري (ص ٧٧٧) يذكرها عندما مات أبوها على أنها على قيد الحياة .

الأميرة الشابة مرة أخرى . وفي الوقت ذاته يتعين أن يكون الرصى الملائم ابن خالتها، الملك بلدوين ، بصفته أقرب أقربائها الذكور وليس السيد الأعلى . وكان الملك قد سارع إلى انطاكية لدى وصوله نبأ موت ريموند ، وعالج الموقف بحكمة تندر مع صبي مثله في التاسعة عشرة من عمره ، وقبلت سلطته قبولاً عاماً . وعاد في أوائل صيف ١١٥٠م ليعتمد صفقة بيع أراضي الكونتيسة بياتريس . وكانت مشغولياته في الجنوب من الكثرة بحيث لم يكن راغباً في البقاء في انطاكية ليكون مسؤولاً عنها. فحث كونستانس - التي لم تكن قد تجاوزت الثانية والعشرين - على اختيار زوج آخر ، واقترح عليها ثلاثة مرشحين : الأول ، ييف (أوف نيسيل)، كونت سواسون ، وهو نبيل فرنسي ثرى جاء إلى فلسطين في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، وكان يعد العدة للاستقرار؛ والثاني ، وولتر (أوف فالكونبرج) ، من أسرة سانت أومير التي احتفظت فيما مضى بلوردية الجليل؛ والثالث ، رالف (أوف ميرل) ، البارون الشجاع في كونتية طرابلس . لكن كونستانس لم تكن راغبة في أى منهم ؛ واضطر بلدوين إلى العودة إلى القدس تاركاً الحكومة في يديها^(١٠).

وأسخط كونستانس الحاح ابن خالتها الصغير ، فغيرت سياستها في الحال وأرسلت سفارة إلى القسطنطينية تلتزم من الامبراطور ، باعتباره سيدها الأعلى ، أن يختار لها زوجاً . وكان مانويل تواقاً إلى إجابة رغباتها ؛ فالتفوذ البيزنطي كان آخذاً في التدهور بطول الحدود الجنوبية الشرقية للامبراطورية . وحوالي عام ١١٤٣م ، كان الأمير الأرمني - ثوروس الرويني - قد هرب من القسطنطينية ولاذ ببلاط ابن عمه جوسلين الثاني كونت الرها ، حيث جمع فرقة من بنى وطنه تمكن بها من استعادة قلعة العائلة - فاهكا ، الواقعة شرقي جبال طوروس . وانضم إليه اثنان من اخوته - ستيفن ومليخ - وأنشأ صداقة مع لورد فرنجي في الجوار ، سيمون حاكم رعيان الذي زوجه ابنته . وفي عام ١١٥١م ، وبينما كان المسلمون يحثرون البيزنطيين بهجومهم على تل بشير ، زحف جنوباً إلى داخل سهل كيليكيا وهزم توماس الحاكم البيزنطي وقتله عند بوابات المصيصة ؛ مما دفع مانويل على الفور إلى إرسال ابن عمه أندرونيكوس على رأس جيش لاسترجاع الأراضي التي استولى عليها ثوروس ؛ والآن جاءته الفرصة في وقتها المناسب لكي يضع من يرشحه هو على عرش انطاكية .

(١٠) William of Tyre, xvii, 18 pp. 789-91. يفترض وليم الصوري أن البطريق لإيمرى شجع كونستانس على رفض المرشحين خشية أن يضعف سلطانه. Cinnamus, p. 178.

ولم يقدر النجاح لأى من المشروعين . ذلك أن أندرونيكوس كومنينوس كان أكثر أفراد عائلته الموهوبة اتقادا للذكاء وأكثرهم فتنة ، لولا ما كان فيه من تهور واهمال . فبينما كان فى طريقه لمحاصرة ثوروس فى المصيصة ، هاجمه الأرمن بخروج مفاجئ وأطبقوا عليه على حين غرة ، فهزم جيشه هزيمة منكرة وهرب هو نفسه عائدا إلى القسطنطينية يجر اذيال العار . وفى اختيار زوج للأميرة كونستانس ، أظهر مانويل من البراعة أكثر مما أظهر من التعقل ؛ إذ أرسل زوج أخته القيصر جون روجر ، وهو أرمل أخته المفضلة ماريا . وكان جون روجر نورمانديا بالمولد ، ورغم أنه تأمر مرة ليستأثر بالعرش الامبراطورى ، أصبح الآن صديقا يثق فيه الامبراطور الذى أدرك أن بالامكان الإعتماد على ولائه ، وانما اعتقد أن أصله اللاتينى يرشحه للقبول لدى النبلاء الفرنج ، ولقد نسى التفكير فى كونستانس نفسها . إذ كان جليا أن جون روجر فى أواسط العمر ، وقد فقد سحر شبابه كله ؛ فلا ينتظر من الأميرة الشابة ، التى اشتهر زوجها الأول بوسامته ، أن تقبل هذا القرين الذى يقتدر إلى الروماتيكية . وهكذا دعت الأميرة القيصر فى رحلة العودة إلى الامبراطور . كان الأفضل للامبراطور أن يرسل أندرونيكوس إلى أنطاكية ، وجون روجر إلى كيليكيا للقتال^(١١).

١١٥٢ م : اغتيال ريموند الثانى

كان الملك بلديون مهيباً لأن يرحب بأى زوج لابنة خالته ؛ إذ جاءته مؤخرًا مسؤولية جديدة . ذلك أن الحياة الزوجية التى عاشها الكونت ريموند الثانى كونت طرابلس وزوجته هوديرنا التى جاءت من القدس لم تكن حياة سعيدة تماما . إذ كانت هوديرنا - كشأن أختيها مليسند وأليس - عنيدة طروب . ودارت همسات الريبة حول شرعية ابنتها مليسند ، مما دفع ريموند فى غيرته عليها إلى محاولة حبسها فى عزلة على النمط الشرقى . وبلغت العلاقة بينهما فى أوائل عام ١١٥٢ م من السوء ما جعل الملكة مليسند تشعر أن من واجبها التدخل ؛ فسافرت مع ابنها الملك إلى طرابلس لترقيع مصالحة عاجلة . وانتهاز بلديون الفرصة واستدعى كونستانس إلى طرابلس حيث راحت الخالتان توبخانهما على إصرارها العنيد على البقاء مترملة . على أنه ربما لأنهما

(١١) Cinnamus, pp.121-4, 178; Matthew of Edessa, cclxiii, pp.334-6, Gregory the Priest, p. 166; Sembat the Constable, p. 619; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 504-6; Michael the Syrian, iii p. 281.

كلتاها لم تنجحاً تماماً في الحياة الزوجية ، ذهبت نصائجهما أدراج الرياح ، وعادت كونستانس إلى أنطاكية دون أن تعد بشئ . غير أن تدخل الملكة كان فعالاً بصورة أكبر مع ريموند وهوديرنا اللذين وافقا على تسوية شجارهما ، وارتضى أنه من الأفضل أن تمضى هوديرنا أجازة طويلة للاستجمام في القدس ، وقرر ريموند البقاء في طرابلس لفترة نظراً لما أشيع من أن نور الدين سوف يهاجم الكونتية . وانطلقت الملكة والكونتيسة على الطريق الزاهب جنوباً وقد صاحبهما الكونت مسافة ميل أو ميلين . وأثناء عودته ، وبينما كان يعبر البوابة الجنوبية لعاصمته ، وثبت عليه عصابة من الحشاشين وطعنوه إلى أن أسلم الروح . وقد حاول والف (أوف ميرل) وفارس آخر كانا معه حمايته فلقيا حتفهما كذلك . وقد تم الأمر بسرعة شديدة بحيث لم يتمكن حراسه من الإمساك بالقتلة . وكان الملك يلعب النرد عندما جاءته الصيحات من أسفل المدينة ؛ واندفعت الحامية إلى سلاحها ونزلت كالسيل في الشوارع تقتل كل مسلم تراه. غير أن الحشاشين تمكنوا من الهرب ولم يعرف قط الدافع الذي دفعهم إلى ذلك^(١٢).

وأرسل من يدعو الملكة والكونتيسة للعودة ، وباشرت هوديرنا الوصاية باسم ابنها ريموند الثالث البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة . لكن الوضع كان يتطلب - كشأن أنطاكية - وجود رجل وصى على الحكومة ؛ واضطر بلدوين إلى تولي الوصاية بصفته أقرب الأقرباء الذكور . وفي الحال شن نور الدين غارة وصلت حتى طرطوس التي احتلها جنوده لفترة ، لكنهم سرعان ما دحروا منها ، وسلمها بلدوين - بموافقة هوديرنا - إلى فرسان المعبد^(١٣).

١١٥٢ م : الملكة مليسند ترضخ لإبنها

أسعد الملك أن تمكنه الظروف من العودة إلى القدس . وكانت الملكة مليسند المدركة لحقها الوراثة عازفة عن تسليم السلطة لإبنها . لكنه تجاوز الآن الثانية والعشرين من عمره ، والرأي العام يطالب بتويجه كحاكم ناضج . ولذلك ، ربت الملكة مع البطريق فولشر أن يعيد تويجها إلى جانبه حتى تكون مشاركتها السلطة

(١٢) William of Tyre, xvii, 18-19, pp. 789-92.

(١٣) *Ibid.*, loc. cit.; Ibn al-Qalanisi, p. 312.

مقبولة بوضوح . وكان من المقرر أن يتم التتويج يوم أحد الفصح ٣٠ مارس ، لكن بلدوين أرجأه . ثم إنه دون أن ترتأب أمه فى شئ دخل كنيسة القبر المقدس يوم الثلاثاء مع حرس من الفرسان وأجبر البطريق الغاضب على تتويجه بمفرده . وكان ذلك علامة على صدع بين فى المملكة . إذ كان للملكة الكثير من الأصدقاء ؛ مناس (أوف هيرج) ، حاميتها الذى كان لا يزال المسؤول عن الأمن (كونستابل) ، وكانت لعائلته اتصالات كثيرة من بينها عشيرة إيبيلين الكبيرة التى تسيطر على السهل الفلسطينى ، وكان الكثير من نبلاء جنوب فلسطين من شيعته . والجدير بالملاحظة أنه عندما ذهب بلدوين إلى انطاكية عام ١١٤٩م ، لم يصحبه سوى القليل من النبلاء ، إذ انها كانت بعثة لا تهتم بها الملكة . وكان النبلاء الذين صحبوه تحت زعامة همفري (أوف تورون) ووليم (أوف فالكونبرج) ، وكانت ضياعهما فى الجليل . ولم يغامر الملك باللجوء إلى القوة ، وانما عقد مجلسا كبيرا للمملكة دافع فيه عن مطالبه . وبفضل نفوذ رجال الدين أجبر على قبول حل وسط يقضى بتخصيص الجليل والشمال كمملكة له ، وأن تحتفظ مليسند بالقدس نفسها ونابلس ، أى يهودا والسامرة ، وأن يوضع الساحل - حيث يحتفظ الأخ الصغير للملك ، أمالريك ، بكروتية يافا - تحت سيادتها . وكان حلا مستحيلا . وبعد أشهر قليلة طلب الملك من أمه التنازل له عن القدس التى بدونها - كما قال - لا يستطيع الاضطلاع بحماية المملكة . وبتعاطف قوة نور الدين يوما بعد يوم، قويت الحجة ، وبدأ حتى أهم مؤيدى الملكة يتخلون عن قضيتها . غير انها صمدت بقوة وحصنت القدس ونابلس ضد ابنها ؛ ولسوء حظها باغت جنود الملك حاميتها الكونستابل مناس واعتقلوه فى قلعة ميرابيل الواقعة على حافة السهل الساحلى، وأبقى على حياته فى مقابل الوعد بالرحيل عن الشرق وعدم العودة مطلقا ؛ وعلى الأثر استسلمت نابلس للملك . أما الملكة ، التى هجرها نبلاؤها العوام ، والتى كانت ما تزال تحظى بتأييد البطريق ، فحاولت الصمود فى القدس. بيد أن المواطنين انقلبوا عليها ايضا وأرغموها على الكف عن النزاع ، وبعد أيام قليلة سلمت المدينة لابنها الذى لم يتخذ حيالها اجراء قويا نظرا لأن رأى القانونى قد ارتأى ذلك مناسبا فيما يبدو . وسمح لها بالاحتفاظ بنابلس وما حولها كبائنة لها ؛ ورغم انها تقاعدت من الحياة السياسية ، فقد احتفظت بحق رعاية الكنيسة . والآن وقد أمسى بلدوين هو الأعلى فى الحكومة العلمانية ، استبدل الكونستابل مناس بصديقه همفري أمير تبين^(١٤).

(١٤) William of Tyre, xvii, 13-14 pp. 779-83. كانت نابلس فى حوزة Philip of Milly الذى كان يؤيد الملكة . وفى ٣١ يولية ١١٦١م وقبل أسابيع قليلة من موت الملكة ، مُنح السيادة على ما وراء الأردن بدلا من نابلس (Rohrich, *Regesta*, p.96). ولم تستشر الملكة مليسند ، وبما مرضها

كان نور الدين يراقب تلك الاضرابات في الأسر الحاكمة الفرنجية بغاية الاستحسان. ولم يجشم نفسه عناء شن هجمات جادة ضد المسيحيين خلال تلك السنوات ؛ إذ كانت أمامه مهمة أكثر إلحاحا ، ألا وهي غزو دمشق . ولقد واصل أُوْنُرُ الدمشقي حروبا متقطعة ضد المسيحيين لعدة شهور بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، غير أن خشيته من نور الدين دفعته إلى قبول عروض السلام من القلس بكل سرور ، وفي مايو ١١٤٩م ، أعدت هدنة لمدة سنتين . وبعد ذلك مباشرة مات أُوْنُرُ في شهر أغسطس ، وتولى الحكومة الأمير مجير الدين ابن بوري، حفيد تغتكين والذي كان أُوْنُرُ يحكم باسمه^(١٥) . وكان ضعيفا ، مما أتاح لنور الدين فرصته ، على أن نور الدين لم يتصرف في الحال ، إذ مات أخوه سيف الدين في شهر نوفمبر ، وكان لزاما إعادة ترتيب أراضى الأسرة على الأثر . وورث الأخ الأصغر قطب الدين المرصل والأراضى الواقعة في العراق ، وقد اعترف بسيادة نور الدين عليه فيما يبدو^(١٦) . وفي شهر مارس من العام التالي زحف نور الدين على دمشق ، لكن الأمطار الغزيرة أبطأت من تقدمه ، وأتاح لمجير الدين الوقت الكافي لطلب المساعدة من القلس ؛ ولذا انسحب نور الدين بعد أن تلقى وعدا بأن ينقش اسمه على العملة ويذكر في الصلوات العامة في مساجد دمشق بعد اسم الخليفة وسلطان فارس . ومن ثم تأكدت حقوقه في سيادة عليا غير واضحة.

وفي مايو ١١٥١م ظهر نور الدين مرة أخرى أمام دمشق ، وجاء الفرنج ثانية لإنقاذها . وبعد أن عسكر نور الدين بالقرب من المدينة مدة شهر ، انسحب إلى بعلبك المجاورة التي كان يحكمها قائده أيوب ، أخو شيركوه . وفي تلك الأثناء سار الفرنج بقيادة الملك بلدوين إلى دمشق ، وسمح للكثير منهم بزيارة الأسواق داخل الأسوار ،

الشديد رغم أن ان اختها هودبيرنا، كوثيسة طرابلس الأرملة وافقت على الصفقة . ويفترض أن فيليب كان يمتلك أراضي التي منحها له مليسند وليس بلدوين الذي لم يتمكن من تنفيذ التبادل إلا على فراش موتها ، وإلا لحزمت من صديقها وتابعها الرئيسي . وكانت راحة فيليب ، إيزابلا أو إليزابث ، ابنة احدث Pagan of Oultrejourdain، والوريثة في نهاية الأمر لخليفته Maurice الذي انضم إلى فرسان المعبد بعد موتها. يبدو أن زوج اختها ماريا Walter Brisebarre III of Beirut أصبح لورد ما وراء الأردن التي حصل عليها بدلا من إقطاعيته في بيروت ، ولكن بعد موت زوجته وابنتها الرضيعة يبدو أنه فقد الإقطاعية التي انتقلت إلى ابنة فيليب Stephanie. انظر 'Les Rey, Seigneurs de Montréal' and 'Les Seigneurs de Barut' في أماكن متفرقة.

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 295. يقول ان اونور مات بمرض الدوسنتاريا .

(١٦) Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.171-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 295-6. وللإطلاع على مصادر المخطوطات انظر p.393 n 12 .Cahen, *op.cit*

بينما قام بجير الدين بزيارة ودية للملك في المعسكر المسيحي ؛ لكن قوة الحلفاء لم تكن بالقدر الكافي لتعقب نور الدين ، وبدلاً من ذلك زحفوا على بصرى التي تمرد أميرها سرخاك على دمشق وقبل المساعدة من نور الدين . ولم تفلح حملة الفرنج ؛ غير انه سرعان ما تصادق سرخاك مع الفرنج ، كما هي عادة صفار امراء المسلمين في القلب السريع ، واضطر بجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين لإرغام سرخاك على الطاعة . وعندما اتجه نور الدين شمالاً مرة أخرى ، تبعه بجير الدين وقام بزيارته في حلب حيث وقعت معاهدة صداقة . لكن أمراء دمشق كانوا لا يزالون رافضين التخلي عن التحالف مع الفرنج . وفي ديسمبر ١١٥١م حاولت عصابة من التركمان الإغارة على بانياس ، وربما كان ذلك بأوامر من أيوب ؛ وقامت الحملة بغارة مضادة على أراضي بعلبك دحرها أيوب . وتوحي بجير الدين جانب الحذر وأعلن براءته من أية علاقة له بتلك الأعمال الخيرية . وشعر بمرج أكبر في خريف ١١٥٢م عندما جاءه فجأة الأمير الأرتقي تمرشاش صاحب مردين على رأس جيش من التركمان قاده خلال المستنقعات حول حافة الصحراء ، وطلب مساعدته في شن هجوم مفاجئ على القدس ، وربما سمع بالمشاجرات التي دارت بين بلدوين ومليسيند فظن أن توجيه ضربة قوية قد تفلح . وتصرف نور الدين تصرفاً وسطاً بأن سمح له بشراء المون ، ثم سعى إلى اقناعه بعدم المضى أكثر من ذلك . ثم إن تمرشاش اندفع اندفاعاً عنيفاً عبر الأردن ، وضرب معسكره أينما اتفق فوق جبل الزيتون ، بينما كان نبلاء الفرنج مجتمعين في مجلسهم في نابلس ، للترتيب بلا شك لبائنة مليسيند . غير أن حامية القدس عجزت في هجوم مفاجئ على التركمان الذين وجدوا أن هجومهم المفاجئ قد فشل ، فاضطروا إلى الانسحاب إلى الأردن ، حيث هجم عليهم جيش المملكة وهم على ضفة النهر وفاز بنصر كامل^(١٧).

١١٥٠م : مكائد في مصر

خلال الأشهر التالية تحول انتباه المسيحيين والمسلمين على السواء إلى مصر . إذ بدت الخلافة الفاطمية هناك على وشك التصدع . فمنذ مقتل الوزير الأفضل ومصر تفتقر إلى حاكم مقتدر . وقد حكم الخليفة الأمر حتى أكتوبر ١١٢٩م إلى أن اغتيل هو الآخر ، وتعاقب على تصريف شؤون الحكم سلسلة من الوزراء الضعاف . وأظهر الحافظ - الذي خلف الأمر - شخصية أقوى وحاول التخلص من اصفاء الوزارة بتعيين

ابنه هو نفسه ، حسن ، فى منصب الوزير . بيد أن حسن لم يكن بالوزير المطيع وقتل بأوامر من أبيه عام ١١٣٥ م . وراح الوزير التالى ، فاهرام الأرمينى المولد ، يمسأ الادارة بأبناء جلدته ، لا لشئ سوى اشارة رد فعل عام ١١٣٧ م عندما جرت فى شوارع القاهرة دماء المسيحيين لعدة ايام . ولم يكن المحافظ أكثر حظا من آخر وزرائه رغم انه تشبث بالعرش إلى أن مات عام ١١٤٩ م . وبدأ عهد ابنه الظافر بحرب اهلية صريحة بين أبرز قائديه ، ففاز أمير بن صلاح وأصبح وزيرا ، لكى يُغتال هو نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات^(١٨) . وتسببت مكائده وما سال من دماء لا نهاية لها فى ارتضاع الآمال لدى أعداء مصر ؛ فبدأ الملك بلدوين عام ١١٥٠ م فى ترميم تحصينات غزة ، وكانت عسقلان مازال قلعة فاطمية ، وقد دأبت حاميتها على الإغارة على الأراضى المسيحية . فتقرر أن تكون غزة قاعدة للعمليات ضد عسقلان ؛ مما أثار مشاعر الخطر لدى الوزير ابن صلاح . وكان من بين اللاجئين فى البلاط الفاطمى الأمير أسامة بن منقذ ، وكان من قبل فى خدمة زكى . فأرسله ابن صلاح إلى نور الدين ، الذى كان معسكرا الآن امام دمشق ، طالبا منه القيام بهجوم مضلل فى الليل ، وسيقوم الأسطول المصرى فى الوقت نفسه بالإغارة على الموانئ الفرنجية . ولم تفلح السفارة ، اذ كانت هناك مشاغل اخرى تشغل نور الدين . وتوقف اسامة فى طريق عودته فى عسقلان لعامين للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنج المحليين ، ثم عاد إلى مصر فى الوقت المناسب ليشهد المكائد التى تلت مقتل ابن صلاح على يد عباس ، ابن زوجته ، بتستر من الخليفة^(١٩) .

١١٥٣ م : الإستيلاء على عسقلان

وقد حدثت تلك الفواجع فى أعقاب انتصار الملك بلدوين على أمه مباشرة ، فقرر مهاجمة عسقلان وراح يعد لها عدتها بعناية ، وفى ٢٥ يناير ١١٥٣ م ظهر أمام أسوارها جيش المملكة كله بكل آلات الحصار التى استطاعت المملكة تعبئتها . وكان مع الملك السيدان العظيمان لنظامى فرسان المستشفى وفرسان المعبد مع نخبة رحالهما ، وعظام لوردات المملكة العلمانيين ، والبطريق ، ورؤساء أساقفة صور وقيسارية والناصرية ،

(١٨) . Ibn al-Athir, pp. 475-7. See Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 190-5 .

(١٩) . Usama, ed. Hitti, pp. 40-3; Ibn al-Qalanisi, p. 314. أوردد ابن القلانيسى pp. 307-8 الغارة المصرية على الساحل الفرنجى عام ١١٥١ م ، كما أوردد غارة مصرية انطلقت من عسقلان فى ابريل عام ١١٥٢ م (p.312).

وأسقفا بيت لحم وعكا . وكان الصليب الحقيقى بصحبة البطريق . وكانت عسقلان قلعة هائلة ، ممتدة من البحر فى شبه دائرة عظيمة ، وتحصيناتها مرممة ترميما رائعا ؛ وكانت الحكومة المصرية تحتفظ فيها دائما بمخزونات الأسلحة والمون . وظل الجيش الفرنجى لعدة شهور عاجزا عن التأثير فى أسوارها رغم قدرته على حصارها حصارا كاملا . وأضافت سفن الحجاج التى وصلت فى وقت عيد الفصح تقريبا قوة إلى صفوف رجال الجيش الفرنجى ، غير أن وصول الاسطور المصرى فى شهر يونية وازن الموقف . ولم يغامر الفاطميون بانقاذ عسقلان برا ، وإنما أرسلوا اسطولا من سبعين سفينة محملة بالرجال والسلاح والامدادات من كل لون . ولم يجرؤ جيزارد أمير صيدا - الذى كان قائدا للسفن العشرين وهى كل ما تملكه المملكة - على مهاجمة الاسطول المصرى ، وأبحرت السفن المصرية منتصرة إلى داخل الميناء مما أشعل حماس المدافعين ، لكن السفن أبحرت بعيدا بعد أن أفرغت حمولتها ، وتواصل الحصار . وكان أروع آلات الحصار لدى الفرنج برج خشبى هائل تجاوز ارتفاعه قمة الأسوار وراح يقذف الأحجار والحزم المشتعلة فى شوارع المدينة مباشرة . وفى إحدى الليالى ، فى أواخر يولية ، زحف بعض أفراد الحامية خارجين من المدينة وأشعلوا فيه النيران ؛ لكن رياحا هبت ودفعت الكتلة الهائلة المحترقة لترتطم بالسور ، وتسببت الحرارة الشديدة فى تفكك بناء السور ، وفى الصباح كانت هناك فجوة فى السور . وقرر فرسان المعبد - الذين كانوا يشغلون ذلك القطاع - أن يكون لهم وحدهم شرف النصر . فوقف بعض رجالهم يمنعون أى مسيحي آخر من الاقتراب ، واندفع أربعون فارسا إلى داخل المدينة . وظنت الحامية بادئ الأمر أن كل شئ قد ضاع ، لكنها بعدما رأت ضالة عدد فرسان المعبد ، أحاطوا بهم وقتلوه . وأصلحت فجوة السور على عجل ، وعُلقت جثث فرسان المعبد خارج الأسوار .

وأثناء الهدنة التى عقدت لتمكين كل جانب من دفن موتاه ، عقد الملك مجلسا فى نخيمته ، أمام الصليب الحقيقى . وثبّتت همة النبلاء العلمانيين مما حدث ، فرغبوا فى التخلص عن الحصار ؛ غير أن البطريق ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى - ريموند (أوف لو بوى) حثا الملك على مواصلة الحصار ، وكان لفصاحتهم فعلها فى إثارة مشاعر البارونات ، وعاد الهجوم بأعنف مما كان .

وفى ١٩ أغسطس ، وبعد قصف المدينة قصفا شرسا ، قررت الحامية التسليم ، بشرط السماح للمواطنين بالرحيل المأمون مع منقولاتهم . وقبل بلدوين الشرط والتزم به باخلاص . وبينما كانت الجموع الغفيرة من المسلمين تتدفق خارج المدينة برا وبحرا

للعودة إلى مصر ، دخل الفرنج المدينة في حالة من الإثارة واستولوا على الحصن بما فيه من مخزونات الثروة والأسلحة الهائلة . وعهد بسيادة عسقلان إلى أخى الملك أمالريك ، كونت يافا . وتحول المسجد الكبير إلى كتدرائية القديس بول ورسم البطريق أحد قساوستها أسقفا وهو أبسالوم . وفيما بعد حصل أسقف بيت لحم ، جيرارد ، على مرسوم من روما باستقلال المقر الأسقفى^(٢٠).

كان الاستيلاء على عسقلان آخر الانتصارات العظيمة للملك القدس ، ورفعت مكانتهم ارتفاعا كبيرا . ذلك أن الفوز أخيرا بالمدينة التى كانت تعرف بأنها عروس سوريا ، يعتبر انجازا مدويا ؛ بيد أنه فى واقع الأمر لم يعد بفائدة حقيقة . وعلى الرغم من أن تلك القلعة كانت قاعدة انطلاق غارات صغيرة فى الأراضي الفرنجية ، لم تعد مصر تمثل تهديدا خطيرا للمسيحيين . لكن الفرنج ، وقد باتت عسقلان فى أيديهم ، أصبحوا هدفا لكائنات المغامرات الخطرة التى تأتيتهم من النيل . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل نور الدين ، ببصيرة سياسته ، يحجم عن محاولة التدخل فى الحملة ، فيما عدا ما كان يخطط له من حملة على بانياس اشترك معه فى التخطيط لها بحجر الدين صاحب دمشق ، والتى لم تمصر عن شئ نظرا للمشاجرات المتبادلة بينهما . ولم يكن بوسعه التأسى لإضعاف مصر ، ولا لتحول انتباه الفرنج نحو الجنوب . أما بحجر الدين صاحب دمشق ، فقد تأثر بسهولة أكبر ، وسارع يؤكد لبلدوين صداقته المخلصة ، ووافق على أن يدفع له إتاوة سنوية . وبينما راح لوردات الفرنج يتجولون ويغيرون على الأراضي الدمشقية كما يحلو لهم ، كان سفراء الفرنج يأتون إلى المدينة لجمع المال لمليكتهم^(٢١).

١١٥٤ م : نور الدين يأخذ دمشق

كان بحجر الدين ومستشاروه حريصين على سلامتهم الشخصية ، ولذا فضلوا أن تكون دمشق محمية فرنجية من أجل مصيرهم على أن يصبح نور الدين سيدهم . لكن المواطن العادى فى دمشق كان يشعر بأن غطرسة المسيحيين فوق الإحتمال وأن الأسرة

(٢٠) William of Tyre, xvii, 1-5, 27-30, pp.794-802, 804-13; Ibn al-Qalanisi, pp.314-17; Abu Shama, pp.77-8; Ibn al-Athir, p.490.

(٢١) Ibn al-Qalanisi, pp. 315-16 (الذى التزم التحفظ حول النفوذ الفرنجى فى دمشق)؛ -Ibn al-Athir, p.496, and *Atabegs*, p.189.

المالكة البورية ما تفتأ تثبت خيانتها للعقيدة ، فانتهاز أيوب أمير بعلبك تلك المشاعر ، وأرسل عملاءه يتوغلون في المدينة يحثون على الازدراء من مجير الدين ، وحدث في تلك الآونة أن نقص الطعام في دمشق ؛ فاحتجز نور الدين القوافل التي كانت تجلب الحبوب من الشمال ، وراح عملاء أيوب ينشرون الشائعات بأن ذلك خطأ مجير الدين لرفضه التعاون مع رفاقه المسلمين . ثم إن نور الدين أقنع مجير الدين بأن الكثير من وجهاء دمشق يتآمرون ضده ، مما أثار الذعر لدى مجير الدين فنكل بهم . وهكذا خسر مجير الدين كلا من الأغنياء والفقراء ، وعندئذ جاء شيركوه ، أخو أيوب ، أمام دمشق كسفير من نور الدين ، مصطحبا قوة مسلحة كما تجرى عليه عادة البعثات الصديقة ، غير أنه كان يضمر الشر . ولم يسمح له مجير الدين بدخول المدينة ولا خرج لمقابلته ؛ فاعتبر نور الدين ذلك التصرف اهانة لسفيره وزحف على دمشق بجيش كبير . وذهبت رسل مجير الدين تناشد في يأسها مساعدة الفرنج ، لكنها أرسلت بعد فوات الأوان ؛ إذ ضرب نور الدين معسكره أمام أسوار دمشق يوم ١٨ إبريل ١١٥٤م ؛ وبعد أسبوع واحد بالضبط ، حدثت أثناء بعض المناوشات خارج السور الشرقي ، ساعدت امرأة يهودية بعض رجاله على دخول الحى اليهودى ، وعلى الفور فتحت الجماهير البوابة الشرقية ليدخل سواد الجيش . وفر مجير الدين إلى القلعة ، لكنه استسلم بعد ساعات قليلة فقط ؛ ووهبت له حياته وإمارة حمص . على أنه بعد أسابيع قليلة حامت الريب حول تأمره مع أصدقاء قدامى في دمشق ؛ فطرد من حمص . ورفض مدينة باليس التي عرضت عليه في الفرات ، وتقاعد في بغداد .

وفى تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة . ومنع جنوده من النهب ، وملأ الأسواق من فوره بالمواد الغذائية ، وألغى الضرائب على الفاكهة والخضروات . وعاد نور الدين إلى حلب بعدما ترك أيوب لتصرف شؤون دمشق . وعهد إلى أحد النبلاء المحليين بمدينة بعلبك ، لكنه تمرد فيما بعد على نور الدين وكان لزاما إخضاعه للطاعة^(٢٢).

رجحت كفة الميزان رجحانا شديدا باستيلاء نور الدين على دمشق وفاقت استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ امتدت أراضيه الآن جنوبا بطول الحدود الشرقية للدويلات الفرنجية ، من الرها إلى ما وراء الأردن ؛ ولم يبق في سوريا الإسلامية سوى القليل من

(٢٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 318-21; Ibn al-Athir, pp. 496-7, and *Atabegs*, pp. 190-2; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 527-8.

الامارات الصغيرة التي احتفظت باستقلالها ، مثل شيزر . وعلى الرغم من أن الممتلكات الفرنجية كانت أوسع في مساحتها وأغنى في مواردها ، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة في ظل سيد واحد لا يكاد يضايقه أحد من أتباعه كما كان يعاني الفرنج من اتباعهم المتعجرفين . لقد كان نجمه آخذاً في الصعود . لكنه كان شديد الحذر من مواصلة انتصاراته بسرعة سريعة ؛ ويبدو أنه أعاد تأكيد التحالف بين دمشق والقدس وجدد الهدنة في ١١٥٦م لستين آخرين عندما دفع ثمانية آلاف وحدة من عملة الدوقانية^(٢٣) استمراراً للإتاوة التي كان يدفعها بحجر الدين . ويعزى صيره أساساً إلى تنافسه مع سلاجقة الأناضول ، إذ كان يرغب في الاستيلاء على نصيبهم من كوتية الرها السابقة^(٢٤) .

ومات السلطان مسعود عام ١١٥٥م ؛ وعلى الفور تشاجر ولده قلعج أرسلان الثاني وشاهنشاه على الميراث . وفاز الأول بتأييد الأميرين الدانشمديين ذوالنون صاحب قيسارية وذوالقرنين صاحب ملطية ؛ وفاز الثاني بتأييد أكبر الدانشمديين ، ياغي سيان صاحب سيواس . وطلب ياغي سيان مساعدة نور الدين الذي استجاب بالهجوم على الحصنة السلجوقية من الرها السابقة ، فضم مدن عيتاب ودولوك ، وربما المصيص . وهزم قلعج أرسلان أخيه . ورغم أنه حاول التحالف مع الأرمن والفرنج ضد نور الدين ، إلا أنه أجبر على قبول خسارته لمقاطعته الفراتية^(٢٥) .

ولما أمن نور الدين على نفسه في الشمال ، عاد إلى الجنوب مرة أخرى . وفي شهر فبراير ١١٥٧م نقص بلدوين هديته مع نور الدين . ذلك أن أعداداً غفيرة من التركمان ، وقد اعتمدوا على الهدنة ، جاءوا بقطعان أغنامهم وخيولهم لترعى في المراعي الخصبة بالقرب من الحدود عند بانيساس . ولم يستطع الملك بلدوين - المنقل بالديون لحبه للرفاهية لا غير - مقاومة إغراء مهاجمة الرعاة في غير أرتياب منهم واختطاف قطعانهم . وقد أكسبه هذا الخرق المخزي لالتزاماته ، أنفس الغنائم التي غنمتها فلسطين لعقود كثيرة ؛ لكنها أنهضت نور الدين للثأر . ففي الوقت الذي توقف فيه في بعلبك لإخضاع أميرها المتمرد ، كان قائده شيركوه قد هزم بعض

(٢٣) (المترجم): نسبة إلى اللفظة الإيطالية *Ducato* أى عملة ذهبية أو فضية تحمل صورة دوق Duke، كانت تستعمل فيما سبق في بعض البلدان الأوروبية.

(٢٤) Ibn al-Qalalnsi, pp. 322, 327.

(٢٥) Ibid. pp 324-5; Nicetas Choniates, pp. 152-4; Gregory the Priest, p. 176.

الغارات اللاتينية في البقاع ؛ واجتث أخوه نصر الدين شافة جماعة من فرسان المستشفى بالقرب من نابلس . وفي شهر مايو انطلق نور الدين نفسه من دمشق لحصار بانياس ؛ وقهر شيركوه قوة إغاثة صغيرة ثم لحق بسيدته أمام أسوار بانياس . وسرعان ما استولى على أسفل المدينة ، لكن القلعة - التي تبعد مسافة ميلين على قمة جبل شديد الانحدار - صمدت بقيادة الكونستابل همفري (أوف تورون) ، الذي أوشك على الاستسلام لولا أن جاءت الأنبياء باقتراب الملك ؛ فأشعل نور الدين النيران في أسفل المدينة وانسحب تاركا للدين يدخل بانياس ويصلح الأسوار . وبينما كان الفرنج في طريق عودتهم جنوب الأردن ، انقض عليهم نور الدين شمال بحر الجليل مباشرة ونال نصرا مؤزرا . وبشق الأنفس هرب الملك إلى صفد ، وتمكن المسلمون من العودة لمحاصرة بانياس . على أنه بعد أيام قليلة جاءت الأنبياء من الشمال بتوقع هجوم من قلج أرسلان ، الأمر الذي دفع نور الدين إلى التخلي عن محاولة الحصار وأسرع عائدا إلى حلب^(٢٦) .

١١٥٦م : زلازل في سوريا

وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى الرغبة في تجنب حرب صريحة في تلك الآونة . ففي أوائل خريف عام ١١٥٦م ، حدثت في سائر أنحاء سوريا سلسلة من الزلازل . ولم تحدث في دمشق أضرار جسيمة ، وإنما جاءت أنباء الدمار من حلب وحماة ، بينما انهار موقع حصن في أفاميا . وفي نوفمبر وديسمبر حدثت هزات أخرى عانت منها مدينة شيزر . وفي الربيع التالي حدثت هزات أخرى كان لها تأثيرها على قبرص والمدن الساحلية الواقعة شمالى طرابلس . وفي أغسطس ١١٥٧م عانى وادي نهر العاصي من هزات أكثر جساما . وسقط ضحايا عديدون في حمص وحلب . وفي حماة كان الدمار من البشاعة بحيث أطلق المؤرخون على الزلزال زلزال حماة . وفي شيزر كانت عائلة المنقذين قد تجمعت لتحتفل بختان أمير صغير عندما انقضت أسوار القلعة الضخمة على أفرادها ؛ ولم يتبق على قيد الحياة من كل الأسرة الحاكمة سوى أميرة شيزر التي أخرجت من بين الأنقاض ، وأسامة الذي كان بعيدا في مهمته الدبلوماسية . وكان المسلمون والمسيحيون سواء بسواء منهمكين تماما في إصلاح القلاع المخطمة ولم يفكروا في حملات هجومية جادة لبعض الوقت^(٢٧) .

(٢٦) . William of Tyre, xviii, ii-i5, pp. 834-45; Ibn al-Qalanisi, pp. 325-6, 330-7

(٢٧) Robert of Torignz, i, p. 309; Michael the Syrian, iii, pp. 315-16, Armenian version,

وفى أكتوبر ١١٥٧ م ، وبعد أن عاد نور الدين من بانياس ، سقط فجأة مريضاً فى حالة مريضة فى سارمين . وظننا منه أن قد حان أجله ، أصر على أن يُنقل على محفة إلى حلب ؛ حيث أوصى برصيته التى تقضى بأن يخلفه أخوه نصر الدين فى دويلاته ، على أن يحكم شيركوه دمشق تحت سيادته . على أنه عندما دخل نصر الدين حلب للاستعداد لتسلم الميراث ، لقي معارضة من حاكمها ، ابن الداية ، وحدثت اضطرابات فى الشوارع لم تهدأ إلى أن استدعى وجهاء حلب إلى فراش أميرهم ، فوجدوه ما يزال على قيد الحياة، وقد مرت الأزمة المرضية الآن وبدأ يستعيد صحته ببطء . لكنه بدا وقد فقد شيئاً من مبادرته وطاقته ؛ فلم يعد المحارب الذى لا يقهر . لقد كانت هناك قوى أخرى آخذة فى الظهور فى سوريا تنهياً للسيطرة على مسرح الأحداث^(٢٨).

-p.356; *Chron. Anon. Syr.*(Syriac edition), p. 302; Ibn al-Qalanisi, pp. 338-41; Ibn al-Athir, p. 503; Kemal ad-Din, ed.Blochet, p. 529 واستناداً الى ابن القلانيسى ، شحشى نورالدين أن يهاجم الفرنج حصونه العارية من الحماية ولذا ابقى على تجمع الجيش لمنع أية حركة كهذه . ويرد عند أبى شامة طبعة القاهرة، المجلد الأول ص ١١٢ ، المراثة الشعرية لأسامة على دمار عائلته ، التى كان قد تشاجر معها.

William of Tyre, xviii, 17 pp. 847-8; Ibn al-Qalanisi, p. 341; Kemal ad-Din, (٢٨) ed.Blochet, pp. 531-i; Abu Shama, p. 110 (in R.H.C.Or)

الفصل الثالث:

عودة الإمبراطور

محنة الامبراطور

"فَإِرجِعْ مَلِكُ الشِّمَالِ وَيُقيمُ جُمهوراً أَكْثَرَ مِنَ الأوَّلِ وَيأتى بعدَ
حينٍ بعدَ سِنينَ بِجيشٍ عظيمٍ وثروةٍ جَزيلةٍ"
(دانيال ١١ : ١٣)

فى عام ١١٥٣م ، وبينما كان نور الدين يركز انتباهه على دمشق ، وأنشاء أن كان الملك بلدوين وجيشه أمام عسقلان ، قررت أميرة انطاكية أن تختط مصرها بنفسها . ذلك أنه كان هناك فارس من بين الفرسان الذين تبعوا لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية يدعى رينالد ، هو الابن الأصغر المفلس لجيوفرى (كونت جين ولورد شاتيلون سير لوان) . وكان المستقبل مظلماً أمام رينالد (أوف شاتيلون) فى بلده، ولذا لم ينضم إلى الصليبيين عندما عادوا إلى بلادهم ، وإنما مكث فى فلسطين حيث التحق بخدمة الملك بلدوين الصغير ، وصحبه إلى انطاكية عام ١١٥١م ؛ وسرعان ما التقطته عينا الأميرة المزملة . ويدلوا انه بقى فى امارتها، بعدما تملك اقطاعية صغيرة طبعاً ؛ ورعى كان وجوده هو الذى دفعها إلى رفض الأزواج المرشحين من الملك والامبراطور . وفى ربيع عام ١١٥٣ قررت أن تتزوجه . وقبل أن تعلن عن نيتها التمسست الاذن من الملك، إذ أنه الوصى على دولتها والسيد الأعلى لعريسها ، وسارع

رينالد إلى عسقلان حيث معسكر الملك وسلمه رسالة كونستانس . ولم يعترض الملك لمعرفة أن رينالد جندى شجاع ، وقبل كل شئ وجد فيه الخلاص من مسؤوليته عن انطاكية ؛ وما أن عاد رينالد إلى انطاكية حتى انعقد الزواج ونُصّب رينالد أميراً . على أنه لم يكن بالزوج الذى يحظى بالقبول إذ ساد الاعتقاد ، ليس فقط لدى عظام الأسر فى انطاكية وإنما أيضاً لدى رعايا الأميرة الأكثر تواضعاً ، بأنها قد حطت من قدرها بتسليم نفسها لهذا المغرور بمجدانة النعمة^(١) .

وكان من اللائق والصواب أن تطلب كونستانس الإذن من الامبراطور مانويل كذلك ؛ إذ أن القسطنطينية استقبلت أبناء الزواج استقبالا سيئاً ، على أن مانويل كان مشغولاً آنذاك فى حملة ضد السلاجقة ؛ ولم يكن بوسعها أن يعرب عن حنقه بصورة عملية ؛ وإدراكاً منه لحقوقه الأنطاكية أرسل يعرض الإعراف بالأمير الجديد إذ حارب الفرنج انطاكية إلى جانبه ضد ثوروس الأرمينية . وامثل رينالد طواعية؛ فالتأيد الامبراطورى سيقوى من مركزه شخصياً ؛ فضلاً عن أن الأرمن توغلوا فى مقاطعة الإسكندرونة التى يزعم الفرنج انها جزء من الإمارة الأنطاكية ؛ وتصدى لهم رينالد فى معركة قصيرة بالقرب من الإسكندرونة ودحرهم إلى كيليكيا ، وأهدى البلد الذى استعاده إلى نظام فرسان المعبد الذى راح يعمل على حماية مداخلها بإعادة بناء قلعتى قسطنطين وبجراس اللتين تتحكمان فى البوابات السورية . وكان رينالد قد قرر تنسيق تعاونه مع نظام فرسان المعبد ، ومن ثم بدأ معه علاقة صداقة قدر لها أن تكون مهلكة للقدس^(٢) .

وبعد أن ضمن رينالد الأراضى التى أرادها، طلب الإعانة المالية من الامبراطور ، الذى رفض مشيراً إلى أن المهمة الرئيسية لم تُنجز بعد، فما كان من ريموند إلا أن غير سياسته . وبتشجيع من فرسان المعبد، توصل إلى سلام مع ثوروس وأخوته؛ وفى الوقت الذى كان الأرمن يهاجمون فيه القلاع البيزنطية المتبقية فى كيليكيا، قرر تسيير حملة ضد جزيرة قبرص الغنية . لكنه كان يفتقر إلى المال اللازم لهذه الحملة . وكان بطريق

(١) William of Tyre, xvii, 26 p. 802 ، يقول إنها تزوجت سرا قبل حصولها على إذن الملك . ويطلق عليه Cinnamus, p.178 "واحد اسمه رينالد" Michael the Syrian, Armenian version؛ ويرد أصل منشأه فى Schlumberger (Renald de Châtillon, p.3). وقد تم الزواج قبل شهر مايو، عندئذ أكد رينالد امتيازات البنادقة فى انطاكية (Rohricht, Regesta, p.72)

(٢) William of Tyre, xviii, 10 pp. 834-5; Michael the Syrian, iii, p. 314 and Armenian version, p. 349 ويورد ميخائيل السوري فى تاريخه ما يؤيد ثوروس ؛ Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 283

انطاكية، إيمرى، على جانب كبير من الثراء، وكان قد جاهر بعدم موافقته على زواج كورنستانس، فعقد رينالد العزم على معاقبته على النحو الذى يعود عليه بالنفع. وكان إيمرى قد نال احترام الأنطاكيين بما كان له من شجاعة ونشاط فى الأيام السوداء التى أعقبت موت الأمير ريموند؛ لكن البطريق إيمرى كان أمياً منحلّ الخلق مما نال من سمعته وجعلته معرضاً للهجوم. وطلب منه رينالد المال، ولما رفض فقد رينالد أعصابه وألقى به فى غيابة السجن، حيث ضُرب الأسقف ضرباً مبرحاً على رأسه، ثم لُطِخت جراحات رأسه بالعسل وترك على سطح القلعة مقيداً بالسلاسل تحت الشمس المحرقة طوال يوم كامل من أيام الصيف ليكون ضحية لكافة الحشرات فى الجوار. وأثمر هذا العقاب؛ إذ أسرع البطريق البائس إلى الدفع بدلا من أن يقضي يوماً آخر فى العذاب. وفى تلك الأثناء وصلت القصة إلى القلس، فارتاع الملك بلدوين وأرسل فى الحال مستشاره رالف وأسقف عكا للإصرار على إطلاق سراح البطريق فى الحال. وأطلق رينالد سراحه بعد أن حصل على المال، وعاد إيمرى بصحبة منقذه إلى القلس حيث استقبله الملك والملكة مليسند وأخوه البطريق بأسمى آيات التشريف؛ ورفض العودة إلى انطاكية^(٣).

١١٥٦م : رينالد يُغير على قبرص

صدمت تجربة البطريق الدوائر الفرنجية المسؤولة ، لكن رينالد لم ينجح ، وبإمكانه الآن مهاجمة قبرص . وفى ربيع عام ١١٥٦م ، هبط هو وثوروس على الجزيرة فجأة . وكانت قبرص قد تجتبت الحروب والغزوات التى أشاعت الاضطراب فى القارة الآسيوية خلال القرن المنصرم ، وكانت راضية ومزدهرة فى ظل الحكام البيزنطيين . وقبل نصف قرن ، كانت طرود الطعام القيرصية ذات عون كبير لفرنجة الحملة الصليبية الأولى عندما كان أفرادها يتضورون جوعاً أمام انطاكية ، وكانت العلاقات بين الفرنج وحكومة الجزيرة تنعم بدفء الود ، باستثناء بعض الخلافات الادارية المؤقتة . وما أن سمع الملك بلدوين بخطة رينالد حتى أرسل رسالة عاجلة لتحذير الجزيرة ، لكنها وصلت بعد فوات الأوان ؛ وتعذر دفع التعزيزات لتصل فى الوقت المناسب . وكان حاكم الجزيرة هو جون كومنينوس ، ابن أخى الامبراطور، وكان معه فى الجزيرة الجندى البارز ميخائيل براناس . وبوصول أنباء الهبوط الفرنجى على الجزيرة ، اندفع براناس بميليشيات الجزيرة

William of Tyre, xviii, I, pp. 816-17; Cinnamus, p. 181. (٣)

إلى الساحل وانتزع نصرا مبدئيا صغيرا ؛ غير أن الغزاة كانوا بأعداد غفيرة ، وسرعان ما تغلبوا على جنوده واسروه هو نفسه ؛ وعندما خف جون كومنينوس لمساعدته أسير هو الآخر . ثم أن الفرنج والأرمن المنتصرين انساحوا فى أرجاء الجزيرة يسلبون وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم من المباني التى تستوي فيها الكنائس والأديرة والخوانيت والمنازل الخاصة . وأحرقت الجثث ، وجمعت قطعان الماشية مع السكان كلهم وسيقوا إلى الساحل . واغتصبت النساء ، أما الأطفال والطاعنون فى السن غير القادرين على الحركة ، فقد قطعت السيوف حناجرهم . وكان نطاق القتل والسلب من السعة والبشاعة بحيث يثير الحسد لدى المغول والمون^(٤) . وتواصل الكايوس نحو من ثلاثة أسابيع ، وبانتشار شائعة بأن الأسطول الامبراطورى فى الأفق ، أصدر رينالد أوامره بالعودة إلى السفن التى كانت مكثظة بالأسلاب . فبيعت القطعان والأسراب لأصحابها بأسعار مرتفعة . وأجبر كل قبرصى على أن يفتدى نفسه ، ولم يتبق فى الجزيرة من المال يدفع للفدية . ولذا أخذ الغزاة معهم إلى انطاكية الحاكم وبراناس ، بالإضافة إلى كبار رجال الكنيسة وأبرز الملاك وأهم التجار بعلاتلاتهم ، ليملكوا فى السجن إلى أن تصل اموال الفدية ، فيما عدا البعض ممن مُزقت أوصالهم وارسلوا فى هيئة ساخرة إلى القسطنطينية^(٥) . ولم تبرا جزيرة قبرص قط من الخراب الذى احدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن . واكمل البؤس بزلزل شديدة ضربت قبرص ضربات قاسية عام ١١٥٧م ؛ وفى عام ١١٥٨م أغار الأسطول المصرى - الذى لم يغامر قط بدخول المياه القبرصية - ببعض الغارات العارية من الحماية ، والأرجح أن ذلك قد حدث بدون إذن رسمى من حكومة الخليفة ؛ إذ كان من بين المأسورين أخو حاكم الجزيرة الذى استقبل فى القاهرة استقبالا مشرفا وأعيد فى الحال إلى القسطنطينية^(٦) .

١١٥٧م : الفرنج يهاجمون شيزر

فى عام ١١٥٧م ، عاد كونت فلاندرز - ثيرى - إلى فلسطين مع فصيلة من

(٤) (المترجم) المون Huns : شعب مغولى احتاح أجزاء كبيرة من اوروبا الشرقية والوسطى تحت زعامة أتيلان عام ٤٥٠م تقريبا.

(٥) William of Tyre, xviii, 10, pp. 834-5; Cinnamus, pp. 78-9; Michael the Syrian, iii, 284, p. 315, and Armenian version, p. 350, Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 187 Gregory the Priest, p. 187 إن رينالد قطع أنوف القساوسة اليونانيين الذين أسرهم

(٦) Ibn Moyassar, p. 473.

الفرسان ، وفي الخريف قرر بلدوين انتهاز مجيئه ومرض نور الدين لإعادة ترسيخ الأوضاع الفرنجية في وسط وادي العاصي ، وشجع رينالد على الانضمام إلى الجيش الملكي في الهجوم على شيزر . وكانت قلعتها ، بعد زلزال أغسطس المدمر ، قد سقطت في أيدي عصابة من المغامرين الحشاشين . ووصل الجيش إلى هناك في نهاية العام ؛ وفي الحال استولوا على أسفل المدينة ، وبدأ سقوط القلعة المحطمة وشيكا لولا أن ثارت مشاجرة بين المحاصرين ؛ إذ وعد بلدوين بأن يهب المدينة لثبتي لتكون نواة لإمارة يحتفظ بها تحت سيادة التاج ؛ غير أن رينالد ادعى بأن المنقذين من رعايا أنطاكية ، ومن ثم طلب من ثبتي أن يقدم له فروض الولاء نظير حصوله عليها . وكان الكونت يرى أنه من المحال التفكير في تقديم فروض الولاء لمثل هذا الرجل المجهول الأصل . ولم يستطع بلدوين تسوية المشكلة إلا بتخليه عن الأراضي المتنازع عليها ، وتمحرك الجيش مبتعدا باتجاه الشمال للإستيلاء على أطلال أفاميا ثم محاصرة حارم . وهذه الأراضي أراض أنطاكية بلا شك ، لكن بلدوين وثبتي كانا على استعداد لمساعدة رينالد على استعادتها نظرا لأهميتها الاستراتيجية . وبعد قصف شديد بالمنجنيقات استسلمت في فبراير ١١٥٨ م ، وبعد وقت قليل عهد بها إلى أحد فرسان ثبتي هو رينالد (أوف سانت فاليري) الذي احتفظ بها تحت سيادة أمير أنطاكية^(٧).

لم يرض الملك عن تصرف أمير أنطاكية وقرر إعادة توجيه سياسته . وكان مدركا لعلاقة رينالد السيئة مع الامبراطور الذي لا يُحتمل أن يغفر الغارة على قبرص ، كما كان مدركا لحقيقة أن الجيش البيزنطي لا يزال أقوى الجيوش في العالم المسيحي . وفي صيف عام ١١٥٧ م أرسل سفارة إلى القسطنطينية لمتمسا اختيار عروس من العائلة الامبراطورية . وكان على رأس السفارة أشار ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذي مات أثناء الرحلة ، وهمفري الثاني أمير تبين . واستقبل الامبراطور مانويل السفارة استقبالا حسنا ؛ وبعد شيء من المفاوضات عرض ابنة اخته ثيودورا مع بائنة مقدارها مائة ألف قطعة هيربري ذهبية بالاضافة إلى عشرة آلاف أخرى لمصروفات الزفاف ، وهدايا تعادل ثلاثين الفا أخرى . ولقاء ذلك يتعين منحها عكا والأراضي التابعة لها كبائنة تحتفظ بها في حالة موت زوجها دون ذرية . وبعودة السفارة وتأكيد الملك قبوله

(٧) William of Tyre, xviii, 17-19, pp. 847-53; Robert of Torigny, i, p.316; Michael the Syrian, Armenian version, pp.351-3; Ibn al-Qalanisi, pp.342, 344 فاليري) لا يزال أحد بارونات القدس في ١١٦٠ م (Rohricht, Regesta, p.94) لكنه عاد الى الغرب بعد ذلك مباشرة . والمؤرخ الوحيد الذي يخبرنا بأنه سُح حُران هو Robert of Torigny.

الشروط ، أبحرت الأميرة الصغيرة من القسطنطينية ووصلت عكا في سبتمبر ١١٥٨ م ، وارتحلت في أبهة إلى القدس ، حيث تزوجت الملك بمراسم زواج قام بها البطريق ايمرى الأنطاكي ، إذ لم يكن البابا قد ثبت بعد بطريق القدس المنتخب . وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وانما كانت فارعة القامة وجميلة . وسُرَّ بها بلدوين ، وسار سيرة الزوج المخلص بعد أن تخلى عن أيام عزوبته المنحلة^(٨).

ويبدو أن ماتويل وعد أثناء المفاوضات بالانضمام في تحالف ضد نور الدين ، وان بلدوين وافق على ضرورة اخضاع رينالد . وفي تلك الأثناء أغار الملك على الحدود الدمشقية . وفي مارس ١١٥٨ م قام هو وكونت فلاندرز بزحف مفاجئ على دمشق نفسها يوم أول ابريل محاصرا قلعة داريا وضواحيها . بيد أن نور الدين ، بعد أن تمائل للشفاء ، كان في طريقه بالفعل جنوبا ليضع نهاية للمكائد التي أينعت هناك أثناء مرضه ، فوصل دمشق في السابع من ابريل مما أثار مشاعر البهجة البالغة لدى سكانها، ورأى بلدوين الحكمة في أن ينسحب . فقام نور الدين بهجوم مضاد ؛ وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضى صيدا ، كان هو نفسه يهاجم قلعة الحبيس جلدك التي بناها الفرنج كمخفر امامى جنوب شرق بحر الجليل على ضفاف نهر اليرموك . وكان الهجوم شديدا على الحامية بحيث سارعت إلى الموافقة على التسليم في حالة عدم وصول العون في غضون عشرة ايام ؛ ولذا خف بلدوين مع الكونت ثيرى لنجدتها . غير انه بدلا من أن يذهب إليها مباشرة ، سلك الطريق الواقع شمال البحيرة والمؤدى إلى دمشق. وأفلحت الحيلة ؛ إذ خشى نور الدين على خطوط مواصلاته فرفع الحصار . وتقابل الجيشان عند قرة البطيحة الواقعة شرقي وادي الأردن الأعلى . وما أن لمح الفرنج المسلمين حتى هاجموا وهم يظنونهم مجرد فرقة كشافة . لكنهم سمعوا صهيل جواد كان الملك قد اعطاه لأحد الشيوخ المعروف انه مع نور الدين - وقد تعرف الجواد على رائحة أصدقائه القدامى بين خيول الفرنج - فدلهم ذلك الصهيل على أن القوة المسلمة كلها قد وصلت. ووجد نور الدين، الذى لم يكن بكامل عافيته، من حثه على مغادرة ساحة القتال، ويرحله استدار الجيش كله منسحبا بشئ من عدم النظام. وكان النصر الفرنجى كافيا لاقناع نور الدين طلب الهدنة. وللسنوات القليلة التالية لم تكن هناك أعمال حربية جادة على الحدود السورية الفلسطينية؛ وبذا تمكن كل من بلدوين ونور

(٨) William of Tyre, xviii, 16, 22, pp. 846, 857-8; Gregory the Priest, pp. 186-9; Matthew of Edessa, cclxxiii, pp. 352-8.

الدين من تحويل انتباهه إلى الشمال^(٩).

١١٥٨ م : الامبراطور مانويل يدخل كيليكيا

انطلق الامبراطور من القسطنطينية في خريف عام ١١٥٨ م على رأس جيش عظيم ميمما وجهه شطر كيليكيا . وبينما كانت القوة الرئيسية تتبعه بطيئة بطول الطريق الساحلى الوعر شرقا أسرع هو إلى الأمام مع قوة تتألف من مجرد خمسمائة فارس . وكانت استعداداته من السرية وحركته من السرعة بحيث لم يعلم أحد في كيليكيا بمجيئه . وكان الأمير الأرمني ثوروس في طرسوس لا يرتاب فى شئ ، إلى أن حدث فجأه فى يوم ما فى اواخر اكتوبر أن اندفع إلى بلاطه حاج لاتينى كان على سابق معرفة به ، يخبره أنه شاهد جنود الامبراطورية على مسيرة مجرد يوم واحد . فجمع ثوروس عائلته وأصدقاءه المقربين وأمواله وهرب من فوره إلى الجبال . وفى اليوم التالى دخل مانويل سهل كيليكيا . وفى الوقت الذى احتل فيه صهره ثيودور فاتاسيس طرسوس ، واصل هو تقدمه بسرعة ؛ وفى غضون اسبوعين كانت كل مدن كيليكيا حتى عين زربه فى قبضته . على أن ثوروس نفسه كان مايزال يراوغه ؛ فبينما راحت الفصائل تجوب الوديان بحثا عنه ، كان هو يهرب من قمة تل إلى قمة اخرى إلى أن وجد الملاذ أخيرا على قمة صخرة شائعة يطلق عليها داجيج ، بالقرب من منابع نهر اليردان التى لم يسكن أطلالها أحد لأجيال خلت . ولم يعرف أحد مكان اختبائه سوى خادميه اللذين يثق فيهما ثقة عمياء^(١٠).

بات رينالد هلوغا لوصول الامبراطور . وكان يدرك تمام الإدراك أن لا قبل له بمقاومة جيشه الامبراطورى العرمم ؛ وقد انقذه ادراكه هذا . إذ سارع بالخضوع من فوره وهو يعلم أنه بذلك يستطيع الحصول على شروط أفضل للغاية منها فى حالة هزيمته فى معركة . وأكد له جيار - أسقف اللاذقية - وهو أكثر مستشاريه فطنة وفراة ، أن دوافع الامبراطور هى الكبرياء وليس الغزو . فسارع رينالد بارسال من يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية ، وعندما جاءه مبعوثه ليخبره بأن ذلك لا يكفى ، ارتدى هو نفسه رداء التائب وأسرع إلى معسكر الامبراطور خارج اسوار

(٩) -William of Tyre, xviii, 21 pp. 855-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 346-8; Abu Shama, pp. 97

100، (ويقول أبو شامة إن بلدين طلب الهدنة، وربما اعتمد على جملة مبهمة عند ابن القلايسى).

(١٠) Cinnamus, pp. 179-81; Matthew of Edessa, loc. cit ; Gregory the Priest.



المصيصة . وكان المبعوثون من كافة الأمراء في الجوار يتوافدون لتحية الاميراطور ، من نور الدين ، ومن الدانشمند ، ومن ملك جورجيا ، وحتى من الخليفة . وأمر مانويل بترك رينالد ينتظر قليلا . ويبدو أن الاميراطور قد تسلم في تلك اللحظة رسالة من البطريق المنفى يمرى يقترح فيها إحضار رينالد امامه مكبلا بالسلاسل وخلعه . غير أن الاميراطور رأى الأفضل له أن يحتفظ به عميلا وضيعة . وفي جلسة وقورة للاميراطور على عرشه في خيمته العظيمة ، وقد تحلقت حوله جماعات حاشيته والسفراء الأجانب ، واصطفت فصائل بديعة من الجيش على المداخل ، كان خضوع رينالد : فسار هو وأتباعه حفاة الأقدام عاري الرؤوس خلال المدينة ثم خارجها إلى المعسكر ، حيث سجد في التراب أمام منصة الاميراطور ، بينما رفع أتباعه أيديهم في تضرع . ومرت دقائق كثيرة قبل أن يتنازل مانويل ويلاحظ وجوده ، ثم مُنح المغفرة بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة إلى حامية اميراطورية في اى وقت يُطلب منه ذلك ؛ وعليه أن يقدم كتيبة إلى الجيش الاميراطورى ؛ وأن يقبل بطريقا يونانيا لأنطاكية بدلا من البطريق اللاتينى . وأقسم رينالد على أن يلتزم بتلك الشروط ، ثم صرفه الاميراطور وأعيد إلى انطاكية .

لدى وصول أنباء اقتراب مانويل سارع الملك بلدوين ومعه اخوه أمالريك والبطريق يمرى شمالا فوصلوا انطاكية في أعقاب عودة رينالد مباشرة . ولما علم بلدوين بالغفو عن رينالد شعر بشئ من غيبة الأمل وكتب لمانويل في الحال ملتصسا الاجتماع به . وتردد مانويل لأنه ظن على ما يبدو أن بلدوين كان يرغب في أن يستأثر بالامارة ؛ وربما كان ذلك جزءا من مقترحات يمرى .. ولما أصر بلدوين وافق الاميراطور . وركب بلدوين خارجا من انطاكية يودعه مواطنوها متوسلين اليه أن يصالحهم مع الاميراطور . ونجحت المقابلة نجاحا بالغا ؛ إذ افتتن مانويل بالملك الصغير وأبقاه ضيفا لديه لعشرة ايام . وبينما كانا يناقشان خطط التحالف ، نجح بلدوين في الحصول على عفو عن ثوروس الذى قام بنفس الخطوات التى قام بها رينالد وسُمح له بالاحتفاظ بأراضيه في الجبال . وربما يُعزى إلى بلدوين عدم اصرار الاميراطور على التنصيب القورى لبطريق يوناني ، واعيد تنصيب يمرى رسميا في عرشه البطريقى وأجريت مصالحة رسمية بينه وبين رينالد . وعاد بلدوين عملا بالهدايا إلى انطاكية وقد خلف وراءه أخاه مع الاميراطور .

١١٥٩ م : الامبراطور في أنطاكية

وفي أحد الفصح ١٢ ابريل ١١٥٩ م جاء مانويل إلى أنطاكية ودخل المدينة في موكب وقور . وحاولت السلطات اللاتينية أن تبقى خارج المدينة قائلة إن هناك مؤامرة لاغتياله هناك ؛ لكنه لم يعبأ بالتهويل ، ولم يطلب سوى بعض الرهائن من المواطنين ، وأن يُحرد الأمراء اللاتينيين المشتركين في المركب الزياحي من سلاحهم ، وارتدى هو نفسه درعا تحت أرديته ، ولم تحدث حادثة سيئة . وبينما كانت الرايات الامبراطورية ترفرف اعلى القلعة ، كانت حاشيته تعبر الجسر المحصن داخل المدينة . وأتى أولا الحرس الامبراطوري الاسكندنافي الفخيم ؛ ثم الامبراطور نفسه على صهوة جواد متشحاً برداء أرجواني وعلى رأسه تاج مرصع بدرر اللؤلؤ ، ورينالد على قدميه ممسكا بلجام جواده ، ومشى لوردات فرنج آخرون بيجوار الجواد . وتبعه بلدوين على جواده بلا تاج وبلا سلاح . ثم جاء خلفهما كبار مسؤولي الامبراطورية . وفي داخل البوابات مباشرة كان البطريق يمرى منتظرا ، بكامل ارديته البابوية ومعه رجال كنيسة كلهم ليقود المركب الزياحي خلال شوارع المدينة ، التي فرشت بالبسط والزهور ، إلى كاتدرائية القديس بطرس أولا ثم إلى القصر .

ومكث مانويل في أنطاكية ثمانية ايام قضاها في حفول من بعدها حفول . ورغم انه كان هو ذاته ذا كبرياء وجلال في المناسبات الجديدة بالوقار ، إلا أنه أشاع من جاذبيته وتودده ما أسر الجموع ، وزادت البهجة في مجملها بما كان ينفقه من سخاء هداياه. على النبلاء والعوام على السواء . وفي لفته إلى أبناء الغرب نظم بعض العاب الفروسية وأشرك رفاقه معه في المثاقفة ؛ وكان فارسا بارعا وأدى دوره بمظاهر الشرف ؛ غير أن رفاقه - وكانت الفروسية عندهم وسيلة لا غاية - تركوا انطبعا أقل بالمقارنة بفارسان الغرب . وقويت عرى الود بين الامبراطور وبين ابن اخته بالزواج - الملك . وعندما كُسر ذراع بلدوين أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يعالجه بنفسه ، تماما كما كان يقوم بدور المستشار الطبي لكونراد الألماني^(١١).

(١١) William of Tyre, xviii, 23-5 pp. 859-64; Cinnamus, pp. 181-90; Nicetas Choniates, pp. 141-5; Prodromus, in R.H.C.G II, pp. , 752 , 766 Matthew of Edessa, cclxxiv, pp. 354-5; Gregory the Priest, pp. 188-9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 505; Ibn La Monte 'To what extent was the Byzantine أيضا and نظر al-Qalanisi, pp. 349, 353.

Empire the suzerain of the Crusading States? in *Byzantion*, vol. vii

١١٥٩ م : الهدنة بين مانويل ونور الدين

كان الأسبوع الرائع علامه على انتصار كبرياء الامبراطور ؛ وكان حيرار أسقف اللاذقية على حق عندما قال إن ما يريده الامبراطور هو الكبرياء وليس الغزو . وعندما انتهت الاحتفالات كلها انضم إلى جيشه مرة اخرى خارج الأسوار وانطلق شرقا إلى الحدود الاسلامية ؛ حيث قابلته في الحال تقريبا سفراء نور الدين ومعهم كامل السلطة للتفاوض على هدنة ؛ فاستقبل السفراء وبدأت المناقشات بما أشعل حنق اللاتين الذين كانوا يتوقعونه أن يزحف على حلب . وباقتراح نور الدين اطلاق سراح جميع أسراه من المسيحيين البالغ عددهم ستة آلاف أسير في سجنونه ، وتسيير حملة ضد الأتراك السلاجقة ، وافق مانويل على الغاء حملته .

وربما لم يكن في نية مانويل الاستمرار في حملته قط، وبرغم ما صدر عن الصليبيين والمدافعين عنهم من المؤرخين العصريين من صرخات توصم الامبراطور بالخيانة ، فمن العسير علينا أن نتصور ما كان يستطيع الامبراطور أن يفعله غير ذلك . لقد كانت سوريا بالنسبة للصليبيين تمثل الأهمية كلها ، لكنها كانت بالنسبة لمانويل بمجرد واحدة من المناطق الحدودية الكثيرة ، وليست بالمنطقة الحيوية لإمبراطوريته . ولم يكن بوسع البقاء شهورا طويلة في نهاية خط مواصلات طويل ومعرض للمخاطر ، ولا أن ينامر بخسائر جسيمة لجيشه - وإن كان عظيما - ثم يتنصل من الملامة . فضلا عن ذلك ، لم يكن راغبا في كسر قوة نور الدين ، إذ كان يدرك من التجربة المريرة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما نحشوا سطوته ، ومن ثم يكون من الحمق أن يقضى على مصدر خوفهم الرئيسي؛ إلى جانب أن التحالف مع نور الدين يعد بمثابة أصل من الأصول النفيسة في حروبه مع أعداء أخطر علي الامبراطورية بكثير ، ألا وهم أترك الأناضول . غير أنه يقدم المساعدة ، كما تظهر الأحداث اللاحقة ، ليمنع نور الدين من غزو مصر؛ إذ أن ذلك يقلب الموازين بصورة قاتلة . وربما تسرع في الهدنة ، إذ كان بوسع الحصول على شروط أفضل ؛ لولا انه تلقى أنباء تشير القلق بوجود مؤامرة في القسطنطينية واضطرابات على حدوده الأوروبية . وعلى أية حال ، لم يكن بوسع البقاء أكثر من ذلك في سوريا^(١٢).

(١٢) William of Tyre, xviii, 25, p.864 (لا يوجه لوما إلى الامبراطور بأي حال) ; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p. 229; Cinnamus, pp.188-90; Gregory the Priest, pp.190-1; Matthew of Edessa, cclxxv, pp. 355-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 353-5.

ومع ذلك ، كانت هدته مع نور الدين خطأ نفسيا . إذ كان الفرنج آنذاك على استعداد لقبوله سيدا لهم ؛ لكن الحكيم من ذوى البصيرة يراه وقد أظهر نفسه مهتما بمصير الامبراطورية بصورة أكثر من اهتمامه بمصيرهم . كما أنهم لم يجدوا كثير تعزية فى الإفراج عن الأسرى المسيحيين الذين يضمنون بعض أهم المحاربين المحليين ، ومن بينهم السيد الأعظم لفرسان المعبد برتراند (أوف بلانسفورت) ؛ إلا أن أغلبهم كانوا من الألمان الذين وقعوا فى الأسر إبان الحملة الصليبية الثانية ، وفيهم برتراند (أوف تولوز) المطالب بامارة طرابلس ، والذي قد يكون ظهوره مرة أخرى مسببا للخرج لولا أن حال الأسر دون موته^(١٣).

بعد أن عقد الامبراطور الهدنة انسحب مع جيشه غربا ، بطيئا أول الأمر ، ثم بدأ يسرع بورود أنباء من عاصمته تثير المزيد من الإنذار . وحاول بعض اتباع نور الدين مناوشة الجيش على غير رغبة سيدهم . ولإختصار المسافة ، اتجه الجيش من خلال الأراضى السلجوقية ، وحدثت مناوشات مع جنود السلطان ؛ غير أن الجيش وصل سالما إلى القسطنطينية فى أواخر الصيف . وبعد ثلاثة أشهر تقريبا عبر مانويل مرة أخرى إلى آسيا فى حملة ضد السلاجقة ، يجرب فيها معهم شكلا من التكتيكات أكثر حركة ، بينما كان مبعوثوه يعملون على تعزيز التحالف ضد السلطان السلجوقى قلج ارسلان الثانى . وشعر نور الدين بالارتياح العميق لرحيل مانويل ، فتوغل فى الأراضى السلجوقية من أواسط الفرات ؛ وهاجم الأمير الدانشمندى يعقوب ارسلان من الشمال الشرقى هجوما بلغ من نجاحه أن اضطر السلطان إلى أن يتنازل له عن الأراضى المحيطة بالبستان فى جبال طوروس المقابلة . وفى تلك الأثناء ، كان القائد البيزنطى جون كونتوستيفانوس يجمع فصائل الجنود التى التزم بتقديمها بموجب المعاهدة كل من رينالد وثوروس ، إلى جانب فصيلة من البنجاك تركها مانويل مأكثة فى كيليكيا ، ثم تحرك بكل هذا الجمع خلال مضائق جبال طوروس ؛ وزحف مانويل مع الجيش الامبراطورى الرئيسى أعلى وادى المياندر ، بعد أن عزز الجيش بجنود أرسلها امير الصرب ، وبالبحاج الفرنج الذين جُندوا عندما رست سفنهم فى جزيرة رودس . وكان على السلطان أن يقسم قواته . وبعدما أحرز كونتوستيفانوس نصرا كاملا على الأتراك الذين تصدوا له ، كف قلج ارسلان عن الحرب ؛ وكتب إلى الامبراطور عارضا السلام لقاء إعادته كل المدن اليونانية التى احتلها المسلمون فى السنوات الحديثة ، والتأكد من

احترام الحدود وتوقف الغارات ، وتقديم فصيلة لتحارب فى جيش الامبراطور متى يُطلب منه ذلك . ووافق مانويل على الشروط ؛ لكنه احتفظ لديه احتياطيا بأخى السلطان المتمرّد ، شاهنشاه ، الذى جاءه طالبا الحماية . ولذا ، وكى يؤكد قلعج ارسلان المعاهدة ، أرسل مستشاره المسيحى كريستوفر إلى القسطنطينية مقترحا القيام بزيارة رسمية للبلاط الامبراطورى . وتوقفت الأعمال الحربية فى صيف عام ١١٦١ م ، وفى الربيع التالى استقبل قلعج ارسلان فى القسطنطينية . وكانت الاحتفالات رائعة ، وعومل السلطان بأسمى آيات التشريف وأمطروه بالهدايا ، لكنه عومل كأمر تابع . وكان للزيارة أثرها فى أمراء الشرق كلهم^(١٤) .

وعند الحكم على سياسة مانويل الشرقية ، لا بد لنا من أن نحكم فى هذا الضوء العام . فقد فاز بنصر كبرىائى نفيس ؛ وأخضع السلاجقة - على الأقل مؤقتا - وهم الذين يمثلون التهديد الرئيسى لامبراطوريته . وقد جلب هذا النجاح على الفرنج بعض المزايا المعينة ؛ فمع أن نور الدين لم يهزم ، إلا أنه خاف ، ولن يحاول شن هجوم مباشر على الأراضى المسيحية ؛ وفى الوقت نفسه تسبب السلام مع السلاجقة فى إعادة فتح الطريق البرى للحجاج القادمين من الغرب الذين كانت أعدادهم آخذة فى التزايد ، وأما عن الأعداد الأكثر التى لم تصل ، فذلك يعزى إلى السياسات الغربية ، وإلى الحروب الدائرة بين الهوهينشتافن وبين البابويين^(١٥) فى ألمانيا وإيطاليا ، وبين الكابيشيين والبلاتاجونيت^(١٦) فى فرنسا . ومع أنه كان مقدرا أن يبقى لبيزنطة أعظم نفوذ فى شمال سوريا للسنوات العشرين التالية ، كان أصدقاؤها الأصلاء بين الفرنج قليلين .

(١٤) Cinnamus, pp. 191-201, 204-8; Nicetas Choniates, pp. 152-64; Gregory the Priest, pp. 193-4, 199; Matthew of Edessa, cclxxxii, p. 364; Michael the Syrian, iii, p. 320; Chron. Anon. Syr. p. 302; Ibn al-Athir, p. 544.

(١٥) (المترجم) الهوهينشتافن Hohenstaufen: إسم الأسرة التى حكمت ألمانيا (١١٣٨-١٢٠٨ م) وصقلية (١١٩٤-١٢٦٨ م) . والبابويين Papalists نسبة إلى الدول البابوية Papal State فى وسط وشمال وسط إيطاليا والتى حكمتها البابوية من القرن الثامن وحتى عام ١٨٧٠ م .

(١٦) (المترجم) الكابيشيون أو الكابيشيان Capetians: نسبة إلى الأسرة الحاكمة الفرنسية (٩٨٧-١٢٢٨ م) التى أسسها هيو كابيت Hugh Capet . والبلاتاجينيت Plantagenets: إسم الأسرة التى حكمت إنجلترا (١١٥٤-١٣٩٩ م) .

١١٦٠ م : رينالد يقع فى الأسر

أظهرت أحداث عام ١١٦٠ م طبيعة السيادة الامبراطورية على انطاكية وقيمتها سواء بسواء . وكان الملك بلدوين قد عاد إلى الجنوب ، وانشغل ببعض الغارات القليلة الضئيلة على الأراضي الدمشقية منتهزا انشغال نور الدين فى الشمال ، إلى أن سمع بأن رينالد قد وقع فى أسر نور الدين . ذلك أن حركة القطعان الموسمية من جبال طوروس المقابلة إلى سهول الفرات ، أغرت الأمير بالإغارة أعلى وادى النهر فى نوفمبر ١١٦٠ م. وأثناء عودته البطينة نظرا لما كان يسوقه من قطعان الماشية والجمال والحياد التى جمعها ، وقع فى كمين نصبه له حاكم حلب مجد الدين ، وهو أخو نور الدين فى الرضاع . وقد حارب بشجاعة ، لكن رجاله كانوا قلة أمام عدوهم ، وأجبر هو نفسه على التزلج واقتيد أسيرا . وأرسل مع رفاقه وهم مقيدون ، على ظهور الجمال إلى حلب حيث قدر له أن يبقى فى السجن ستة عشر عاما . ولم يسارع أحد لإفدائه ، لا الامبراطور ولا ملك القدس ولا حتى أملى انطاكية . وفى سجنه وجد جوسلين الصغير (أوف كورتناى) كونت الرها باللقب فقط ، الذى سبق أن أسر فى غارة قبل ذلك بشهور قليلة^(١٧).

وأثارت إزاحة رينالد مشكلة دستورية فى انطاكية التى كان يحكم فيها كزوج للأميرة كونستانس، التى طالبت الآن بتحويل السلطة إليها؛ غير أن رأى العام أيد حقوق ابنها من زواجها الأول ، بوهمند الذى اشتهر باسم "المتلجلج" ، وهو مع ذلك فى الخامسة عشرة من عمره . وكان ذلك الوضع شبيها بوضع الملكة مليسند وبلدوين الثالث فى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة . ولم يكن هناك خطر محدد، إذ أن خشية نور الدين من مانويل صدته عن مهاجمة انطاكية نفسها . على انه يتعين وجود نوع من الحكومة الفعالة . وبصيغة مباشرة ، كان للإمبراطور - المقبول كسيد أعلى لأنطاكية - أن يسوى المسألة . لكن مانويل بعيد ، والأنطاكيون لم يقبلوه بدون تحفظات ؛ وكان نورمانديو انطاكية من الأمراء يعتبرون أنفسهم أمراء ذوى سيادة . غير أن كثرة وجود أمراء من القصر بين خلفائهم كانت تجبر ملوك القدس على التدخل بصفتهم من الأقارب أكثر من كونهم ملوكا . ومع ذلك ، شبت فى انطاكية عاطفة تعتبر الملك السيد الأعلى ، ولا شك فى أن مانويل أصبح مقبولا بيسر كبير لأن بلدوين كان يوافق

(١٧) William of Tyre, xviii, 28 pp.868-9; Matthew of Edessa, cclxxxi, pp. 363-4; Chron. Anon. Syr p.302; Gregory the Priest, p.308; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 533; Cahen (op. cit p.405 n.1) ويرد كاهن Cahen مصادر اضافية رينالد يناقش طوبغرافية الأرض.

على هذه الترتيبات . واتجهت أنظار أبناء انطاكية الآن إلى بلدوين لا مانويل ، لايجاد حل ؛ وبناء على دعوتهم جاء إلى انطاكية ، وأعلن أن بوهمند الثالث هو الأمير الشرعي ، وعهد بالحكومة إلى البطريق يجرى إلى أن يشب الأمير عن الطوق . وكان قرارا أغضب كونستانس ، وكان أسلوبا أغضب مانويل . وفي الحال ناشدت الأميرة البلاط الامبراطوري التدخل للانتصاف^(١٨).

١١٦١ م : مليسيند الطرابلسية

في نهاية ١١٥٩ م تقريبا ، ماتت امبراطورة بيزنطة إيرين - المولودة باسم بيرثا (اوف سولزباخ) - تاركة وراءها طفلة وحيدة . وفي عام ١١٦٠ م ، وصلت القس سفارة يرأسها جون كوتوستيفانوس ، يصحبها رئيس مترجمي البلاط ، ثيوفلاكت الإيطالي ، تلتبس من الملك ترشيح إحدى أميرات الشرق الفرنجي تكون عروسا مناسبة للإمبراطور البيزنطي الأرملة . وكان هناك اثنتين من المرشحات - ماريا ابنة كونستانس أميرة طرابلس ، ومليسيند ابنة ريموند الثاني أمير طرابلس . وكلتاها من بنات خؤولة بلدوين ، وقد اشتهرتا كلتاها بالجمال . وارتاب بلدوين في تحالف عائلي وثيق الصلة بين الامبراطور وانطاكية ، ولذا رشح مليسيند ؛ وارتحل السفراء إلى طرابلس لإبلاغ الأميرة التي حياها الشرق الفرنجي كله على انها امبراطورة المستقبل ؛ وانتشى بالفخار ريموند أمير طرابلس فقرر منح أخته مهرا يليق بها ، وانفق المبالغ الطائلة على تجهيزها . وانهمرت الهدايا من امها هرديرنا وخالتها الملكة مليسيند . وهول الفرسان من سائر الأنحاء إلى طرابلس يداعبهم أمل دعوتهم إلى الزفاف . على أن القسطنطينية لم تبث بتأكيدا للزواج . وأرسل السفراء إلى مانويل أوصافا متلاثلة لشخصية مليسيند ، لكنهم سجلوا كذلك شائعة حول مولدها تستند إلى الشجار الشهير بين أمها وأبيها . ويبدو أن لم تكن هناك ريبة حول شرعيتها في حقيقة الأمر ، ويبدو أن تلك الشائعة الباطلة جعلت الامبراطور يتردد . ثم إنه سمع بتدخل بلدوين في أنطاكية ، ثم تسلم مناشدة كونستانس للانتصاف . وفي باكرة صيف ١١٦١ م ، نفذ صير ريموند ، فأرسل أحد فرسانه - أوتو (اوف ريسبيرج) - ليسأل عن التطورات ؛ وعاد أوتو في

(١٨) William of Tyre, xviii30, p.874؛ ويقول ميخائيل السوري Michael the Syrian, iii, p.324 إن ثوروس أبعد كونستانس عن حكم انطاكية.

أغسطس تقريبا يبنى بأن الامبراطور تخلى عن الارتباط^(١٩).

فأما مليسيند ، فكانت الصدمة والإهانة فوق احتمالها ، فنال منها الضعف وسرعان ما ذوت مثل "الأميرة بعيدة المنال" *Princesse Lointaine* ، في رومانسية العصور الوسطى الفرنسية . وأما أخوها ريموند فقد احتدم غيظا ، وفي ثورته طلب تعويضه عن المبالغ الطائلة التي أنفقتها على جهازها ؛ ولما رُفض طلبه جهز السفن الإثنتي عشرة التي وصلته لتتنقل العروس إلى القسطنطينية وحولها إلى سفن حربية مسلحة وقادها للإغارة على سواحل قبرص^(٢٠) . وأما الملك بلدوين ، الذي كان ينتظر مع بنات خؤولته يترقب الأنباء ، فقد شعر بالقلق ، خاصة عندما تلقى السفراء البيزنطيون أوامر بالذهاب إلى أنطاكية ؛ فهزول وراءهم ليحدد في أنطاكية سفارة فخيمة من الامبراطور ، يرأسها الكسيوس برينوس كومنينوس ابن أنا كومينا ، ووالى القسطنطينية ، جون كاماتيروس . وكانوا قد تفاوضوا فعلا على عقد زواج بين سيدهم وبين الأميرة ماريا الأنطاكية ؛ وكان وجودهم كافيا لتثبيت كونستانس حاكمة للإمارة . واضطر بلدوين إلى قبول هذا الوضع . وأما ماريا ، التي كانت أجمل حتى من ابنة خالتها مليسيند ، فقد أبحرت من ميناء السويدية في سبتمبر ، يملأها الفخار أن تصبح امباطورة ، وتشملها السعادة وقد غاب عنها ما سيكون عليه مصرها في نهاية مطافها . وعقد زواجها إلى الامبراطور في ديسمبر في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بمعرفة ثلاثة بطارقة ، ليوك بطريق القسطنطينية ، وسوفرونيوس بطريق الإسكندرية ، وأناسيوس الثاني ، صاحب لقب بطريق أنطاكية^(٢١).

١١٦٢ م : موت بلدوين الثالث

أدرك بلدوين قيمة التحالف البيزنطي ؛ لكن نجاح مانويل كان أعظم مما كان يرغبه في الشمال السوري المسيحي وأقل فعالية ضد نور الدين ، رغم أن التحالف

(١٩) William of Tyre, xviii, 30, pp. 874-6. ويقول سناموس Cinnamus, pp. 208-10 إن صحة مليسيند لم تكن مرضية ، فضلا عن الشائعات حول عدم شرعيتها. وقد ذكرت مليسيند على أنها امباطورة القسطنطينية المقبلة في ميثاق ٣١ يولية ١١٦١ م ، عندما منح شرق الأردن إلى فيليب (أوف ميلف) ، ووقعت كانت هي وأخوها مع الملك في الناصرة (Rohrich, *Regesta*, p. 96).

(٢٠) William of Tyre, xviii 33, 31, pp. 876-9.

(٢١) Nicetas Choniates, p. 151 ويرد *Ibid.* xviii, 31, pp. 875-6; Cinnamus, p. 210-π, بالغا لجمال الامباطورة الجديدة .

جعل المسلمين فى حالة من الهدوء طوال الستين التاليتين . وعاد الملك بلدوين إلى مملكته بعد هزيمته الدبلوماسية فى زواج الامبراطور . وقد سارت حكومته فى القدس سيرا سلسا منذ إقصاء والدته عن السلطة . وكانت قد برزت عام ١١٥٧م لترأس مجلسا للوصاية أثناء أن كان بلدوين بعيدا فى الحروب ، واحتفظت لنفسها برعاية الكنيسة . وبعد وفاة البطريق فولشر فى نوفمبر من ذلك العام - ١١٥٧م - ضمنت تعيين خليفته أمالريك (أوف نيسيل) ، وهو قس بسيط كانت تعرف عنه تعليمه الجيد ، إلا انه لا يهتم بالحياة الدنيوية وغير عملى . وعارض ترقيته هرنيس رئيس اساقفة قيصرية ، ورالف اسقف بيت لحم ؛ فاضطر البطريق أمالريك إلى ارسال أسقف عكا ، فريديريك ، إلى روما لضمان التأيد البابوى . وأفلحت براعة فريديريك ورشاويه - كما أُلح - فى الحصول على تأييد الحكومة البابوية^(٢٢) . وجاءت فى المرتبة الثانية بعد مليسند ابنة زوجها ، سيبلا (أوف فلاندرز) التى رفضت العودة إلى اوربا مع زوجها ثيرى عام ١١٥٨م وبقيت كراهبة فى الدير الذى كانت مليسند قد أنشأته فى يثانى . وبعد أن ماتت مليسند فى سبتمبر ١١٦١م ، بينما كان الملك فى أنطاكية ، خلفتها سيبيل فى ممارسة نفوذها فى العائلة الملكية وفى الكنيسة إلى أن ماتت بعد ذلك بأربع سنوات^(٢٣) .

وبينما كان الملك بلدوين مارا خلال طرابلس سقط مريضا . وأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص - باراك السيريانى - لمداواته ، لكن حالة الملك ازدادت سوءا ؛ وانتقل إلى بيروت حيث مات يوم ١٠ فبراير ١١٦٢ . وكان طويل القامة ، قوى البنية ، وكانت بشرته النضرة ولحيته الكثة الشقراء توجيان بالصحة والرجولة ؛ فظن العالم كله أن عقاقير باراك قد ستمته . وكان فى ريعه الثالث والثلاثين ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك ، لأصبح ملكا عظيما لما كان لديه من طاقة وبصيرة نافذة وجاذبية شخصية لا تقاوم . وكان يجيد القراءة والكتابة ، وعلى علم بكل من التاريخ والقانون . وبكاه رعاياه بمرارة ، وجاء حتى الفلاحون المسلمون من التلال للإعراب عن تقديرهم فى موكبه الجنائزى الذى تمرك بطيئا إلى القدس . واقترح البعض من اصدقاء نور الدين على الأتابج أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم على المسيحيين ، غير أن نور الدين

(٢٢) William of Tyre, xviii, 20p. 854. وترد أمثلة على الأعمال الخيرية الدينية التى قامت بها مليسند فى عامي ١١٥٩م و ١١٦٠م فى Rohricht, *Regesta*, pp. 88, 94.

(٢٣) William of Tyre, *loc. cit*. يذكر اشتراك سيبلا . ويذكر Ernoul, p.21 رفض سيبلا مغادرة الأراضى المقدسة.

الذى وصل لتوه من حجه في مكة بعد كثرة التأجيل رفض إزعاج الناس وهم يتعجبون
على فقد مثل هذا الأمير العظيم^(٢٤).

(٢٤) William of Tyre, xvi, 2, pp. 705-6، يذكر وصفا تقريبا لشخصية بلدوين الثالث .

الفصل الرابع:

تربص مصر

تربص مصر

"لا ، بل إلى أرض مصر نذهب"

(لرمياء ٤٢ : ١٤)

مات بلدوين الثالث بلا ذرية ، وترملت الملكة اليونانية ثيودورا ولما تجاوز ربيعها السادس عشر ، وغدا أخوه أمالريك كونت يافا وعسقلان وريثا للمملكة وتوجه البطريق أمالريك بعد ثمانية أيام من موت بلدوين ، برغم المشكلة التي أثّرت حول استخلافه ؛ إذ لم يكن البارونات راغبين في التخلي عن حقهم في الانتخاب ، حتى ولو لم يكن هناك مرشح آخر . وكانت لهم مظلمة مشروعة ؛ إذ كان أمالريك قد تزوج قبل ذلك بنحو أربع سنوات من أجنيس (أوف كورتناي) ، ابنة جوسلين الثاني كونت الرها ، وكانت من بنات عمومته من الجيل الثالث وتقع من ثم في الدرجات التي تحرم الكنيسة الزواج منها ، وقد رفض البطريق اعتماد الزواج . وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى النفور من أجنيس ؛ إذ كانت أكبر من أمالريك بكثير ، وقد قتل زوجها الأول ، رينالد أمير مرعش ، عام ١١٤٩م عندما كان أمالريك في الثالثة

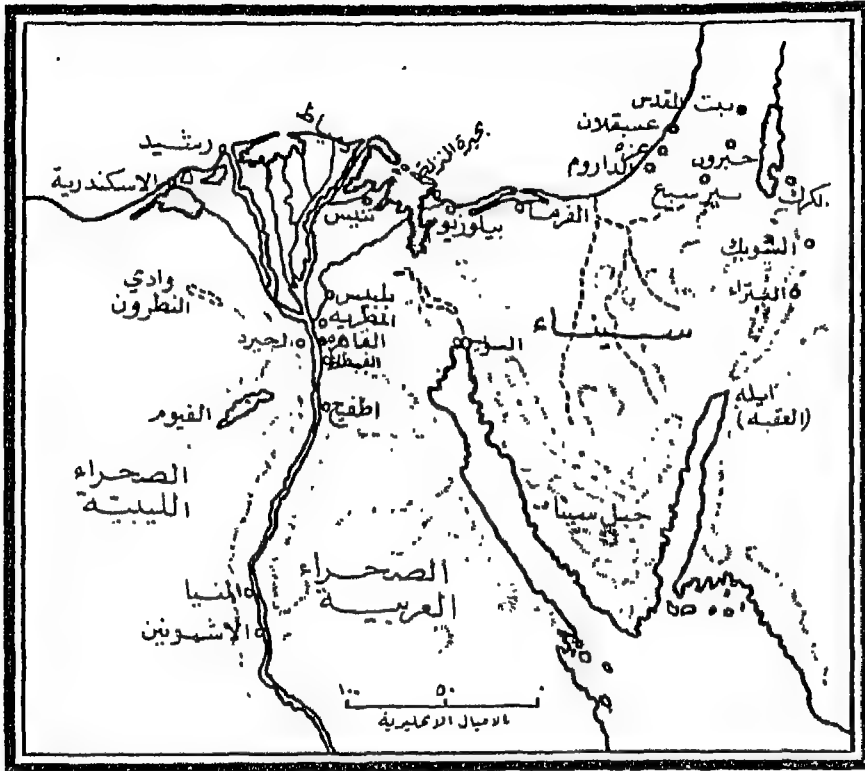
عشرة من عمره ، ولم تكن عفيفة السمعة . وطالب البطريق والبارونات بالغاء الزواج ، فرضخ أمالريك فى الحال ، لكنه أصر على الإعتراف بشرعية حقوق ولديه فى الميراث ، بلدين وسبيلاً^(١).

١١٦٢ م : الملك أمالريك

بلغ أمالريك الآن الخامسة والعشرين من عمره ، وكان طويل القامة وسيما كأخيه ، بنفس لون البشرة المتوردة واللحية الكثة الشقراء ، رغم ما يقوله النقاد من أنه مفرط السمعة فى صدره . وكان أقل تعليماً ، ورغم معوماته الجيدة المتصلة بالمسائل القانونية . وعلى غير شاكلة أخيه الذى كان شغوفا بالثرثرة ، كانت لديه بعض اللجلجة ولذا كان سكوتاً ، غير أنه كان كثيراً ما تعاوده نوبات من القهقهة الضاحكة ، فتحرمه بعضاً من وقاره . ولم يكن يتمتع قط بشعبية كأخيه ، إذ كان يفتقر إلى الجاذبية والانفتاح على الغير ؛ فضلاً عن أن حياته الخاصة لم تكن خليقة بالثناء^(٢). وفى غضون أشهر قليلة من استخلافه اتضحت نوعيته التى كان عليها كرجل دولة ، عندما أقدم جيرارد - لورد صيدا وشقيق أرنون - بنزع ملكية أحد رعاياه بلا سبب يدعو إلى ذلك ، ولجأ التابع إلى التاج شاكياً؛ فأصر أمالريك على أن تنتظر الدعوى أمام المحكمة العليا للمملكة ، ثم إنه أصدر قانوناً assise ، يستند إلى سوابق أخرى مماثلة يخول الأتباع الاستئناف من أسيادهم أمام المحكمة العليا ، وفى حالة عدم حضور السيد أثناء نظر الجلسة فى المحكمة يحكم فى الدعوى غيابياً ، ويُنصف المدعى بإعادة الأمور كما كانت عليه. وهذا القانون ، الذى يؤسس علاقة مباشرة بين أتباع كبار مستأجرى الأرض والملك الذى ينبغى لهم أن يقدموا له فروض الطاعة المخلصة ، من شأنه أن يضيفى سلطات لا

(١) Robert of Torigny, I, p.309 ويحدد William of Tyre, XIX, I, 4, pp 883-90. أمالريك بعام ١١٥٧ م. وعن زوج أجنس الأول أنظر أعلاه ص ٣٢٦. وقد كرهها متبعو وليسم الصورى كراهية شديدة لأسباب وجيهة (انظر أدناه ص ٤٠٧) . وربما بالغوا فى أمشاطها، غير أنه من غير المحتمل أن تكون قرابة الدم البعيدة هى التى جعلت البارونات يصرون على طلاقها. واستناداً الى وليسم ، أكد علاقة القرابة ستيفانى رئيسة الدير ، وهى ابنة جوسلين الأول ، وماريا (أوف سالرنو) : بيد أنه لا بد وأن كان معروفاً جيداً أن بلدين الأول وجوسلين الأول كانا أبناء عمومة من الدرجة الأولى ، وقد رفض البطريق فعلاً مباركة الزواج . والأرجح أن أجنس قد ولدت عام ١١٣٣ م، إذ مات أول زوج لأمها بياتريس عام ١١٣٢ م، وتزوجت جوسلين كونت الرها بعد ذلك مباشرة.

(٢) William of Tyre, XIX, 2-3, pp. 884-8.



خريطة رقم (٥) مصر في القرن الثاني عشر

حدود لها على ملك قوى يهيمن على المحكمة العليا . غير أن المحكمة العليا ذاتها كانت تتألف من نفس تلك الطبقة المرجّح صدها القانون . فإذا كان الملك ضعيفا ، يمكن استخدام القانون ضده بتطبيقه على كبار مستأجرى الأراضى الملكية^(٣) . وأعقب هذا القانون قواعد أخرى تنظم علاقات الملك بأتباعه .

وبعدما وطد أمالريك دعائم سلطته الملكية فى الداخل ، أصبح بإمكانه الانتباه إلى الشؤون الخارجية . وفى الشمال كان على استعداد للتضحية بأنطاكية للبيزنطيين . وفى أواخر عام ١١٦٢م على وجه التقريب حدثت اضطرابات فى كيليكيا فى أعقاب اغتيال ستيفن أخى ثوروس الذى كان فى طريقه إلى مأدبة دعاه إليها الحاكم الامبراطورى أندرونيكوس . وإن كانت هناك لدى ثوروس أسبابه الخاصة التى تثير لديه الرغبة فى التخلص من ستيفن ، فإنه اتهم أندرونيكوس بالتواطؤ واكتسح طريقه مستوليا على المصيصة وعين زربة وفاهكا ، بمباغنة أفراد حمايتها اليونانيين وقتلهم . وسارع أمالريك بعرض المساعدة على الامبراطور الذى استبدل أندرونيكوس بقائد هنجارى المولد دى اقتدار هو قنسطنطين كولومان ، الذى جاء إلى كيليكيا بالتعزيزات ، فانسحب ثوروس عائدا إلى الجبال بعد أن قدم بعض التفسيرات^(٤) . وأصبح بوهمند أمير أنطاكية الآن فى الثامنة عشرة من عمره أي بلغ سن الرشد ليحكم . لكن أمه كونستانس ، كانت رغبة فى الاحتفاظ بالسلطة فناشدت كولومان تقديم المساعدة العسكرية . وبانتشار شائعة استنجاها بكولومان ، اندلعت أعمال الشغب فى انطاكية؛ الأمر الذى أدى إلى نفى كونستانس وتنصيب بوهمند الثالث مكانها ، وسرعان ما ماتت بعد ذلك مباشرة^(٥) .

ولم يعترض الامبراطور على تغيير نظام الحكم ، ربما لأن أمالريك كفّل احترام

(٣) عن هذا القانون الهام *assise* ، انظر أعلاه ص ٣٠١-٢٢ . La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 22-3, ٣٠١-٢٢ . 99, 153; also Grandclaude, "Liste d'Assises de Jérusalem" in *Mélanges Paul Fournier*, p. 329 ff. وهذا الأخير يحدد تاريخ هذا القانون *assise* بعام ١١٦٦م ويدرج قائمة بالقوانين الأخرى *assizes* التى يمكن ان تعزى إلى أمالريك .

(٤) Cinnamus, p.227; Gregory the Priest, p.200; Sambat the Constable, p.621; Michael the Syrian, in, p.319, Armenian version, pp.349,356

(٥) Michael the Syrian, in, p.324 الذى يؤيد تاريخ سوريا المجهول. *Chron. Anon. Syr.* ويبدو أن التواريخ يمزجان أحداث ١١٦٠م والفجرة ١١٦٢-١١٦٣م . ويقتبس Ughelli, *Italia Sacra*, vii, p.203 من وثيقة فى عام ١١٦٧م يطلق فيها بوهمند الثالث على نفسه "أمير أنطاكية ولورد اللاذقية وجبله" . Prince of Antioch, Lord of Laodicea and Gibe. وحيث ان اللاذقية وجبله كانتا مهنرا لأمه ، فيفترض انها قد ماتت آنذاك .

سيادته. وليضمن ذلك، دعا ابن كورنستانس الثاني - بلدوين - وفيما بعد أطفالها من رينالد إلى القسطنطينية. وانضم بلدوين إلى الجيش الامبراطوري وقتل في الحرب^(٦). وفي الوقت الذي كان فيه الملك أماريك يريد البيزنطيين علنا كتب إلى الملك لويس السابع ملك فرنسا يسأله إن كان هناك أى أمل فى إرسال المساعدة للاتين فى سوريا^(٧).

١١٥٤م : مكائد فى القاهرة

كان ضروريا لأماريك أن يضمن حسن النوايا لبيزنطة كى يمضى مع أهم طموحاته السياسية ألا وهى السيطرة على مصر . وكما يفهم جيدا فإن وجود الدويلات اللاتينية يتوقف على نشأت جيرائها المسلمين وقد اتحدت الآن سوريا المسلمة، بيد أنه طالما بقيت مصر فى حالة عداء مع نور الدين ، فلن يكون الوضع باعنا على اليأس . وكانت الخلافة الفاطمية ، مع ذلك ، فى حالة من الرهن بحيث بدت نهايتها وشيكة ، لكنها لا ينبغي قط أن تقع فى قبضة نور الدين . ومنذ سقوط عسقلان والفوضى آخذة فى التزايد فى بلاط الخليفة ؛ إذ تمكن الوزير عباس من البقاء سنة برغم الكارثة ، وكان ابنه نصر هو المفضل لدى الخليفة الصغير الظافر ؛ وأثار ما بينهما من وداد شائعات فاضحة مما أثار ثائرة عباس ، لا لدوافع أخلاقية ، وإنما لأنه ارتاب - بحق - أن الظافر كان ينوى الواقعة بين الابن والأب . وعلم أسامة الذى كان ما يزال فى البلاط أن نصر وافق فى الواقع على اغتيال عباس ؛ فسارع إلى مصالحتهما وسرعان ما حرص نصر على أنه من الأفضل اغتيال الخليفة بدلا من عباس . ودعا نصر من أنعم عليه إلى حفل ماجن فى منتصف الليل فى منزله حيث طعنه . وتصنع عباس الإعتقاد بأن القتل هم أخوة الخليفة ذاتهم وأعدمهم . وبينما صادر ثروة الخليفة وضع على العرش ابن الظافر - الفائز - وهو صبى فى الخامسة من عمره شاهد موت أعمامه، وفيما بعد عانى من نوبات التشنج المزمنة . وارتابت أميرات العائلة فى حقيقة

(٦) عن بلدوين ، انظر أدناه ص ٤١٣ . وفيما بعد تزوجت إيتة كورنستانس من رينالد - أجنس - من ألكسيوس المدعى المنجاري أو بيلا الثالث ، الذى أصبح ملكا هنجاريا عام ١١٧٣ (Nicetas Choniates, p. 221).

(٧) ترد خطابات أماريك فى Bouquet, R.H.F. vol. xvi, pp. 36-7, 39-40. ويتحدث الخطاب الثانى عن التهديد البيزنطى لأنطاكية. وفى ذات الوقت تقريبا كتب بوهمند الثالث الى الملك لويس. Ibid pp. 27-8

ماحدث ، وسارعن باستدعاء محافظ مصر العليا ابن رزيق الأرمني المولد لإنقاذهم . فزحف على القاهرة واستمال ضباط الحامية إلى جانبه . فحمل عباس ونصر أموالهما وهربا يوم ٢٩ مايو ١١٥٤م من العاصمة ، مصطحبين معهما أسامة الذي بدأ يتآمر مع ابن رزيق . وبينما هم يخرجون من صحارى سيناء ، هبط عليهم جنود الفرنج من حصن مونتريال ، وتمكن أسامة من الهرب سالما ووصل إلى دمشق في نهاية الأمر؛ وقتل عباس وألقى القبض على نصر وصودرت الأموال ، وسُلم نصر إلى فرسان المعبد ، وأعلن على الفور رغبته في التحول إلى المسيحية ؛ غير أن البلاط في القاهرة عرض دفع ستين ألف دينار مقابل تسليمه ، ولذا أوقف تعليمه الدين الجديد وأرسل مقيدا بالسلاسل إلى القاهرة حيث قامت أرامل الخليفة الأربع بتمزيق أوصاله بأنفسهن . ثم إنه شنق ، وعلقت جثته على باب زويلة طوال عامين^(٨).

وحكم ابن رزيق حتى عام ١١٦١م . وفى ١١٦٠م مات الخليفة الصبى ليخلفه ابن عمه العاضد البالغ من العمر تسع سنوات ، والذي أجبر في العام التالي على الزواج من ابنة ابن رزيق . على أن عمه الخليفة ، وهى أخت الظافر ارتابت فى طموحات الوزير ، فحرضت أصدقاءها على طعنه فى ساحة القصر . وكان قبل وفاته قد تمكن فى سبتمبر ١١٦١م من استدعاء الأميرة اليه وقتلها بنفسه . وخلفه ابنه العادل فى منصب الوزير وحكم خمسة عشر شهرا . وجاء دوره فخلفه محافظ مصر العليا - شاور - وقتله ، وحكم ثمانية أشهر حتى أغسطس ١١٦٣م عندما خلعه ياوره العربى ضرغام الذى قتل كل من كان يخشى طموحه حرصا على بقائه فى السلطة الأمر الذى جعل الجيش المصرى يكاد أن يكون خاليا من كبار الضباط^(٩).

١١٦٣م: هزيمة نور الدين فى الكرك

فى عام ١١٦٠م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر التى اشترت سكوتة بتعهد بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار ولم تدفع هذه الإتاوة قط . وفى عام ١١٦٣م، اتخذ أمالريك ذلك ذريعة وهبط فجأة على مصر عابرا برزخ السويس بلا

(٨) (Usama, ed. Hitti, pp. 43-54) وروايته لا تكشف بوضوح خياناته المتقلبة (Ibn al-Athir, pp. 492-3; William of Tyre, xviii, 9, pp. 832-4. وللاطلاع على تاريخ مصر فى هذه الفترة انظر

Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 191 ff..

(٩) Ibn al-Athir, p. 529; Abu Shama, p. 107.

صعوبة وحاصر الفرما . لكن النيل كان فى موسم الفيضان ، وتمكن ضرغام من إرغامه على الانسحاب بأن كسر سدا أو سدين من سدود النيل^(١٠) . ولم يغب عن نور الدين ما أقدم عليه أمالريك من تدخل فى مصر ، فانتهاز غيابه للهجوم على أضعف الدويلات الصليبية - طرابلس ؛ فقام بغزو البقاع كى يضرب الحصار حول قلعة الكرك التى كانت تسيطر على سهل ضيق . ولحسن حظ الفرنج كان هيو ، كونت لوسينيان ، وجيوفرى مارتل ، أخو كونت أنجوليم ، يمران خلال طرابلس باتباعهما فى طريق عودتهما من الحج فى القدس ، فانضما إلى الكونت ريموند ، وأرسلت استغاثة عاجلة إلى أنطاكية جاء على أثرها من الشمال لا بوهمند الثالث وحسب ، وإنما أيضا القائد الامبراطورى قسطنطين كولومان ؛ وسار الجيش المسيحى المتحد مسرعا خلال التلال وباغت المسلمين فى معسكرهم أسفل قلعة الكرك . وبعد معركة قصيرة أظهر فيها كولومان وجنوده تميزهم بصورة خاصة ، هرب نور الدين بلا نظام إلى حمص ، حيث أعاد تجميع جيشه وتلقى تعزيزات مما دفع المسيحيين إلى التخلي عن المطاردة^(١١) .

وسرعان ما ظهر بعد ذلك الوزير السابق شاور الهارب من مصر فى بلاط نور الدين ، يعرض عليه أن يرسل جيشا لإعادة تنصيبه فى القاهرة ، وفى هذه الحالة يدفع شاور مصروفات الحملة ، ويتخلى له عن مقاطعات على الحدود ، ويعترف بسيادة نور الدين ، ويدفع له ضريبة سنوية تعادل ثلث إيرادات البلد . وتردد نور الدين خشيّة المجازفة بجيش يمضى بطول الطرق التى يسيطر عليها الفرنج أو فى طرق ما وراء نهر الأردن . ولم يتخذ قرارا إلا فى ابريل ١١٦٤م ، بعد أن استخار آيات القرآن الذى فتحه كيفما اتفق ، وأمر بأن ينطلق أكثر قواده لإخلاصا - شيركوه - بكنية ضخمة ويذهب مع شاور عبر الصحراء ، بينما قام هو بهجوم مضلل على بانياس . واصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين - وهو ابن نجم الدين أيوب - الذى كان شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يكن شديد الشغف بالانضمام إلى الحملة . وارتاع ضرغام ، فأرسل يطلب المساعدة من أمالريك ؛ غير أن شيركوه كان قد انطلق بسرعة عبر برزخ السويس قبل أن يتهيأ الفرنج للتدخل . وبالقرب من الفرما هزم أخو ضرغام

(١٠) William of Tyre, XIX, 5, pp. 890-1; letter of Amalric, R.H.F. vol. XVI, pp. 59-60. ويؤكد أمالريك فى خطابه للملك لويس أن بالإمكان هزيمة مصر بقليل من المساعدة الإضافية ؛ Michael the Syrian, III, p. 317.

(١١) William of Tyre, XIX, 8, pp. 894-5; Ibn al-Athir, p. 531, and Atabegs, pp. 207-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 534. Michael the Syrian, III, p. 324. البيزنطيين كانوا الأكثر رعبا فى الجيش المسيحى.

مع عدد ضئيل من الجنود الذين تمكن من جمعهم . وشهدت القاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١١٦٤م إعادة تنصيب شاور وموت ضرغام^(١٢).

وما أن استعاد شاور سلطانه حتى تنكر لوعوده وطلب من شيركوه العودة إلى سوريا . فرفض شيركوه واستولى على بليس ، فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك أمالريك ، وحثه على الإسراع عارضا عليه ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرين مرحلة ، وواعدا بهدايا أخرى لفرسان المستشفى المصاحبين له ودفع تكاليف أعلاف جيادهم . فأعد أمالريك سبل الدفاع الجيد لمملكته ، ثم انطلق بسرعة فى أوائل أغسطس إلى فاقوس الواقعة على النيل ، حيث انضم إليه شاور وانطلقا لمحاورة شيركوه فى بليس . وصمدت القلعة ثلاثة أشهر ، ولاح احتمال سقوطها . لكن أمالريك جاءته أنباء من سوريا فقرر رفع الحصار بشرط أن يجلو شيركوه عن مصر . ووافق شيركوه ، وسار الجيشان الفرنجى والسورى فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، وقد تركا شاور مسيطرا على مملكته . وكان شيركوه آخر من رحل من أصحابه . وعندما كان يودع الفرنج سألهم أحدهم من الوافدين الجدد إلى الشرق : ألا تخشى الخيانة ؟ فأجابوه بفخر بأن جيشه كله سيثار له ، ورد عليه سألهم الفرنجى بعبارات الشبهة بأنه يفهم الآن سبب ارتفاع شهرة شيركوه بين الصليبيين^(١٣).

١١٦٤م : كارثة فى أرتاح

ولقد كانت أنطاكية هي مصدر الأنباء التى دفعت أمالريك إلى أن يسرع بالعودة إلى بلده . ذلك أن نور الدين عندما علم أن أمالريك رحل إلى مصر ، ضرب الامارة الشمالية وحاصر قلعة حارم التى تعتبر القلعة الأساسية ، وكان معه جيش أخيه الذى جاء من الموصل وحنود من أمراء الأرتاق فى ديار بكر وماردين وديرت وكير . وبينما كان لورد حران - رينالد (أوف سانت فاليرى) يدافع عن القلعة ببسالة ، استنجد الأمير بوهمند برعموند أمير طرابلس ، وثوروس الأرمينى ، وكولومان البيزنطى .

(١٢) William of Tyre, xix, 5, 7, pp. 891-2, 893; Abu Shama, p. 107; Ibn al-Athir, p. 533, and Atabegs, pp. 215-6; Beha ed-Din, P.P.T.S. PP. 46-8.

(١٣) William of Tyre, xix, 7, pp. 893-4; Ibn al-Athir, pp. 534-6 and Atabegs, pp. 217-9; Abu Shama, p. 125.

فانطلقوا معا في منتصف أغسطس ، ولما جاءت نور الدين اخبار تحرهم رفع الحصار .
وقيل لنا إن نور الدين شعر بالخطر بوجه خاص من وجود الكتيبة البيزنطية . وبينما
كان بوهمند ينسحب ومعه نحو ستمائة فارس تقريبا قرر مواصلة المطاردة ضاربا
عرض الحائط بنصيحة رينالد (أوف سانت فاليري) الذي كان يرى أن الجيش الإسلامي
أكبر بكثير . واصطدم الجيشان يوم ١٠ أغسطس بالقرب من أرتاح . وتجاهل بوهمند
ما حذره منه ثوروس ، وهاجم على الفور . وتظاهر المسلمون بالهرب فاندفع بوهمند
وراءهم مباشرة ، لا لشئ إلا ليقع في كمين ويحصد نفسه وفرسانه وقد طردهم جيش
الموصل . وتمكن ثوروس وأخوه مليخ - وكانا أكثر حذرا - من الهرب من ساحة
القتال ، أما باقي الجيش المسيحي فقد وقع ضحية الأسر أو القتل ؛ وكان من بين
الأسرى بوهمند ، وريموند أمير طرابلس ، وقنسطنطين كولومان ، وهيسو (أوف
لوسينيان) ، وقد اقتيدوا وهم مقيدون معا في قيد واحد إلى حلب^(١٤).

وراح مستشارو نور الدين يحثونه على الزحف على مدينة أنطاكية العارية من أي
دفاع ؛ لكنه رفض قائلا إنه لو زحف على أنطاكية فسوف يسرع اليونانيون بإرسال
حامية داخل القلعة ، وأنه برغم امكان استيلائه على المدينة ، تستطيع القلعة الصمود إلى
أن يأتي الامبراطور . كان يعتقد أن وجود دويلة فرنجية ضئيلة الشأن أفضل من أن
تصبح جزءا من امبراطورية عظيمة . وكان بالغ الحرص على عدم الإساءة إلى بيزنطة
بحيث أطلق سراح قنسطنطين كولومان على الفور تقريبا مقابل مائة وخمسين رداء
حريريا . ومرة أخرى أنقذت أنطاكية للعالم المسيحي بفضل هبة الامبراطور.

وبينما كان أمالريك يغذ السير مسرعا باتجاه الشمال ، انضم اليه ثيرى (أوف
فلاندرز) الذي جاء إلى فلسطين في حجته الرابعة . وبهذا التعزيز توقف أمالريك في
طرابلس لترسيخ حقه في أن يكون الوصي على الكونتية أثناء أسر الكونت ، ثم واصل
مسيرته إلى أنطاكية ، حيث دخل في مفاوضات مع نور الدين الذي وافق على إطلاق
سراح بوهمند أمير طرابلس وثوروس لقاء فدية ضخمة ، وانما فقط لأنهما من أتباع
الامبراطور ؛ ولم يكن ليطلق سراح ريموند أمير طرابلس ولا سجينه الأقدم - رينالد

(١٤) Robert of William of Tyre, xix, 9, pp. 895-7 الذي يحدد التاريخ خطأ بعام ١١٦٥م ؛ Robert of Torigny, i, p.355 ؛ خطابات أمالريك الأول وخطابات Gaufred-Fulcher الموجهة إلى لويس السابع في: R.H.F. vol. xvi, pp. 60-2 ؛ ويشير Cinnamus, p.216 إشارة مقتضبة جدا حول أسر كولومان ؛ Michael the Syrian, iii, p.324 ؛ Chron. Anon. Syr. p.304 ؛ Bustan, p.559 ؛ Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 510؛ Abu Shama, p. 133؛ Ibn al-Athir, Atabegs, pp.220-3.

(أوف شاتيلون)^(١٥) . وانتاب أمالريك نفسه القلق عندما جاءه مبعوث امبراطورى يسأله عن سبب وجوده فى أنطاكية ؛ فكان رده أن أرسل إلى القسطنطينية رئيس أساقفة قيسارية ، وخازنه - اودو (أوف سانت أماند) ، بطلب يد لإحدى الأميرات الامبراطوريات ، واقترح عقد تحالف لغزو مصر^(١٦) . واحتجز الامبراطور مانويل السفارة مدة عامين لإعطائها الرد . وفى تلك الأثناء لم يكن لأمالريك بد من أن يعود إلى الجنوب إذ أن نور الدين ، بدلا من مهاجمة أنطاكية ، ظهر فجأة فى أكتوبر أمام بانياس التى كان أميرها همفرى الثانى (أوف تورون) مع جيش أمالريك . وكان قد أشاع شائعات بأن الهدف هو طبرية ؛ فتركزت الميليشيات الفرنجية المحلية هناك . أما حامية بانياس ، فقد قاومت بشجاعة بادئ الأمر ، وكان المأمول أن يخف لنجدها ثيبرى (أوف فلاندرز) ، الذى وصل لثوه إلى فلسطين ، لكن القلعة استسلمت فجأة ، ربما بسبب الخيانة . واحتل نور الدين البلاد المحيطة وهدد بالتوغل فى الجليل فسارع باروناتا بالوعد بدفع إتاوة^(١٧) .

١١٦٥م : بطريق يونانى فى أنطاكية

ما أن أطلق سراح بوهمند أمير أنطاكية حتى ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته ، ولكى يتوصل إلى زوج اخته (الامبراطور) دفع جزء من الفدية التى لا يزال مدينا بها لنور الدين ؛ فأعطاه مانويل المعونة المطلوبة وفى المقابل عاد بوهمند إلى أنطاكية ومعه بطريق يونانى - أنناسيوس الثانى ؛ أما البطريق اللاتينى ليمرى الذى اعترض فقد ذهب إلى منفاه فى قلعة قصير^(١٨) . وطوال السنوات الخمس التالية سيطر اليونانيون على الكنيسة الأنطاكية ؛ ولا يبدو أن الأساقفة اللاتينيين قد طردوا ، وإنما كان اليونانيون يشغلون المناصب الشاغرة . وأدى مجئ اليونانيين إلى ارماء الكنيسة اليعقوبية فى أحضان

(١٥) William of Tyre, XIX, 10, II, pp.898, 900-1; *Bustan*, p.561; Michael the Syrian, III, p. 326, Armenian version, p. 360 ويقول ميخائيل السريانى ، فى النسخة الأرمنية ، إن نوروس الذى أطلق سراحه أولا أصر على إطلاق سراح بوهمند.

(١٦) Cinnamus, pp. 237-8; William of Tyre, XX, I, p. 942.

(١٧) William of Tyre, XIX, 10, pp. 898-900; Ibn al-Athir, pp. 540-2, and *Atabegs*, p. 234; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 541.

(١٨) William of Tyre, XIX, II, p. 901; Michael the Syrian, III, p.326. عُنِ أنناسيوس الثانى بطريقا لأنطاكية عام ١١٥٧م عندما اتهم البطريق المعين Panteugenos Soterichus بالهرطقة.

اللاتينيين ، إذ كانوا على علاقة ودودة منذ عام ١١٥٢م عندما حدثت معجزة عند قبر القديس السيرياني بارسوما أسفرت عن شفاء طفل فرنجي أعرج ؛ وفى عام ١١٥٦م شُحح لليعاقبة ببناء كندراية جديدة ساعد فى تخصيص الوقف لها الأميرة كورنستانس والأمير الأرمني ثوروس ، مما أدخل البهجة على بطريقهم - ميخائيل السوري المؤرخ. والآن ذهب البطريق ميخائيل لزيارة يمرى فى القصر ليؤكد له تعاطفه معه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين شأوا بعيدا بحيث رفض عام ١١٦٩م دعوة ودية من الامبراطور للحضور إلى القسطنطينية للاشتراك فى إحدى المناظرات الدينية التى كان الامبراطور مانويل شغرفا بها^(١٩).

وأمضى نور الدين عامى ١١٦٥م و١١٦٦م فى القيام بهجمات مفاجئة على القلاع الواقعة شرقى منحدرات لبنان ، بينما راح شيركوه يغير على منطقة الأردن ، ودمر حصنا كان فرسان المعبد قد بنوه فى مغارة جنوب عمان^(٢٠). وفى نهاية عام ١١٦٦م حصل شيركوه أخيرا على إذن سيده فى غزو مصر مرة أخرى ؛ وحث الخليفة فى بغداد على المناداة بهذا المشروع كحرب مقدسة ضد هرطقة الخلافة الشيعية الفاطمية ؛ وربما كان لهذا الجدل أثره على نور الدين الذى أصبح عميق التدين منذ مرضه ، وزود شيركوه وحيشه بتعزيزات من حلب . وانطلق شيركوه من دمشق فى يناير ١١٦٧م ، واصطحب معه صلاح الدين مرة أخرى . ولم يخف نوابه ، مما أتاح الوقت لشاور كى يستنجد بالملك أمالريك . واستدعى الملك باروناته لمقابلته هناك ؛ وبعد تأكيده للخطر المحدق بفلسطين فى حالة غزو السوريون السنيون لمصر ، وافقت المحكمة العليا على إرسال حملة كاملة لإنقاذ شاور . وكان على قوة المملكة المقاتلة كلها أن تشارك فى الحملة أو أن تبقى على الحدود للحراسة فى غيبة الملك ؛ ولذا كان على كل شخص لا يستطيع الحضور أن يدفع عشر دخله السنوى . وقبل أن يتهيا الجيش جاءت الأنباء بأن شيركوه يعبر صحراء سيناء ؛ فسارع أمالريك بإرسال ما كان

(١٩) Michael the Syrian, III, pp. 301-4, 332, 334-6.

(٢٠) William of Tyre, XIX, II, pp.901-2; Beha ed-Din, P.P.T.S. p.501 الإستيلاء على مونتيزا بعد الحملة المصرية عام ١١٦٧م، Ibn al-Athir, pp.545-6 and *Atabegs*، pp.235-6، استولى نور الدين على مونتيزا ، على الطريق من جبيل الى بعلبك ، بينما استولى شيركوه على شقيف تيتون ، أو كهف تيرون ، الذى يحدده (Rey(Colonies Franques,p.513 بأنه قلعة نينها، الواقعة على مسافة ١٥ ميلا تقريبا شرق صيدا . ومكان قلعة فرسان المعبد القريبة من عمان غير معروف . ويطلق عليها بهاء الدين أكاف ، وربما تكون مغارة كاف الواقعة جنوب شرق عمان والى تضم أطلالا رومانية ، ولكن ليس هناك ما يدل على وجود أطلال من العصور الوسطى.

جاهزا من الجنود لإعتراض طريقه ، لكن السيف كان قد سبق العذل^(٢١).

١١٦٧م : السفراء الفرنج في القاهرة

هبت عاصفة رملية مرعبة كادت أن تسحق جيش شيركوه ؛ لكنه وصل برزخ السويس في الأيام الأولى من فبراير تقريبا ، وهناك سمع بأن الجيش الفرنجى انطلق يوم ٣٠ يناير ؛ ولذا سار باتجاه الجنوب الغربي ، خلال الصحراء ، ليصل إلى النيل عند أطفيج ، على بعد أربعين ميلا جنوب القاهرة . وعبر النيل وهبط على الضفة الغربية وضرب معسكره في الجزيرة أمام العاصمة . وفي تلك الأثناء اقترب الجيش الفرنجى من القاهرة من الشمال الشرقي ؛ وقابله شاور في مكان ما خارج المدينة وقاده إلى حيث يعسكر على الضفة الشرقية للنيل ، على مسافة ميل من أسوار المدينة . ورفض شاور اقتراحا من شيركوه بالاتحاد ضد المسيحيين ، وعقد حلفا مع أماليك يدفع بموجبه للفرنج أربعمئة ألف بيزانت نصفها في الحال والنصف الآخر بعد وقت قصير ، شريطة أن يقسم أماليك بعدم مغادرة مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وبعث الملك إثنان هما هيو (لورد قيسارية) وفارس من فرسان المعبد يدعى جيوفرى - ربما كان يتحدث العربية - إلى داخل القاهرة للحصول على تصديق رسمى من الخليفة على الحلف . واستقبلا في القصر استقبالا فخيميا ؛ إذ اقتيدا عبر صفوف أشجار وينابيع وحدائق ، حيث ما كان يحتفظ به البلاط من وحوش وأقفاص ضخمة للطيور ، ومن قاعة إلى أخرى تتدلى في كل منها الستائر الكثيفة المحلاة بخيوط الحرير والذهب وأزوار المجوهرات ، إلى أن رفعت ستارة ذهبية ضخمة ، لتكشف عن الخليفة الصبى من وراء ستر على عرشه الذهبى . وأقسم المقسمون بالحفاظ على المعاهدة . ثم إن هيو - كنائب عن الملك - رغب في اتباع الطريقة الغربية للتصديق على التحالف بأن يشد على يد الخليفة العارية . وارتاع رجال الحاشية الملكية ، وأخيرا تم اقناع سيدهم ، وهو يتسم ابتسامة فيها الإزدراء ، بأن يخلع قفازه . وانسحب السفيران وقد تأثرا تأثرا عميقا - كما كان مقصودا - بما كان للامبراطورية الفاطمية من ثروة هائلة^(٢٢).

(٢١) William of Tyre, xix, 13, 16, pp. 902-4, 907-8, Beha ed-Din, P.P.T.S. p.48
بهاء الدين إن نور الدين أبحر صلاح الدين على مصاحبة شيركوه ؛ Ibn al-Athir, p. 547, and Atabegs, p. 236.

(٢٢) William of Tyre, xix, 17-19, pp.908-13; Ernoul, p. 19
في القسطنطينية هو فقط الأكثر ثراء من بلاط القاهرة ؛ Abu Shama, p. 130 ويواصل وليس

ومضى شهر والجيشان يعملق كل منهما فى الآخر ، لا يقدر أى منهما على عبور النهر فى وجود الآخر قبالة . ثم تمكن أمالريك من تنفيذ عبور إلى جزيرة على رأس الدلتا - إلى الشمال قليلا - ومنها إلى الضفة اليسرى ، حيث باغت إحدى فرق شيركوه . ووجد شيركوه أن جيشه ضئيل العدد أمام الفرنج والمصريين ، فانسحب باتجاه الجنوب أعلا النيل ، وتبعه أمالريك وشاور ، متوخين جانب الحذر بترك حامية قوية فى القاهرة تحت قيادة ابن شيركوه ، الكامل ، وهيو (أوف إبلين). وتسبب دخول كتيبة هيو إلى القاهرة والسماح للضباط بحرية دخول القصر ، فى إثارة الذعر لدى دوائر المسلمين الأكثر تشددا فى المدينة.

وفى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مدينة المنيا فى وسط مصر ، تهيأ شيركوه لعبور النيل مرة أخرى وفى ذهنه العودة لغزو الحدود السورية . فعسكر فى أشمونين بين أطلال هرموبوليس القديمة ؛ حيث لحق به الجيش الفرنجى المصرى - الذى كان أكبر من جيشه حتى بدون الحامية التى تخلفت فى القاهرة . غير أن جيش شيركوه كان مؤلفا أساسا من فرسان الأتراك خفيفى الحركة ، بينما كان الجيش المصرى يتألف من المشاة ومع الجيش الفرنجى مجرد بضع مئات من الفرسان ؛ وبخلاف ما أشار عليه أمراء الجيش ، قرر شيركوه الاشتباك فى معركة . وتردد أمالريك من ناحيته ، وعندئذ حدثت إحدى تدخلات القديس برنارد التعسة فى التاريخ الصليبي ؛ فقد ظهر للملك فى حلم وراح يوحى توبيخا مهينا بأنه غير جدير بهذه القطعة الخشبية من الصليب الحقيقى التى يعلقها حول رقبته ، وأنه لن يبارك هذا الأثر إلا عندما يقسم الملك بأن يكون مسيحيا أكثر اخلاصا . وبهذا التشجيع ، شن أمالريك فى الصباح التالى ، ١٨ مارس ١١٦٧ م ، هجوما على السوريين . واتبع شيركوه التكتيكات التركية المعتادة ؛ فقد تهاوى القلب من جيشه بقيادة صلاح الدين ، وعندما انطلق الملك وفرسانه فى عدوهم يطاردون القلب ، دفع شيركوه ميمته إلى ميسرة الفرنج والمصريين فانهارت . ووجد أمالريك نفسه وقد أحيط به . وإنما يُعزى تمكنه من الهرب على قيد الحياة - كما يُظن - إلى الأثر المبارك المعلق فى رقبته ؛ على أن الكثيرين من أفضل فرسانه قتلوا وأسر آخرون ، من بينهم هيو كونت قيسارية . واندفع أمالريك وشاور وبقايا جيشهما منسحبين إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية^(٢٣).

الصورى بيان الفرق بين الطائفتين السنية والشيعية.

(٢٣) William of Tyre, *xxx*, 22-5, pp. 917-28 (متضمنا وصفا لمصر والنيل) ، Ibn al-Athir, pp. 547-7 ، يحدد تاريخ معركة أشمونين فى ١٨ مارس ، ومى *Atabegs*, p. 23 ، تحدد تاريخها فى ١٨

١١٦٧م : صلاح الدين محاصر في الإسكندرية

لقد انتصر شيركوه ؛ لكن هناك جيشا متحالفا لا يزال فى ساحة القتال . وبدلا من محاولة الهجوم على القاهرة ، عبر النهر مرة اخرى واتجه بسرعة إلى الشمال الغربى من خلال الفيوم ؛ وفى غضون أيام قليلة ظهر امام الإسكندرية . وفتحت له هذه المدينة العظيمة بواباتها لما كان يعرف عن كراهيتها لساور . وفى تلك الأثناء أعاد أمالريك وساور تشكيل جيشهما خارج القاهرة . وبرغم الخسائر كان لا يزال أكبر من جيش شيركوه ؛ ولذا تبعاه إلى الاسكندرية وضربا حصارا حول المدينة ؛ ووصلت تعزيزات قليلة من فلسطين، وأبحرت سفن فرنجية لتحكم الحصار . وبعد انقضاء شهر تقريبا وجد شيركوه الجحاعة تهدده ، فترك صلاح الدين مع حوالى ألف من رجاله للدفاع عن المدينة ، وتسلسل خارجا فى إحدى ليالى شهر مايو مع القسم الأكبر من جيشه ، مارا بمعسكر أمالريك وبمع وجهه شطر مصر العليا . وشعر أمالريك بالحق ورجب فى مطاردته ؛ غير أن ساور أخبره بأن الأهم استرجاع الإسكندرية ، ولا مانع لديه من أن ينهب شيركوه مدن مصر العليا إذا شاء . وبنهاية شهر يونية أصبح وضع صلاح الدين داخل المدينة باعثا على اليأس بحيث توسل إلى عمه أن يعودوا . وتحقق شيركوه من أنه ليس هناك ما يمكنه أن يفعله ، فاقترب من الإسكندرية وأرسل أحد أسراه الفرنج ، وهو أرنولف امير تل بشير - بعد أن رفض هيو امير قيسارية المهمة - إلى معسكر أمالريك يقترح عقد السلام على أساس أن يجلو هو والفرننج عن مصر ، وعلى أن يعد ساور بعدم معاقبة رعاياه فى الاسكندرية وغيرها من الذين أيدوا الغزاة . وقبل أمالريك بالشروط ، إذ كان فى حالة عصبية لانشغاله بشؤون فلسطين وطرابلس . وفى ٤ أغسطس ، دخل الجيش الفرنجى الاسكندرية وعلى رأسه الملك . وخرج صلاح الدين وجيشه بأسمى آيات الشرف العسكرية تحت الحراسة ، رغم أن السكان تمنوا لو يمزقوه إربا بعدما ألقوا عليه باللائمة لما هم فيه من بؤس . على أن متاعبهم لم تكن قد انتهت بعد ؛ فما أن دخل مسؤولو ساور المدينة حتى اعتقلوا كل من حامت حوله الشكوك فى التعاون مع السوريين ، مما دفع صلاح الدين إلى الشكاية لأمالريك الذى أمر ساور باطلاق سراح السجناء . وقدم هو نفسه قوارب لنقل الجرحى من جيش شيركوه بحرا إلى عكا ، ولسوء الحظ أرسل من شفى من جراحاته للعمل فى مزارع السكر إلى أن جاء الملك بنفسه للإفراج عنهم . وأثناء المفاوضات ، صادق صلاح الدين الكثيرين من

§ ٣٣

بين الفرنج ، وساد الاعتقاد فيما بعد بأنه نال درجة الفروسية على يد الكرونستابل همفري (أوف تورون) . وغادر شيركوه وصلاح الدين مصر يوم ١٨ أغسطس تقريبا ووصلا دمشق في سبتمبر . واتجه أمالريك وجيشه إلى القاهرة لإعفاء هيو (أوف إلبين) من مهمته في الحامية ، غير أنه انتهى مع شارو إلى أن وقع الأخير على معاهدة يعد فيها بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية ، والاحتفاظ بمندوب سام فرنجي وحامية فرنجية صغيرة في القاهرة تسيطر على بوابات المدينة . وبعد ذلك عاد الملك إلى فلسطين ووصل عسقلان يوم ٢٠ أغسطس^(٢٤) .

وظن بعض لوردات الفرنج أن كان من الممكن الحصول على صفقة أفضل ، لكن أمالريك لم يشأ المجازفة بقواته أكثر من ذلك في مصر وترك فرنج سوريا بلا حماية من هجمات نور الدين ؛ وحدث عندما كان في مصر أن أغار نور الدين على أراضي طرابلس ، ولكن دون أن يستولى على أية حصون هامة ؛ فكان من الضروري إعادة تنظيم الدفاع عن البلاد . على أن مشكلة المشاكل هي دائما الرجال ؛ وكانت أعداد الأسر المقيمة تنقص بسبب الموت أو الوقوع في الأسر ، وأما الصليبيون الزائرون - مثل ثيرى (أوف فلاندرز) - فليس في الامكان الاستعانة بهم إلا في حملات محددة ؛ ومن ثم كان جُل اعتماد أمالريك على النظامين العسكريين اللذين منحوا في عام ١١٦٧م والأعوام التالية أعدادا كبيرة من القلاع والأراضي المحيطة . وكانت الهبات على جانب من الأهمية بالنسبة لطرابلس خاصة ، إذ كان أميرها ما يزال أسيرا ولم يكن فيها من الأسر النبيلة الكبيرة سوى القليل . وكانت طرطوس وشمال البلاد كله تقريبا تحت سيطرة فرسان المعبد ، أما فرسان المستشفى - الذين ربما كانوا قد استولوا فعلا على الكرك التي يسمونها "حصن الفرسان des Chevaliers" - فقد عهد إليهم بالبقاع . وفي المملكة ، كان فرسان المعبد - الذين وطلدوا دعائمهم بالفعل في غزة - قد منحوا صفد في الشمال ، بينما حصل فرسان المستشفى على قلعة كوكب التي تتحكم في مخاضات نهر الاردن الواقعة إلى الجنوب من بحر الجليل . وفي انطاكية حذا بوهمند الثالث حذو أمالريك ؛ فزادت حيازات فرسان المعبد من المناطق المحيطة ببجراس ، على البوابات السورية ، وخصص لفرسان المستشفى مساحة ضخمة من الأراضي جنوب الامارة ، كان اغلبها في الواقع في أيدي المسلمين . ولو أن الغيرة المتفشية بين النظامين

(٢٤) William of Tyre, xix, 26-32, pp.928-39; Abu Shama, pp. 130-4; Ibn al-Athir, pp. 547-51, and Atabegs, pp. 236-46; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 49-51; Imad ed-Din.

وترد قصة فروسية صلاح الدين في، p.9 Itinerarium Regis Ricardi.

كانت أقل والشعور بالمسؤولية كان أكبر ، لاستطاعا الحفاظ على دفاعات المملكة بما لهما من قوة^(٢٥).

١١٦٦-١١٦٧م: مغامرات أندرونيكوس كومنينوس

بينما تقرر أن يقود النظامان الدفاع عن المملكة ، سعى أمالريك كذلك إلى عقد تحالف أوثق مع بيزنطة . وفى أغسطس ١١٦٧م ، وكان قد عاد لتوه من مصر ، وصلته أنباء بأن سفيريه فى القسطنطينية، رئيس أساقفة فيسارية والنادل أودو، قد هبطا فى ميناء صور مع ابنة أخيه الامبراطور الجميلة الشابة ماريا كومنينيا ؛ فسارع إلى مقابلتها ؛ وشهدت كندرائية صور حفل زواجهما الفاخر الذى عقده البطريق أمالريك يوم ٢٩ أغسطس . ومنحت الملكة نابلس والأراضى المحيطة بها مهرا لها . وكان بصحبتهما اثنان من كبار المسؤولين فى بلاط عمها، وهما ابنا عمومته جورج بالايولوجوس ومانويل كومنينوس، وكانا مزودين بسلطة مناقشة التحالف مع امالريك.

وكانت العلاقات الحسنة بين امراء الفرنج والامبراطور قد تعرضت مؤخرا للخطر بسبب ما كان عليه ابن عم آخر لمانويل ، هو أندرونيكوس كومنينوس من رعونة، وكان أكثر امراء عائلته ذكاء ووسامة ؛ وكان هذا الامير فى أحط درجات الخزي لمغازلته إحدى قريباته ، وهى إيوديشيا ابنة اخت الامبراطور ، التى تحدثت الشائعات بأن الامبراطور نفسه كان بالغ الشغف بها . فضلا عن ذلك ، أتى من التصرفات ما يدل على افتقاره إلى الحكمة عندما كان محافظا فى كيليكيا عام ١١٥٢م ؛ غير أنه عُيِّن مرة أخرى فى هذا المنصب عام ١١٦٦م . وكان سلفه الكسيوس أكسوخ - الذى أوفد مكان كولومان أثناء أسره - قد فشل فى تنفيذ أوامر الامبراطور فى التوفيق بين الأرمن، وقت أن كانت الآمال معلقة على نجاحه مع ثوروس لما كان يتمتع به أندرونيكوس من جاذبية شخصية ، إلى جانب الكثير من المعونات. بيد أن أندرونيكوس، الذى بلغ من العمر السادسة والأربعين ، كان أكثر اهتماما بالمغامرة منه بالادارة ؛ وسرعان ما اتاحت له الفرصة لزيارة انطاكية حيث أصابته الاميرة الشابة فيليبيا - اخت بوهمند - بسهم جمالها . ونسى أو تناسى واجباته الحكومية ومكث فى انطاكية يتودد لفيليبيا بسلسلة من الأناشيد العاطفية الليلية حتى ثملت ولم تملك أن

(٢٥) انظر Delaville Le Roulx, *op. cit.* pp.74-6. وترد أمثلة متواترة عن الهبات الممنوحة للنظاميين فى Rohricht, *Regesta*, pp. 109 ff..

ترفض له طلبا . واغتاز بوهمند ولجا في شكواه إلى زوج أخته مانويل، الذي تملكه الغضب فاستدعى أندرونيكوس وأرسل مكانه قنسططين كورلومان . كما صدرت الأوامر لكولومان بالتوجه إلى انطاكية ومحاولة الفوز بقلب فيليبيا؛ لكن الأميرة وجدته بسيطا قصيرا في منتصف عمره بالمقارنة بمحببها الرائع . ومع هذا ، كانت دوافع أندرونيكوس بدرجة كبيرة مضايقة القيصرية التي كان يفضها ، والآن اتخذ سبيل الحصافة فهجر انطاكية ومحظيته ؛ وأخذ معه نصيبا ضخما من الإيرادات الامبراطورية من كيليكيا وقبرص وعم وجهه شطر الجنوب عارضا خدماته على الملك أمالريك . وسرعان ما عُثر على زوج للأميرة المهجورة ، الكورنستابل همفري الثاني (أوف تورون) الأرمل المسن .

وافتن أمالريك بأندرونيكوس ، وأثرت فيه شجاعته الشخصية ، فوجهه أقطاعية بيروت التي كانت شاغرة آنذاك . وبعد ذلك مباشرة ذهب أندرونيكوس إلى عكا ، وهي مهر ابنة عمه الأرملة الملكة ثيودورا التي كانت وقتئذ في ربيعها الحادى والعشرين وفي رابعة جمالها . وكانت قصة حب من كلا الجانبين؛ والتصق كل منهما بالآخر بحيث لم يكن للزواج بينهما ضرورة ، وانتقلت الملكة بلا تحجل إلى بيروت حيث مكثت خلية له . وعندما سمع مانويل بهذه الصلة الجديدة ، ربما من سفرائه الذين رافقوا الملكة ماريا إلى فلسطين ، تفجرت لديه سورة الغضب . ولذا ، وعندما ذهب سفراؤه بعد ذلك إلى فلسطين طلبوا سرا تسليم الجانى . ووقعت التعليمات المعطاة للسفراء فى يد ثيودورا . ولما كان معروفا أن أمالريك يسعى إلى الفوز بنوايا الامبراطور الحسنة ، ارتأى اندرونيكوس أن الحكمة تدعوه إلى الرحيل وأعلن عن نيته فى العودة إلى وطنه ، وجاءت ثيودورا إلى عكا مرة أخرى لتوديعه . وما أن التقيا حتى تركا كل ممتلكاتهما ولاذا بالفرار دون مرافق عابرين الحدود إلى دمشق . واستقبلهما نور الدين استقبالا طيبا؛ وأمضيا السنوات التالية يتجولان فى أرجاء الشرق الإسلامى ، وزارا حتى بغداد ، إلى أن منحهما أحد الأمراء المسلمين حصنا بالقرب من حدود الامبراطورية عند بافلاجونيا ، حيث استقر أندرونيكوس بعدما حكم عليه بالرد من الكنيسة ، سعيدا بحياة قطاع الطرق . ولم يأس أمالريك لرحيلهما ، إذ استعاد مهر اخـت زوجته النفيس — عكا^(٢٦)

(٢٦) William of Tyre, xx, 2, pp. 943-4; Cinnamus, pp. 250-1, Nicetas Choniates, pp.180-6. (وعن تاريخ أندرونيكوس بعد ذلك انظر أدناه الصفحات ٤٨٣-٤٨٥)

١١٦٨ م : التحالف مع بيزنطة

ومن الواضح أن أمالريك أرسل مع جورج بالايولوجوس إلى مابويل يقترح غزو مصر . وحملت السفارة التالية لمابويل - التي رأسها إيطاليان هما الكسندر (أوف كوفرسانز) كونت جرافينا، وميخائيل (أوف أوترانتو) - شروط الامبراطور التي يبدو أنها كانت تتألف من حصة في أسلاب مصر وإطلاق يده تماما في انطاكية ، وربما التنازل عن أراض فرنجية أخرى . كانت الشروط قاسية ؛ ولذا بعث أمالريك رئيس شمامسة صور ، ولیم - مؤرخ المستقبل - إلى القسطنطينية لاستئناف المناقشات . وعندما وصل ولیم هناك علم أن الامبراطور في حملة في الصرب فتبعه إلى هناك وقابله في موناستير حيث استقبله مابويل بما اعتاد عليه من سخاء الكرم وعاد معه إلى عاصمته . وأبرمت المعاهدة التي تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك غزوتيهما لمصر . وعاد ولیم إلى فلسطين في أواخر خريف ١١٦٨ م^(٢٧) .

وللحظ التمس ، لم ينتظر البارونات عودته . إذ وردت الأنباء بأن شارر يفتقر إلى الأمان ، وأنه متبرم من الحماية الفرنجية في القاهرة ، وقد تأخر في دفع الإتاوة ، إلى جانب انتشار الشائعات بأن ابنه الكامل يتفاوض مع شيركوه ، وطلب يد أخت صلاح الدين . وكان لوصول الكونت ولیم الرابع كونت نفرس إلى فلسطين في أواخر الصيف ومعه صحبة رائعة من الفرسان ، أن شجع أولئك المتعجلين للعمل . وعقد الملك مجلسا في القدس راح فيه السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جيلبرت (أوف أسيلي) يبحث بعنف على الانطلاق إلى مصر إذ لم يعد هناك مجال لأي تأخير ؛ وأيده أغلب البارونات العلمانيين ؛ وزاد التأيد بما أضافه كونت نفرس ورجاله ، الذين جاءوا للحرب من اجل الصليب . وعارض فرسان المعبد صراحة ارسال اية حملة وأعلنوا انهم لن يشتركوا فيها . وربما ترجع معارضتهم إلى غيرتهم من فرسان المستشفى ، الذين قرروا بالفعل الحصول على القرما (بيلويزيوم) باعتبارها نصيبهم في الحملة ، كمقابل لحصن غزة الذي يحتله فرسان المعبد . على أن لفرسان المعبد أيضا علاقات مالية مع المسلمين ومع المدن التجارية الإيطالية التي أصبحت تجارتها الآن مع مصر أكبر من تجارتها مع سوريا المسيحية . ووافق الملك أمالريك على أنه من الضروري القيام بعمل عاجل نظرا لضعف شارر وعدم امكان الاعتماد عليه ، لكنه اعرب عن رغبته في الانتظار إلى أن تصل مساعدة الامبراطور . لكنهم تغلبوا عليه . وأمام الإصرار المتعنت من فرسان المستشفى

ومن أتباعه هو نفسه ، الذين لم يجدوا ما يبرر حصول البرنانيين على حصّة من أسلابهم، رضخ أمالريك . وتقرر التخطيط لحملة في أكتوبر^(٢٨).

١١٦٨ م : أمالريك يتقدم نحو القاهرة

عاد وليم الصوري بمعاهدته من القسطنطينية ليجد الملك قد رحل فعلا . وكان أمالريك قد أذاع أنه سيهاجم حمص ردعا لنور الدين عن الإقدام على أى عمل ؛ فعلا كان نور الدين راغبا في تجنب أى حرب مع الفرنج نظرا لمتابعه الخاصة به في شمال شرق سوريا . كما أن شاور لم يتحقق مما كان جاريا إلى أن خرج الجيش الفرنجى من عسقلان يوم ٢٠ أكتوبر ليصل بعد ذلك بعشرة أيام أمام بلييس ، الأمر الذى أصابه بالملح فما كان يظن قط أن يخرق أمالريك معاهدته معه على هذا النحو المستهتر . وقابل سفيره الأول - الأمير بدران - الملك في الداروم على الحدود ، لكنه ارتشى . وأما سفيره الثانى - شمس الخلافة - فقابل الملك في الصحراء بعد مروره على بلييس بمسيرة أيام قليلة فراح يؤنبه تأنيبا مريرا على غدره ؛ فكان رد الملك على ذلك أن المبرر لتصرفه ما قام به الكامل - ابن شاور - من مفاوضات مع شيركوه ، وعلى أية حال ، فإن الصليبيين الوافدين مؤخرا من الغرب عقدوا العزم على مهاجمة مصر ، وإن وجوده إنما ليكبح جماحهم. وأضاف أنه قد ينسحب لو تسلم مليونين آخرين من الدنانير . غير أن شاور ارتاب الآن في نوايا الملك . ولدهشة الملك ، قرر شاور المقاومة ورفض ابنه طئى - وكان آمر الحامية في بلييس - فتح بواباته للفرنج . لكن قواته كانت ضئيلة العدد ، فبعد ثلاثة أيام من القتال اليأس ، الذى لم يكن أمالريك يظن أن المصريين قادرين عليه، دخل الجيش الفرنجى القلعة يوم ٤ نوفمبر ، أعقبه مذبحه مروعة للسكان . وربما كان أبطال المذبحة هم رجال نفرس ، الذين كانوا متقدين حماسا وفوضى كشأن أغلب الوافدين الجدد من الغرب ، وكان زعيمهم الكونت قد مات في فلسطين من الحمى قبل بداية الحملة ، ولم يكن هناك من يقدر على السيطرة عليهم . وحاول أمالريك المحافظة على النظام ، وعندما أفلح أخيرا اضطر هو نفسه إلى أن يشتري من الجنود من بقى على قيد الحياة ممن أخذهم الجنود رهائن . على أن المحظور كان قد وقع . وكان الكثير من

(٢٨) (William of Tyre, xx, 5, pp.948-9 يذكر وصول كونت نفرس في الفصل السابق) Michael Ibn al-Athir, pp 553-4, and Atabegs, the Syrian (iii, pp 332-3) وكان المورخون العرب, pp. 246-7, and Abu Shama, pp. 112-13 مدركون أن الملك رضخ لمجلسه.

المصريين الكارهين لشارور على استعداد للترحيب بالفرنجة كمخلصين ، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة في مدن الدلتا خاصة ، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين ؛ غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا في المذبحة ، فاتحد الشعب المصرى كله فى بغضه للفرنجة . وبعد أيام قليلة وصل اسطول فرنجى صغير محمل فى أغلبه بالغربين ، وكان مقررا أن يحرق أعلى مصب النيل فى تانيس ، إلى بحيرة المنزلة وهبط فجأة على مدينة تانيس ؛ وتكررت نفس مشاهد الرعب ، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم.

وتحمل امالريك لأيام قليلة فى بلبس ، لإعادة محاولة السيطرة على جيشه بلا شك. وفاته فرصة مباغتة القاهرة ، وانما ظهر يوم ١٣ نوفمبر امام اسوار القسطنطين ، وهي الضاحية القديمة الواقعة جنوب المدينة العظيمة . وتشكك شارور فى قدرة القسطنطين على الصمود فأشعل فيها النيران ، وأرسل سفيره شمس مرة أخرى إلى الملك ليقول له إنه قبل أن تسقط القاهرة فى أيدي الفرنج سيحرقها هى ايضا إلى أن يسويها بالارض بكل ما فيها من ثروة . وكان الاسطول محجوزا فى أعلى الدلتا بمحاجز وضعت فى مجرى النهر، فتحقق امالريك من أن الحملة سلكت مسلكا خاطئا . وأخذ بنصيحة قهرمانه - مايلز (أوف بلانس) - جعل شارور يفهم أن فى الامكان رشوة الملك . فراح شارور يتلاعب كسبا للوقت ؛ فبدأ يساوم على المبلغ الذى يستطيع دفعه ؛ فدفع مائة ألف دينار فدية ابنه طي ، وراح يتحدث عن مدفوعات أخرى . وفى تلك الأثناء انتقل الجيش الفرنجى بضعة اميال شمالا وعسكر فى المطرية ، حيث شجر الجميز الذى أوقف ظله السيدة العذراء أثناء هروبها فى مصر . وانتظروا هناك ثمانية ايام إلى أن جاءت الأنباء فجأة بأن شيركوه يزحف داخل مصر التى جاءها بدعوة من الخليفة الفاطمى (٢٩).

١١٦٩م : شيركوه يفوز بمصر لنور الدين

لم يكن شارور يرغب فى اتخاذ تلك الخطوة اليائسة ؛ لكن ابنه الكامل فرض عليه رايه وأرغم سيده الإسمى الأعلى - الخليفة العاضد - على الكتابة إلى حلب عارضا على نور الدين ثلث أرض مصر واقطاعيات لقواده . ولا بد أن الخليفة الصغير أدرك خطر

(٢٩) William of Tyre, xx, 6-9, pp 949-56; Abu Shama, pp. 114-15, 136-40 من عماد الدين: Beha ed-Din, P.P.T.S. P. 52; Ibn al-Athir, pp. 554-6, and Atabegs, pp. 247-50.

التماس الحماية ممن يبدو في عينيه هرطيقى مدّع ، لكنه كان فاقد الحيلة . وعندما تسلم نور الدين الدعوة أرسل مبعوثا إلى شيركوه في حمص التي يقيم بها ؛ على أن المبعوث وجد شيركوه فعلا على بوابات حلب . ولم يتردد نور الدين هذه المرة ، فزود شيركوه بشمانية آلاف فارس وخزانة تمويل الحرب تحوى مائتي ألف دينار للإنفاق على جيش دمشق لغزو مصر ، وأمر صلاح الدين بمصاحبه . ولم يكن شاور على يقين بعد أين تكمن مصالحه ، فأنذر أمالريك الذي تحرك مع جيشه ناحية برزخ السويس أملا أن ينقص على شيركوه عندما يبرز من الصحراء ؛ لكن شيركوه أفلت منه بانحداره جنوبا ، وبذا لم يكن للفرنج الآن بد من الجلاء . وبدأ أمالريك انسحابه يوم ٢ يناير ١١٦٩م بعد أن أمر أسطوله بالعودة إلى عكا وبعد أن استدعى الحماية التي تركها في بلبس للانضمام اليه^(٣٠).

وبعد ستة أيام دخل شيركوه القاهرة تاركا جيشه معسكرا عند باب اللوق ، وذهب إلى القصر حيث منحه الخليفة الهدايا الرسمية ووعد بالمال والطعام لجنوده . وحيّاه شاور بحرارة ؛ ودأب على زيارته يوميا في الأيام التالية لمناقشة الترتيبات المالية وتقسيم الوزارة . وتلقى شيركوه تلك العروض بكياسة ؛ غير أن ابن أخيه صلاح الدين، الذي كان أهم مستشاريه ، أصر على اتخاذ اجراء أكثر شدة . وأفلح في اقناع الخليفة بالحضور متنكرا إلى مقر شيركوه ؛ وفي ١٨ يناير تلقى شاور دعوة لمرافقة شيركوه في زيارة دينية لقبر الإمام الشافعي ، وعندما شرع شاور في الذهاب ، انقض عليه صلاح الدين وأمرأوه ، وجردوا حراسه من أسلحتهم وألقى القبض عليه . وفي أقل من ساعة صدر امر من الخليفة بضرب عنقه، ووضعت رأسه عند قدمي الخليفة. ولكي يتجنب شيركوه أية محاولة تنال منه أعلن أن بيت الوزير مفتوح لمن يرغب في نهبه، وبينما كانت الجماهير تندفع إلى هناك، انتقل هو والخليفة إلى القصر وتولى زمام الحكومة بهدوء. ولقد كان حكم شاور أبعد ما يكون عن الشعب، وكان اعتبار شيركوه للشرعية غاية في الرية بحيث لم يلق النظام الجديد معارضة أي من حكام المقاطعات. ولم تمض أسابيع قليلة حتى غدا شيركوه سيد مصر كلها؛ وتسلم أمرأوه الاقطاعات التي كانت لدى شاور وأسرته، وحصل هو نفسه على لقب الوزير

(٣٠) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 52-3; Ibn al-Athir, p. 563, and Atabegs, p. 250; Abu Shama, p. 117 واستادا الى رويه إيهاء الدين، التي كررها ابن الأثير بمزيد من الإكمال ، كان صلاح الدين عازفا بشدة عن الانضمام إلى الحملة.

الملك^(٣١).

ولم يعيش شيركوه طويلا فى رفعتة ؛ إذ مات يوم ٢٣ مارس ١١٦٩م بسبب التخمّة . ولقد حُجبت شهرته فى التاريخ بظلال سيده نور الدين وابن اخيه صلاح الدين . ومع ذلك ، كان هو الذى أدرك بجلاء يفوق أى مسلم آخر ، أن غزو مصر بما لها من موقع استراتيجى وموارد لا تنضب ، هو المقدمة الضرورية لاسترجاع فلسطين ؛ وبِـرغم تردد نور الدين ويقظة ضميره، ظل شيركوه يعمل بلا كلل لتحقيق هذه الغاية. وكان لابن اخيه أن يحصد ما دأب على غرسه. كان ذا مظهر يخلو من أهمية، وكان قصيرا، ربلا، أحمر الوجه، يبصر بعين واحدة، وكانت ملامحه تنم عن وضاعة مولده. غير أنه كان جنديا عبقريا. والقليل من القادة يتفانى جنودهم فى جهم^(٣٢).

ولقد تحقّق الفرنج جيدا من الأهمية القائلة لانتصار شيركوه . وبينما ألقى بعضهم باللائمة على جشع ماينز (أوف بلانسي) ، الذى جعل الملك يقبل المال بدلا من الحرب، بحث آخرون عن كبش فداء فوجدوه فى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، الذى أجبر على التخلي عن منصبه والعودة إلى بلاده فى الغرب . وأما أمالريك نفسه فقد أرسل النداء إلى الغرب لتسيير حملة صليبية جديدة . فانطلقت فى باكورة عام ١١٦٩م سفارة لتحريك العواطف ، يرأسها البطريق أمالريك ورئيس اساقفة قيسارية ، تحمل رسائل إلى الامبراطور فريديريك ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، ومارجريت الملكة الوصية على صقلية ، والى كونتات فلاندرز وبلوا. ويروى أنه بعد مضي يومين فى البحر ، هبت عاصفة هوجاء أعادت سفن السفراء إلى عكا ، ولم يرض أحد من الركاب المجازفة مرة اخرى بأخطار الأعماق . وانطلقت سفارة ثانية يرأسها فريديريك رئيس اساقفة صور ، ومساعد الأسقف ، وجون أسقف بانياس ، وحيرت مرشد نظام فرسان المستشفى . ووصلوا روما فى يولية ١١٦٩م حيث أعطاهم البابا ألكسندر الثالث خطابات توصية موجهة إلى جميع رجال الدين اتباعه . بيد أن تلك الرسائل جميعها لم تُجد فتيل؛ إذ احتجزهم الملك لويس لأشهر

(٣١) (Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 53-5) اقتباس من عماد الدين؛ Ibn al-Athir, pp.558-60 and Atabegs, pp.251-3; Abu Shama, pp.118-19, 142-5; William of Tyre, xx,10, pp. 956 8.

(٣٢) (Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 55; Ibn al-Athir, pp. 560-1) ويصفه وليم الصورى (xix, 5, p.892) بنفس العبارات كالتى استخدمها الكتاب العرب . ويصف بهاء الدين (١-50 pp) عزمه الملتف على ضم مصر الى ملك سيده.

كثيرة في باريس ، حيث مات أسقف بانياس ، بينما كان الملك يشرح لهم مشاعله مع أسرة البلانتاجينيتس (الحاكمة في إنجلترا) . فواصلوا رحلتهم إلى إنجلترا حيث حدثهم الملك هنري عن متاعبه مع الكايتيون . ولم يكن هناك معنى لزيارة المانيا نظرا للخلاف بين البابا والامبراطور . وبعد عامين من الإستجداء العقيم عادوا إلى فلسطين بقلوب متفطرة^(٣٣).

١١٦٩ م : حملة تحالف ضد مصر

وأحرزت السفارة المرسلة إلى القسطنطينية نجاحا أكبر . ذلك أن مانويل أدرك جيدا أن ميزان القوى في الشرق قد انقلب بصورة خطيرة ، فعرض على أمالريك تعاون الأسطول الامبراطوري العظيم في حملته التالية^(٣٤)، فوافق الملك مسرورا . وربما أمكن مع ذلك استعادة مصر ، إذ أن نور الدين في غاية الانشغال في الشمال على ما يبدو . فقد نتج عن موت قره أرسلان ، أمير ديار بكر الأرتقي عام ١١٦٨ م ، وما تلى ذلك من خلاف حول الميراث ، أن أفسد النظام على نور الدين وعلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ؛ فضلا عن أن غازي بن حسّان ، حاكم منبج ، تمرد بعد ذلك مباشرة ومضت عدة أشهر قبل تسوية أمره . والآن كان قطب الدين يحتضر ، وسرعان ما سوف تثار مسألة الاستخلاف على الموصل^(٣٥) . وفي مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطته إلى ابن أخيه صلاح الدين . ولكن صلاح الدين ليس بالحاكم المحنك ، وكان هناك آخرون من أمراء شيركوه يتمنون استخلافهم مكانه ، غير أن الخليفة اختار صلاح الدين وهو على ثقة من أن افتقاره إلى الخبرة ستلغفه إلى الاعتماد على المسؤولين الفاطميين . وفي ذات الوقت كتب كبير الطواشي لدى العاضد - وهو نوبى يدعى المؤمن - سرا إلى القدس يعد بالمساعدة في حالة غزو الفرنج لمصر . ولكن لسوء حظه ، لاحظ أحد عملاء صلاح الدين شكلا غير طبيعي لحُفّين مع أحد سعاة البلاط مما أثار ريته ، فأخذهما وقطع خياطتهما ووجد الرسالة فيهما . وانتظر المؤمن

William of Tyre, xx, 12, pp. 960-1; letters of Amalric in R.H.F. vol. xvi, pp. 187-8; (٣٣)
Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp. 258-59. مات السيد الأعظم لفرسان المستشفى غرقا
Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers*, pp. 76 ff. انظر الى إنجلترا.

William of Tyre, xx, 13, pp. 961-2. (٣٤)

Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P 52; Abu Shama, pp. 188-9; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 264; (٣٥)
Michael the Syrian, iii pp. 339-42; ومات قطب الدين في العام الثال (١١٧٠ م).

نار صلاح الدين ، غير أن أنباء انعدام الأمن لديه شجعت المسيحيين^(٣٦).

وأرسل أمالريك إلى الامبراطور يستعجله ؛ وفى ١٠ يولية ١١٦٩م انطق الأسطول الامبراطورى الضخم من الدردنيل بقيادة الدوق العظيم أندرونيكوس كوتروستيفانوس . وأبحر الأسطول الرئيسى إلى قبرص مستوليا على سفيتين مصريتين فى طريقه ، وأبحر أسطول أصغر مباشرة إلى عكا يحمل معونات مالية لجنود أمالريك . وقيل لأمالريك بأن يرسل إلى قبرص مستدعيا الأسطول عندما يرغب فى ذلك . لكن أمالريك لم يكن جاهزا ، إذ أن حملة عام ١١٦٨م سببت الاضطراب فى قواته ، وكانت خسائر فرسان المستشفى جسيمة جدا . وأما فرسان المعبد فكانوا لا يزالون يرفضون الاشتراك ، وقد خبت جذوة الحماس عند البارونات عمّا كانت عليه ، إذ أن التجربة السابقة أضعفت عزائمهم ، ولم يرسل أمالريك إلى قبرص لاستدعاء الأسطول إلى عكا إلا فى سبتمبر ، وقد أثار منظره الرائع مشاعر البهجة لدى السكان ؛ ولم تنهيا الحملة كلها للمسير إلى مصر إلا فى منتصف اكتوبر . وضاعف التأخير من الحظ التعس ؛ ذلك أن مانويل ، الذى أدخلوا فى روعه التفاؤل ، أعد العدة لحملة تستغرق وقتا قصيرا وزود سفنه بالموون التى تكفى ثلاثة أشهر فقط ، وقد قاربت الأشهر الثلاثة على الانقضاء . ولم تستطع قبرص المساعدة فى إعادة تموين الاسطول وهى التى لم تبرا بعد مما سببه رينالد من خراب ، وليس فى عكا مؤن يمكن الحصول عليها^(٣٧). وفى ذات الوقت تلقى صلاح الدين تحذيرات كثيرة عن الحملة ؛ ولكى يوفر لنفسه الأمان فى القاهرة اعتقل فى ٢٠ اغسطس ١١٦٩م الخصى المؤتمن وضرب عنقه ، وطرد جميع خدام القصر ممن يعرف عنهم الولاء للخليفة واستبدلهم بصنائه هو نفسه . وطرد بعض المسؤولين الذين شجعهم الخليفة على تحريض حرس القصر النوبيين على الثورة ومهاجمة جنود صلاح الدين . وقام أخو صلاح الدين ، فخر الدين ، بهجوم مضاد لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلى أن أشعل صلاح الدين النيران فى ثكنات الحرس فى القسطنطينية التى كان بها زوجات وأولاد أفراد الحرس النوبيين ، فما كان من الحرس الا أن هرولوا هربا لإنقاذهم؛ فانقض عليهم فخر الدين وقتلهم جميعا على وجه التقريب . أما الخليفة الذى كان يرقب المعركة ، فقد سارع ليؤكد ولاءه لصلاح الدين . وأدى تخلي الخليفة عن النوبيين إلى القضاء على الحرس كله ؛ إذ أن الحرس الأرمينى ، الذى لم يشترك فى

(٣٦) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 55-6; Ibn al-Athir, pp. 566-8; Abu Shama, p.146.

التي اصدرها الخليفة بتعيين صلاح الدين موجودة فى برلين ، ٩٨ folios long.

(٣٧) Nicetas Choniates, pp. 208-9; William of Tyre, loc. cit..

المعركة ، قد حُرق حتى الموت فى الثكنات . وهكذا أفلح صلاح الدين فى إسكات معارضيه^(٣٨) .

١١٦٩ م : حصار دمياط

انطلق الجيش المسيحى أخيرا يوم ١٦ أكتوبر . وعرض أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، الذى أغاظه تأخير الماريك ، نقل جُل الجنود بحرا ؛ لكن الفرنج أصروا على الطريق البرى . وفى ٢٥ أكتوبر دخل الجيش مصر عند الفرما بالقرب من بليوزيوم . وكان صلاح الدين يتوقع هجوما على بليس ، فركز قواته هناك ؛ لكن السفن البيزنطية كانت قد نقلت الفرنج عبر فروع النيل الشرقية ، وابتحرت بمحاذاتهم بطول الشاطئ ، فزحف الفرنج بصورة خاطفة على دمياط ، تلك القلعة الغنية التى تتحكم فى فرع النيل الرئيسى ، ومنها يستطيع الأسطول الإبحار باتجاه القاهرة . وبلغت صلاح الدين . ولم يجرؤ هو نفسه على مغادرة القاهرة خشية أن يتشجع مناصرو الفاطميين للقيام بثورة ؛ لكنه أرسل التعزيزات إلى دمياط ، وكتب بنفسه إلى سوريا يلتمس المساعدة من نور الدين . وكانت الحامية فى دمياط قد ألفت بسلسلة عظيمة بعرض النهر ؛ ولم تتمكن السفن اليونانية - التى أعاققتها أيضا رياح معاكسة - من الإبحار مروورا بالمدينة كى تعترض تعزيزات الجنود والمؤن الآتية فى البحرى من القاهرة . وربما استطاع المسيحيون الاستيلاء على القلعة بهجوم مفاجئ ؛ غير أنه برغم الحاح كونتوستيفانوس للقيام بهجوم فوري - وقد شغله تناقص الامدادات - فقد شعر الماريك بالرغبة من التحصينات المروعة ، وأبدى رغبته فى تشييد المزيد من أبراج الحصار . وبقرار خاطئ وضع البرج الأول أمام أقوى جزء فى الأسوار ؛ وأطلق اليونانيون آلات حصارهم تقصف ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرسة للسيدة العذراء ، وهى ناحية كانت السيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها إلى مصر؛ فدب الهلع بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء . وفى كل يوم يتدفق جنود جدد إلى داخل المدينة . وفى كل يوم كانت حصص البحارة اليونانيين ورفاقهم على الشاطئ تناقص ، دون أن يساعدهم حلفاؤهم الفرنج بما لديهم من وفرة فى الامدادات . وفى كل يوم كان كونتوستيفانوس يناشد الماريك المجازفة بهجوم شامل على الأسوار ، ويرد الماريك بأن المجازفة بالغة الخطر ، وبهمس له قواده المرتابون

٤٤٤

فى اليونانيين بأن الذى يحرك حماس كوتوستيفانوس هو رغبته فى الاسيلاء على دمياط كجزء من الغنائم الامبراطورية . وما أن أهل شهر ديسمبر حتى بدا جليا أن الحملة قد فشلت . فبدون طعام لا يستطيع اليونانيون المضى فى الحرب . وأطلق المدافعون قاربا مشتعلا فى وسط الأسطول ، فأنزل باليونانيين خسائر فادحة ، رغم أن تدخل امالريك العاجل قلل من الأضرار . وصارت القلعة الآن مزودة جيدا بالرجال والامدادات ، وقيل إن الجيش الإسلامى الآتى من سوريا يقترب ؛ وعندما هطلت الأمطار هطولا مبكرا وأحالت المعسكر المسيحى إلى مستنقع ، كان الوقت قد حان لرفع الحصار . ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان امالريك هو الذى بدأ التفاوض مع العرب أم كوتوستيفانوس ، ولا الشروط التى اتفق عليها . وربما أعطى المسيحيون تعريضا ماليا ؛ وبكل اليقين كان امالريك يأمل فى عزل صلاح الدين عن نور الدين . معظهر من مظاهر الصداقة مع صلاح الدين خاصة وإن علاقات امالريك بنور الدين يشوبها السرود على الأرجح.

وفى ١٣ ديسمبر حرق المسيحيون آلات حصارهم كلها حتى لا تقع فى أيدي المسلمين ورحلوا عن دمياط ، ووصل الجيش إلى عسقلان فى الرابع والعشرين . أما الأسطول فكان أقل حظا ؛ فبينما كان مبحرا باتجاه الشمال هبت عاصفة شديدة ، ولم يستطع البحارة الذين كانوا يتضورون جوعا السيطرة على سفنهم التى امتلأ الكثير منها بالماء وغاص فى الأعماق . وكانت مياه البحر تلقى بالجلث اليونانية على شواطئ فلسطين لأيام ؛ وهرب كوتوستيفانوس نفسه وأبحر إلى كيليكيا ومنها ارتحل برا لرفع تقريره إلى الامبراطور . ووصلت بقايا الأسطول العظيم إلى مياه البوسفور فى وقت مبكر من العام التالى^(٣٩).

وأدت النتيجة الفاجعة للحملة حتما إلى تبادل السباب والإتهامات . وألقى الفرنج باللائمة على اليونانيين لنقص الامدادات ؛ وألقى اليونانيون ، بتعقل أكثر ، باللوم على

(٣٩) William of Tyre, xx, 14-17, pp.962-71; Cinnamus, pp. 278-80. الحملة أرسل صلاح الدين الى مانويل عارضا دفع إتاوة سنوية ، لكن مانويل رفضها؛ ومن الناحية الأخرى، يستنتج Nicetas Choniates, pp. 209-19 ضمنا أن مانويل عقد السلام مع مصر ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 56-9; Abu Shama, pp.151-13; Ibn al-Athir, pp. 668-70 and tabegs, pp. 259-60 ويفترض ميخائيل السورى 369 (III, p.335, and Armenian version, pp 369-70) أن اليونانيين أحذوا رشوة من صلاح الدين للتخلي عن الحملة . ودليله على ذلك مناهض لليونانيين على نحو ثابت بحيث يفقد قيمته . ويقول ولیم السورى إن كوتوستيفانوس كان هو اول من طلب وقف القتال ، بينما يقول Nicetas إنه كان الملك.

الفرنج للتأخير الذى لم تكن له نهاية . على أن امالريك والامبراطور أدركا أنه لا ينبغي كسر التحالف . إذ أن صلاح الدين الآن سيد مصر بلا منازع.

وكان صلاح الدين من الحكمة بحيث لم يقع فى الشرك الدبلوماسى الذى أعده له امالريك . ولقد كان نور الدين يثق فى شريكه ، لكنه كان مرتابا فى طموحات حاكم مصر الجديد ؛ ومع ذلك لزم صلاح الدين جانب الاستقامة المثالية . ذلك أن نور الدين بعث فى ابريل ١١٧٠م إلى صلاح الدين والده نجم الدين أيوب مع صحبة من الجنود السوريين ، فى لفظة من لفظة الصداقة من ناحية ، وربما كتلميذ من ناحية أخرى ، إذ كان أيوب شديد الولاء لسيده . وصاحب القافلة أعداد كبيرة من التجار السوريين المتلفين على تبادل التجارة مع القاهرة ، ولكى يساعد نور الدين هذه القافلة الضخمة على العبور بصورة مأمونة عبر أراضي الأردن ، قاد استعراضا عسكريا ضد الكرك^(٤٠) . وكان ذلك التحرك هو الحركة الوحيدة التى أقدم عليها نور الدين ضد الفرنج ؛ وكان قد تركهم فى سلام أثناء حملتهم على مصر ، بل انهم تمكنوا فى يناير ١١٧٠م من استعادة قلعة عكار جنوب القبية ، والتى ربما كانوا قد فقدوها عام ١١٦٥م . وقد سلمها امالريك وكذلك مدينة أرقا - بصفته وصيا على طرابلس - إلى فرسان المستشفى الذين باتوا يسيطرون على الوادى كله الآن^(٤١).

١١٧٠م : زلزال يضرب أنطاكية

فى يوم ٢٩ يونية ١١٧٠م زلزل سوريا بزلزال مروع ألحق بها من الدمار نفس القدر الذى سببه زلزال ١١٥٧م ؛ وفى الأشهر القليلة التالية انهمك المسيحيون والمسلمون سواء بسواء فى اصلاح ما أصاب قلاعهم من أضرار . وقد أصيبت حلب وشيزر وحماه وحمص بدمار شديد وكذلك الكرك وطرابلس وجبيل . وفى انطاكية كان الدمار هائلا ، وجد فيه الفرنج عدالة الهية ؛ إذ كان البطريق اليونانى ورجال كنيسته يقيمون قداسا فى كتدرائية القديس بطرس عندما انهار عليهم المبنى . وبينما كان أناسيو يحتضر تحت الأنقاض أسرع الأمير بوهمند ورجال بلاطه إلى القصير

Beha ed-Din, P.P.T.S. PP. 59-60; Abu Shama, pp. 153-4; Ibn al-Athir, *Atabegs*, (٤٠) pp.260-1.

Abu Shama, p. 149. وحدث اهداء عكار وأرقا الى فرسان المستشفى بعد وقوع الزلزال فى يولية. (Rohricht, *Regesta*, p.125) (٤١)

يتوسلون إلى غريمه إيمرى (اللاتيني) العودة إلى كرسية البطريراقى . وهكذا انتهت الفترة القصيرة من الحكم الكنسى اليونانى^(٤٢).

ولم يتمكن الامبراطور من التدخل رغم تلقيه الأنباء بمشاعر الغضب . ذلك أن الأمور كانت تسير سيرا سيرا فى كيليكيا ؛ فقد مات الأمير ثوروس عام ١١٦٨م تاركا طفلا ليخلفه - روبين الثانى - تحت وصاية لورد فرنجى يدعى توماس كانت امه أخت ثوروس . لكن أخا ثوروس ، مليح ، أثار نزاعا حول الاستخلاف ؛ وكان فى وقت ما قد أخذ على نفسه العهد كفارس من فرسان المعبد ، وبعد مشاجرته مع ثوروس ومحاولة اغتياله هرب إلى نور الدين وتحول إلى الاسلام . وفى وقت مبكر من عام ١١٧٠م أمده نور الدين بالجنود وتمكن بذلك من خلع ابن اخيه ، ليس هذا وحسب وإنما توغل ايضا فى سهل كيليكيا واستولى على المصيصة وأدنه وطرسوس من حامياتها اليونانية . ثم أنه هاجم فرسان المعبد فى باجراس ، مما دفع بوهمند إلى الاستنجاد بأماريك ، الذى توغل داخل كيليكيا ، ويبدو أنه أعاد الحكم الامبراطورى مؤقتا . ومن الجائز أن يكون عمله هذا السدود قد أحدث وفقا لى مانويل وتعويضا لخسارة سيطرته الكنسية فى انطاكية . لكن مليح لم يرتدع . وبعد عام او بعض عام تمكن من أسر قنسطنطين كولومان وأغار مرة اخرى على كيليكيا^(٤٣).

وكان نور الدين فى تلك الأثناء مشغولا فى الشرق الأبعد . فقد مات أخوه قطب الدين صاحب الموصل فى صيف ١١٧٠م ؛ وتنازع ابنه سيف الدين وعماد الدين على الميراث ، ومرت بضعة اشهر قبل أن يتمكن نور الدين من تسوية المسألة بما يتفق ورغبته^(٤٤) . وكانت المهلة ذات فائدة للفرنجة . غير أن مشكلة مصر بقيت بلا حل . وبقي أماريك متمسكا بسياسة ذات الشعبتين : التحالف الوثيق مع الامبراطور واستمرار المناشدة للغرب . وفى ربيع ١١٧١م قرر القيام بزيارة شخصية إلى

(٤٢) Michael the Syrian, III, p.339; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 262; William of Tyre, xx, 18, pp.971-3.

(٤٣) William of Tyre, xx, 26, pp. 991-2; Nicetas Choniates, p.183; Michael the Syrian, III, pp. 331, 337; Sambat the Constable, pp. 622-5; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-9؛ ومن غير الممكن البت فى التاريخ . إذ أن وليم الصورى يحدد تلك الأحداث بعد زيارة أماريك للقسطنطينية ، وميخائيل السورى قبل زلزال عام ١١٧٠م . وكانت طرسوس ما تزال يونانية عندما عاد هنرى الأسد Henry the Lion من حملته الصليبية عام ١١٧٢م (Arnold of Lübeck, pp.22-3).

(٤٤) أنظر المراجع أعلاه ص (٤٤١) الملحوظة (٣٥)، وأدناه ص (٤٥٠).

التسطنطينية.

وتأخر رحيله بسبب هجوم مفاجئ قام به صلاح الدين على حدوده الجنوبية .
 ففي وقت مبكر من عام ١١٧٠م ظهر جيش مصرى ضخم أمام الداروم ، وهى آخر
 قلعة فرنجية جنوبية على البحر المتوسط . وكانت دفاعاتها ضعيفة ، وبرغم عدم توفر
 آلات حصار لدى صلاح الدين فقد بدأ سقوطها وشيكا . فسارع امالريك ، ومعه
 البطريق وقطعة من اثر الصليب الحقيقى ، إلى عسقلان التى وصلها يوم ١٨ ديسمبر ،
 وواصل مسيرته إلى قلعة فرسان المعبد فى غزة ، حيث ترك مايلاز (اوف بلانسى)
 لقيادتها إذ رافقه فرسان المعبد فى مسيرته إلى الداروم . وتمكن من اختراق الجيش
 المصرى ودخل الداروم ، وعلى الأثر رفع صلاح الدين الحصار وسار إلى غزة ؛ فاستولى
 على أسفل المدينة ، برغم ما أبداه مايلاز من مقاومة عقيمة ، وقتل سكانها . على أن
 القلعة كانت هائلة بحيث لم يغامر صلاح الدين بمهاجمتها . وبفس النجاء التى جاء
 بها صلاح الدين ، اختفى مرة أخرى عائدا إلى الحدود المصرية . ثم إنه أرسل أسطولا
 صغيرا أعلى خليج العقبة واستولى على المخفر الفرنجى الأمامى المسمى أيلة الواقع على
 رأس الخليج ، وذلك نى الأيام الأخيرة من السنة^(٤٥).

١١٧١م أمالريك فى التسطنطينية

غادر امالريك عكا قاصدا التسطنطينية يوم ١٠ مارس ، ومعه حاشية كبيرة تضم
 استقف عكا ومارشال البلاط جيرار (اوف بوجى) . وكان سيد فرسان المعبد ، فيليب
 (اوف ميلى) قد استقال من منصبه ليسبق الملك كسفير . وبعد الرسو فى طرابلس ،
 واصل الملك إبحاره إلى الشمال . وفى نجايبولى قابله صهره وكانت الرياح المعاكسة قد
 اضطرتة إلى الذهاب برا إلى هرقله . ومن هناك ركب الملك البحر مرة أخرى كى
 يدخل العاصمة من بوابة القصر فى ميناء بوكوليون ، وهو شرف لا يناله سوى الملوك
 المتوجين.

واستقبل امالريك استقبالا ملأه بهجة هو وحاشيته . وكان مانويل يستلطف
 الغربيين عموما ، وقد وجد أمالريك متعاطفا معه . وأظهر كرمه السخى المعتاد .
 وشاركت عائلته كلها - خاصة صهره - فى الاحتفاء به . وأقيمت قداسات دينية

واحتفالات لا نهاية لها . واجرى استعراض راقص فى هيسودروم ، ورحلة بحرية أعلا
البسفور وأسفله^(٤٦) . وفى وسط البسفور ناقش الامبراطور والملك المستقبل . وعقدت
معاهدة وتم التوقيع عليها ، لكن بنودها لم تسجل . ويبدو أن الملك اعترف فيها على
نحو مبهم بسيادة الامبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وان مانويل وعد بالمساعدة
البحرية والمالية وقتما تنهيا حملة اخرى للهجوم على مصر ، وأنه يتعين القيام بعمل
مشترك ضد ملبح الأرمني . والأرجح أن كانت هناك بنود بشأن الكنيسة اليونانية فى
انطاكية ، بل وربما فى المملكة ، التى تولى فيها مانويل بالفعل فى عام ١١٦٩م
مسؤولية إعادة زخرفة كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، التى تحمل نقشا مكتوبا بالفسيفساء
يشهد بأن الزخرفة أجراها إيفرايم بناء على اوامر الامبراطور . كما تولى مسؤولية اجراء
الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس^(٤٧) .

وأيا ما كانت عليه تفاصيل المعاهدة ، فقد رضى الفرنج بزيارتهم الرضا كله ،
وأعجبوا بمضيفهم إما إعجاب . وفى ١٥ يونية أجروا من القسطنطينية عائدين إلى
بلدهم تحذوهم الآمال العراض للمستقبل .

وأما مناشدة الغرب إرسال حملة صليبية فكانت أقل نجاحا ؛ ذلك أن فريديريك
رئيس أساقفة صور كان ما يزال يتجول تجوالا عقيما بين بلاطى فرنسا وإنجلترا . وفى
نهاية ١١٧٠م تقريرا كتب له أمالريك كى يوجه الدعوة إلى ستيفن (أوف شامباني)،
كونت سانسير ، للحضور إلى فلسطين ليتزوج الأميرة سيبيللا^(٤٨) . كانت هناك مأساة

(٤٦) William of Tyre, xx, 22-4, pp. 980-7; Cinnamus, p. 280
يقول فيه ان امالريك وعد الامبراطور بمنحه قلعة ؛ Michael the Syrian, III, p. 343.

(٤٧) De Bogue, *Les Eglises de la Terre Sainte*, pp. 99-103
كنيسة بيت لحم . ويشير اليها الرحالة اليوناني فوكاس Phocas ويتحدث عن الاصلاحات فى كنيسة
القبر المقدس . (pp. 19, 31) ويناقش La Monte فى "الى أى مدى كانت الامبراطورية البيزنطية
متسيدة على الدويلات الصليبية؟ To what extent was the Byzantine Empire the suzerain
of the Crusading States?" مسألة السيادة الامبراطورية ويقرر انها لم يعترف بها قط . لكن
مانويل ، كإسلافه قبل الصليبيين ، ربما اعتبر نفسه مسؤولا عن رفاهية الأرثوذكس فى فلسطين وان
حقه فى التدخل لصالحهم كان معترفا به . أنظر أعلاه ص ٣٦٩ عن بطريرك القدس الذى احتفظ به
مانويل احتياطيا فى القسطنطينية . وربما يعزى الى مانويل اجراء الاصلاحات حول آنذاك فى
المشآت الأرثوذكسية فى فلسطين ، مثل (Lavra of Calamon) انظر Vailhé, 'Les Laures de
Saint Gerasime et de Calamon' in *Echos d'Orient*, vol. II, p. 117 وكذلك دير القديس
إيونييموس .) انظر Johns محاولة الصليبيين استعمار فلسطين وسوريا The Crusaders' attempt to
colonize Palestine and Syria فى *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI, pp. 292-3.

(٤٨) William of Tyre, xx, 25 mo, 988. وكان ستيفن حفيد كونت بلوا الصليبي وأصغر ابنه تيبالد،

حدثت في البيت الملكي عجلت بهذا الاقتراح . فقد أرسل ابن امالريك - بالدوين - وهو الآن في التاسعة من عمره مع رفاق من سنه لتلقى التعليم لدى وليم رئيس شمامسة صور . وكان صبيا وسيما ذكيا ، وفي يوم ما ، بينما كان التلاميذ يختبرون قوة التحمل لدى كل منهم بفرز أطفالهم في أذرع بعضهم البعض ، لاحظ معلمهم وليم أن الأمير هو فتى الذي لم يفضل قط ؛ فراح يراقبهم بعناية وسرعان ما تحقق من أن الولد عديم الإحساس بالآلم لأنه كان يحدوما^(٤٩) . كان ذلك من تصاريق الرب بسبب زواج سفاح القرى الذي أقدم عليه والداه ، أمالريك وأجنيس ؛ وكانت الحادثة نذير شوم للمملكة . وحتى عندما يكبر بالدوين لن تتمكن الأسرة الحاكمة من الاستمرار من خلاله ، وربما تحمل الملكة اليونانية الشابة ابنا بعده ؛ على أنه في تلك الآونة ، وتوخيا للسلامة ، رأت حكمة امالريك أن تزوج ابنته الكبرى سيبيللا من أمير غربي محنك ثرى يستطيع التصرف وقت الضرورة كوصى أو حتى كملك . وقبل ستيفن الدعوة وهبط شاطئ فلسطين في صيف ١١٧١م مع صحبة من الفرسان ، وكان ذلك قبل وصول امالريك من القسطنطينية بأيام قلائل . غير أنه لم يرض عن مظهر فلسطين . وقطع فجأة مفاوضات الزواج بطريقة فظة ، وبعد تأدية النذر في الأماكن المقدسة رحل مع صحبته إلى الشمال متتريا زيارة القسطنطينية . وأثناء عبوره كيليكيا ترصده مليح الأرمني وسلبه كل ما كان معه^(٥٠) .

وفي العام التالي جاء إلى فلسطين زائر أكثر أهمية ، هنرى الأسد ، دوق ساكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثر ، وزوج ابنة هنرى الثاني ملك إنجلترا . غير أنه رفض هو الآخر أن يحارب من أجل الصليب قائلا إنه جاء كمجرد حاج ، ورحل إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن^(٥١) .

كونت بلوا وتشارتز وتروى. وقد ولد حوالي ١١١٣م ، وفي عام ١١٥١م فر هاربا بزواجه من ماتيلدا (أوف دوزي). (انظر. 847. p. II, *Hist. Généalogique de la France*, Anselme) ولما كانت روحته تدعى أحيانا أليكس ، وأحيانا أخرى ماريا ، فمن المرجح أنه تزوج أكثر من مرة وأنه كان أرملًا في عام ١١٧٠م.

(٤٩) William of Tyre, *xxi*, I, pp. 1004-5.

(٥٠) *Ibid.* *xx*, 25, p. 988

(٥١) *Medieval* Joranson 'The Crusade of Henry the Lion' وصفًا مطولا لحملته الصليبية في *Essays presented to G.W. Thompson* وأهم المراجع هو Arnold of Lübeck.

١١٧١ م : انتهاء الخلافة الفاطمية

تسببت لا مبالاة الغرب فى خيبة أمل مريرة . على أنه ربما لم تكن هناك ضرورة عاجلة لتسيير حملة ضد مصر ، إذ بدا أن علاقات صلاح الدين بنور الدين وصلت إلى نقطة القطع . ففى عام ١١٧١م كان نور الدين قد وضع حامية خاصة به فى الموصل ، حيث يحكم ابن اخيه سيف الدين ، وكان قد ضم نصيبين ووادى نهر خابور إلى نطاق سلطته ، ومنح سنجار لابن اخيه المفضل لديه عماد الدين . وبنوازع التقى لنصرة الإسلام الأصولى ، كتب إلى صلاح الدين طالبا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى المساجد المصرية واستبداله باسم الخليفة فى بغداد . ولم يرغب صلاح الدين فى الامتثال لهذا الطلب ؛ إذ بعد قرنين من الحكم الفاطمى بات النفوذ الشيعى قويا فى مصر . فضلا عن ذلك ، ورغم أنه قد يعترف بنور الدين سيدا له ، فإن سلطته فى مصر مستمدة من الخليفة الفاطمى . فراح يراوغ ، إلى أن هدد نور الدين فى اغسطس بالحضور شخصيا إلى مصر . وبعد أن اتخذ صلاح الدين احتياطات الشرطة ، أعد العدة للتغيير ؛ بيد أنه لم يجرؤ احد على الإقدام على أول خطوة ، حتى أول يوم جمعة من السنة الإسلامية ٥٦٧ هجرية عندما خطا إلى المسجد برباطة جأش زائر سننى من الموصل واعتلى منبر الجامع الكبير ودعا للخليفة المستضى . وحذت القاهرة كلها حذوه . وكان الخليفة الفاطمى العاضد راقدا فى القصر محتضر ، ومنع صلاح الدين الخدم من إخطاره بالنبا قائلا : "إن يبرأ من مرضه ، فسرعان ما سيعلم ، وإن يمت ، فليمت فى سلام" . على أن الشاب البائس عندما طلب رؤية صلاح الدين قبل وفاته ببضع ساعات ، رفض طلبه خوفا من وجود مكيدة . وندم صلاح الدين على رفضه بعد فوات الأوان ، وكان لا يذكره الا بالخير . وهكذا هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد . وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات ، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فاخرة ولكن دون أى اتصال بالعالم^(٥٢).

وبعد أيام قليلة انطلق صلاح الدين لمهاجمة قلعة الشوبك جنوب البحر الميت ، وشدد الحصار حولها . وخف امالريك لانقاذها ، لكنه رحل عن القدس متأخرا للغاية بسبب معلومات خاطئة . وعندما كانت الحامية تنهيا للتسليم ، ظهر نور الدين فجأة على الطريق إلى الكرك ؛ وفى تلك اللحظة رفع صلاح الدين الحصار ، قائلا لنور الدين

Ibn al-Athir. pp 575-80, and *Atabegs*, pp. 202-3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.551; (٥٢) Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.61-2.

إنه مضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب حروب اخوته في مصر العليا. وبدا ذلك لنور الدين محض خيانة يتعين المعاقبة عليها بالقوة. وعندما سمع صلاح الدين بغضبه شعر بالخطر واستدعى مجلساً من أفراد عائلته وقواده، ونصح الشباب من أفراد الأسرة بالتحدي؛ غير أن أبا صلاح الدين، نجم الدين أيوب الممن، وقف وقال إنه هو نفسه مخلص لسيدته وانتهر ابنه لطموحه، وعندما خلا به وبخه مرة أخرى على أن جعل طموحه يئنا حلياً. فأخذ صلاح الدين بنصيحته وأرسل باعتذاراته البائسة إلى نور الدين الذي قبلها إلى حين^(٥٣).

١١٧٢م : إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس

وفي صيف ١١٧١م خطط نور الدين لحملة على الجليل، لكنه كف عنها. وفي أواخر الحريف ارتكب الفرنج أعمال قرصنة من اللاذقية هاجموا فيها سفينتين تجاريتين مصريتين، مما أثار سورة غضبه، فراح يخرّب الأراضى الأنطاكية والطرابلسية، ودمر حصنى صافيتا وأريما، مما اضطر الفرنج إلى دفع تعويض باهظ حتى يتوقف^(٥٤). غير أنه في عام ١١٧٢م فضل استمرار السلام، جزئياً لعدم ثقته في صلاح الدين من ناحية، ولأنه كان يرغب في الحصول على مساعدة السلاجقة في الهجوم على أنطاكية من ناحية أخرى. لكن السلطان السلجوقي، بعد أن تلقى تحذيراً صارماً من القسطنطينية، تخلى عن تقدمه وبدلاً من ذلك بدأ حرباً ضد الدانشمند استمرت عامين. وبذا أنقذ التحالف البيزنطي أنطاكية على الأقل، رغم أنه لم يحقق شيئاً يذكر، من ائتلاف بين حلب وقونية^(٥٥). وفي الوقت نفسه على وجه التقريب، وافق نور الدين في نهاية الأمر على إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس لقاء مبلغ ثمانين ألف دينار. واشترك الملك وفرسان المستشفى معاً في جمع أغلب المبلغ؛ وسُمح لريموند بالعودة إلى

(٥٣) William of Tyre, xx, 27, pp. 992-4; Ibn al-Athir, pp. 581-3, and *Atabegs*, pp. 286-8; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.552; Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, p. 506. وأورد بهاء الدين P.P.T.S. pp.62-3 سرداً ماهراً مبهماً، خالطاً الحملات في عامي ١١٧١م و١١٧٣م. كما أنه يجعل صلاح الدين يقول إنه هو فقط رفض التفكير في معارضة نور الدين. (p.65).

(٥٤) Ibn al-Athir, *Atabegs*, p.279; Kemal ed-Din, p. 584; Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 62. ويقول بهاء الدين أن نور الدين استولى على أرقا، وهو اسم خطأ بدلاً من أريما.

(٥٥) Cinnamus, pp. 291-2; Imad ed-Din, pp. 159-60. وكان قلع أرسلان قد استقبل هنري الأسد استقبالا حسناً أثناء مروره بالأناضول في طريقه من فلسطين.

بلده . ولكنه لم يدفع أبداً باقى المبلغ المستحق لنور الدين وقدره ثلاثين ألف دينار^(٥٦).

وبدأت الحرب عام ١١٧٣ م . ذلك أن أمالريك بعدما شعر بما يكفى من الأمان اتجه شمالاً داخل كيلىكيا لمعاقبة مليح على ما ألحقه بستيغن (أوف شامباني) من إساءة ولكي ينفذ وعده للإمبراطور . ولم تنجز الحملة شيئاً سوى الحيلولة دون أن يزيد مليح من التوسع^(٥٧). وانتهاز نور الدين الفرصة وغزا منطقة الأردن واستدعى صلاح الدين لمساعدته . وفى اخلاص صلاح الدين لنصيحة أبيه ، اتجه شمالاً يمحش من مصر وضرب الحصار حول الكرك ، بينما سار نور الدين جنوباً من دمشق . وبقائه رفع صلاح الدين الحصار وعاد إلى مصر قائلاً - بحق - إن والده يعانى مرضاً خطيراً . غير أنه من الواضح أن صلاح الدين لم يكن راغباً فى القضاء على الدولة الفرنجية الحاضرة الواقعة بينه وبين سيده المتعسف . فعسكر نور الدين بدوره أمام الكرك ، التى كانت عاصمة منطقة الأردن ، وكانت تنتمى إلى ورشة هى ستيغاني (أوف ميلسى). وكان زوجها الأول - همفرى - وريث تبين ، قد مات قبل ذلك بسنوات قليلة ؛ وكان زوجها الثانى ، وهو قهرمان أمالريك - مايلز (أوف بلانسى) - بعيداً مع الملك ؛ وكان أول من خف لنجدتها صهرها ، الكونستابل المسن ، همفرى الثانى أمير تبين . وبتعبئة القوات المتبقية فى المملكة انسحب نور الدين ، وقد ملأه الحنق على صلاح الدين . وعندما سمع فى أغسطس بوفاة نجم الدين أيوب ، أخلص أتباعه فى مصر ، نذر أن يغزو مصر بنفسه فى الربيع التالى^(٥٨).

١١٧٣ م : اغتيال سفراء الحشاشين

كان فى هذه الفرقة بين المسلمين تعزية للفرننج . وفى خريف ١١٧٣ م تلقوا عروضاً من مكان آخر لم يكن متوقعا . ولم يكن يُسمع عن الحشاشين سوى القليل

(٥٦) Abu Shama, p. 168; William of Tyre, xx, 28, p. 995. وظروف اطلاق سراح رموند غامضة . انظر Baldwin, Raymond III of Tripoli, p. 11 and n. 23. ويقع التاريخ بين سبتمبر ١١٧٣ م وأبريل ١١٧٦ م.

(٥٧) William of Tyre, xx, 26, pp. 991-2؛ (انظر المراجع أعلاه ص ٤٤٩ (الملحوظة ٤٩)) وربما خلط وليم بين هملى أمالريك.

(٥٨) Ibn al-Athir, pp. 587-93, and Atabegs, p. 293; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 553, Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 509-11. ومات نجم الدين إثر سقوطه من فوق جواده وهو يمارس لعبة الجوكان (البولو).

خلال العقود المنصرمة ، بخلاف اغتيالهم التعسفى لريموند الثانى أمير طرابلس عام ١١٥٢م ، إذ كانوا يوطدون مقارهم يهدوء فى جبال النصيرى . وعلى الجملة لم يظهروا عداوتهم للفرنج ، وإنما كان عدوهم المقيت هو نور الدين الذى تسببت قوته فى تقييدهم شرقا . لكنه كان عاجزا عن قمعهم ، وفى إحدى الليالى عُثر على خنجر فوق وسادته ، كان بمثابة انذار له كى لا يعضى شأوا بعيدا . ولكن عواطفهم تميل إلى الشيعة وليس السنة ، فقد صدمهم انتهاء الخلافة الفاطمية . وفى عام ١١٦٩م أرسلت قيادة الحشاشين من مقرها فى قلعة (الموت) فى فارس محافظا جديدا لمقاطعة النصيرى ، هو رشيد الدين سينان من بصرى . وبدأ هذا الشيخ الريب ، الذى كان يعرفه الفرنج باسم معجوز الجبل ، سياسة أكثر نشاطا . إذ أرسل الآن إلى أمالريك يقترح إنشاء تحالف وثيق ضد نور الدين ، والمع بآنه هو وأتباعه كلهم يفكرون فى التحول إلى المسيحية ، وكان حليا أن المقابل لذلك هو إلغاء الإتاوة التى أفلح فرسان المعبد فى طرطوس فى فرضها على مختلف قرى الحشاشين . وسواء كان أمالريك يظن أن الحشاشين سيتحولون إلى المسيحية أم لا ، أقبل على تشجيع صداقتهم فى سرور . وعاد مبعوثو الشيخ سينان باتجاه الجبال يحملون وعدا بأن تلحق بهم حالا سفارة فرنجية . وبينما هم فى ترحالهم عبر طرابلس ، سقطوا قتلى فى كمين نصبه لهم فارس من فرسان المعبد ، وولتر (أوف مينسيل) ، بتواطؤ مع سيده الأعظم . وارتاع الملك أمالريك ، فقد دمرت سياسته ولطخت سمعته بمجرد أن نظام فرسان المعبد كان بالغ الجشع بحيث يرفض التضحية بجزء صغير من إيراداته . وأمر السيد الأعظم ، أودو (أوف سانت أماند) بتسليم الجاني . ورفض أودو ، وإنما عرض بمجرد إرسال وولتر كى يحاكمه البابا ، إذ أنه لا يعترف بأية سلطة أخرى عداه . غير أن أمالريك كان فى قمة الغضب بحيث لم يعبأ بدستور نظام فرسان المعبد . وأسرع مع بعض الجنود إلى صيدا حيث السيد الأعظم وهيئة الكنيسة ، واقتحم عليهم مجلسهم بالقوة وخطف وولتر وعاد به وألقاه فى غيابة السجن فى صبور . وأرسل من يؤكد للحشاشين أن العدالة اخذت مجراها ، فقبل الحشاشون اعتذارات الملك . وفى تلك الأثناء عزم أمالريك أن يطلب من روما حل نظام فرسان المعبد العسكرى^(٥٩) .

وكانت فاتحة عام ١١٧٤م فاتحة حسنة للمسيحيين ، إذ أصبح الحشاشون أصدقاء ، وأمسى التحالف البيزنطى فى أحسن أحواله ، ووعد ملك صقلية الصغير ، وليم الثانى ،

بتقديم المساعدة البحرية للربيع ، وبلغ الشقاق بين نور الدين وصلاح الدين حد الأزمة . ولم يكن صلاح الدين نفسه آمنا قط في مصر التي راحت فيها رؤوس الشيعة تحيك ضده المكائد بينما كانت على اتصال بالفرنجة . وفي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر ، توران شاه ، لاحتلال السودان كي تكون بمثابة ملاذ للعائلة في حالة الضرورة ، واحتل توران البلد حتى إبريم بالقرب من وادي حلفا ، حيث قتل الأسقف القبطي وأتباعه وجمهوره وخنازيره السبعائة على السواء . لكنه أبلغ أن الأرض غير ملائمة للملاذ . فأرسله صلاح الدين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فوجدها توران شاه أفضل من سابقتها ، واجتلبها باسم أخيه وحكمها نائبا عنه حتى ١١٧٦م^(٦٠).

على أنه لم هناك ما يدعو صلاح الدين للهرب من سخط نور الدين . ففي ربيع عام ١١٧٤م ، جاء الأتابج نور الدين إلى دمشق للتخطيط لحملة على مصر . وبينما كان على جواده صباح يوم ما مع اصدقائه يتريضون خلال البساتين ، حدثهم عن اندام الثقة في الحياة الإنسانية . وبعد مضي تسعة أيام ، اى في ١٥ مايو ، مات متأثرا بالتهاب اللوزتين . لقد كان حاكما عظيما ورجلا من كبار الرجال ، أحب العدل فوق كل ما يحب . وكان بعد مرضه السابق قبل تسع عشرة سنة قد فقد شيئا من طاقة نشاطه ؛ وزادت الأوقات التي كان يقضيها في الورع والتقوى . وقد أكسبه ورعه برغم محدوديته احترام رعيته وأعدائه . كان جادا نادرا ما يتسم ، وعاش حياة بسيطة والزم أسرته بها ، مفضلا أن يتفق إيراداته الهائلة في أعمال الخير . وكان إداريا معنيا مرتقبا ، وعززت حكومته الحكيمة أراضيها التي انتزعها بسيفه . وسعى خاصة إلى كبح جماح أمراءه الأتراك والكرديين بتوطينهم في أقطاعات يدفعون إيجارها على هيئة جنود ، وتمكنت محاكمه القانونية التابعة له من أن تسيطر عليهم . وأسهم هذا الوضع الإقطاعي المخفف اسهاما كبيرا في ازدهار سوريا بعد ما يقرب من قرن حكمها فيه البدو . وكان طويل القامة أسمر اللون يكاد يكون بلا لحية ، ذا ملامح متناسقة ، وعلى وجهه انطباع حزين هادئ . وكانت لعبة الجوكان (البولو) هي نشاطه الترفيهي الوحيد^(٦١).

(٦٠) Ibn al-Athir, pp 599, 602-3, and *Atabegs*, p.293; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65-6.

(٦١) Ibn al-Athir, pp. 604-5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65.

١١٧٤م : موت الملك أمالريك

ورث نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة، وكان معه في دمشق . وهناك استولى على الرصاية الأمير ابن المقدم ، توارره ام الصبي ، بينما أعلن جرموشتكين ، حاكم حلب التي كانت العاصمة الرئيسية لنور الدين ، عن نفسه وصيا . وتدخل ابن عم الصبي ، سيف الدين صاحب الموصل ، لضم نصيبين والجزيرة كلها حتى الرها . وكتب صلاح الدين ، كأمر لأغنى مقاطعات نور الدين ، إلى دمشق بأن الرصاية هي وصايتة ، لكنه كان في تلك اللحظة فاقد الحيلة كي يتابع مطالبته^(٦٢) . وأتاح انهيار الوحدة الإسلامية لأمالريك فرصة سرعان ما اختطفها . ففي يونية زحف على بانياس . وخرج له ابن المقدم لملاقاته وربما حدث ما كان يقصده أمالريك ، إذ عرض المقدم على الفور أن يشتري أمالريك بمبلغ ضخم من المال وعده به ، والافراج عن جميع الفرنج الأسرى في دمشق ، وتحالف في المستقبل ضد صلاح الدين^(٦٣) . وقبل أمالريك العرض ، وكان قد بدأ يعاني من نوبات الدوسنتاريا ؛ وبعد توقيع المعاهدة عاد خلال طيرية ونابلس إلى القدس ، معتليا جواده ورافضا الراحة على المحفة . ووصل القدس وهو في حالة مرضية شديدة . واستدعى الأطباء من اليونانيين والسوريين إلى جانب فراشه ، وطلب منهم أن يفصدوه حتى ينزف دما ثم يعطوه شرابا مسهلا . لكنهم رفضوا ، إذ كانوا يرون أنه في حالة من الضعف لا يتحمل معها الجهد . ولذا استعان بطيبيه الفرنجي الذي لم تكن لديه تلك الـرساس . ويبدو أن العلاج قد أفاده ، ولكن لجرد يوم او يومين . وفي ١١ يولية ١١٧٤م ، مات وهو في الثامنة والثلاثين من عمره^(٦٤) .

وإذا كان التاريخ مجرد التحدى والاستجابة ، يكون نجاح الرحلة الاسلامية تحت زنكي ونور الدين وصلاح الدين رد فعل حتمي إزاء الحملة الصليبية الأولى . على أن صروف القدر لا تكف عن فرض أهواء أحكامها . ففي بداية ١١٧٤م بدا أن نجم صلاح الدين في طريقه للأفول ، ومات أمالريك ونور الدين ، دون توقع الموت لأي منهما ، فأنقذه القدر منهما وفتح له طريق انتصاراته المقبلة . وقد رأى فرنج الشرق في

(٦٢) Ibn al-Athir, pp. 606-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 558-60.

(٦٣) William of Tyre, xx, 31, p. 1000; Abu Shama, p. 162; Ibn al-Athir, p. 611.

(٦٤) William of Tyre, xx, 31, pp. 1000-1. وربما كان الطبيب السوري هو سليمان بن دارد . (انظر أعلاه ص ٣٦٦ الملحوظة (٤٤)).

موت أمالريك ، فى هذه اللحظة ، والنواب التى حلت بأسرته ، نذير سوء بنهاية مملكتهم ؛ إذ كان أمالريك آخر ملوك القدس المسيحية الجدير بعرشه . ولقد كانت له أخطاء ، وقد تآرجح بحماس نبلائه عام ١١٦٨ م ، وبتردهم عام ١١٦٩ م . وكان أكثر استعدادا لقبول عطايا الأموال ، التى تحتاجها الحكومة آنيا ، من أن ينفذ سياسة تتسم ببعد النظر . وكانت طاقته وعزمته بلا حدود . وأثبت أنه لا مجال لأن يتحداه أتباعه ولا النظامين العسكريين دون أن يلحق بهم الضرر . ولو أنه عاش أطول مما عاش ، لتحدى حتمية انتصار الاسلام .

الباب الخامس:

إنتصار الإسلام

الفصل الأول:

الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية

"الحُكَمَاءُ يَرْتُونُ بِجَدِّهِ وَالْحَقُّ يُحْمِلُونُ هَوَانًا"

(أَسْأَلُ ٣ : ٣٥)

مكث صلاح الدين في القاهرة قلقاً يتربص، ورأى في موت الملك أمالريك نعمة وفضل من الله. وكانت مكائد الشيعة قد بلغت ذروتها في شهر إبريل عندما افتضحت مؤامرة لقتله. فضرب ضربته لم يتردد، وقضى على زعماء التآمر؛ لكنه لم يكن على ثقة من عدم وجود آخرين على استعداد للتآمر إذا جاء الجيش المسيحي لمعاونتهم، بينما سيتقل ميراث نور الدين يقينا إلى غيره^(١). والآن وقد مات أمالريك فقد تبدد خطر الغزو برا. لكن هناك فعلا أسطولا قبرصيا في الأفق؛ إذ لم يكن الملك وليم الثاني قد سمع بانتهاء المؤامرة ولا بموت أمالريك. وفي ٢٥ يولية ١١٧٤م، ظهر أمام الإسكندرية فحاة مائتان وأربع وثمانين سفينة قبرصية تحمل الرجال والماشية والمون، تحت قيادة تنكريد كونت ليشي. لكنهم لم يجدوا المساعدة التي كانوا يعولون عليها؛

(١) Ibn al-Athir, p. 600.

وكانوا قد رفضوا قبول أية مساعدة من الامبراطور بعدما تشاجر وليم مع مانويل الذى عرض عليه يد ابنته ماريا ثم سحب العرض ؛ وعلى أية حال ، فقد رغب وليم القيصي فى أن يظهر أنه أكفأ مما كان عليه البيزنطيون عام ١١٦٩ م . وبفشلهم فى مباغتة المدينة ، وباقتراب صلاح الدين على رأس جيش ، عادوا بسفنهم مرة أخرى وابتعدوا مبتعدين يوم ١ أغسطس . وبذا تحرر صلاح الدين كي يزحف على سوريا^(٢) .

وشعر ابن المقدم والى دمشق بالخوف ، فناشد الفرنج تقديم المساعدة ؛ وزادت خشيته عندما هرب الصالح الصغير بن نور الدين مع امه إلى حلب حيث الوصى الأقوى جرموشكين . وبعد ذلك استنجد ابن المقدم بسيف الدين صاحب الموصل كي يخف لنجدته ؛ لكن سيف الدين فضل تعزيز ما حصل عليه فى الجزيرة . وأصر الدمشقيون على أن يرسل واليهم مستدعيا صلاح الدين . وانطلق صلاح الدين من فوره مع سبعمائة فارس اختارهم ، وعبر منطقة الأردن عبروا خاطفا دون أن يتعرض الفرنج لإيقافه هناك ، ووصل دمشق يوم ٢٦ نوفمبر ، حيث إستقبل بمشاعر البهجة . وامضى الليل فى منزل ابيه القديم . وفى صباح اليوم التالى فتح له ابن المقدم أبواب القلعة . ونصب صلاح الدين أخاه طغتكين واليا على دمشق باسم الصالح بعد أن أمطر الدمشقيين بالهدايا النفيسة من ثروة الصالح ، ثم زحف شمالا ضد جرموشكين^(٣) .

١١٧٤ م : ريموند كونت طرابلس وصيًا

بات الفرنج بعد موت أمالريك بلا قوة فلا يقدرّون على التدخل . وكان الأمير الوحيد الباقى فى البيت الملكى هو بلدوين الصبى المخدم ابن الثالثة عشرة سنة ؛ ولم تكن اخته سبيللا التى تكبره بعام قد تزوجت بعد . ولم تلد زوجة أبيه ، الملكة ماريا كومينا ، سوى بنتين ماتت إحداهما والأخرى فى الثانية من عمرها . ووافق البارونات على قبول بلدوين مليكا لهم دون اعتراض . وبعد أربعة أيام من وفاة أمالريك ، توج البطريق بلدوين . ولم يكن هناك وصى تم تعيينه . وتولى الحكومة القهرمان مايلز ، الذى كان أقرب الأصدقاء إلى الملك ، وكان من اللوردات بما تملكه زوجته من اقطاعية

(٢) Abu Shama (مقتبس من عماد الدين)، pp.164-5؛ ويحدد بهاء الدين تاريخ وصول القبارصة يوم ٧ سبتمبر 1007. William of Tyre, xxi, 30p. Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 66-7.

(٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.67-70; Ibn al-Athir, pp.614-16; Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. viii, p.517.

منطقة الاردن الضخمة . لكن مايلز لم يكن يتمتع بالشعبية ، ولا سيما بين افراد الأرستقراطية المولودين محليا ، والذين ناصروا الكونت ريموند كونت طرابلس فى المطالبة بالوصاية . وكان ريموند هو اقرب الأقرباء للملك - بعد أخواته - من الجانب الملكى للأسرة . فكانت أمه ، هوديرنا الأميرة فى القدس ، خالة امالريك . وعلى الرغم من أن بوهمند أمير انطاكية من ذرية أخت هوديرنا الكبرى - أليس - إلا أنه كان من جيل بعيد عن التاج ، فضلا عن أنه كان يقيم فى مكان بعيد ؛ بينما تزوج ريموند مؤخرا من ثانيا أكبر الوريثات فى المملكة ، إيشيفا (أوف بور) ، وأميرة الجليل ، وأرملة وولتر (أوف سانت أومير) . وراح مناصرو ريموند ، يتزعمهم الكونستابل القديم همفرى الثانى أمير تبين ، وأسرة إيبيلين ، ورينالد أمير صيدا ، يلحون على أن تعرض حقوق ريموند على المحكمة العليا . وراوغ مايلز أطول فترة يستطيعها ، لكنه اضطر إلى الرضوخ . وفى وقت متأخر من الخريف نُصّب ريموند وصيا ، وبذا هوى مايلز من سلطته غير مأسوف عايه . وبعد أسابيع قليلة ، اشغل مايلز فى ليلة ظلماء فى أحد شوارع عكا^(٤).

كان ريموند آنذاك فى الرابعة والثلاثين من عمره ، طويلا ، نحيفا ، أسود الشعر والجلد ، يسيطر على وجهه أنف ضخمة ، بارد الشخصية ، ضابطا لنفسه ، يفتقر شيئا ما إلى الكرم . ولم يكن فيه ما يدل على حمية الفروسية التى كان يتمتع بها الصليبيون الأوائل . وكان خلال سنوات أسره الطوال قد قرأ قراءة متعمقة ، وتعلم اللغة العربية ، وتدارس عادات المسلمين . وكان ينظر إلى الدويلات الفرنجية ومشاكلها بمنظور محلى ؛ وكان مهتما ببقائها، وليس بدورها كرأس حربة للعالم المسيحي العدواني . وكان ذا اقتدار، وقد ساندته أصدقاؤه ، غير أنه لم يكن سوى وصى ، وكان له أعداء^(٥).

وكانت وصايته بداية انشفاق فى المملكة . إذ كانت هناك شيع من قبل ولا سيما فى أيام الملكة مليسند لكنها لم تعش طويلا نظرا لسيطرة التاج ، والآن برزت فرقتان محددتان ، تتألف احدهما من البارونات المحليين وفرسان المستشفى وتسعى بقيادة الكونت ريموند إلى إيجاد تفاهم مع الجيران الأجانب ، وليست مستعدة للمجازفة بمغامرات ؛ وتتألف الثانية من الوافدين الجدد من الغرب وفرسان المعبد . وكانت هذه الفرقة عدوانية تصبغها المسيحية العسكرية ؛ ووجدت قائدها عام ١١٧٥م عندما أفرج

(٤) William of Tyre, xxi, 4-3, pp.1007-9.

(٥) William of Tyre, xxi, 5 pp.1010-12.

أخيرا عن رينالد (أوف شاتيلون) من سحنه لدى المسلمين ، إلى جاب جوسلين كونت الرها - وقد غدا كونتا بلا كوتية - فتحول مصيره إلى أن يصبح مغامرا^(٦). وكانت العداوات الشخصية أعنف حتى من الاختلافات السياسية . وأغلب النبلاء الآن انشاء عمومهم بين بعضهم البعض ؛ والمشاجرات العائلية هه الأكثر مرارة. فأما زوجتا أمالريك فكانت كل منهما تكره الأخرى . وأما آجنس (أوف كورتناى) ، أخت الكونت جوسلين فكانت قد تزوجت مرتين منذ طلاقها ، وقد مات زوجها التالى ، هيو (أوف إيبيلين) بعد الزواج بسنوات قليلة ، وأبهيح خليفته - رينالد امير صيدا - أن يكتشف أنه شديد الالتصاق بزوجته من حيث القرابة - كشأن أمالريك - فحصل على إبطال الزواج^(٧) ، وانضمت آجنس إلى جانب أخيها وفرسان المعبد ، بينما انضم هو إلى الفرقة الأخرى ؛ وأما الملكة ماريما كورمينتا ، فسرعان ما تزوجت من هيو (أوف باليان - أخى إيبيلين) ، وقد وهبته إقطاعية مهرها نابلس ، وكان زوجها سعيدا ، ولعبت الأرملة الملكة دورا كبيرا فى حزب زوجها^(٨). وبعد اطلاق سراح رينالد (أوف شاتيلون) بأشهر قليلة تزوج ورثة منطقة الأردن ، ستيفانى ، أرملة مابلز (أوف بلانسى) ، التى اعتبرت الكونت ريموند قاتل زوجها^(٩). وقد بدأ شجار ريموند الطويل مع فرسان المعبد على مسألة شخصية ؛ ذلك أن فارسا بلجيكيا نلمنكيا ، جيرار (أوف ريدفورت) ، جاء إلى طرابلس عام ١١٧٣م والتحق بالخدمة تحت إمرة الكونت الذى وعده بتزوجه من أول ورثة ملائمة فى كوتيته . غير انه عندما مات لورد البطرون بعد أشهر قليلة ، تاركا أراضي لابنته لوسيا ، تجاهل ريموند وعده لجيرار ، وزوجها لأحد أثرياء بيزا ويدعى بليفانو ، الذى وضع الفتاة - على نحو يفقر إلى الكياسة - على ميزان ومنح الكونت وزنها ذهباً. وغضب جيرار وتملكته خيبة الأمل ، فانحاز إلى فرسان المعبد ، وسرعان ما غدا أكثرهم نفوذا وأصبح قهرمانهم . ولم يغفر لريموند قط^(١٠).

(٦) عن اطلاق سراح رينالد وجوسلين ، انظر أدناه ص ٤٦٧ .

(٧) مات هيو (أوف إيبيلين) عام ١١٦٩م تقريبا ، وكان مندوبا لأمالريك فى القاهرة عام ١١٦٧م . وكان خطيبا لآجنس قبل أن تتزوج أمالريك (William of Tyre, xix, 40, p.890). كما يتحدث ولیم عن طلاق رينالد امير صيدا. ويظهر ابو رينالد وآجنس على علاقة ببعضهما البعض . ولاشك أن هذه العلاقة كانت من خلال أمها بياتريس أرملة ولیم (أوف صهيون) ، ولم يسجل اسمها قبل زواجها .

(٨) William of Tyre, xxi, 180, p. 1035; Ernoul, p.44.

(٩) Ernoul, pp.30-1.

(١٠) Ernoul, p.114; *Estoire d'Eracles*, pp.51-2. دفع بليفانو عشرة آلاف بيزانت لقاء عروسه . ولو

أما الملك الصغير ، الذى كان مدركا فى بكورة فضجة للمكائد التى تدور من حوله ، فقد حاول الحفاظ على التوازن بين الفرق . وبقي ريموند وصيا عليه لثلاث سنوات ، لكن روابط القرابة جعلت علاقة بلدوين بآل كورتنائى أوثق . فعين خاله جوسلين قهرمانا عام ١١٧٦م ؛ وعادت أمه - الليدى آجنس - إلى البلاط حيث مارست نفوذاً مخرباً . كانت شريرة وجشعة ، لا نهاية لشراستها للرجال ولا للمال ، ولم يسمح لها بتربية اولادها ؛ إذ كان بلدوين قد أرسل إلى وليم الصورى لتربيته ، وسيبيللا إلى جدتها لخالتها الأميرة رئيسة الدير، جوفيتا (أوف يثانى) . وبدأت الآن تتدخل فى معيشتهم ، وكان بلدوين يأخذ بآرائها المخالفة لآرائه الأفضل ، وسيطرت على سبيللا^(١١).

١١٧٤م : صلاح الدين يهاجم حلب

كان أول واجبات ريموند الوصى هو كبح تعاضم قوة صلاح الدين . ولم يكن باستطاعة الفرنج الحيلولة دون اتحاد دمشق والقاهرة ؛ ولكن حلب على الأقل ما تزال منفصلة . وما أن وصلت صلاح الدين التعزيزات من مصر حتى زحف على حلب من دمشق . وفى ٩ ديسمبر ١١٧٤م دخل حمص وترك جنوده يحاصرون قلعتها التى صمدت أمامه ، ومر خلال حمه إلى حلب . ولما أغلق جوموشتكين البوابات فى وجهه، بدأ يحاصر المدينة الحصار المعتاد فى ٣٠ ديسمبر . وكان المواطنون مذبذبين فى الاستسلام له ؛ لكن الصالح الصغير هبط اليهم بنفسه ووقف فى وسطهم وناشدهم الحفاظ عليه من الرجل الذى اختلس ميراثه ؛ فمس كلامه قلوبهم فلم يهنوا أبدا . وفى تلك الأثناء كان جوموشتكين قد استغاث بالحشاشين وبالفرنج . وبعد أيام قليلة عُثر على بعض الحشاشين فى قلب معسكر صلاح الدين فى نفس خيمته فقتلوا بعد دفاع يائس . وفى أول فبراير ظهر الكونت ريموند على رأس جيش فرنجى أمام حمص ، وبمساعدة حامية القلعة بدأ مهاجمة أسوار المدينة . وأتى ذلك بشماره ، إذ رفع نور الدين

كان محتواها من الذهب الخالص لكان وزنها ١٠ أبحار. (المترجم): الحجر stone وحدة وزن إنجليزية تساوى ٦٣٥ كيلوجرامات.

(١١) هناك ما يؤكد أن جوسلين كان قهرمانا من ١١٧٧م قلنا (Rohrich, *Regesta*, p.147). وكان دائما يسمى "الكونت جوسلين". وفى الوثائق تسمى آجنس كوتيسة ، لأنها كانت كوتيسة يافا وعسقلان أثناء زواجها من أمالريك . ولم تكن ملكة البتة ، ولم يطلق عليها لقب ملكة قط . (وعن تربية سبيللا انظر William of Tyre, xxi, 2, p.1006، وعن تربية بلدوين انظر أعلاه ص ٤٥٠).

الحصار عن حلب وأسرع جنوباً ، ولم ينتظره ريموند . وطوال الشهر التالي كان صلاح الدين مقيداً بحصار قلعة حمص . وبحلول إبريل كان سيد كل سوريا حتى حماء في الشمال ؛ لكن حلب بقيت مستقلة . واعترافاً من جومشتكين بالجميل للفرنج أطلق سراح رينالد (أوف شاتيلون) وجوسلين (أوف كورتناي) وكل السجناء المسيحيين الذين ذبلت أبدانهم في غيابات سجون حلب^(١٢).

وأثار نجاح صلاح الدين ابن أخى نور الدين ، سيف الدين ، صاحب الموصل الذى أرسل أخاه عز الدين مع جيش كبير إلى سوريا للانضمام إلى جومشتكين . وعرض صلاح الدين ، على جومشتكين أن يتنازل له عن حماء وحمص ، آملاً ربما في إثارة المشاكل بين حلب والموصل . ورفض العرض . لكن صلاح الدين انقض بجنوده الحنكيين على جيش الخلفاء أثناء عبوره الحدود بين التلال شمالى حماء ، ومزق الجيش تمزيقاً . ولم يشعر صلاح الدين بأنه قوى بما فيه الكفاية لمتابعة نصره . وعقدت هدنة تسمح لصلاح الدين باحتلال مدن قليلة شمالى حماء ، وبخلاف ذلك بقيت الأمور كما كانت عليه^(١٣).

والآن نفى صلاح الدين عن نفسه تبعيته للصلاح ، قائلاً إنه فعل ما فى وسعه لخدمته باخلاص ، لكن الصالح فضل مستشارين آخرين ورفض مساعدته ، ولذا اتخذ لنفسه لقب ملك مصر وسوريا وسك العملة باسمه فقط . وأيده الخليفة فى بغداد تكريماً وأرسل له أردية ملكية وصلته فى حماء فى مايو^(١٤).

١١٧٦م : صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل

لم تعش الهدنة مع آل زنكى طويلاً . ففي مارس ١١٧٦م عبر سيف الدين نفسه الفرات مع جيش كبير وانضم اليه جنود جومشتكين خارج حلب ؛ فأتجه اليه صلاح

(١٢) William of Tyre, xxi, 6, pp. 1012-13; Abu Shama, pp. 167-8; Ibn al-Athir, pp. 618-20, Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 562-4.

(١٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.70-1; Ibn al-Athir, pp.621-2. Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 564. فرنى حماء ؛

(١٤) يرجع تاريخ اول العملات التى تحمل لقب صلاح الدين الملكى الى عام ٥٧٠ هجرية (١١٧٤م) . ولم يتخذ لقب سلطان أبداً ، ولكن الكتاب العرب ، وحتى معاصريه ، عادة ما يمنحونه لقب سلطان . (مثلا ابن جبير وبهاء الدين). انظر. Wict, op.cit. pp.335-6.

الدين شمالا بعد أن جاءته التعزيزات مرة أخرى من مصر . وفى ١١ ابريل حدث كسوف للشمس ، رأى فيه رجاله نذيرا سيئا أثناء عبورهم وادى العاصى بالقرب من حماء ، وبعد عشرة أيام باغتهم سيف الدين بينما كانوا يسقون جيادهم . غير أن سيف الدين تردد فى الهجوم فى الحال . وفى الصباح التالى ، وعندما جاء سيف الدين بكل قواته لمهاجمة معسكر صلاح الدين على راية السلطان الواقعة جنوب حلب بعشرين ميلا تقريبا ، اكتشف أنه جاء متأخرا للغاية ؛ إذ كاد هجومهم الأول أن ينجح ، لكن صلاح الدين قام بهجوم مضاد على رأس قواته الإحتياطية وشنت صفوف الأعداء ، وباقتراب المساء كان سيد الساحة . وكان سيف الدين قد ترك ثروته عندما ولى هاربا ، فأعطاهما صلاح الدين كلها جائزة لرجالها ، وأحسن معاملة الأسرى وسرعان ما أعادهم إلى بيوتهم . لقد ترك كرمه ورافته انطبعا رائعا^(١٥).

وكانت حلب ما تزال ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين ، ولذا هاجمها واحتل القلعة الواقعة بين المدينة ونهر العاصى والتى تتحكم فى الطريق الذاهب شمالا . وهنا كاد أن يهلك مرة أخرى عندما دخل أحد الحشاشين الخيمة التى يستريح فيها ، ولم ينقذه سوى القنسسوة المعدنية التى كان يضعها تحت عمامته الضيقة . واستسلمت عزاز يوم ٢١ يونية . وفى يوم ٢٤ يونية ظهر مرة أخرى أمام حلب ؛ لكنه وافق الآن على المصالحة ؛ إذ أن الصالح وامراء حصن كيفا وماردين الأرائقة الذين كانوا يناصرونه وافقوا على التخلي لصلاح الدين عن كل الأراضى التى غزاها ، وأقسموا هم وصلاح الدين على أن يحافظوا على السلام . وبعد التوقيع على معاهدة السلام يوم ٢٩ يولية ، جاءت اخت الصالح الصغرى لزيارة معسكر صلاح الدين ، وطلب منها بكياسة أن تختار الهدية التى تحبها، فقالت : "قلعة عزاز". فأعادها صلاح الدين إلى أخيها^(١٦).

ورغم أن صلاح الدين لم يتمكن بعد من الاستيلاء على حلب ، كان الصالح وبنوعموته يشعرون بأنه يتهدهدهم . وباستطاعة صلاح الدين أن يتحول للتعامل مع الحشاشين والفرنجة ؛ فدخل جبال النصيرى لمحاصرة مصيف ، وهى المعقل الرئيسى للحشاشين ، وكان الشيخ سينان بعيدا عن المعقل ، وعندما أسرع بالعودة إلى معقله

(١٥) Beha ed-Din, P.P.T.S PP. 71-4; Ibn al-Athir, pp. 625-6. حدثت فى تل السلطان وفى قرني حماء .

(١٦) Beha ed-Din, P.P.T.S PP.74-5; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp.146-7; Ibn al-Athir, *loc.cit* . واستادا الى كمال الدين ، كان رأى العام فى حلب مناهضا للمعاهدة ومناصرا للصالح بقرة .

كان باستطاعة صلاح الدين وجنوده القبض عليه لولا أن ثبطنهم قوة غامضة معينة . وشمل الجو نوع من السحر ؛ إذ اضطرب صلاح الدين نفسه بأحلام رهيبة . وفى إحدى الليالي هب من نومه فجأة ليجد بعض قطع الكعك الساخنة على فراشه من النوع الذى لا يخبزه سوى الحشاشين ، ومع الكعك خنجر مسموم وورقة مكتوب عليها بيت من الشعر يتهدده ؛ واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل العجوز كان هو نفسه فى الخيمة . وانهارت أعصابه ؛ فأرسل رسولا إلى الشيخ سينان يلتمس منه العفو عن ذنوبه ويعد ، فى المقابل ، مَرُورا آمنا منذ ذلك الوقت قدما تاركا الحشاشين دون إزعاج . وعفا عنه الشيخ العجوز ، وتم الوفاء بالمعاهدة^(١٧) .

ولم يكن إبرام مثل هذه المعاهدة ممكنا بين صلاح الدين والفرنج . إذ كانت هناك هدنة عام ١١٧٥م أطلق بموجبها صلاح الدين ما كان لديه من أسرى مسيحيين كى يتمكن من التعامل مع سيف الدين^(١٨) . على أن الفرنج نقضوا الهدنة فى العام التالى . فبينما كان صلاح الدين يحاصر حلب ، أغار ريموند من البقية على إقليم البقاع فى الوقت الذى صعد فيه من الجنوب جيش ملكى بقيادة همفرى (أوف تورون) والملك ابن الخامسة عشرة ربيعا . ويبدو أن ابن المقدم ، وهو والى بعلبك الآن ، هزم ريموند هزيمة طفيفة ؛ غير أن المسيحيين أقاموا اتصالا فيما بينهم وهزموا أخا صلاح الدين توران شاه وميليشيات دمشق هزيمة فادحة ، وما أن شعروا باقتراب صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا مرة أخرى على الفور . ولم يطاردهم ، إذ كان يتعجل عودته إلى مصر . وبعد أن ترك توران شاه قائدا لجيش قوى فى سوريا ، تسلل مرة أخرى خلال منطقة الأردن ووصل القاهرة فى نهاية سبتمبر^(١٩) .

١١٧٦م : زواج سيبلا الأول

ومضت فترة راحة من القتال طوال عام كامل ، لقيت ترحيبا من كل من الجانبين.

(١٧) Abu Firas, ed. Guyard, *Journal Asiatique*, 7 me série, vol. ix, 1877, Arabic text, pp.455-9; Ibn al-Athir (*loc.cit*) ، ويسجل ابن الأثير خطاب التهديد المرسل من سينان إلى صلاح الدين ، شهاب الدين .

(١٨) William of Tyre, *xxi*, 8, pp. 1017-19. وهو يوتغ همفرى (أوف تورون) ، الذى كان مسؤولا عن الهدنة ، لضيق فرصة المحوم على صلاح الدين عندما كان في وضع محرج .

(١٩) William of Tyre, *xxi*, ii, pp. 1021-3; Ibn al-Athir, p 627.

إذ راح صلاح الدين يعيد تنظيم مصر ويعيد بناء القاهرة وتحصينها من جديد ، وفى ذات الوقت كانت حكومة القدس تواجه أهم مشاكلها الداخلية . ففى عام ١١٧٧م شب الملك بلدوين عن الطوق ببلوغة السادسة عشرة ، وكف ريموند عن الوصاية . بيد أن مرض الجذام الذى يعانى منه الملك ازداد سوءا ، ويقينا لن يعيش سنوات كثيرة . ولكى تتأهل الأميرة سيبيلا للاستخلاف ، كان لابد لها من أن تتزوج . ولذا ، وجه بلدوين الدعوة فى عام ١١٧٥م ، وربما باقتراح من لويس السابع ملك فرنسا ، إلى وليم طويل السيف (William Long-Sword) ، وهو أكبر أبناء مركيز مونتفرات ، للحضور إلى فلسطين وقبول يد سيبيلا . وكان اختيارا حسنا . إذ كانت لوليم اتصالات جيدة ؛ إذ كان والده أغنى الأمراء فى شمال إيطاليا ، وكان من أبناء عمومة كل من الامبراطور فريدريك بارباروسا والملك لويس . وكان هو نفسه ، رغم أنه لم يعد شابا ، على مايكفى من الشجاعة والوسامة بحيث يرضى الأميرة الطروب . وهبط فى ميناء صيدا فى أكتوبر من عام ١١٧٦م ، وبعد أيام قليلة ، مُنح كورتية عسقلان وكورتية يافا ، فى نفس يوم زواجه من سيبيلا ، وكان مقبولا عموما كوريث للعرش . على أن الآمال التى كانت معقودة على شجاعته واتصالاته ذهبت أدراج الرياح . ففى عام ١١٧٧م سقط فريسة مرض الملاريا الذى تواصل بضعة أشهر ، إلى أن مات فى يونية . ووضعت أرملة ابنا فى أواخر الصيف ؛ ورثا للمملكة ، لكنه الوريث الذى جعل الوصاية لا مفر منها . وراح مبعوثو الملك ينقبون فى أوروبا مرة أخرى للعشور على زوج ثان للأميرة^(٢٠) .

كما كان مبعوثو الملك ينقبون أوروبا بحثا عن حلفاء ضد صلاح الدين ؛ إذ أن هدوء القتال يقينا لن يستمر طويلا . غير أن أمراء الغرب كانوا غارقين إلى آذانهم فى شؤونهم الخاصة بهم ؛ وحتى القسطنطينية لا تستطيع تقديم نفس العون كما كانت تفعل من قبل . إذ كان عام ١١٧٦م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ بيزنطة . ذلك أن السلطان السلجوقى قلع أرسلان الثانى زاد عنادا ضد الامبراطور ؛ بعدما كان مقيد الشكيمة أثناء حياة نور الدين ، الذى تدخل فى الأناضول عام ١١٧٣م للحيلولة دون أن يتلعج السلاجقة أراضى الدانشمند . فقد حافظ أحد قواد نور الدين ، وهو عبد المسيح ، وكان وزيرا سابقا لدى أخيه قطب الدين ، على قيصرية مازاكا لذى النون

(٢٠) . William of Tyre, xxi, 13, pp. 1025-6. كانت أم وليم اختا غير شقيقة للملك كونراد ولأبى فريدريك بارباروسا . وكان أبوه ، وأم الملك لويس - أديلابدى (أوف مورين) - أطفالا من زيجتين مختلفتين لـ Gisele of Burgundy.

الدانشمندی ، وبقي هو نفسه مع حامية في سيواس . وفي نفس الوقت ثبت لأخى قلعج ارسلان ، شاهنشاه ، امتلاك أنقرة حيث كان الاميراطور قد نصبه فيها قبل عدة سنوات . على أن موت نور الدين حرر قلعج ارسلان من القيود ؛ وفي نهاية عام ١١٧٤م أعيد عبد المسيح إلى الموصل ، وكان ذوالنون وشاهنشاه في المنفى في القسطنطينية ، وبذا تملك قلعج ارسلان أراضيها . ثم إنه تحول ضد بيزنطة ، وفي صيف عام ١١٧٦م ، قرر مانويل أن يتعامل مع الأتراك مرة وإلى الأبد . وتشجع بما حققه في الصيف السابق من بعض النجاح الطفيف فكذب إلى البابا ليعلم أن الوقت قد أصبح ملائما لحملة صليبية جديدة . وسوف يؤمن الطريق الآن عبر الأناضول إلى الأبد . وبينما أرسل جيشا بقيادة ابن عمه أندرونيكوس فاتاتسيس خلال بفلاجونيا لصعد ذي النون عند حدوده ، قاد مانويل نفسه الجيش الامبراطوري العظيم ، الذي تضخم بكل التعزيزات التي امكنه الحصول عليها ، وزحف على عاصمة السلطان - قونية . وما أن سمع قلعج ارسلان بالحملة حتى أرسل طالبا السلام . لكن مانويل لم يعد يثق في كلمته .

١١٧٦م : معركة ميربوسيفالوم

في وقت مبكر من سبتمبر واجهت الحملة البفلاجونية كارثة أمام أسوار نقصار . وقد أرسل تثال ، رأس فاتاتسيس إلى السلطان كعلامة على الانتصار ؛ وبعد أيام قلائل تحرك جيش مانويل خارجا من وادي نهر مياندر ، مروراً بمحصن كان قد بناه في سوبالايوم قبل ذلك بعام ، وملتفا حول قمة بحيرة إيجريدير إلى داخل التلال التي تصعد حتى سلسلة الجبال الضخمة واسمها جبال السلطان داغ . وتباطأت العربات الثقيلة التي تحمل آلات الحصار والأعلاف ؛ وكان الأتراك قد خربوا الأراضي التي كان لتلك العربات أن تمر خلالها . وكان الطريق يؤدي إلى ممر يطلق عليه اليونانيون تسييريتسي ، وتظهر في الطرف البعيد أطلال قلعة ميربوسيفالوم . وهناك تجمع الجيش التركي على مرأى فوق جانب التل المقفر . وحفر قواد مانويل من ذرى الحنكة من أن يمر جيشه البطيء المتأخر في ممر صعب في مواجهة الأعداء ؛ ولكن الأمراء الأصغر كانوا على ثقة من شجاعتهم وإقدامهم وكانوا من طالبي الأيجاد ؛ فحثوه على المضي . وكان السلطان قد جمع الجنود من حلفائه وأتباعه جميعا ، بحيث أصبح جيشه كبيرا بنفس القدر كجيش مانويل ، وإن كان أقل في جودة التسليح ولكنه أكثر قدرة على الحركة . وفي ١٧ سبتمبر شق حرس الطليعة طريقه خلال الممر ، وتنحى الأتراك أمامهم ، كى يلتفوا

حول التلال ويندفعوا هابطين المنحدرات إلى الممر حيث كان الجيش الامبراطورى الرئيسى يشق طريقه بطول الطريق الضيق . وكان زوج أخت الامبراطور - بلدوين أمير انطاكية - على رأس كتيبة للفرسان ، فقام بهجوم مضاد صاعدا التل إلى الأعداء ، لكنه قتل مع رجاله جميعا ، وشاهد الجنود فى الوادى الضيق هزيمته ؛ وكانوا مكدرسين مع بعضهم البعض بحيث لا يكاد أحدهم أن يكون قادرا على تحريك يديه . وكان لا يزال بإمكان القيادة الشجاعة أن تنقذ اليوم من أن يشهد الهزيمة ، لكن شجاعة مانويل خذلته ؛ إذ كان هو نفسه أول من أصابه الذعر فولى دبره وكر هاربا من الممر . والآن حاول الجيش كله اللحاق به ؛ لكن عربات النقل سدت الطريق فى خضم الفوضى المتلاطمة . ولم يستطع الفرار سوى القليل من الجنود . وراح الأتراك يقتلون كما يحلو لهم ، وهم يلوحون بتمثال رأس فاتاتيسيس ، إلى أن هبط الظلام . ثم إن السلطان أرسل رسولا إلى الامبراطور الذى كان يحاول تنظيم صفوف جنوده المرعوبين فى الوادى ، عارضا عليه السلام شريطة أن ينسحب فى التو ، ويزيل التحصينات من قلعتى سوبلايوم ودورليوم . وقبل مانويل الشروط بامتنان . وعاد من الممر حرس الطليعة الذى أفلت من الهزيمة وانضم إلى البقايا المفجعة التى يقودها مانويل الآن باتجاه الوطن ، يتحرش بها الأتراك الذين استعصى على فهمهم ما أبداه قلعج أرسلان من رافة . وربما لم يدرك السلطان قيمة انتماء انتصاره ؛ إذ كان جُل اهتمامه منصبا الآن على الشرق ، ولم يكن يعبأ آنذاك بالتوسع غربا . فكل ما كان ينشده هو الأمان^(٢١) .

ومع ذلك كان مانويل مدركا لمدى حسامة الكارثة التى قارنها هو نفسه بكارثة منزيكيرت التى وقعت قبل ما يزيد قليلا على قرن من الزمان^(٢٢) . لقد دُمّرت آلة الحرب العظيمة التى دأب جده وأبوه على بنائها ، وسوف تنقضى سنوات كثيرة قبل إعادة بنائها ، وفى واقع الأمر لم يعاد بنائها قط . وخلال السنوات الثلاث التالية

(٢١) Nicetas Choniates, pp. 236-48; Michael the Syrian, III, pp. 369-72 (٢١) *Les Commènes*, pp. 506-13, and Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 417 n. 3. انظر Ramsay, 'Preliminary report', in *History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp. 235-8.

(٢٢) Nicetas Choniates, p. 249 (٢٢) *Chronica*, II, p. 101. ومن الناحية الأخرى حاول مانويل التقليل من الكارثة الى أدنى الحدود فى خطابه بشأنها المرسل الى ملك إنجلترا هنرى الثانى (مقتبس فى Roger of Hoveden, *Chronica*, II, p. 101). ولاحظ المعركة كثيرون من المؤرخين الغربيين.

S. Rudberti Salisburgensis II, p. 435, and *Liber Pontificalis, Vita Alexandri*, in *Annales* p. 777.

كان هناك ما يكفي من الجنود للدفاع عن الحدود ، بل والفوز بانتصارات قليلة بسيطة. على أن الامبراطور لم يعد قادرا أبدا بعد ذلك اليوم على الزحف على سوريا وإملاء إرادته على انطاكية ؛ كما لم يبق لديه شيء من كبريائه العظيم الذي كان فيما مضى يردع نور الدين وهو في ذروة قوته من زيادة تشديده على العالم المسيحي . وتكاد كارثة ميروسيغالوم أن تكون قاتله للفرنجة بنفس القدر الذي قضت به على بيزنطة ؛ فرغم كل ما كان بينهما من تبادل انعدام الثقة وسوء الفهم ، كان الفرنج يعلمون أن وجود امبراطورية شديدة القوة يعتبر ضمانا أخيرا ضد انتصار الإسلام ؛ ففى لحظتها، وعندما كان الولد الضعيف الصالح يحكم شمال سوريا ، لم يلحظ الفرنج أهمية المعركة. ولكن عندما ذهب وليم الصوري لزيارة القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلم بما حدث كاملا ، تحقق من الأخطار التي تنتظر الفرنج^(٢٣).

١١٧٧م : فيليب كونت فلاندرز في فلسطين

على الرغم من هلاك جيش مانويل كان أسطوله لا يزال قويا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين . ومرة أخرى وعد في عام ١١٧٧م بإرساله للمساعدة في هجوم فرنجي على مصر . وخلال صيف ذلك العام ، راجت شائعات بحملة صليبية جديدة آتية من الغرب ، وقيل إن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا قد أخذ الصليب^(٢٤) . ولكن الذي ظهر في فلسطين كان عاهلا واحدا فقط . ففي سبتمبر، وأثناء أن كان الملك بلدوين في طريقه إلى الشفاء من نوبة ملاريا حادة ، هبط في ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز ومعه أتباع كثيرون . وهو ابن كونت ثيرى وسيللا كونتيسة أنجو ؛ وتذكر الفرنج اشتراك أبيه في أربع حملات صليبية ، وكانوا يعلمون مدى ما تكنه أمه من الحب للورع للأرض المقدسة ، فعلقوا عليه الآمال العراض . وأسفرت أنباء حضوره عن إرسال الامبراطور أربعة سفراء من أصل عريق يعرضون المال لتسيير حملة ضد مصر ، ووصل في أعقابهم إلى ميناء عكا أسطول بيزنطي من سبعين سفينة تحمل المحاربين المحنكين . ونظرا لما كان عليه الملك

(٢٣) William of Tyre, xxi, 12, p. 1025.

(٢٤) في معاهدة إيفري Ivry بتاريخ ٢١ سبتمبر ١١٧٧م ، اتفق كل من لويس السابع وهنري الثاني على الذهاب في حملة صليبية مشتركة (Benedict of Peterborough, 1, pp.191-4). لكن المشروع سرعان ما انهار بعد ذلك .

بلدوين من شدة المرض الذي أتعده عن الذهاب إلى الحرب ، فقد سارع بعرض الرصاية على فيليب إذا قبل الخروج على رأس حملة ضد مصر . لكن فيليب تردد وراوغ قائلاً إنه قد حضر أولاً لمجرد الحج ، وثانياً لأنه لا يستطيع تحمل مثل تلك المسؤوليات بمفرده ؛ وعندما اقترح الملك تعيين رينالد (أوف شاتيلون) قائداً مشاركاً معه ، انتقد فيليب شخصية رينالد . وجذبوا انتباهه إلى أن الأسطول البيزنطي موجود هنا وعلى استعداد للتعاون ، فكان رده مجرد التساؤل لماذا يتعين إلزام اليونانيين . وأخيراً كشف عن أن هدفه الوحيد من حضرته إلى فلسطين هو أن يزوّج ابنتي عمه ، الأميرتين سيبيللا وإيزابيلا من ابني أفضل أتباعه لديه - روبرت أوف بيشون . وكان ذلك فرق ما يتحمله بارونات القدس ؛ فعندما تقدم الكونت بطلبه لدى البلاط ، صرخ في وجهه بلدوين (أوف إيبيلين) قائلاً : "كنا نظن أنك قد جئت لتحارب من أجل الصليب ، وأنت لا تتحدث إلا عن الزواج " . وأخذ الكونت فيليب يعد العدة للرحيل ثانية وهو غارق في مشاعر الإحباط والحنق . وكان للمشاحنة وقع الصدمة على سفراء الامبراطور ؛ واتضح بجملة أنه لن تكون هناك حملة ضد مصر . وانتظروا قرابة شهر ، ثم أبحروا مع الأسطول تصحبهم أحاسيس الغيثان ، كي يحذروا سيدهم الامبراطور من عبث الفرنج الذي لا دواء له^(٢٥).

وغادر كونت فلاندرز القدس قاصداً طرابلس في نهاية أكتوبر . وربما بدأ ضميره يضايقه الآن ، إذ أنه وافق على مصاحبة الكونت ريموند في حملة ضد حمّاه ؛ وقدم الملك جنوداً من المملكة لتعزيزه . وفي الوقت الذي أغارت فيه كتيبة على أراضي حمص ، فقط لكي تقع في كمين وتفقد كل ما غنمته من أسلاب ، ضرب الكونت ريموند والكونت فيليب الحصار حول حمّاه التي كان حاكمها في شدة المرض . غير أنه عندما جاء الجنود من دمشق ، انسحبوا دون أن يحققوا شيئاً . ومن طرابلس ارتحل الكونت فيليب قاصداً أنطاكية حيث وافق على مساعدة الأمير بوهمند في الهجوم على مدينة حارم ، التي كان يحكمها والي صلاح الدين السابق ، جومشتكين ، الذي تشاجر مع سيده صلاح الدين فقتله ، ولذا تمرد أتباعه في حارم ضد الصالح ، لكن تمردهم

(٢٥) William of Tyre, xxi, 18-14, pp. 1027-35. يفترض أن كلا من ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير أنطاكية كان يعارض تسيير حملة ضد مصر وتبطلت من عزيمة فيليب . لكن آل إيبيلين كانوا يشعرون بالغثيان من فيليب ، ونظراً لاعتقادهم التدخل مع ريموند ، فمن الجائز القبول بأن وليهم الصوري قد بالغ . إذ كان مسؤولاً عن التحالف البيزنطي ، ومن ثم أقلقه التخلي عن هذا التحالف ، وربما كان ما أبداه فيليب لاحقاً من استعداد لمساعدة ريموند وبوهمند قد جعله يرتاب فيهما . أنظر أيضاً Ernoul, p.33 الذي يذكر سعيه بلدوين (أوف إيبيلين) .

انتهى باقتراب الفرنج . وبزيمة فاترة حاصر بوهمند وفيليب المدينة ، إذ لم تفلح محاولاتهما نسف أماكن في الأسوار ، وتمكن الصالح من إرسال فصيلة اخترقت صفوفهم لتعزيز الحامية . وعندما أرسل الصالح اليهما مبعوثيه يؤكدون أن العدو الحقيقي لكل من حلب وانطاكية هو صلاح الدين الذي عاد إلى سوريا ، وافقا على رفع الحصار . وعاد فيليب كونت فلاندرز إلى القدس في عيد الفصح ، ثم أبحر على ظهر سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية^(٢٦).

١١٧٧ م : هزيمة صلاح الدين في تل الجزر

كان صلاح الدين قد عبر الحدود من مصر يوم ١٨ نوفمبر . وكان جهاز استخباراته رائعا دائما؛ إذ علم أن التحالف الفرنجي البيزنطي قد انهار وأن كونت فلاندرز غائب في الشمال ؛ فقرر شن هجوم مضاد مفاجئ أعلى الساحل داخل فلسطين . واستدعى فرسان المعبد كافة فرسان النظام للدفاع عن غزة ؛ بيد أن الجيش المصرى تقدم إلى عسقلان مباشرة . وكان الكونستابل همفري (أوف تورون) مريضا مرضا شديدا ، وقد نهض الملك لتوه من فراش المرض ، فجمع ما استطاع جمعه من الجنود - ومجموعهم خمسمائة فارس - وأصطحب معه أسقف بيت لحم حاملا الصليب الحقيقي ، وأسرع إلى عسقلان ودخل القلعة قبل وصول الأعداء مباشرة . وكان قد استدعى كل قادر على حمل السلاح ليلحق به هناك ، لكن صلاح الدين اعترض السرايا الأولى وأسرها . وبعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة لضمان بقاء الملك في عسقلان، زحف على القدس . ولمرة واحدة فقط كان صلاح الدين مفرط الثقة بالنفس ؛ فلم يعد هناك أعداء بينه وبين العاصمة المسيحية ، ولذا أرخى جنوده حبل الانضباط وسمح لهم بالتجوال في انحاء الريف للنهب . وبشجاعة اليأس تدبر بلدوين إرسال رسالة إلى فرسان المعبد يطلب منهم التخلي عن غزة والانضمام إليه ؛ وعندما اقتربوا شق طريقه خارجا من عسقلان وسار بكل رجاله شمال الساحل إلى ينة ومنها تحول إلى داخل البلاد . وفي يوم ٢٥ نوفمبر كان الجيش المصرى يعبر واديا صغيرا ضيقا بالقرب من قلعة تل الجزر جنوب شرق الرملة بأميال قليلة ، وفجأة هبط عليه فرسان الفرنج قادمين

(٢٦) William of Tyre, xxi, 25, 19, pp. 1036, 1047-9; Ernoul, p.34; Michael the Syrian, iii, pp. 75-6; Abu Shama, pp. 189-92; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 76-7; Ibn al-Athir, pp. 630 3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 148-53.

من الشمال . ولقد كانت مفاجأة كاملة . وكان البعض من جنود صلاح الدين غائبين يجمعون المرعى ، ولم يكن لديه وقت لإعادة تجميع الباقين الذين هرب الكثير منهم قبل الصدمة الأولى . ولم ينقذ صلاح الدين نفسه سوى حرسه المملوكى ، وأما الفصيلة التى صمدت فقد هلكت كلها أو كادت . وكان بلدوين فى المقدمة بين المسيحيين ؛ وساعد على احراز النصر شجاعة أمراء بيته ، بلدوين وباليان ، وكذلك شجاعة ابنى زوجة ريموند ، هيو ووليم من امراء الجليل . وشوهد القديس جورج نفسه يحارب إلى جانبهم.

وفى غضون ساعات قليلة كان الجيش المصرى يسابق الريح فرارا إلى مصر ، وقد تخلى عن كل ما استلبه وعن الأسرى الذين اسرهم ؛ بل إن الجنود ألقوا بأسلحتهم ليتسنى لهم الفرار الأسرع . وتمكن صلاح الدين من الحفاظ على بعض معايير النظام ؛ غير أن عبور صحراء سيناء كان مؤلما ، مع مضايقات البدو الرحل للهاربين بلا حماية . وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسلا من المهجانة إلى القاهرة يؤكدون لمن تسول لهم أنفسهم التمرد أنه مازال على قيد الحياة ؛ وأعلن عن عودته إلى القاهرة فى سائر أنحاء مصر بالحمام الزاجل . لكن هيئته أصيبت إصابة شديدة^(٢٧).

لقد كان نصرا عظيما أنقذ المملكة إلى حين . لكنه على المدى البعيد لم يغير الوضع؛ فموارد مصر لا حدود لها بينما الفرنج لا يزالون يعانون من نقص الرجال . ولو كان ممكنا للملك بلدوين أن يطارد الأعداء داخل مصر ، أو يهاجم دمشق محروما عاطفا ، لأفلح فى سحق قوة صلاح الدين ، لكنه لا يستطيع المجازفة بجيشه هذا الصغير بهجوم فى غيبة المساعدة الخارجية ؛ وبدلا من ذلك قرر تشييد حصون قوية بطول الحدود الدمشقية ، إذ أن فقد بانياس قد أحدث الاضطراب فى النظام الدفاعى للمملكة . فبينما راح همفرى أمير تبين يحصن منطقة تل هونين على الطريق من بانياس إلى طورون ، شرع الملك فى بناء قلعة فى منطقة الأردن الأعلى بين بحيرة حولة وبحر الجليل ، لكى تسيطر على المخاضة التى شهدت المصارعة بين يعقوب والملاك^(٢٨) ، وهى المخاضة التى تعرف أيضا بمخاضة الأحزان ؛ وكانت الأرض الواقعة على جانبيها يقطنها المسلمون من الفلاحين والرعاة ، البعض يدين بالولاء لدمشق ، والبعض الآخر

William of Tyre, xxi, 24-20, pp. 1037-47; Ernoul, pp. 41-5; Michael the Syrian, iii, (٢٧) p. 375; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 75-6; Abu Shama, pp. 184-7; Ibn al-Athir, pp. 627-

(٢٨) (المترجم): أنظر سفر التكوين، الإصحاح الثانى والثلاثين، الآيات ٢٤ وما بعدها.

للمسيحيين ، وكانوا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب عبر الحدود التي كانت علامتها الوحيدة شجرة بلوط ضخمة ، وكان الفرنج قد تعهدوا بعدم تحصين مناطق العبور قط . وقد رغب بلدوين في الالتزام بالمعاهدة وتشييد القلعة في مكان آخر ، لكن فرسان المعبد فرضوا عليه رأيهم . وشكى المسلمون المحليون نقض العهد لصالح الدين ، الذي عرض علي بلدوين أولا ستين ألف قطعة ذهبية ، ثم مائة ألف قطعة ذهبية للتخلي عن البناء . ولما رفض الملك ، أقسم صلاح الدين أن يتخذ اجراء هو نفسه^(٢٩) .

وبعد الكارثة التي نزلت بصلاح الدين في تل الجزر مكث في مصر بضعة أشهر إلى أن أيقن أن كل شيء على مايرام تحت سيطرته . وفي نهاية ربيع عام ١١٧٨م عاد إلى سوريا وأمضى ما تبقى من العام في دمشق . وكانت الأعمال الحربية الوحيدة في ذلك العام تتألف من غارات قليلة وغارات مضادة^(٣٠) . وأما في المناطق الأبعد إلى الشمال فكان هناك سلام بين انطاكية وحلب ، وتحالف بين انطاكية وأرمينيا ، التي أطيح بأمرها الخائن ، مليح ، بعد موت نور الدين مباشرة على يد ابن أخيه روبين الثالث . وكان روبين صديقا للفرنج الذين ساعدتهم في حصار حارم العقيم^(٣١) . كما سعى يوهنن الثالث إلى مصادقة الامبراطور ، وفي عام ١١٧٧م تزوج إحدى قريبات مانويل وتدعى ثيودورا ، كزوجه الثانية^(٣٢) .

(٢٩) William of Tyre, xxi, 26, pp. 1050-1; Ernoul, pp. 51-2; Abu Shama, pp. 194-7; Ibn al-Athir, p. 634. وكان صلاح الدين مشغولا آنذاك بتمرد على في بعلبك . ويعبر غاضبا يعقوب الآن جسر يعرف باسم "جسر بنات يعقوب" .

(٣٠) Ibn al-Athir, p. 633.

(٣١) Sembat the Constable, p. 624; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 509. وعن زواج روبين انظر ادناه ص ٤٨٠ .

(٣٢) William of Tyre, xxii, 5, p. 1069. تاريخ هذا الزواج ، وحتى اسم العروس ، محل خلاف . إذ أن *Lignages v*, p. 446 يسميها إيرين Irene ، ويجعل لها ابنة تسمى كونستانس ، ليست معروفة مع ذلك . وليس معروفا ما إذا كانت من آل كومنينوس أم انها على صلة قرابة بالامبراطور عن طريق امها . ويعتقد Rey ، في *Histoire des Princes d'Antioche, Revue de l'Orient Latin*, 1896 ، أن *Orgillosa of Antioch* هي *Orgillosa of Antioch* ، أنهما زوجة يوهنن الأولى . والارجح ان زوجته الأولى هي *Orgillosa of Antioch* ، التي تظهر في الوثائق (1170-1399, 125, pp. 125, 1399, 5-1170). ويقول ولیم يقبنا: "إن يوهنن ترك ثيودورا ليعيش مع سيبيللا" .

١١٧٩ م : موت همفري أمير تبين

وفى ربيع ١١٧٩ م ، عندما بدأت الحركة الموسمية للقطعان ، انطلق الملك بلدوين لجمع الأغنام التي سوف تمر باتجاه بانياس من السهول الدمشقية ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه فاروق شاه ليرى ما يحدث هناك . وكان مقررا أن يخبر عمه عن طريق الحمام الزاجل بالاتجاه الذى يسلكه الفرنج . وفى يوم ١٠ ابريل انقض فاروق شاه فجأة على الأعداء فى واد ضيق فى غابة بانياس ، وبوغت الملك الذى لم يستطع تخليص جيشه الا بما أبده الكروستابل القديم ، همفري أمير تبين من بطولة ، إذ صمد للمسلمين مع حرسه الشخصى إلى أن هرب الجيش الملكى . وجرح همفري جرحا مميتا ، وقضى نحبه فى حصنه الجديد فى هونين يوم ٢٢ ابريل . وأعرب الجميع ، بل والمسلمون ، عن تقديرهم لشخصيته . لقد كان موته ضربة رهبة للمملكة ، إذ كان هو وحيدها من السياسيين الكبار الذى حظى باحترام الجميع .

وتابع صلاح الدين الانتصار بمحاصرة قلعة مخاضة يعقوب ، لكن الدفاعات كانت من القوة بحيث انسحب بعد ايام قليلة كى يعسكر أمام بانياس ، ومنها راح يرسل المغيرين إلى داخل الجليل وخلال لبنان لتدمير حصاد المحاصيل بين صيدا وبيروت . وجمع الملك بلدوين قوات المملكة واستدعى ريموند أمير طرابلس للانضمام اليه ، وساروا أعلى طبرية وصعد إلى تبين . وهناك علموا أن فاروق شاه وفرقة من المغيرين فى طريق عودتهم من الساحل وهم محملين بالغنائم ، فانتقلوا إلى الشمال لمهاجمتهم فى وادى مرج عيون الواقع بين نهر الليطاني والأردن الأعلى . غير أن صلاح الدين لاحظ من مرقب فوق تل شمال بانياس أن القطعان فى الجهة المقابلة من الاردن تجرى مبعثرة فى فرع ، فتحقق من أن الجيش الفرنجى يمر بها ، فانطلق يطارده . وفى يوم ١٠ يونية ١١٧٩ م ، وبينما كان الجيش الملكى يهزم فاروق شاه فى مرج عيون ، انتقل الكونت ريموند وفرسان المعبد متقدمين قليلا باتجاه الأردن . وفى مدخل الوادى هبطوا على جيش صلاح الدين ، وشارك فرسان المعبد فى المعركة على القور ؛ بيد أن هجوم صلاح الدين المضاد دحرهم إلى الخلف منكبين على جنود بلدوين ، الذين كانوا يندحرون هم كذلك ؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان الجيش الفرنجى كله موليا الأدهار . وتمكن الملك والكونت ريموند ، مع بعض رجالهما ، من عبور نهر الليطاني واللجوء إلى حصن الشقيف أرنون الواقع على مكان مرتفع على الضفة الغربية للنهر . وقتل من تبقى عبر النهر من الرجال جميعا ، أو جُمعوا فيما بعد . ولم يتوقف بعض الهاربين فى قلعة الشقيف ، وانما انطلقوا مباشرة إلى الساحل ؛ حيث قابلوا فى طريقهم

رينالد أمير صيدا مع جنوده المحليين ، وأخبروه أنه جاء بعد أن سبق السيف العذل ، ولذا عاد أدراجه رغم أنه لو تقدم إلى الليطاني لأنقذ الكثير من الممارين الآخرين .

وكان من بين أسرى صلاح الدين أودو (أوف سانت أماند) ، السيد الأعظم لفرسان المعبد ، الذى كان تهوره السبب الرئيسى للهزيمة النكراء ، وبلدوين أمير بينة ، وهيو أمير الجليل . وسرعان ما اقتدى هيو بعد أن دفعت أمه ، كونتيسة طرابلس ، خمسة وخمسين ألف دينار من دينارات صور . وأما بلدوين أمير بينة فقد طلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف دينار ، وهي فدية ملك ، وكذلك كان صلاح الدين يقيس أهمية بلدوين . وبعد أشهر قليلة أفرج عن بلدوين لقاء الإفراج عن ألف أسير مسلم وبالوعد بأن يبحث عن المال . واقترح مبادلة أودو بأسير مسلم هام ؛ لكن السيد الأعظم كان بالغ الغرور بحيث لم يوافق على أن هناك من يعادله فى أهميته . فبقى فى غيابة الجلب فى دمشق إلى أن مات فى العام التالى .

١١٨٠ م : هدنة عامين

لم يتابع صلاح الدين نصره بغزو فلسطين ، ربما لأنه سمع بوصول جماعة كبيرة من الفرسان القادمين إليها من فرنسا بقيادة هنرى الثانى (أوف شامباني) ، وبطرس (أوف كورتناى) ، وفيليب أسقف بوفيه ؛ وبدلاً من ذلك هاجم قلعة بلدوين فى مخاضة يعقوب ، وبعد أن حاصرها خمسة أيام ، من ٢٤ إلى ٢٩ أغسطس ، أفلح فى نفس جزء من الاسوار واقتحمها وقتل المدافعين عنها ودمرها إلى أن سواها بالارض . ولم يخرج الزائرون الفرنسيون لمحاولة انقاذ القلعة وإنما سارعوا بالعودة إلى بلدهم . ومرة أخرى أثبت صليبيو الغرب أنهم بلا فائدة البتة^(٣٣) .

وبعد أن قام الأسطول المصرى بغارة ناجحة فى أكتوبر على حركة السفن فى نفس ميناء عكا ، وبعد غارة اسلامية ضخمة داخل الجليل فى وقت مبكر من العام الجديد ، أرسل الملك بلدوين يطلب الهدنة من صلاح الدين . فوافق صلاح الدين . وقد

(٣٣) William of Tyre, xxi, 30-27, pp. 1052-9; Ernoul, pp. 53-4; Abu Shama, pp. 194-202; Ibn al-Athir, pp. 635-6; Maqrissi, *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii, pp. 530-1. بعض الشكوك حول ما إذا كان أودو (أوف سانت أماند) قد قتل ، لكن كتابا بابويا مرصوا بالرصاس أرسله البابا ألكسندر الثالث يفترض أنه عاش كأسير . انظر d'Agbon, 'La Mort d'Odon de Saint'Amand' in *Revue de l'Orient Latin*, vol. xii, pp. 279-82.

حدث جفاف شديد طوال الشتاء وبأكورة الربيع وأحدثت المجاعة بسوريا كلها ، وليس هناك من يرغب فى غارة تدمير المحاصيل الهزيلة ، وربما قرر صلاح الدين ضرورة أن يسبق غزو حلب غزو القلس . وفى مايو من عام ١١٨٠م وقع ممثلو بلدوين وصلاح الدين على هدنة لمدة سنتين ، واستبعدت طرابلس من الهدنة . على أنه بعدما أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس ، وبعد صد صلاح الدين من غارته على البقاع ، عقد معاهدة مماثلة مع ريموند^(٣٤) . وفى الحزيف سار شمالا إلى الفرات حيث تشاجر الأمير الأرتقى نور الدين صاحب حصن كيفا - والذى أصبح حليفه - مع قلعج ارسلان السلجوقى . ذلك أن نور الدين كان قد تزوج ابنة السلطان ، لكنه أهملها بسبب إحدى الراقات . وفى ٢ أكتوبر ١١٨٠م عقد صلاح الدين مؤتمرا بالقرب من المصيصة ، حضره أمراء الأرائقة ومبعوثون من قلعج ارسلان ، ومن سيف الدين صاحب الموصل ، ومن روين الأرمينى . وأقسموا على أن يظلوا جميعا فى سلام طوال السنتين التاليتين^(٣٥) .

وأما الملك بلدوين فقد أمضى فترة الهدنة فى محاولة بناء جبهة مسيحية ضد الاسلام فذهب وليم الصورى ، وهو رئيس أساقفة منذ عام ١١٧٥م ، إلى روما عام ١١٧٩م لحضور مجلس لاتيراني^(٣٦) . وفى طريق عودته قام بزيارة إلى القسطنطينية فى الأيام الأخيرة من السنة ، وكان الامبراطور مانويل على ما اعتاد عليه من إظهار الكياسة والود ، لكن عين وليم النافذة استطاعت أن ترى فيه رجلا ميتا . لم يبرأ مانويل قط من صدمة معركة ميزوسيفالوم مع أنه أظهر اهتماما كبيرا بسوريا ، ومكث وليم هناك سبعة أشهر ، وحضر الاحتفالات العظيمة التى اقيمت بمناسبة زواج ابنة مانويل ماريما ، وكانت عانسا فى الثامنة والعشرين من عمرها ، على رينيه (أوف مونتفرات) ، أخى زوج سبيللا ؛ وزواج ابن مانويل ، وهو ابن عشر سنوات على الأميرة آجنس الفرنسية وعمرها تسع سنين . وعاد برفقة مبعوثين امبراطورين رافقوه حتى انطاكية^(٣٧) . وكان

(٣٤) William of Tyre, xxii, 3-1, pp. 1053-6; Abu Shama, p. 211; Ibn al-Athir, p. 642.

(٣٥) Ibn al-Athir, pp. 639-40.

(٣٦) (المترجم): المجلس اللاتيراني Lateran Council. تنسب التسمية إلى القديس جون لانيران St John Lateran، أو إلى كنيسة المساء باسمه ، وهى كنيسة البابا الكاتدرائية على موقع قصر Plautius Lateranus البازيليكي الرابع فى روما . والمجلس اللاتيراني Lateran Councils هى خمسة مجالس عامة للكنيسة الغربية عقدت فى Lateran basilica، (١١٢٣م و١١٣٩م و١١٧٩م و١٢١٥م و١٢١٢-١٥١٧م) ويعتبرها الكاثوليك على أنها مجالس مسكونية أو عالية.

(٣٧) William of Tyre, xxii, 4, pp. 1066-8.

الأمير الأرمني روبين متلفها على تقوية تحالفه مع الفرنج ، ففى باكورة عام ١٨١١م جاء حاجا إلى القدس ، وهناك تزوج الليدى ايزابيلا أميرة تبين ، بنت ستيفانى اميرة منطقة الاردن^(٣٨). وأعلن حتى اليعاقبة السريان ولاءهم للقضية المسيحية المتحدة ، عندما زار بطريقتهم - ميخائيل المؤرخ - القدس وقابل الملك مقابلة طويلة^(٣٩).

كما كانت هناك آمال معلقة على حليف من الشرق الأبعد . ذلك أنه منذ عام ١١٥٠م ، ذاعت رسالة فى أنحاء أوروبا الغربية تدل على أن الذى كتبها ذلك العاهل العظيم بريستر جون^(٤٠) إلى الامبراطور مانويل . وبرغم أنها من تزييف أسقف ألماني بصورة شبه يقينية ، فإن محتواها الذى يتحدث عن ثروة وورع ذلك القس الملك فائق الروعة بحيث يتمتع تصديقه . وفى عام ١١٧٧م أرسل البابا طيبه فيليب برسالة يطلب فيها معلومات ومساعدة ، ويبدو أن فيليب أنهى رحلته فى الحبشة ، ولم يكن لها نتائج حقيقية^(٤١).

١١٨٠م : سيلا وبلدوين أمير ايلين

ومع ذلك لم يأت فارس قوى من الغرب ، ولا حتى للزواج من الأميرة سيلا وخلافة العرش . وعندما كان فريدريك رئيس أساقفة صور فى روما ، أرسل إلى هيو الثالث البرجندي ، وهو من سلالة البيت الملكى كأييه ، يترجاه أن يقبل الترشيح ؛ فوافق هيو بادئ الرأى ، لكنه فضل البقاء فى فرنسا . وفى تلك الأثناء وقعت سيلا نفسها فى حب بلدوين أمير ايلين . وكانت أسرة إيلين الآن ، برغم أصلها المتواضع ، فى مقدمة نبلاء فلسطين . وموت باليان العجوز الذى أسس الأسرة ، مُنحت إقطاعية إيلين نفسها لفرسان المستشفى ، لكن الرملة كانت من نصيب ابنه الأكبر هيو ، وموت هيو مرت إلى أخيه بلدوين الذى كان قد تزوج ورثة بيسان ، ولكن نبذها

(٣٨) Sembat the Constable, p. 627 ويشير Ernoul, p. 31 الى الزواج ، ويطلق على روبين ابن ثوروس . كما أورد (pp.25-30) زيارة ثوروس الى القدس ، وهى غير مسجلة فى أى مكان آخر ، وربما كانت وهمية .

(٣٩) Michael the Syrian, III, p. 379.

(٤٠) (المترجم) بريستر جون Prester John: ملك مسيحي أسطوري فى العصور الوسطى وقسيس ، يقال إنه كان يحكم إما فى الشرق الأقصى أو فى اثيوبيا.

(٤١) Rohricht, *Regesta*, pp. 67, 145. وعن اسطورة بريستر جون انظر Marinescu, 'Le Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. x.

بذريعة قرابة الدم الشديدة التي تحرم الزواج . والآن كان الابن الأصغر باليان زوج الملكة ماريا كومينا ، ولورد مدينة نابلس التي كانت مهرها ؛ وكان بلدوين وباليان الأكثر نفوذا من كل النبلاء المحليين ؛ وهرغم ما كان عليه بلدوين من نسب غير متميز ، كان لزواجه من سيلا أن يحظى بشعبية في سائر أنحاء البلاد . وقبل إعداد ترتيبات الخطوبة ، وقع بلدوين في الأسر في مرج عيون ؛ وكتب له سيلا وهو في سجنه تؤكد له حبها ؛ لكنها بعد أن أطلق سراحه قالت له بيروود إنها لا تستطيع أن تتخيل الزواج بينما هو ما يزال مدينا بفدية ضخمة . وكان جدلها معقولا ، وإن كان مثبطا ؛ ولم يعرف بلدوين كيف يدبر المال ، فرحل إلى القسطنطينية وتسولها من الامبراطور ، الذي دفع الفدية كلها لما يعرف عنه من شغف باللفتات الكريمة . وعاد بلدوين منتصرا إلى فلسطين في وقت مبكر من ربيع ١١٨٠ م ، لا شيء إلا ليحد سيلا مخطوبة لرجل آخر^(٤٢) .

ولم تكن الليدى آجنس تستلطف قط أقارب أزواجها على اختلافهم وكانت تستهجن آل إيبيلين . وقبل بضع سنين جاء إلى فلسطين فارس من بواتو ، هو أمالريك الابن الثاني لكونت لوسينان . وكان جنديا جيدا ، وعموت همفري أمير تبين عيين كورنستابل . وفي نفس الوقت تقريبا تزوج إيشيفا ، ابنة بلدوين (أوف إيبيلين) ؛ وكان أيضا عشيقا لآجنس . وكان له أخ أصغر في فرنسا ، يدعى جوى . وبتشجيع من آجنس ، بدأ يخبر سيلا عما كان يتحلى به هذا الشاب من وسامة غير عادية وفتنة إلى أن ترجمته أخيرا في إحضاره إلى فلسطين . وفي الوقت الذي كان فيه بلدوين في القسطنطينية ، أسرع أمالريك إلى فرنسا لإحضار جوى ولإعداداته للدور الذي كان مقررا أن يعبه . ووجدته سيلا على نفس قدر الوسامة التي قيلت لها ، فأعلنت أنها تتوى الزواج منه . واعترض أخوها الملك ولكن دون جدوى ؛ إذ كان جوى - كما اتضح للجميع - صبيا ضعيفا أحمقا . واغتاش بارونات فلسطين لاحتمال أن يصبح ملكهم المقبل هذا الابن الأصغر لنيل فرنسي تافه ، وكل ما يميزه هي أنه من ذرية ميلوسين الأشبه بجنسيات الماء ؛ غير أن آجنس وسيلا راحتا تضايقان الملك المرهق المريض إلى أن وافق . وفي عيد الفصح من عام ١١٨٠ م تزوج جوى من سيلا ومنح اقطاعيتي يافا وعسقلان^(٤٣) .

(٤٢) - لم يذكر أحد قصة حب بلدوين (أوف إيبيلين) سوى Ernoul, pp.48, 56-9 . وليرنول كان في خدمة أخى بالدوين ، باليان ، ولذلك كان على علم جيد بشؤون الأسرة .

(٤٣) William of Tyre, xxii, 1, pp. 1064-5; Ernoul, pp. 59-60 . ويقول Benedict of

١١٨٠ م : البطريق هيراكليوس

لأسباب سياسية، وكذلك شخصية، كان آل إيبيلين في غاية الخلق، وتفاهم الشقاق بينهم وبين آل كورتناي، يسانداهم في ذلك رينالد (أوف شاتيلون). وفي أكتوبر ١١٨٠م حاول الملك التوفيق بينهما بأن خطب أخته غير الشقيقة إيزابيلا إلى همفري الرابع أمير تبين. وكانت إيزابيلا ابنة زوجة باليان (أوف إيبيلين)، وهمفري ابن زوجة رينالد (أوف شاتيلون). فضلا عن ذلك كان همفري، حفيدا ووريثا للكونستابل الكبير ووريثا شرعيا عن طريق أمه لاقطاعية منطقة الأردن، ولذلك كان أكثر النبلاء المحليين جدارة، ومن شأن الزواج أن يضمن رونقا على جدارته. ونظرا لصغر سن الأميرة، التي كانت في الثامنة، تقرر تأجيل الزواج الفعلي لثلاث سنوات^(٤٤). على أن الخطوبة لم تصلح شيئا. إذ بعد أيام قليلة استعرض آل كورتناي قوتهم بتعيين بطريق جديد. ذلك أن البطريق الماريك مات يوم ٦ أكتوبر، وفي ١٦ أكتوبر، وبضغط من الليدي آجنس، انتخبت هيئة الكنيسة في القدس كخليفة له هيراكليوس، رئيس أساقفة قيسارية. وكان قسيسا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أتى من أوفرني Auvergne، وكانت له وسامة لا قبل لآجنس بمقاومتها، وارتقى في المناصب بما كان لها من حظوة. وكانت محظيته الحالية زوجة أحد تجار الجوخ في نابلس، تدعى باشيا دي ريفيري، وسرعان ما اشتهرت في سائر أنحاء المملكة بأنها السيدة البطريقة Madame la Patriarchesse. وجاء وليم الصوري من أسقفيته صاخبا في محاولة لمنع الانتخاب ولكن دون طائل. وسمّاه الناصيون على أنه اختياريهم الثاني، لكن الملك صدّق على تعيينه بأمر من أمه^(٤٥).

وباتت القوة الآن راسخة في قبضة آل كورتناي ولوسينان وحلفائهم رينالد (أوف

Peterborough, I, p.343 إن سيلا كانت قد اتخذت بالفعل جوى عشيقا لها. وعندما اكتشف الملك ذلك، أراد أن يقتل جوى، ولكن بناء على طلب فرسان اللعبد أبقى على حياته وسمح له بالزواج.

(٤٤) William of Tyre, xxii, 5, pp. 1068-9; Ernoul, pp. 81-2. عن أراضيه في الجليل للملك مقابل الارتباط وأعطى بلدوين تورون لأمه. ويقول ابن جبير Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 304 "الخنزيرة بنت الخنزير لورد عكا"، وإن حنين ملك عمه جوسلين.

(٤٥) William of Tyre, xxii, 4, p.1068، أورد ملحوظة مقتضبة توحي فيها حذف أي أمر يتعلق برشيحه. ويقول Ernoul, pp.82-4 بالتحديد إن آجنس أصرت على انتخاب هيراكليوس "لأن جماله محبوب" (pour sa biauuté l'ama)؛ وسبق أن جعلته رئيس أساقفة قيسارية. ويضيف أن وليم حذر الكهنة من انتخابه. ويذكر d'Eracles, II, pp.57-9 أن وليم الصوري تنبأ بأن الصليب الذي وجدته هيراكليوس، سوف يضيئه هيراكليوس.

شاتيلون) والبطريق الجديد. وفي شهر ابريل ١١٨١م وجهوا ضربتهم إلى وليم الصوري الذي اعتبروه خطرا عليهم لأنه كان مدرس الملك سابقا. وبذريعة تافهة حكم عليه هيراكليوس بالطرد من الكنيسة. وبعد محاولات عقيمة لرأب الصدع رحل وليم الصوري عام ١١٨٢م أو ١١٨٣م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوي، ومكث هناك حيث مات، ويقال إن البطريق أرسل وراءه جاسوسا دس له السم^(٤٦). وكان ريموند أمير طرابلس ثاني المستهدفين للهجوم. فعندما كان يتهاى في وقت مبكر من عام ١١٨٢م للانتقال من كونتيته إلى أراضى زوجته في الجليل، منعه ضباط الملك من دخول المملكة؛ إذ أن آجنس وأخاها جوسلين ألقيا في روع الملك أنه يتآمر ضد التاج. ولم يرضخ الملك بلدين إلا بعد الاحتجاجات الغاضبة من بارونات المملكة؛ وعلى مضض رضى بمقابلة ريموند الذي أقنعه ببراءته^(٤٧).

١١٨٠-١١٨٢م: عهد ألكسيوس الثاني

ربما كانت المكائد التي تحاك حول الملك المخذوم الميت أقل خطورة لو لم يكن الوضع الخارجى حساسا. ففي ٢٤ سبتمبر فقد الفرنج أهم حلفائهم. عموت الامبراطور مانويل فى القسطنطينية. وكان يحبهم حبا أصيلا، كما كان يعمل لمصلحتهم بصورة أصيلة، إلا عندما كان الأمر يصطدم بمصالح الامبراطورية. كان رجلا مؤثرا حاد الذكاء، ولكنه لم يكن امبراطورا عظيما؛ إذ أن طموحه للهيمنة على العالم المسيحي أدى به إلى مغامرات لا تقدر الامبراطورية على تحمّلها. وأرسل جنوده إلى إيطاليا وإلى داخل هنجاريا فى الوقت الذى كان وجودهم مطلوبا على حدود الأناضول أو فى البلقان. وتعامل مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفد أبدا. وكانت كارثة

(٤٦) Ernoul, pp. 84-6: *Estoire d'Eracles*, II, pp. 57-9. الذى يقول إن الذى دس السم لوليم هو طبيب أرسله هيراكليوس إلى روما، وأن هيراكليوس نفسه زار روما بعد ذلك. وتاريخا رحيل وليم وموته مجهولان. ويتوقف تاريخه فى عام ١١٨٣م. وقد زار هيراكليوس روما عام ١١٨٤ (انظر أدناه، ص ٤٤٤). ومن الناحية الأخرى جاء ذكر وليم فى وثيقة للبابا ايربان الثالث مؤرخة فى ١٧ أكتوبر ١١٨٦م على أنه القاضى فى الدعوى القانونية للمتخاصم فيها فرسان المستشفى وأسقف بولونياس (Rohricht, *Regesta, Addimenta*, p.44). ولذلك يفرض Rohricht أنه عاد إلى الأراض المقدسة (*Kreuzzugen*, p.491, n.5 *Geschichte der*). والأكثر ترجيحاً أن المحفوظات البابوية وقعت فى خطأ بشأن الاسم. وكان Josias رئيساً لأساقفة صور فى ٢١ أكتوبر ١١٨٦م (Rohricht, *Regesta*, p. 173).

(٤٧) William of Tyre, xxi, 9, pp. 1077-9.

ميريوسيفالوم ضربة مميتة لجيشه الذى كان لديه من المسؤوليات ما يثقل كاهله . وفى سلسلة طويلة من التنازلات التجارية التى منحها للمدن الإيطالية نظير مميزات دبلوماسية عاجلة ، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية ، ومن ثم لم تملأ الخزانة الامبراطورية مرة أخرى قط . وبهرت روعة بلاطه العالم بحيث ساد الاعتقاد أن الامبراطورية أعظم مما هى عليه بالفعل ؛ ولو أنه عاش أطول مما عاش فربما كان أسطوره وذهبه ، مع ذلك ، شيئا ذا قيمة للفرنج . وكانت شخصيته هى التى حافظت على تماسك الامبراطورية ؛ ولكن موته كشف عن انهيارها . ولقد صارع الموت متشبهاً فى عناد بنبوءات منحتة أربعة عشر عاما أخرى يعيشها ، فلم يعبأ بالترتيب للرعاية التى سوف يحتاجها ابنه^(٤٨) .

كان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثانى ، فى الحادية عشرة من عمره . وجريا على ما اعتادت عليه بيزنطة من سوابق راسخة منذ القدم تولت الامبراطورة الأم الرعايا . لكن الامبراطورة ماريا لاتينية من انطاكية ، وهى أول لاتينية يحكم الامبراطورية ، ولكونها لاتينية لم تكن محبوبة من أبناء القسطنطينية ؛ كما أن حب مانويل لللاتين كان محل ازدراء لفترة طويلة ، وقد أضافت المنازعات الكنسية التى دبت فى انطاكية مرارة على مرارة لدى البيزنطيين ؛ إذ لم ينس أحد البتة مرور الصليبيين الصاحب فى أراضي الامبراطورية ، وكانت ذكريات المذابح فى قبرص ، والمجازر التى اقترفها البنادقة وأبناء بيزا وجنوا لا تزال عالقة بالأذهان . وأبغضهم جميعا التجار الايطاليون الذين كانوا يتبحرون زهوا فى القسطنطينية ، مغتبطين بتحكمهم فى تجارة الامبراطورية التى كانوا دائماً يحصلون عليها باعتدائهم على المواطنين المسلمين فى المقاطعات . واتخذت الامبراطورة مستشارا لها ، وكما كان يُظن ، عشيقا ، ابن أخ لزوجها ، بروتوسيباستوس ألكسيوس كومنينوس ، عم الملكة ماريا من القدس . وكان أحق لا يحظى بشعبية . وجنحا معا إلى العنصر اللاتينى ولا سيما إلى التجار الايطاليين . وقامت المعارضة فى وجه الامبراطورة تفوقها ابنة زوجها ، بورفيروجينيت ماريا ، وزوجها رينيه (أوف مونتفرات) . وفشلت مؤامرتهم فى قتل المحبوب ؛ لكنهما عندما لاذا بكنيسة القديسة صوفيا ، مضى شأوا أبعد فى الاساءة إلى الجماهير عندما دُنس الكنيسة . وأرغمت الامبراطورة على العفو عن المتآمرين ، لكنها فى وضعها هذا غير المأمون توصلت إلى أخى زوجها ، ييلا الثالث ملك هنجاريا كى يأتى لإنقاذها . وكان

(٤٨) أنظر 8-605 *op. cit* Chalandon, يذكر William of Tyre, xxii, 5, p.1069 موته .

ابن عم زوجها ، أندرونيكوس كورنينوس ، الذى عُفِّر له ما قضاه فى الشرق من حياة الغواية ، يعيش الآن متقاعدًا فى برنتوس^(٤٩) ، وقد تذكر رفاقه شجاعته وفتنته، وعندما قدموه عليهم ليكون زعيما وطنيا كانت استجابته سريعة ؛ وفى اغسطس ١١٨٢م سار عبر الأناضول، وبسهولة هزم الجنود القلائل الذين لم ينضموا إلى صفوفه . وأما الامبراطورة فسرعان ما وجدت نفسها بمفردها ومعها مجرد اللاتينيين لمساعدتها. وباقتراب اندرونيكوس من البوسفور ، انقض ابناء القسطنطينية فجأة على كل اللاتين فى المدينة ، وقد أثارت الغطرسة اللاتينية المذبذبة ؛ على أن مسارها المرعب صدم الكثير من أكثر البيزنطيين وطنية ، ولم ينج سوى القليل من التجار الايطاليين الذين هرعوا إلى سفنهم وابتعدوا غربا مغربين على الشواطئ التى مروا بها. وبذا أصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحا لأندرونيكوس .

وأول ما بدأ به هو القضاء على خصومه ؛ فألقى بروتوسيستوس فى السجن وفقاً عينيه بقسوة . وماتت بروفيروجينيت ماربا وزوجها ميتة غامضة . وأما الامبراطورة الأم فقد حُكِمَ عليها بالإعدام خنقا وأُجبر ابنها نفسه على التوقيع على الحكم . وأصبح أندرونيكوس امبراطورا مشاركا ، وبعد ذلك بشهرين ، فى نوفمبر ١١٨٢م ، اغتيل الامبراطور الصبى الكسيوس الثانى نفسه ، وتزوج أندرونيكوس الذى كان فى عامه الثانى والستين من أرملته آجنس الفرنسية البالغة من العمر الثانية عشرة سنة .

وبخلاف حالات القتل هذه ، بدأ أندرونيكوس عهده بداية طيبة ؛ فطهّر الخدمة المدنية من موظفيها الفاسدين والزائدين عن الحاجة ، وأصر على سيادة العدالة وصرامة القانون ، وأرغم الأثرياء على دفع ضرائبهم، ووفر الحماية للفقراء من الاستغلال . ولم يحدث لقرون أن كانت المقاطعات محكومة بمثل هذا الحكم الجيد. بيد أن أندرونيكوس كان خائفا وله العذر . ذلك أن الغيرة راحت تنهش الكثيرين من أقربائه، بينما كانت الطبقة الأرستقراطية تزدرى سياسته ، وكانت الشؤون الخارجية تتوعد بالأخطار . وتحقق من الإنطباع الرهيب الذى تركته مذبحة ١١٨٢م فى الغرب ، فسارع ليس فقط إلى إبرام معاهدة مع البندقية يعد فيها بتعويض سنوى عن خسائرها ، وإنما سعى كذلك إلى تهدئة البابا بتشديد كنيسة فى العاصمة لإقامة الطقوس اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة . بيد أن أعداء بيزنطة كانوا امبراطور هوهنشتوفن (الألماني) وملك صقلية، وفى عام ١١٨٤م حدث زواج مشؤوم بين ابن الامبراطور فريديريك، هنرى،

(٤٩) (المرجم) برنتوس Pontus: مملكة قديمة شمال شرق آسيا الصغرى على البحر الأسود.

وأخت وليم الثانى والوريثة، كونستانس . ولعلمه بأن صقلية سرعان ما ستهاجمه، فقد أحب اندرونيكوس أن يستوثق من حدوده الشرقية؛ ووجد أن نجم صلاح الدين فى ارتفاع هناك، ولذا قلب سياسة مانويل رأسا على عقب بعقد معاهدة مع صلاح الدين يطلق فيها يده ضد الفرنج فى مقابل تحالفه معه ضد السلاجقة ، ويبدو انهما اتفقا كذلك على تفاصيل تقاسم الغزوات المقبلة وبجالات النفوذ.

١١٨٥ م : سقوط اندرونيكوس كرومينوس

على أن المعاهدة كانت عقيمة . إذ أن خشية اندرونيكوس على نفسه فى القسطنطينية دفعته إلى الشروع فى اتخاذ اجراءات قمعية تزايدت فى وحشيتها حتى لم يعد أحد فى العاصمة يشعر بالأمان . ولم يوجه ضربه إلى الارستقراطيين فحسب ، وانما اعتقلت شرطته حتى التجار والعمال البسطاء لأوهى اشتباه فى التآمر ، فكانت عيونهم تُفَقَأ أو كانوا يرسلون إلى حيث تقصّل رؤوسهم . وعندما هبط إلى البر فى عام ١١٨٥ م جيش صقلى فى إبيروس وزحف على نيسالونيكيا، ثملك الذعر أندرونيكوس. وأسفر ما أقدم عليه من اعتقالات بالجملة ، وما ارتكبه من اعداسات ، إلى أن دفعت بالشعب كله إلى الثورة التى تفجرت عندما افلح أحد أبناء عمومة الامبراطور ، هو ايزاك أنجيلوس ، من الهرب من سجنائه إلى مذبح القديسة صوفيا والتمس العون من هناك ، وكان يتصف بكرهيته للإساءة . بل أن الحرس الشخصى المحيط بأندرونيكوس تخلوا عنه ؛ فحاول عبثا الهرب عبر آسيا ، لكنهم امسكوا به وطافوا به فى انحاء المدينة على جمل أجرب ، ثم عذبته الجماهير الهائجة ومزقته إربا حتى الموت . وأعلن عن تنصيب ايزاك انجيلوس امبراطورا ، فتمكن من الحفاظ على نوع من النظام وعقد سلاما مهينا مع ملك صقلية ، لكنه لم تكن له أية فعالية كحاكم . لقد غدت الامبراطورية القديمة قوة من الدرجة الثالثة بنفوذ طفيف فى السياسة العالمية^(٥٠).

وأدى اضمحلال بيزنطة إلى قلب موازين القوة فى الشرق . وقد ابتهج لذلك امراء أرمينيا وانطاكية ، واحتفلوا بخلاصهم من بيزنطة بأن تشاجروا مع بعضهم البعض . فما أن سمع يوهنن الثالث نبأ وفاة مانويل حتى نبذ زوجته اليونانية كى يتزوج سيدة انطاكية منحلّة تدعى سيبيللا ؛ ولم يكن البطريق ليمرى قد استحسن الزواج اليونانى ،

(٥٠) عن عهد اندرونيكوس انظر Nicetas Choniates, pp. 356-463. ويورد William of Tyre, xxxi, 1079-86 pp. 13-10 عرضا مفيدا لما فيه الكفاية عن استخلاف اندرونيكوس .

ولكن الزنا صدمه ، فأصدر مرسوما بطرد بوهمند من الكنيسة ، وفرض على المدينة الحرمان الديني ، وانسحب مرة أخرى إلى القصير . وكان نبلاء انطاكية على حق في بغضهم لسبيلا ، إذ كانت حاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين لقاء معلومات تتصل بقوة الجيوش الفرنجية وتخركاتها . فساند النبلاء البطريق إيمري ، وأطلت الحرب الأهلية برأسها لولا أن أرسل الملك بلدوين وفدا كنسيا برئاسة البطريق هيراكليوس للتحكيم . ووافق البطريق إيمري على رفع الحرمان المفروض على المدينة ، ولكن ليس الطرد لبوهمند ، لقاء تعويض مالي ، وتم الإعتراف بسبيلا أميرة . ولم يرض الكثير من النبلاء بالتسوية فهربوا إلى بلاط روين . وفي نهاية عام ١١٨٢م زادت العلاقات بين الأميرين تعقيدا عندما تمرد محافظ كيليكيا البيزنطي ، ايزاك كومنينوس ، على اندرونيكوس وطلب المساعدة من بوهمند ضد روين ، وقبل بجي جنوده في طرسوس . وعلى الفور غير بوهمند من رأيه وباع طرسوس والمحافظ لروين ، ثم ندم على ذلك . وطلب فرسان المعبد فدية عن ايزاك على فهم أن القبارصة المتعاطفين معه سيدفعونها لاحقا ، وعلى الأثر انسحب ايزاك إلى قبرص حيث نصب نفسه امبراطورا مستقلا وتناسى الدين . ثم إن روين ابتلع إمارة هيثوميانز الارمنية الصغيرة التي بقيت في لاميون شمال غرب كيليكيا تحت حماية القسطنطينية ، وكان ذلك بمثابة الانذار لجيرانه . وهكذا أدى توسيعه لسلطته إلى أن شعر بوهمند بالخطر ، فدعا عام ١١٨٥م إلى مأدبة مصالحة في انطاكية واعتقله لدى وصوله . غير أن أخا روين ، ليو ، أنهى غزو هيثوميانز ، وهاجم انطاكية . وأخرج عن روين بعدما تنازل لبوهمند عن المصيصة وأدنا ، لكنه سرعان ما استردهما لدى عودته إلى كيليكيا وأعلن عن نفسه سيذا للمقاطعة كلها . وأغار بوهمند بغارات عقيمة لم تحقق شيئا^(٥١).

١١٨١م : رينالد (أوف شاتيلون) ينقض المعاهدة

كانت النزاعات الدائرة بين أقزام الزعماء المسيحيين ملائمة للغاية لصلاح الدين . فلا بيزنطة ولا حتى فرنج شمال سوريا سيعرقلون تقدمه ، كما ولن يرسلوا العون إلى

(٥١) William of Tyre, xxii, 7-6, pp. 1071-4; William of Tyre, *Latin Continuation*, p. 208; Ernoul, p. 9; Nicetas Choniates, pp. 376-7; Neophytus, *De Calamitatibus Cypri*, clxxxvii; Michael the Syrian, iii, pp. 389-94; Sembar the Constable, p. 628; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-10. Ibn al-Athir, pp. ٧٢٩-٣٠; Abu Shama, p. 374.

مملكة القدس . وكانت الدولة الوحيدة فى الشرق التى حظت بالاحترام فيما بين المسلمين هى مملكة جورجيا النائية ، والتى كانت تتضخم على حساب أمراء إيران السلاجقة المنهمكين فى مصاعبهم التى كانت ملائمة تماما للسلطان^(٥٢) . أما والحالة هكذا ، كان من اللازم للمملكة أن تحافظ على هدنة ١١٨٠ م . لكن رينالد (أوف شاتيلون) ، وهو الآن لورد منطقة الأردن ، استعصى على فهمه سياسة تسير بما لا يتفق مع رغباته ؛ إذ بمقتضى الهدنة يستطيع التجار من المسيحيين والمسلمين على السواء أن يرحلوا فى أمان فى أراضي كل من الجانيين ، وأضى رينالد أن يرى القوافل الإسلامية الثرية فى المتناول تمر دون أن يلحقها أذى . وفى صيف ١١٨١ م ، ضعف أمام الإغراء فقاد جنوده المحليين شرقا إلى داخل الجزيرة العربية إلى تيماء بالقرب من الطريق المتجه من دمشق إلى مكة ؛ وبالقرب من الواحة انقض على قافلة كانت مرتحلة فى أمان إلى مكة وانسل هاربا بكل بضائعها ، بل يبدو انه كان يتأمل فكرة السير جنوبا لمهاجمة المدينة المنورة ، لكن صلاح الدين ، الذى كان فى مصر ، أرسل حملة سريعة بقيادة ابن أخيه فاروق شاه من دمشق إلى داخل منطقة الأردن جعلت رينالد يسرع بالعودة . واشتكى صلاح الدين إلى الملك من خرق المعاهدة وطلب تعريضا ؛ واعتزف بلدوين بعدالة المطلب ؛ وأرسل المبعوثين على جناح السرعة إلى رينالد الذى رفض دفع أية تعويضات رغم ذلك . وقد أيد أصدقائه فى المحكمة العليا إلى أن ترك الملك الضعيف الموضوع بلا حل . لكن صلاح الدين تابعه ؛ فبعد أشهر قليلة ، اضطر الجو العاصف أن يهبط ألف وخمسمائة حاج إلى البر فى مصر بالقرب من دمياط وهم لا يعلمون بأن الهدنة قد انتهكت . فقيدهم صلاح الدين جميعا بالسلاسل ، وأرسل إلى بلدوين يعرض إطلاق سراحهم فور عودة البضائع التى استلبها رينالد . ومرة أخرى رفض رينالد إعادة أى شئ . وباتت الحرب الآن أمرا حتميا^(٥٣) .

حث رينالد واصدقاؤه الملك على تركيز الجيش الملكى فى منطقة الأردن للإمساك بصلاح الدين عندما يأتى صاعدا من مصر . وأكد آل إيبيلين وريموند أن ذلك سوف يكشف فلسطين له عندما يمر بها ، ولكن دون جدوى . وفى ١١ مايو ١١٨٢ م غادر

(٥٢) للاطلاع على تاريخ جورجيا فى قبل الملك جورج الثالث (١١٥٦-١١٨٤م) انظر *Georgian Chronicle*, pp. 231-7. وقد خلقت ابنته للملكة العظيمة ثمار *Thamar*. انظر *Allen, History of the Georgian People*, pp. 102-4.

(٥٣) William of Tyre, *xxii*, 14, p. 1087. حذف السبب الذى دفع صلاح الدين الى اعتقال الحجاج *Ernoul*, pp. 54-6; *Abu Shama*, pp. 214-18; *Ibn al-Athir*, pp. 647-50;

صلاح الدين مصر ؛ وبينما كان يودع ورياءه فى حفل وداع، علا صوت من بين الحشد يردد بيتا من الشعر فحواه أنه لن يرجع إلى مصر ثانية قط . وتصادف أن صدقت النبوءة . وقاد جيشه عبر صحراء سيناء إلى العقبة ، وسار شمالا بلا صعوبة شرق الجيش الفرنجى تماما، يدمر المحاصيل فى طريقه . ولما وصل دمشق وجد أن فاروق شاه قد أغار فعلا على الجليل وخرب القرى الواقعة على منحدرات جبل الطور ، واستولى على عشرين ألف رأس من الماشية والى أسير ، وفى طريق العودة هاجم فاروق قلعة حبيس جلدك المقوسة فى تنوء خارج الصخور أعلى نهر اليرموك عبر الأردن ؛ وحفر خندقا إليها عبر الصخور جعلها شئت رحمته ، وعلى الفور استسلم المسيحيون السريان العازفين عن التضحية بأنفسهم من أجل الفرنج . وأمضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع فى دمشق، ثم رحل مع فاروق شاه وجيش ضخم يوم ١١ يولية وعبر إلى داخل فلسطين حول جنوب بحر الجليل . وأدرك الملك حماقة استراتيجيته السابقة فعاد من منطقة الأردن وسار أعلى الضفة الغربية للنهر ، وقد أحضر معه البطريق والصليب الحقيقى كى ثقل البركات على فرق الجيش . والتقى الجيشان أسفل قلعة فرسان المستشفى المسماه 'كوكب الهوى' (بلقوار) . وفى وطيس المعركة صمد الفرنج لهجمات صلاح الدين ، لكن هجماتهم المفسدة لم تفلح فى كسر صفوف المسلمين . وفى آخر النهار انسحب كل جانب زاعما احراز النصر^(٥٤).

كانت المعركة بمثابة صدمة لصلاح الدين باعتباره الغازى ، ولكنها مجرد صدمة مؤقتة . وفى أغسطس عبر الحدود مرة اخرى فى مسيرة خاطفة خلال جبال بيروت ، وفى ذات الوقت ظهر اسطوله على الساحل ، وكان قد استدعاه من مصر بالحماس الزاجل بين القاهرة ودمشق . لكن بيروت كانت محصنة جيدا . وما أن سمع بلدوين بالأنباء حتى دفع بجيشه إلى الشمال من الجليل ، ولم يتوقف الا ليجمع سفنه الراسية فى مينائى عكا وصور . ولم يفلح هجوم صلاح الدين على المدينة قبل وصول الفرنج ،

(٥٤) William of Tyre, xxii, 16-14 pp. 1087-95; Abu Shama, pp. 218-22; Ibn al-Athir, pp. 651-3. وبيت الشعر الذى قيل لصلاح الدين أثناء توديعه قبل مغادرته القاهرة هو :

تفتح من شميم عَرَار نجد .: فما بعد العشية من عَرَار

-(Enjoy the perfume of the ox-eyes of Nejd. After tonight there will be no more ox eyes.)

فانسحب^(٥٥) . لقد حان الوقت لكي ينصرف إلى أعمال أخرى أكثر إلحاحا .

١١٨١ م : وفاة الصالح اسماعيل

في ٢٩ يولية ١١٨٠م مات سيف الدين صاحب الموصل تاركا بمجرد أطفال صغار. ودعا أمراء الموصل أخاه عز الدين ليخلفه . وبعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، في ٤ ديسمبر ١١٨١م ، مات الصالح صاحب حلب فجأة في نوبة مغص قولوني ، رأى فيه الجميع السم . وكان شابا في الثامنة عشرة من عمره ، نبيها ، ذكيا ، حريبا بأن يصبح حاكما عظيما . وبينما كان على فراش الموت توسل إلى أمرائه أن يستخلفوا ابن عمه صاحب الموصل كي تتحد أراضي العائلة ضد صلاح الدين . ووصل عز الدين إلى حلب في نهاية العام ولقى ترحيبا حماسيا حارا . وجاءه رسل أمير حماه يعرضون عليه ولائهم ؛ غير أن هدنة الستين مع صلاح الدين لم تنته بعد ، ورفض عز الدين عرضهم ، بدافع التواخي أكثر من كونه بوازع الشرف ، وكان لديه الكثير مما يقلقه ؛ إذ أن أخاه عماد الدين صاحب سنجار ادعى في فبراير ١١٨٢م أن له نصيبا في الميراث ، وراح يحيك المكائد مع قائد جيش حلب ، قوقبوري . وعاد عز الدين إلى الموصل في مايو بعد أن أعطاه عماد الدين سنجار بدلا من حلب ، وكوفي قوقبوري بامارة حارم حيث راح يتآمر مع حيرانه الأراتقة ، أمير حصن كيفا وأمير البيرة ، ضد أمراء حلب والموصل وقطب الدين الأرتقي صاحب ماردين ، ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساعدتهم . وانتهت في سبتمبر الهدنة المعقودة فيما بين الأمراء المسلمين ؛ وفي يوم انتهائها عبر صلاح الدين الحدود ، وبعد هجوم مضلل على حلب ، عبر الفرات عند البيرة ، وسقطت امامه مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى ، الرها ، وسروج ، ونصيبين . فواصل زحفه على الموصل وبدأ حصارها يوم ١٠ نوفمبر . ومرة أخرى شعر بالاحباط إذ وجد أن التحصينات من القوة بحيث لا تنال منها الرجمات . وشعر سيده الروحي - الخليفة الناصر - بالصدمة من هذه الحرب الدائرة بين المسلمين ، فحاول التفاوض على السلام . وأخذ حاكم شاة أرمن السلجوقي وأمير ماردين يعدان العدة لإرسال قوات لمساعدة الموصل ، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار التي استولى عليها بهجوم شامل بعد حصارها لمدة اسبوعين . وفي هذه المرة فقط لم يستطع كبح جنوده من نهب

William of Tyre, xxii, 18-17 pp. 1096-1101; Abu Shama, p. 223; Ibn al-Athir, pp. (٥٥) 653.

المدينة، لكنه اطلق واليها وأرسله إلى المرسل معززا مكرما . وخرج عز الدين وحلفاؤه للملاقاة في مارددين ، ولكنه أرسل من يتقدمه عارضا الهدنة ؛ وعندما رد صلاح الدين بفظاظة أنه سيقابلهم في ميدان المعركة ، تفرقوا هارين إلى بلادهم . ولم يطاردهم ، وإنما اتجه شمالا لإخضاع ديار بكر ، وهي أغنى وأقوى قلاع الجزيرة ، وبها المكتبة الأرفع شأنًا في الاسلام . وأعطى المدينة لأمير حصن كيفا . وبعد أن أعاد تنظيم الجزيرة ، بأن عهد بكل مدينة إلى من يثق فيه من الأمراء كإقطاعية ، ظهر مرة يوم ٢١ مايو أمام حلب^(٥٦).

١١٨٣م : صلاح الدين يمتلك حلب

عندما انطلق صلاح الدين للهجوم على عماد الدين وعز الدين ، استنجد كلاهما بالفرنجة . وذهبت اليهم سفارة تعدهم بإعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، مع التنازل عن بانياس وحبيس قلداك ، والإفراج عن الكثير من الأسرى المسيحيين ممن قد يتضح وجودهم لدى صلاح الدين ، وذلك في حالة قيامهم بهجوم مضلل على دمشق . وكانت لحظة زاخرة بالآمال ؛ فبعد أيام قلائل من غزو صلاح الدين للجزيرة مات فجأة ابن اخيه فاروق شاه والى دمشق . وعلى الأثر أغار الملك بلدوين - ومعه البطريق والسليبي الحقيقي - على أراضي حوران ، ونهب عزيز ووصل إلى بصرى ، بينما استعاد ريموند كونت طرابلس حبيس قلداك . وفي وقت مبكر من ديسمبر ١١٨٢م ، قاد ريموند مجموعة مغيرة من الفرسان توغلت مرة أخرى في بصرى ، وبعد أيام قلائل انطلق الجيش الملكي يريد دمشق ، وضرب معسكره في ضاحية الدارية التي كان بها مسجد شهير ، أبقى عليه بلدوين بعد أن استقبل وفدا من مسيحيي دمشق يحذرونه من المساس به وإلا سينتقم المسلمون بالهجوم على الكنائس . ولم يحاول الملك مهاجمة المدينة ذاتها ، وسرعان ما انسحب محملا بالغنائم لتمضية عيد الميلاد في صور . وخطط لحملة أخرى في الربيع ، غير أنه في وقت مبكر من العام الجديد سقط مريضا بالحمى في الناصرة وهو في حالة ميؤوس منها . وأمضى بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، وتسبب مرضه في أن أصبح جيشه في حالة سكون^(٥٧) . وأبعد إلى الشمال كان بوهمند الثالث

Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.79-86; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 159-60; Ibn al-^(٥٦) Athir, pp. 656-7.

.William of Tyre, xxii 22-20, 25, pp. 1102-16; Ibn al-Arhir, pp. 155-9. ^(٥٧)

فاقد الحيلة بلا قوة تمكنه من الإقدام على أى عمل ضد صلاح الدين . وأرسل إلى معسكره امام حلب وابرم معاهدة هدنة لأربع سنوات ، مكّنته من اصلاح دفاعات عاصمته^(٥٨) .

وفى حلب ، لم يبذل عماد الدين جهدا يذكر للتصدي لصلاح الدين ؛ إذ لم يكن يحظى بشعبية هناك ، وقبل بسرور ما عرضه عليه صلاح الدين من منحه بلده القديم الذى يضم سنجار بالاضافة إلى نصيبين وسروج والركة . وفى ١٢ يونية ١١٨٣م تملك صلاح الدين حلب ، وبعد خمسة أيام رحل عماد الدين إلى سنجار تحيطه مظاهر التشريف ، ولكن الجماهير سخرت من تخليه على هذا النحو المستهتر . وفى ١٨ يونية دخل صلاح الدين المدينة دخوله الرسمي واتجه بفرسه إلى القلعة^(٥٩) .

وفى ٢٤ أغسطس عماد السلطان إلى دمشق التى تقرر أن تكون عاصمته^(٦٠) . والآن امتدت امبراطوريته من سيراكيكا^(٦١) إلى نهر دجلة . وطوال قرنين مضيا ، لم يكن هناك أمير مسلم بهذه القوة . كان لديه ثراء مصر حائطا يحبى ظهره ، والمدينتان العظيمتان دمشق وحلب تخضعان لحكومته المباشرة ، وحرلما اقطاعيات يضع ثقته فى حكامها تمتد شمالا وشرقا حتى أسوار الموصل ، وكان الخليفة فى بغداد يسانده ؛ وعز الدين فى الموصل يخشى بأسه ؛ والسلطان السلجوقي فى الأناضول يسعى إلى التقرب منه للفوز بصدافته ، وأمراء الشرق السلاجقة بلا قوة لبعارضوه . ولم يبق الآن سوى قمع الدخلاء الأجانب الذين كان امتلاكهم لفلسطين وساحل سوريا مهانة باقية للاسلام .

(٥٨) Ibn al-Athir, p. 662.

(٥٩) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 86-8; Ibn al-Athir, pp.662; Abu Shama, pp. 225-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 167; William of Tyre, xxii, 24, pp. 1113-14, ويتضح أن وليم الصورى فهم جيدا مغرى فتح صلاح الدين لحلب .

(٦٠) Beha ed-Din, P.P.T.S p. 89.

(٦١) (المترجم) Cyrenaica: التسمية القديمة لإقليم برقة الواقع شرق ليبيا حاليا.

الفصل الثاني:

قرنا حطين

قَرْنَا حَطَّين

"قربتْ نَهائِتُنَا . كُملتْ أَيامُنَا لَأَن نَهائِتُنَا قَد أَنتْ"

(مراثى إرميا ٤ : ١٨)

عندما نهض الملك بلدوين من فراش مرضه فى الناصرة ، بات جلياً أنه لم يعد قادراً على حكم البلاد . إذ أن الحمى فاقمت مما يعانيه من الجذام ، ففقد القدرة على استخدام ذراعيه وقدميه ، وقد بدأ الأربعة فى التآكل ؛ وكاد يفقد البصر . وقام على خدمته وحراسته أمه واخته سييلا والبطريق هيراكليوس ، وراحوا يحنونه على تسليم الوصاية لزوج سييلا ، جوى (أوف لوسينان) . وتقرر أن يسيطر جوى سيطرة كاملة على المملكة ، فيما عدا مدينة القدس التى احتفظ بها الملك لنفسه ، بإيراداتها البالغة عشرة آلاف بيزانت . وقبل بارونات المملكة قرار الملك على مضض^(١).

(١) .William of Tyre, xxii, 25, pp. 1116-17.

١١٨٢ م : حملة رينالد فى البحر الأحمر

ولم يكن رينالد (أوف شاتيلون) حاضرا تلك المداولات . وعندما علم برحيل صلاح الدين إلى الشمال فى خريف عام ١١٨٢ م ، بدأ فى تنفيذ مشروع كثيرا ما كان يداعب خياله ؛ وهو إطلاق أسطول صغير إلى البحر الأحمر للإغارة على قوافل البحر الثرية الذاهبة إلى مكة ، ومهاجمة حتى مدينة الاسلام المقدسة ذاتها . وعندما اقتربت السنة من نهايتها سار جنوبا إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، وقد أحضر معه السفن التى بناها من أخشاب غابات مؤاب وجربها فى مياه البحر الميت . واستولى على ميناء ايلات الذى كان بحوزة المسلمين منذ عام ١١٧٠ م ، لكن القلعة المشيدة على الجزيرة القريبة التى أطلق عليها مؤرخو الفرنج "جزيرة جراى Ile de Graye" ظلت صامدة ؛ وبقي رينالد مع سفينتين من سفنه لمحاصرتها ، وأبحر باقى أسطوله بعيدا عن الجزيرة فى مرج وطرب ، يرشده القراصنة المحليون . وأبحروا جنوبا على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، يغترون على المدن الساحلية الصغيرة التى كانوا يمسرون بها ، وأخيرا هاجموا عيذاب ، الميناء النوبى العظيم المواجه لمكة . وهناك استولوا على سفن تجارية غنية محملة بالبضائع من عدن ومن الهند ؛ وهاجمت فرقة ارضية قافلة ضخمة بلا حراسة جاءت عبر الصحراء من وادى النيل . ومن عيذاب عبر القراصنة إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ وحرقوا السفن الراسية فى مينائى المدينة ، الحوراء وبنبع ، وتوغلوا حتى الرغيب ، وهو أحد موانئ مكة ذاتها ، وعلى مقربة أغرقوا باخرة حجاج كانت قاصدة ميناء جدة . وارتاع العالم الإسلامى كله . بل أن أمراء حلب والموصل ، الذين طلبوا مساعدة الفرنج ، شعروا بالخزى لإقدام حلفائهم على هذا الانتهاك لحرمة العقيدة . وتحرك أخو صلاح الدين ، الملك العادل وإلى مصر فأرسل أمير البحار المصرى حسام الدين لؤلؤ بأسطول يحمل ملاحين مغاربة من شمال افريقية لمطاردة الفرنج . وبدأ لؤلؤ بتخليص جزيرة جراى واستعاد ميناء ايلات الذى كان رينالد نفسه قد انسحب منه ؛ ثم إنه لحق بأسطول القراصنة خارج ميناء الحوراء فدمره وأسر جميع الرجال الذين كانوا على ظهره تقريبا . وأرسل عددا قليلا منهم إلى مكة لكى تجرى عليهم شعيرة الأضحية فى مكان الذبح فى منى أثناء الحج التالى . وأخذ الباقون إلى القاهرة حيث ضربت

خريطة رقم (٦) الجليل

أعناقهم . وأقسم صلاح الدين أغلظ الايمان بالانتقام من رينالد لمحاولته المشينة^(٢).

وغادر صلاح الدين دمشق يوم ١٧ سبتمبر ١١٨٣م بجيش ضخم لفتح فلسطين . وفى التاسع والعشرين عبر الأردن ، جنوب بحر الجليل تماما ودخل ييسان التى هرب أهلها حيث الأمان وراء أسوار طبرية . ولما سمع جوى (أوف لوسينان) بحجيشه استدعى كامل قوة المملكة وقد تعززت بزائرين صليبيين اثنين من الأثرياء ، جودفرى الثالث ، دوق برابانس ، ووالف الأكتاني (أوف موليون) ورجاهما . وكان مع جوى ريموند أمير طرابلس ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ورينالد (أوف شاتيلون) ، والأخوان إيلين ، رينالد أمير صيدا ووالتر أمير قيسارية ؛ وانضم اليهم همفرى الرابع الصغير أمير تبين مع قوات زوج أمه من منطقة الأردن ، لكن المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل جلبوع ، حيث قتل أغلب رجاله . ثم أرسل صلاح الدين فصائل لاتنزاع حصون الجوار وتدميرها، بينما راح آخرون يخربون الدير اليونانى على جبل الطور ، لكنهم أخفقوا فى اختراق الأسوار المنيعة للمنشأة اللاتينية على قمة التل . وعسكر هو نفسه مع جيشه الرئيسى بجوار عيون التبانة فى موقع مدينة بزرعيل القديمة.

١١٨٣م : جوى يتشاجر مع الملك

تجمع الفرنج يوم أول ديسمبر فى صفورية وساروا إلى داخل سهل بزرعيل . وهاجم المسلمون فى الجبال حرس المقدمة ، الذى كان يقوده الكونستابل أمالريك ، ولم ينقله منهم سوى وصول الأخوين إيلين مع جنودهما فى الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند عيون جالوت فى مواجهة صلاح الدين الذى أفسح جناحيه بحيث كاد أن يطوقهم . وظل الجيشان ساكنين لخمسة ايام ، ولم يكن من اليسير أن تصل الامدادات إلى المسيحيين ، وبعد يوم أو يومين اشتكى المرتزقة الإيطاليون من الجوع ، وجاء اكتشاف الأسماك فى عيون جالوت فى وقته المناسب لإنقاذ الجيش من التضور جوعاً . وكان أغلب الجنود ، بمن فيهم الفرسان الفرنسيين ورينالد الذى استهان

(٢) Abu Shama, pp.231-5; Ibn al-Athir, p.658; Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 550-1. ولم يذكر احد من المؤرخين الفرنج تلك الغارة سوى -Ernoul pp.69-70، يتحدث عنها على انها حملة علمية . وشاهد ابن جبير Ibn Jubayr (طبعة 49 Wright) الأسرى الفرنج فى القاهرة .

بالمسلمين ، يرغبون في الهجوم على المسلمين ؛ ولكن جوى تردد وارْتَفَحَ ، وأصر ريموند وأميرا إيبيلين على أن استشارة هذه الأعداد الغفيرة فيه الموت المحقق ، ولا بد للجيش من أن يبقى في حالة الدفاع ، وكانوا على حق . وحاول صلاح الدين عدة مرات أن يتصيدهم للخروج ، ولما فشل في ذلك هدم معسكره وعاد يوم ٨ أكتوبر عبر الأردن .

صدم تصرف جوى كلا من الجنود الذين عرفوا فيه جن الخوف ، والفرسان الذين يعلمون عنه صفة الضعف . ولدى عودته إلى القدس تشاجر مع الملك . ذلك أن بلدوين شعر أن هواء صور يناسبه على نحو أفضل من مرتفعات القدس ذات الرياح . فسأل زوج اخته أن يتبادلا المدينتين ، لكن جوى تلقى الطلب بقلّة أدب ، فتملكت بلدوين نوبة غضب أثارت معها دفعة من الحيوية ، فاستدعى أهم أتباعه ، وأخذوا بنصيحتهم خلّع جوى من الوصاية ، وبدلاً من ذلك أعلن يوم ٢٣ مارس ١١٨٣م عن أن ورثته هو بلدوين ابن اخته سيلاً من زواجها الأول ، وهو طفل في السادسة ، وحرّض أخته على السعي لإبطال زواجها . وفي ذات الوقت ، وبرغم عدم قدرته على الحركة دون مساعدة ، وبرغم عجزه عن التوقيع باسمه ، تولّى الحكومة بنفسه . وإزاء ذلك عاد جوى إلى كونتيته في عسقلان وبافا ، ونفض عن نفسه ولاءه للتاج . فاستولى بلدوين على يافا ووضعها تحت السيطرة المباشرة للتاج ، لكن جوى تحداه في عسقلان . وبلا طائل تشفع البطريق هيراكليوس والسيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى من أجل المتمرّد . وفقد الملك صبره معهم ، فطردهم من المحكمة العليا ؛ وكان قد استدعاهم ليأمرهم للتبشير بالرحيل إلى الغرب بحملة صليبية ، ولكن شهور عديدة انقضت قبل أن يرضوا بالرحيل^(٣).

١١٨٣م : الزواج في قلعة الكرك

كان مجلس البارونات الذي نصّح الملك بخلع جوى يتألف من بوهمند أمير انطاكية، وريموند أمير طرابلس ، ولورد قيصرية ، والأخوين إيبيلين . ولم يكن لورد منطقة الأردن حاضراً . ولقد حان الوقت كي يتم الزواج بين الاميرة ايزابيلا، وهي الآن في الحادية عشرة ، وهمفري أمير تبين الذي أصبح في السابعة عشرة من عمره .

(٣) William of Tyre, xxii, 29, pp. 1127-8، يقول إن بلدوين الخامس توجّ في هذه المناسبة .

وكان رينالد قد عقد العزم على اتمام حفل الزواج بكل مظاهر الفخامة التى يستطيعها فى قلعته فى الكرك التى سيرثها العريس . وخلال شهر نوفمبر بدأ الضيوف يتوافدون على القلعة ؛ وكان البعض منهم ، مثل أم العروس - الملكة ماريا كومينا - من الذين يكونون عداوة شخصية لرينالد ، لكنهم جاعوا فى محاولة لرأب الصدع بين الفرق المتشاحنة . وجاء مع الضيوف مسامرون وراقصون ومشعوذون وموسيقيون من سائر أنحاء الشرق المسيحى . وفجأة توقفت الاحتفالات لوصول انباء مرعبة بأن صلاح الدين يقترب بجيشه .

كان تدمير قلعة الكرك واميرها الكافر من بين الآمال المخلفة لطموحات صلاح الدين . فطالما يسيطر رينالد على هذه القلعة العظيمة يستطيع اعتراض أى محاولة للمرور بين سوريا ومصر ؛ وأظهرت التجربة أن المعاهدات لا تقيده . ولذا عسكر صلاح الدين يوم ٢٠ نوفمبر امام الأسوار بجيشه الذى وصلته تعزيزات من مصر . ولأذ المزارعون والرعاة السريان المسيحيين مع قطعانهم بالمدينة حيث المأمن ، ولجأ الكثير منهم إلى فناء القلعة . وعلى الفور هاجم صلاح الدين أسفل المدينة وشق له طريقا إلى داخلها . ولم يستطع رينالد أن يفعل شيئا سوى أن يهرب إلى القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه الذى راح يدافع وحيدا عن الجسر الذى يعلو الخندق بين المدينة والقلعة إلى أن تهدم خلفه . وفى استعراض رائع لبيان الثقة بالنفس تواصلت الاحتفالات فى القلعة بينما كانت الصخور تندفع لتدق اسوارها . واستمر الغناء والرقص بالداخل ، وأعدت اللبى ستيفانى ، ام العريس ، بنفسها أطباقا من حفل العرس أرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين الذى سأل فى المقابل عن البرج الذى يسكنه العروسان ، وأصدر أوامره بعدم قصفه بآلات حصاره ، ولكن بخلاف ذلك لم تتراخى ضرباته . وواصلت منجنيقاته التسعة الضخمة العمل بلا انقطاع ، وأوشك رجاله على سد الخندق .

وكانت الرسل قد سارعت إلى القدس تستنجد بالملك ، الذى استدعى الجيش الملكى ووضعه تحت أمرة الكونت ريموند ، لكنه أصر على مرافقة رجاله بنفسه على محفته . وأسرعوا جنوبا مرورا بأريحا ثم أعلى طريق جبل نيبو . ولم تحدث آلات حصار صلاح الدين سوى أثر طفيف فى أسوار القلعة القوية ، وباقتراب الجيش الملكى رفع صلاح الدين الحصار ورحل باتجاه دمشق يوم ٤ ديسمبر . وفى نشوة النصر حمل الملك إلى داخل الكرك ، وشرع ضيوف الزواج فى العودة إلى بلادهم^(٤) . ولم يكن للتجربة

(٤) الذى ذكر حفل الزواج هو Ernoul الذى ربما كان حاضرا الحفل لأنه كان تبع بلدوين . وهو يظن William of Tyre, xxi, 28-30, pp. 1124-7, 1129-30; Ernoul, pp. 102-6, (٤)

من أثر في إنهاء ما كانوا عليه من خلافات عانت منها العروس الصغيرة أكثر المعاناة؛ إذ أن حمايتها منعتها من رؤية أمها ، كطلب رينالد بلا شك ؛ وكانت أمها غارقة في حبها لكيد المكائد بين مختلف التحزبات نظرا لدمائها اليونانية ، ولذا كانت تعتبرها نصف خائنة ؛ ولم يكن أحد يعاملها معاملة طيبة سوى زوجها . أما همفري أمير تبين فكان شابا ذا جمال خارق وعلى جانب كبير من التعليم ، وميوله أنسب لأن يكون بنتا أكثر منه رجلا . وكان رقيق الحاشية يعامل زوجته الطفلة معاملة حكيمة ، وكانت تحبه^(٥).

وفي الخريف التالي زحف صلاح الدين مرة أخرى على قلعة الكرك بجيش انضمت إليه كتائب مرسله من أتباعه الأراتقة . ومرة أخرى كانت التحصينات الهائلة فوق طاقتهم ؛ ولم يستطع تصيد المدافعين للخروج للقنال على المنحدرات أسفل المدينة ، ومرة أخرى انسحب إلى أراضيه عندما اقترب جيش من القدس ، تاركا مجرد فصيحة للإشارة على الجليل وتخريب البلاد جنوبا حتى نابلس . وعاد صلاح الدين نفسه إلى دمشق ، فهناك الكثير مما ينبغي إنجازه لإعادة تنظيم امبراطوريته . إن الوقت لم يكن تماما لإزالة المسيحيين^(٦).

وفي القدس كانت بدا الملك المجنوم المتاكلتان تمسكان بعنان الحكومة ، وجوى ما يزال يحتفظ بعسقلان رافضا دخول المسؤولين الملكيين إلى داخل المدينة ؛ وكان أصدقاؤه البطريق والسيدان الأعظمان في أوروبا يحاولون عبثا التأثير على الامبراطور فريدرىك والملك لويس والملك هنرى بما ينتظر مسيحي الشرق من أخطار . وكان عواهل الغرب يستقبلونهم بآيات الشرف البالغ ، ويناقشون معهم الخطط لحملة صليبية

أن صلاح الدين - في صباه - كان رهينة في قلعة كركك حيث كانت الليدى ستيغاني تلاعبه على ركبتيها. ولا يوجد مرجع آخر يذكر أسر صلاح الدين . وقد ولد صلاح الدين عام ١١٣٧ م ، وربما لم تكن ستيغاني قد ولدت قبل ١١٤٥ م - تزوجت زوجها الأول حوالي ١١٦٢/١١٦٣ م وكانت البنات يتزوجن صغار السن في فلسطين - فتكون القصة بعيدة الاحتمال ؛ Abu Shama, p. 248; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.91-2; Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. IX, pp. 13-14.

(٥) (أنظر أدناه ص ٥٠٨) . وأما التاريخ اللاحق لزوجاه فيرد في قصة الحملة الصليبية الثالثة . ويصف مولف *Itinerarium Regis Ricardi* (p.120) همفري على أنه 'Vir feminae quam viro' جمالته ويقول أنه كان يتحدث العربية بصورة جيدة . ويذكر تاريخ هرقل ١٥٢ (P.P.T.S. p.288) Beha ed-Din *Estoire d'Eracles*, II, p. 152 منع ايزابيلا من رؤية أمها.

(٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 95-8; Abu-Shama, pp. 249-56; letter of Baldwin IV to Heraclius, in Radulph of Diceto, II, pp. 27-8.

ضخمة ، لكنهم يسوقون الذرائع التى تحول بين اشتراكهم هم شخصيا فى الحملة الصليبية . وكان كل ما أتى به المبعوثون هو أن عددا ضئيلا من الفرسان أخذوا الصليب^(٧).

وفى خريف ١١٨٤م عاود جوى إثارة سخط الملك أخى زوجته . ذلك أنه منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان ، كان مسموحا لبدو المنطقة التحرك كما يحلو لهم لرعى قطعانهم لقاء إتاوة صغيرة يدفعونها للملك . والآن اغتاز جوى لعدم حصوله على الإتاوة وذهابها إلى الملك ، فانقض على الرعاة فى أحد الأيام وقتلهم واستولى على قطعانهم^(٨).

١١٨٥م : وصية الملك بلدوين الرابع

بات بلدوين الآن طريق الفراش لا يستطيع النهوض منه قط . وأدرك مدى النفوذ المميت الذى تمارسه أمه وأصدقائها ، فأرسل إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة ادارة الحكومة، وفى ذات الوقت أعد العدة لرحيله الأخير ، فأعلن عن وصيته قبل اجتماع للبارونات فى وقت مبكر من عام ١١٨٥م . فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ؛ ونزولا على رغبة المجلس الصريحة لا يتولى جوى الوصاية ، وانما يتولاها ريموند أمير طرابلس ، على أن يحتفظ ببيروت ثلثا لخدماته . بيد أن ريموند رفض تحمل الوصاية الشخصية للملك الصغير خشية أن يموت الصغير صغيرا - إذ بدت عليه رقة الهزال - وفى هذه الحالة تشير اليه اصابع الإتهام بأنه عمّل بموته . ونظرا لما كان عليه الصبى من صحة هزيلة ، يقسم البارونات ايضا بأنه فى حالة وفاة الصبى قبل بلوغه العاشرة ، يحتفظ ريموند بالوصاية إلى أن يصدر من الحكام الأربعة الكبار فى الغرب - البابا والامبراطور الغربى وملكى فرنسا وإنجلترا - قرار التحكيم فيما تطالب به الأميرتان سبيلا وإيزابيلا . وفى الوقت ذاته ، وفى محاولة أخيرة للتقريب بين الفرق المتشاحنة ، منحت الوصاية الشخصية على الصبى لخال أمه ، جوسلين (أوف كورتناى) ، الذى بدأ الآن يظهر صداقته الودودة لريموند^(٩).

(٧) عن هذه البعثة انظر 3- 32، pp. Radulph of Diceto، 1، p.338؛ Benedict of Peterborough، وقد استشار هنرى الثانى مجلسه الذى طلب منه عدم الذهاب فى حملة صليبية .

(٨) *Estoire d'Eracles*، II، p. 3.

(٩) *Estoire d'Eracles*، II، p.7، Ernoul، pp.115-19، يورد أكثر التواريخ اكتمالا. ويضع تاريخ تلك

وأقسم البارونات المؤتمرون كلهم على انفاذ رغبات الملك . وكان من بينهم البطريق هيراكليوس الذى عاد لتوه من الغرب ، مع السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، روجر (أوف ليه مولان) ؛ اما السيد الأعظم لفرسان المعبد ، أرنولد (أوف توروجا) فقد مات اثناء الرحلة . وبعد مناقشة عاصفة انتخب النظام خليفة له جيرار (أوف ريدفورت) ، العدو القديم لريموند . وأيد جيرار هو الآخر وصية الملك . وأخذ الطفل إلى كنيسة القبر المقدس - محمولا بين ذراعى باليان اسير ايبيلين - حيث توجه البطريق^(١٠).

وبعد أسابيع قليلة ، فى مارس ١١٨٥ م ، أراح الموت الملك بلدين الرابع من آلام مرضه الطويل الموجهة ولما يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . كان الوحيد من بين ملوك القدس أجمعين الأكثر تعاسة ، ولا محل للارتياح فى قدراته ، كما كانت شجاعته فائقة ؛ لكنه وهو على فراش مرضه كان فاقد الحيلة فى السيطرة على المكائد التى تحاك من حوله ، وغالبا جدا ما كان يرضخ لما كانت أمه الشريرة تمارسه عليه من نفوذ نكد ، ويرضخ كذلك لأخته الحمقاء . وعلى الأقل جنبته الأقدرا المهانة الأخيرة التى سوف تلحق بالمملكة^(١١).

الأحداث بعد حصار صلاح الدين الثانى لقلعة كيرك (سبتمبر ١١٨٤م) ، ويقول إن بلدين الرابع مات بعد ذلك مباشرة . غير أن وليم الصورى William of Tyre يذكر (انظر اعلاه ص ٤٤٠ ، n.1) تنويح بلدين الخامس فى التاريخ ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م . ونظرا الى أن وليم ربما مات قبل نهاية ١١٨٤م ، وكب صفحاته الأخيرة فى روما ، فمن الجائز أنه قد علم بقرار بلدين بتتويج ابن اخته منذ أن أخزي جوى عام ١١٨٣م ، لكن وليم أخطأ فى الظن بأن التتويج قد حدث . وأما الحقوق القانونية لسيلا وإيزابيلا فقد أثارت مشكلة ؛ إذ أن أماليك كان قد أصدر قاعدة assize فى عام ١١٧١م تسمح للأختين بالمشاركة فى الاقطاعيات سيرا على التقاليد الاقطاعية المعتادة فى اوروبا الغربية . ويعتقد Grandclaude, op.cit. p. 340 أنها تتعلق باستخلاف العرش . وربما ولدت الملكة ماريا آنذاك مباشرة بنتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الأطفال من الزواج الأول ، ذكورا وإناثا ، مُنحوا الأسبقية على الأطفال من الزواج الثانى . (انظر La Monte, Feudal Monarchy, p.36) ولكن هل هناك اسبقية لمسألة زواج آجنس الباطل على الزواج الامراطورى من ماريا؟ يتضح من أحداث عام ١١٨٦م أن رأى العام يساند مطالب سيلا (انظر ادناه ص ٤٤٧) . على ان الحالة غامضة بما فيه الكفاية بحيث تتطلب التفكير .

(١٠) . *Estoire d'Eracles*, II, pp.7-9; Ernoul, pp.114, 118.

(١١) - . *Ernoul*, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p.9. -Imad ed Din (Abu Shama) تقديره لذكرى بلدين الرابع .

١١٨٥ م : مرض صلاح الدين

بعدها دفنت جثة الملك في كنيسة القبر المقدس بمظاهر الأسى ، استدعى ريموند الوصى البارونات مرة أخرى ليسألهم عن السياسة التي يتعين عليه اتباعها . لقد خانتهم امطار الشتاء وأطلت الجاعة تنهدهم . وكان الصليبي الوحيد الذى جاء إلى الشرق هو المركز العجوز ولیم (أوف منوتفات) ، جد الملك الطفل ؛ فبعد أن اطمأن على أن كل شئ على مايرام فيما يتصل بمجيده ، استقر فى هدوء فى اقطاعية فى الجليل . وانطلق ابنه كورنارد - عم الملك - ليتبعه ، ولكنه توقف فى طريقه فى القسطنطينية حيث كان اخوه قد هلك قبل ذلك بسنوات قليلة . وهناك عرض مساعدته على من انتقم لرينيه ، الاميراطور ايزاك أنجيلوس ، الذى زوجه اخته . ونسى ابن اخيه وفلسطين . وكان واضحا لجميع البارونات المتجمعين فى القدس أن البلاد التى تتضور جوعا لا تستطيع أن تواجه حربا إلى أن تصل حملة صليبية جديدة ، فوافقوا على اقتراح ريموند بالسعى لدى صلاح الدين للموافقة على فترة هدنة تستمر أربع سنوات .

وكان صلاح الدين على استعداد للقبول ؛ إذ كانت هناك مشاجرة بين اقاربه فى مصر فى حاجة إلى تسوية ؛ وكان قد سمع أن عز الدين صاحب الموصل أصبح مشاكسا مرة أخرى . ووقعت المعاهدة وعادت إلى التجارة حيويتها بين الدويلات الفرنجية وجيرانها ، وتدفقت الحبوب من الشرق لتنفذ المسيحيين من الجاعة^(١٢) .

وفى ابريل ١١٨٥ م سار صلاح الدين باتجاه الشمال ، عابرا نهر الفرات عند البيرة فى الخامس عشر من الشهر . وهناك انضم اليه قوقبورى والى حران ومبعوثون من اتباع عز الدين ، واليا الجزيرة وإربيل ، وارسل عز الدين سفارات إلى الحكام السلاجقة فى قونية وشاه أرمن ، وأرسل الأخير بعض الجند لمساعدته ، وأرسل الأول رسالة تهديد لصلاح الدين ولكنه لم يُقدم على شئ . وفى يونيو كان صلاح الدين امام الموصل ، رافضا عروض عز الدين للسلام ، حتى عندما جاءته ام الأمير العجوز بنفسها لى تحاججه . ولكن الموصل كانت ما تزال قلعة هائلة ؛ وبدأ جنود صلاح الدين يمرضون من حرارة الصيف . وعندما مات فجأة سلطان برسامينيا السلجوقى ، سقمان الثانى ، زحف صلاح الدين شمالا للاستيلاء على المدن التابعة للسلطان ، دياربكر ومايافرقين ، ولكى يتيح لجنوده الراحة فى المناخ الأكثر برودة فى الأراضى المرتفعة . وهناك أصابه المرض هو نفسه وأجعه على فرسه وهو يكاد يختضر إلى قلعة

(١٢) Emoul, pp. 121-8; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 12-13; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 104-5.

صديقه قوقبورى فى حران . وأسرع اخوه العادل ، وهو الآن الى حلب ، باحضار أمهر أطباء الشرق، لكنهم لم يقدرُوا على شئ . ولما شعر بأن نهايته قد حانت ، ولعلمه بأن أقاربه يتآمرون على الميراث ، جعل امراءه يقسمون على الولاء لأبنائه . ثم بدأ يشفى دون توقع ، ولم يحل شهر يناير إلا وكان خطر المرض قد زال عنه . وفى نهاية فبراير استقبل سفارة من عز الدين ووافق على السلام . وفى ٣ مارس وقع السفراء على معاهدة أصبح عز الدين بموجبها تابعا لصلاح الدين وتم تثبيتته فيما لديه من املاك ؛ أما الأراضى الواقعة عبر دجلة إلى الجنوب من الموصل ، بما فيها إربيل وشيزر فتقرر أن يحكمها أمراء يعينهم صلاح الدين ويدينون له بالولاء المباشر . وكان وجودهم بمثابة الضمان لولاء عز الدين^(١٣) . ثم ذهب صلاح الدين نفسه إلى حمص ، حيث كان واليها ناصر الدين ، ابن شيركوه ، وصهر صلاح الدين ، قد تأمر على عرش سوريا أثناء مرض صلاح الدين ، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما عثر عليه ميتا فى فراشه يوم ٥ مارس بعد الاحتفال بعيد الأضحى . ومنع ابن الضحية ، شيركوه الثانى ، وكان صبيا فى الثانية عشرة من عمره ولاية حمص . وصادر صلاح الدين الكثير من أمواله ، لكن القسبى تلى بلباقة آيات من القرآن الكريم تنوعد من يأكل أموال اليتامى بعذاب شديد ، وبهذا استعدها . وفى إبريل عاد صلاح الدين إلى دمشق . الآن امتدت امراطوريته امتدادا مأمونا حتى تخوم فارس^(١٤) .

كان من شأن الهدنة بين المسيحيين والمسلمين أن جلبت معها الازدهار إلى فلسطين، فتجددت حركة التجارة بنشاط بين داخل البلاد ومينائى عكا وصور ، مما عاد بالمزايا على التجار فى كل من الديانتين . وإذا ما أمكن الحفاظ على السلام إلى أن تأتى حملة صليبية كبيرة من الغرب ، إذن قد يكون للمملكة مستقبل . لكن الأقدار كانت قاسية على المسيحيين مرة أخرى . ففى حوالى نهاية اغسطس ١١٨٦م مات الملك بلدوين الخامس فى عكا ولما يبلغ التاسعة من عمره^(١٥) .

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.98-103; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp.123-6; Abu Shama, p.288; *Bustan*, p.581.

(١٤) Abu'l Feda, p.55. Lane Poole, *Saladin*, pp.194-5
أموال اليتامى ظلما إما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا"؛ Beha ed-Din, *P.P.T.S* PP 103-4.

(١٥) Ernoul, p. 129; *Estoire d'Eracles*, II, p. 25.

١١٨٦ م : الإعلان عن سبيلا ملكة

كان الوصى ريموند والقهرمان جوسلين حاضرين إلى جانب فراش الموت . وأعرب جوسلين عن رغبته فى التعاون مع ريموند ، وحشه على الذهاب إلى طبرية لدعوة بارونات المملكة لمقابلته هناك حيث المأمّن من مؤامرات البطريق ، كى يستمر تنفيذ شروط وصية بلدوين الرابع ؛ وسوف ينقل هو نفسه الجثة الصغيرة إلى القدس لدفنها هناك . ووقع ريموند فى المصيدة وسافر بحسن نية . وما أن رحل حتى أرسل جوسلين من يثق بهم من الجنود لاحتلال صور وبيروت ، وبقي هو نفسه فى عكا حيث أعلن عن سبيلا ملكة ، وبعث بالجثة الملكية إلى القدس فى رعاية فرسان المعبد . واستدعى رسله سبيلا وجوى من عسقلان لحضور الجنائز ؛ وأسرع رينالد من الكرك للانضمام اليهما .

واكتشف ريموند أنه اتخذ ، فهبط إلى نابلس ، إلى قلعة باليان امير ابيلين ، واستدعى المحكمة العليا للبارونات بصفته الوصى الشرعى . وسارع كل مناصريه للانضمام اليه ؛ فكان مع باليان وزوجته الملكة ماريا وابنتها ايزابيلا مع همفرى امير تبين ، وبلدوين امير الرملة ، وولتر امير قيسارية ، ورينالد امير صيدا ، وجميع كبار مستأجرى الأرض فى المملكة ، باستثناء رينالد (أوف شاتيلون) . وهناك تلقوا دعوة من سبيلا لحضور حفل تتويجها . فكان ردهم أن أرسلوا راهبين بندكتيين كمبعوثين إلى القدس لتذكير المتأمرين بقسمهم للملك بلدوين الرابع ، ولمنع اتخاذ أى اجراء إلى أن تعقد المحكمة مداولاتها .

لكن القدس والموانئ البحرية تحت سيطرة سبيلا . وكان إلى جانبها جنود القهرمان جوسلين والكونستابل أمالريك - وهو اخو جوى - وقد أتى رينالد بجنوده من منطقة الأردن . وأكد لها البطريق هيراكليوس - وهو عشيق امها القديم - مساندة المؤسسة الكنسية . وأبدى السيد الأعظم لفرسان المعبد ، جيرارد (أوف ريدفورت) استعداداه لأن يفعل أى شئ نكاية فى عدوه القديم ريموند . ولم يكن فى القدس منبقى على اخلاصه للقسم سوى السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان جمهور القدس يحمل الكثير من التعاطف مع سبيلا ؛ إذ كانت تمثل الحق الوراثى ، ورغم أن العرش كان ما يزال بالانتخاب ، فليس من اليسير تجاهل المطالبة بالوراثة خاصة وأن حقوقها كانت مؤكدة وقت طلاق امها ، وكان أخرها ملكا وكذلك ابنها . ونقطة الضعف الوحيدة لديها أن زوجها كان مكروها فى موضع الإزدراء .

أغلق البطريق وفرسان المعبد بوابات القدس ووضعوا الحراس لمنع أى هجوم يشنه

البارونات من نابلس ، ثم أعدوا العدة للتتويج . وكانت الشارة الملكية محفظة في خزانة لها ثلاثة أقفال يحتفظ بمفاتيحها البطريق والسيدان الأعظمان للنظامين العسكريين ، مع كل واحد منهم مفتاح . ورفض روجر السيد الأعظم لفرسان المستشفى تسليم مفتاحه لما كان يعتبره متعارضا مع القسم الذى أقسمه ، وفى نهاية الأمر ، وفى لفظة منه تدل على الغثيان ، ألقى بمفتاحه من النافذة . ورفض أن يشترك هو أو أى فارس من فرسانه فى حفل التتويج ، الذى أقيم حالما كان كل شئ جاهزا . ونظرا لانعدام شعبية جوى ، توج البطريق سيلا فقط ، ولكنه وضع تاجا ثانيا إلى جانبها . وبعد أن وضع هيراكليس التاج على رأسها ، دعاها لأن تستخدم التاج الثانى لتتويج الرجل الذى تظنه جديرا بحكم الملكة . فأشارت إلى جوى كى يقترب منها وينحنى أمامها ووضعت التاج على رأسه . ثم إن أفراد الصحبة الممتعة أدوا فروض الولاء لمليكتهم ومليكتهم الجديدين . وبينما كان جيرارد (أوف ريدفورت) يخطو خارجا ، صاح بصوت مرتفع قائلا إن هذا التاج ما هو إلا انتقام من الزواج الذى تم فى البطرون.

وإزاء حقيقة هذا التتويج ، لم تستطع المحكمة العليا فى نابلس أن تفعل شيئا . وفى الاجتماع نهض بلدوين أمير ايبيلين قائلا إنه عن نفسه لن يمكث فى بلد يحكمه مثل هذا الملك ، ونصح البارونات كلهم بأن يخذوا حذوه ؛ لكن ريموند رد قائلا إنهم لم يفقدوا كل شئ بعد ، وقال إن الأميرة ايزابيلا وزوجها همفري أمير تبين فى جانبهم ، فليتوجها وليذهبوا إلى القدس ؛ فلا يستطيع أندادهم الصمود أمام الجيوش المتحدة للبارونات جميعا ، فيما عدا رينالد (أوف شاتيلون) وتعاطف فرسان المستشفى ، ليس إلا . وأضاف ريموند أنه طالما كان الوصي فإنه يضمن احترام صلاح الدين للهدنة . فوافقه البارونات وأقسموا على نصرته حتى وإن كان ذلك يعنى الحرب الأهلية . على أنهم لم يدخلوا فى حسابهم واحدا من أهم الفاعلين من بينهم ؛ ذلك أن همفري أصابه الرعب من المصير الذى ينتظره ، فهو لا يرغب فى أن يكون ملكا ؛ فتسلل من نابلس فى الحال قاصدا القدس حيث طلب مقابلة سيلا . فرفضته بازدرأ أول الأمر ، لكنه عندما وقف مرتبكا أمامها ، يهرش رأسه ، لانت له ودعته إلى أن يفرغ قصته . وأصغت إليه

فى حنان ثم أخذته بنفسها لمقابلة جوى ، الذى تلقى منه الولاة^(١٦).

١١٨٦ م : أول مجلس للملك جوى

تسبب فرار همفرى فى هزيمة البارونات ، وأغصاهم ريموند من إيمانهم ، وذهبوا الواحد تلو الآخر إلى القدس لإعلان خضوعهم لجوى . حتى باليان أمير إيبيلين وأكثرهم احتراماً جميعاً ، رأى أنه لا شئ يمكن عمله . لكن أخاه بلدوين أعاد ماقدره بأنه يفضل الرحيل عن المملكة على أن يقبل جوى ملكاً له ؛ وانسحب ريموند أمير طرابلس إلى أراضي زوجته فى الجليل ، مقسماً على أنه هو الآخر لن يقدم ولاءه للملك الجديد . لقد كان حرياً أن يقبل إيزابيلا قبول الولاة كمملكة ، غير أن ما أبداه همفرى من حبن أقتنه بأنه هو نفسه المرشح الوحيد الجدير بالعرش^(١٧).

وسرعان ما عقد الملك جوى مجلس بارونات الأول فى عكا . ولم يظهر ريموند ، وأعلن جوى أن بيروت التى كانت تحت إشراف ريموند باعتباره وصياً قد انتزعت منه ، وأرسل من يطلب منه تقديم حسابات الأموال العامة التى أنفقها أثناء وصايته . أما بلدوين أمير إيبيلين ، الذى كان حاضراً ، فقد استدعاه رينالد (أوف شاتيلون) الذى كان واقفاً بجانب الملك لكى يقدم ولاءه للملك . وبالكاد حيا الملك تحية رسمية وقال له إنه وهب أراضيهِ فى الرملة لابنه توماس الذى سوف يقدم ولاءه عندما يبلغ سن الرشد ، وأنه هو نفسه لن يفعل ذلك قط . وغادر المملكة بعد أيام قلائل ، والتحق بالخدمة لدى يوهنند أمير انطاكية الذى رحب به بسرور ومنحه أقطاعية أكبر من التى تركها ،

(١٦) Ernoul, pp.129-36، اكمل الروايات وأكثرها تصوراً؛ *Estoire d'Eracles*, II, pp.25-31؛ Radulph of Diceto, II, p.47; Arnold of Lübeck, pp. 116-17. مؤرخة) يحددان تاريخ التتويج فى سبتمبر، ويحدده Ralph فى أغسطس، وArnoul فى ٢٠ يولية. والوثيقة الأولى لـ جوى، مؤرخة فى أكتوبر، Rohricht, *Regesta*, p.873.

(١٧) من الواضح أن ريموند اعتبر نفسه مرشحاً للعرش . ويذكر ابن جبير شائعات عن طموحاته فى وقت مبكر يرجع إلى ١١٨٣ م (Ibn Jubayr, p.304). ويقتبس أبو شامة (ص ٢٥٧-٨) من تقرير عماد الدين أنه كان على استعداد للتحويل إلى الإسلام لتحقيق طموحه ، ويقول ابن الأثير (ص ٦٧٤) إنه كان يعول على مساعدة صلاح الدين . ويرد فى (pp.51-2) *Historia Regni Hierosolymitani* المتأخرة، أنه طالب بالعرش لأن أمه (تسمى هنا Dolcis) ولدت بعد تتويج والده ، بينما ولدت مليسند قبل التتويج . ولأن صغرى بنات بلدوين الثانى ، الديارة Joveta، هى الوحيدة التى ولدت فى الكاردينالية ، فلم يكن يستطيع استخدام هذه الحجة . وربما أدلى فى نابلس بحجة مماثلة لكى يبرر للبارونات اختيار إيزابيلا وليس سيلا ، والمؤرخ خلط القصة .

وخلق به هناك لورودات أقل ، إذ أن بوهمند لم يخف تعاطفه مع ريموند وحزبه^(١٨).

وبينما كانت المملكة تتمزق هكذا إلى شيع مريرة من بعضها البعض، كانت الهدنة مع العرب تتزايد تماسكا وصمودا . وكان باستطاعة جوى راب الصدع ، لكنه كان يفتقر إلى صديقه رينالد (أوف شاتيلون). وبفضل الهدنة عادت القوافل الضخمة بين دمشق ومصر إلى سابق عهدها دوغا عائق فى الأراضى الفرنجية . وفى نهاية عام ١١٨٦م ارتحلت قافلة هائلة من القاهرة ومعها فرقة صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من البدو المغيرين ؛ وبينما كانت تعبر مواب انقض عليها رينالد فجأة ، فقتل الجنود وأخذ التحار وعائلاتهم بكل ممتلكاتهم معه إلى قلعة الكرك ؛ وكانت الغنيمة أكبر من كل ما سبق أن سلبه فى حياته . وسرعان ما وصلت صلاح الدين انباء العدوان ؛ واحتراما منه للمعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب منه اطلاق سراح السجناء وتعويضهم عن خسائرهم . ورفض رينالد استقبال المبعوثين ، فذهبوا إلى القدس شاكين للملك جوى الذى أنصت اليهم بعين العطف وأمر رينالد بالانصياع . غير أن رينالد ، الذى يعلم أن جوى مدين له بالمساعدة فى الوصول إلى العرش والمحافظة عليه ، لم يعبا بأوامره ؛ ولم يستطع جوى، أو لم يشأ ، أن يفرض عليه الطاعة^(١٩).

١١٨٧م : خيانة ريموند

ومع انتهاك الهدنة على تلك الصورة الوقحة لم يكن هناك بد من الحرب التى لا يستطيع بلد منقسم على امره مواجهتها . وسارع بوهمند امير انطاكية إلى تجديد معاهدته مع صلاح الدين^(٢٠) . وعقد ريموند امير طرابلس معاهدة هدنة لبلده ووسعها بحيث تشمل إمارة زوجته فى الجليل ، حتى وإن كان السيد الأعلى للمملكة فى حالة حرب مع المسلمين . وفى ذات الوقت ضمن تعاطف صلاح الدين الذى وعده بمساندته فى مسعاه لأن يصبح ملكا للفرنج . وآيا ما كانت تبدو عليه سياسة ريموند من الحكمة فقد كانت خيانة بلا ريب . وبتشجيع من حيرار السيد الأعظم لفرسان المعبد ،

(١٨) Ernoult, pp. 137-9; *Estoire d'Eracles*, II, p. 33, *Les Gestes des Chiprois* (p. 659) جوى أو شك أن يضرب بلدين لولا عراقة مولده .

(١٩) *Estoire d'Eracles*, II, p. 34. يقول إن أخت صلاح الدين أسرت فى القافلة . والواقع أنها كانت عائدة من مكة مع قافلة تالية (انظر أدناه ص ٥١٢) ؛ Abu Shama, pp. 259-II .

(٢٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 109.

استدعى جوى أتباعه المخلصين وسار شمالا إلى الناصرة لإخضاع الجليل قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم . على أن تدخل باليان أمير إيبيلين هو فقط الذى جنب الفرنج الحرب الأهلية ؛ ذلك أنه عندما وصل إلى المعسكر سأل الملك بفظاظة : ماذا تفعل ؟ وعندما رد جوى بأنه سيحاصر طبرية ، أكد له باليان حماقة الخطة ، إذ أن ريموند ستكون له قوات أقوى من قوات الملك . بما يستطيع الاعتماد عليه من مساعدة العرب ، وطلب باليان ، بدلا من الحرب ، أن يرسله الملك ليتحدث مع ريموند . على أن مناشدته للوحدة لم يكن لها أثر على الكونت ريموند الذى اشترط استرجاع بيروت ليخضع للملك . واعتبر جوى أن ذلك لمنا فادحا^(٢١) . على أنه بوصول أنباء استعدادات صلاح الدين للحرب الرشيدة ، ناشد باليان الملك مرة أخرى كى يتصالح مع ريموند . وذكره بأخيه وهو فخور به قائلا : "لقد خسرت أفضل فارس فى شخص بلدوين أمير الرملة ، فإذا ما خسرت مساعدة ومشورة الكونت ريموند أيضا ، فيكون فى ذلك نهايتك" . ودائما ما كان جوى مهيا للانصياع لمن يثابته بصرامة ، فسمح لباليان بالذهاب فى سفارة جديدة إلى طبرية ، ومعه جوسياس رئيس أساقفة صور ، والسيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد . وكان ضروريا لهذا الأخير ، وهو الذى أعداء ريموند ، أن يشترك فى أية تسوية^(٢٢) .

وانطلق المندوبون من القدس يوم ٢٩ ابريل ١١٨٧ م ، يصاحبهم عشرة من فرسان المستشفى . وأمضوا تلك الليلة لدى باليان فى قلعة نابلس ، حيث كان باليان مشغولا ببعض الأعمال ، ولذ طلب من السيدين الأعظمين ورئيس الأساقفة أن يسبقوه ، إذ سيتخلف عنهم ذلك اليوم ويلحق بهم فى اليوم التالى فى قلعة الفولة La Fève ، فى سهل بزرعيل . وفى وقت متأخر من مساء ٣٠ ابريل ، غادر باليان نابلس مع حفنة من توابعه متتويا الانطلاق على الخيل طوال الليل ؛ لكنه تذكر فجأة أن الليلة هى ليلة القديس فيليب والقديس جيمس ، ولذا تنحى عن الطريق فى سبسطية ، التى تعتبر 'سامرة' القدماء ، وطرق باب قصر الأسقف . واستيقظ الأسقف واستقبلهم ، ومكثوا يتسامرون طوال الليل إلى أن انبلج الفجر وحان موعد القداس ، فقال لمضيفه إلى اللقاء ثم انصرف .

(٢١) Ernoul, pp.141-2; *Estoire d'Eracles*, II, pp.31-5. ويقول إيرنول إن ريموند تلقى بالفعل تعزيزات من صلاح الدين .

(٢٢) Ernoul, pp. 142-3. كان مقررا أن ينضم رينالد أمير صيدا إلى الوفد ، لكنه انطلق بمفرده .

وفى ٣٠ ابريل ، وبينما كان باليان يناقش بعض الأعمال مع توابعه ، وكان السيدان الأعظمان على جراديهما فوق التل فى طريقهما إلى الفولة ، تلقى الكونت ريموند مبعوثا من المسلمين فى بانياس ؛ ذلك أن ابن صلاح الدين الأصغر ، الذى كان قائدا للمعسكر هناك ، تلقى من أبيه تعليمات بارسال استطلاع فى فلسطين ، وفى تصرف سليم جدا طلب الإذن من ريموند كى يعبر رجاله أراضى الكونت فى الجليل . ولما كان ريموند ملتزما بمعاهدته الخاصة مع صلاح الدين فلم يستطع رفض هذا الطلب المخرج . وإنما اشترط أن يعبر المسلمون الحدود بعد فجر اليوم التالى ويعودوا قبل حلول الظلام ، وألا يلحقوا الأذى بأية مدينة أو قرية فى اراضيه ، ثم أنه أرسل رسله فى انحاء اقتطاعاته كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يئشوا شيئا . وفى تلك اللحظة سمع بمجيئ الوفد من القدس ؛ فخرج رسول آخر ليهبط الوفد بنفس الإنذار . وفى باكورة أول ماير شاهد ريموند من قلعة الأمير قوقبورى وسبعة آلاف مملوك يتجولون على جيادهم فى مرج .

وفى نحو ضحى ذلك اليوم وصاح باليان وصحبه إلى الفولة . وكانوا قد شاهدوا عن بعد خيام فرسان المعبد منصوبة أسفل الأسوار ؛ لكنهم عندما اقتربوا منها وجدوها خالية ؛ وقد خيم التسمت على القلعة نفسها . ودخل تابع باليان - إرنول - المنهى وانتقل من حجرة إلى أخرى ، ولم يجد أحدا سوى جنديين مستقلين فى إحدى الشرفات العليا ، وهما فى حالة مرضية مميته ولا يقدران على الكلام . واحتار باليان وتملكه القلق . فانتظر ساعة أو ساعتين ، لا يستقر له قرار فيما يفعله ، ثم أنه انطلق مرة أخرى بطول الطريق الذهاب إلى الناصرة . وفجأة ظهر فارس من فرسان المعبد آتيا يهيب الأرض ركضا، أشعث الرأس تنزف منه الدماء وهو يصيح بكارثة مروعة .

١١٨٧م : عيون كريسون

وفى ذات الساعة كان ريموند فى طريقه يراقب الممالك وهم فى طريق عودتهم إلى وطنهم . لقد التزموا بما اشترطه عليهم . وكانت عودتهم قبل هبوط الظلام بوقت طويل ، ولم يعتدوا على أى مبنى فى المقاطعة. غير أن حرس الطليعة كان يحمل على أسنة رماحه رؤوس فرسان المعبد .

وصلت رسالة ريموند إلى السيدين الأعظمين فى الفولة مساء يوم ٣٠ من الشهر . وعلى الفور استدعى جيوار فرسان المعبد من الجوار للإنضمام اليه هناك ، على الرغم

من معارضة روجر فارس المستشفى . وكان قِيم فرسان المعبد - جيمس (اوف ميلي) - فى قرية كاكون التى تبعد مسافة خمسة أميال ، ومعه تسعون فارسا ، فجاء وامضى الليلة أمام القلعة . وفى الصباح التالى انطلق الحَيَّالة إلى الناصرة ، حيث انضم اليهم أربعون فارسا علمانيا، وبقي رئيس اساقفة صور هناك ؛ لكن جيرارد توقف لمجرد الصباح فى أهل المدينة بأن هناك معركة ستشب حالا وأن عليهم المجئ لأخذ الغنائم . وبينما الفرسان يعبرون التل خلف الناصرة ، وجدوا المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون أسفل الوادى . ومع تلك الأعداد الكبيرة نصح كل من روجر وجيمس (اوف ميلي) - القِيم - بالانسحاب ؛ فاهتاج جيرارد غيظا ، وتحول عن رفيقه السيد الأعظم وزجر قِيمه فى ازدراء قائلا : "إنك شديد الإعجاب برأسك الأشقر بحيث تذكره أن تفقده"، فرد عليه جيمس فى كبرياء : "سأموت فى المعركة ميتة الشجعان ، وانما أنت الذى سيلوذ بفرار الخائنين" . وأشتعل الفرسان غيظا من هذه الإهانة ، فاندفعوا نحو المماليك . ولقد كانت مذهجة لا معركة ، وكان رأس جيمس الأشقر أحد الرؤوس الأخيرة التى سقطت ، وسقط بجانبها السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وفى لمح البصر قُتل كل فارس من فرسان المعبد فيما عدا ثلاثة كان جيرارد واحدا منهم ، وسابقوا الريح مع حراحاتهم عائدين إلى الناصرة ، وكان أحدهم هو الذى قابل باليان . وأما الفرسان العلمانيون فقد أسروا أحياء . وكان البعض من مواطني الناصرة الجشعين قد خرجوا إلى ساحة القتال لجمع الغنائم التى وعد بها جيرارد ، فأحيط بهم وأخذوا أسرى .

وبعد أن أرسل باليان إلى زوجته يبحثها على جمع فرسانها ، لحق بجيرارد فى الناصرة وحاول اقناعه بالذهاب إلى طبرية ، لكن جيرارد تذرع بجراحاته الجسيمة ، ولذا واصل باليان رحلته مع رئيس الأساقفة ؛ فوجدوا ريموند فى حالة من الرعب من المأساة التى جعلته يشعر أن سياسته هى التى يقع عليها اللوم . وقبل بسرور وساطة باليان ، فألغى معاهدته مع صلاح الدين ، وانطلق جنوبا إلى القدس حيث قدم فروض الطاعة للملك، الذى لم يكن حقوقا برغم كل أخطائه واستقبل ريموند استقبالا ودودا بل واعتذر له عن الطريقة التى تَوَجَّ بها . وأخيرا ، بدا أن المملكة قد اتحدت مرة أخرى^(٢٣).

(٢٣) أورد Ernoul القصة بالكامل ، إذ كان مع باليان بصفته تبعية pp.143-54 *Estoire d'Eracles* 262 pp. 37-44; Imad ed-Din, in Abu Shama, p. 678) إن الأفضل

أرسل فرقبورى قائدا للحملة ويحدد عدد الفرسان بأنهم سبعة آلاف . ويرد فى *De Expugnacione* (pp. 21-11) نفس العدد ، لكن الرواية القصيرة تذكر أن ريموند أصر على عدم الاضرار بالملكية وتحاول تبسيط زلات فرسان المعبد . وأما La Fève ، فهى قرية الفولة العربية (وكلا

١١٨٧ م : صلاح الدين يعبر الأردن

وكذلك بدا صلاح الدين يوحد جيوشه . إذ كان معروفاً أن صلاح الدين يجمع جيشاً جراراً عبر الحدود في حوران . وفي شهر مايو ، وبينما كان الحشد يتجمع من سائر أنحاء الامبراطورية ، ذهب صلاح الدين في رحلة هابطاً الطريق المتجه إلى مكة ليرافق قافلة حج كانت فيها اخته وابنها عائدان من المدينة المقدسة ، وذلك ليستوثق من أن رينالد لن يقدم على محاولة أخرى من غاراته في قطع الطرق . وفي تلك الأثناء توافد الجنود من حلب والمرسل وماردين ، إلى أن غدا جيشه أضخم الجيوش التي قادها قاطبة . وعبر الأردن استدعى جوى كبار مستأجري الأرض ومستأجريهم جميعاً لمقابلته مع رجالهم في عكا . وكان النظامان العسكريان في لفة على الإنتقام للذمجة كريسون ، فجاءوا بكل ما كان لديهما من الفرسان ، ولم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن قلاعهم التي يسيطرون عليها . بل زاد فرسان المعبد من مساعدتهم بتسليم الملك نصيبهم من الأموال التي أرسلها مؤخرًا الملك هنري الثاني كفارة عن اغتيال توماس بيكيت^(٢٤) . وقيل لهم أن يودعوها في أحد المصارف لحساب الحملة الصليبية التي أقسم هنري على الخروج بها ، لكن الاحتياج إلى المال الآن كان ملحاً ، وحمل الجنود الذين جهزتهم تلك الأموال راية معهم تدل على جيش هنري . أما بوهمند أمير انطاكية ، فقد نال منه التأثير بعدما ناشده ريموند وباليان ، فوعده بارسال كتيبة تحت إمرة بلدوين أمير إيلين ، وأرسل ابنه ريموند لينضم إلى كونت طرابلس الذي كان بمثابة الأب الروحي له . وفي نهاية يونيو تجمع في معسكر أمام عكا ألف ومائتان فارس بكامل أسلحتهم وعدد أكبر من الخيالة الوطنية خفيفة الحركة من طبقة أنصاف الأتراك (Turcopoles) ، وشعوا من عشرة آلاف من المشاة . وطلب من البطريق هيراكليوس أن يأتي ومعه الصليب الحقيقي ، لكنه رد بأنه يمر بوعكة وعهد بالصليب الحقيقي إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس كي يعطيه لأسقف عكا . لقد فضل - كما قال أعداؤه - البقاء مع محبوبته باشيا .

وفي يوم الجمعة ٢٦ يونيو استعرض صلاح الدين جنوده في عشرا في حوران ؛ وقاد هو نفسه القلب وابن أخيه تقي الدين الميمنة وقوقبوري الميسرة . وسار الجيش في

^{٢٤} الإسمين يعنى الحبة وتقع في منتصف المسافة بين جنين والناصر .

(٢٤) (المترجم) القديس توماس أ بيكيت Saint Thomas à Becket (حوالي ١١١٨-١١٧٠م) : حبر إنجليزي ، رئيس أساقفة كانتربري ، اغتيل بعد معارضته لهنري الثاني . يوم احياء ذكراه ٢٩ ديسمبر .

تشكيلات قتال إلى خيسفين ومنها إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، حيث مكث خمسة أيام قامت فيها كشافته بجمع المعلومات عن القوات المسيحية . وفى أول يولية عبر الأردن إلى سن النيرة ، وفى الثانى من يولية عسكر بنصف جيشه فى كفر سبت ، على التلال الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من البحيرة ، بينما هاجم جنود أخيه طبرية التي سقطت فى أيديهم بعد ساعة من القتال . وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك، فلاذت الكونتيسة إشييفا ، بعد أن أرسلت رسولا ليخبر زوجها بما يحدث ، إلى القلعة حيث صمدت مع حاميتها الصغيرة .

ولما علم الملك جوى بأن صلاح الدين عبر الأردن ، عقد مجلسا مع باروناته فى عكا. وتكلم الكونت ريموند أولا ، فأشار إلى أن حمارة قيظ الصيف تعد من المساوى للجيش الذى لا يبادر بالهجوم ، ولذا ينبغي أن تركز استراتيجيتهم على الهجوم الخالص، وسوف يتعذر على صلاح الدين الحفاظ على قواته الضخمة طويلا فى بلاد لافحة من الحر الشديد مع وجود الجيش المسيحى بلا هزيمة ، وسوف يُحير على الانسحاب بعد برهة ، وفى ذات الوقت سوف تأتى تعزيزات انطاكية . ومال أغلب الفرسان إلى الأخذ بنصيحته ؛ غير أن كلا من رينالد (أوف شاتيلون) وجيرارد السيد الأعظم اتهم ريموند بأنه جبان وأن العرب اشتروه . ودائما ما كان الملك جوى يقتنع بآخر المتكلمين ، وأصدر أوامره بأن يتحرك الجيش باتجاه طبرية .

وبعد ظهر الثانى من يولية عسكر المسيحيون عند صفورية ، فى موقع رائع لإقامة المعسكر توجد فيه المياه الوفيرة والمراعى الجيدة للخيول . ولو أنهم مكثوا هناك ، كما فعلوا قبل أربع سنوات عند عيون جوليات ، لم يكن صلاح الدين ليحازف بمهاجمتهم قط ، إذ كان جيشهم بنفس حجم جيشه وكانت لديهم ميزة الموقع ؛ غير أن مبعوث كونتيسة طرابلس جاءهم فى ذلك المساء ، فعقد جوى مرة أخرى مجلسا فى خيمته ، وتحركت مشاعر الفروسية لدى الفرسان بتفكيرهم فى تلك السيدة الشجاعة الصامدة صمود اليأس بجانب البحيرة ، وانهمرت عبرات أولادها وهم يتوسلون العمل على إنقاذ أمهم ، وتجمع آخرون يؤيدون ضراعتهم . ثم نهض ريموند خطيبا ، فأعاد خطبته التى ألقاها فى عكا وانما بمزيد من التركيز اليائس ، وأوضح مدى حماسة التخلى عن هذا الموضع القرى والحجازة بالسير المحفوف بالمخاطر فى جراحة يولية على جوانب التلال الرعرة . وقال إن طبرية هى مدينته والمدافع عنها هى زوجته ، بيد أنه يرى أن تضييع طبرية بكل ما فيها بدلا من أن تضييع المملكة . وحملت كلماته فى طياتها الحجة المقنعة. وانفض المجلس فى منتصف الليل وقد عزم على البقاء فى صفورية.

وبعد أن عاد البارونات إلى أفسامهم ، زحف السيد الأعظم لفرسان المعبد عائدا إلى الخيمة الملكية وقال : "سيدى، أترك ثقي فى 'نحائن؟" من العار أن تضيع مدينة لا تبعد سوى ستة فراسخ ؛ وأعلن أن فرسان المعبد خليقون بأن يتخلوا عن نظامهم العسكرى عن أن يتخلوا عن ثأرهم من الكفرة . وكان جوى مخلصا فى اقتناعه بما قاله ريموند قبل ساعة ، لكنه تذبذب وترك جيرا يفرط فى اقتناعه . وأرسل النادين فى انحاء المعسكر يعلنون أن الجيش سوف يتحرك فجرا باتجاه طبرية .

١١٨٧ م : الفرنج يعسكرون فى لوبيا

كان أفضل طريق من صفورية إلى طبرية يمضى منحرفا شمالا انحرافا طفيفا عن الشرق عبر تلال الجليل ثم يهبط إلى البحيرة على بعد ميل إلى الشمال من المدينة . وكان الطريق البديل يمضى إلى الجسر فى سن النيرة حيث يمضى أحد روافد النهر شمالا بمحاذاة شاطئ البحيرة . وكان معسكر صلاح الدين فى كفر سبت يقع عبر طريق سن النيرة الذى سلكه آتيامن أعلى النهر . ومن الجائز أن ذهب بعض الخونة من معسكر المسيحيين وأخبروه بأن جوى سيخرج من صفورية بطول الطريق الشمالى ، ولذلك قاد جيشه نحو من خمسة أميال عبر تلال حطّين حيث يبدأ الطريق فى الهبوط باتجاه البحيرة ، وكانت حطّين عبارة عن قرية ذات مراعى واسعة ومياه وفيرة ؛ وانضم إليه هناك أغلب جنوده الذين كانوا فى طبرية تاركين مجرد العدد المطلوب لحصار القلعة .

وكان صباح يوم الجمعة ٣ يولية صباحا حارا انعدم فيه الهواء ، وقد شهد ذلك الصباح خروج الجيش المسيحى من حدائق صفورية الخضراء للسير على التلال العارية من الأشجار . وجريا على التقاليد الإقطاعية ، كان ريموند أمير طرابلس قائدا للطليعة بصفته لورد الإقطاعية ، وقاد الملك الوسط ، وأما المؤخرة فكانت تحت قيادة رينالد والنظامين العسكريين وبالين ايلين . وكان الطريق بطوله خاليا من المياه ، وسرعان ما بدأت المعاناة المريعة من الظمأ لدى الرجال والحياد سواء بسواء ، وأبطأت معاناتهم من سيرهم ، ودأب المناوشون المسلمون على مهاجمة حرس الطليعة وحرس المؤخرة ، يطلقون السهام فتتهمر فى وسطهم ثم ينسحبون بعيدا قبل أى هجوم مضاد . وبحلول عصر ذلك اليوم وصل الفرنج إلى الهضبة التى تعلو حطّين مباشرة ، وبدا أمامهم تل صخرى بقميتين مرتفعتين نحو من مائة قدم ، ووراء تنحدر الأرض انحدارا شديدا نحو القرية ثم إلى البحيرة . وكان التل يسمى "قرنا حطّين" . وأرسل فرسان المعبد يخبرون

الملك بأنهم لا يستطيعون اليوم المضى أكثر من ذلك ، وترجاه بعض البارونات أن يأمر الجيش بالاندفاع وشق طريقه حربا إلى البحيرة ؛ غير أن جوى تأثر بمعاناة رجاله فقرر التوقف تلك الليلة . وما أن سمع ريموند بذلك حتى عاد من المقدمة على جواده صائحا: "آه أيها الرب الإله ، لقد انتهت الحرب ، انما نحن رجال موتى ، لقد انتهت المملكة ." وأخذنا بنصيبته ضرب جوى معسكره بعد لويبة مباشرة ، باتجاه منحدر القرنين حيث يوجد بئر تحلق حوله الجيش كله . على أنهم أساءوا اختيار الموقع ، إذ كان البئر جافا .

ولم يملك صلاح الدين ضبط مشاعر غبطته وهو ينتظر في الوادي المنخفض ضيق بأسفل . لقد جاءت له فرصته أخيرا .

وأمنى المسيحيون ليلة بائسة يستمعون إلى صلوات المسلمين وتلاواتهم الآتية اليهم من أسفل . وانطلق جنود قليلون من المعسكر في بحث عقيم عن الماء ، فقط ليقتلهم الأعداء . وكى يفاقم المسلمون من معاناة الفرنج أشعلوا النيران في الأعشاب الجافة التي تغطي التل ، واندفع الدخان الحار ليملا المعسكر . وتحت غطاء الظلام حرك صلاح الدين رجاله أعلى التل . وعند انبلاج فجر يوم السبت ٤ يولية ، أصبح الجيش الملكي ليجد نفسه محاصرا . ويقول المؤرخ إنه لم يكن باستطاعة أحد التسلل من شبكة الحصار حتى وإن كانت قطة .

١١٨٧ م : معركة حطين

وسرعان ما بدأ هجوم المسلمين بعد الفجر . فأما جنود المشاة المسيحيون فلم يكن يسيطر على ذهنهم سوى شئ واحد ، الماء . فاندفعوا في خضم عارم محاولين شق طريقهم أسفل المنحدر باتجاه البحيرة التي كانت مياهها تبدو أسفلهم لامعة جاذبة ، فدفعوا أعلى رابية طوقتها النيران والأعداء ، وقتل خلق كثير منهم لتوهم ، وأسر آخرون ؛ وكان مشاهدتهم وهم رقود في جراحاتهم وبأفواههم المتورمة تشير فائق الألم بحيث ذهب خمسة من فرسان ريموند إلى قادة المسلمين يتوسلون اليهم كي يقتلهم جميعا رحمة بهم وبما هم فيه من مؤس . وأما الخيالة على التل ، فقد حاربوا بشجاعة فائقة يائسة وصدوا هجمات الخيالة المسلمين ، التي كانت تجبر الهجمة تلو الأخرى على العودة وبها خسائر ؛ غير أن أعدادهم كانت أخذت في التضاؤل ، ووهنت عزائمهم من العطش ، وبدأت قوتهم تخنطهم . وقبل أن يسبق السيف العذل ، ونزولا

على طلب الملك ، قاد ريموند فرسانه فى محاولة لإختراق صفوف المسلمين ؛ وانقض بكل ثقل رجاله على الكتائب التى يقودها تقي الدين ، لكن تقي الدين فتح له صفوفه ليمر من بينها ، ثم أطبق عليه مرة أخرى من خلفه ، فلم يتمكن ريموند وفرسانه من شق طريق العودة إلى رفاقهم ، فارتحلوا فى بؤسهم بعيدا عن ميدان القتال وعمموا وجوههم شطر طرابلس . وبعد قليل تمكن باليان أمير ابيلى وريئال أمير صيدا من شق طريقهم خارجين من ساحة القتال . وكانا آخر الهاربين .

تبدد أمل المسيحيين الآن ، لكنهم واصلوا القتال وقد تراجعوا إلى أعلى التل ، إلى القرنين . ونقلت خيمة الملك الحمراء إلى القمة وأحاط به فرسانه . وكان الأفضل ، ابن صلاح الدين الصغير بجانب أبيه يشهد أول معاركه . وبعد المعركة بسنوات كثيرة أعرب عن تقديره لشجاعة الفرنج وقال : "عندما انسحب الملك الفرنجى إلى قمة التل ، حمل فرسانه بشجاعة على المسلمين ودحروهم منكبين إلى أبى . وراقبت فرعه . تغير لون وجهه وشد على لحيته ، ثم اندفع إلى الأمام صائحا : "كذبوا الشيطان" ، فانقض رجالنا على الأعداء الذين تراجعوا أعلى التل . وعندما شاهدت الفرنج يهربون صرخت مسرورا : "هزمناهم" لكنهم هجموا ثانية ودحروا رجالنا إلى حيث كان يقف أبى . فعاودت رجاله للتقدم إلى الأمام ، فدحروا الأعداء مرة أخرى إلى أعلى التل . ومرة أخرى صرخت "هزمناهم" . فالتفت أبى إلى وقال : "اسكت . إننا لم نهزمهم طالما بقيت تلك الخيمة هناك" . وفى تلك اللحظة انقلبت الخيمة ، فترجل والدى وخسر ساجدا على الأرض شكرا لله وهو يذرف دموع الفرح .

١١٨٧ م : فى خيمة صلاح الدين

قتل أسقف عكا . وانتقل الصليب الحقيقى الذى حمله فى المعركة إلى أيدي الكفرة . وأخطأ الموت القليل من جياد الفرسان . وعندما وصل المنتصرون إلى قمة التل وجدوا الفرسان انفسهم وبينهم الملك ممددين على الأرض ، وقد أنهكوا حتى لم يقو الفارس منهم على مواصلة القتال ، وتبقت لديهم بالكاد القوة كى يسلموا سيوفهم استسلاما . واقتيد زعمائهم إلى خيمة صلاح الدين التى نصبت فى ساحة المعركة^(٢٥) .

استقبل صلاح الدين الملك جوى وأخاه الكونستابل أمالريك ، وريئال (أوف

(٢٥) للإطلاع على الوقائع المعقدة المتناحضة حول حملة حطين ، انظر أدناه المرفق الثانى .

شاتيلون) وابن زوجته همفري امير تبنين ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، والمركز العجوز امير مونتفات ، ولوردات جيبيل والبطرون ، والكثير من البارونات الأقل في المملكة . وحياتهم تكرم ، وأجلس الملك إلى جانبهم . ولما لاحظ عطشه ناوله قدحا من ماء الورد ، ميردا بثلوج جبل هرمون . وشرب منها الملك جوى ثم ناولها لرينالد الذى كان إلى جانبه . وتقاليده الضيافة العربية تقضى بأن إعطاء الطعام أو الشراب لأسير يعنى أن حياته مأمونة، ولذا سارع صلاح الدين قائلا للمترجم : "قل للملك إنه هو الذى أعطى ذلك الرجل شرابا وليس أنا." ثم تحول إلى رينالد الذى لم يستطع أن يفسر له زندقة لصوبيته ، فذكره بجرائمه ، وخيائته ، وتغديفه فى الدين ، وحشعه . وعندما رد رينالد بغلظة ، تناول صلاح الدين نفسه سيفا وأطاح برأسه . وارتجف جوى فلما منه أن دوره سيأتى بعده ؛ لكن صلاح الدين هدأ من روعه قائلا : "الملك لا يقتل ملكا. لكن غدر ذلك الرجل بلغ شأوا بعيدا" . ثم أصدر أوامره ألا يؤذى أحد من البارونات العلمانيين وأن يعامل الجميع بكياسة واحترام أثناء أسرههم . على أنه لم يبق على أرواح فرسان النظامين العسكريين، فيما عدا السيد الأعظم لفرسان المعبد . وكانت جماعة من متعصبى المسلمين من الصوفية قد انضمت إلى جنوده، فعهد اليهم بمهمة قتل الأسرى من فرسان المعبد والمستشفى، فأبحزوا بقبالية ما عهد به اليهم. ثم رحل بجيشه عن حطين، أما الجثث التى ملأت ساحة المعركة فتركت للذئاب والفضائح.

وأرسل الأسرى إلى دمشق حيث أودع البارونات فى اماكن مريحة ، وبيع الأسرى من الأفقر فى سوق العبيد . وكانت أعدادهم كبيرة بحيث هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير ، وإنك لتستطيع أن تشتري أسرة فى صحة جيدة بكاملها تتألف من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه بثمانين دينارا ؛ بل إن أحد المسلمين فكر فى صفقة رابحة بأن يستبدل سجيناً بزوجة صندل^(٢٦).

سبق لمسيحيي الشرق أن عانوا من الكوارث قبل ذلك . وسبق أن أسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير أن أسريهم آنذاك كانوا من صغار الأمراء الذين كانوا يخرجون سعيا لكسب زهيد . أما على قرني حطين فقد هلك أذبحهم جيش جمعة الماسكة فى تاريخها. وضاع الصليب الحقيقى ، وكان المنتصر عامل العالم الإسلامى كله .

(٢٦) Behn ed-Din, P P L S pp 114-15, Kemal ed-Din (ed. Blochet, pp.180-1) بوردا شمال الدين رواية تختلف اختلافا طفيفا لكنها تحمل نفس المعنى ؛ و بوردا (pp 172-4) Ernauld نفس القصة تقريبا.

١١٨٧ م : فلسطين تستسلم لصالح الدين

لم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قضى على أعدائه سوى احتلال قلاع الأراضي المقدسة . أما كورتيسة طرابلس ، فقد سلمت له طبرية بعد أن تلاشت امكانية وصول مساعدة لها ، وقد عاملها بما تستحقه من التشريف وسمح لها بالذهاب إلى طرابلس مع كل أفراد اسرتها ثم أنه نقل سواد جيشه جنوباً إلى عكا . ولم يكن القهرمان جوسلين (أوف كورتناي) يفكر إلا في سلامته الشخصية . فأرسل مواطناً يدعى بطرس بريس لمقابلة صلاح الدين عندما جاء أمام الأسوار يوم ٨ أبريل ، يعرض الاستسلام إذا ضمن أرواح وممتلكات السكان . وبدأ للكثيرين في المدينة أن من العار أن تستسلم المدينة هذا الاستسلام الذليل ، فحدثت أعمال شغب لفترة قصيرة أحرقت فيها عدة منازل ؛ لكن النظام استتب قبل استيلاء صلاح الدين على المدينة رسمياً في العاشر من الشهر . وكان يعلق الآمال على اقناع اغلب التجار المسيحيين بالبقاء هناك ، لكنهم كانوا يخشون المستقبل فهاجروا ومعهم كل منقولاتهم ، ووجد المنتصرون مخزونات هائلة من البضائع ، والحرير ، والادوات المعدنية ، والمجوهرات ، والأسلحة ، فغلب عنها التجار فراحوا يوزعونها ، بإشراف ابن صلاح الدين الأفضل الذي أعطيت له المدينة ، على الجنود والرفاق . واما مصنع السكر الضخم فقد انتهبه تقي الدين مما ضايق صلاح الدين^(٢٧) . وبينما مكث صلاح الدين في عكا ، كانت كتائب من جيشه تستسلم المدن والقلاع التي تستسلم في الجليل والسامرة . وفي نابلس صمدت حامية باليان لأيام : قلائل وحصلت على شروط مشرفة عندما استسلمت ؛ وقاومت قلعة تبينين لأسبوعين قبل أن تستسلم حاميتها . كان هناك القليل من المقاومة في اماكن أخرى^(٢٨) . وفي تلك الأثناء جاء أخو صلاح الدين ، العادل ، من مصر وحاصر يافا . ولم تستسلم له المدينة ، لذا استولى عليها عنوة وأسرى كل السكان من الرجال والنساء والأطفال . ووجد أكثرهم الطريق إلى اسواق العيد والحرير في حلب^(٢٩) .

بعد استيلاء صلاح الدين على الجليل اتجه إلى الساحل الفينيقي . وكان أغلب

(٢٧) Ernoul, *loc. cit.*; *Estoire d'Eracles*, II, ٥٥, ٧٠-١; Abu Shama, pp.295-7; Beha ed-Din, *P.P.T.S.P.* 116; Ibn al-Athir, pp.688-90.

(٢٨) *Estoire d'Eracles*, II, p.68, *De Expugnacione*, pp.31-4 ; ولم يذكر بهاء الدين ، سوى طبرون . Abu Shama, pp.300-6; Ibn al-Athir, *loc. cit.*

(٢٩) Ibn al-Athir, pp.690-1. وقد اشترى هو نفسه أمة في سوق حلب ، بتنا صغيرة فقدت زوجها وستة أطفال (ص ٦٩١)؛ *De Expugnacione*, p.229.

الباقين على قيد الحياة في حطين قد هربوا مع باليان إلى مدينة صور ، التي كانت حاميتها قوية وكانت أسوارها الضخمة التي تحرسها من جهة الأرض شديدة المناعة ؛ وبفشل هجومه الأول ، تركها وانطلق إلى صيدا التي استسلمت من فورها يوم ٢٩ يولية . وهرب أميرها ، رينالد ، إلى قلعة النبعة شقيف أرنون في داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، لكنها استسلمت يوم ٦ أغسطس ؛ واستسلمت جبيل بعدها بأيام قلائل بأوامر من أميرها هيو إيرياكو الذي اطلق صلاح الدين سراحه بهذا الشرط . وبحلول نهاية أغسطس لم يبق للمسيحيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة ، وبعض الحصون القليلة المبعثرة ، ومدينة القدس المقدسة^(٣٠) .

وفي سبتمبر ظهر صلاح الدين امام عسقلان وقد أحضر معه أهم أسيرين لديه ، الملك جوى والسيد الأعظم جيرارد . وقد قيل لجوى إن ثمن حريته استسلام عسقلان ؛ ولدى وصوله أمام الأسوار ألقى خطبة للمواطنين طالبا منهم التخلي عن الكفاح ، وكذلك فعل جيرارد ؛ لكن المواطنين ردوا عليهما بتوجيه الإهانات إليهما . وكان الدفاع عن عسقلان دفاعا شجاعا ، وخسر صلاح الدين في الحصار اثنين من امرائه . على أن الحامية أرغمت على الاستسلام يوم ٤ سبتمبر ، وسمح للمواطنين بالرحيل مع كل منقولاتهم . ورافقهم حراس صلاح الدين إلى مصر حيث نزلوا في أماكن مريحة في الاسكندرية ، إلى أن يُرحلوا إلى أراض مسيحية^(٣١) . أما في غزة ، حيث تقضى قوانين نظام فرسان المعبد بطاعة سيدها الأعظم ، فقد أجبرت الحامية على الإذعان لأمر جيرارد بالاستسلام على الفور ، وحصل بدلا من القلعة على حريته^(٣٢) . لكن الملك جوى مكث في السجن لعدة أشهر ، أولا في نابلس ، ولاحقا في اللاذقية ؛ وبمجرد للملكة سبيلا بالحضور من القدس للانضمام اليه . وكما توقع صلاح الدين دون شك ، كان لإطلاق سراحهما في الربيع التالي أن زاد المسيحيين حرجا على حرج^(٣٣) .

(٣٠) Beha ed-Din P.P.T.S pp.116-17; Abu Shama, pp.306-10; Ibn al-Athir, pp.692-3; *De Expugnacione*, p.236.

(٣١) -Ernoul, p.184; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 78-9, *De Expugnacione*, pp.236-8; Beha ed Din, P.P.T.S.P.117; Ibn al-Athir, pp.696-7.

(٣٢) .Abu Shama, pp.312-13; Beha ed-Din, *loc.cit*; Ibn al-Athir, p. 697.

(٣٣) استنادا إلى (Ernoul pp.175, 185) كانت سبيلا في القدس حتى عشية الحصار وسمح لها وقسمت بالذهاب إلى نابلس (p.79, *Estoire d'Eracles*, II, p.703; Ibn al-Athir, p.185)، ويقول (pp.21-3, *Itinerarium Regis Ricardi* 3، إن سبيلا كانت في القدس طوال الحصار ثم ذهبت إلى نابلس مجرد مقابلة قصيرة . ويقول بهاء الدين (P.P.T.S.P.143) إن صلاح الدين أخذ جوى إلى طرطوس وأطلق سراحه هناك أثناء أن كان صلاح الدين يحاصر كبرك دي شيفالييه . وكان ذلك في يولية ١١٨٨ م ،

١١٨٧م : الدفاع عن القدس

فى ذات اليوم الذى دخل فيه جنود صلاح الدين عسقلان خسفت الشمس ؛ واستقبل صلاح الدين فى الحفاء وفدا من مواطنى القدس كان قد استدعاه لمناقشة شروط استسلام المدينة المقدسة. على أنه لم تكن هناك مناقشة ؛ إذ رفض الرفض تسليم المدينة التى مات فيها ربهم من أجلهم ، وعادوا بكبرياتهم إلى القدس ، وأقسم صلاح الدين أن يأخذها بالسيف . وجاء إلى القدس من أغانيها دون توقع ؛ ذلك أن إيلين باليان ، الذى كان مع اللاتين الفرنج فى صور ، أرسل إلى صلاح الدين ملتسما مرورا مأمونا إلى القدس ، إذ كانت زوجته ، الملكة ماريا ، قد لجأت إليها من نابلس حيث مكثت هناك مع أطفالها وقد أبدى رغبته فى احضارهم إلى صور . ولبى صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضى بالقدس ليلة واحدة وألا يحمل سلاحا . وعندما وصلها وجد البطريرك هيراكليوس ومسؤولى النظامين العسكريين يحاولون تهيئة المدينة للدفاع ، ولكن لم يكن هناك قائد يشق فيه الناس . وتصايخوا جميعا بأنه ينبغي لباليان البقاء لقيادتهم ، وأنهم لن يدعوه يرحل . وفى حرجه العميق ، كتب باليان إلى صلاح الدين يشرح له حنشته بيهينه . وكان صلاح الدين دائما كئيبا مع عدو يحترمه . فلم يغفر لباليان وحسب ، بل أرسل هو نفسه حرسا لنقل الملكة ماريا ، وأطفالها ، وغائلتها ، وجميع ممتلكاتها جنوبا إلى صور^(٣٤) . ورحل معها ابن أنجى باليان الصغير توماس (أوف إيلين) وابن هيو (أوف جيبيل) الصغير . وبكى صلاح الدين لرؤية هؤلاء الأطفال ، ورثة المهابة التى ولت ، وهم يمرون خلال معسكره إلى المنفى .

وفى القدس بذل باليان ما فى وسعه . وتضخم عدد السكان باللاتين من كافة المقاطعات المجاورة ، والقليل منهم يصلح للقتال . فكان لكل رجل خمسين امرأة وطفل . ولا يوجد سوى فارسين اثنين فى المدينة ؛ ولذا منح باليان الفروسية لكل صبي تجاوز السادسة عشرة وولد فى اسرة نبيلة ، ولثلاثين رجلا من البورجوازيين . وبعث بالفرق تجمع كل ما تجده من طعام قبل أن تأتى الجيوش الإسلامية لتحكم حصار المدينة

قبل استيلاء صلاح الدين على طرطوس بأيام قلائل . وربما أخطأ صلاح الدين فى ذكر اسم طرطوس بدلا من طرابلس ، لكن تاريخ الافراج كان بالقطع فى يولية ١١٨٨م . ومع ذلك يقول Ernoul (p.185) ان جوى أطلق سراحه فى مارس ١١٨٨م ، لكنه يذكر التاريخ (فى ص ٢٥٢) عندما كان صلاح الدين يحاصر طرابلس (يولية ١١٨٨م) . ويقول *Itinerarium* ان جوى أطلق سراحه فى طرطوس حيث انضمت اليه سيلا أخيرا (p.25).

(٣٤) .Ernoul, pp. 174-5, 185-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp.81-4; *De Expugnacione*, p.238.

وتولى مسؤولية الخزانة الملكية والأموال التي أرسلها هنرى الثانى إلى فرسان المستشفى . بل أنه نزع الفضة من سقف القبر المقدس ، ووزع السلاح على كل رجل يستطيع حمله.

وفى ٢٠ سبتمبر عسكر صلاح الدين امام المدينة وبدأ مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية ، لكن الشمس كانت فى مواجهة أعين جنوده والدفاعات قوية . وبعد خمسة أيام نقل معسكره . وللحظة قصيرة ظن المدافعون أنه رفع الحصار ؛ ولكنه اقام جيشه فى صباح ٢٦ سبتمبر فوق جبل الزيتون ، وراح بعض المتسللين من جيشه تحت حماية فرسانه يزرعون الألغام فى السور بالقرب من بوابة العمود ، غير بعيد من الموضع الذى اقتحم فيه المدينة جودفرى (أوف لورين) قبل ذلك بشمانية ومائتين عاما . وبحلول يوم ٢٩ سبتمبر كانت هناك فجوة كبيرة فى السور ؛ وتجمع المدافعون حولها بقدر استطاعتهم ، وحاربوا باهتياج ، لكن عددهم كان ضئيلا بحيث استحال عليهم الصمود طويلا أمام محافل أعدائهم . وود جنود الفرنج أن يقوموا بخروج رائع ولو أدى ذلك إلى موتهم ، لكن البطريق هيراكليوس لم يكن يفكر فى أن يصبح شهيدا ، وقال لهم إنهم إن فعلوا ذلك ، فسوف يتركون نساءهم وأطفالهم للرق المحتم ، ولن يمنح بركته لمثل هذا التصرف العارى من الورع . وآزره باليان الذى ارتأى الحماقة فى جسارة المزيد من الأزواج . وفى ٣٠ سبتمبر ذهب هو نفسه إلى معسكر الأعداء يلتبس من صلاح الدين وضع شروطه .

١١٨٧ م : استسلام القدس

كانت المدينة تحت رحمة صلاح الدين الذى يستطيع قصفها وقما يحلو له ، فضلا عن أن له بداخلها الكثير من الأصدقاء المحتملين . ذلك أن كبرياء الكنيسة اللاتينية كان دائما موضع ازدراء المسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا يؤلفون أغلب سكان المدينة الأكثر فقرا . ولم يكن هناك صدع قاطع بينهما ؛ إذ كانت العائلة الملكية والنبلاء العوام ، إلا فى انطاكية ، يظهرهم مشاعر الود والاحترام لرجال الدين الأرثوذكس . غير أن قمة الهرمية كانت قاصرة على اللاتينيين . وفى مكان عبادتهم المقدس الكبير كان المسيحيون المحليون يضطرون إلى حضور الصلوات بلغة وطقوس غريبة عنهم . وكانت الذكريات ترجع بهم إلى أيام الحكام المسلمين عندما كانوا يمارسون عبادتهم كما يحلو لهم ؛ وكان المستشار الخصوصى لصلاح الدين لشؤون الأمراء المسيحيين

علامة ارثوذوكسيا من القدس يدعى يوسف بايت وقد أجرى الآن اتصالاته مع الطوائف الأرثوذوكسية فى المدينة ، ووعدوا بفتح البوابات لصالح الدين .

على أنه لم تكن هناك حاجة إلى تدخلهم . ذلك أنه عندما جاء باليان أمام خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين أنه أقسم أن يستولى على المدينة بالسيف ، ولا يحله من هذا القسم سوى الاستسلام غير المشروط . وذكر باليان بالمناياح التى ارتكبتها المسيحيون عام ١٠٩٩م ، فهل يكون تصرفه غير ذلك؟ وتأججت المعركة أثناء المناقشة ، وأشار صلاح الدين إلى رايته التى ترفرف الآن على أسوار المدينة . على أنه فى اللحظة التالية اندحر رجاله إلى الخلف ؛ وحذر باليان صلاح الدين أنه ما لم يحصل على شروط مشرفة فإن المدافعين عن المدينة سوف يدمرون فى بأسهم قبل أن يموتوا كل شئ فى المدينة بما فى ذلك المباني التى يقدسها المسلمون فى منطقة المعبد ، وسيفقتلون الأسرى المسلمين لديهم . وكان صلاح الدين على استعداد لإظهار الكرم طالما سلطته معترف بها ، وكان يرغب فى أن تعاني القدس قليلا بقدر الإمكان . فوافق على وضع شروط ، عارضا أن يقتدى المسيحيون جميعا أنفسهم بعشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار واحد للطفل . فأشار باليان إلى وجود عشرين ألف من الفقراء فى المدينة ليس بإمكانهم أبدا دفع هذا المبلغ . فهل يقبل مبلغا اجماليا تدفعه السلطات المسيحية نظير حريتهم جميعا ؟ وكان صلاح الدين على استعداد لقبول مائة ألف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرين ألف شخص ، لكن باليان يعلم عدم امكان جمع هذا المبلغ ، فاتفقا على تحرير سبعة آلاف شخص نظير مبلغ ثلاثين ألف دينار . وبناء على اوامر باليان ألقت الحامية سلاحها؛ ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر الذى يوافق ٢٧ رجب ، وهو ذكرى اسراء النبی إلى القدس ومعاجه إلى السماء .

١١٨٧م : اللاجئون

كان المنتصرون أهل استقامة وإحسان . وحيث كان الفرنج قبل ثمانية وثمانين عاما يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم يُنتهب الآن مبنى واحد ، ولم يُصب شخص واحد . وبأوامر صلاح الدين طاف الحراس فى الشوارع والأبواب للحيلولة دون أى اعتداء على المسيحيين . وراح كل مسيحي يجاهد ليجد المال اللازم لقيته ، وأفرغ باليان الخزانة لجمع ما وعد به وهو ثلاثين ألف دينار . وكان من العسير اجبار نظامى المستشفى والمعبد على أن يتقيا كل منهم ثروته ؛ ولم يكن البطريق وهيئة الكنيسة

يهتمون إلا بأنفسهم فقط . وُصِّد المسلمون لرؤية هيراكليوس وهو يفتدى نفسه بدنانيره العشرة تاركا المدينة ترزح تحت ثقل الذهب الذى كان يحمله معه ، تتبعه العربات المحملة بالسجاجيد والصحاف . وبفضل ما تبقى من منحة هنرى الثانى ، أمكن تحرير فقراء المدينة العشرين ألف ؛ وكان ممكنا تلافى الرق لآلاف كثيرة لو كان النظامان العسكريان والكنيسة أكثر كرما . وسرعان ما توافد المسيحيون فى صفين طويلين خارجين من البوابات ، أحد الصفين يضم من دفعوا فديتهم بأنفسهم أو دفعها عنهم باليان ، والصف الآخر لغير القادرين على أن يفتدوا أنفسهم ولذا كانوا ذاهبين إلى الرق . وكان المشهد غاية فى الأسى بحيث التفت العادل إلى أخيه صلاح الدين ملتسما منحه ألفا منهم جائزة له على خدماته ، فلبى صلاح الدين طلبه ، فأعتقهم العادل لتوه . وانبسط أسارى البطريق هيراكليوس إذ عثر على وسيلة وخصية لفعل الخير ، فالتمس منحه بعض العبيد كيعتقهم ، فُتِّح سبعمائة ، ومنح باليان خمسمائة . ثم أعلن صلاح الدين نفسه أنه سيعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز . وجاءته السيدات الفرنجيات اللاتي افتدين أنفسهن باكيات يتسألن إلى أين يذهبن بعد أسر أو قتل آبائهن أو أزواجهن ! فوعدهن صلاح الدين بعث الأزواج ومنح الأراسل واليتامى هبات من ماله الخاص بحسب حالة كل منهن . لقد كانت رحمته وشفقته ناصعة البياض على نحو غريب إزاء ما ارتكبه الغزاة المسيحيون فى الحملة الصليبية الأولى .

وكان البعض من أمرائه وجنوده أقل شفقة ؛ إذ كانت هناك حكايات عن ابتزاز بعض المسلمين لبعض المسيحيين لتحريرهم سرا بعد الاستيلاء على كل ما يملكونه . واعتُزف امرء مسلمون آخرون بهروب عبيد بعد تسديد رسوم مرتفعة سرا . غير أن صلاح الدين كان ينزل أشد العقوبة فى كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات^(٣٥) .

وسار صف اللاجئين الطويل بطيئا باتجاه الساحل دون أن يتحرش به المسلمون . وكانوا يرتحلون فى ثلاث قوافل ، يقود الأولى نظام فرسان المعبد ، والثانية نظام فرسان المستشفى ، والثالثة باليان والبطريق . وفى صور ، التى اكتظت بلاجئين آخرين ، لم

(٣٥) أورد إيرنول أكثر الروايات اكتمالا وأصالة، إذ كان مع باليان فى القدس 211-174-5، pp. Ernoult. 30 *Estoire d'Eracles*, II, 81-99؛ ويرد فى 241-51، pp. *De Expugnacione* رواية شاهد عيان جرح أثناء الحصار وكان يعارض الاستسلام ؛ Beha ed-Din، pp.320-40؛ Abu Shama، pp.699-703. *P.P.T.S* pp.118-20؛ وترد قصة يوسف باتيت فى "تاريخ بطارقة الاسكندرية" 207، p. *The History of the Patriarchs of Alexandria*، وهو مرجع قبطى عدرانى؛ إذ يضيف المؤرخ أن المسيحيين الأرثوذكس كانوا فى شدة الحزن من الاستسلام، لأنهم كانوا يفضلون قتل الفرنج .

يسمح بدخول المدينة أحد سوى الرجال القادرين على القتال . وبالقرب من مدينة البطرون، هاجمهم بارون على - ريموند (أوف نيقين) - وسلبهم الكثير من بضائعهم . وواصلوا ارتحالهم إلى طرابلس المكتظة هي الأخرى باللاجئين ، ورفضت السلطات دخولهم لنقص الطعام وأغلقت البوابات في وجوههم . ولم يجدوا ملاذاً يأويهم قبل وصولهم إلى انطاكية . وحتى في انطاكية لم يسمح لهم طوعية بالدخول إذ كان لاجئ عسقلان أكثر حظاً . وعندما رفض قباطنة السفن التجارية الإيطاليون اصطحابهم إلى الموانئ المسيحية إلا برسوم باهظة ، منعت الحكومة المصرية السفن من الإبحار إلى أن أخذوهم بلا رسوم^(٣٦) .

وبقى المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة في القدس . ومن الناحية الرسمية كان على كل فرد منهم أن يدفع الجزية إلى جانب فديته ، وقد أعفى الكثير من الطبقات الفقيرة من الدفع . واشترى الأغنياء منهم الكثير من الممتلكات التي تركها الفرنج بعد رحيلهم، وما بقي اشتراه المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار في المدينة . وعندما وصلت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إيزاك أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته وإعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، فلبى صلاح الدين طلبه بعد قليل من التأخير . وراح الكثير من اصلياء صلاح الدين يحثونه على تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكنه أكد لهم أن المسيحيين ييجلون الموقع وليس المبنى وأنهم لا يزالون يرغبون في الحج إلى هناك ، ولا رغبة لديه في تشييطهم عن ذلك . وفي واقع الأمر أغلقت الكنيسة لثلاثة أيام فقط ، وسُح الحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين^(٣٧) .

وباستعادة صلاح الدين للقدس يكون قد أنجز أهم واجباته الدينية . ولكن هناك بعض القلاع الفرنجية التي لا يزال يتعين إخضاعها . وكانت الليدي ستيفن ، سيدة منطقة الأردن ، من بين الأسيرات اللاتي دفعن الفدية في القدس ، وكانت قد التمسّت من صلاح الدين إطلاق سراح ابنها همفري (أوف تينين) ، فوافق شريطة استسلام حصنها الكبيرين الكرك والشوبك ؛ وأرسل ابنها همفري من سجنه كي ينضم إليها .

(٣٦) Ernoul, pp. 320-4; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 100-3.

(٣٧) عن مصير المسيحيين الوطنيين انظر Bar-Hebraeus, trans. Budge, pp. 326-7؛ وورد Beha ed Din, P.P.T.S pp. 198-201 تبادل السفارات بين صلاح الدين والإمبراطور . ويرد الإغلاق المؤقت لكنيسة القبر المقدس في Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol IX, p. 33. وعن اليهود انظر Schwab, 'Al-Harizi', in *Archives de l'Orient Latin*, I p. 236.

لكن الحاميتين رفضتا كلتاها الانصياع لأوامرها بالاستسلام . ولفشلها فى تنفيذ شرطها أعادت ابنها إلى الأسر ثانية ؛ وهو تصرف أدخل السرور على قلب صلاح الدين ، فأعقب همفري بعد ذلك بأشهر قليلة . وفى تلك الأثناء ضرب العادل والجيش المصرى الحصار حول الكرك . واستمر الحصار ما يربو على سنة كاملة ؛ ولشهور كثيرة أشرف المدافعون على التنصور جوعا ، وأخرجوا نساءهم وأولادهم لإعالة انفسهم بأنفسهم ، بل انهم باعوا فى حقيقة الأمر البعض منهم للدور نظير الحصول على الطعام . ولم تستسلم القلعة إلا فى نهاية عام ١١٨٨ م ، عندما أكلت الحامية آخر حصان فيها . وصمدت الشربك بضعة أشهر بعدها إذ لم يكن الحصار محكما كسابقتها^(٣٨).

١١٨٧ م : دبلوماسية رينالد أمير صيدا

وفى الشمال استسلم فرسان المعبد فى قلعة صفد يوم ٦ ديسمبر ١١٨٨ م بعد شهر من القصف الشديد ، وبعد ذلك حذا فرسان المستشفى حذوهم فى قلعة كركب ، الواقعة فى مكان مرتفع من وادى الأردن . وكانت قلعة هونين قد احتلت قبل ذلك . أما شقيف أرنون الذى لجأ اليه رينالد أمير صيدا ، فقد أنقذ بفضل دبلوماسيته . إذ كان رينالد رجلا متعلما ، شغوبا بالأدب العربى ، فجاء إلى نخيمة صلاح الدين معترفا بأنه على استعداد لتسليم حصنه والتقاعد فى دمشق إذا منح ثلاثة أشهر يتدبر فيها شؤونه ؛ بل إنه ألع إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وكان أسلوبه فى المناقشة فاتنا حتى أن صلاح الدين اقتنع بحسن نواياه ، لا لشيء سوى أن يكتشف بعد فوات الأوان أن الهدنة التى منحها له استغلها فى تعزيز دفاعات الحصن . وفى ذات الوقت كان صلاح الدين قد انتقل إلى منطقة طرابلس وانطاكية^(٣٩).

كان ريموند أمير طرابلس ، بعد فراره من حطين مباشرة ، قد مات فى نهاية عام ١١٨٧ م تقريبا متأثرا بمرض ذات الجنب^(٤٠)، رغم الظن بأن مرضه يرجع إلى الإكتئاب

(٣٨) Ernoul, p.187; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, p. 382; Beha ed-Din, .P.P.T.S pp.139, 143.

(٣٩) Beha ed-Din, *P.P.T.S* pp.122-3, 138-41, 142-3. (٣٩) تقابل المورخ بهاء الدين مع رينالد ووجده جذبا، Abu Shama, pp.395-400; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 191.

(٤٠) (المترجم): التهاب الغشاء البلورى المحيط بالرتين ، ويتصف بصعوبة وآلام النفس ، غالبا مايصعبه ارتشاح سائل فى فراغ الصدر.

(الملائخوليا) والعار ؛ وقد اعتبره كثيرون من معاصريه خائنا ساهمت أنانيته فى دمار المملكة ؛ لكن المؤرخ وليم الصورى وباليان ايلين كانا من أصدقائه ودافع عنه كلاهما. لقد كانت مأساته الحقيقة هى مأساة كل المستعمرين الفرنج من الجيلين الثانى والثالث الذين كانوا على استعداد ، بنزوعهم الطبيعى ومن منطلق السياسية ، لأن يصبحوا جزءا من العالم الشرقى ، لكن تعصب أبناء عمومته من الوافدين الجدد من الغرب أجبرهم على التحزب ، ولم يكن يسعهم فى نهاية الأمر إلا أن يتحزبوا لرفاقهم المسيحيين . ولم يترك ذرية ، ولذا أوصى بتوريث كورتيته لابنه الروحى ريموند ، ابن أقرب أقرباه المذكور بوهيموند أمير انطاكية ، لكنه اشترط أنه فى حالة مجئ أحد من أفراد آل تولوز إلى الشرق تكون الكورتية من نصيبه . وقبل بوهيموند الميراث لابنه ، ثم استعوضه لأخيه الأصغر ، بوهيموند ، خشية أن تصبح انطاكية وطرابلس معا تحت إمرة رجل واحد لا يستطيع الدفاع عنهما^(٤١).

يبد أنه سرعان ما أصبح هناك القليل من الميراث ؛ وفى أول يولية ١١٨٨ م زحف صلاح الدين مخترقا البقاع ، مارا بقلعة فرسان المستشفى فى الكرك التى ظن أنها شديدة القوة بحيث لا يقدر على مهاجمتها ، وبم وجهه شطر طرابلس ؛ لكن وصول اسطول ملك صقلية اليها صرفه عن مهاجمتها، وتحول شمالا . وقصف مدينة طرطوس ، لكن قلعة فرسان المعبد صمدت له . فتابع زحفه أسفل أسوار مرقب حيث حاول فرسان المستشفى التصدى له أثناء مروره . واستسلمت جبيل يوم الجمعة ١٥ يولية واللاذقية يوم ٢٢ من الشهر ؛ وكانت اللاذقية مدينة جميلة ، يرجع تاريخ كنائسها وقصورها إلى العصور البيزنطية ، وبكى المؤرخ المسلم عماد الدين لرؤيتها منهوبة شجرة. ومن اللاذقية تحول صلاح الدين إلى داخل البلاد نحو صهيون ، حيث كان يعتقد أن قلعة فرسان المستشفى لا تقهر ؛ غير أنه بعد أيام قلائل من القتال العنيف استولى عليها بهجوم عام يوم الجمعة ٢٩ يولية . وفى يوم الجمعة ١٢ اغسطس استسلمت حامية قلعة بكناس الشجر ، وكانت ذات حماية جيدة رغم وجود الحصن بمحاور محدود هائل وبجارى كبيرة من أثر المياه ؛ وجاء استسلامها لعدم وجود مساعدة آتية من انطاكية . وفى يوم الجمعة ١٩ سقطت مدينة سرمين . وبعد أيام قلائل ، استسلمت

(٤١) يرد موت ريموند بدران تاريخ محدد فى *Estoire d'Eracles*, p.72، حيث ترد ترتيبات الاستخلاف، وأوردها أيضا عماد الدين (فى ابى شامة p.284) وبهاء الدين. *P.P.T.S.* p.114. ويقول الكتاب العرب إنه مات بمرض ذات الجنب . وعن تصرفه فى حطين انظر أدناه ، المرفق الثانى . ويقول *Benedict of Peterborough* إنه وجد ميتا فى فراشه (II, p. 21).

قلعة برزية الواقعة في أقصى جنوب وادي العاصي . وكان قائدها زوجا لأخت المخير السري لصالح الدين وهي أميرة من أنطاكية ومنح حريته هو وزوجته . وفي ١٦ سبتمبر استسلمت قلعة فرسان المعبد في درب ساك الواقعة في جبال الأمانوس ، وفي يوم ٢٦ سقطت قلعة بجراس التي تسيطر على الطريق من انطاكية إلى كيليكيا^(٤٢) . بيد أن جيش صلاح الدين بات مرهقا الآن ، ورغب جنود سنجار في الذهاب إلى أوطانهم . ولذا ، وعندما توصل الأمير برهمند لعقد هدنة تعترف بكل فتوحات المسلمين، منحها له صلاح الدين . وظن أن بإمكانه أن يفرغ من مهمته وقتما يجب . وكان كل ما تبقى لبرهمند وأولاده عاصمته أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية، بينما احتفظ فرسان المستشفى بحصني المرقب والكرك، وفرسان المعبد بطرطوس^(٤٣) .

١١٨٧ م : الدفاع عن صور

على أنه كانت في الجنوب مدينة لم تسقط بعد لصالح الدين ، وهنا ارتكب خطأه الكبير . ذلك أن بارونات فلسطين اللاجئين احتشدوا الآن في صور ، اقوى مدن الساحل ، التي لم يكن يصلها بالبلاد سوى شبه جزيرة ضيقة رملية بنى غيرها سور ضخيم . ولو أن صلاح الدين عجل بهجومه على صور حالما استولى على عكا ، لما أوقفه شيء حتى هذا السور ؛ لكنه تأخر إلى ما بعد فوات الأوان . وكان رينالد أمير صيدا ، الذي كان وقتئذ يسيطر على المدينة ، يتفاوض من أجل التسليم ، بل إن صلاح الدين أرسل رايين من راياته ليرتفعا فوق القلعة ، لولا أن حدث يوم ١٤ يولية - بعد حطين بعشرة أيام - أن دخلت سفينة إلى الميناء . وكان على ظهرها كورنراد ، ابن مركيز مونتفترات المسن وشقيق الزوج الأول للملكة سيبلا . وكانت معيشته في القسطنطينية ، وكان متورطا في جريمة قتل هناك ، ولذا أبحر سرا مع مجموعة من فرسان الفرنج للحج في الأماكن المقدسة . وكان خالي الذهن عن الكوارث التي حلت بفلسطين ، فاتجه إلى عكا . وعندما وصلت الباخرة خارج ميناء الميناء اندهش القبطان لعدم سماعه صوت الجرس الذي كان عادة يذق عند رؤية سفينة . وحدثه نفسه بأن

(٤٢) -Ernoul, pp.252-3; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, pp. 356-76; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 125-38; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 187-90; Ibn al-Athir, pp. 726-9; ويقتبس أبو شامة 2-361 pp وصف عماد الدين للأذقية ونجزيها .

(٤٣) Ibn al-Athir, pp.732-3; Beha ed-Din, P.P.T.S p.137. كان من المقرر ان تستمر الهدنة سبعة أشهر .

هناك شيئا غير طبيعي ولذا لم يدخل إلى المرسى . وسرعان ما جاءت بمحاذاة سفينة مركب شراعى بسارية واحدة وعليها مسؤول الميناء المسلم ؛ فظاهر كونراد بأن السفينة سفينة تجارية وسأل ماذا هناك ، واجابه المسؤول بأن صلاح الدين استولى على المدينة قبل أربعة أيام . وتسبب الرعب الذى تملكه فى اثاره الريه لدى المسؤول المسلم؛ ولكن كونراد تمكن ، قبل أن يطلق المسؤول سبل الإنذار ، من الإسراع بالإبحار إلى صور ، حيث لقي ترحيبا باعتباره المخلص وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المدينة . والغيت شروط صلاح الدين للسلام وألقى برأيه فى الخندق المائى . وكان كونراد عفيا ، قاسيا ، شجاعا ؛ رأى أن المدينة تستطيع الصمود إلى أن تأتي المساعدة من الغرب ، وكان على ثقة من أن أخبار سقوط القدس سوف تجعل المساعدة تأتي لا محالة . وعندما ظهر صلاح الدين امام صور بعد أيام قليلة ، كانت قوة دفاعاتها تفوق قوته ، فأحضر مركز مونتفرات من دمشق ، وأظهره امام الأسوار مهددا بقتله إن لم تستسلم له المدينة؛ غير أن ورع البتوة لدى كونراد لم يكن قويا بمايكفى لكى يميل عن واجبه كمحارب . مسيحي ؛ فلم يحرك ساكنا ، وبالطية المعتادة أبقى صلاح الدين على حياة الرجل العجوز . ورفع الحصار ليتجه إلى عسقلان . وعندما ظهر مرة أخرى امام صور فى نوفمبر ١١٨٧م وحدها قد عززت من تحصيناتها ، ووصلتها بعض التعزيزات البحرية والعسكرية ، وحال الشريط الأرضى الضيق دون أن يستخدم رجاله ومنحيقاته . وجاء بعشر سفن اسلامية من عكا ؛ لكن المسيحيين استولوا على خمس منها يوم ٢٩ ديسمبر ، واندحر هجوم متزامن على الأسوار . وفى مجلس حرب أنصت صلاح الدين لأمرائه الذين أشاروا إلى أن الجنود فى حاجة إلى الراحة ؛ وكان الشتاء مطيرا وباردا ، وظهرت الأمراض فى المعسكر . وفى أول أيام العام الجديد ١١٨٨م أمر صلاح الدين بتسريح نصف جيشه وانسحب للاستيلاء على الحصون فى داخل البلاد . وأنقذت المدينة بفضل حيوية كونراد وثقته ، وأنقذ معها بقاء المملكة المسيحية^(٤٤).

١١٨٧م : تشريف صلاح الدين

وفىما بعد أسف صلاح الدين أسفا مريرا على فشله فى الاستيلاء على صور . غير أن ما أنجزه كان هائلا بلا أدنى ريب . وسواء جاءت انتصاراته نتيجة لاستجابة

Ernoul, pp. 179-83; *Estoire d'Eracles*, II, pp.74-8, 104-10; *Itinerarium Regis* (٤٤) Ricardi, pp.18-19; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 120-2; Ibn al-Athir, pp. 694-6, 707-12

٥٣٠

الإسلام الحتمية لتحدى الفرنج الدخلاء ، أو نتيجة لسياسة أسلافه العظام ذوي البصيرة
النافذة ، أو نتيجة لنزاعات وحماقات الفرنج أنفسهم ، أو نبعت من شخصيته هو
نفسه ، فقد جاء بالبينة التي تدل على قوة الشرق وروحه . وفى قرنى حطين ، وعلى
بوابات القدس ، انتقم لإهانة الحملة الصليبية الأولى ، وأظهر كيف يحتفل الشريف
بانتصاره .

المرفقات:

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

المرفق الثاني: معركة حطين

المرفق الثالث: شجرات الأنساب

المرفق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

١١٠٠-١١٨٧ م

١- المصادر اليونانية

لا تتناول المصادر اليونانية اللاتينيين في الشرق إلا عند وجود اتصال مباشر مع بيزنطة . وحتى عام ١١١٨ م ، يظل التاريخ المسمى أليكسياد Alexiad الذى كتبه أنا كومنيننا Anna Comnena أهم المصادر اليونانية ، برغم وجود نوع من الإضطراب فيما كتبه من تتابع أحداث الشؤون الفرنجية^(١) . وفيما يتصل بعهدى جون ومانويل كومنينوس ، يعتبر تاريخى جون سيناموس John Cinnamus ونيكتاس أكوميناتوس، أو خونيااتيس Acominatus, or Choniates Nicetas المصدرين الأساسيين . إذ كان الأول كاتم سر الامبراطور مانويل كومنينوس وكتب تاريخه بعد موت مانويل مباشرة . ويفتقر تاريخ عهد الامبراطور جون إلى المهارة ؛ غير أنه يتناول تاريخ مانويل نفسه بعناية ويعتبر حديرا بالثقة . وبغض النظر عن بعض التحيزات الوطنية الطفيفة ، فهو مؤرخ ذو رصانة ، يمكن الإعتماد عليه^(٢) . أما نيكتاس Nicetas ، فكتب تاريخه فى باكورة القرن الثالث عشر ، ويغضى الفترة من عهد الامبراطور جون إلى ما بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية . وتاريخه مستقل تماما عن تاريخ سيناموس Cinnamus وبدءا من النصف الأخير من حكم مانويل قُدُما ، يصف الأحداث التى

(١) - انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر .

(٢) - نشر فى مجموعة Bonn Corpus .

يعرفها معرفة شخصية، وعلى الرغم من الأسلوب البلاغى السائد والميل إلى الأخلاقيات ، فإنه تاريخ دقيق يمكن الإعتماد عليه^(٣). ولا يوجد مصدر يونانى آخر له أهمية رئيسية^(٤)، فيما عدا رواية مثيرة وإن كانت غامضة حول رحلة حج قام بها إلى فلسطين عام ١١٧٨م من يدعى جون فوكاس^(٥) John Phocas .

٢- المصادر اللاتينية

أهم مصادرنا للتاريخ المبكر للدويلات الصليبية هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، وبصورة ملحوظة فولشر اوف تشارترز Fulcher of Chartres وألبرت اوف آيكس Albert of Aix، وبدرجة أقل رادولف اوف كاين Radulph of Caen ، وإيكار اوف أوربا Ekkehard of Aura وكافارو Caffaro وقد ناقشت تلك المصادر فى الجزء الأول من هذا التاريخ. ويتعين اضافة أنه بالنسبة للفترة ١١٠٠ إلى ١١١٩م ، وعندما تصل إلى نهايتها يمكن ان يعتبر تاريخ ألبرت المصدر الذى يعتمد عليه بصورة شاملة. وليس معروفا مصدر حصوله على المعلومات، بيد أنه يعطابقته على المصادر السورية فإنها تؤيده.

ويغطى التاريخ الأنطاكي للفترة ١١١٥م إلى ١١٢٢م عمل قصير يسمى De Bello Antiochene كتبته المستشار وولتر Walter the Chancellor ، الذى ربما كان مستشارا للأمير روجر . وهو عمل يتصف بالأصالة وزاخر بالمعلومات المفيدة حول تاريخ مؤسسات انطاكية آنذاك^(٦).

ومن عام ١١٢٧م ، عندما ينهى فولشر عمله ، وحتى العقد الأخير السابق على استيلاء صلاح الدين على القلس، فإن مصدرنا الهام الوحيد هو تاريخ وليسم الصورى William of Tyre's Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum ،

(٣) نشر فى مجموعة Bonn Corpus .

(٤) لا يزال زوناراس Zonaras مفيدا للسنوات الأولى من القرن . انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وما كتبه Manasses من تاريخ منظوم لا يقدم سوى مادة ضئيلة قليلة الأهمية (نشر فى مجموعة Bonn Corpus) ونشرت القصائد ذات الصلة التى كتبها برودروموس Prodromus فى (مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. Recueil des Historiens des Croisades).

(٥) Translated in the Palestine Pilgrims' Text Society, vol. v.

(٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. Recueil.

الذى يغطى الفترة من ١٠٩٥م إلى ١١٨٤م^(٧). وقد ولد وليم فى الشرق بعد عام ١١٣٠م بفترة قصيرة . وربما تعلم اللغة العربية واليونانية فى طفولته ، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته . وبعد عودته إلى فلسطين مباشرة أصبح رئيس شمامسة صور ومستشارا للمملكة من ١١٧٠م إلى ١١٧٤م . كما كان معلما للبلدوين الرابع فى صغره . وفى عام ١١٧٥م أصبح رئيس اساقفة صور ، وفى عام ١١٨٣م ، وبعد فشله فى الحفاظ على البطريراقية ، تقاعد فى روما حيث مات قبل عام ١١٨٧م . وبدأ كتابة تاريخه عام ١١٦٩م ، وأنهى الكتب الثلاثة عشر الأولى بحلول عام ١١٧٣م . وقد اخذ معه العمل كله إلى روما وكان ما يزال يعمل فيه وقت موته واعتمد وليم فى روايته عن الحملة الصليبية الأولى اعتمادا رئيسيا على ألبرت Albert ، وبدرجة أقل على ريموند اوف اجيلير Raymond of Aguilers وعلى نسخة Baudri من Gesta ، وعلى فولشر Fulcher من عام ١١٠٠م إلى عام ١١٢٧م ، وفولشر مصيره الرئيسى ، رغم أنه استعان ايضا بالمستشار وولتر . وإضافاته الوحيدة اليهم حكايات شخصية حول الملوك ومعلومات عن الكنائس الشرقية وعن صور . وخلال الفترة من ١١٢٧م وحتى عودته إلى الشرق كان يعتمد على محفوظات المملكة وعلى هيكل تاريخى للملوك ، مفقود الآن . وترتبط على ذلك فإن معلوماته عن شمال سوريا لايعول عليها . ومن ستينات القرن الثانى عشر قُدما كانت لديه معرفة وثيقة ومتبصرة عما كان يصفه من احداث وشخصيات فاعلة . ويغلب الاضطراب على تواريقه وأحيانا يتوفر البرهان على أنها خاطئة . وربما يرجع ذلك إلى أنها أضيفت إلى مخطوطاته عن طريق ناسخ لمخطوطاته فى وقت مبكر . ويعتبر وليم واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسطى . وكانت له تحاملاته ، مثل كراهيته للسيطرة العلمانية على الكنيسة ، غير أنه معتدل فى كلماته إزاء أعدائه هو شخصيا ، مثل البطريق هيراكليوس ، وأجنس اوف كورتناى ، وكانا كلاهما يستحقان ملامته . وكان يرتكب الأخطاء حيثما تكون معلوماته غير كاملة . بيد أنه كان ذا بصيرة نافذة؛ إذ وعى مغزى الأحداث العظام التى حدثت فى عصره ، وتعاقب المسببات والنتائج فى التاريخ . وأسلوبه مباشر ولا يخلو من خفة الظل . ويترك عمله الإنطباع بأنه كان هو نفسه حكيما ، شريفا ، محبوبا . ولسوء الحظ ، فقد عمله الآخر - تاريخ الشرق - History of the East الذى اعتمد فيه اساسا على التاريخ العربى

(٧) نشر في مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. *Receuil* انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر . وعن تأريخ وليم انظر Steven فى مؤلفه Crusaders in the East, pp. 361-71 ، وهو عمل موثق ويشتمل على مناقشة كاملة .

الذى كتبه سعيد بن البطريق ، رغم اعتماد مؤرخى القرن التالى عليه ، من مثل جاك أوف فيترى. Jacques of Vitry .

ولتاريخ وليم الصورى استطراد Continuation لاتيني كُتب فى الغرب عام ١١٩٤ ، باضافات لاحقة^(٨) ، وهو عمل يتصف بالرصانة والموضوعية ، وربما استند إلى عمل مفقود يعتبر ايضا أساسا للكتاب الأول من خط سير الملك ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، الذى يغطى السنوات من ١١٨٤م إلى الحملة الصليبية الثالثة^(٩) . ومن المشاكل الجسيمة مداومة الكتابة باللغة الفرنسية القديمة ؛ وقد حدث فى نحو منتصف القرن الثالث عشر أن ترجم احد أتباع الملك الفرنسى تاريخ وليم ، فشرح بعض النصوص وأدخل تعليقات مشكوك فى قيمتها ، وأضاف إلى ذلك التاريخ اضافات تاريخية امتدت لفترة طويلة فى القرن الثالث عشر . ومن كلماته الافتتاحية ، يعرف هذا العمل عادة بأنه تاريخ هرقل Estoire d'Eracles وفى نفس الوقت تقريبا ظهر فى الشرق لمن يدعى برنارد الخازن Bernard the Treasurer استطرادا لعام ١١٢٩م تعزى إلى إرنول Ernoul الذى كان متبوعا لبلدوين أوف إيلين . وترتبط هاتان التزجمتان ارتباطا وثيقا ، وهما موجودتان فى عدد كبير من المخطوطات التى تضم ، مع ذلك ، اختلافات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات للفترة من ١١٨٤م إلى ١١٩٨م . ولا يمكن الحكم على أي من المجموعات الثلاث بأنها المخطوطة الاصلية ، إذ أن كل مجموعة تضم أحداثا غير موجودة فى أي من الأخرتين . وأكثر الحلول احتمالا هو أنها كلها تعتمد على عمل مفقود كتبه إرنول نفسه عن هذه الفترة . وبقينا كتب إرنول أصلا أحداث يوم أول مايو ١١٨٧م ، وهى واردة فيما كتبه برنارد عن إرنول ؛ وتظهر المجموعة كلها اهتماما بآل إيلين وتشتمل على الكثير مما وصفه شهود العيان مما يتلاءم مع أصالة أحد افراد آل إيلين . وعلى الحملة تعتبر تلك الاستطرادات مصادر يعتمد عليها برغم كونها غير موضوعية . ويبدو أن إرنول كان يسجل بعناية بقدر ما يسمح به تحيزه لصالح آل إيلين . ويأتى الترتيب التاريخى للفقرات الأولى عشوائيا ؛ ويبدو أنها تتألف من ملاحظات وذكريات غير متصلة ببعضها البعض^(١٠) .

(٨) نشره M. Salloch .

(٩) نشر خط سير الملك ريتشارد Itinerarium فى سلسلة Rolls التى يحررها Stubbs .

(١٠) يرد نشر Estoire d'Eracles فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil ونشر Ernoul عن طريق Mas Latrie وللإطلاع على مناقشة المشكلة برمتها انظر مقدمة Mas Latrie لإرنول وكاهن La Syrie du Nord, pp.21-4.

كما يرد وصف موجز لفتح صلاح الدين لفلسطين فى *Libellus de Expugnatione Terrae Sanctae Saladinum* ، ويعزى أحيانا إلى رالف أوف كوجشال *Ralph of Coggeshall* ويكاد يكون من اليقين إن الذى كتبه رجل انجليزى بعد سنوات قليلة من الحادثة التى يصفها . ويظهر الكاتب إعجابا بالنظامين العسكريين ، وخاصة نظام المعبد ، وقد سكت بمهارة عن سيئاته ، لكنه أظهر فى الوقت ذاته مودته لريموند أمير طرابلس . ويدرج رواية لأحد شهود العيان فى حصار القدس قائلها هى نفسها جندى جرح هناك^(١١).

وهناك تواريخ متأخرة عن الملكة تضيف معلومات أخرى ، وخاصة *Historia Regni Hierosolymitani* ، وهو استطراد لكفارو *Caffaro* ، وحوليات الأرض المقدسة *Annales de la Terre Sainte* ، وموجز للتاريخ المسمى *Historia Regum Hierosolymitanorum*^(١٢) وترد معالجة كاملة للحملة الصليبية الثانية فيما كتبه أودو أوف دويل *De Ludovici VII profectione in Orientum* of Odo of Deuil ، وهى رواية حية ومتحملة للغاية لأحد المشتركين فى رحلة لويس وصل فيها حتى اضايا ، وترد بإيجاز أكثر فى *Gesta Friderici* التى كتبها *Otto of Freisingen* وكان هو نفسه مشترك فى الرحلة أيضا ؛ وحياة لويس السابع التى كتبها سوجر^(١٣) *Life of Louis VII by Suger* وأما قصيدة أمبرواز *Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte* ، وكذلك خط سير الملك ريتشارد *Itinerarium Regis Ricardi* ، وبرغم معالجتهم للحملة الصليبية الثالثة ، فلا تعرضان سوى معلومات استعادية^(١٤).

ويورد مؤرخون غربيون كثيرون فقرات تتصل بالشرق اللاتينى ، مثل الإنجليزى *William of Malmesbury* و *Benedict of Peterborough* ، وكذلك المهتمون بالحملة الصليبية الثالثة ؛ والفرنسى *Sigebert of Gembloux* ومكملوه، و *Robert of Torigny*؛

(١١) نشرها J. Stevenson فى سلسلة *Rolls* .

(١٢) نشرت *Historia Regni Hier.* فى *M.G.H.Ss.* ، ونشرت *Annales de la Terre Sainte* عن طريق Rohricht فى *Archives de l'Orient Latin* وفى *Historia Regum* .in Kohler. *Mélanges*.

(١٣) Odo, or Eudes, Of Deuil's book has recently been edited by Waquet, and Otto of Freisingen's *Gesta* by Hofmeister in *M.G.H.Ss.*, new series سوجر

(١٤) نشر Ambroise عن طريق G. Paris وتوجد ترجمة انجليزية بملاحظات مفيدة قام بها Hubert and La Monte.

والإيطاليان Romuald and Sicard of Cremona وغيرهم^(١٥). ويعتبر Norman Orderic Vitalis، أهمهم إذ أن تاريخه الذى ينتهى عام ١١٣٨م زاحر بالمعلومات المتصلة بالشرق الفرنجى Outremer، ولا سيما ما يتصل بشمال سوريا، ويحتمل أن كان له أصدقاء أو أقارب بين نورمانديي انطاكية. ويتضح ان الكثير من القصص التى رواها ليست سوى اساطير، ولكن الكثير من المادة التى كتبها مقنعة ولا توجد فى اماكن اخرى^(١٦).

وفيما يتصل بالرسائل المعاصرة ذات الصلة، فإن أهم مجموعة رسائل هى الواردة فى المراسلات البابوية. والمراسلة بين لويس السابع وكونراد الثالث تلقى الضوء على الحملة الصليبية الثانية^(١٧) وبقيت من الضياع رسائل قليلة كتبها لاتينيون بارزون فى الشرق^(١٨) وبقيت من الضياع محفوظات ثلاث منشآت كنسية فى الشرق، وهى محفوظات كنيسة القبر المقدس، ومحفوظات دير القديسة ماري جوزافات Saint Mary Josaphat ومحفوظات دير القديس لازاروس Saint Lazarus وتكاد محفوظات نظام فرسان المستشفى أن تكون كاملة، ولكن محفوظات نظام فرسان المعبد فلا تعرف إلا بمراجع نادرة وغير مباشرة. كما يوجد عدد معين من السجلات العلمانية التى تتناول نقل الأرض فى الدويلات الفرنجية^(١٩)، وتعطى المحفوظات البابوية بعض المعلومات الإضافية؛ وأما المعلومات المتصلة بالشؤون التجارية فيمكن استخلاصها من محفوظات بيزا والبندقية وجنوا^(٢٠). وأما قوانين القلس Assises، التى كتبت فيما بعد، فتضم قوانين assises محددة يرجع تاريخها ابتداء من القرن الثانى عشر^(٢١).

(١٥) للإطلاع على ما نشره هؤلاء المؤرخون، انظر قائمة المصادر والمراجع.

(١٦) لا تزال أفضل طبعة لتاريخ Orderic هى طبعة Le Prévost.

(١٧) نشرت فى R.H.F. and in Wibaldi Epistolae (Jaffé, Bibliotheca), respectively.

(١٨) أغلبها نشر فى R.H.F. ويوجد غيرها فى شتى التواريخ.

(١٩) انظر قائمة المصادر والمراجع عن السجلات Cartulaires وأغلبها مختصر فى Rohricht's Regesta.

(٢٠) ترد الرسائل البابوية فى M.P.L. ولم تُنشر المحفوظات الايطالية كاملة. وأورد Cahen موجز لما صدر منها 3-4 pp. op. cit.

(٢١) نُشرت القوانين Assises فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. the Recueil للإطلاع على مناقشتها انظر La Monte، فى مؤلفه، pp.97-100 Feudal Monarchy، و Grandclaude، فى op.cit فى اماكن متفرقة.

ومن السجلات المثيرة للإهتمام ما تركه مسافران سافرا إلى فلسطين خلال القرن الثاني عشر ، هما Saewulf ، الذي ربما كان انجليزيا وزار البلد عام ١١٠١ م ، والألماني John of Wurzburg ، الذي زار البلد حوالي ١١٧٥ م^(٢٢).

٣- المصادر العربية

بتقدم القرن الثاني عشر أخذ عدد المصادر العربية المعاصرة فى التزايد . وبالنسبة للجزء الأول من القرن نعتد على ابن القلانيس Ibn al-Qalanisi فى الشؤون الدمشقية ، وعلى العظيمى al-Azimi فيما يتصل بشمال سوريا ، وعلى التاريخ الذى يبدو مشوشا شيئا ما الذى كتبه ابن الأزرقي^(٢٣) Ibn al-Azraq فيما يتعلق بالجزيرة بخلاف ما ورد من استشهاد من تواريخ مفقودة اقتبسها مؤرخون متأخرون . ومع ذلك ، لدينا المذكرات القيمة التى كتبها أسامة ابن منقذ^(٢٤) Usama ibn Munqidh وكان أسامة من امراء شيزر ، وقد ولد عام ١٠٩٥ م. وبعد ثلاثين سنة ، نفى نتيجة لمكائد عائلية ، وأمضى مابقى من عمره الذى بلغ ثلاثا وتسعين سنة فى دمشق أساسا ، مع فترات اقامة فى مصر وديار بكر . وبرغم كونه من مدبرى المكائد الماهرين ، وكان الولاء الشخصى بالنسبة له لا يعنى شيئا ، فقد كان رجلا ذا فتنة ساحرة وذكاء ، وكان جنديا ، مولعا بالألعاب الرياضية ، وأديبا . وليس فى مذكراته التى تسمى الإعتبار Instruction by Examples ، ترتيب تاريخي ، وقد جمعها شيخ مسن دون تحقيق ، لكنها تعطى صورة حية غير عادية للحياة فيما بين الأرستقراطية العربية والفرنجية فى عصره . وتضارعها حيوية رحلات ابن جبير الأندلسي Spaniard Ibn Jubayr ، وقد مر ابن جبير فى مملكة القلس عام ١١٨١ م^(٢٥).

(٢٢) نشرت وترجمت الى الإنجليزية فى P.P.T.S. vols.IV AND V .

(٢٣) لم ينشر كاملا . والإقتباسات ذات الصلة حللها Cahen فى . Journal Asiatique, 1935 .

(٢٤) بالنسبة لأسامة ، أستخدم أنا ترجمة فيليب حتّى Hitti بعنوان An Arab-Syrian Gentleman تستند الى دراسة معنية بالنص الأصلي بصورة أكثر من نص Derenbourg ، الذى نشر عام ١٨٩٥ . والترجمة الإنجليزية التى ترجمها Potter تستند الى نص Derenbourg .

(٢٥) نشر Wright النص الكامل لابن جبير منذ قرابة مائة عام فى Leyden . ويجرى نشر ترجمة الى الفرنسية يقوم بها Gaudefroy-Demonbynes ، وسوف تصدر قريبا ترجمة Broadhurst الى اللغة الإنجليزية . ويرد فى Recueil بعض الإقتباسات .

أما سيرة حياة صلاح الدين فقد ألهمت جمعا غفيرا من الكتاب ، أهمهم عماد الدين الأصفهاني^(٢٦) Imad ed-Din of Isfahan ، وبهاء الدين بن شداد^(٢٧) Beha ed Din ibn Shedad ، والمؤرخ المجهول الذى كتب (البستان)^(٢٨) the General Garden of all the Histories of the Ages وكان عماد الدين يعمل موظفا سلجوقيا فى العراق ، والتحق بخدمة نورالدين ، ثم أصبح كاتم سر صلاح الدين من عام ١١٧٣م قُدما . وكتب عددا من الأعمال ، بما فيها تاريخ السلاجقة وروى حروب صلاح الدين . وهذه الأخيرة تكاد تكون برمتها مستنسخة عند أبى شامة ، وتعد أكثر المصادر ثقة حول ترجمة صلاح الدين . وأسلوبه مزخرف على نحو غريب ومعقد ولا يخلو من صعوبة . كما كان بهاء الدين من حاشية صلاح الدين منذ عام ١١٨٨م . وأما ما كتبه عن حياة صلاح الدين ، فيأتى فى أسلوب بسيط ودقيق ، يعتمد أساسا على السماع وبعض ذكريات صلاح الدين نفسه حتى ذلك التاريخ . ومنذ آنذاك ، اتصف بالدقة التى يتصف بها عماد الدين . وقد كتب البستان فى حلب فى ١١٩٦/١١٩٧م ، وهو على نحو ما تاريخ أجوف وموجز للإسلام ، يتناول أساسا حلب ومصر ، لكنه يضم معلومات لا توجد إلا فى فيما كتبه ابن طي من تاريخ لاحق أكثر اكتمالا وربما اعتمد كلاهما على مصدر شيعي مفقود . وأما المؤرخان الآخران الفاضل الشيباني وابن الدهان ، فليسا معروفين إلا من الإقتباسات^(٢٩) .

ويعتبر ابن الأثير الموصلى ، المولود فى ١١٦٠م والمتوفى فى ١٢٣٣م ، أعظم كتاب التاريخ فى القرن الثالث عشر . ومؤلفه "كامل التواريخ" عبارة عن تاريخ العالم الإسلامى ، دأب فيه على توخى العناية فى اختيار ما يعد حساسا من الكتاب السابقين عليه والمعاصرين له . وبالنسبة للحملة الصليبية الأولى وبداية القرن الثانى عشر ، تعتبر مقدماته مقتضبة نوعا ما . وبالنسبة لنهاية القرن يستند أساسا على مؤرخين كانوا فى حاشية صلاح الدين ، رغم ما يضيفه من ذكريات شخصية قليلة . وبالنسبة لمنتصف القرن ، الذى لم يكتب فيه مؤرخ اسلامى على قدر من الأهمية ، يبدو أنه استخدم

(٢٦) للإطلاع على أعمال عماد الدين انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 50-2 ، ويورد أبو شامة Abu Shama (أنظر أدناه ص ٤٨٢) ، اقتباسات طويلة من أعماله .

(٢٧) نشر النص العربى عن طريق Schultens, and in *Recueil* وأنا أشير فى الحواشى المذكورة اعلاه الى النص المنشور فى P.P.T.S. والذى جمع من علاقة مختلطة من النشرين .

(٢٨) نشره Cahen فى *Bulletin de l'Institut Oriental à Damas* .

(٢٩) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 52-4 .

مادة أصيلة . ولا يخلو تاريخه من عيوب ؛ فهو لا يسمّى مصادره وغالبا ما يغير الروايات لكي تناسب خاصة مع تحيزه لزنكى . بيد أنه - كشأن وليم الصوري - يعد مؤرخا حقيقيا حاول ان يفهم المغزى الواسع للأحداث التي يصفها . وأما عمله الثاني "تاريخ اتابجة الموصل" فيعتبر من الكتابات ذات المستوى المنخفض ، وتتصف نوعا ما بالتقريظ الخالي من النقد ، والتي مع ذلك تشتمل على بعض المعلومات التي لا توجد في غيره^(٣٠) ..

أما كتاب كنوز الذهب لابن أبي طي الحلبي Mines of Gold of Ibn abi Tayyi of Aleppo ، وهو وحده أعظم مؤرخي الشيعة ، والمولود في ١١٨٠ م ، فلا نعرفه إلا من غزارة استخدم مؤرخي السنة لإعماله ، وكانوا مدركين لهذه الحقيقة . ومن الواضح أنه عمل يتصف بأهمية عظمى ، يغطي التاريخ الإسلامي كله ، مع إشارة خاصة لحلب ؛ ومن الاقتباسات المتبقية ، لا بد وأن هذا العمل استفاد في تفصيلاته من نفس المصدر الذي أفاد منه البستان^(٣١) .

أما كمال الدين الحلبي Kemal ad-Din of Aleppo ، الذي عاش من ١١٩١ م إلى ١٢٦٢ م ، ومؤلف موسوعة تراجمية ربما لم يتمها ، فقد كتب قبل ١٢٤٣ م تاريخ حلب ، وهو تاريخ طويل واضح وسهل الأسلوب ، يعتمد بصورة كبيرة على العظمى وابن القلانيسى ومعاصري صلاح الدين ، وكذلك على التقاليد والأخبار المتواترة . ولا يتوخى كمال الدين الدقة في إيراد العلاقة بمصادره ، وهو متحامل على الشيعة^(٣٢) . وأما سبط بن الجوزي Sibṭ Ibn al-Djauzī ، المولود في بغداد عام ١١٨٦ م ، فكتب أحد أطول التواريخ الإسلامية ، مرآة الزمان ؛ على أنه فيما يتعلق بالقرن الثاني عشر لم يفعل سوى ان استنسخ معلومات أوردها كتاب سابقون^(٣٣) . وفي ١٢٥١ م أكمل أبو شامة Abu Shama ، المولود في دمشق عام ١٢٠٣ م ، تاريخا لعهدى نورالدين وصلاح الدين يسمّى "كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين"^(٣٤) ويتألف بدرجة كبيرة من نسخ

(٣٠) عن الإصدارات ، انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع.

(٣١) انظر Cahen, op. cit. pp.55-7.

(٣٢) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . وترجم Blochet فصوله التي تغطي الفترة الأخيرة من القرن الثاني عشر وهي منشورة في Revue de l'Orient Latin .

(٣٣) يرد في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil اقتباسات قليلة . ونشر Jewett (Chicago, 1907) طبعة مصورة أخرى من المخطوطة التي تعتبر مختلفة نوعا ما.

(٣٤) نشر في بولاق عام ١٨٧١ م وعام ١٨٧٥ م . والمراجع التي أستند إليها هي اقتباسات نشرت في

مطابقة من ابن القلانيسى ، وبهاء الدين ، وابن الأثير (الأتابج) ، وابن ابى طي ، والفاضل ، وقبلهم جميعا عماد الدين الذى كان حريصا فى شغل على تشذيب أسلوبه مع ذلك.

ومن بين المؤرخين المتأخرين كتب أبو الفدا ، الذى كان أميرا لخماء فى بداية القرن الرابع عشر، تاريخا ليس فيه أكثر من موجز مفيد للمؤرخين الأبر ، ولكنه حاز على شعبية هائلة ودائما ما يُقتبس^(٣٥).

أما ابن خلدون Ibn Khaldun ، الذى كتب فى نهاية القرن الرابع عشر ، فقد لخص ابن الأثير فيما يتصل بالشؤون السورية ، لكنه بالنسبة للتاريخ المصرى استخدم تاريخ ابن الطوير ، وهو تاريخ مفقود كتب فى عصر صلاح الدين^(٣٦). ويشتمل تاريخ المقرئى Maqrîsi ، الذى كتب فى بداية القرن الخامس عشر ، على معلومات حول مصر لا توجد فى سواه^(٣٧).

أما قاموس التراجم (وفيات الأعيان) الذى جمعه ابن خلكان Ibn Khallikan فى القرن الثالث عشر ، فيضم شذرات قليلة فريدة من المعلومات التاريخية^(٣٨).

ولا توجد مصادر تتناول أترك الأناضول مباشرة . وفى واقع الأمر ، يُخبرنا مؤرخ القرن الثالث عشر ابن يبيى Ibn Bibi أنه لم يستطع الشروع فى كتابة تاريخه عن السلاجقة قبل عام ١١٩٢ م ، وهو العام الذى مات فيه قلعج ارسلان الثانى ، نظرا لافتقاره إلى المادة التاريخية^(٣٩) كما لا توجد أية مصادر فارسية ذات صلة.

بمجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٥) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٦) طبع فى بولاق عام ١٨٦٨م فى سبعة مجلدات.

(٣٧) ترجم Blochet اقتباسات منه نشرت فى *Revue de l'Orient Latin* .

(٣٨) ترجمه de Slane الى الفرنسية.

(٣٩) ترد تعليقات ابن يبيى فى بداية المجلد الثالث من مؤلف هوتسما Houtsma المعنون "الصورى المتعلقة بتاريخ السلاجقة" (وهو ترجمة تركية قديمة لابن يبيى *Textes Relatifs à l'Histoire des Seldjoukides*).

٤- المصادر الأرمنية

أهم مصدر أرمني للعقود الأولى من القرن الثاني عشر، كشأن الحملة الصليبية الأولى، هو ماثيو الأورفي Matthew of Edessa، المتوفى عام ١١٣٦م وأكمل عمله، بنفس الروح الوطنية المعادية لبيزنطة، جريجورى القسيس الكيسونى Gregory the Priest, of Kaisun، حتى عام ١١٦٢م^(٤٠). أما معاصره، القديس نيرسيس شنورمال الأول Saint Nerses Shnorhal I، بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) من عام ١١٦٦م إلى عام ١١٧٢م، فقد كتب قصيدة طويلة عن سقوط الرها، تفتقر نوعاً ما إلى الاهتمام الشعرى والتاريخى^(٤١)، لا ولا كانت القصيدة الطويلة التى كتبها خليفته، بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) جريجورى الرابع دغا Catholicus Gregory IV Dgha مؤثرة هى الأخرى^(٤٢). والأحسن من الناحية الشعرية المراثاة التى كتبها قسيس يدعى بازل العالم الدينى Basil the Doctor، لبلدوين أمير مرعش، وكان واعظه الكنسى^(٤٣) والأكثر أهمية حوليات صموئيل أوف أنى Annals of Samuel of Ani، التى كتبت فى أرمينيا الكبرى ووصلت عام ١١٧٧م^(٤٤) وهى تعتمد جزئياً على متى Matthew وجزئياً على التواريخ المفقودة التى كتبها جون الشماس John the Deacon وآخر يدعى ساركافاج Sarcavag. وأما الجمرعة التالية من المؤرخين الأرمن، مثل ميخيتاز أوف إيرافانك Mekhitar of Airavan، وفارتان Vartan، وكيراكوس Kirakos، فلا يعتمد عليهم كثيراً عندما يتناولون الشؤون الفرنجية، رغم أنهم على جانب من الأهمية للخلفية الإسلامية^(٤٥). ويبدأ مؤرخو أرمينيا الصغرى (كيليكيا) بكتاب مجهول ترجم فى حوالى عام ١٢٣٠م تاريخ ميخائيل السورى، وعدل فيه كما

(٤٠) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية (Recueil) والتى أشير أنا إليها فى الحواشى). كما ترجمها Dulaurier فى نهاية إصداره لمتى الأورفي. Matthew of Edessa.

(٤١) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٢) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٣) توجد مقتبسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٤) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٥) توجد اقتباسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

يحلوه بحيث يتفق مع وطنيته المشهورة^(٤٦). وفي حوالى عام ١٢٧٥م ، كتب الكونستابل سيمباط Sembat ، وهو مترجم قوانين Assises انطاكية ، تاريخا يعتمد على متى Matthew و جريجورى Gregory بالنسبة للقرن الثانى عشر ، ولكنه يضيف معلومات قليلة مشتقة من محفوظات الدولة^(٤٧). وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب من يسمى "المؤرخ الملكى" Royal Historian تاريخا لم ينشر بعد مطلقا^(٤٨). وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر كتب المفوض فاهرام الأورفى Vahram of Edessa التاريخ المقتضى Rhymed Chronicle ، الذى يستند بدرجة كبيرة إلى متى Matthew ، غير أنه يضم معلومات غير معروف مصدرها^(٤٩).

٥- المصادر السريانية

يعتبر "تاريخ العالم" الذى كتبه ميخائيل السورى Michael the Syrian أهم المصادر السريانية^(٥٠). وكان مؤرخا معتنيا حي الضمير ، والذى كان تحامله الوحيد مناهضته لبيزنطة . وهو يذكر المصادر السريانية التى استخدمها ، وكلها مفقود الآن ؛ كما أنه عرف مصدرا عربيا مجهولا للسنوات من ١١٠٧م إلى ١١١٩م ، والذى يبدو أنه كان معروفا كذلك لابن الأثير.

ويوجد تاريخ سريانى مجهول ، كتبه قس مغفور فى الرها حوالى عام ١٢٤٠م ، يضم معلومات قيمة حول الرها ، بخلاف معلومات مشتقة بوضوح من ميخائيل^(٥١). وقرب نهاية القرن الثالث عشر كتب جريجورى أبو الفرج ، ويعرف بصورة أفضل باسم ابن العبرى Bar-Hebraeus ، تاريخا للعالم ، يعتمد بالنسبة إلى القرن الثانى عشر

(٤٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٨) المخطوط اليدوى موجود فى البندقيّة فى المكتبة الميخترية Mekhitarist Library .

(٤٩) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٥٠) نشره Chabot وترجمه الى الفرنسية.

(٥١) نشر القسم الأول من هذا التاريخ بترجمة انجليزية قام بها Tritton (*Journal of the Royal Asiatic Society*)؛ انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . ونشر Chabot النص الكامل باللغة السريانية فى *Corpus Scriptorum Orientalium* .

بصورة رئيسية على ميخائيل وابن الأثير ، ولكن بقدر معين من المعلومات المشتقة من مصادر فارسية أو غيرها^(٥٢).

٦- مصادر أخرى

تعتبر رحلة بنيامين التيطلي Voyage of Benjamin of Tudela المصدر اليهودي الوحيد الهام لهذه الفترة، وهو يورد رواية معتنية عن المستعمرات اليهودية في سوريا في وقت رحلته حول البحر المتوسط في الفترة من ١١٦٦م إلى ١١٧٠م^(٥٣).

أما المصادر الجورجية ، وهي ذات قيمة فقط بالنسبة لتاريخ جورجيا والأراضي المجاورة ، فقد جُمعت مع بعضها البعض في تاريخ واحد "تاريخ جورجيا" Georgian Chronicle، ونشر في القرن الثامن عشر^(٥٤).

ويوجد باللغة السلوفية القديمة Old Slovanic رحلة حج دانيال هيجومين Pilgrimage of Daniel the Higurene وقد زار فلسطين عام ١١٠٤م^(٥٥).

وتوجد قصص نرويجية معينة ، ولا سيما التي تتناول الحملة الصليبية للملك سيجورد Sigurd ، تشتمل على قطع من المعلومات التاريخية المثيرة للإهتمام في وسط التفصيلات الأسطورية^(٥٦).

(٥٢) نشرها Wallis Budge وترجمها الى الإنجليزية.

(٥٣) نشرها Adler .

(٥٤) نشره Brosset .

(٥٥) - ترجمتها الى الفرنسية Mine de Khitrowo ولم يتمكن من رؤية النص السلوفاكي . كما أنها ترجمت من السلوفية المختصر رحلة حج الديارة إيوفروسين Pilgrimage of the Abbess Euphrosyne .

(٥٦) يرد موزها في Riant, Les Expéditions des Scandinaves .

المرفق الثاني

معركة حطين

تصف المصادر العربية واللاتينية معركة حطين بشئ من الإسهاب ، غير أن ما يرد في تلك المصادر يفتقر دائما إلى التنسيق . وقد حاولت في الصفحات ٤٥٥-٦٠ أعلاه أن أذكر رواية متناسقة بقدر الإمكان عن المعركة ، على أنه لا بد من تسجيل الاختلافات . ومن سوء الطالع أن مؤرخين اثنين فقط يبدو أنهما قد حضرا المعركة هما إيرنول ، الذي يفترض أنه ، بصفته تبيعا لباليان (أوف ايبيلين) ، قد صحب سيده وهرب معه ، وعماد الدين الأصفهاني الذي كان في حاشية صلاح الدين ، هذا بخلاف تيرينس أو تيريكوس (Terence or Terricus) ، وهو من فرسان المعبد كتب رسالة مقتضبة حول المعركة ، وبعض المسلمين الذين اقتبس أبو شامة رسائلهم . بيد أن الرواية الأصلية التي كتبها إيرنول تلاعب فيها برنارد الخازن Bernard the Treasurer وغيره من المؤرخين التابعين على وليم الصوري ، وأما رواية عماد الدين ، ویرغم أنها تنبض بالحياة أحيانا فإنها خليقة بأن توصف بالبلاغة أكثر من كونها تتصف بالدقة . وأما ما نقله الأفضل ، ابن صلاح الدين ، إلى ابن الأثير عن أزمة المعركة ففيه نبض الحياة ولكنه شديد الاقتضاب.

ويعتبر تاريخ هرقل Estoire d'Eracles المصدر الوحيد الذي أوضح أن جرى عقد مجلسين منفصلين قبل المعركة ، أحدهما في عكا وربما يوم أول يولية ، والثاني في صفورية مساء اليوم الثاني من يولية. وتحدث ريموند امير طرابلس في المناسبتين ، ولا شك أن الحديثين المذكورين في تاريخ هرقل يعكسان جوهر كلماته التي قالها فعلا . غير أنه لا بد وأن أخطأ تاريخ هرقل في قوله مجلس عكا عقد بعد أن أرسلت كوتيسة طرابلس لتعلن استيلاء صلاح الدين على مدينة طبرية ، إذ أن صلاح الدين دخل طبرية

صباح الثاني من يولية ؛ ولا يذكر ريموند طبرية فى حديثه فى عكا ، وإنما نصح فقط باتباع استراتيجية دفاعية . أما إيرنول ، وكما نشر تاريخه برنارد الخازن ، يتجاهل المجلس الأول . وربما اعتبر برنارد أن ريموند تحدث مرتين فى نفس المناسبة . كما أن تاريخ De Expugnacione لا يذكر سوى المجلس الثاني . وخطبة ريموند الثانية معروفة لدى ابن الأثير الذى يكاد يسجلها بنفس الكلمات الواردة فى تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول وتاريخ De Expugnacione ولذا تكون نصيحة ريموند يقينية رغم أن عماد الدين يعتقد أنه كان يثبث على الهجوم ، أما المؤرخون المتأخرون ، من بين حاشية ريتشارد قلب الأسد ، المنحازون إلى جانب جوى (أوف لوسينان) فقد اتهموا ريموند بالخيانة . ويفترض Ambroise و Itinerarium Reicardi Regis كلاهما أن ريموند استدرج الجيش لوجود اتفاق بينه وبين صلاح الدين ، وترد نفس التهمة فى رسالة من أهل جنوا إلى البابا ، وفيما بعد أوردها ابن العرى السرياني .

ويقول عماد الدين إن كونتيسة طرابلس أبقت أولادها معها فى طبرية . ولكن إيرنول يقول إن ريموند هرب من المعركة ومعه أبناء زوجته الأربعة ، وثابت فى رسالة (المواطن الجنوبي) تلهفهم على انقاذ أمهم فى المجلس قبل المعركة .

وقرر الملك جوى التحرك من صفورية بناء على طلب جيرارد سيد فرسان المعبد . وذلك مذكور بوضوح فى تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول ، لكن مؤلف De Expugnacione ، الذى لم يكن يرغب أبدا لسبب أو لآخر توجيه اللوم إلى فرسان المعبد ، ألقى على ذلك الطلب من جيرارد التمويه والغموض ، ذلك إذا حكمنا مما يبدو عليه أحيانا من تحفظات . ولأن ريموند هو سيد المنطقة ، فقد طلبت نصيحته فيما يتصل بالطريق الذى يتبع ، فاختار الطريق الذى يخترق حطين . وكانت نصيحته تلك ، التى سببت الكارثة ، هى الذريعة التى اتخذها أعداؤه لاتهامه بالخيانة . ونخبرنا رسالة الجنوبي والرسالة المتداولة بين فرسان المستشفى عن المعركة ، بوجود ستة من الخونة ، من الواضح أنهم من فرسان ريموند - يدعى أحدهم لاوديسيوس أو ليوسيوس الطبرى Laodiceus or Leucius of Tiberias وهم الذين أخبروا صلاح الدين بحالة الجيش المسيحى . ومن المحتمل ، فى اعتقادى ، أن خيانتهم حدثت فى هذا المنعطف ، وأنها تكمن فى اختطاف صلاح الدين بالطريق الذى اختاره المسيحيون . ومن الصعب أن نفهم ماهى المعلومات المفيدة التى يعطونها له بعد ذلك . ويلقى كل من تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول باللائمة على ريموند لاختياره مكان المعسكر أمام حطين ؛ إذ كان يظن بوجود مياه هناك ، لكن نبع الماء كان جافا . ويروى صاحب تاريخ De Expugnacione قصة

أكثر اكتمالا؛ فيقول إن ريموند ، الذى كان فى المقدمة ، أوصى بسرعة المسير إلى البحيرة ، لكن فرسان المعبد فى المؤخرة لم يقدرُوا على المضى أكثر من ذلك . وقد ارتاع ريموند من قرار الملك بضرب المعسكر وصرخ " لقد ضعننا " ؛ على أنه طالما اتخذ القرار ، فيفترض انه اختار موضع المعسكر ترتيبا على الاعتقاد الخاطئ بوجود مياه فيه . ويذكر عماد الدين ما أبداه صلاح الدين من اغتباط بتحركات الجيش المسيحى .

والموقع الفعلى للمعسكر ليس يقينا . إذ أن تاريخ De Expugnacion ، وتاريخ حملة ريتشارد Itinerarium ، وتاريخ Ambroise ، يطلقون عليه قرية ماريسكالكا أو ماريسكاليا - Marescalcia or Marescallia وربما يكون الاسم هو خان المسكين المعروف الآن ؟ - بينما يطلق عليه عماد الدين قرية لوبية ، الواقعة على الطريق الحالى على مسافة ميلين جنوب غرب قرنى حطين . ويطلق المؤرخون العرب على المعركة معركة حَظَيْن (أو حِطَيْن) ويوضحون بجلاء أن المشاهد النهائية قد تمت فوق قرنى حطين . وتطلق حوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte على المعركة قرنتين Karneatin أى - Qarnei Hattin (قرنى حطين)^(١) . ويقول إيرنول إن المعركة حوربت على مسافة فرسخين من طبرية . والقرنان فى الواقع على مسافة خمسة أميال من طبرية فى خط مستقيم ، وحوالى تسعة أميال على الطريق .

ويقول عماد الدين إن رماة العرب بدأوا يطلقون سهامهم على المسيحيين أثناء سيرهم ، ويعقد القصة بقوله أن ذلك كان يوم الخميس لأنه أراد أن تنشب المعركة فى يوم جمعة . ويشير إيرنول وتاريخ هرقل إلى خسائر فادحة تكبدها المسيحيون أثناء سيرهم . وليس أكيدا الوقت الذى أشعلت فيه النيران . ويقول ابن الأثير ضمنا إن النيران بدأت مصادفة على يد متطوع من المسلمين ، ويوضح بجلاء هو وعماد الدين أن النيران كانت متأججة عندما بدأت المعركة صباح يوم ٤ يوليو . ويرسم عماد الدين صورة حية للصراعات والتلاوات فى معسكر العرب خلال الليل .

واستنادا إلى ابن الأثير ، حاولت قوات مشاة الفرنج صبيحة يوم المعركة الاندفاع نحو المياه . ويقول عماد الدين إنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو المياه بسبب النيران . ويقول تاريخ De Expugnacion إن أفراد قوات المشاة هربوا فى الحال وهم فى جمع واحد اعلى التل بعيدا عن الفرسان ورفضوا تنفيذ أوامر الملك بالعودة قائلين إنهم يموتون عطشا ، وقد قتلوا عن آخرهم هناك . ومن الناحية الأخرى يقول إيرنول إنهم

(١) Qarnei هو مثنى Qarn أى Horn - قرن .

استسلموا ، رغم ذهاب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين يتسلون إليه أن يجهز عليهم جميعا . وربما اعتبر تصرفهم هذا خيانة أشار إليها فرسان المستشفى (انظر اعلاه) رغم أن إيرنول ، كما قال حرفيا ، يقول إنها ربما كانت ايضا استعطافا لموت سريع من اجل الرحمة . أما بهاء الدين فلا يذكر سوى أن جيش المسيحيين انفصل إلى جزأين ، أحدهما - ويفترض المشاة - أحاطت به النيران فماتوا جميعا ، بينما وقع في الأسر الجزء الآخر أى المؤلف من الفرسان المحيطين بالملك . وتقول كافة المصادر الإسلامية إنه قبل بدء الهجوم على فرسان الفرنج كان هناك نزاع بين مملوك وفارس مسيحي قتل فيه الأول الذى ظنه المسيحيون خطأ أنه ابن السلطان.

واستنادا إلى إيرنول ، فإن الملك عندما شاهد قتل المشاة طلب من ريموند شن هجوم على العرب . وريموند هو الشخص المناسب لشن هذا الهجوم باعتباره سيد المنطقة ، وهو هجوم الفرصة الوحيدة لكى يتخلص الجيش نفسه . ولذلك لا يبدو أن هناك أساسا لاتهام ريموند بالخيانة من قبل الكتاب المسيحيين ، والجنوي ، وأصدقاء الملك ، ولا لاتهامه بالجن من قبل المسلمين . على أن المناورة الذكية التى نفذها تقي الدين بفتح صفوفه لكى يمر ريموند ، يبدو انها تؤيد الاتهامات الأولى رغم أن عماد الدين يقول إن رجال ريموند تكبدوا خسائر فادحة . ويقول إيرنول إن ريموند لم يهرب من ميدان القتال إلا عندما رأى أن وضع الملك ميثوسا منه وليست هناك أية فرصة لإنقاذه . ويقول تاريخ De Expugnacione إن باليان وريثال امير صيدا قد هربا مع ريموند دون ذكر تفاصيل كما فعل عماد الدين. غير أن إيرنول يقول ضمنا إنهما هربا كل على حده ، وهو الأمر الأكثر احتمالا لأنهما كانا فى مكانين مختلفين فى الجيش. ولا بد أنهما قد شقا طريقهما مع القليل من فرسان المعبد الذين يذكر تيرنس Terence هروبهم . وأما الرواية المفصلة عن الحركة الواردة فى تاريخ De Expugnacione فتتوقف عند فرار ريموند . وربما كان المؤرخ قد حصل على معلوماته من أحد رجال ريموند.

ويقول عماد الدين إنه بعد فرار ريموند بدأ الملك وفرسانه الانسحاب صعودا أعلى تل حطين تاركين جيادهم (التي يفترض انها كانت جريحة ولا فائدة منها على التل) . كما يلاحظ عماد الدين كم كان الفرسان المسيحيون يفتقرون إلى القوة فى غيبة جيادهم . ويقول ابن الأثير إنهم حاولوا نصب خيامهم على القمة ولكن الوقت لم يساعدهم إلا فى نصب خيمة الملك . وكان الفرسان مترجلين ومنهكين عندما أسروا . ويقول كلاهما إن تقي الدين استولى على الصليب . وتروى رواية الأفضل للحظات الأخيرة للجيش المسيحي ؛ بينما يفصل ابن القادسي أن ريحا شديدة هبت فى منتصف

النهار عندما شن المسلمون هجمهم الأخير.

وتكاد الاحداث التي حدثت في خيمة صلاح الدين بعد المعركة أن ترد بنفس الأسلوب لدى إيرنول وتاريخ هرقل وعماد الدين وابن الأثير . وليست هناك ضرورة للارتياح في قصة الشراب الذي أعطى للملك جوى ، ولا في مقتل رينالد (أوف شاتيلون) على يد صلاح الدين نفسه.

ويرد في تاريخ *Historia Regni Hierosolymitani* أن قوام الجيش المسيحي كان ألف فارس من فرسان المملكة و ألف ومائتي فارس آخرين دفع نفقاتهم الملك هنرى الثانى ، و٤ آلاف من أنصاف الأتراك ، و٣٢ ألف من المشاة ، منهم ٧ آلاف دفع هنرى نفقاتهم . ومن الواضح أن هذا العدد مبالغ فيه . ويتحدث تاريخ حملة ريتشارد *Itinerarium* عن عدد اجمالى قدر ٢٠ ألف جندى ، وهو عدد لا يزال يحتمل أن يكون مرتفعا بصورة فائقة . وربما كان العدد الحقيقى للفرسان هو ألف فارس ، إلى جانب ٢٠٠ آخرين جهّزهم هنرى ، فيكون المجموع ١٢٠٠ فارس . وفى إحدى مخطوطات تاريخ هرقل يرد عدد الجيش كله على أنه ٩ آلاف جندى ، وفى مخطوطة اخرى ٤٠ ألف جندى . وتحدث رسالة فرسان المستشفى عن سقوط ألف فارس فى المعركة بين قتيل وجريح ، وفرار ٢٠٠ فارس . ويقول إيرنول إن ريموند امير انطاكية أحضر ٥٠ أو ٦٠ فارسا (مختلف قراءات المخطوطات). ويقول Terence إن ٢٦٠ فارسا من فرسان المستشفى قتلوا فى المعركة ويكاد أن لم يهرب احد - وهو يقول "nos" اننى قد تعنى نفسه فقط . ويرد فى رسالة فرسان المستشفى أن الذين بقوا على قيد الحياة ٢٠٠ فقط . وليس من الممكن أن يزيد عدد المشاة على عدد الفرسان بنسبة تصل إلى عشرة إلى واحد ، وربما كان عددهم يقل كثيرا عن ١٠ آلاف جندى . وربما كان عدد خيالة أنصاف الأتراك الخفيفة ٤ آلاف خيال ، على أنه لا يبدو أنهم لعبوا دورا خاصا فى المعركة وربما كانوا أقل من ذلك . وقد يكون جيش صلاح الدين اكبر بصورة طفيفة ، ولكن ليست هناك أرقام يعتد بها . أما ما أورده عماد الدين من أن العدد كان ١٢ ألف خيال وأعداد غفيرة من المتطوعين ، فهو يقينا مبالغ فيه ، رغم أنه ليس بنفس المبالغة التى أورد بها عدد الجيش المسيحي وهو آلاف جندى . (ومع ذلك يعضى بهاء الدين أبعد من ذلك قائلا إن ٣٠ ألف قتلوا و ٣٠ ألف أسروا). وقد يجوز لنا أن نفترض أن مجموع جيش صلاح الدين النظامى بلغ حوالى ١٢ ألف جندى ، وتضخم بالمطوعين والفصائل الآتية من الحلفاء ليصل إلى ١٨ ألف تقريبا . ويبدو أن الجيشين كانا من أضخم الجيوش التى القى بها فى ساحة القتال حتى آنذاك سواء من

جانب المسيحيين أو من جانب أعدائهم ؛ على أنه ينبغي اعتبار أن ١٥ ألف جندي في الجانب المسيحي و ١٨ ألف جندي في الجانب الإسلامي ، على أنها الأعداد القصوى. وكان فرسان المسيحيين أفضل تسليحا من الجنود المسلمين أيما كانوا ، غير أن الخيالة الخفيفة الإسلامية ربما كانت أفضل تسليحا من أنصاف الأتراك والمشاة أيضا ، أو أفضل من المسيحيين.

ملاحظات

أهم مصادر المعركة هي كما يلي:

الفرنجية

Ernoul, pp. 155-74; Estoire d'Eracles, ii, pp. 46-49; De Expugnatione, pp. 218-28; Itinerarium Regis Ricardi, pp. 12-17; Benedict of Peterborough, ii, pp. 10-14, ويوجد بنيديكت رسالة أبناء جنوا إلى البابا ورسالة Terence المبعدي؛ Ambroise, ed. Paris, cols. 67-70; Ansbert, Gesta Frederici, containing letter of the Hospitallers to Archimbold; Historia Regni Hierosolymitani, pp. 52-3; Annales de la Terre Sainte, p. 218.

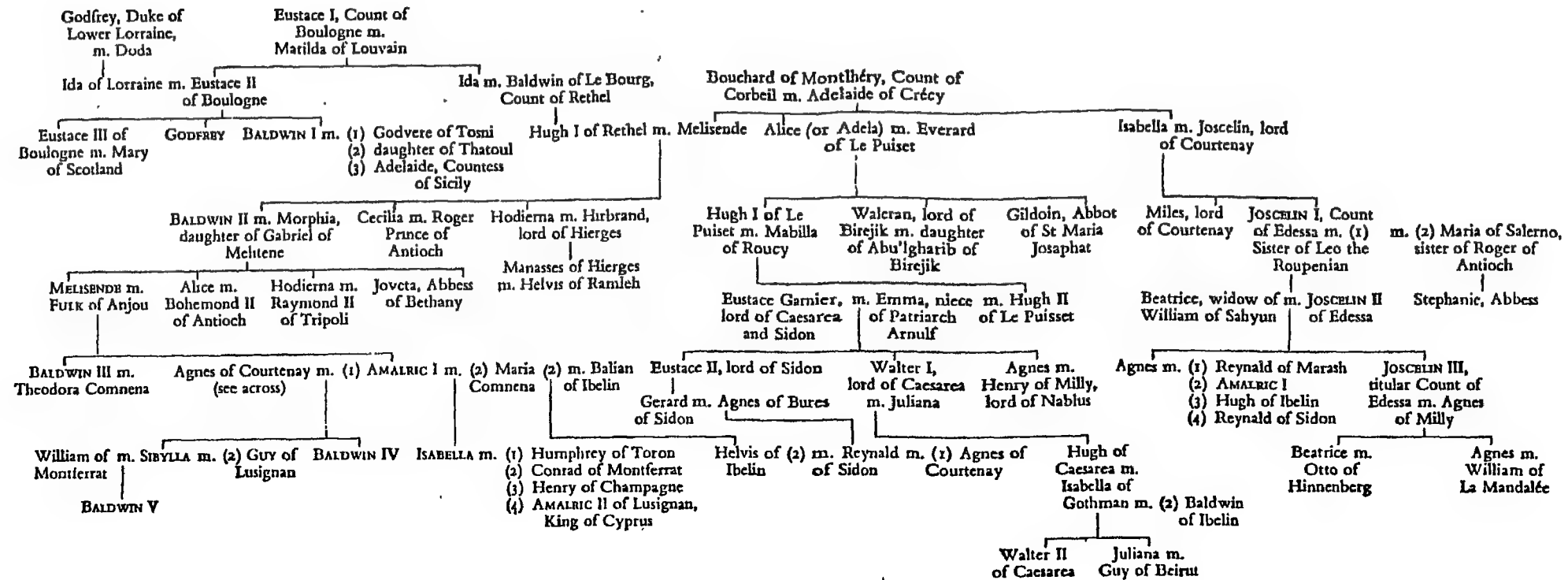
العربية

Ibn al-Athir, pp. 679-88 ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 110-16 ، بما في ذلك وصف الأفضل للمعركة ؛ Abu Shama, pp. 262-89 مشتملا على رواية عماد الدين الكاملة عن المعركة واقتباسات من بهاء الدين ومحمد بن القادسي.

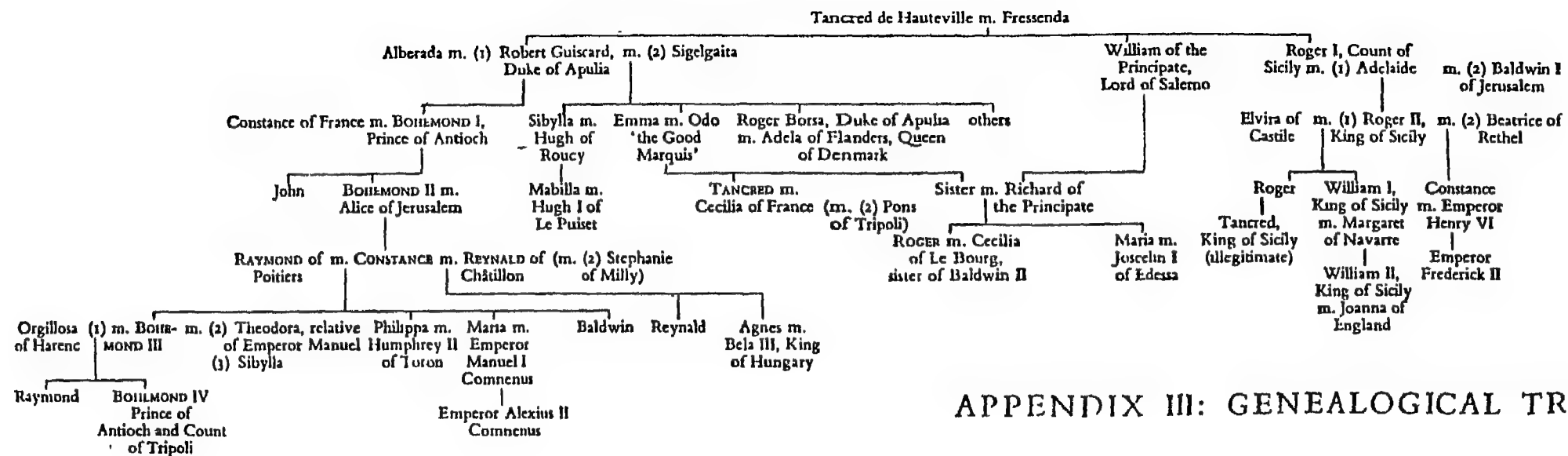
ويرد في تاريخ ميخائيل السوري (iii, p. 404) وصف مقتضب للمعركة ، كما يرد وصف أطول وغير دقيق في ترجمة ابن العبري Bar-Hebraeus Budge, pp. 322-4 ، يخلط فيه الملكة ايزابيلا بالكونتييسة إيشيفا كونتييسة طرابلس . ويرد وصف غير دقيق في النسخة الأرمنية لميخائيل السوري (pp. 396-8) و (pp. 420-1) Kirakos of Gantzag والروايات السيربانية والأرمنية كلها تصف ريموند على أنه خائن. وتوجد مناقشة قيمة للمصادر ودور ريموند في. Baldwin, Raymond III of Tripolis, pp. 151-60.

المرفق الثالث شجرات الأنساب

1. ROYAL HOUSE OF JERUSALEM: COUNTS OF EDESSA: LORDS OF SIDON AND CAESAREA



2. PRINCES OF ANTIOCH AND KINGS OF SICILY



APPENDIX III: GENEALOGICAL TREES

BIBLIOGRAPHY

[NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliography in vol. I of this *History*, and does not include works already mentioned there. The same abbreviations are employed.]

I. ORIGINAL SOURCES

1. COLLECTIONS OF SOURCES

- BORGIO, F. DAL. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.
 DEMETRACOPOULOS, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.
Formanna Sögur, 12 vols. Copenhagen, 1825-37.
 HALPHEN, L. and POUPARDIN, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.
Liber Jurum Reipublicae Genuensis (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854-7.
 MARCHEGAY, P. and MABILLÉ, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.
 MURATORI, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738-42.
Recueil des Historiens des Croisades, Lois, 2 vols. Paris 1841-3, including the *Assises and Lignages of Jerusalem (R.H.C. Lois)*.
 REINAUD, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, vol. II. Paris, 1829.
 TAFEL, G. L. F. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur ältern Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856-7.

2. LATIN AND OLD FRENCH SOURCES

- Ambroise. *L'Etoile de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.
Annales Barenses, in *M.G.H.Ss.* vol. V.
Annales Beneventani, in *M.G.H.Ss.* vol. III.
Annales Heribolenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Annales Palidenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Annales Romani, in *M.G.H.Ss.* vol. V.
Annales S. Rudberti Salisburgensis, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.
Annales de Terre Sainte (ed. Röhrich), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.
 Ansberr. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1892.
 Arnold of Lübeck. *Chronica Slavorum*, *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1868.
 Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., *Rolls Series*. London, 1867.
 Bernard, St. Abbot of Clairvaux. *Epistolae*, *M.P.L.*, vol. CLXXXII.
 Burchard of Mount Zion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII. London, 1896.

- Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.
- Cartulaire de Notre Dame de Chartres* (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852-5.
- Cartulaire de Sainte Marie Josaphat* (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.
- Cartulaire du Saint Sépulcre* (ed. Rozière). Paris, 1849.
- Cartulaire Général de l'Ordre des Hospitaliers* (ed. Delaville Le Roulx), 4 vols. Paris, 1894-1904.
- Cartulaire Général de l'Ordre du Temple* (ed. D'Albon). Paris, 1913.
- Chronicon Mauriniacense*, in *R.H.F.* vol. XII.
- Chronicon Sancti Maxentii*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Chronicon Vindocinense*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.
- De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus* (ed. Stubbs), *Rolls Series*. London, 1875.
- Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.
- Estoire d'Eracles*, *R.H.C.Occ.* vols. I and II.
- Eudes, see Odo.
- Gesta Ambaziencium Dominorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gesta Consulium Andegavorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gestes des Chiprois*, *R.H.C.Arm.* vol. II.
- Historia Ducum Veneticorum*, in *M.G.H.Ss.* vol. XIV.
- Historia Regni Hierosolymitani*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
- Historia Regum Hierusalem Latinorum*, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.
- Historia Welforum Weingartensis*, in *M.G.H.Ss.* vol. XXI.
- Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
- Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi* (ed. Stubbs), *Rolls Series*. London, 1864.
- John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.
- John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. V. London, 1896.
- Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.
- Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
- Lignages d'Outremer*, in *R.H.C. Lois*, vol. II.
- Louis VII, King of France, letters, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
- Miracula Sancti Leonardi*, *Aa. Ss.* (Nov.), vol. III.

- Necrologia Panormitana* (ed. Winkelmann), in *Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. xviii. Göttingen, 1878.
- Odo (Eudes) of Deuil. *De Professione Ludovici VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.
- Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Paschal II, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. clxiii.
- Passiones Sancti Themonis*, in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.Ss.* vol. vii.
- Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem* (trans. Bishop of Clifton), *P.P.T.S.* vol. iv. London, 1896.
- Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.
- Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.
- Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872-3.
- Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868-71.
- Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.Ss.* vol. xix.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi and Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.
- Vita Alexandri III*, in *Liber Pontificalis*, vol. ii.
- Vita Sancti Bernardi*, in *M.P.L.* vol. clxxxv.
- Walter the Chancellor, *Bella Antiochena* in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Wibald, *Wibaldi Epistolae*, in Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. i.
- William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.
- William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (see above).
- William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. xx.
- William of Tyre. *Die lateinische Fortsetzung (Latin Continuation)* (ed. Salloch). Leipzig, 1934.

3. GREEK SOURCES

- Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. cxxvii.
- Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
- Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. i.

- Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia*, C.S.H.B. Bonn, 1835.
 Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.
 (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi*.)
 Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), P.P.T.S. vol. v. London, 1896.
 Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in M.P.G. vol. cxxxiii and R.H.C.G. vol. II.

4. ARABIC SOURCES^{*}

- Abu Firas. *Noble Word*, ed. in Guyard, 'Un Grand Maître des Assassins' in *Journal Asiatique*, 7me série, vol. IX, Paris, 1877.
 Abu'l Mahâsin. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Abu Shama. *Book of the Two Gardens*. Extracts in R.H.C.Or. vols. IV and V; full edition. Cairo, 1870-1. (Except when otherwise stated references are to the R.H.C. edition.)
 Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXII. Paris, 1940.
 Beha ed-Din ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in P.P.T.S. vol. XIII. London, 1897.
 Bustan al-Djami li Djami Tawarikhi z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. VII and VIII. Damascus, 1938.
 Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.
 Ibn Moyassar. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri* (*History of Musulman Dynasties*); trad. Amar. Paris, 1910.
 Imad ed-Din. *Al Fath al Qussi fi'l Fath al Qudsi* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit*.
 Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. III and VI. Paris, 1895-8.
 Maqrîsi. *History of Egypt* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. VIII-X. Paris, 1900-2.
 Sibî ibn al-Djauzi. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades*. New York, 1929.
 Zettersteen *Chronicle*. Anonymous chronicle (ed. K.V. Zettersteen). Leyden, 1919.

5. ARMENIAN, SYRIAC, GEORGIAN AND HEBREW SOURCES

- Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa*, R.H.C.Arm. vol. I.

^{*} References to Ibn al-Athîr are to his *Sum of World History* (*Kamil at-Tawarikh*), except when otherwise stated.

- Anonymous Syriac Chronicle* (full text, J. Chabot). C.S.C.O. vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.*) References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.
- Georgian Chronicle*, in Brosset, *Histoire de la Géorgie*.
- Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.
- Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablitzky), 2 vols. London, 1835.

6. SLAVONIC AND NORSE SOURCES

- Daniel the Higuene. *Vie et Pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe* (trans. de Khitrowo). *Itinér. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin*. Geneva, 1889.
- 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne, Princesse de Polotsk' (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.
- Agrip of Noregs Konungasögum (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folks Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.
- Sigurdar Saga Jorsalafara ok brædra hans in Fornmanna Sögur*, vol. VII.

II. MODERN WORKS

- ABEL, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933-8.
- ALLEN, W. E. D. *History of the Georgian People*. London, 1932.
- ALMEIDA, F. DE. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922-6.
- ANSELME DE LA VIERGE MARIE (P. DE GUILBOURS). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726-33.
- BALDWIN, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem*. Princeton, 1936.
- BEL, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BERNHARDI, W. VON. *Konrad III*. Leipzig, 1883.
- BROSSET, M. F. *Histoire de la Géorgie*. St Petersburg, 1849.
- BROWNE, E. G. *Literary History of Persia*, 4 vols. London, 1906-30.
- CAHEN, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV. Paris, 1934.
- CAHEN, C. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1951.
- CASPAR, E. 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.
- CATE, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.
- CODERA, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España*. Saragossa, 1899.
- COSACK, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.
- CUISSARD, C. *Les Seigneurs du Puiset*. Orleans, 1881.

- CURZON, H. DE. *La Règle du Temple*. Paris, 1886.
- D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.
- DELAVILLE LE ROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre*. Paris, 1904.
- DELISLE, L. *Mémoire sur les Opérations Financières des Templiers*. Paris, 1889.
- DIB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*.
- DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
- DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. 'Ἱστορία περὶ τῶν ἐν Ἱεροσολύμοις Πατριαρχευόντων'. Bucharest, 1715.
- ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedanke in Portugal', in *Historische Zeitschrift*, vol. CXXI. Munich, 1930.
- GERULLI, E. *Etiopi in Palestina*. Rome, 1943.
- GLEBER, H. *Papst Eugen III*. Jena, 1936.
- GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*. Paris, 1929.
- HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1901.
- HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.
- HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerstaaten*. Zürich, 1915.
- JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria', *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.
- JOBANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion', in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson*. Chicago, 1938.
- KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges*. Stuttgart, 1866.
- LA MONT, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades', in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.
- LA MONT, J. L. 'The Lord of Le Puiset on the Crusades', in *Speculum*, vol. XVII. Cambridge, Mass., 1942.
- LA MONT, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.
- LA MONT, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.
- LANE POOLE, S. *Saladin*. London, 1898.
- LE QUIEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.
- LUCHAIRE, A. *Louis VI le Gros*. Paris, 1890.
- MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

- MARTIN, ABBÉ. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me série), vols. XII and XIII. Paris, 1888-9.
- MELVILLE, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
- MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.
- NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me série), vol. XIV. Paris, 1899.
- NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges*. Heidelberg, 1882.
- RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycaonia' and 'War of Moslem and Christian for the possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*. Aberdeen, 1906.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Giblet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine*. Paris, 1945.
- SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte*. Paris, 1906.
- SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin*. Paris, 1878.
- SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris, 1877.
- SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon*. Paris, 1923.
- SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.
- VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.
- VAILLÉ, S. 'Les Laures de Saint Gerasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.
- VOGUE, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte*. Paris, 1860.
- WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.

تم بحمد الله تعالى

